الدكتور أحمد مطلوب

القزويني وشروح التلخيص

ساعدت جامعة بغداد على نشره

منشورات مكتبة النهضة بغداد



الدكتور أحمد مطلوب

القزويني وشروح التلخيص

ساعدت جامعة بغداد على نشره

منشورات مكتبة النهضة بغداد

الطبعـــة الاولى

١٣٨٧ ـ ١٩٦٧

+ طبع بمطابع دار التضامن ـ بغداد

الإهداء

الى

المؤمنين بالقرآن الكريم وبلاغته ، العاملــين به لاسعاد الأمة واقامة دولة العرب الكبرى .

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزي القاريء :

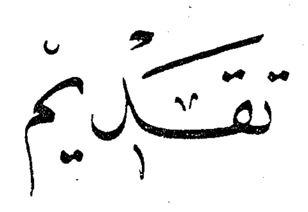
في صبيحـــة يوم الاحـــد ١٤ تمـوز ١٩٦٣ (٢٣ صفر ١٣٨٣ هـ) نوقش هذا البحث في كلية الاداب بجامعـة القاهرة ، ونال درجة الدكتوراه بمرتبة « الشرف الاولى » . وكانت اللجنـة المناقشة برياسة الاستاذة الكبيرة الدكتورة سهير القلماوي « المشرفة » وعضوية الاستاذين الجليلين : الدكتور عبدالحميد يونس ، والدكتور عبدالعزيز الاهواني .

واليوم اقدمه بين يديك ــ عزيزي القاريء ــ كما قدمته الى اللجنة المناقشة قبل عامين ، لاني مؤمن بأن هذا البحث يمثل فترة من حياتي الفكرية . فان وجدت فيه بغيتك ، ووقع من نفسك وقعا حسنا ، فذلك ما أردته وسعيتُ اليه ، وإن عزفت عنه فحسبي الله ونعم الوكيل .

احمـد مطلوب

دكتوراه في الآداب بمرتبة الشرف الاولى
واستاذ مساعد في كلية الآداب
جامعـة بغـداد

بغداد في :
أول آب ١٩٦٥
٤ ربيع الثاني ١٣٨٥



للاستاذة الكبيرة
الدكتورة سـهير القلماوي

كان العرب يجلّون علم البلاغة ، ويضعونه بمنزلة ترقى به فوق سائر العلوم ، لذلك كانوا يؤلفون فيه بدافع لا يتوفر لديهم عندما يؤلفون في العلوم الاخرى .. انهم يرون فيه الوسيلة الجديرة بالانسان الى الايمان السليم ، لانه الوسيلةالتي بها يُدرك مدى الاعجاز ووجوهه في القرآن الكريم . وهذا محمد بن عبدالرحمن جلالالدين القزويني يقول : « فلما كان علم البلاغة وتوابعها من أجَلّ العلومقدراً ، وأدقها سراً إذْ به تعرف دقائق العربية واسرارها ، ويكشف عن وجوهالاعجاز في نظم القرآن استارها .. ألفتمختصراً يتضمَّن مافيه من القواعد..»

ويعلق سعدالدين التفتازاني ــ أحد شراح القزويني ــ على هذا بقوله : « لاشتماله على الدقائق والاسرار الخارجة عن طرق البشر ، وهذا وسيلة الى تصديق النبي (ص) ، وهو وسيلة الى الفوز بجميع السعادات فيكون من أجَلّ العلوم ، لكون معلومه وغايته من أجل المعلومات والغايات .. » .

لذلك كثر التأليف في هذا العلم على مر العصور ، بل كثر التأليف في كل العلوم المتصلة به حتى في العصور التي ضعف فيها الابتكار وقلت الحوافز والدوافع على اضافة الجديد الى العلوم والمعارف .

ويُعَدّ القزويني بما اضاف في هذا الميدان عَلَماً ضخما لاسباب عدة من أهمها : انه كان آخر من اضاف الى هذا العلم ، فظلّ طوال قرون وقرون عمدةَ الدرس البلاغي لابناء اللغة العربية . لقد ظلوا منذ زمانه في القرن الرابع عشر حتى اواخر القرن التاسع عشر يعيدون في تلخيصه وايضاحه شرحا وتلخيصا وتعليقا حتى قيّض الله لنا من بعث الاهتمام بغير القزويني من اعلام البلاغة ، فكان هذا البعث الذي قام به الامام محمد عبده بتدريسه « دلائل الاعجاز »و«أسرار البلاغة» في الازهر الشريف .

هذه هي الخطوة الاولى في سبيل تناول التراث القديم تناولاً جديداً يُفْضي الى احيائه وتمكينه من أداء دوره في الابتكار الجديد والخلق الحديث .

ولم يكن من الممكن ان يعيش كتابا القزويني وقد اعتمدا على القسم الثالث من « المفتاح » للسكاكي دون ان يعيش اصلهما الذي عنه نقلا،الا ان تكون للقزويني اضافاتالى الاصل تبرر هذهالظاهرة. اما القزويني فيقول في هذا : « وكان القسم الثالث من مفتاح العلوم الذي صنفه الفاضل العلامة أبو يعقوب يوسف السكاكي أعظمماصنف فيه من الكتب المشهورة نفعاً لكونه أحسنها ترتيبا ، وأتمها تحريرا ، وأكثرها للاصول جمعا . ولكنه كان غير مصون عن الحشو والتطويل والتعقيد ، قابلا للاختصار ، مفتقراً الى الايضاح والتجريد ، ألفتُ مختصراً يتضمنما فيه من القواعد ، ويشتمل على ما يحتاج اليه من الامثلة والشواهد . ولم آلُ جهداً في تحقيقه وتهذيبه ، ورتبته ترتيبا أقرب تناولا من ترتيبه . ولم أُبالغ في اختصار لفظه تقريبا لتعاطيه، وطلباً لتسهيل فهمه على طالبيه . وأضفت الى ذلك فوائد عثرت فيبعض

كتب القوم عليها ، وزوائد لم اظفر في كلام احد بالتصريح بها ولا الاشارة اليها ، وسميته « تلخيص المفتاح » ، وانا اسأل الله تعالى من فضله ان ينفع به كما نفع باصله ، انه ولي ذلك وهو حسبي ونعم الوكيل » .

هذا هو تقدير الرجل لجهده ، أما تقديرنا نحن لهذا الجهد فيختلف . اننا لا نخدع بتواضع العالم ، وانما لابد من ان ندرس هذا الجهد الذي استطاع ان يحجب الاصل طوال هذه القرون ، والذي استطاع بشكل او بآخر أنْ يكون الجذوة المتقدة تحت الرماد حتى هيأ الله في العصر الحديث من أزاح عنها رمادها لتتوهج من جديد .

إنّ القزويني الذي يصرّ بعض مؤرخيه على ذكر أنه من احفاد أبي دلف العجلي قد أثبت ان ثمالةً من الميراث البعيد قد وصلت اليه. فأبو دلف الذي عاصر الرشيد والمأمون ، كان من الامراء والاجواد،ولي قيادة جيش المأمون ، ولكننا لا نقف من تاريخه هذا على شيء . ان ما يهمنا هو ما شهر به من الأدب والشجاعة التيجعلت الرواة يروون عنه اخباراً كثيرة ، والأهم من هذا اننا نجد قولهم : « إنه كان عالماً لصناعة الغناء يقول الشعر ويلحنه » . فهل ورث القزويني عبر اربعة قرون ونصف قرن هذا الميل الفني عن جده الاعلى ؟ من الصعب ان نتصور ذلك ، ولكن مؤرخي القزويني لسبب او لاخر يصرون على ذكر انه « من احفاد ابي دلف العجلي » احساساً منهم بان ثمة رابطة بين هذا الجد الأعلى وبين صاحبنا . ذلك ان القزويني كما وصفه مؤرخوه « كان حلو العبارة ،أ ديبا ، عارفا بالتركية والفارسية والعربية ، سمحاً ، كثير الفضائل » .

والعمل الذي شغل به في حياته هو القضاء ، وكم من القضاة قد ساهموا في التأليف البلاغي ! انهم بحكم عملهم يدققون في فهم النص ويقارنون ويعرفون كم يتغير المعنى بابدال حرف بحرف او بحذفدون ذكر ، او بتقديم دون تأخير ، او غير ذلك من الحيل البلاغية . أننكر

فضل ابن قتيبة وعلي بن عبدالعزيز الجرجاني وغيرهما ؟ لقد ربطوا صناعه القضاء بصناعة البلاغة ربطاً لائقا بعصرهم ، جديراً بطبيعة عملهم، منبئا عن حقيقة ثقافتهم الواسعة .

وهكذا جمع القزويني بين رهافة الحس والذوق ميراثاً ، وبين ثقافة القضاء وطباع أهله الذين يدرسون بامانة ودقة وعمق حتى لا ينحرفوا او يخطئوا فيما يقضون به بين الناس . وبهذا تصدى للقسم البلاغي من كتاب « المفتاح » عرفانا بقدره ، واتجاها سليما نحو انتفاع الخلف بجهد السلف . وليس من الممكن ان يكون انتاج القزويني مجرد ظل لما قام به السكاكي . ان السكاكي قد كثف المعلومات السابقة كلها ، وضغطها في صورة ميزتها الاولى نظام وجمع لم يعهدا في التأليف البلاغي من قبل . ولكن أيمكن أن تكون صورة القزويني مجرد ما يرى في مرآة وضعت أمام هذه الصورة السكاكية ؟ إن الصورة الجديدة لوحة جديدة ناطقة بلمسات القزويني الحية القوية . وليس ذنب القزويني انها لم تفلح رغم حيويتها وقوتها ان تتغلب على اعاصير العوامل الاخرى التي كتمت دوافع الابداع في هذا العلم الجليل قروناً من بعده .

ان هذه الصورة هي ما حاول الدكتور احمد مطلوب ان يجلوها لنا بكتابه هذا . فاذا كان بعث الدراسات البلاغية كلها واجباً فان بعث هذه المرحلة التي عندها توقف الخلق والابتكار أولى وأهم ، لأنها المرحلة التي منها نمسك الخيط القديم لنسير به نحو الجديد . ولابد لنا من استعراض القديم كله واتقانه ليتسنى لنا ان نضغط على المرحلة الاخيرة تلك . وهذا ما أعد به نفسه الدكتور احمد مطلوب . لقد درس السكاكي دراسة مستفيضة ثم ثنى بالقزويني بهذه الدراسة، ولكنه في كل هذا نراه يقيم دراسته على اساس واضح دقيق من معرفة بكتب البلاغة وأعلامها منذ نشأتها حتى عصورها الراكدة ، بل انه يتتبع في حيدة علمية وشمول واسع الجهود الحديثة ليضع جهده في

مكانه بين هذه الجهود ، حرصا منه على ان يكون الجهد علميا منظما من جهة ، وجماعيا ثريًّا من جهة اخرى .

إنَّ بعث الدراسة البلاغية ووصلها بالنقد الاوربي في صورته الاصلية ، قبل صورته المشوهة التي نقل بها الينا اوائل هذا القرن ، فرْضٌ على كل مهتم بالادب ذلك ان تنفأ من هنا وهناك وكيفما اتفق من النقد الاوربي قد هرعت على يد بعض كتابنا لتملأ الفراغ المتخلف من طول انقطاع الصلة السليمة بالقديم ، ومن الفزع الى الغربي الجديد بكل مافيه من اغراء الحيوية والتعبير عن واقع حيّ .

إنَّ الفجوة التي بين ما يجب ان يحيا من قديمنا وبين الحديث الذي استوردناه واصبح جزءً من نقدنا يؤثر في شعرنا قليلا وفي نثرنا روايةً وقصةً ومسرحيةً كثيراً لا بد من ان تملأ بخيوط واصلة ، وأواصر متينة تربط هذا الى ذاك وتؤثر آثارها السليمة في انتاجنا الفني الحديث .ان هذا الملء او الربط هو السبيل الى الارتفاع بملكة التذوق العربية بحيث تكون قادرة على توجيه كل انتاج فني جديد ليكون عربيا اصيلاً قبل أنْ يكون عالمياً ، بل لكي يكون عالميا .

ولقد قام الدكتور احمد مطلوب تدريساً وتأليفا ونَشْراً للتراث البلاغي القديم بعمل ضخم عظيم في هذا الميدان . لقد قام في جَلد المؤمن ، ودقةِ العالم المتخصص ، وعمق ادراك العربي الاصيل بهذا العمل تحدوه فيه أشرف الغايات وأنبل المقاصد . وكان له من ملكاته سلامة نظر ، وصحة حكم ، ورهافة حسّ ما جعله يستطيع ان يقدّم هذا الكثير الذي جمعه ، وبوّبه ، ودرسه ، وربطه بالحديث لينتفع به الناس دارسين ومؤلفين .

ولقد تقدم الدكتور احمد مطلوب بهذا الكتاب في شكل رسالة لنيل درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة قسم اللغة العربية وتألفت لجنة من الزميلين الاستاذ الدكتور عبدالحميد يونس ، والاستاذ الدكتور عبدالعزيز الاهواني ومنّي ، لامتحانه . ولا زلت اذكر يوم امتحان

الطالب وجلستنا بعد المناقشة لنتداول في الدرجة التي نقدرها له على رسالته ومناقشته معاً • لقد اتفقنا في الدقائق الاولى على ان التقـدير «ممتاز» ، ثم اخذنا في الحديث عن شخصية الطالب ومقدار ما يستطيع ان ينفع به طلابه في جامعة بغداد ، وقومه من الدارسين العرب في هذا الميدان • لقد افضنا في الحديث عنه مدحاً واملاءً حتى كدنا ننسى ان طالبنا ومن حضروا المناقشة العلنية ينتظرون اعلان النتيجة عليهم •

ان جزءً من املنا في الدكتور احمد مطلوب قد تحقق ، ولكنْ آفاقَ آمال الاساتذة في طالبهم وزميلهم الان لا تحدها حدود • وما زالت أمام الاستاذ الشاب احمد مطلوب آمال وآمال معقودة عليه، ذلك انه اهل لتحقيق أوسع الامال وأعرضها بعون الله •

الدكتـــورة

سهير القلماوي

القاهرة في ١٩٦٥/١٠/٢٠

المقدّمة

١

أخذت البلاغة تحظى باهتمام كبير في الدراسات الجامعية الحديثة، وكان للجامعات العربية أثر في ازدهار الحياة العلمية والادبية ، وقد تفجرت فيها طاقات جيلنا ، وأخرجت رجالا كان لهم فضل التوجيه وانارة السبيل . وكان ايمان هذا الجيل عظيما في بعث حركة فكرية ، فيها أصالة التراث الاسلامي العربي ، ومنهج الدراسات الحديثة التي تعتمد أولَ ما تعتمد على المنهج السليم ، والرصد العلمي القائم على التجربة الدقيقة والخبرة العميقة .

وأيقن هذا الجيل أنْ لا حياة للادب ولا ازدهارَ ما لَمْ يعد النظر في المقاييس النقدية والبلاغية ، فعكف المتخصصون يحيون ما اندرس من قديم مشرق وضّاء ، ويقتبسون ما اوحته الحياة الجديدة . واستطاع المتطلعون الى حياة نقدية فضلى أن يخرجوا كتبا ترسم الطريق للدراسات البلاغية النقدية . ولكنّ معظم الدراسات الجامعية التي ظهرت لم تنطلق الى آفاق ارحب ، ومجالات اوسع ، فقد عكف الدارسون على بعض اتجاهات البلاغة يبحثونها ويقربونها للناس ، فكانت بحوث عن الجاحظ ، وابن المعتز ، وقدامة ابن جعفر ، وأبي هلال العسكري ، وابن الاثير ، وابن أبي الاصبع

المصري ، وغيرهم من أعلام المدرسة الادبية • وبقي التيار الآخر أي : بلاغة الفلاسفة وأهل الكلام ينتظر من يقوم بدراسته وعَرْضِه سهلا ميسرا • ولم تظهر فيه ــ حتى الان ــ الا دراسات قليلة عن عبدالقاهر الجرجاني والزمخشري •

وعندما قدّرَ لنا أن نخوض غمار الدراسات البلاغية أجلنا الطرف فوجدنا كثيرا من الدراسات في بلاغة العرب ، ولم نجد الا بحوثا قليلة في بلاغة الفلاسفة وأهل الكلام ، فازداد إيماننا بأنْ لا نهوض للبلاغة والنقد ما لم تدرس جوانبها كلها ، وتمحص اتجاهاتها ومذاهبها المختلفة ، وان المجدد لن يقدر أن يثبِّت أقدامه في خضم الحياة الادبية ما لم يقتل القديم درسا وبحثا ، وينفذ الى أعماق الدراسات كلها • ومن هنا رأينا ان نبدأ بشيخ المدرسةالكلامية السكاكي (٦٢٦هـ)[١] الذي عاش في بيئة خوارزم الأعجمية ، وهي بيئة كان للاعتزال فيها حلقات وحركة واسعة المدى بدأت قبله بسنوات فكان الزمخشري والرازي ممن طبعوا كتبهم بآراء المعتزلة •

واستطاع السكاكي ان يوجه البلاغة العربية توجيها جديدا فيه حصر لموضوعاتها وتحديد لمصطلحاتها • وانقسمت على يديه الى علمين متميزين هما : علم المعاني ، وعلم البيان ، والى تابع لهما هو المحسنات اللفظية والمعنوية التي اطْلِقَ عليها فيما بعد اسم البديع •

وقد انتهينا في هذا البحث الى :

(١) ان البلاغة العربية لم تُقَسَّم الى معانٍ وبيان ومحسنات قبل السكاكي ، وأنه اول من قام بهذا العمل ، وقسمها الى فنونها الثلاثة •

---

(١) البلاغة عند السكاكي بحث نال به المؤلف الماجستير بدرجة جيد جدا من كلية الاداب بجامعة القاهرة في أول شباط ١٩٦١ م ، وطبع في بغداد لاول مرة سنة ١٣٨٤ هـ ــ ١٩٦٤ م •

(٢) ان السكاكي أول من اطلق اسم علم المعاني على البحوث التي سماها عبدالقاهر معاني النحو أو النظم ، وانه أول من سَمَّى التشبيه والمجاز بأنواعه والكناية بيانا ، وانه أول من اطلق على غير هذين العلمين اسم المحسنات او الوجوه التي يؤتى بها لتزيين الكلام ، وقسمها الى محسنات معنوية ولفظية .

اما مصطلح البديع فلم يطلقه السكاكي على القسم الثالث من البلاغة، وكان اول من أطلقه عليها « بدرالدين بن مالك » في كتابه «المصباح» الذي كان تلخيصا للقسم الثالث من «مفتاح العلوم» .

(٣) ان السكاكي أول من استفاد من ركني الجملة ـ المسند والمسند اليه ـ في بحث موضوعات المعاني، وبذلك مَزّق أوصالها، وأحالها حطاما بتقريراته وتحديداته . واستفاد فائدة عظيمة من بحوث الدلالات العقلية والوضعية ، ومقاييس الفلسفة والمنطق ، وأدخلها في بحث البلاغة ، فضيّقَ الخناق عليها .

(٤) ان بلاغة السكاكي امتداد لبلاغة عبدالقاهر ، وبذلك يمكن القول بأن مدرسته ابتدأت بعبدالقاهر ، ثم فخرالدين الرازي ، وبلغت ذروتها على يدي السكاكي ، ولم تَخْطُ خطوات محمودة الا ما كان من قبسات ارسلها ابن قيم الجوزية في « الفوائد » ، والعلوي في « الطراز » . ولكن صوتهما ما عتم ان أصابه الخفوت ، وسيطرت على مناهج درس البلاغة مدرسة السكاكي وأتباعه من شرّاح وملخصين .

(٥) ان هذه البلاغة التي تركها السكاكي لا تفيد كثيرا في دراسة البلاغة الحديثة ، ومن هنا دعونا الى تغيير بحثها ، واخراج الغريب منها ، وقد وضعنا لذلك منهجا جديدا فيه من القديم اصالته ، ومن الحديث طرق بحثه ومناهج درسه .

وبعد ان انتهينا من البحث في بلاغة السكاكي شعرنا ان مدرسته بحاجة الى مزيد من الدرس والتحقيق بعد ان انتقلت من خوارزم الى

مصر والشام ، فقررنا ان نطوي المسافات طياً ، ونتابع الزمن حتى نقف على آثار مدرسته البلاغية في بيئة العرب . وهذا ما قدر لنا بعد ان رأى اساتذتنا ان نكمل البحث الذي بدأناه في مرحلة الماجستير ، ونتابع المدرسة الكلامية في بيئة مصر والشام ، فاخترنا « القزويني وشروح التلخيص » موضوعا للبحث نتقدم به للحصول على درجة الدكتوراه من كلية الآداب بجامعة القاهرة .

ويمكن تلخيص الأسباب التي دفعتنا الى اختيار هذا الموضوع بما يأتي :

١ـ انتا بحثنا في مرحلة الماجستير مدرسة البلاغة الكلامية المتمثلة بالسكاكي في بيئة خوارزم ،وكان علينا أن نتابعها في بيئتها الجديدة لنرى خصائصها واتجاهاتها .

٢ـ ان الخطيب القزويني يعتبر الحلقة الاخيرة من مدرسة السكاكي، ولكي نعطي صورة واضحة عن هذه المدرسة ينبغي أن ندرس بلاغته وجهوده فيها .

٣ـ ان البلاغة العربية وقفت عند القزويني ، وكان لابد ان نقف عندها لنأخذ منها ما ينفعنا في بلاغتنا الجديدة ، ونترك كل غريب أقحم فيها اقحاما ، ولنرسم طريقنا على تراث قديم له اصالته ، وعلى طريف له أهميته وقيمته في الدراسات الحديثة . ولكي نحقق هذا الغرض لابد من الوقوف عند البلاغة العربية في صورتها الاخيرة التي رسمها القزويني وشُرّاحُ تلخيصه .

هذه الأسباب مجتمعة مع رغبة اساتذتنا في قسم اللغة العربية بآداب القاهرة دفعتنا الى اختيار هذا الموضوع لعلنا نستطيع ان نرفع عن هذه البلاغة ما اصابها من حيف ، ونزل بها من ضيم أخرجها عن هدفها الذي درست من أجله .

وسرنا في الطريق الطويل نتعثر حينا ويلوح لنا بصيص من الأمل أحيانا ، حتى قدر لنا أن نَخْرُجَ أخيرا بهذا البحث الذي نرجو أن ينال رضا الدارسين .

٢

ويقع البحث في تمهيد وثلاثة أبواب ، وقد تكلمنا في التمهيدعلى « البلاغة العربية قبل القزويني » ، وتابعناها منـــذ نشأتها الاولى وانقسامها الى مدرستين ، ووقفنا طويلا عند البلاغة في القرن السادس وما بعده ، لأن اتجاهاتها تميزت في هذه الفترة ، واختلفت منـــاهج درسها ، فكان للمشارقة اتجاه خاص يهتم بالتحديد والتقسيم ، وكـــان للمغاربة اتجاه آخر فيه جنوح الى بلاغة ارسطو . وطال وقوفنا عنـــد اتجاه مصر والشام ، لأن القزويني عاش في هـــذه البيئة واضطرب في ارجائها ، ومن هنا كان لا بد من التعمق في البحث لنرى جذور هـــذه المدرسة ، وقد اتضح ان ابن سنان الخفاجي كان رأس هذا الاتجـــاه وأول بلاغي ناقد ، له منهج أصيل في هذه البيئة العربية . وتابعنا هذا الاتجاه وتكلمنا على اسامه بن منقذ ، وابن شيت القرشي ، وضياءالدين ابن الاثير ، وابن الزملكاني ، وابن ابي الاصبع المصري . وعرجنا بعد هذا على خصائص مدرسة مصر والشام البلاغية ، ووضّحنا معالمها ، وانتهينا الى ان البلاغة في هذه البيئة أخذت طابعا خاصا ، ولـــكنها لم تَبْقَ على حالتها هذه اذ دخل « مفتاح العلوم » هذه الديار ، واختصره بدرالدين بن مالك ، وبذلك امتزجت بلاغة المشرق ببلاغـــة العرب ، وكوّنت اتجاها جديدا يبدو في كتب الخطيب القزويني وبهـــاءالدين السبكي وشرّاح التلخيص الاخرين .

وكان الباب الاول في :

القـزويني وآثـــاره

وهو ثلاثة فصول :

الاول : في « الخطيب القزويني » ، وقد عرضنا فيه لاســرته ، وسيرته ، واساتيذه ، وثقافته ، ومناصبه واولاده • واستطعنا في هذا الفصل ان نجلو الغبار عن حياة هذا الرجل الفذ بعد أن طمستها الايام• وقد نقَّرنا طويلا عن أخباره في كتب التاريخ واســـتطعنا على ضوء المعلومات القليلة ، والعبارات المتناثرة هنا وهناك أن نرسم صورة لحياة القزويني إنْ لم تكن كاملة واضحة فهي أقرب الى حياة الرجل وواقعه، وبذلك تمكنا من أن نعطي فكرة عنه لا يجدها الدارس في كتاب آخر • وختمنا الفصل بمختارات شعرية ، وكلمات قيلت فيه ، وهي تــدل دلالة واضحة على ما كان يتمتع به من منزلة عظيمة ، وقَدْر جليل •

والفصل الثاني : في « آثاره ومنهجه » وقد جرنا هذا الى البحث في منهج السكاكي وتقسيمه البلاغة الى علومها الثلاثة ليمكن فهم منهج تلميذه القزويني •وعرضنا لكتابي التلخيص والايضاح ، وتكلمنـــا عليهما بالتفصيل ، لنعطي فكرة واضحة عن منهجهما وموضوعاتهمـــا ونسخهما وطبعاتهما • وتكلمنا على ما أثاره « التلخيص »و«الايضاح» من حركة بلاغية وعرضنا لشروح التلخيص والايضاح ومختصراتهمـا ومنظوماتهما ، وهي كثيرة لا تعد ولا تحصى •

والفصل الثالث في : « مصادره » ، وقد تكلمنا فيه على مصادر بلاغته ، واستطعنا ان نتصور تلك الكتب ، ونشـــير الى النصوص والاراء التي نقلها عن المتقدمين • واتضح أنَّ تأثره كان جليابعبدالقاهر والزمخشري والسكاكي ، فاطلنا الوقوف عند هؤلاء الثلاثة واضعين أيدينا على ما اتفقوا عليه ، واختلفوا فيه • وانتهينا في هذا الفصل الى أنَّ القزويني استفاد من كتب المبرد ، و « النكت في اعجاز القرآن »

للرماني ، و « كتاب الصناعتين » للعسكري ، و « الوساطة بين المتنبي وخصومه » للقاضي الجرجاني ، و « كتاب المفردات في غريب القرآن » للراغب الاصفهاني ، و « سر الفصاحة » لابن سنان ، و « المثل السائر » لابن الاثير ، و « بديع القرآن » و « تحرير التحبير » لابن أبي الاصبع المصري، و « المصباح » لبدرالدين بن مالك ، وكتب التفسير والاحاديث ودواوين الشعراء . وظهر أثر « دلائل الاعجاز » و « أسرار البلاغة » و « الكشاف » و « المفتاح » واضحا في بلاغته .

وكان الباب الثاني في :

بلاغـــة القزويني

وهو في خمسة فصول :

الاول : في « الفصاحة » ، وقد تكلمنا فيه على الفصاحـــة ، ومفهومها عند البلاغيين والقزويني. وجرنا هذا الى الخوض في مسألة اللفظ والمعنى التي شغل النقاد بها قديما وحديثا ، وانتهينـــا الى ان الفصاحة اصبحت عند القزويني قواعد ثابتة لا روح فيها ولا رواء ، وانها بحاجة الى اعادة النظر والاستفادة من كتب البلاغة العربيـــة والنقد الحديث .

والفصل الثاني : في « علم المعاني » وقد اثبتنا فيه ان القزويني تابع السكاكي ، وحاولنا جمع بحوثه وترتيبها ، فكان للجملة وما يتبعها بحث ، وللفصل والوصل بحث ثان ، وللايجاز والاطناب بحث ثالث.

والفصل الثالث : في « علم البيان » وفيه أفضنا القول في ادخال الدلالات العقلية والوضعية في تقسيم فنونه ، ورأينا أنّ هذا ليس من الدراسات النقدية في شيء ، وأنّه قد أفسد هذا العلم الذي يبحث في الصور البلاغية والخيال الادبي ، وعقدنا للتشبيه والمجاز والكناية بحوثـا .

والفصل الرابع :في « علم البديع » وقد تحدثنا فيه عن تطور هذا الفن ، وأشرنا الى عمل القزويني فيه ، وتابعنا هذا الفن بعده ، وتعرضنا للبديعيات ، ووقفنا قليلا عند ابن حجة الحموي صاحب « خزانة الادب » ، لانه رد على القزويني كثيرا ، ورجّح بعض آرائه أحيانا .

والفصل الخامس : في « السرقات » وهي التي ذكرها القزويني في خاتمة بلاغته ، وقد أفردنا لها فصلا ، لانها باب واسع ، ولان النقاد ورجال البلاغة الاعلام اهتموا بها منذ عهد مبكر .

وقد اتبعنا في هذا الباب طريقة العرض والموازنة والنقد ، وأخذنا كثيرا من آراء القزويني ، ورفضنا بعضها ، وانتهينا الى أنّ هذا الرجل يمثّل النقاد البلاغيين ، ويُعتبر عمدتهم في العصر المملوكي . وقد وقفت البلاغة العربية بعده ولم يَأْتِ المتأخرون بجديد الا ما كان من شرح وتوجيه والتفاتات نقدية لا تكوّن اتجاها ، أو ترسم منهجا خاصا . ولعل ابن قيّم الجوزية ، والعلوي ، وبهاءالدين السبكي وابن حجة الحموي ، أشهر النقاد البلاغيين الذين جاءوا بعد القرن السابع . وكان للقزويني تأثير واضح في توجيه البلاغة العربية ،ويتجلى هذا بوضوح في شروح التلخيص التي سيطرت على مجالس الدرس حتى مطلع النهضة الحديثة .

وكان الباب الثالث في :

شـروح التلخيص

وهو في فصلين :

الاول : في « شروح التلخيص » ، وقد تكلمنا فيه على النقاد ، والبلاغيين المعاصرين للقزويني ، وانتهينا الى انه لا يتصل بهم ، لأنه اتجه اتجاها خاصا وساروا هم باتجاهات اخر ، وعرضنا لاهم الشروح وهي : «عروس الافراح »للسبكي الذي يمثل مدرسة مصر البلاغية

بعد القرن السابع خير تمثيل — ، و « المطوّل » و « المختصـــر » سعدالدين التفتازاني الذي يمثل البلاغة في المشرق بعد القزويني ، ثم تكلمنا على حاشية السيد الشريف على « مطوّل » التفتـــازاني ، و « مواهب الفتّاح » لابن يعقوب المغربي،و « حاشية الدسوقي » بعد البحث عن التفتازاني لان لمؤلفيها علاقة به ، وتكلمنا على « الشـــرح الاطول » لعصامالدين الاسفراييني ، و « شرح عقود الجمان » لجلال الدين السيوطي .

وكانت طريقتنـــا في البحث عرض هـــذه الشروح اولا ، ثم تلخيص أهم ما فيها من آراء وردود على القزويني . وانتهينـــا الى ان لهذه الشروح قيمة لغوية ونحوية وتاريخية الى جانب فائدتها البلاغية العظيمـــة .

والفصل الثاني في : « القزويني والبلاغة الحديثة » وهذا الفصل خلاصة لبلاغة القزويني ، وعَرْضٌ لأهم ما فيها من مفيد ينبغي أخذه، وغريب ينبغي اطراحه .

هذه خطة البحث ومنهجه ، وهو منهج أملته علينا طبيعة الموضوع ولم يكن لنا سبيل لكي نصور القزويني وجهوده في البلاغة العربية الا أن نعرض للبلاغة قبله ولسيرته وآثاره فجاء هذا البحث الذي نرجو ان ينال حظاً في الدراسات البلاغية .

* *

أما مصادر البحث فهي كثيرة ويمكن حصرها في ضربين :

الاول : كتب التاريخ والثقافة العامة ، وقد استفدنا منهـــا في تصوير تاريخ البلاغة قبل القزويني،وفي سيرته وآثاره.وأهمها كتب التاريخ التي كتبت في عصره او بعـــده بقليـــــل كالسلوك ، والخطط للمقريزي ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، وبدائع الزهور لابن اياس ، وحسن المحاضرة للسيوطي ، والبداية والنهاية لابن

كثير . وقد استفدنا من هذه الكتب فائدة كبيرة ، وإنْ كانت المعلومات مبعثرة فيها تحتاج الى جهد في استخراجها وتنسيقها وعرضها عرضا مقبولا .

الثاني : كتب البلاغة والنقد ، وتضم كثيرا من كتب البلاغة والنقد العربية ، وقد استفدنا منها في رسم هيكل البحث ووضع خطوطه العامة ، وكان لها فوق هذا كله فضل الموازنة والتوجيه. ولكنّ مادة البحث الاساسية تستقى اصولها من تلخيص القزويني وايضاحه ومن شروح التلخيص المهمة كعروس الافراح والمطوّل والمختصر والأطول ومواهب الفتاح . وهذه الكتب هي التي وجهت البحث واخرجته هذا الاخراج .

ومهما يكن من شيء فقد كان لكل كتاب أثبتناه فائدة عظيمة وأثر واضح وكان لاستاذتي الجليلة الدكتورة سهير القلماوي وتوجيهها الكبير ، أعظم النفع وأطيب الاثر .

والله نسأل أن يوفقنا لما فيه خدمة امتنا الخالدة .

بغداد ـ الجمعة
في ٤ ذي القعدة ١٣٨٢ هـ
٢٩ آذار ١٩٦٣ م

احمد مطلوب

تمهيد

البلاغة قبل القزويني

١

قيل للفارسي : ما البلاغة ؟ فقال : معرفة الفصل من الوصل .
وقيل لليوناني : ما البلاغة ؟ قال : تصحيح الاقسام واختيار الكلام .
وقيل للرومي : ما البلاغة ؟ قال : حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الاطالة .

وقيل للهندي : ما البلاغة ؟ قال : وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة .

هذا ما ذكره الجاحظ[1] ، وهو يدل دلالة واضحة على أنّ العرب عرفوا منذ القديم ما عند الامم والاقوام من علوم وثقافات ، وعرفوا أنّ لغيرهم بلاغة وتفننا في القول . ولعل اليونانيين كانوا اول من عني بالبلاغة وتدوين مسائلها وتبويبها ، وفي كتابي « فن الشعر » و « الخطابة » لارسطو اشارات الى الامر ، والاستفهام ، والفصل ، والوصل ، والمجاز ، والتشبيه ، والايجاز ، والاطناب ، والتورية ،

(١) البيان والتبيين ج١ ص٨٨ .

والتقابل ، والطباق ، والاستعارة ، وصيغ المبالغة[1] .

واشتغل العرب بعد بزوغ فجر الاسلام بالبلاغة وبحثها ، وتحديد مصطلحاتها وأبوابها ، واختلفوا في تعريفها ، فقال بعضهم : « إنّ البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن » .

وقال آخرون : « البلاغة اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة ، منها ما يكون في السكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون شعرا ، ومنها ما يكون سجعا ، ومنها ما يكون خطبا ، وربما كانت رسائل »[2] .

وعرفها رجال البلاغة المتأخرون بقولهم المشهور : « البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته » . ومقامات الكلام عندهم متفاوتة، فمقام التنكير يباين مقام التعريف ، ومقام الاطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير ، ومقام الذكر يباين مقام الحذف ، ومقام القصر يباين مقام خلافه ، ومقام الفصل يباين مقام الوصل ، ومقام الايجاز يباين مقام الاطناب والمساواة ، وخطاب الذكي يباين خطاب الغبي . وعلى هذا الاساس قسموا موضوعات البلاغة ، وبحثوها بحثا يعتمد على العقل وتحكمه أكثر من اعتماده على الذوق والتحليل الادبي وتحسس مواطن الجمال في الكلام.

وليس في تعريف القدماء ما يعطي صورة واضحة للبلاغة ، ولعل قول بعض المحدثين : « انها الجمال في القول ، وان علم البلاغة هو درس فن القول وبيان مواطن الجمال فيه والاسباب التي تساعد على ايجاده »[3] ، لعل هذا من خير ما يمكن تعريف البلاغة به،لانه يدل عليها

---

(١) فن الشعر ص٥٤ ، ٥٩ ، الخطابة ص٨٥ ، ١٩٠ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

(٢) كتاب الصناعتين ص١٠ ، ١٤ .

(٣) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد ٤ ص ٤٤٣ .

دلالة واضحة ، وليس فيه فصل لموضوعات البلاغة الى معانٍ وبيـــان وبديـــع •

وكانت مسائل البلاغة تمتزج بموضوعات النقد وأحكامه ، وكانت الكتب تؤلف في تمييز الكلام الحسن من الرديء ، وفيها الاشـــارات البلاغية الى جانب الالتفاتات النقدية • وكان المؤلفون كثيراً مايطلقون اسم النقد على كتبهم وهي كتب بلاغية كـ « نقد الشعر » ،و « نقـــد النثر » ، و « العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده » •

وقد نشأت البلاغة والنقد عند العرب جنبا الى جنب ، وكـــانت نشأتها ساذجة ، وتتمثل بذور البحث النقدي في الاحكـــام التي كان الشعراء وغيرهم يصدرونها ،وليست قصة امرىء القيس وعلقمةالفحل، وقصة النابغة الذبياني الذي كان تضرب له قبة في سوق عكاظ ،وقصة الخنساء وحسان بن ثابت ، وأسواق العرب التي كان الناس يجتمعون فيها فيلقي الشعراء شعرهم ، والخطباء خطبهم وينقد بعضهم بعضـــا ـــ ليست هذه وغيرها الا بداية حسنة للنقد والبـــلاغة ، وبذورا أثمرت قواعد واصولا بعد قرن أو قرنين •

اثر القرآن :

وقد أثّرَ القرآن الكريم تأثيرا كبيرا في نشأة البلاغة والنقـــد ، وكانت خدمة كتاب المسلمين مدعاة الى البحث فيها ، فقالوا : « إنّ أحق العلوم بالتعلم ، وأولاها بالتحفظ ـــ بعد المعرفة بالله جلّ ثناؤمـ علم البلاغة ومعرفة الفصاحة •• وقد علمنا أنّ الانسان اذا أغفـــل علم البلاغة ، وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه باعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التأليف ، وبراعة التراكيب ، وما شحنه به من الايجاز البديع »[1] •

وذهبوا أبعد من هذا فقالوا : « إنّ البلاغة : ما بلغ بك الجنة ،

---

(١) كتاب الصناعتين ص١ •

وعدل بك عن النار ، وما بصّرك بمواقع رشدك وعواقب غيّك »[1] .

وكان تأثيره واضحا في اتخاذه مدار الدراسات البلاغية ، وكانت آياته البينات الشاهد البلاغي الرائع . وكانت احدى آياته مدعاة الى أن يؤلف أبو عبيدة كتاب « مجاز القرآن » . يقول : « أرسل اليّ الفضل بن الربيع الى البصرة في الخروج اليه ، فقدمت عليه فلما استأذنت عليه أذِنَ لي وهو في مجلس له طويل عريض،فيه بساط واحد قد ملأه وفي صدره فرش عالية لا ترتقي اليها إلاّ على كرسي وهوجالس عليها ، فسلمت عليه بالوزارة فرد وضحك واستدناني حتى جلست اليه على عرضه ثم سألني ، وألطفني ، وبسطني ، وقال : انشدني . فأنشدته ، فطرب وضحك وزاد نشاطه . ثم دخل رجل في زي الكتّاب له هيئة فأجلسه الى جانبي ، وقال له : اتعرف هذا ؟ قال : لا . قال : هذا أبو عبيدة علامة اهل البصرة أقدمناه لنستفيد من علمه . فدعا له الرجل وقرّظه لفعله هذا ، وقال لي : إني كنت اليك مشتاقا وقد سألت في مسألة اتأذن لي أن اعرفك اياها ؟ فقلت هات . قال : قال الله عز وتعالى : « طَلْعُها كأنَّه رؤوسُ الشياطين »[2] ، وانما يقع الوعد والايعاد بما قد عرف مثله ، وهذا لم يعرف . فقلت : انما كلَّم الله تعالى العرب على قدر كلامهم،أما سمعت قول امريءالقيس:

أيقتلني والمشرفيُّ مُضاجعي ومسنونةٌ زُرْقٌ كأنيابِ أغْوالِ

وهم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمْرُ الغول يهولهم أوعدوا به . فاستحسن الفضل ذلك ، واستحسنه السائل ، واعتقدت من ذلك اليوم أن أضع كتابا في القرآن في مثل هذا واشباهه وما يحتاج اليه علمه ، فلما رجعت الى البصرة عملت كتابي الذىسميته «المجاز»[3].

وانتهى ابن خلدون الى أنَّ ثمرة علم البلاغة : « انما هي في فهم

(١) البيان والتبيين ج١ ص١١٤ والعقد ج١ ص ٢٨٥ .

(٢) سورة الصافات ، الآية ٦٥ .

(٣) نزهة الالباء في طبقات الادباء ص٧٠ ، ومعجم الادباء ج١٩ ص ١٥٨ .

الاعجاز من القرآن لأن اعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الاحوال منطوقة ومفهومة ، وهي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالألفاظ في انتقائها وجودة رصفها ، وهذا هو الاعجاز الذي تقصر الافهام عن ادراكه »[1] .

أثـر المفسرين :

وأثّر المفسرون والفقهاء في نشأة البلاغة وتطورها ، فقد كان من الضروري أن يضعوا بين يدي بحوثهم الدينية وكتب التفسير ، مقدمة في البلاغة تساعدهم على فهم القرآن واستنباط الاحكام الشرعية منه، ولعل تفسير الكشاف للزمخشري من أروع كتب التفسير التي اهتمت بالبلاغة والتأكيد على الاستفادة منها في ايضاح معاني كتاب الله . وفي كتب الاصول بحوث مستفيضة في الخبر والانشاء،والحقيقةوالمجاز، وهي بحوث تدل على استئثار علم اصول الفقه بها . يقول السكاكي : « بل تَصَفّح معظم أبواب أصول الفقه من أي علم هي ، ومن يتولاها ؟ »[2] . وقد أشار السبكي الى الصلة الوثيقة بين علمي المعاني وأصول الفقه بقوله: « واعلم أنّ علمي اصول الفقه والمعاني في غاية التداخل ، فان الخبر والانشاء اللذين يتكلم فيهما المعاني هما موضوع غالب الاصول ، وان كل ما يتكلم عليه الأصولي من كون الامر للوجوب ، والنهي للتحريم ، ومسائل الاخبار ، والعموم والخصوص ، والاطلاق والتقييد ، والاجمال والتفصيل ، والتراجيح كلها ، ترجع الى موضوع علم المعاني . وليس في أصول الفقهما ينفرد به كلام الشارع عن غيره الا الحكم الشرعيوالقياس واشياء يسيرة»[3] .

أثـر الكتاب :

وكان للكُتّاب أثر واضح في البلاغة ، فقد صبغوا كثيرا من بحوثها بصبغة ادبية لما امتازوا به من ادب رفيع ، وذوق سليم . وهم

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٢ .
(٢) مفتاح العلوم ص١٩٩ .
(٣) عروس الافراح ج١ ص ٥٣ .

الذين يقول الجاحظ عنهم : « طلبتُ الشعرَ عند الاصمعي فوجدته لا يحسن الا غريبه ، فرجعت الى الاخفش فوجدته لا يتقن الا إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا يتقن الا ما اتصل بالاخبار وتعلق بالايام والانساب ، فلم أظفر بما أردت الا عند ادباء الكتّاب كالحسن ابن وهب ، ومحمد بن عبدالملك الزيات[1] . ويقول عنهم : « أمَّا أنا فلم أرَ قَطّ امثل طريقة في البلاغة من الكتّاب ، فانهم قد التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ، ولا ساقطا سوقيا »[2] .

أثر الشعراء :

ولَعِبَ الشعراء دورا مهماً في البلاغة ، وليس ابن المعتز الشاعر العباسي إلاّ واحدا ممن وضعوا اللبنات الاولى للبلاغة وارسوا قواعدها، يقول عنهم : « البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم ، فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو »[3] .

أثر الفلسفة :

وكان للفلسفة والمنطق وعلم الكلام آثار عظيمة في البلاغة ونشأتها وتطورها ، وكانت آثارها تتجلى واضحة في التعريف ، والتقسيم ، والتعليل ، واستعمال اساليب المنطق وعلم الكلام . وقد انتهى السكاكي الى التسوية بين عمل البلاغي ، وعمل صاحب الاستدلال مع ان بينهما بونا شاسعا ومدى بعيدا ، وانتهى الى أنّ الاستعارة والكناية وغيرهما من مباحث البلاغة ليست الا أقيسة منطقية والتزامات يستعملها المتكلمون لاقناع المخاطبين فيما يريدون اثباته او نفيه من نظريات وآراء . يقول : « هذا وكم ترى المستدل يتفنن فيسلك تارة طريق التصريح فيتمم الادلة ، واخرى طريق الكناية اذا مهر ، مثل ما تقول للخصم : إنْ صدق ما قلت استلزم كذا واللازم منتف ، ولا تزيد فتقول:

---

(۱) العمدة ج٢ ص١٠٦ .

(٢) البيان والتبيين ج١ ص١٣٧ .

(٣) البديع ص ٥٨ .

وانتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم ، فلزم منه كذب قولك ، وهل فصل القياسات ووصلها يتسم غير هذا ؟ »[1] .

مدرستان بلاغيتان :

وكانت نتيجة هذا ان سارت البلاغة في اتجاهين مختلفين ،ونشأت مدرستان هما المدرسة الادبية ،والمدرسة الكلامية ، أو كما يسميها السيوطي : « طريقة العرب والبلغاء ، وطريقة العجم وأهل الفلسفة»[2] . وكان لكل من هاتين المدرستين خصائصها ورجالها الاعلام .

وأهم خصائص المدرسة الكلامية : اهتمامها بالتحديد ،والتعريفات والتقسيم المنطقي، والاهتمام بالتعريف الجامع المانع ، واستعمال اساليب الفلسفة والمنطق في تحديد الموضوعات وتقسيمها وحصرها ، واستعمال الالفاظ الفلسفية والمنطقية[3] . وساق البلاغيون كثيرا من المقولات[4] عند القول في الملكة حين وردت في تعريف الفصاحةوالبلاغة وما صدروا به البيان من مباحث الدلالات الوضعية والعقلية ،وادخلوا فيها بعض مسائل الفلسفة الطبيعية والالهية والخلقية كالكلام في الالوان، والطعوم ، والروائح ، والحواس الانسانية ومقرها ،والوهم ،والخيال، والمفكرة والحس المشترك ، والاسباب ، والمسببات ، وغيرها.وادخلوا فيها من الالفاظ الفلسفية والكلامية المحمول ، والموضوع ، والايجاب ، والسلب[5] ، وغير ذلك من المصطلحات التي لا علاقة لها بالبلاغة .

---

(1) مفتاح العلوم ص ٢٤٩ ، وينظر كتاب « البلاغة عند السكاكي » للمؤلف ص ١٥٤ وما بعدها . للتوسع في هذه الموضوعات ينظر القسم الاول من كتاب « دروس في البلاغة وتطورها » للدكتور جميل سعيد .

(2) حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة ج١ ص١٩٠ .

(3) ينظر فن القول ص٨٦ ، وكتاب « البلاغة عند السكاكي »ص١٠٢ وما بعدها .

(4) المقولة : صفة من الصفات تحمل على الاشياء كالمقولات التسع « الكمية ، الكيفية ، الاضافة ، المكان ، الزمان ، الوضع ، الملك ، الفعل ، الانفعال » . وقد تكون المقولة موضوعا يحمل عليه من صفات اخرى كما في مقولة الجوهر . (ينظر كتاب نظرية ارسطو المنطقية للدكتور ياسين خليل ص ١٤) بغداد ١٩٦٤ .

(5) المحمول : هو المحكوم به بأنه موجود أو ليس بموجود لشيء آخر . الموضوع : هو الذي يحكم عليه بأن شيئا آخر موجود له ، أو ليس بموجود له . مثال الموضوع قولنا :

لقد حددوا البلاغة بهذه المقاييس وضبطوا بحوثها بهذه الاعتبارات العقليه التي أزهقت روح البلاغة واحالتها قواعد جامدة لا حياة فيها ، وبذلك نشأ الجدل العنيف ، والنقاش الحاد في كتب البلاغة فأخرجها عن هدفها الادبي وغايتها الفنية .

ومن شواهد الأثر الفلسفي في هذه المدرسة الاقلال من الشواهد والامثلة الادبية ، لان رجالها اهتموا بالتحديد المنطقي ، والحصر ، والتقسيم ، فكانوا يذكرون لكل قاعدة شاهدا واحدا أو مثالا قصيرا، وقد يذكرون أكثر من مثال وشاهد . وليتهم وقفوا عند هذا ، فكثيرا ما يذكرون أمثلة لا جمال فيها ، لان صحة الشاهد أو المثال عندهم أصل كل شيء ، أمّا جماله ، وما يبعث في النفس من احساس أو شعور أومتعة فنية فلم يوجهوا عنايتهم اليه .

وشاعت المدرسة الكلامية في المناطق الشرقية من الدولةالاسلامية حيث يقطن خليط من الفرس والترك والتتر .

ومن خصائص المدرسة الادبية عدم الاهتمام بالتحديد والتقسيم اهتماما كبيرا ، وإنْ جنحت الى ذلك فعلى غير تعمق ونفاذ والتزام للتصحيح التام للاصول المنطقية فيه ، إلا أنْ يكون شيء من ذلك أثرا لعدوى المدرسة الكلامية[1] . ولم تهتم باقتباس المنطقيات والفلسفة ، بل نبذتها وحملت عليها وحاربتها ، وكان ابن الاثير احد أقطاب هذه المدرسة من الذين حملوا حملة عنيفة على الفلسفة ، ورأى في رجالها من امثال ابن سينا والفارابي رجالا أضلهم ارسطو وافلاطون .

« زيد » من قولنا : « زيد كاتب » . ومثال المحمول قولنا : « كاتب » من قولنا : « زيد كاتب » . الايجاب : هو ايقاع النسبة وايجادها . وفي الحملية : هو الحكم بوجود محمول لموضوع . السلب : هو رفع النسبة الوجودية بين شيئين . وفي الحملية : هو الحكم بلا وجود محمول لموضوع . (ينظر كتاب النجاة ــ مختصر الشفاء لابن سينا ــ ص ١٨ وما بعدها ، وكتاب المنطق التوجيهي لابي العلا عفيفي ، وكتاب دروس في البلاغة وتطورها للدكتور جميل سعيد ص ٧٦) .

(١) ينظر فن القول ص ٩٣ ، والبلاغة عند السكاكي ص ١٠٦ وما بعدها .

ومن خصائصها انها تستعمل المقاييس الفنية في الحكم على الادب فنجدها تستطيع التعليل حينا ، ولا تستطيعه حينا آخر ، وترجعه الى الذوق والاحساس الفني • وأسلوب كتبها وتعابيرها سهلة مفهومة لا تحتاج الى عناء كبير في فهمها كما يحتاج في قراءة كتب المدرسة الكلامية التي يقف الباحث فيها على نص أو تعريف وقفة طويلة يحاول فيها فهم ما يرمي المؤلف اليه • وعلة ذلك ان معظم رجال هذه المدرسة عاشوا في بيئة عربية كالعراق والشام ومصر ، وكانوا الى جانب ذلك شعراء أو كتاباً لهم ذوق أدبي ، واحساس فني صادق ، أما رجال المدرسة الكلامية فقد عاشوا في بيئة تركية أو فارسية فغلبت على كتبهم العجمة ، وعلى أساليبهم التعقيد واللف الذي يحتاج الى تأمل ووقوف ، وكانوا الى جانب ذلك علماء بالمنطق ، وعلم الكلام •

وأكْثَرَ رجال المدرسة الادبية من الشواهد والامثلة الادبية شعرا ونثرا ، وكانوا غالبا ما يذكرون القاعدة بسطر اوسطرين، ويأتون بأمثلة تتجاوز الصفحات ، ولم تكن أمثلتهم مقصورة على الجملة أو بيت الشعر ، وإنما تعدتها الى القطعة الشعرية والرسالة الأدبية •

دوافع التاليف :

ويمكن القول ان القرآن الكريم كان الدافع الأول الى البحث في البلاغة ، فلكي يبرهنوا على اعجازه ، ولكي يفهموا آياته واسلوبه لاستنباط الاحكام الشرعية ، اتجهوا اليها باحثين فنونها ، موضحين اقسامها • وكانت الحاجة ماسة الى الاهتمام بالبلاغة والبحث فيها الى جانب حاجتهم الدينية ، فقد كانت المقدرة الكتابية في كثير من الاحيان السبيل الممهد للوصول الى المناصب الكبيرة، وكان على من يريد تسنمها أن يكون كاتبا اديبا له جولات عظيمة في الادب وفنونه ، وله طريقة او اسلوب في الكتابة • وليست الامثلة ببعيدة عن الاذهان ،فقد نال آل وهب في العصر العباسي بفضل الكتابة ارفع المناصب والرتب ، وتقلدوا الوزارات وتدبير شؤون الدولة ، وتَسَنَّمَ ابن الاثير منصب

الوزارة في عهد بني أيوب ٠

ودخلت أقوام شتى في دين الله ، وكان عليها أن تتقن لغة القرآن أو لغة الدولة الرسمية وليس من سبيل الى اتقانها الا ضبط قواعدها ، والتعمق في فنونها ، وكانت حاجة الناس الى تمييز الكلام الجيد من الرديء سببا في التأليف ، والتعمق في بحث مسائلها واصولها ٠

وقد أشار الى هذه الاهداف أبو هلال العسكري فقال : « إنّ أحق العلوم بالتعلم ، وأولاها بالتحفظ ــ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه ــ علم البلاغة ومعرفة الفصاحة الذي به يعرف اعجاز كتاب الله تعالى ٠٠ وقد علمنا أنّ الانسان اذا أغفل علم البلاغة ، واخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه باعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب ٠٠ فينبغي من هذه الجهة ان يقدم اقتباس هذا العلم على سائر العلوم بعد توحيد الله تعالى ومعرفة عدله والتصديق بوعده ووعيده ٠٠

ولهذا العلم بعد ذلك فضائل مشهورة ، ومناقب معروفة ، منها أن صاحب العربية اذا أخل بطلبه ، وفرّط في التماسه ، ففاتته فضيلته ، وعلقت به رذيلة فوته ، عفى على جميع محاسنه ، وعمى سائر فضائله ، لانه اذا لم يفرق بين كلام جيد وآخر رديء ، ولفظ حسن وآخر قبيح ، وشعر نادر وآخر بارد ، بان جهله ، وظهر نقصه ٠

وهو ــ أيضا ــ اذا اراد أن يضع قصيدة ، أو ينشيء رسالة وقد فاته هذا العلم مزج الصفو بالكدر ، وخلط الغرر بالعرر ، واستعمل الوحشي العكر ، فجعل نفسه مهزأة للجاهل ، وعبرة للعاقل ٠

واذا أراد أيضا تصنيف كلام منثور ، أو تأليف شعر منظوم ، وتخطّى هذا العلم ساء اختياره له ، وقبحت آثاره فيه ، فاخذ الرديء المرذول ، وترك الجيد المقبول ، فدل على قصور فهمه وتأخر معرفته وعلمه »[1] ٠

---

(١) كتاب الصناعتين ص ١ ــ ٣ ٠

٢

ولعل اول ما وصل الينا من الكتب وفيها مسائل بلاغية كثيرة، كتب التفسير الاولى كـ « معاني القرآن » للفراء (٢٠٧هـ) و « مجاز القرآن » لابي عبيدة معمر بن المثنى (٢٠٨ هـ) و « وتأويل مشكل القرآن » لابن قتيبة (٢٧٦ هـ) وكتب الادب كـ « البيان والتبيين » للجاحظ (٢٥٥ هـ) و « الكامل في اللغة والادب » لمحمد بن يزيد المبرد (٢٨٥ هـ) .

ونشط التأليف في النقد والبلاغة منذ العصور الاولى ، وظهر كتاب « البديع » لابن المعتز(٢٩٦ هـ) وهو أول محاولة ناضجة في هذا الميدان ، فيها التقسيم والعرض الجيد بالنسبة الى كتاب « قواعد الشعر » لأستاذه أبي العباس ثعلب (٢٩١ هـ) . وجاء بعده نقاد عظام وبلاغيون كبار ، كان لكلٍ منهجه الخاص في البحث ، واصالته في التأليف . ويلاحظ ان الاقاليم الشرقية من الدولة الاسلامية كالعراق وبلاد فارس كانت السبّاقة في هذا الميدان ، وعلة ذلك أن بغداد كانت عاصمة الدولة العربية الاسلامية ، ومقر الخلافة في عصر بني العباس ، ومحج العلماء وهالة الادب . وقد نشأت في العراق علوم اللغة العربية من لغة ، ونحو ، وصرف ، وبلاغة ، ونقد ، وعروض . وكانت الكوفة،

والبصرة ،وبغداد ، مركز هذه الدراسات ، وفي مساجدها وحلقات درسها تخرج العلماء والادباء ، ومنها تدفقت أفواجهم وساروا في البلاد يدرسون ويؤلفون • وبقي العراق مشعلا وهاجا ، وسراجا منيرا يضيء السبل ، وبقي موئلا يفد الطلاب اليه ، حتى اذا ما ضعف أمر الخلافة العباسية وسيطر البويهيون والسلاجقة على الحكم في بغداد ، انتعشت اقاليم اسلامية وعربية أخرى ، ونشأت فيها حركة علمية وادبية ، فكان في خوارزم ، وفارس ، والشام ، ومصر ، والمغرب العربي ، امارات أخذت ترعى الادب وتهتم بالعلماء ، وتقيم لهم وزنا عظيما •

اتجاهات بلاغية :

وتميز القرن السادس الهجري بثلاثة اتجاهات بلاغية هي: مذهب المشارقة ، ومذهب المغاربة ، ومذهب أهل مصر والشام • وكان لكل اتجاه ميزات خاصة ، فمذهب المشارقة « كان اميل الى الاخذ بالمعاني والجوهر لا بالصيغة والالفاظ والبديع »[1] • ولعل ذلك يعود الى قدم الدراسة الفلسفية والعلوم العقلية في التراث الفارسي ، والى ميل الفرس وغيرهم من الاعاجم بطبعهم الى البحوث العقلية ، ثم الى رد الفعل الذي اوجده طغيان الدراسة الشكلية في حركة البديع عند نقاد القرن الرابع وما بعده • وقد أشار ابن خلدون الى اهتمامهم بعلمي المعاني والبيان ، واهتمام المغاربة بالبديع ، وعلل ذلك بقوله: «وبالجملة فالمشارقة على هذا الفن اقوم من المغاربة، وسببه ــ والله اعلم ــ انه كمالي في العلوم اللسانية ، والصنائع الكمالية توجد في العمران ، والمشرق أوفر عمرانا من المغرب ، أو تقول لعناية العجم ــ وهم معظم أهل المشرق ــ كتفسير الزمخشري ، وهو كله مبني على هذا الفن ، وهو اصله »[2] •

وقد ظهر في البيئة المشرقية بلاغيون أعلام ، كعبدالقاهر ،

---

(١) ضياء الدين بن الاثير وجهوده في النقد ص ٣١٢ •

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٢ •

والزمخشري ، والرازي ، والسكاكي .

ولم يهمل المشارقة البديع اهمالا كبيرا ، وانما اتجه بعضهم الى البحث فيه ، وتأليف الكتب في فنونه . وقد ألف محمد بن عمر الرادوياني كتاب « ترجمان البلاغة » وهو في بديع اللغة الفارسيةالتي تأثرت ببديع العرب وبلاغتهم .

الوطواط :

ووضع رشيد الدين الوطواط (٥٧٣ هـ)[١] كتاب « حدائق السحر في دقائق الشعر » باللغة الفارسية بعد أن اطلع على كتاب « ترجمان البلاغة » . يقول متحدثا عن الملك العادل خوارزم شاه أتسز : « فأطلعني على كتابفي معرفة بدائع الشعر الفارسييسمونه « ترجمان البلاغة » ، فلما راجعته وجدت ان ابيات الشواهد المسطرة في هذا الكتاب غير مستطابة وانها جميعها متكلفة النظم ، قد جمعت بطريق التعسف ، وانها بالاضافة الى ما بها من تكلف وتعسف ، لاتخلو من أنواع الزلل واصناف الخلل ، فرأيت من الواجب عليّ ــ انا الناشيء في هذه الاعتاب ــ أن اكتب هذا الكتاب في معرفة محاسن النظم والنثر في كلتا اللغتين العربية والفارسية »[٢] .

وتتبع الوطواط خطا « الرادوياني » ، ونقل عنه كثيرا ، وتابعه في أبواب البديع ، ولكنه بقي محتفظا بطابعه الاصيل . وكتاب « حدائق السحر في دقائق الشعر » بعيد كل البعد عن النزعة الفلسفية التي سيطرت على كتب المشارقة في عصره ، وهو قريب من بديع ابن المعتز في منهجه وطريقته وعرضه للأمثلة والشواهد ، مع فرق واضح وهو أن الشاعر العباسي كان يتخير الأمثلة الجميلة ، ويدل على مواطن الجودة والاسفاف ، اما الوطواط فقد طغت على كتابه الأمثلةالمصنوعة،

(١) تنظر ترجمته في معجم الادباء ج١٩ ص ٢٩ ، والبلاغة عند السكاكي ص ٢٤٢ وما بعدها .

(٢) حدائق السحر في دقائق الشعرص ٨٩ .

وبدا التكلف واضحا جليا ، وكان ينظم شعرا ليدعم قاعدته في كثير من الأحيان .

وقد جمع الكتاب الترصيع ، والتجنيس ، وحسن المطلع ، والجمع والتعريف ، والتقسيم ، وتجاهل العارف ، الى جانب الاستعارة ، والتشبيه ، والالتفات ، وارسال المثل . وطريقته في البحث أن يعرّف الفن البلاغي تعريفا موجزا ، ثم يذكر الأمثلة من غير شرح وتعليل . يقول في الترصيع مثلا: «الترصيع في اللغة بمعنى وضع الجواهر وغيرها في الذهب . ومعناه في أبواب البلاغة : أن يقسم الكاتب أو الشاعر عباراته الى أقسام منفصلة ، ثم يجعل كل لفظ منها في مقابل لفظ آخر يتفق معه في الوزن وحرف الروي . ومثال الترصيع في القرآن المجيد : « إنّ الأبرارَ لفي نَعيم . وانّ الفُجّارَ لفي جَحيم »[1] . ومثاله من الكلام النبوي : « اللهم اقبل توبتي ، واغسل حوبتي » . ومن قولي بالعربية :

يا باني الفخرِ الأشمْ ... يا ثاني البحرِ الخضمْ
أنت المقدمُ في الهدى ... أنت المعظمُ في الأُممْ
مغناك للراجي حِمى ... وذراك للاجي حَرَمْ
الليثُ دونَك في الوغى ... والغيث دونَكَ في الكَرَمْ
تلقى بحضرتك المنى ... تنفى بغرتِك الظُلَمْ»[2]

ويقول في الاستعارة : « الاستعارة في اللغة بمعنى طلب العارية ، ومعناها اصطلاحا : أنْ يكون للفظ معنى حقيقي فينقله الشاعر أو الكاتب من معناه الحقيقي الى معنى آخر يستعمله فيه على سبيل العارية . وهذه الصنعة موجودة بكثرة في سائر اللغات والالسنة .واذا كانت الاستعارة مطبوعة ولم تكن بعيدة متصنعة ، فان رواء الكلام يكمل بها وتتم حليته بواسطتها . ومثالها من القرآن الكريم .

(١) سورة الانفطار ، الآيتان ١٣ و١٤ .
(٢) حدائق السحر في دقائق الشعر ص ٩٠ — ٩١ .

« واخْفِضْ لهما جَناحَ الذُّلِ مِنَ الرَّحْمةِ »[1] ، ويقول الشاعر:

ومن العجائبِ أنّ بيضَ سيوفِنا
تَلِدُ المنايا السُّودَ وهي ذكورُ[2]

أثر مذهب المشارقة :

وكان لمذهب المشارقة أثرٌ كبير في تحديد موضوعات البلاغة ، ففي بيئة خوارزم انقسمت البلاغة الى علومها الثلاثة على يدي السكاكي (٦٢٦هـ) ، ومنها خرج المنهج البلاغي الذي سيطر على الدراسات البلاغية حتى العصر الحديث • وليس هذا الاتجاه الا امتدادا لمدرسة عبدالقاهر الذي رفع لواء تحكيم المقاييس النحوية والعقلية في البلاغة والدراسات النقدية • وكانت نظرية النظم اهم ما تميز به هذا الرجل الذي أرسى قواعد البلاغة وجعلها علما له اصوله واهدافه •

الرازي :

وقد أثر عبدالقاهر في البلاغة تأثيرا كبيرا ، وتبعه كثيرون ، ومن اشهر تلاميذه في تلك الديار الزمخشري صاحب تفسير « الكشاف » ، والرازي[3] مؤلف « نهاية الايجاز في دراية الاعجاز » • وهو أول من حاول القضاء على الروح الأدبية في كتابي عبدالقاهر ، وتحويل البلاغة الى وجهة تهتم بالضبط ، والتحديد ، والحصر المنطقي • وأول مايطالعنا في كتاب الرازي دعوته الى ترتيب أصول البلاغة ووضع قواعد ثابتة لها ، فقد وجد أن عبدالقاهر « أهمل رعاية ترتيب الأصول والابواب ، وأطنب في الكلام كل الاطناب »[4] • وحاول ضبط هذه الابواب وهي متفرقات الكلم ، ووضع قواعد تضبط البلاغة ، وتحصر موضوعاتها ، وتَمّ له

(١) سورة الاسراء ، الآية ٢٤ .
(٢) حدائق السحر في دقائق الشعر ص ١٢٢ – ١٢٣ .
(٣) تنظر ترجمته في تأريخ الحكماء للقفطي ص ٩٠ ، وطبقات الشافعية ج٥ ص٣٣ ، والبلاغة عند السكاكي ص ٢٤٨ .
(٤) نهاية الايجاز في دراية الاعجاز ص ٤ .

ذلك ، ورتَّبَ كتابه على مقدمة وجملتين ، تحدث في المقدمة عن اعجاز القرآن وشرف علم الفصاحة ، أما الجملتان ، فالاولى في المفردات ، والثانية في النظم ، وهو بذلك يتابع عبدالقاهر ويستفيد من قوله : « اعلم أنَّ الكلام الفصيح ينقسم قسمين : قسم تعزى المزية والحسن فيه الى اللفظ ، وقسم يعزى ذلك فيه الى النظم[1] » .

ولا يخرج تقسيم الرازي عما ذكره عبدالقاهر فبحث في الجملة : المفردات وهي في نظره : التجنيس ، والاشتقاق ، ورد العجز على الصدر ، والقلب ، والسجع ، والمزدوج ، والترصيع ، والحقيقة ، والمجاز ، والكناية ، والتشبيه ، والاستعارة . وبحث في الجملة الثانية النظم وهو : معنى النظم ، والمطابقة ، والمقابلة ، والمزاوجة ، والاعتراض ، والالتفات ، والاقتباس من القرآن ، والتلميح ، وارسال المثلين ، واللف والنشر ، والتعديد ، وتنسيق الصفات ، والايهام ، ومراعاة النظير ، والموجه ، والمحتمل للضدين ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، وتجاهل العارف ، والسؤال والجواب ، والاغراق ، والجمع ، والتفريق ، والتقسيم ، والمتزلزل ، والتعجب ، وحسن التعليل ، والتقديم والتأخير ، والفصل والوصل ، والحذف والاضمار ، والايجاز وما يتعلق بـ « إنَّ » و « إنَّما » . وقد نجح في بحث البلاغة الى حد كبير ، لولا بعض الامور ، منها : أنه افقد البلاغة روحها الادبية بادخاله الدلالات الوضعية والعقلية والمباحث الفلسفية ، وقضى على النزعة الذوقية التي كانت تطبع كتابي عبدالقاهر ، لأنه حاول ان يوجزهما ويرتبهما . يقول : « ولما وفقني الى مطالعة هذين الكتابين التقطت منهما معاقد فوائدهما ، ومقاصد فرائدهما ، وراعيت الترتيب مع التهذيب ، والتحرير مع التقرير ، وضبطت أوابد الاجمالات في كل باب بالتقسيمات اليقينية ، وجمعت متفرقات الكلم في الضوابط العقلية مع الاجتناب عن الاطناب الممل ، والاحتراز عن

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٢٩ .

الأختصار الممل »[1] .

وقد أكْثَرَ من التقسيم ، وشَعَّبَ من المسألة الواحدة مسائل كثيرة . وتقسيمه البلاغة الى قسمين – وإنْ أخذه عن عبدالقاهر – لم يكن دقيقا ، لان الاستعارة ، والكناية ، والتمثيل ، وسائر ضروب المجاز من مقتضيات النظم ، وعنها يحدث ، وبها يكون ، لأنه لايتصور ان يدخل شيء منها في الكلم وهي افراد لم يتوخ فيما بينها حكم من أحكام النحو ، فلا يتصور أن يكون ههنا فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة من دون ان يكون قد ألف مع غيره . أفلا ترى انه إنْ قدّر في « اشتعل » من قوله تعالى : « واشتعل الرأس شيباً » أن لا يكون « الرأس » فاعلا له ، ويكون « شيبا » منصوبا عنه على التمييز ، لم يتصور أن يكون استعارة . وهكذا السبيل في نظائر الاستعارة[2] .

وكتاب « نهاية الايجاز » مع هذا كله ، يبقى ذا قيمة عظيمة في دراسة البلاغة العربية وتطورها ، لأنه يعتبر حلقة الوصل بين بلاغة عبدالقاهر ، وبلاغة السكاكي ، وتلاميذه من المتأخرين .

المطرزي :

ولناصر بن أبي المكارم المطرزي (٦١٠ هـ)[3] كتاب «الايضاح» وهو شرح مقامات الحريري ، وقد صدّره بمقدمة في البلاغة ليعطي قاريء الشرح محك النقد ، وينصب له معيار التمييز بين الحسن والرديء . وتكلم على البلاغة من غير أن يقسمها كما فعل الرازي أو المتأخرون .

ويبدو أثرُ عبدالقاهر واضحا في بحثه ، للحقيقة والمجاز ،

---

(١) نهاية الايجاز في دراية الاعجاز ص ٤ .
(٢) ينظر دلائل الاعجاز ص ٣٠٠ .
(٣) ينظر البلاغة عند السكاكي ص ٢٦٠ .

وفي مواضع اخرى صرّح فيها بالنقل عنه والاشارة الى آرائه .ويبدو أثرُ رشيدالدين الوطواط جليا فيما يتعلق بفنون البديع .

وطريقته في البحث أن يذكر التعريف والقاعدة ، ثم يعرض الامثلة القليلة.يقول في رد العجز على الصدر:«ومما يعد في أقسام البديع رد العجز على الصدر:وهوأن تجيء بكلام يلاقي آخره أوله لفظا بوجه من الوجوه اما نثراً واما نظما ، مثاله من التنزيل قوله تعالى : « وَتَخْشَى النَّاسَ واللهُ احَقُّ أنْ تَخْشاه »[1] وقوله عز وجل : « اسْتَغْفِروا رَبَّكُم إنَّه كانَ غَفَّارا »[2] وقوله جل وعلا : « لا تَفْتَروا على الله كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بعذابٍ وقَدْ خابَ من افترى»[3] . ومن كلام البلاغيين : « الحيلة ترك الحيلة » وقولهم:« القتل أنفى للقتل»[4] .

وقَسَّم السكاكي شيخُ المدرسة الكلامية البلاغةَ الى علمين هما: المعاني والبيان،والى محسنات أو وجوه يصار اليها بقصد تحسين الكلام. وقد قتل البلاغة في هذا التقسيم ، وضيّقَ بحثها في كتابه « مفتاح العلوم » الذي كان تلخيصا للصرف والنحو والبلاغة والاستدلال والعروض وعلم القوافي. ولكن المغاربة حمدوا للمشارقة هذا العمل ، وسار بهاءالدين السبكي على خطاهم مرغما مع أنه كان يدعو الى تحكيم الذوق ، والمقاييس الفنية في النقد . يقول : « وأما أهل المشرق الذين لهم اليد الطولى في العلوم ، ولا سيما العقلية والمنطق ، فاستوفوا هممهم الشامخة في تحصيله ، واستدلوا بجدهم على جملته وتفصيله ، ووردوا مناهل هذا العلم فصدروا عنها بملء سجلهم . وكيف لا وقد جلبوا عليه بخيلهم ورجلهم ، فلذلك غمروا منه كل دارس وعبروا من حصونه المشيدة ما رَقَد عنه الحارس ، وبلغوا عنان السماء في طلبه»[5] .

---

(١) سورة الاحزاب ، الآية ٣٧ .

(٢) سورة نوح ، الآية ١٠ .

(٣) سورة طه ، الآية ٦١ .

(٤) الايضاح في شرح مقامات الحريري ص ١٤ .

(٥) عروس الافراح ج١ ص٥ .

ولم تَبْقَ مدرسة المشارقة وتقسيماتها البلاغية في اقليمها ، وانما سارت الى الاقاليم العربية ، فعرفت الشام ومصر والعراق عبدَالقاهر وكتابيه ، والسكاكي ومفتاحه ، وألفت على غرارها كتب كان لها أثر كبير في توجيه البلاغة على مر العصور .

مذهب المغاربة :

واتجه مذهب أهل المغرب والاندلس الى مذهب المشارقة وانغلب عليه البديع في كثير من الاحيان ، ولكن علماءه لم يأخذوا آراءهم كلها، بل ناقشوها، وعدّلوا فيها ، وعالجوها معالجة تتفق مع شخصيتهم وطابعهم الخاص الذي اتسم به تفكيرهم وأدبهم . ومن امارات تلك الشخصية ما نراه في تناول كتب البديع والنقد بالمعارضة ، وقد ألّفَ ابن رشيق كتابا في الاخذ على قدامة . ونقل كثير منهم كالشريشي في شرحه لمقامات الحريري عن المشارقة كالحاتمي وقدامة وابن وكيع[1] .

حازم القرطاجني :

وظهر في القرن السابع وما بعده اتجاه جديد في البلاغة والنقد ، وهو اتجاه متأثر بدراسات اليونان وارسطو خاصة ، ويمثل هذا الاتجاه حازم القرطاجني (٦٨٤ هـ) صاحب « منهاج البلغاء وسراج الادباء» . وقد قسم كل منهج الى فصول او فقر طويلة يسميها : معلم ، اضاءة ، تنوير ، أو معرف ، اضاءة ، تنوير . وتتوالى الاضاءة فالتنوير داخل المعلم او المعرف الواحد ، وليس ثمة فرق عنده بين المعلم والمعرف ، ولا بين الاضاءة والتنوير ، بل هي تنويعات في تسمية الاقسام لا تخلو من حذلقة لانها غريبة[2] .

وقد بدأه بالكلام في المعاني وأقسامها ، والبواعث المختلفة

---

(١) ينظر ضياءالدين بن الاثير وجهوده في النقد ص ٣٥٤ .

(٢) ينظر حازم القرطاجني ونظريات ارسطو في الشعر والبلاغة ص ١ ، وكتاب الى طه حسين ص ٨٥ .

للشعر وصلتها بأقسام المعاني ، وتكلم على طبيعة الشاعر وملكته وقسمها الى ثلاثة أقسام : قوة حافظة ، وقوة مائزة ، وقوة صانعة . يقول : « ولا يكمل لشاعر قول على الوجه المختار الا بأن تكون له قوة حافظة ، وقوة مائزة ، وقوة صانعة ، فأما القوة الحافظة فهي أن تكون خيالات منتظمة ممتازا بعضها عن بعض محفوظة كلها في نصابه ، فاذا أراد مثلا أن يقول فرضا ما في تشبيه او مديح ، او غير ذلك وجد خياله اللائق به قد وهبته له القوة الحافظة ، وتكون صور الاشياء مترقبة جميلة على حد ما وقعت عليه في الوجود ، فاذا أجال خاطره في تصورها فكأنه اجتلى حقائقها . وأكثر خواطر الشعراء تكون معتكرة الخيالات غير منتظمة التصور ، فاذا أجال احدهم خاطره في أوصاف الاشياء وخيالاتها اشتبهت عليه واختلطت ، واخذ فيهاغير ما يليق بمقصده وبالموضع الذي يحتاج فيه الى ذلك ، وكأن المنتظم للخيالات كالناظم الذي تكون عنده أنماط من الجواهر مجزأة محفوظة المواضع عنده،فاذا أراد أي حجر شاء على أي مقدار شاء عمد الى الموضع الذي يعلم انه فيه ، فأخذها منه ونظمه ، وكذلك من كانت خيالاته وتصوراته منتظمة متميزة فانه يقصد بملاحظة الخاطر منها الى ما يشاء فلا يعدوه . والمعتكر الخيالات ، كناظم تكون جواهره مختلطة ، فاذا أراد حجرا على صفة ما تعب في تفتيشه ، وربما لم يقع على البغية فينظمه في مواضع غير ما يليق به »[1] .

وتحدث عن الخيالات ومكانتها بين قوى الملكة الثلاث للتناسب بين المعاني المختلفة وبين خيالاتها وصلة ذلك بالبيان خاصة وما يرد فيه من تشبيهات ومبالغات وتخييلات ، وتكلم على المطابقة ، والمقابلة ، وغيرها من فنون البديع والبلاغة .

والجديد في هذا الكتاب هو أنه عقد فصلا طويلا تحدث فيه عن

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الادباء ص ١٢ ، وينظر ضياءالدين بن الاثير وجهوده في النقد ص ٣٥٥ .

نظرية ارسطو في الشعر والبلاغة ، وهذا ما لا نجده في غيره من الكتب، وبذلك ينقل حازم القرطاجني البلاغة العربية الى جو جديد . يقول : « وقد ذكرت في هذا الكتاب من تفاصيل هذه الصنعة ما ارجو انه من جملته ما أشار اليه أبو علي بن سينا ، وقد تركت من ذلك أشياء لم يسكني الكلام فيها لكون بعض إغراض النفس تحث على الانحفاز في التأليف وتعجيل الاتمام له ، ولأن استقصاء القول في هذه الصناعة محوج الى اطالة تتخون أزمنة الناظر وتعوقه عما يجب أن يترقى اليه في هذه الصناعة من العلوم النافعة ، فان النظر في أسرار هذه الصناعة مفتاح للنظر في تلك ومرقاة لها »[1] .

ولعل أهم ما في الكتاب البحث في المحاكاة وأنواعها ، وقد اسرف حازم في البحث عنها وادخل مفاهيم ارسطو وبلاغة اليونان ، فأخرج البلاغة عن اتجاهها العربي الى اتجاه الفلاسفة ومنطق ارسطو .

الاندلسي :

وظهر الى جانب هذا كتاب « المعيار في نقد الاشعار » لمحمد بن احمد الاندلسي الذي عاش في القرن السابع الهجري وفيه نزعة الى البديع لا نجدها في كتاب حازم ، وقد تكلم فيه على المجاز وأقسامه ، والبلاغة وفنونها ، وضروب البديع كالحذف ، والجناس ، والمطابقة ، والايغال ، والسرقات . وكلامه لايخرج عن كلام غيره من أصحاب البديع من المشارقة ، وان غلبت عليه الروح الفلسفية ، وتسلل الى كلامه بعض عبارات ارسطو وابن سينا[2] .

---

(١) حازم القرطاجني ونظريات ارسطو في الشعر والبلاغة ص ١٤ ، كتاب الى طه حسين ص ٩٨ .

(٢) ينظر ضياء الدين بن الاثير وجهوده في النقد ص ٣٥٨ .

٣

مذهب مصر والشام :

اما أهل مصروالشام فقد كان لهم اتجاه آخر يختلف كل الاختلاف عن مذهب المشارقة الذي اهتم أعلامه بوضع القواعد المنطقية، والحدود الجامعة المانعة ، والابتعاد عن المقاييس الادبية في النقد والموازنة والتحليل ، ويختلف عن مذهب حازم القرطاجني الذي طبق نظريات أرسطو في الشعر والبلاغة على البلاغة العربية •

لقد كان أهل مصر والشام يميلون الى تحكيم الذوق في البلاغة والنقد ، والاهتمام بصور البديع وما توحيه من انفعالات نفسية تتعلق بالاحساس الفني والوجدان ، وقد عرفت هذه الديار معظم كتب البلاغة والنقد التي ألفت في العراق والمشرق ، ونظرة عابرة في « سر الفصاحة » لابن سنان و « البديع في نقد الشعر » لاسامة بن منقذ تبين لنا أنهم عرفوا كتب الجاحظ والموازنة والوساطة وكتب الرماني وقدامة والحاتمي وكتاب الصناعتين والعمدة واللمع •

وكان دارسو البلاغة في هذا العصر يرمون الى هدفين :

أولهما : دراسة بلاغة القرآن ومعرفة مظاهر فصاحته • وقد ألفت كتب كثيرة في هذا الميدان اهمها « الاشارة الى الايجاز في بعض أنواع

المجاز » لعزالدين عبدالعزيز بن عبدالسلام (٦٦٠هـ) ويذكره السيوطي اول ما يذكر فيمن ألف في هذا الفن[١] ، و« بديع القرآن » لابن أبي الاصبع المصري .

وثانيهما : القدرة على تذوق القول الجميل واتناجه ، ولعل كتب ابن الاثير من خير ما يمثل هذا الاتجاه ، فقد اهتم مؤلفها ــ وهو الكاتب القدير ــ بهذه الناحية في « المثل السائر » و « الجامع الكبير»، واولاها التفاتا عظيما .

واختلفت ثقافة دارسي البلاغة في هذا العصر ، فكان منهم الادباء، كابن الأثير وابن الزملكاني ، ومنهم من غلبت عليه دراسة النحو كبدرالدين بن مالك ، ومنهم من اشتغل بالمنطق وعلم الكلام كمحمد ابن يوسف الجزري ، ومنهم الفقيه العالم كعزالدين عبدالعزيز بن عبد السلام . وكان لثقافة كل مؤلف أثر واضح فيما كتب ، وفي توجيه منهجه ، وعرض فنون البلاغة ومعالجتها .

ويلاحظ أن البلاغة في مصر والشام بعد القرن السادس لم تكن كما كانت عليه في البيئة المشرقية حينماوضع السكاكي « مفتاح العلوم»، وانما كانت تدرس على انها فن واحد، اليه يرجع الاديب والمثقف ليأخذ مقاييسه النقدية ، ويستعين به على فهم الادب. ولم تحدد المصطلحات فيها تحديدا منطقيا أو جامعا مانعا ، كما تحددت في البيئة المشرقية، وعلة ذلك ان بيئةمصر والشام العربية كانت تنحو في كتبهامنحى أدبيا يعتمد على الذوق الصافي، والملكة الادبية والحس المرهف ، بينما كانت مدرسة المشرق تعتمد على وضع القواعد ، وتحديد المصطلحات .

ويلاحظ ان المصطلحات لم تستقر حتى هذا العصر ، فقد ذكر الزمخشري ان الالتفات يكون من الغيبة الى الخطاب ، ومن الخطاب

---

(١) ينظر الاتقان ج٢ ص ٣٦ .

وقد طبع كتاب الاشارة الى الايجاز أكثر من مرة، آخرها في مطابع دار الفكر بدمشق (بلا تأريخ) والكتاب في بابين كبيرين : الاول في أنواع الحذف ، والثاني باب المجاز .

الى الغيبة ، ومن الغيبةالى التكلم ،كقولهتعالى : « والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه »[1] • وقد التفت امرؤ القيس ثلاث التفاتات في ثلاثة أبيات هي :

تطاول ليلك بالأثمد ونام الخلي ولم ترقد
وبات وباتت له ليلة كليلة ذي العائر الأرمد
وذلك من نبأ جاءني وخبرته عن أبي الأسود[2]

أما القرشي فقد ذكر أن هذا النوع يسمى الانصراف ، وقال عنه : « الانصراف وهو ان تبتديء المخاطبة بهاء الكناية ثم تنصرف الى المخاطبة بالكاف ، وهذا يحتمل اذا كان الأمر مما تكتبه دون غيره »[3] •

وترك بلاغيو هذه البيئة كتبا كثيرة ضاع بعضها وبقي البعض الآخر ، وعلى ضوء ما نقرؤه عن هذه الكتب وما نجد من اسمائها في المظان نستطيع ان نرى ان جهودهم كانت تتجه حينا الى دراسة مسائل البلاغة بعامة كما في « قوانين البلاغة » لعبداللطيف البغدادي الذي أتم تأليفه في حلب سنة ٦١٥هـ ، وكما في « رسالة البلاغة»للقاضي الفاضل، و « الطريق الى الفصاحة » للرئيس ابن النفيس ، وكتاب « في البديع والبلاغة » للمرسي السلمي •

وتتجه حينا آخر الى دراسة لون واحد من الوان هذه البلاغة ، كما في كتاب شميم الحلّي الذي دعاه « أنواع الرقاع في الاسجاع »، وكتاب جمال الاسدي « التنبيهات على عجائب التشبيهات » •

وتتجه طورا الى دراسة البلاغة القرآنية لبيان وجه الاعجاز فيها كما فعل ابن ابي الاصبع المصري •

وقام بعض العلماء باختصار بعض ماكتب في البلاغة كما اختصر

---

(١) سورة فاطر ، الآية ٩ •
(٢) الكشاف ج١ ص ١١ •
(٣) معالم الكتابة ومغانم الاصابة ص ٧٦ •

عثمان بن علي الخزرجي كتاب « العمدة » لابن رشيق[1] .

ولكي نرسم معالم اتجاه البلاغة في مصر والشام ينبغي أن نتكلم بايجاز على أعلام هذه المدرسة قبـــل الخطيب القزويني وهم : ابن سنان ،وابن منقذ ، وابن شيث القرشي ، وابن الاثير ، وابن الزملكاني ، وابن أبي الأصبع المصري ، وبدرالدين بن مالك .

ابن سنان الخفاجي :

فأما ابن سنان الخفاجي (٤٦٦ هـ)[2] فانه كان يرى أن للالفاظ قيمة عظيمة في التعبير ، بينما كان معاصره عبدالقاهر الجرجاني يرى أن ميزة الكلام وروعته في النظم ، وان الالفاظ أوعية للمعاني . ومن هنا بدأ ابن سنان كتابه « سر الفصاحة » بالبحث في الالفاظ التي يتكون منها الكلام منتقلا الى الجمل فالكلام .

وكتاب « سر الفصاحة » من انفس كتب البلاغة والنقد التي خلفها القرن الخامس ، لانه جمع بين النقد والبلاغة ، والتعليل والتحليل ، والدافع الى وضع هذا الكتاب اختلاف الناس في ماهية الفصاحـــة وحقيقتها ، وقد أراد ان يجلوها للناس ، ويعرضها عرضا سليما ، لأنه يؤمن أن للفصاحة أثرا كبيرا في نظم الكلام على اختلاف تأليفه ونقده ومعرفة ما يختارمنه عما يكره ، وكلا الامرين متعلق بالفصاحة ، بل هو مقصور على المعرفة بها ، فلا غنى لمنتحل الادب عن دراسة الفصاحـة على النحو الذي ذكره في الكتاب .

أقام ابن سنان كتابه على أساس الفرق بين الفصاحة والبلاغـــة فذكر ان « الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ ، والبلاغة لا تكون الا وصفا للالفاظ مع المعاني . لا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة ، وان قيل فيها فصيحة ، وكل كلام بليغ فصيح ،

---

(١) ينظر الحياة العقلية في عهد الحروب الصليبية ص ٢٣٣ــ٢٣٤ .

(٢) تنظر ترجمته في فوات الوفيات ج١ ص ٤٨٩ ، والنجوم الزاهرة ج٥ ص ٩٦ ، ومقدمة كتاب سر الفصاحة ، تحقيق الاستاذ عبدالمتعال الصعيدي .

وليس كل فصيح بليغا كالذي يقع فيه الاسهاب في غير موضعه»[1] .
وقد قسمه الى قسمين كبيرين :

الأول : في الفصاحة تكلم فيه على الفصاحة ، وقسمها الى ما يوجد في اللفظة الواحدة ، والى ما يوجد في الالفاظ المنظوم بعضها مع بعض، وهو الكلام في الالفاظ المؤلفة ، وفيه عرض الكلام المؤلف على ماينبغي توفره في الألفاظ المفردة .

والثاني : ما يختص بالتأليف وهو وضع الالفاظ حقيقة أو مجازا لا ينكره الاستعمال . ومن وضع الألفاظ موضعها ألا يكون في الكلام تقديم وتأخير يفسد المعنى ، وألا يكون الكلام مقلوبا فيفسد المعنى ويصرفه عن وجهه ، ومنه حسن الاستعارة ، وألا تقع الكلمة حشوا أو يكون الكلام شديد المداخلة . وتحدث عن التوشيح أو التسهيم ، والكناية ، وعما يجب أن يكنى عنه في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح . ومن صفات الكلام ألا يستعمل في الشعر والرسائل والخطاب الفاظ المتكلمين والنحويين وأشباههم . ومنه المناسبة بين اللفظين من طريق الصيغة ، وذكر السجع ، والازدواج ، والقوافي ، وعيوبها ، والابتداء في القصائد ، والتصريع ، والجناس ، والطباق ، والايجاز ، والمساواة ، والاطناب ، والوضوح ، والارداف في التمثيل . وتكلم في باب المعاني على الصحة في التقسيم والاستحالة ، والتناقض ، وصحة التشبيه ، والأوصاف ، والمقابلة في المعاني ، وصحة النسق ، والنظم بحسن التخلص من معنى الى معنى ، وصحة التفسير ، والمبالغة ، والغلو ، والاحتراس بالتعليل .

هذا هو مختصر موضوعات كتاب « سر الفصاحة » ، وكان لهذا العرض والاسلوب اثر فيمن جاء بعد ابن سنان ، فقد استفاد ابن الأثير منه في كتابيه « الجامع الكبير » و « المثل السائر » ، وإن انكر قيمة الكتاب ، يقول : « فلم أجد ما ينتفع به في ذلك الا كتاب الموازنة

(١) سر الفصاحة ص ٦٠ .

لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي ، وكتاب سر الفصاحة لابي محمد عبدالله بن سنان الخفاجي ، غير ان كتاب الموازنة أجمع اصولا واجدى محصولا ، وكتاب سر الفصاحة وان نَبَّهَ فيه على نكت كثيرة فانه قد أكْثَرَ مما قَلَّ به مقدار كتابه من ذكر الأصوات والحروف والكلام عليها ، ومن الكلام على اللفظة المفردة وصفاتها مما لا حاجة الى اكثره، ومن الكلام في مواضع شَذَّ عنه الصواب فيها ...على أن كلا الكتابين قد أهملا من هذا العلم أبوابا ، ولربما ذكرا في بعض المواضع قشورا وتركا لبابا »[1] .

وليت المتأخرين استفادوا من سر الفصاحة في بحث البلاغة ورتبوها على هذا الاساس مثلما رتبها المتقدمون ، ولكنهم أسرفوا في التقسيمات وادخال الدلالات الوضعية والعقلية في مباحثها .

وبعد أن انتهى من هذا التقسيم عقد فصلا مهما في ذكر الأقوال الفاسدة من التفضيل بين المتقدمين والمحدثين ، ويعتبر هذا الفصل من البحوث المهمة في نقد الكلام . ثم عقد فصلا في ذكر الفرق بين المنظوم والمنثور وما يقال في تفضيل احدهما على الآخر ، وهذا الفصل هو الذي اعتمد عليه ابن الاثير في التفضيل بين الشعر والنثر[2] .

وختم الكتاب بفصل فيما يحتاج مؤلف الكلام الى معرفته ،وانتهى الى « أنَّ مؤلف الكلام لو عرف حقيقة كل علم ، واطلع على كل صناعة لأثَّر ذلك في تأليفه ومعانيه وألفاظه ، لانه يدفع الى اشياء يصنعها ، فاذا خبر كل شيء وتحققه كان وصفه له أسهل ، ونعته أمكن»[3] . وهذا ما أشار اليه ابن الأثير فيما بعد ، وعقد له بحثا طويلا في مقدمة « المثل السائر » و « الجامع الكبير » .

وكان من الخير لو ألحق ابن سنان بكتابه قطعا مختارة من النظم

(١) المثل السائر ج١ ص ٣ – ٤ .
(٢) سر الفصاحة ص ٣٣٧ ، والمثل السائر ج٢ ص ٤١٢ .
(٣) سر الفصاحة ص ٣٤٣ .

والنثر ليتدرب بالوقوف عليها في فهم ماذكر من أحكام البلاغة ، فقد كان هذا هدفه الا أنه عدل عنه أخيرا وقال : « وإذْ قد انتهى بنا القول الى هذا الموضع ، فالواجب أن نختم الكتاب ، لأنا قد وفينا بجميع ما شرطناه في اوله ، وكنا قد عزمنا على أن نصله بقطعة مختارة من النظم والنثر يتدرب بالوقوف عليها في فهم ما ذكرناه من أحكام البلاغة وكشفناه من اسرار الفصاحة ، لكنا فرقنا من الاطالة والتثقيل على الناظر فيه بالملل والسآمة ، فعدلنا الى وضع ذلك في كتاب مفرد »[1] .

ولم نعثر على الكتاب الذي وعد بافراده لهذا الغرض ، ولا ندري هل سنحت له الفرصة فوضع هذا الكتاب ، او شغلته عنه الحياة ، ونفسه الطموح .

ويرى الاستاذ عبدالمتعال الصعيدي ان في كتاب سر الفصاحة عيبا كبيراً في الاساس الذي قام عليه ، وخللا ظاهرا في ترتيب أبوابه ، وخطأ ملموسا في توزيع موضوعاته[2] . وقد يكون هذا صحيحا اذا طبقنا على الكتاب منهج السكاكي والقزويني ، اما اذا نظرنا اليه نظرة اخرى فيكون الكتاب ذا قيمة علمية ومنهجية ، فلقد سبق ابن سنان عصر الشروح والتلخيصات ، وكان ذا ذوق وحس مرهف ، وكانت له طريقته ومنهجه في التأليف ، وليس من الانصاف أن نطالبه بما لم يكن في عصره . ومهما يكن من شيء فقد أحسن ابن سنان واجاد في بحثه ، وكان كتابه من أهم كتب البلاغة والنقد .

وكان بحثه في اللفظة المفردة من أحسن ما كتب في هذا الموضوع الذي جعله المتأخرون مقدمة لكتبهم ، ولم يقصر الكلام على اللفظة المفردة ، ولكنه تجاوزها الى الكل الذي ينشأ من مجموع الكلمات . والادب عنده صناعة ، وكل صناعة من الصناعات فكمالها بخمسة أشياء هي : الموضوع وهو الخشب في صناعة النجارة ، والصانع وهو النجار ،

---

(١) سر الفصاحة ص ٣٤٣ .

(٢) مقدمة سر الفصاحة ص : ج

والصورة وهي كالتربيع المخصوص ان كان المصنوع كرسيا ، والغرض وهو ان يقصد على هذا المثال ان يجلس فوق ما يصنعه . واذا كان الامر على هذا ولا تمكن المنازعة فيه وكان تأليف الكلام المخصوص صناعة، وجب أن تحتبر فيها هذه الاقسام . فالموضوع هو الكلام المؤلف من الاصوات ، والصانع هو المؤلف الذي ينظم الكلام بعضه مع بعض كالكاتب والشاعر وغيرهما ، والصورة هي كالفصل للكاتب والبيت للشاعر وما يجريه مجراهما ، والآلة أقرب ما قيل فيها أنها طبع هذا الناظم ، والعلوم التي اكتسبها بعد ذلك ، ولهذا لا يمكن أحد ان يعلم الشعر من لا طبع له وان جهد نفسه في ذلك ، لأن الآلة التي يتوصل بها غير مقدورة لمخلوق ، ويمكن تعلم سائر الصناعات لوجود كل ما يحتاج اليه من آلاتها . والغرض يكون بحسب الكلام المؤلف ، فان كان مدحا كان الغرض به قولا ينبيء عن عظم حال الممدوح ، وان كان هجوا فبالضد ، وعلى هذا القياس كل ما يؤلف واذا تأملته وجدته كذلك»[1] .

وظهرت روح الخفاجي النقدية وضوحا تاما في مواضع كثيرة من كتابه ، وناقش النقاد والبلاغيين في مسائل كثيرة ، وأبدى وجهة نظره ، ولم يَكْتَفِ بعرض آرائه ، وانما عقد فصلا في ذكر الأقوال الفاسدة في نقد الكلام[2] . وناقش الآراء التي قيلت في تفضيل كلام على كلام ، وبَيَّنَ فساد رأي من يذهب الى تفضيل المتقدمين في الزمن على المتأخرين ، وانتهى الى ان الطريق الذي يؤدي الى المقصود من معرفة الألفاظ والمعاني ما ذكره في كتابه ، ونبه عليه .

ولم يقف عند نقد كلام العرب واظهار ما فيه من روعة وجمال ، وانما تجاوزه الى البحث في اعجاز القرآن ، وذكر ان المعجز الدال على نبوة محمد (ص) هو القرآن ، والخلاف فيما به كان معجزا على قولين:

أحدهما : انه خرق العادة بفصاحته وجرى ذلك مجرى قلب العصا حية

(١) سر الفصاحة ص ١٠٢ .
(٢) سر الفصاحة ص ٣٢٧ .

وليس للذاهب الى هذا المذهب مندوحة عن بيان الفصاحة التي وقع التزايد فيها موقعا خرج عن مقدور البشر .

وثانيهما : أن وجه الاعجاز في القرآن صرف العرب عن المعارضة مع أن فصاحة القرآن كانت في مقدورهم لولا الصرف ، وأمرُ القائل بهذا يجري مجرى الأول في الحاجة الى تحقق الفصاحة ما هي فيقطع على أنها كانت في مقدورهم من جنس فصاحتهم ، ونعلم انّ مسيلمة وغيره لم يَأْتِ بمعارضة على الحقيقة ، لان الكلام الذي أورده خالٍ من الفصاحة التي وقع التحدي بها في الأسلوب المخصوص[1] .

ويذهب ابن سنان الى أنّ في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه[2] . وانتهى الى أنّ القرآن الكريم معجز بالصَّرْفَةِ ، أي : انّ الله ــ سبحانه وتعالى ــ صرف هِمَمَهُم ودواعيهم عن المعارضة . يقول : « واذا عدنا الى التحقيق وجدنا اعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك ، واذا كان الأمر على هذا فنحن بمعزل عن ادعاء ما ذهب اليه[3] من أن بين تأليف حروف القرآن وبين غيره من كلام العرب ، كما بين المتنافر والمتلائم . ثم لو ذهبنا الى أن وجه اعجاز القرآن الفصاحة وادعينا أنّه أفصح من جميع كلام العرب بدرجة ما بين المعجز والممكن لم يفتقر في ذلك الى ادعاء ما قاله من مخالفة تأليف حروفه لتأليف الحروف الواقعة في الفصيح من كلام العرب ، وذلك أنه لم يكن بنفس هذا التأليف فقط فصيحا ، وانما الفصاحة لأمور عدة تقع في الكلام من جملتها التلائم في الحروف وغيره »[4] .

---

(١) سر الفصاحة ص ٤ .
(٢) سر الفصاحة ص ١١٠ .
(٣) أي : الرماني .
(٤) سر الفصاحة ص ١١٠ .

وأثّر كتاب «سر الفصاحة» تأثيرا كبيرا واعتمد عليه النقاد والبلاغيون، وكان من أهم تلاميذه — فيما بعد — ابن الاثير الذي اشاد بالكتاب، وإنْ غمزه وفضّلَ عليه « الموازنة بين الطائيين » . ويطول الكلام لو استقصينا جميع المسائل التي رد فيها ابن الأثير عليه في كتابيه «المثل السائر » و « الجامع الكبير » ، أو وافقه عليها . وقد شدّدَ عليه في بحث الفصاحة وشروطها وفنّدَ آراءه في كثير من الأحيان ، ولم يوافقه في بحثه هذا ، واكثاره من دراسة الاصوات الا في بعض المسائل ، منها ما يتعلق بذكر ما يكره سماعه من الالفاظ . يقول ابن الاثير : « واعلم أنّه قد جاء من الكلام ما معه قرينة فأوجبت قبحه ، ولو لم تجيء القرينة معه لكان الامر في استقباحه سهلا وذلك قول الشريف الرضي:

أعْزِز عليّ بأن اراك وقد خلا عن جانبيك مقاعدُ العُوّادِ

فان أبا محمد بن سنان الخفاجي قد ذكر هذا البيت في كتابه فقال : « ان ايراد هذه اللفظة أعني « مقاعد » في هذا الموضع صحيح، الا انه موافق لما يكره ذكره في مثل هذا الشعر لاسيما وقد أضافه الى من يحتمل اضافته اليه وهو العوّاد ، ولو انفرد لكان الامر فيه سهلا ، فأما الاضافة الى من ذكره ففيها قبح لاخفاء به . هذه حكاية كلام أبي محمد بن سنان الخفاجي وهو كلام مرضي واقع موقعه في هذا الباب»[1] . ورد عليه في باب الاستعارة ردا عنيفا ، ورجّح كلام الآمدي في تغيير بيت امريء القيس ونقده :

فقلت له لما تمطى بصُلبِه وأردفَ اعجازاً وناء بكلكلِ[2]

وهكذا خلق سر الفصاحة جواً من النقد ، وساهم في تطور البلاغة العربية ووضع مقاييسها .

---

(١) الجامع الكبير ص ٥٣ ، وينظر المثل السائر ج١ ص ١٨٦ وسر الفصاحة ص٩٣.
(٢) الجامع الكبير ص ٨٧ والمثل السائر ج١ ص ٣٨٤ .

ابن منقـذ :

وألف أبو المظفر اسامة بن منقذ (٥٨٤هـ)[1] كتابه : « البديع في نقد الشعر » جمع فيه خمسة وتسعين نوعا من فنون البديع . وهـذه الفنون البلاغية ليست مرتبة كالترتيب الذي وصل الينا عن السكاكي وتلاميذه ، وانما بحثها على اساس انها موضوع واحد ، فلا فَصْلَ بين معانٍ وبيان وبديع .

وكتاب البديع جَمْعٌ لما تفرّق في كتب المتقدمين التي وقف عليها وهي : البديع لابن المعتز ، والحالي والعاطل ، وحلية المحاضرة للحاتمي، وكتاب الصناعتين لابي هلال ، واللمع للعجمي ، والعمدة لابن رشيق. وقد حاول أن يجمع من هذه الكتب أمتع مافيها ليكون كتابه مغنيا عنها، ولم يَدَّعِ ابتداع فن مما اورده ، وقرر بصراحة أن لهؤلاء فضيلـة الابتداع وله فضيلة الاتباع[2] .

وطريقة اسامة تختلف كل الاختلاف عن طريقة ابن سنان ، وهو أقرب الى ابن المعتز في بديعه وأبي هلال في الصناعتين حيث يأخـذ الموضوع الواحد وبعد أن يعرفه تعريفا ذوقياً يعرض نماذج ادبية ويميز بين الحسن والرديء . وتكاد شخصيته تنعدم في الكتاب الا ما كان من نقده لابي هلال . يقول في بحث الركاكة : « الركاكة : هو أن يكون المعنى متناولا واللفظ متداولا كالكلمات المستعملة والالفاظ المهملة ، فيكون الشعر ركيكا ، والنسج ضعيفا كقول امريء القيس :

الا انني بالٍ على جمـل بالِ ... يقود بنا بالٍ ويتبعنا بـالِ

ومن العجب ان صاحب الصناعتين جعله من محاسن الشعر ولقبه

---

(١) تنظر ترجمته في وفيات الاعيان ج١ ص ١٧٥ وخريدة القصر وجريدة العصر (قسم الشام) ج١ ص ٤٩٨ ، ومقدمة كتاب البديع في نقد الشعر ص ١ وما بعدها .

(٢) البديع في نقد الشعر ص ٨ .

بالتعطف ولا خلف بين العالم والجاهل في ركاكته »[1] .

ومن التفاتاته النقدية ما ذكره عن ابيات لابن سنان اخذها عن مهيار ، وفيها تبدو مقدرته على العرض والتحليل ، واظهار ما في الكلام من روعة وجمال[2] .

وخالف البلاغيين في المصطلحات أحيانا ، فسمى الالتفات انصرافا وقال عنه : « هو أن يرجع من الخبر الى الخطاب ، ومن الخطاب الى الخبر ، مثل قوله تعالى : « حتى اذا كُنْتُم في الفُلْكِ وجَرَيْنَ بهم »[3] ولبعض العرب :

أتذكُر إذْ تودعنا سُليمى بعودِ أراكةٍ سقي البشام[4]

وخلط بين الكناية ، والتورية ، والتذييل ، والتتميم ، والمبالغة ، والتسهيم ، والترديد ، والتصدير ، والتشعيب . ووضع فصولا لمسائل بديهية ، ولأحكام عامة كما فعل في باب الظرافة والسهولة[5] .

وأحَسَّ القدماء بما في كتاب اسامة من خلط واضطراب ، فقال ابن أبي الأصبع المصري : « وبديع ابن منقذ على ما فيه من التوارد والتداخل وتسمية أقسام الباب الواحد أبوابا ، وضم أنواع المآخذ ، وأصناف العيوب الى المحاسن ، والاعتداد بها في عدة أبواب ، ومخالفة الشواهد والتراجم الى فنون من الزلل ، وضروب من الخلل يعرف صحتها من وقف على كتابه وأمعن النظر فيه وتدبر جملة معانيه »[6] .

وقال عنه في كتابه تحرير التحبير : « واذا وصلت الى بديع ابن

(١) البديع في نقد الشعر ص ١٦٤ ، وينظر كتاب الصناعتين ص ٤٢٠ .
(٢) ينظر البديع في نقد الشعر ص ١٩٩ .
(٣) سورة يونس ، الآية ٢٢ .
(٤) البديع في نقد الشعر ص ٢٠٠ .
(٥) ينظر البديع في نقد الشعر ص ١٣٤ .
(٦) بديع القرآن ص ١٣ .

منقذ وصلت الى الخبط والفساد العظيم ، والجمع من أشتات الخطأ وأنواعه من التوارد والتداخل ، وضم غير البديع والمحاسن الى البديع ، كانواع من العيوب ، وأصناف من السرقات، ومخالفة الشواهد للتراجم، وفنون من الزلل والخلل يعرف صحتها من وقف على كتابه وانعم النظر فيه »[1] .

وقال ابن حجة : « واذا وصلت الى بديع ابن منقذ وصلت الى الخبط والفساد ، والجمع بين أسباب الخطأ وأنواعه من التداخل والتبديل »[2] .

ومهما قيل في الكتاب فانه يمثل وجهة نظر مؤلفه ، ويعكس صورة صادقة لثقافته وثقافة عصره ، ويوضح اتجاه البلاغة والنقد وقتئذ . ويبقى بعد هذا كله مصدرا مهما لما فيه من التفاتات نقدية ، واشارات الى كتب نقل عنها واستفاد منها .

ابن شيث القرشي :

واذا كنا لا نعرف الكثير عن ابن شيث القرشي[3] ، فاننا نعرفه رجلا اشتغل بالبلاغة ، وترك كتابا فيها هو « معالم الكتابة ومغانم الاصابة » . وهذا الكتاب وان لم يكن مثل كتابي ابن سنان وابن منقذ، لكن ينبغي الوقوف عنده قليلا ، لانه يصور اتجاه البلاغة في مصر والشام في القرن السادس وما بعده .

والكتاب في ثمانية أبواب :

الأول : فيما يجب تقديمه ، ويتعين على الكاتب لزومه وقد تكلم فيه على اخلاق الكاتب ، واورد كلاما يذكّر بوصايا ابن المقفع في باب الصديق ، أو بوصايا عبدالحميد الكاتب في رسالته الى الكتّاب .

(١) تحرير التحبير ص ٩١ .
(٢) خزانة الادب ص ١٣٦ .
(٣) تنظر مقدمة ناشر معالم الكتابة ومغانم الاصابة ومجلة المشرق السنة ١٦ العدد ٧ تموز ١٩١٣ ص ٥٥٤ .

الثاني : في طبقات التراجم ، وأوائل الكتب ، وما يكون به التخاطب بين المتكاتبين على مقدارهما .

الثالث : في ذكر الخط ، وحروفه ، وبري القلم ، ومسكه .

الرابع : في البلاغة وما يتصل بها ، وهو أهم أبواب الكتاب .

الخامس : في الفاظ يقوم بعضها مقام بعض .

السادس : في الأمثال التي يدمجها الكاتب في كلامه ، ويستشهد بها .

الثامن : فيما لابد للكاتب من النظر فيه والتحرز منه .

وسقط الباب السابع في النسخة المطبوعة ، لأن الناشر لم يجد منه في الاصل سوى صفحتين،فعدل عن نشرهما ، وبذلك حرمنا منهما، وكان عليه ــ أمانة للعلم ــ أن يذكرهما او يبين ما فيهما ليكون القاريء على بينة من امرهما .

وألوان البلاغة التي ذكرها في الباب الرابع يندرج معظمها فيما أطلق عليه بعد ذلك اسم البديع . ولم يكن المؤلف موفقا في بحثها ، وكأنه لم يستفد من كتب البلاغة المتقدمة ، أو يحاول تقليدها على الاقل . وهذا الباب هو أهم ما في الكتاب وعليه المعول . يقول: «اعلم أنّ هذا الباب هو الذي عليه المعول في الكتابة ، وفيه تتفاوت أقدار الكتاب، وهو الذي فضّل الله به من آتاه من عباده فصل الخطاب ، والوقوف على كلام المتقدمين فيه يرهب الخاطر ، ويشحذه ، ويسدد العقول وينفذه »[1] .

وذكر أنّ البلاغة مجموعة في قسمين :

أحدهما : أنْ يكون اللفظ قليلا ، وهو دال على معانٍ ، وهو أعلى القسمين .

والثاني : أن يكون الكلام منطبقا على المعنى لا يفضل عنه .

---

(١) معالم الكتابة ومغانم الاصابة ص ٦١ .

وهذان القسمان هما اللذان كان حذاق الكتاب واقفين عندهما ، ولذلك لم يتكلفوا من السجع ورعاية الالفاظ المصنوعة ما يخرجهم عن ذلك ، الا أنهم كانوا يخاطبون من يفهم عنهم ، فاضطر الكتاب البلغاء الى قسم ثالث وهو أن تكون الألفاظ نقية مسجوعة سجعاحاليافتكون الزيادة منها في حفاوة رونقها وحسنها ، وصار هذا المذهب بينهم هو المسلوك ، وصار ذلك الأول وان كان هو للعرف كأنه متروك . فاذا اتفق حصول ذينك القسمين في هذه الالفاظ النقية كان ذلك شاهدا بالتبريز الى غايات العلى ، وأجمع بين محاسن الصور وزينة الحلى . والعمل كله على أن تكون الالفاظ أهلية انسية ، ولا تكون وحشية ولا منسية . والتمكن من البلاغة لا يختلف عليه الحال من الالفاظ الخاصية ولا العامية ، بل هو في كلتا الحالتين يعطي البلاغة حدّها وحظها ، ويتوخى جزل الألفاظ ورقيقها ، ويتحامى غليظها وفظها .

وقد ذكر أنّ نعوت الشعر كلها تدخل في نعوت النثر الا الوزن، والشاعر المجيد يقدر على أن يكون كاتبا بليغا ، والكاتب اذا لم يكن الشعر في طبعه لا يقدر أن يكون شاعرا ، لأن الشعر ما لم يكن في الطبع لا يكتسب بالممارسة ، لان الوزن أمر ذوقي لا سبيل الى ادراكه بالمعاناة ولو أديم له الكدح والكد . واحسن السجع ما توازنت فيه الالفاظ والتزم فيه رصف الكلمة التي يوقف عليها في الكلمة الاخرى التي تطابقها في السجع . وهو نوعان : سجع حالٍ ، وسجع عاطل .

فالسجع الحالي هو كل كلمتين جاءتا في الكلام المنثور على زنة واحدة تصلح أن تكون احداهما قافية أمام صاحبتها مثل « فلان لا تدرك في المجد غايته ولا تنسخ من الفضل آيته » ، وكقوله عليه السلام : « يرجعن مأزورات غير مأجورات » ، وبمقدار ما تتوازن اللفظتان ويلزم فيهما من تكرار الحروف يكون التبريز في ذلك . وأما السجع العاطل فهو أن تقابل اللفظة أختها ولا تجمع بينهما القافية، وكثير من الكتاب البلغاء يقصده لخلوه من التكلف وجريانه على

سجية الكلام دون التصنع ، وهو كقوله : « قَلّ أهل الدين والامانة، فالى من يسكن وعلى من يعوّل»،فقال « يعوّل » في قبالة «يسكن».

والرجع او الرد عنده نوعان : مجتمع ومفرق ، فالمجتمع كل كلمتين جاءتا في الكلام على صيغة واحدة في اللفظ والخط لا تخالف احداهما الاخرى الا بأول الحروف ، ثم يعود ما في كل واحدة من الكلمتين في الاخرى بغير زيادة ولا نقص كقوله تعالى : « ويْلٌ لكلِ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ »[1] ، ومنه قول أبي عبادة :

لانتْ معاطِفُه فخيّل أنّه للخيزرانِ مناسبٌ بعظامِه
إنْ كنت تنكرُ ما أقولُ فجارِهِ أوْ بارِهِ ، أو سامِه أو هامِه[2]

والرجع المفرق هو كل كلمتين جاءتا في الكلام المنثور تضمن احداهما من الحروف ما تضمنته الاخرى بغير زيادة ولا نقصان ، إلا انه على غير بيّنة ولا ترتيب كما في الرجع المجتمع ، ولكن قد يتقدم بعض الحروف على بعض ، وهو من أحسن أنواع الكتابة مثل : « فلان أرفع القوم عمادا ، وأفرعهم معادا ، وأصدقهم ميعادا » .

والترصيع نوعان : ترصيع حذو ، وترصيع لغو ، وترصيع الحذو كقوله تعالى : « وهُمْ يَحْسَبُونَ أنَّهُمْ يُحْسِنُون صُنْعًا »[3] . وترصيع اللغو هو كل كلمتين جاءتا في النثر على صورة واحدة في الخط لا يفرق بينهما الا بالشكل والنقط ، الا انه لا يصلح ان تكون احداهما قبالة الاخرى قافية لاختلاف حرف الروى كقوله « أعجبني من نبل فلان شائنه ، ومن نيله سائغه » .

والالمام أن يلم الكاتب في صدر كلامه بكلمة ثم يبني عليها فصلا ثم يتفق أن يستعمل كلمة اخرى أجنبية فينافر ما بين اللفظين ،

---

(١) سورة الهمزة ، الآية ١ .
(٢) معالم الكتابة ومغانم الاصابة ص ٧٠ .
(٣) سورة الكهف ، الآية ١٠٤ .

وينافي ما بين المعنيين ، فيعود الى تلك الكلمة التي استعملها في صدر كلامه يعكسها هجاء ، ويعيدها في أول الفصل الثاني مثل « أفاض الله عليك نعمة وأضاف اليك قسمة » .

والتوشيع ان يستعمل الكاتب في صدر كلامه كلمة يقتضي لفظها بمجرده في لغة العرب معنيين فصاعدا ، ثم يبني بعدها فصلا ويأتي بعده بالفصل الذي تقتضيه تلك الكلمة مثل : « ان فلانا يميل الى الخير واتيانه ، وعن الشر واستحسانه » ألا ترى ان لفظ «يميل» يحتمل أن يكون الى الشيء وعنه .

والتتميم أن يأتي الكاتب في كلامه المنثور بكلمة لام الفعل فيها حرف علة،ثم يأتي بكلمة من بعدها لام الفعل فيها حرف صحيح يشبَّع للاعتماد عليه للاعراب فيحصل من ذلك تتميم اللفظ وتحصيل معنى تَمَّ به في تلك الكلمة الاولى التي أتى بها في صدر كلامه مثل :

يَمُدّونَ من أيْدٍ عواصٍ عواصِمٍ
تَصولُ بأسيافٍ قواضٍ قواضبِ

وقد تحدث عن التجنيس ، والمطابقة ، والجزالة ، والسهولة ، والانصراف ، والتكرار ، والفك ، والابتداء ، والختم ، والرشاقة ، والالتجاء ، والجحد ، والتفسير ، والمقابلة ، والموازنة ، والاستخدام، والاستطراد ، والتقسيم ، والعكس ، والاستعارة ، والتورية .

هذه موضوعات الكتاب وفيها يبدو جنوح القرشي الى المدرسة الادبية والابتعاد عن بلاغة أهل الفلسفة والاعاجم.ويتضح هذا في اكثاره من الامثلة ، وعدم تحديده المصطلحات تحديدا جامعاً مانعا ، وعدم تقسيم الموضوعات الى فروع كثيرة وأقسام يضيع القاريء فيها.ولم يجعل القاعدة محور البحث ، وانما كان الشاهد او المثال محور بحثه . وقد صرح بابتعاده عن أهل الفلسفة ، فقال عن التجنيس:«التجنيس هو مصدر جنس يجنس تجنيسا اذا ماثل بين الحروف على اصل ما جاء

به الاصمعي في كتاب الاجناس ، لا على حد ما جاء به أصحاب المنطق »[1] .

ويلاحظ أنه لم يتابع المدرسة الكلامية في المصطلحات ، وانما وضع مصطلحات جديدة ، فاستعمل الهدم في الموضع الذي استخدم فيه البلاغيون الذم بما يشبه المدح، يقول : « الهدم وهو أن تذكر انسانا بصفة في كلامك ثم تنقضها بكلمة من جنسها ، مثاله : « فلان سبط الخلائق ، الا انه جعد الأنامل ، مرفوع الحجاب الا انه محجوب النائل »[2] .

واستعمل الفك في الموضع الذي استخدموا فيه الاستدراك وهو ان ينفصل الكلام الاول عن الكلام الثاني بحرف استثناء وغيره[3] .

واستعمل الانصراف في الموضع الذي استعملوا فيه الالتفات . وقَسَّمَ السجع الى حالٍ وعاطل ، وهو تقسيم لا نجده عند غيره ، ولا نجده مألوفا اليوم .

ومن هنا نستطيع أن نؤكد عدم اتصال المدرسة الادبية بالمدرسة الكلامية في عصر ابن شيث ، وان اتصلت بها فانها لم تؤثر فيها تأثيرا قويا .

ابن الاثير :

وأما ضياء الدين بن الاثير (٦٣٧ هـ)[4] فهو من اعظم رجال البلاغة في هذه الفترة ، وقد ألف عدة كتب منها : « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » ، و « الجامع الكبير في صناعة المنظوم والمنثور » ، و « الاستدراك » . وهو في هذه الكتب وغيرها ناقد

(١) معالم الكتابة ومغانم الاصابة ص ٧٣ .
(٢) معالم الكتابة ومغانم الاصابة ص ٧٧ .
(٣) معالم الكتابة ومغانم الاصابة ص ٧٧ .
(٤) تنظر ترجمته في وفيات الاعيان ج٥ ص ٢٥ ، وفي كتاب « ضياء الدين بن الاثير وجهوده في النقد » .

كبير وبلاغي مجدد • واعظم كتبه المثل السائر الذي « جمع فيه فأوعى، ولم يترك شيئا يتعلق بفن الكتابة الا ذكره »[1] •

وليست البلاغة عنده كما نعرفها اليوم ، وانما هي طـرق تعلم الكتابة ، والحكم على المعاني ، والاستعارة ، والتشبيه ، والتجنيس ، ولزوم ما لا يلزم ، والسرقات • وكلها علم واحـد هو علم البيـان الذي يكون « بمنزلة اصول الفقه للاحكام »[2] ، فلا تميز بين مباحث المعاني أو البيان أو البديع ، وانما هي علم واحد يستعين به الشاعر او الكاتب بعد أن يتمرن على الكتابة ، ويحفظ القرآن الكريم وطرفا من الاحاديث النبوية والشعر العربي الرصين •

بنى كتابه البلاغي النقدي الكبير « المثل السائر » على مقدمة ومقالتين، فالمقدمة تشتمل على اصول علم البيان وهي عشرة فصول : موضوع علم البيان ، وآلات علم البيان وهي : معرفة العربية من نحو، وصرف ، ولغة ، وامثال ، وحفظ القرآن الكريم ، والاحاديث النبوية الشريفة ، وعلم القوافي والعروض • والحكم على المعاني ، والترجيح بين المعاني ، وجوامع الكلم • وفي الحكمة التي هي ضالـة المؤمن ، والحقيقة والمجاز ، والفصاحة والبلاغة وأركان الكتابة ، وفي الطريق الى تعلم الكتابة •

أما المقالة الاولى : فهي في الصناعة اللفظية ، وهي قسمان :القسم الاول في اللفظة المفردة تكلم فيه على شروط اللفظة المفردة وردّ على ابن سنان وأيّده في بعض آرائه • والقسم الثاني في الالفاظ المركبة وهي : السجع والتصريع ، والتجنيس ، والترصيع ، ولزوم ما لا يلزم ، والموازنة ، واختلاف صيغ الالفاظ ، وتكرير الحروف •

والمقالة الثانية : في الصناعة المعنوية وقد تحـدث فيهـا عن الاستعارة، والتشبيه ، والتجريد ، والالتفات ، والتقديم والتـأخير ،

---

(١) وفيات الاعيان ج٥ ص ٢٧ •

(٢) المثل السائر ج١ ص ٣ •

والايجاز والاطناب ، والسرقات وغيرها .

وجعل مدار كتابه « الجامع الكبير » على قطبين :
الاول : في الأشياء العامة . والثاني : في الاشياء الخاصة .

وقسم القطب الاول الى فنين : الاول : فيما يجب على مؤلف الكلام الابتداء به وهو أربعة ابواب : الاول : في آلات التأليف ، والثاني : في أدواته، والثالث : في الطريق الى صناعة النثر والنظم ، والرابع : في الحقيقة والمجاز .

والفن الثاني : في الكلام على الألفاظ والمعاني وتفضيل الكلام المنثور على المنظوم ، وهو ثلاثة أبواب : الاول : في الالفاظ المفردة والمركبة ، والثاني : في الكلام على المعاني ، والثالث : في تفضيل الكلام المنثور على المنظوم .

والقطب الثاني فنان : الاول : في الفصاحة والبلاغة ، والثاني : في ذكر أصناف البيان واقساماتها وهوبابان : الاول : في الصناعة المعنوية، والثاني : في الصناعة اللفظية . وتكلم في الباب الاول على الاستعارة، والتشبيه ، والالتفات والايجاز والاطناب ، والسرقات وغيرها من الموضوعات التي تحدث عنها في الصناعة المعنوية في كتابه المثل السائر . وتكلم في الباب الثاني على السجع والازدواج والتجنيس ، والترصيع ، ولزوم ما لا يلزم ، والموازنة ، واختلاف صيغ الالفاظ ، وتكرار الحروف .

وجمع في كتاب « الاستدراك » بحثين : الاول : مؤاخذته لابن الدهان على مؤاخذاته للمتنبي، والثاني : استدراكه على ما فات ابن الدهان من مآخذ المتنبي ، وبذلك لم يخرج كثيرا عن هذين الهدفين.

ويبدو ان ابن الاثير بعد أن حلق في كتابيه السابقين ، وجال جولات رائعة في علم البيان اراد ان يضع كتابا يطبق فيه بعض نظرياته وآرائه النقدية التي بثها في كتبه الاولى ، فألف الاستدراك بعد المثل

السائر[1] • وقدجاء هذا الكتاب جديدا في منهجه وآرائه واذا كان المثل السائر عمدة آراء ضياءالدين ونظرياته في البيان والنقد ، فان الاستدراك هو الصورة العملية الذي يكشف في جلاء عن منهجه في النقد وكيفية تطبيقه لآرائه ونظرياته التي شرعها ، وأرسى اصولها •

ومقدمة الاستدراك أهم ما فيه ، فقد تكلم على الشعر ونقده، والمفاضلة بين الشعراء ، والسرقات الادبية ، وموقف النحويين واللغويين من الشعر ونقده • ونقد شرح حماسة أبي تمام ، وأسهب في ذلك وأكثر من الشواهد الشعرية وقارن بينها ، والمقدمة بعد هذا كله « دستور للنقد أتى فيها المؤلف بأشياء جديرة بأن تقيد وتحفظ»[2]•

ولم يكن ابن الاثير مقلدا فيما كتب وألّف ، وانما كان مجددا وناقداً ثائرا ، وكان موقفه من رجال البلاغة موقف الناقد الموجه ، وقد استخرج فنونا بلاغية جديدة ، وكان هذا التجديد دافعا الى تأليفه « المثل السائر » و « الجامع الكبير » ، يقول : « وكنت عثرت على ضروب كثيرة منه في غضون القرآن الكريم ، ولم أجد أحدا ممن تقدمني تعرض لذكرشيء منها ، وهي اذا عدت كانت في هذا العلم بمقدار شطره »[3] • ويقول متحدثا عن القرآن الكريم : « فاستخرجت منه حينئذ ثلاثين ضربا من علم البيان لم يأت بها أحد من اولئك العلماء الاعيان،وكان ما ظفرت به أصل هذا الفن ،وعمدته، وخلاصة هذا العلم وزبدته[4] •

وكان ابن الاثير الى جانب ذلك كله ناقدا عظيما له منهج في النقد ما يزال كثير من اصوله عمدة النقد في العصر الحديث • وقد اعتمد في نقده على شيئين : الذوق والتعليل المبني على العلم والتوجيه الحسن • ولذلك نجده يؤكد عليه دائما ويقول : « واعلم أيها الناظر

---

(١) في الاستدراك ص ١١٩ ان ابن الاثير ألفهبعد المثل السائر •
(٢) مقدمة الاستدراك ص ١٠ •
(٣) المثل السائر ج١ ص ٤ •
(٤) الجامع الكبير ص ٣ •

في كتابي أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم الذي هو انفع من ذوق التعليم »[1] . ويقول بعد ذلك : « وملاك هذا كله الطبع ، فانه اذا لم يكن ثـَمَّ طبع فانه لا تغنى تلك الآلات شيئا[2] ومن أجل هذا حمل حملة عنيفة على المنطق والفلسفة ، ورأى في رجالها من أمثال ابن سينا والفارابي رجالا مغرورين أضلهم ارسطو وأفلاطون .

ولابن الأثير آراء كثيرة سنعرض لها في بحث بلاغة القزويني ، ونذكر هنا رأيه في الزمن والنقد، فهو يرى أن التقدم الزمني ليس له كبير أهمية في تقديم شاعر على شاعر ، فان جريرا والفرزدق والاخطل أشعر ممن تقدم من شعراء الجاهلية وبينهم وبين اولئك فرق بعيد ، وان أبا تمام والبحتري والمتنبي أشعر من الثلاثة المذكورين ، وليس عنده أشعر منهم في جاهلية ولا اسلام ، ويعلل ذلك بقوله : « والعرب وان سبقوا الى نظم الشعر فانهم لم يحصلوا على ما حصل عليه المتأخرون ، فان اولئك قالوه من غير تنقيب ولا تنقير ولا حفظ ولا درس فشذَّ عنهم الشيء الكثير من المعاني الدقيقة ، وأما الالفاظ فانهم أتوا بمحاسنها ولم يفتهم شيء منها لكنها توجد متدفقة في أشعارهم ويخلطونها بما قبح من الألفاظ ، والمتأخرون حصلوا على القسمين معا لأنهم نقبوا وحفظوا ودرسوا وأتقنوا كثيرا ، فنرى الشاعر منهم وقد حوى شعره ما تفرَّقَ في أشعار كثير من العرب »[3] .

ويرى أنَّ أبا تمام والبحتري والمتنبي : « لات الشعر وعزاه ومناته » الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومحسناته ، وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين الى فصاحة القدماء وجمعت بين الأمثال السائدة وحكمة الحكماء، يقول : « اما أبو تمام فانه رب معان وصيقل ألبابٍ واذهان .. واما أبو عبادة البحتري فانه احسن من سبك اللفظ على المعنى وأراد أن يشعر فغنى ، ولقد حاز طرفي الرقة والجزالة على

---

(1) المثل السائر ج1 ص 5 .
(2) المثل السائر ج1 ص 8 .
(3) الاستدراك ص 25 .

الاطلاق .. وأما ابو الطيب فانه أراد أن يسلك مسلك أبي تمام فقصرت عنه خطاه ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه لكنه حظى من شعره بالحكم والامثال واختص بالابداع في وصف مواقف القتال »[1].

ووضع للمفاضلة بين الشعراء قواعد وأصولا ، وكان يرى أن المفاضلة تقع بين الكلامين سواء كانا متفقين في المعنى أم مختلفين ، فاذا كانا متفقين فان المفاضلة بينهما ظاهرة مكشوفة كقول بشار بن برد :

من راقبَ الناسَ لم يظفر بحاجتِـه وفاز بالطيباتِ الفاتكُ اللهـجُ

وقول سلم الخاسر :

من راقبَ الناسَ مات غمًّـا وفاز باللـذةِ الجسـورُ

فالحكم بين هذين البيتين وبين مثلهما من المعاني المتفقة انما يقع في اللفظة خاصة ، وذلك يوجد في شيئين: أحدهما : يتعلق بنظم الكلام الذي هو سبك الألفاظ بعضها مع بعض ، والآخر : يتعلق بالايجاز الذي هو الاختصار .

فاما النظم فان له اوصافا اربعة هي : ان تكون الالفاظ واضحة بيّنة ليست بغريبة الاستعمال ، وان تكون الالفاظ حلوة في الفم ، سهلة على النطق ، غير مستثقلة ولا مستكرهة ، وان تكون كل لفظة من الالفاظ ملائمة لأختها التي تليها غير نافرة عنها ولا مباينة لها ، وألا يكون في الالفاظ تقديم وتأخير يستغلق بـه المعنى فيجيء نظم الكلام مضطربا ، ومتى عري الكلام من هذه الأوصاف لم يكن فصيحا وان عري عن شيء منها نقص منه جزء من الفصاحة ، واذا نظر الى هذين البيتين من جهة السبك وجدا سواء ، فهما اذن متساويان في هذه الجهة . وأما الايجاز فانه اذا نظر اليهما من جهته وجد بيت سلم أوْجَزَ من بيت بشار ، لأنه ثماني لفظات وذاك عشر ، فهو اذن افضل

(1) المثل السائر ج٢ ص ٣٦٩ .

منـــه[1] .

ورد على الذين كانوا لا يرون ان لا مفاضلة الا بين المعاني المتفقة، ولا يمكن ذلك بين المعاني المختلفة ، فقول امريء القيس :

كأنَّ قلوبَ الطير رطبـــاً ويابسا
لدى وكرها العنّابُ والحشفُ البـــالي

وقول النابغة :

ولستَ بمستبقٍ أخـاً لا تلمـّـــهُ
على شَعَثٍ ، أيُّ الرجالِ المهـذبُ ؟

لا يمكن المفاضلة بينهما لاشتمالهما على معنيين مختلفين .

ويرى ابن الأثير ان هذا المذهب فاسد ، لأنــه يؤدي الى ترك المفاضلة بين الجيد والرديء من الكلام اذا اختلف المعنى فيهما حتى اذا اسـدّ هذا الباب تعدى الى كلام الله تعالى فلا يقال اذن انه أفضل من غيره ، لأنه لا اتفاق بينهمافي المعنى . وطبق على هذين البيتين اوصاف النظم الأربعة ، يقول : « اذ الاوصاف الاربعة التي تتعلق بالسبك قد تساويا فيهما فلا يقال : ان هذا أفضل من هذا من هذه الجهة . واما من جهة المعنى فان بيت النابغـــة افضل ، وذلك لأنه تضمَّنَ حكمـــة تعرب عن تجربة الاخوان فيتأدب بها الغر الجاهل ويتنبه لهـــا الفطن الأريب ، والناس أحوج الى معرفته من معرفة التشبيه الذي يتضمنه بيت امريء القيس ، وغاية ما فيه أنه رأى صورة فحكاها في المماثلـــة بينها وبين صورة أخرى ، وليس ثَمّ سوى ذلك ، وبيت النابغة كلمـــة مؤدبة تستخرج بالفكر الدقيق »[2] .

ووضع قاعدة آخرى للمفاضلة وهي أن ننظـــر الى قصيدتـــين لشاعرين ، ونختار جيد هذه وجيد هذه ، فمن كان جيده أكثر بالنسبة

---

(1) الاستدراك ص ٥٨ ـ ٥٩ .
(2) الاستدراك ص ٦٠ .

الى رديئه حكم له بالفضيلة . أو أنْ تنظر في ديوان هذا وديوان هذا ، ويجري الأمر على ما تقدم في قصيديهما . ومثال ذلك أن يكون ديوان احدهما خمسة آلاف بيت منها أربعة آلاف جيدة وديوان الآخر ستة آلاف منها أربعة جيدة ، فالفضيلة المحكوم بها في هذا المقام لصاحب الخمسة دون الستة ، ولكنه يقول : « ان هذه مفاضلة مجازية ، لأن الاقوال لا تكال بالقِفْزان وتحشى بها الغَرائر[1] ، فرب بيت واحد يعدل مائة بيت »[2] .

وآراء ابن الأثير في النقد كثيرة عرض لها بالتفصيل الدكتور محمد زغلول سلام في كتابه « ضياءالدين بن الأثير وجهوده في النقد ».ولقد صدق المرحوم أحمد أمين حينما قال : « ومن أهم الكتب النقدية كتاب المثل السائر لابن الأثير ، وهو كتاب قَيِّم" مملوء بالالتفاتات الأدبية الرائعة التي تدل على ذوق بارع »[3] .

وقد أثر ابن الأثير في البلاغة تأثيرا عظيما ، وكان لكتابه « المثل السائر » صدى في القرون التي تلته ، وانقسم الناس فريقين فمنهم من أيّده وآزره ، ومنهم من نقده وأفرط في ذمه . ولعل أظهر منعارضه ابن ابي الحديد (٦٥٥ هـ) ــ صاحب شرح « نهج البلاغة »ــفي كتاب « الفلك الدائر على المثل السائر » الذي يقول فيه أخوه أحمد بن أبي الحديد لما سمع بتأليفه :

المثلُ السائرُ يا سيدي صنفت فيه الفلكَ الدائرا
لكنَّ هذا فلكٌ دائرٌ أصبحت فيه المثل السائرا[4]

ونَقَدَهُ في شرح « نهج البلاغة » ، وكان نقده في الكتابين

---

(١) القفيز : مكيال ، ج : أقفزة وقفزان . الغرارة : الكيس الكبير من صوف او شعر توضع فيه الحبوب أو غيرها ، ج : غرائر .
(٢) الاستدراك ص ٦١ .
(٣) النقد الادبي ص ٤٥٢ .
(٤) فوات الوفيات ج١ ص ١١ .

قاسيا ، وتبدو روح الحاسد الشامت واضحة جلية ، ومن هنا لا نرى لما كتب ابن أبي الحديد قيمة كبيرة .

وألّفَ محمود بن الحسين الركن السنجاري (٦٤٠ هـ) كتابا يرد فيه على ابن أبي الحديد ، وسماه « نشر المثل السائر وطي الفلك الدائر » .

وصنف صلاح الدين خليل ابن ايبك الصفدي (٧٦٥ هـ) كتابا سمّاه « نصرة الثائر على المثل السائر » .

واختصر بعضهم المثل السائر .

ابن الزملكاني :

وألف كمال الدين عبدالواحد بن عبدالكريم بن خلف الانصاري السماكي المعروف بابن الزملكاني (٦٥١هـ)[١] كتاب « التبيان في علم البيان المطلع على اعجاز القرآن » وضعه بعد أنْ رأى كتاب « دلائل الاعجاز » لعبدالقاهر غير منظّم مهذب ، فأراد أن يهذب مسائله ويجمعها ليكون قريب التناول سهل التداول ، يقول وهو يتحدث عن الفصاحة : « وعلم البيان آخذ بزمامها ، مدعو بامامها ، يريك البدائع والغرائب ، ويهديك المناقب والعجائب ، لغموضه ودقة رموزه ، استولت عليه يد النسيان والحقه قصور الهمم بخبر كان ، ولم أجد من المصنفات فيه الا القليل مع أنها مشحونة بالقال والقيل ، واجمعها كتاب « دلائل الاعجاز » للامام العالم النحرير علم المحققين عبدالقاهر الجرجاني — رحمه الله — ، فانه جمع فأوعى وقال فأوعى ، فلقد فك قيد الغرائب بالتقييد ، وهدم سور المعضلات بالتسوير المشيد حتى عاد أسهل من النفس وأصحب للفهم من الضوء لشهاب القبس في الغلس ، فجزاه الله خير الجزاء ، وجعل نصيبه من أوفر الاجزاء . غير انه واسع الخطو

(١) تنظر ترجمته في شذرات الذهب ج٥ ص ٢٥٤ ، والدارس في تاريخ المدارس ج١ ص ١٩٣ ، والبداية والنهاية ج١٣ ص ٣٢٥ ومقدمة التبيان في علم البيان المطلع على اعجاز القرآن ص ١٠ وما بعدها .

كثيرا ما يكرر الضبط ، فقيد للتبويب ، طريد من الترتيب ، يمل الناظر ويعشى الناظر . وقد سهل بالله تعالى جمع مقاصده وقواعده ، وضبط جوامحه وشوارده ، مع خرائد سمح بها الخاطر ، وزوائدنقلت من الكتب والدفاتر »[١] .

وألفه في ايام قلائل مع كثرة العوائق والشواغل ، وقدمه لوزير الشام ابي الحسن علي الأمين ، ورتبه على سوابق ومقاصد ولواحق ، وجعل من السابق مقدمات ثلاث : أولها في فضل علم البيان ، والثانية في حصر مواقع الخلط في اللفظ ، والثالثة في طريقة تحصيله .

والمقاصد ثلاثة أركان :

الاول : في الدلالات الافرادية ، ويشمل الكلام في الحقيقةوالمجاز وأقسامه من كناية ، واستعارة ، وتمثيل ، والفرق بين الاثبات بالاسم والفعل ، والمعرفة والنكرة ، وفي مفردات شذت عن الضوابط .

والثاني : في مراعاة أحوال التأليف وقد قسمه الى فنون هي : تقديم الاسم على الفعل وتأخيره ، خبر المبتدأ ، تقديم بعض الأسماء على بعض ، المجاز الاسنادي ، التشبيه ، ايجاز ، التأكيد ، الحذف ، المنصوبات ، معرفة الفصل والوصل ، معرفة اسباب التقديم والتأخير ، قوانين كلية .

والثالث : في معرفة أحوال اللفظ وأسماء اصنافه في علم البديع وفيه مقدمة وأصناف . أما المقدمة فتشتمل على بحث كلي يتعلق بمخارج الحروف ، وأما الاصناف فهي ستة وعشرون فنا من فنون البديع المعروفة كالتجنيس ، والترصيع ، والتضمين ، والمساواة ، والتتميم وغيرها . وأهمل أنواعا كثيرة ، أما لأنها ضمن فنون البديع المذكورة ، او لانها مذكورة في الركنين السابقين .

---

(١) التبيان في علم البيان ص ٢٩ــ٣٠ (تحقيق الدكتور احمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي) .

أما اللواحق فتكلم فيها على بيان الجهة التي تحصل بها البلاغة والاعجاز في القرآن ، وقد عرض خمسة آراء للاعجاز فند أربعة منها واعتبرها باطلة ، وتمسك برأي واحد رآه الصوابالذي لا يأتيهالباطل، وهو أن يكون الاعجاز راجعا الى توخي معاني النحو ، وأحكامه في النظم •

ويغلب على كتاب التبيان الاتجاه النحوي ، ولا عجب فالزملكاني مؤمن بالنحو وبالنظم الذي شرحه عبدالقاهر في « دلائل الاعجاز » وقال عنه : إنه ليس « الا توخي معاني النحو » • والكتاب وان كان عرضا لآراء عبد القاهر وترديدا لامثلته واقواله ـ غير أنه يمتاز عنه بالتبويب والتنسيق • وقد أشار المؤلف نفسه الى هذا في مقدمة الكتاب ، ولكنه لم يقف عند ما جاء في « دلائل الاعجاز» وانماتجاوزه الى كتب بلاغية أخرى لم يشر اليها • ونعتقد انه استفاد من كتاب « نهاية الايجاز في دراية الاعجاز » للرازي وكتاب « البديع في نقد الشعر » لاسامة بن منقذ وكتب ابن الاثير •

ولم يبق « التبيان » في البيئة الشامية ، بل سار في الاقاليم العربية كمصر واليمن ، وكان أحد المصادر الاربعة التي اعتمد عليها أمير المؤمنين يحيى بن حمزة العلوي (٧٤٩ هـ) في تأليف كتابه الضخم « الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز » ، وسار العلوي على خطاه في تفريعاته وتقسيماته ، واكثاره من الاشارات والتنبيهات •

وكان « التبيان » مصدراً مهما في التأليف ، فنقل عنه السبكي في « عروس الافراح » وأبو حيان النحوي الاندلسي في تفسيره « البحر المحيط » والسيوطي في « الأشباه والنظائر » و « همع الهوامع » •

وألف أبو المطرف بن عميرة احمد بن عبدالله بن عميرة المخزومي (٦٥٨هـ ــ١٢٦٠م) كتابا ردّ فيه على ابن الزملكاني سماه«التنبيهات

على ما في التبيان من التمويهات »[1] . ولم نعثر عليه ، لنطلع على موضوعاته ومنهجه ، ونرى موقفه من ابن الزملكاني .

ابن أبي الاصبع المصري :

وأما ابن أبي الاصبع فهو أبو محمد زكي الدين عبدالعظيم بن عبدالواحد المعروف بابن أبي الاصبع المصري العدواني (٦٥٤ هـ)[2]، وكان شاعراً أديبا ، وعلى ضوء هذه الروح ألف كتبه ، وأهمها في ألبلاغة والنقد : « تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن » و « بديع القرآن » .

ألف ابن أبي الاصبع كتاب « تحرير التحبير » ليدرس فيه الالوان البلاغية التي وجدت الى عصره ، وقسمه الى ثلاثة أقسام :تكلم في الاول على الاصول ، وهي الأبواب التي ذكرها ابن المعتز وقدامة . وتحدث في الثاني عن الأبواب التي عدّها فروعا كالاحتراس ، والمواربة ، والتسهيم ، والتورية . وتكلم في القسم الثالث على ما استخرجه بنفسه وهو ثلاثون فناً لم يسلم له منها الا انواع قليلة .

يقول في مقدمة الكتاب: « وبعد فاني رأيت ألقاب محاسن الكلام التي نعتت بالبديع قد انتهت الى عدد ، منه اصول وفروع . فاصوله ما أشار اليها ابن المعتز في بديعه وقدامه في نقده ، لانهما أول من عني بتأليف ذلك .

أما ابن المعتز فهو الذي سماه البديع ، واقتصر في كتابه بهذه التسمية على خمسة أبواب ... واما قدامة فضمّن كتابه الموسوم بنقد الشعر عشرين بابا ... وهذه اصول ما ساقه الناس في كتبهم من البديع ... » .

---

(١) ينظر نفح الطيب ج١ ص ٢٩٣ ، وكشف الظنون ج١ ص ٣٤١ ، وتاريخ الادب العربي لبروكلمان (الطبعة الالمانية) ج١ ص ٥٢٨ ، ومقدمة التبيان ص ١٧ .

(٢) تنظر ترجمته في فوات الوفيات ج١ ص ٦٠٨، وتقديم بديع القرآن ص ٨٥وتحرير التحبير ص ٤ وما بعدها ، وكتاب ابن أبي الاصبع المصري بين علماء البلاغة ص٣٠ومابعدها.

ويذكر انواع البديع الفروع ثم يقول : « واضفت هذه الابواب الفروع الى تلك الثلاثين الاصول فصارت الفذلكة تسعين بابا .. ولما أمرني من لا محيد لي عن أمره ، ولا محيص عن رسمه ، سيد الفضلاء ، وقدوة البلغاء ، وملجأ الأدباء ، ومحط رحال الغرباء ، وامام الكرماء ، القاضي الأجل الفاضل شرف الدين أبي الحسن بن القاضي الاجل الفقيه الامام الورع الرضي جلال‌الدين المكرم أبي‌الحسن موسى بن الحسن بن سناء الملك ـ أمتعه الله بفضائله كما امتع‌الفضلاء بفواضله ، ورحم سلفه كما رحم به من عرفه ـ بجمع ما في كتب الناس من ذلك على سبيل الاختصار من الشواهد ، وتجنب الاطالة يذكر كل الاشتقاق ، الا ايضاح مشكل ، أو كشف غامض أو زيادة بسط في الكلام ، على انه من كتاب الله تعالى ، او في بيت قد اهمل تقصي الكلام عليه ، بادرت الى امتثال أمره ، واستخرت الله سبحانه وتعالى حالة الشروع في مرسومه ، وسألت الاعانة على بلوغ غرضه ، والهداية الى ما يترجح عنده »[1] .

وبذلك جمع ابن أبي الاصبع ١٢٥ فناً بلاغيا في كتابه « تحرير التحبير » ، وقد كتبها باسلوب أدبي سهل ، وذكر الشواهد القرآنية والشعرية والنثرية ، وعرض الآراء المختلفة ، والمصطلحات المتعددة .

وألف كتابا خاصا بدراسة « بديع القرآن » أفرده من كتابه « تحرير التحبير » ، يقول عنه : « كتاب بديع القرآن الذي هوتتمة الاعجاز المترجم ببيان البرهان أفردته من كتاب هو وظيفة عمري ،وثمرة اشتغالي في ابان شبيبتي ومباحثي في أوان شيخوختي »[2] . وقَسَّمَهُ الى الأقسام الثلاثة التي ذكرها في تحرير التحبير.ويبدوأن فكرة بديع القرآن‌كانت رد فعل لفكرة الباقلاني التي بسطها في اعجاز القرآن التي ذهب فيها الى ان الاعجاز لا يلتمس من ناحية‌ما اشتمل‌عليه

(١) تنظر مقدمة تحرير التحبير ص ٨٣ وما بعدها .
(٢) بديع القرآن ص ٣ .

من البديع[1]، فجاء ابن ابي الأصبع ليظهر للناس ما في القرآن الكريم من بديع وما له من تأثير ، يقول في باب التورية : « واذا وصلت الى مواقع من التورية في الكتاب العزيز وصلت الى الغاية القصوى »[2] .

وكتاب البديع ــ وان كان مفردا من تحرير التحبير ــ يختلف عنه في انه ضم ١٠٩ أبواب بينمــا ضم الآخر ١٢٥ بابا ، والأبواب التي اهملها : الهزل الذي يراد به الجد ، ائتلاف اللفظ مع الوزن ، ائتلاف المعنى مع الوزن ، التجزئة ، الترصيع ، التصريع ، التشطير ، التطريز ، التوشيح ، الاغراق ، الغلو ، الاشتراك ، التفريع ، الابداع ، الاستعانة ، المشاكلة ، المواردة ، الحل ، العقد ، الاتفاق ، الهجاء في معرض المدح ، الألغاز والتعمية . وسبب تركها أنه لم يجد في القرآن الكريم أمثلة لها .

وذكر في « بديع القرآن » أنواعا لم يذكرها في التحبــير وهي : التلفيف ، التفصيل ، الالجاء ، التنظير ، الزيادة التي تفيد اللفظ فصاحة وحسنا ، التفريق والجمع ، الرمز والايماء . وهذه أثر من آثار متابعته البحث والتنقير في الكتب وإعمال الفكر .

وليست كتب ابن أبي الاصبع في البلاغة سردا لموضوعاتها وذكرا لأنواع البديع فحسب ، بل هي دراسة نقدية تمتاز بالتحليل الرائع والذوق السليم ، ولم يكن مقلدا وانما استطاع أن يضيف ثلاثين فنا من فنون البلاغة نسبها الى نفسه ولكن الناظر فيها يجد اكثرها في الكتب الأولى . وقد سلمت له أربعة عشر فنا هي : التمزيج ، الهجاء في معرض المدح ، العنوان ، الايضاح ، الحيدة والانتقال ، الشماتة ، الاسجال بعــد المغالطة ، التصرف ، التسليم ، الافتنان ، القول بالموجب ، حصــر الجزئي والحاقه بالكلي ، الابداع ، الاتصال[3] .

---

(١) ينظر اعجاز القرآن ص ١٦٨ .

(٢) تحرير التحبير ص ٢٧٠ .

(٣) ينظر بديع القرآن ص ٢٤٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٦ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٦ ، ٢٩٥ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣٢٦ ، ٣٤٠ ، وابن ابي الاصبع المصري بين علماء البلاغة ص ٣٠٧ــ٣٢٥ ، والبيان العربي (الطبعة الثالثة) ص ٢٣٨ ــ ٢٤٠ .

وأثر ابن أبي الأصبع في شهاب الدين محمود بن سـلمان الحلبي (٧٢٥ هـ) صاحب « حسن التوسل الى صناعة الترسل » ، والنويري (٧٣٣ هـ) مؤلف « نهاية الارب » ، والقزويني (٧٣٩ هـ) صـاحب « التلخيص » و « الايضاح » ، وبهاء الدين السبكي (٧٧٣ هـ) صاحب « عروس الأفراح » والسيوطي (٩١١ هـ) صاحب « الاتقان » .

٤

هؤلاء أشهر أعلام البلاغة في مصر والشام قبل القزويني ، وهم يكوّنون مدرسة خاصة لها اتجاهها وخصائصها ، فما هذه الخصائص والمميزات ..؟

خصائص ومميزات :

أول ما يلاحظ ان البلاغة العربية في القرن السادس وما بعده اخذت تتجه الى التحديد والتقسيم ، وكانت في البيئة المشرقية قد وقفت عند منهج معين وضعه السكاكي (٦٢٦ هـ) عندما قسمها الى المعاني : وهو تتبع خواص تراكيب الكلام في الافادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره . والى البيان : وهو معرفة ايراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه. والى وجوه يصار اليها لقصد تحسين الكلام ، وهي التي أطلق عليها المتأخرون فيما بعد المحسنات اللفظية والمعنوية أو علم البديع .

وفي الوقت الذي قسمت فيه البلاغة هذا التقسيم في بيئةخوارزم، نجد البلاغة في مصر والشام تنحو منحى آخر بعيداً كل البعد عن هذا

الاتجاه . ولو رجعنا الى أهم كتب هذه البيئة لوجدنا ابن سنان يقسم «سر الفصاحة» الى ثلاثة أقسام يتحدث فيها عن شروط الفصاحة في اللفظة الواحدة وشروطها في الألفاظ المنظوم بعضها مع بعض والكلام على المعاني مفردة عن الألفاظ . وتكلم ابن منقذ في «البديع في نقد الشعر» على فنون البديع المختلفة مما دخل في علم المعاني وما دخل في علم البيان ، وما دخل في علم البديع فيما بعد . وبنى ابن الأثير «المثل السائر» على مقدمة ومقالتين .

وفي الوقت الذي نجد السكاكي يضع مصطلحات البلاغة الوضع الاخير ، نجد مدرسة مصر والشام لا تسرف هذا الاسراف ، ونجد الاختلاف واضحا في المصطلحات ، فالسكاكي ورجال مدرسته يسمون الرجوع من الغيبة الى الخطاب ، ومن الخطاب الى الغيبة التفاتا ، واسامة وابن شيث يسميانه انصرافا . وبينما كان السكاكي وأصحابه يتكلمون في السجع وأقسامه ، كان القرشي يقسمه الى حال وعاطل ، وهو ما لا نعرفه عند غيره .

وبينما كان السكاكي يعرف الاستعارة بقوله: «هي ان تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مدعيا دخول المشبه في المشبه به دالا على ذلك باثباتك للمشبه ما يخص المشبه به»[1] نجد ابن الأثير يعرفها بقوله : «والذي عندي في ذلك أن يقال : حد الاستعارة نقل المعنى من لفظ الى لفظ لمشاركة بينهما مع طي ذكر المنقول اليه»[2] . وتعريف السكاكي اكثر تحديدا وهو — كما يقول المناطقة — جامع مانع ، اما تعريف الثاني فهو تعريف تسيطر عليه النزعة الفنية اكثر مما تغلب عليه الناحية العقلية البحتة . ويتجلى هذا بوضوح في قوله عنها وهو يتحدث عن التشبيه : «والتشبيه المحذوف أن يذكر المشبه دون المشبه به ، ويسمى استعارة»[3] . وهذه ليست الاستعارة بمعناها

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٧٤ .
(٢) المثل السائر ج١ ص ٣٥٦ .
(٣) المثل السائر ج١ ص ٣٦٥ .

الواسع الذي عرفه السكاكي وانما هي احد أنواعها الذي اطلق عليه اسم « الاستعارة المكنى عنها » .

وبذلك نستطيع أن نقرر ان المصطلحات الفنية والتقسيمات الخاضعة للمنطق لم تكن معرفتها قد تمت في هذا العصر، والى ذلك يشير الاستاذ الخولي بقوله : « اننا نرى في الشرق الأقرب لذلك العهد كتبا بلاغية تؤلف خالية من الاصطلاحات الكلامية أو ناقصا فيها تحديد تلك الاصطلاحات مع ان هذه الاصطلاحات كانت قد تقررت واستقرت في المدرسة الكلامية بالشرق الاقصى منذ عهد غير قصير ، ومن هذه الكتب التي تنقص فيها الاصطلاحات مثل كتاب المثل السائر لابن الأثير »[1] .

وانصرفت هذه المدرسة عن الفلسفة والمنطق وجنحت الى تحكيم الذوق ولعل ذلك يعود الى طبيعة مصر والشام الخيرة ، والى التحسس بمواطن الجمال في الحياة عامة وفي الأدب خاصة .

وكان رجال هذه المدرسة يرون علماء الفلسفة والمنطق كالفارابي وابن سينا رجالا أضلهم ارسطو وأفلاطون .وقد تجلى أثر هذه النظرة في البلاغة بأمرين : قصد دارسي البلاغة الى ابعاد الفلسفة عنها ، واطراح الوجوه الفلسفية في فهم التراكيب وعصبيتهم للعرب وتطولهم على اليونان[2] .

ورأى ابن الأثير انه لا فائدة في تعلم فلسفة أفلاطون ومنطق ارسطو ، مع أن المعاني الخطابية قد حصرت اصولها وأول من تكلم في ذلك حكماء اليونان ، غير ان ذلك الحصر كلي لا جزئي ومحال ان تحصر جزئيات المعاني وما يتفرع عليها من التفريعات التي لا نهاية لها ، ولا جرم أن ذلك الحصر لا يستفيد بمعرفته صاحب هذا العلم ولا يفتقر اليه فان البدوي البادي راعي الابل ما كان يمر شيء من ذلك

(١) مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والادب ص ٢٣٤ .
(٢) ينظر مناهج تجديد ص ٢٤٥ .

بفهمه ولا يخطر بباله ومع هذا فانه كان يأتي بالسحر الحلال ان قال شعرا او تكلم نثرا • وينتهي الى القول بأنه لا فائدة في كتب اليونان وغيرهم ، يقول : « ولقد فاوضني بعض المتفلسفين في هـذا وانساق الكلام الى شيء ذكر لأبي علي بن سينا في الخطابة والشعر ، وذكـر ضروبا من ضروب الشعر اليوناني يسمى اللاغوذيا ، وقام فاحضر كتاب الشفاء لأبي علي ووقفني على ما ذكره ، فلما وقفت عليه استجهلته فانه طوّل فيه وعرّض كأنه يخاطب بعض اليونان ، وكل الذي ذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربي شيئا »[1] •

وكان البحتري الشاعر العباسي قد صرخ من قبل بوجه أهـل المنطق والفلسفة قائلا :

كلفتمونا حـدودَ منطقكم ... في الشعر يَكْفي عن صدقه كَذِبُه
ولم يكن ذو القروحِ يَلْهَجُ بالمنـ ... ـطقِ ما نوعُهُ وما سببه
والشِّعْرُ لَمْحٌ تكفي اشارتُه ... وليس بالهذر طوّلت خطبه

وكان لأهل هذه البيئة الذوق السليم والقدرة العجيبة في تمييز الكلام الحسن ومعرفة الكلام الرديء ، يقول السبكي : « أما أهل بلادنا فهم مستغنون عن ذلك بما طبعهم الله تعالى عليه من الذوق السليم، والفهم المستقيم ، والأذهان التي هي أرق من النسيم ، وألطف من مـاء الحياة في المحيا الوسيم • أكسبهم النيل تلك الحلاوة ، وأشـار اليهم بأصبعه فظهرت عليهم هذه الطلاوة ، فهم يدركون بطباعهم ما أفنت فيه العلماء ــ فضلا عن الأغمار ــ الاعمار ، ويرون في مرآة قلوبهم الصقيلة ما احتجب من الأسرار خلف الاستار :

والسيفُ ما لم يلْفَ فيه صيقل ... من طبعه لم ينتفع بصقـالِ

فيا لها غنيمة لم يوجف عليها من خيل ولا ركاب ، ولم يزحف اليها بِعَدْوٍ عَادِيةٍ ولا بلحاقٍ لاحقٍ ، وانسكاب سكاب،فلذلك صرفوا

(١) المثل السائر ج١ ص ٣١١ •

هممهم الى العلوم التي هي نتيجة أو مادة لعلم البيان كاللغةوالنحو والفقه والحديث وتفسير القرآن • وأما أهل بلاد المشرق الذين لهم اليد الطولى في العلوم ولا سيما العلوم العقلية والمنطق فاستوفوا هممهم الشامخة في تحصيله واستولوا بجدهم على جملته وتفصيله »[1] •

وكان من أثر البيئة أن استجدت موضوعات في البلاغة نستشف منها الروح المصرية المرحة ، واذا ما اردنا أن نوضح ذلك فما علينا الا ان نذكر نماذج لهذه الفنون التي أضافتها هذه البيئة ، وفي هذه الانواع ما يستحق التقدير الخلقي والادبي كالنوع الذي سماه ابن أبي الاصبع المصري النزاهة ، وهو عنده نزاهة ألفاظ الهجاء وغيره عن الفحش حتى يكون الهجاء كما قال أبو عمرو بن العلاء تنشده العذراء في خدرها فلا يقبح عليها كقول جرير :

لو أنَّ تَغْلِبَ جَمَّعَتْ أحسابَها
يومَ التفاخرِ لم تَزِنْ مِثقالا

وكقوله في الراعي النميري :

فغُضِّ الطَّرفَ إنَّكَ من نُميرٍ
فلا كعباً بلغت ولا كلابا[2]

ومن الطريف ما سماه التدبيج ، وهوأن يذكر المتكلم الوانا بقصد الكناية بها والتورية بذكرها عن أشياء من وصف أو مدح او هجاء أو نسيب أو غير ذلك من الفنون ، أو لبيان فائدة الوصف بها كقوله تعالى: « ومن الجبالِ جُدَدٌ بيضٌ وحُمْرٌ مختلِفٌ ألوانُها وغرابيبُ سودٌ »[3] ، والمراد بذلك الكناية عن المشتبه والواضح من الطرق[4] •

---

(١) عروس الافراح ج١ ص ٥ .
(٢) تحرير التحبير ص ٥٨٤ ، وبديع القرآن ص ٢٩٠ .
(٣) سورة فاطر ، الآية ٢٧ .
(٤) تحرير التحبير ص ٥٣٢ ، وبديع القرآن ٢٤٢ .

ومن الفنون التي تتجلى فيها خفة الروح المصرية والميل الى التفكه « التهكم » وهو الاتيان بلفظ البشارة في موضع النذارة والوعد في مكان الوعيد تهاونا من القائل بالمقول له واستهزاء به كقوله تعالى : « بَشِّرِ المنافقينَ بأنَّ لهم عذابا اليما »(١) ، وقوله : « ذُقْ إنَّكَ أنْتَ العزيزُ الكريمُ »(٢) .

ومنها التندير ، وهو أن يأتي المتكلم بنادرة حلوة او نكتة مستظرفة وهو يقع في الجد والهزل ، ومن لطيفما جاء منه في الجد وبديعه قوله تعالى : « فاذا جاءَ الخوفُ رأيتَهُمْ ينظُرونَ اليك تدورُ أعينُهم كالذي يُغْشَى عليه من الموت» (٣) . يقول ابن أبي الأصبع : « فانظر الى مبالغته ــ سبحانه وتعالى ــ في وصف المنافقين بالجبن والخوف ، حيث أخبر عنهم بالخبر الصادق أنهم عند الخوف تدور أعينهم حالة الملاحظة كحالة من يغشى عليه من الموت ، ولو اقتصر سبحانه ــ وهو أعلم ــ على قوله : « كالذي يغشى عليه من الموت » لكان وافيا في المقصود ، ولكنه لم يقف سبحانه عند ذلك حتى زاد شيئا بقوله : « من الموت » ، اذ حالة المغشي عليه من الموت أشد حالة من غيره ، ولو جاء عز وجل في موضع الموت بالخوف لكان الكلام بليغا ، والذي جاء به التنزيل أبلغ وهو مع ذلك خارج مخرج الحق ، وجار مجرى الصدق فان المنافقين من الجبن والجزع بهذه المثابة ، وذلك الذي دعاهم الى النفاق ، فمن كان قوي النفس شجاع القلب ، لا يرضى بالنفاق ، بل يظهر ما يبطنه الخائف لقلة مبالاته بالموت ، وفي هذا الكلام من النذير لمن يتدبره ما يبهرج كل نادرة »(٤) .

وهذه الفنون ، وان لم تسلم كلها لابن أبي الأصبع ، غير أنه اهتم بها وبحثها ، فكانت صدى للبيئة العربية ، واستجابة للروح

---

(١) سورة النساء ، الآية ١٣٨ .

(٢) سورة الرعد ، الآية ١١ ينظر تحرير التحبير ص ٥٦٨ وبديع القرآن ص ٢٨٣ .

(٣) سورة الاحزاب ، الآية ١٩ .

(٤) بديع القرآن ص ٢٨٥ ، وينظر تحرير التحبير ص ٥٧١ .

المصرية . وانه لجدة وطرافة ان يدخل المصريون في البديع ألوانا ليست في نظر سواهم من البديع كأن يجعلوا من السهولة لونا ، وكأن يجعلوا من النزاهة لونا ، وكأن يجعلوا من الانسجام لونا ، وكأن يجعلوا من التهكم لونا[1] .

وليس هذا كل ما تمتاز به هذه البيئة ، وانما تمتاز بتحكيم الذوق في النقد والتحليل ، وسيطرة النقد الذاتي على النقد المبني على التعليل والقواعد الجافة ، وقد يكتفي احدهم بالاشارة الى مواطن الجمال كما في أبيات ديك الجن :

لما نظرت اليَّ عن حدق المهـا ... وبسمت عن متفتـح النوّار
وعقدت بين قضيب بانٍ أهيفٍ ... وقضيب رمل عقـدة الزنّار
عفّرتُ خدي في الثرى لك طائعا ... وعزمت فيك على دخول النار

يقول ابن الأثير : « وهذه الابيات لا تجد لها في الحسن شريكا ، ولان يسمى قائلها شحرورا اولى من أن يسمى ديكا »[2] .

واهتم علماء البلاغة في هذه البيئة بالبديع واكثروا من فنونه ، ويلاحظ أنهم اهتموا كثيرا بالبحث في بديع القرآن الكريم ، وألف ابن أبي الاصبع المصري « بديع القرآن » ، وقد تتبع فيه فنون البديـع وحررها ونقحها بدقة ، وذكر أمثلة رائعة من كتاب الله الذي كان دافعا لبحث أنواع البديع ، وابتداع فنون كثيرة لم يذكرها القدماء .

هذه أهم خصائص مدرسة مصر والشام البلاغية ، ولكن هـل بقيت البلاغة تسير في هذا الخط وتستلهم مقاييسها وأحكامهـا من الذوق السليم والطبيعة المرحة ؟.

---

(١) ينظر الحركة الفكرية في مصر ص ٢٤ ، وتنظر هذه الفنون في تحرير التحبير وبديـع القرآن .

(٢) المثل السائر ج١ ص ٣٧٧ .

٥

لم تَبْقَ هذه البيئة سليمة الذوق صافية المزاج ، فقد جاءها من المشرق « مفتاح العلوم » للسكاكي (٦٢٦ هـ) بعد أن ازمع علم البلاغة الترحل وآذن بالتحول عن هذه البيئة فازعا الى مصر ، ملقيا بها عصا التسيار ، منشدا :

أقمت بارض مصر فلا ورائي　　　تخب بي الركاب ولا أمامي[١]

ولا نعلم متى دخل المفتاح هذه البيئة العربية ، وأين قرىء ؟ وفي أي معهد علم أو حلقة درس وجد العناية أول الامر ؟ وكل ما نعرفه ان مفتاح العلوم عرف أول ما عرف في هذه البيئة في كتاب « المصباح » لبدر الدين بن مالك (٦٨٦ هـ)[٢] .

بدر الدين بن مالك :

ألف بدر الدين كتابين مهمين في البلاغة العربية هما : « المصباح في اختصار المفتاح » ، و « روض الاذهان في علم البيان » . وذكر ابن حجة الحموي أن له رسالة في البديع يقول : « وقيل ان الشيخ بدر الدين

---

(١) عروس الافراح ج١ ص ٦ .
(٢) تنظر ترجمته في بغية الوعاة ص ٩٦ ، وطبقات الشافعية ج٥ ص ٤١ .

ابن مالك أملى كراسة في البديع ، وانا بالاشواق الى رؤيتها »[١] .

والمصباح مختصر القسم الثالث من مفتاح العلوم وقد اشتهرهذا المختصر واستمر ردحا طويلا من الزمن قبلة طلاب البلاغة في بلادالمغرب وعُنِيَ بشرحه جماعة من المؤلفين ، فكان مثلهفيتلكالبلاد مثل تلخيص القزويني في البلاد الشرقية . واعتبره ابن خلـدون من أمهـات كتب البلاغة المتداولة في عهده[٢] ، وسماه القلقشندي « الايضاح »[٣] .

وكان لهذا الكتاب أثر واضح في الكتب التي جاءت بعده ونقل عنه المؤلفون واعتبروه أحـد مصـادرهم المهمة كالامام يحيى العلوي الذي عده رابع الكتب التي طالعها واعتمد عليها في تأليف الطراز[٤] ، وكان من أهم مصادر التلخيص والايضاح وشروحهما .

بدأه بدرالدين بالبحث في علم الأدب وهو معرفة ما يحترز به عن جميع وجوه الخطأ في العربية وقسمه الى ثلاثة فنون : المعاني والبيان والبديع . ويختلف قليلا عن « مفتاح العلوم » في منهجه ، وطريقـة عرضـه ، وهو أقرب الى كتب القزويني في العـرض والتنسـيق . وأهمّ اختلافاته مع المفتاح تقسيم المساواة الى نوعين : مسـاواة مـع الاختصار،ومساواة بدونه،والاول:أن يتحرى البليغ في تأدية معنىكلامه أخف ما يمكن فيحتال على الالفاظ القليلة الحروف والكثيرة المعاني التي يعز تحصيل مثلها على من دونه في البلاغة . والثاني : أن يأتي بالمساواة كيفما اتفق من غير ما تحر ويسمى ذلك متعارف الإوصاف وهو في باب البلاغة لا يحمد منهم ولا يذم .

وقسم الايجاز الى ثلاثة أنواع : الأول : سلوك طريق التضييـق

---

(١) خزانة الادب ص ٤٦ .

(٢) تنظر مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٢ .

(٣) ينظر صبح الاعشى ج١ ص ٤٦٩ .

(٤) الطراز ج١ ص ٤ .

بحذف اللام تحقيقا لقوة الدلالة على معناه . والثاني : سلوك طريق المساواة مع الاختصار . والثالث : أن يكون المعنى خليقا بمزيد البسط فتتركه الى بسط اختصر[1] .

وقسم الاطناب الى ثلاثة أضرب هي : سلوك طريق التوسيع بالتفصيل ، وسلوك طريق التوسيع بمثل التتميم ، والتوسيع بمثل التذييل .

وأدخل الفصاحة في القسم الثالث وهو البديع ، يقول عنه : «هو معرفة توابع الفصاحة »[2]. وقسمه الى ثلاثة فصول : الأول : فيما يرجع الى الفصاحة اللفظية وهو أربعة وعشرون ، والثاني : فيما يرجع الى الفصاحة المعنوية ويختص بافهام المعنى وتبيينه وهو تسعة عشر فنا . والثالث : فيما يرجع الى الفصاحة المختصة بتحسين الكلام وتزيينه الدالة على قوة عارضة المتكلم وتمكنه وهو خمسة عشر نوعا . وادخل حسن الابتداء وحسن التخلص ، وحسن الخاتمة ، في القسم الثالث . وتكلم على التتميم ، والاحتراس ، والتكميل ، والتذييل ، والاعتراض، والايغال ، والتكرار في البديع ، وهذا ما لا نجده عند السكاكي وأكثر علماء البلاغة المتأخرين .

وقد اجاد في بحث بعض الموضوعات كالمبالغة والائتلاف وان كان نفسه في البحث قصيراً ، وتحليقه في التحليل ليس فيه قدرة ابن الأثير وأضرابه من اعلام مدرسة مصر والشام . والكتاب مع ذلك ليست له قيمة كبيرة بالنسبة للكتب الاخرى ، ولكنه مُهِمٌ في معرفة تأريخ البلاغة العربية وتطورها ، وقد تباهى بدرالدين في خاتمته فقال : « وليكن هذا آخر الكتاب ، واعلم أنّي قد قدمت لك فيه قواعد متى بنيت عليها أعجب كل شاهد بناؤها ، ونهجت لك مناهج متى سلكتها اعترف لك

(١) المصباح ص ٣٦ .
(٢) المصباح ص ٧٥ .

بكمال الحذق والبلاغة ابناؤها ، ونصبت لك أعلاما متى انتحيتها أعثرتها على ضوالّ منشودة ، وحشدت لك من الامثلة ما ليس عند أحد بمحشودة،فمن لم يستضيء بهذا المصباح فليس ينفعه نور الصباح»[1] .

ونال المصباح اهتماما بالغا من لدن المغاربة ، ووضعت عليه الشروح والتلخيصات من ذلك « ضوء المصباح » لبدرالدين محمد بن يعقوب بن الياس بن النحوية (٧١٨ هـ) وشرحه في مجلدين سماه « اسفار الصباح عن ضوء المصباح »[2] .

والكتاب الثاني « روض الاذهان في علم البيان » وهو من كتبه التي ذكرها القدماء وسماه القلقشندي روض الازهار[3] . وكان أحد مصادر كتاب بهاءالدين السبكي ، وقد نقل عنه في مواضع كثيرة[4] . والكتاب لا يزال مخطوطا في مكتبة ليدن[5] ولا يختلف كثيرا عن كتابه الاول ومنهجه قريب منه ، وقد بدأه بالكلام على علم الادب ، ثم قسمه الى قسمين : الاول في المعاني والثاني في البيان ، ولما انتهى من الفن الثاني عقد فصلا للفصاحة وقسمها الى ضربين : أحدهما راجع الى المعنى والثاني الى اللفظ ، وفي هذا الفصل تكلم على فنون البديع ، وختمه بفصل«ما يطعن به الضلال على كلام رب العزة علت كلمته»،وهو في هذا يحذو حذو السكاكي ولا يخالفه الا في القسم الثالث الخاص بالبديع ، ولعل بدرالدين ألف « روض الأذهان » قبل « المصباح »، لأنه أقرب الى القسم الثالث من مفتاح العلوم .

وعلى كل حال فقد عرفت مصر والشام « مفتاح العلوم » في أواخر القرن السابع ، وكان « روض الاذهان » و « المصباح »الشرارة

---

(١) المصباح ص ١٢٨ .

(٢) ينظر الدرر الكامنة ج٤ ص ٢٨٦ ، وبغية الوعاة ص ١١٧ .

(٣) صبح الاعشى ج١ ص ٤٦٩ .

(٤) ينظر عروس الافراح ج١ ص ٣٠ ، ١٥٩ ، ٣٧٦ وغيرها .

(٥) لقد حصلنا على نسخة مخطوطة منه ولكن فيها خرما .

التي تحولت نارا أحرقت البلاغة العربية وكادت تودي بهـا لولا أن تداركها الله فبعث الخطيب القزويني ، ليعيد اليها الحياة ، ويثير حركة بلاغية جديدة شهدتها معاهد دمشق والقاهرة وحلقـات الدرس في كل مكان .

فمن هذا البلاغي الجديد ؟

الباب الأول

القزويني وآثاره

الفصل الأول

الخطيب القزويني

١

كان كتاب « المصباح » لبدرالدين الصورة الاولى من كتاب « مفتاح العلوم » التي ظهرت في بيئة مصر والشام ، وكان «التلخيص» و « الايضاح » ثمرة هذه الصورة ، وقمة البلاغة التي صبها الاعاجم في قالب افقدها كل روعة ، وسلبها الحياة . وقد أهمل « المفتاح » او كاد يكون نسيا منسيا بعد ان ظهر هذان الكتابان وانتشرا في ارجاء العالم الاسلامي كله ، واختصرهما العلماء ، وشرحوهما ، ووضعوا عليهما الحواشي والتقريرات ، وبقيا مرجع دارسي البلاغة والباحثين حتى اليوم .

فمن مؤلفهما الذي كتب للبلاغة على يديه ان تأخذ صورتها الاخيرة ؟

جلال الدين :

هو جلال الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن بن عمر بن احمد ابن محمد بن عبدالكريم بن الحسن بن علي بن ابراهيم بن علي ابن أحمد بن دلف بن ابي دلف العجلي القزويني الدمشقي الشافعي[١] . وذكر بعضهم انه « قاضي القضاة جلال الدين محمد بن عبدالرحيم القزويني الشافعي »[٢] . والخلاف في اسمه ليس كبيرا ، فقد اتفق معظم الذين ترجموا له انه « محمد بن عبدالرحمن » الا ابن كثير فقد ذكر انه « محمد بن عبدالرحيم ».

ولا نعرف كثيرا عن حياة هذا الرجل العظيم الذي ارسى اصول البلاغة العربية ، ووضع قواعدها ، وقد اغفل القدماء كثيرا من اخباره ، ولم يفصّلوا فيها ، ولعل قرب عهد من ترجموا له سبب ذلك فاكتفوا باللمحة العابرة والاشارة الخاطفة ، يقول ابن الوردي في تاريخه «وقرب العهد بسيرته يغني عن الاطالة »[٣] ، وهو ما قاله ابو الفدا في كتاب « المختصر في اخبار البشر »[٤] .

نسبه :

وكما لا نعرف كثيراً عن حياته ، لا نعرف صورة واضحة عن اسرته ، وأول ما يتبادر الى الذهن ان الرجل كان اعجميا ، والواقع انه « وان تكن له الى قزوين نسبة ، فانه عربي الدم ربيب البيئة المصرية »[٥] ، لانه ينتسب الى ابي دلف العجلي . وكان القزويني نفسه يذكر انه من نسل هذا العربي الاصيل الكريم[٦] . وليس من السهل بعد هذا

---

(١) ينظر الايضاح ص ١ ، والدرر الكامنة ج٤ ص ٣ ، ومفتاح السعادة ج١ ص١٢٠ ، والبدر الطالع ج٢ ص ١٨٣ ، وشذرات الذهب ج٦ ص ١٢٣ ، وبغية الوعاة ص ٦٦ .

(٢) البداية والنهاية ج١٤ ص ١٨٤ .

(٣) تاريخ ابن الوردي ج٢ ص ٣٢٥ .

(٤) المختصر في اخبار البشر ج٤ ص ١٢٩ .

(٥) مناهج تجديد ص ٢٤١ .

(٦) ينظر طبقات الشافعية ج٥ ص ٢٣٨ .

ان نخرجه من العنصـــر العربي وان لصق به اللقب الاعجمي ، فقـد اقتضت ظروف العرب الدينية والسياسية والاجتماعية ان يتركوا ديارهم وينتشروا في الارض ،ليبشروا بالدين الحنيف ، ويطلبوا الرزق والجاه والحياة الحرة الكريمة . وليس الخطيب القزويني اول عربي ينسب الى مدينة اعجمية ، فقد نسب الى البيئات الاعجمية كثيرون منهم ابو الفرج الاصفهاني صاحب الاغاني وهو من سلالة الامويين ، وبديع الزمان الهمذاني صاحب المقامات المعروفة وهو كما يقول عن نفسه « مضري المحتد ، تغلبي المورد » ، ومجد الدين ابو طاهر الفيروز ابادي صاحب « القاموس المحيط » والرازي ، وهما قرشيان من تيم من نسل ابي بكر الصديق، والابيوردي الشاعر الاموي المشـهور ، والمروزي المؤرخ كمال الدين عبدالرزاق من احفاد معن بن زائدة[1] .

آل دلف :

وأبو دلف العجلي (٢٢٦ هـ = ٨٤٠ م) الذي ينتسب اليه جلال الدين ، هو القاسم بن عيسى بن ادريس بن معقل[2]، أحد قواد المأمون والمعتصم ، وكان كريما سريا جوادا شجاعا مقدما ذا وقائع مشهورة ، أخذ عنه الادباء والفضلاء ، وله صنعة في الغناء . يقول الاصفهاني : « ومحله في الشجاعة ، وعلو المحل عند الخلفاء،وعظم الغناء في المشاهد، وحسن الادب ، وجودة الشعر ليس لكبير احد من نظرائه»[3] . وكان الشعراء يأتون اليه ويمدحونه ، ومن القصائد الرائعة فيه قصيدة ابي الحسن العَكَوَّك التي أولها :

ذاد ورد الغي عن صَدَرِه   فــارعوى واللهو من وطرِه

يقول فيها :

انما الدنيـــا أبو دُلَفٍ   بين مغــداه ومحتضَـــرِه
فــــاذا ولّـــى ابو دلف   ولت الدنيـــا على أثـــرِه

(١) ينظر هؤلاء الاعلام في تاريخ علماء المستنصرية ص ٣٠٥ .
(٢) ينظر نسبه في وفيات الاعيان ج٣ ص ٢٣٦ .
(٣) الاغاني ج٨ ص ٢٨٤ .

كل مَن في الارض من عرب بين باديه الى حضره
مستعير منك مكرمة يكتسيها يوم مفتخره[1]

لقد كانت هذه العائلة الكريمة في بغداد حاضرة الدولة العربية الاسلامية ، وكانت لها هيبتها وسطوتها ، ولكن ما الذي دعاها الى ان تطرح ابناءها في طول البلاد وعرضها ؟

لقد حاولنا ان نعرف كيف انتقل أحد فروعها الى المناطق الفارسية والى قزوين بالذات ، ولكننا لم نوفق الى ذلك توفيقا كبيرا وقد هدانا البحث الطويل الى خيط تمسكنا به لعله يوصلنا الى الحقيقة ويلقي الضوء على ما جرى لهذه العائلة وكان ذلك الخيط بكر بن عبدالعزيز بن أبي دلف الذي ذكرت المصادر القليلة عنه انه كان شاعرا ثائرا من بيت رئاسة ومجد ، امتنع بالاهواز في ايام المعتضد العباسي سنة ٢٨٣ هـ فسير المعتضد جيشا لقتاله فظفر بكر ، وقدم اصبهان ، فقصده عيسى بن النوشري فقاتله ، وتفرق رجال بكر عنه ، ونجا بكر في نفر يسير من اصحابه ، ومضى الى محمد بن زيد العلوي بطبرستان ، واقام عنده الى ان مات فيها سنة ٢٨٥ هـ . ولما وصل خبر موته الى المعتضد اعطى به الف دينار[2] .

ولو رجعنا الى ما قبل هذا العام لوجدنا ابن الاثير يذكر في حوادث سنة ٢٨٣ هـ الحرب بين عسكر المعتضد الخليفة العباسي واولاد ابي دلف ، ففي هذه السنة سار عبيد الله بن سليمان الى عمر بن عبدالعزيز ابن أبي دلف بالجبل فسار عمر اليه بالامان في شعبان فاذعن بالطاعة فخلع عليه وعلى أهل بيته ، وكان من قبل ذلك قد دخل بكر بن عبدالعزيز بالامان الى عبيد الله بن سليمان وبدر ، فولياه عمل اخيه على ان يسير اليه فيحاربه فلما دخل عمر في الامان قالا لبكر : ان اخاك قد دخل في الطاعة وانما وليناك عمله واظهر انه من قبل عمر بن عبدالعزيز

(١) الاغاني ج ٨ ص ٢٨٤ .
(٢) ينظر الكامل في التاريخ ج٧ ص ١٧٣ ، والنجوم الزاهرة ج٢ ص ٤١ .

فهرب بكر بن عبدالعزيز فكتب عبيد الله الى المعتضد بذلك فكتب الى بدر ليقيم بمكانه الى ان يعرف حال بكر وسار الوزير الى علي بن المعتضد بالري ولحق بكر بن عبدالعزيز بالاهواز ، فسير المعتضد اليه وصيف بن موشكير ، فسار اليه فلحقه بحدود فارس ، وباتا متقابلين وارتحل الى اصبهان ليلا فلم يتبعه وصيف بل رجع الى بغداد ، وسار بكر الى اصبهان فكتب المعتضد الى بدر يأمره بطلب بكر وحربه ، فأمر بدر عيسى النوشري بذلك فقال بكر قصيدة مطلعها :

عني ملامك ليس حين ملام هيهات اجدب زائد الايام

وفيها يصف شجاعته وبأسه ، ويتهدد بدرا[1] . وفي هذه السنة قدم عمر بن عبدالعزيز بن أبي دلف بغداد فأمر المعتضد الناس والقواد باستقباله وقعد له المعتضد فدخل عليه واكرمه وخلع عليه ، ولكن بكرا بقي ثائرا الى ان مات سنة ٢٨٥ هـ بطبرستان .

وهذا يظهر لنا ان اولاد ابي دلف العجلي واحفاده ، كانوا ثائرين على المعتضد العباسي ، وكانوا معتصمين بالمناطق الجبلية في شرق الدولة الاسلامية ، ومن هنا تفهم سر انتقال هؤلاء الابناء والاحفاد الى المناطق الفارسية ، الى طبرستان وقزوين .

ولو حاولنا ان نعيد نسب الخطيب القزويني الى هذين البطلين الثائرين لما استطعنا لانه ينتهي الى علي بن احمد فأبي دلف . ويمضي الزمن بهذه الاسرة وتختفي سلسلة النسب حتى اذا ما جاء القرن السادس ظهر عالم جليل من هذه الاسرة هو عبدالكريم بن محمد بن عبدالكريم بن الفضل الامام العلامة امام الدين الرافعي القزويني ، ذكره ابن الصلاح وقال عنه : « ما اظن في بلاد العجم مثله ، وكان ذا فنون ، حسن السيرة »[2] . وقال أبو عبدالله محمد بن محمد الاسفراييني عنه « هو شيخنا امام الدين وناصر السنة ،

---

(١) تنظر القصة في الكامل في التاريخ ج٧ ص ١٧١ .

(٢) فوات الوفيات ج٢ ص ٧ .

كان اوحد عصره في العلوم الدينية اصولا وفروعا ، وكان له مجلس بقزوين في التفسير وتفسير الحديث ، وكان زاهدا ورعا متواضعا»[١]. وقد مات هذا العالم الجليل بقزوين سنة ٦٢٣ هـ .

ونرجح ان القزويني كانت له صلة رحم بهذا العلامة ، فقد ذكر جمال الدين الأسنوي في نسبة الرافعي هذا ما يؤيد الصلة بين الرجلين، يقول : « وسمعت قاضي القضاة جلال الدين القزويني يقول : ان رافعان بالعجمي مثل الرافعي بالعربي ، فان الالف والنون في آخر الاسم عند العجم كالنسبة[٢] في آخره عند العرب . فرافعان نسبة الى رافع ،قال: ثم انه ليس بنواحي قزوين بلدة يقال لها رافعان ولا رافع ، بل هو منسوب الى جد له يقال له رافع . قلت : وحكى بعض الفضلاء عن شيخه قال : سألت القاضي مظفرالدين قاضي قزوين : الى ماذا نسبة الرافعي ؟ فقال : كتب بخطه وهو عندي في كتاب التدوين في اخبار قزوين : انه منسوب الى رافع بن خديج »[٣] .

ومما يؤيد صلة القزويني بهذا العالم الجليل ما ذكره ابو الفدا عنه يقول : « وبلغني ان بينه وبين الامام الرافعي قرابة »[٤] .

امام الدين :

ونجد بعد ذلك امام الدين القزويني اخا الخطيب ، وهو ابو المعالي عمر بن القاضي سعدالدين ابي القاسم عبدالرحمن بن الشيخ الامام امام الدين ابي حفص عمر بن احمد بن محمد بن عبدالكريم بن الحسين بن علي بن احمد بن خلف التميمي[٥] . ولد بتبريز سنة ٦٥٣ هـ وانتقل واشتغل في بلاد العجم والروم ، ثم قدم دمشق في الدولة الاشرفية هو

(١) فوات الوفيات ج٢ ص ٨ .
(٢) في شذرات الذهب ج٥ ص ١٠٩ : « كياء النسبة » .
(٣) طبقات الشافعية للاسنوي (مخطوطة الأوقاف ببغداد) ورقة ١٢٤ وينظر كتاب شذرات الذهب ج٥ ص ١٤٩ .
(٤) المختصر في اخبار البشر ج٤ ص ١٤٩ .
(٥) الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص ١٩٥ .

واخوه جلال الدين فقررا في مدارسها ، وتقلدا عدة مناصب في الشام .
ودرس امام‌الدين في سنة ٦٨٩ هـ بأم الصالح ، وفي عاشر جمادى الاولى سنة ٦٩٢ هـ بالظاهرية البرانية ، وحضر عنده القضاة والاعيان . وفي اواخر شوال سنة ٦٩٤ هـ قدمت من الديار المصرية تواقيع شتى منها تدريس الغزالية لابن صصرى عوضا عن الخطيب المقدسي ، وتوقيع تدريس الامينية لامام الدين عوضا عن نجم الدين بن صصرى ورسم لاخيه بتدريس الظاهرية البرانية ثم درس بالامينية وانتزع قضاء الشام من بدرالدين بن جماعة في سنة ٦٩٦ هـ ، وناب عنه اخوه .وفي جمادى الآخرة من هذه السنة وصل البريد فاخبر بولاية امام‌الدين القزويني القضاء بالشام عوضا عن ابن جماعة ، وابقاء ابن جماعة على الخطابة وتدريس القيمرية التي كانت بيد امام الدين . وجاء كتاب السلطان بذلك وفيه احترام واكرام له ، ودخل الى دمشق عقب صلاة الظهر يوم الاربعاء الثامن من شهر رجب فجلس بالعادلية ، وحكم بين الناس وامتدحه الشعراء بقصائد منها قصيدة مطلعها :

تبدلت الايامُ من عُسْرِها يُسْرا
وأضحت ثغورُ الشام تفترُّ بالبُشْرى

وكان حال دخوله عليه خلعة السلطان ومعه القاضي كمال‌الدين الزواوي قاضي القضاة المالكية ، وعليه خلعة . وقد شكر امام‌الدين في السفر وذكر من حسن اخلاقه ورياضته ما هو حسن جميل . ودرس بالعادلية بكرة يوم الاربعاء منتصف شهر رجب ، واشهد عليه بعد الدرس بتولية اخيه جلال‌الدين نيابة الحكم ، وجلس في الديوان الصغير وعليه الخلعة ، وجاء الناس يهنئونه ، وقُرِيء تقليده يوم الجمعة بالشباك الكمالي بعد الصلاة بحضرة نائب السلطنة سيف الدين قبجق المنصوري .

وفي سنة ٦٩٨هـ وقعت محنة للشيخ تقي‌الدين بن تيمية ، قام‌عليه

جماعة من الفقهاء في اواخر دولة لاجين بعد خروج قبجق من الشام ، وارادوا إحضاره الى مجلس القاضي جلال‌الدين فلم يحضر فنودي في البلد في العقيدة التي كان قد سأله عنها اهل حماة المسماة بالحموية ، فانتصر له الامير سيف الدين، وارسل يطلب الذين قاموا عنده فاختفى كثير منهم وضرب جماعة ممن نادى على العقيدة فسكت الباقون فلما كان يوم الجمعة عمل الشيخ تقي‌الدين الميعاد بالجامع على عادته وفسر في قوله تعالى : « وانك لعلى خلق‌عظيم» ، ثم اجتمع بالقاضي امام‌الدين يوم السبت واجتمع عنده جماعة من الفضلاء ، وبحثوا في الحموية وناقشوه في اماكن فيها ، فاجاب عنها بما اسكتهم بعد كلام كثير ، ثم ذهب الشيخ تقي‌الدين وقد تمهدت الامور وسكنت الاحوال .

وعندما توجه غازان المغولي الى الشام ، هرب جماعة من اعيان دمشق الى مصر وكان منهم القاضي امام‌الدين ، وقاضي المالكية الزواوي ، وتاج‌الدين الشيرازي ، وعلم‌الدين الصوابي والي البر ، وجمال‌الدين بن النحاس والي المدينة ، والمحتسب وغيرهم من التجار والعوام ، وبقي البلد شاغرا ليس فيه حاكم سوى نائب القلعة .وتألم امام‌الدين في الطريق وتوفي في القاهرة بعد اسبوع في يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من ربيع الآخر سنة ٦٩٩ هـ ، ودفن بالقرافة بالقرب من قبة الامام الشافعي عن ست واربعين سنة وصار المنصب بعده الى بدر الدين بن جماعة مضافا الى ما بيده من الخطابة .

وكان امام‌الدين حسن المعتقد ، صالح المقصد ، جميل الاخلاق ، كثير‌الاحسان ، رئيسا ، قليل الاذى ، وذكر ابن عماد الحنبلي انه «كان تام الشكل ، سمينا ، متواضعا ، مجموع الفضائل لم يكتهل »[1] .

---

(1) شذرات الذهب ج٥ ص٤٥١ ، وينظر البداية والنهاية ج١٣ ص ٣٣٢ ، ٣٤٩ و ج١٤ ص ٤ ، ٧ ، ١٣ ، وطبقات الشافعية ج٥ ص ١٣١ ، والدارس في تاريخ المدارس ج١ ص ١٩٦ ، ٣١٩ ، ٣٤٥ ، ٣٦٤ ، ٤٤٤ ، والنجوم الزاهرة ج٨ ص ١٠٩ ، ١٩٢ والسلوك ج١ ق٣ ص ٩٠٥ ، وتاريخ ابن خلدون ج٥ ص ٨٩٢ . وطبقات الشافعية للاسنوي (مخطوطة الاوقاف ببغداد) ورقة ٢٣٨ .

هذه حياة اخي جلال الدين القزويني ، وهي حياة حافلة بالعلم والجاه ، فقد تقلد مناصب التدريس والقضاء في الشام وحظي بمنزلة عظيمة ، وكان لهذا اثر عظيم في توجيه أخيه وجهة صالحة .

وذكر جمال الدين الاسنوي في طبقاته بعد ترجمة امام الدين والخطيب : « وكان لهما عم يقال له بدرالدين فضل الله . كان يحفظ الوجيز ويكرر عليه وهو في الشيخوخة . وتولى القضاء في بعض بلاد الروم ، وقدم دمشق للحج وأبنا أخيه فيها ، فلم يتفق له ذلك بسبب المرض . ومات في ربيع الآخر سنة ست وتسعين وستمائة »[1] .

أين ولد جلال الدين ؟ ومتى ؟

ذكرنا ان امام الدين ولد سنة ٦٥٣ هـ بتبريز ، وهي مدينة آهلة، كثيرة الخيرات والاحوال والصناعات ، وقد أصبحت في عهد زكريا القزويني صاحب آثار البلاد واخبار العباد قصبة بلاد اذربيجان ،ولكن بعض المؤرخين يذكر انه ولد بقزوين[2] ، وهي مدينة كبيرة مشهورة في بلاد فارس بينها وبين الري سبعة وعشرون فرسخا . واول من أستحدثها سابور ذو الاكتاف ، وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه ولّى البراء بن عازب الري في سنة ٢٤ هـ فسار منها الى ابهر ففتحها ورحل عنها الى قزوين ودخلت في الاسلام[3] . وكانت يوم نشأ القزويني بقبضة المغول الذين غزوا البلاد الاسلامية ، ودمروا الحضارة العربية الزاهرة ، واحالوا كثيرا من المدن حطاما .

ويبدو ان اسرة القزويني قد رحلت عن هذه المدينة أو هذه الديار بعد ان ولد امام الدين سنة ٦٥٣ هـ ، واستقرت في الموصل ، وهي يومذاك تحت حكم بدرالدين لؤلؤ وابنه الملك الصالح اسماعيل . ولا

---

(١) طبقات الشافعية للاسنوي ورقة ٢٣٨ .

(٢) الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص ١٩٥ .

(٣) ينظر معجم البلدان ج٧ ص ٨٠ ، ودائرة المعارف الاسلامية (الطبعة العربية) ج٢ ص ٨٢٠ .

نعرف سنة هجرتها ولا الدوافع التي حملت الوالد على الرحيل عن ملعب صباه ومرتع احلامه . ولعل اسباب الحياة والرزق تقطعت في هذه المدينة فضاق بالحياة ، أو لعله هرب من وجه المغول الغزاة الذين قضوا على الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦ هـ .

وبعد أنْ استقر النازحون في مدينة الموصل ، ولد جلال الدين فيها في شعبان سنة ٦٦٦ هـ (١٢٦٨ م) ، ولكن بعضهم ذكر انه ولد سنة ٦٦٠ هـ ، ولعل مصدر هذا احد اصول النجوم الزاهرة مع ان مؤلفه يذكر في المنهل الصافي انه ولد سنة ٦٦٦هـ[١] .

الموصل أيام النكبة :

وكانت الموصل يوم ولد جلال الدين خاضعة للتتر ، فبعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ بيد المغول ارسل صاحب الموصل بدرالدين لؤلؤ ابنه الملك الصالح اسماعيل ومعه جماعة من عسكره نجدة لهولاكو فاظهر لهم عبسه ، وقال : « انتم بعد في شك من امرنا ومطلتم نفوسكم يوما بعد يوم ، وقدّمتم رِجْلاً واخرتم اخرى ، لتنظروا من الظافر بصاحبه ، فلو انتصر الخليفة وخذلنا لكان مجيئكم اليه لا الينا . قل لابيك لقد عجبنا منك تعجبا ، كيف ذهب عليك الصواب ، وعول بك ذهنك عن سواء السبيل ، واتخذت اليقين ظنا وقد لاح الصبح فلا تستصبح ؟ »[٢] .

وعاد الى ابيه ليخبره بما جرى له مع هولاكو ، فخرج اليه وقدم له الطاعة ثم عاد الى الموصل ، ولكن القدر لم يمهله فمات سنة ٦٥٦هـ وقيل سنة ٦٥٧ هـ وتولى ابنه الملك الصالح اسماعيل الموصل ، وابنه علاءالدين سنجار ، وابنه اسحاق المجاهد الجزيرة ،

---

(١) ينظر الوافي بالوفيات ج٣ ص ٢٤٢ ، والبدر الطالع ج٢ ص ١٨٣ ، والدارس في تاريخ المدارس ج١ ص ١٩٦ ، والنجوم الزاهرة ج٣ ص ٣١٨ ، والمنهل الصافي ج٣ ص١٧٥ وشذرات الذهب ج٦ ص ١٢٣ ، وبغية الوعاة ص ٦٦ ، ومفتاح السعادة ج١ ص ١٦٨ .

(٢) تاريخ مختصر الدول ص ٤٨٢ .

وايّدهم هولاكو مظهرا لهم الرعاية والمودة • ولم تدم الحياة على هذه الحالة ، فقد شاءالقدر أن ينال الموصل من جحيم المغول ما أصاب بغدادوالشام ، وكأنّ الايام كانت لها بالمرصاد • ولئن نجت سنة ٦٥٦هـ ولم ينلها التدمير وتنزل بها الكوارث ، فقد نجت الى حين • وبدأت الفتن تضطرم في كل جانب ، واخذت المؤامرات تحاك وتدبر في الخفاء ودخلها المغول واصابها ما اصاب مدن العالم الاسلامي وحواضره ، فاضطربت الحياة وعمّت الفوضى والفساد ، واصبحت الموصل تخضع مع عمالها للدولة الايلخانية او المغولية ، ويحكمها العمال والضامنون الذين كانوا يضمنونها من الملوك الايلخانيين بمبلغ من الذهب ولذلك لم يكن الامير او الحاكم مهتما بشؤونها ، معمرا ارجاءها ، وانما كان همه منصبا على جمع المال ، وارضاء السلطان ، فاصاب المدينة تدهور وانحطاط بعد ان كانت في العصور العباسية وفي عهد الدولة الاتابكية ـ بوجه خاص ـ ملتقى الطرق ومنار الوافدين • ولكن المدينة لم تَخْلُ من حاكم صالح طوال حكم المغول ، فقد قام منهم ملوك اتصفوا بالعدل وامتازوا بحسن السيرة وخدمة العلم •

الى بلاد الروم ودمشق :

ويبدو أنّ المقام لم يطب لاسرة القزويني في هذه المدينة ، فرحلوا عنها الى بلاد الروم • وليس عندنا ما يوضح سبب هجرتها ، ولعل الاضطرابات والفتن والحروب هى التي دفعتها الى هذا ، او لعل اسباب الحياة اوحت اليهم بالهجرة فساروا يضربون في البلاد • ولسنا نعلم سنة رحيلهم عن الموصل ، ولا نعرف اين نزلوا ، واين استوطنوا ، وكيف كانوا يعيشون ، ومن أين يأتيهم رزقهم ؟ وكل ما نعرفه عن جلال الدين انه سكن بلاد الروم مع والده واخيه ، وولي بها قضاء ناحيته وله نحو من عشرين سنة[1] ، وكان ذلك سنة ٦٨٦ هـ تقريبا • غير ان ابن تغري بردى يرى أنّ في ولايته على مذهب الشافعي ببلاد

(١) ينظر الوافي بالوفيات ج٣ ص ٢٤٢ •

الروم نظرا لان مذهب هذه المناطق السائد كان المذهب الحنفي ، وقد اضاف قائلا : « اللهم الا ان كان تقلد حنفيا في تلك الايام في تلك البلاد ، ثم عاد الى مذهبه بعد ذلك فيمكن ، واما الروم فلم يَلِ فيها قاضٍ شافعي فيما نعلم »[1] .

ولا ندري كم بقي في هذا المنصب ، لانه سافر بعد ذلك مع اخيه الى دمشق في عهد الدولة الاشرفية وقرر في مدارسها . ويذكر ابن كثير أنّ قدومهما كان بعد سنة ٦٩٠ هـ[2] ، وهذا غير صحيح ، لان امامالدين درس بام الصالح في دمشق سنة ٦٨٩ هـ فيكون قدومهما في هذا العام او قبله على أقل تقدير .

واشتهرت عائلتهما في مصر والشام وعدت من الاسر البارزة فيها الى جانب اسرة الديري، والبارزي ، واسرة ابن بنت الاعز ، وابن جماعة ، وابن عبدالظاهر ، والسبكي .

---

(١) المنهل الصافي ج٣ ص ١٧٥ .

(٢) البداية والنهاية ج١٤ ص ١٨٥ .

٢

ويذكر المؤرخون أنّ جلال الدين خطيب ، فقيه،اصولي ،محدث، اديب ، عالم بالعربية والمعاني والبيان ، والى ذلك اشار ابن نباته المصري في قصيدته التي مدحه فيها، يقول :

بَحْرُ فِقْهٍ وإنْ تشا فابنُ بَحْرٍ
في ضروب البيانِ والتبيينِ
وخطيبٌ يكفي الخطوبَ بلفظٍ
يستميل الصخورَ بالتليينِ
ساجعٌ يورقُ المنابرَ مَيْساً
فتلذ الاسجاعُ فوق الغصونِ
وامامُ المحراب يشهد علمٌ
حازه انه إمامُ الفنونِ [1]

ثقافته :

ومعنى هذا انه كان على جانب عظيم من الثقافة ، والا لم يستطع ان يتولى التدريس والخطابة والقضاء . ومما يؤسف له ان المصادر

---

(١) سجع المطوق (نسخة دار الكتب بالقاهرة) ص ٢٣ب ، وديوان ابن نباتة المصري ص ٤٩٦ .

لا تذكر شيئا عن ثقافته او ما يلقي ضوء عليها ، وليس في كتبه ما يفيد ذلك وان كانت تدل على ثقافة بلاغية وادبية واسعة . وتجمع المصادر على انه كانت له يد في الاصولين : اصول الدين ، واصول الفقه ، او اصول العقائد ، واصول التشريع ، وكانت له ثقافة ادبية واسعة في الشعر والنثر والبلاغة . وقد انعكست هذه الثقافة في كتبه وخطبه التي كان يلقيها في مساجد دمشق والقاهرة ، وفي تقريظاته لكتب اصدقائه .

وكان حلو العبارة يتقن العربية والفارسية والتركية ويتحدث بالاخيرتين كما يتحدث بالعربية يقول ابن حجر : « وكان فصيحا بالتركي والفارسي والعربي »[1] وكان يرغّب الناس في الاشتغال باصول الفقه وفي المعاني والبيان . ويمكن ان نحكم على انه كان على جانب عظيم من الثقافة بما وصل الينا من اشارات عن حياته، فهم يذكرون انه كان فقيها ، خطيبا ، قاضيا ومؤلفا . ومن البديهي انه لن يكون فقيها ما لم يكن ملما باصول الدين ، واصول الفقه ، وهذا الالمام يحتاج الى دراسة واسعة وتفهم للقرآن الكريم ، وسنة الرسول محمد (ص) ، وكتب الفقه واصوله . ويبدو أنّه كان يعطي الفتاوى ، وكان له رأي في كثير من مسائل الفقه ، ومن فتياه التي تشهد له بالتضلع بالفقه واصوله ما رواه السبكي ، يقول : « افتى القاضي جلال الدين وهو خطيب دمشق في رجل فرض على نفسه لولده فرضا معينا في كل شهر ، واذن لامه حاضنته في الانفاق والاستدانة والرجوع عليه ، ففعلت ذلك، ومات الاب ، بان لها الرجوع في تركته . وتوقف معه الشيخ برهان الدين بن الفركاح لقول الاصحاب ان نفقة القريب تصير دينا لا بقرض القاضي او اذنه في الاستقراض فان ذلك يقتضي عدم الرجوع ،وقولهم لو قال : اطعم هذا الجائع وعليّ ضمانه استحق عليه ، ولو قال اعتق عبدك وعليّ الفا استحق يقتضي الرجوع . قلت : الارجح ما افتى به القاضي جلال الدين من الرجوع »[2] .

---

(1) الدرر الكامنة ج٢ ص ١٦١ .

(2) طبقات الشافعية ج٥ ص ٢٣٩ .

ولن يكون خطيبا يتولى الخطابة في الجامع الاموي مـا لم يكن مفوها ، ذا ثقافة كبيرة تساعده على اداء افكاره وتأثيره في مستمعيه .

أما القضاء فانه يحتاج الى رجل مطلع واسع الثقافة عظيم الادراك، وليس تولي القضاء سهلا في أي عصر من العصور ، وكان لتولي القضاء شروط وهي : الذكورية ، والبلوغ ، والعقل ، والحرية ، والاسـلام ، والعدالة ، وسلامة السمع والبصر، والعلم باحكام الشريعة ، والعلم بها يشـتمل على معرفـة اصولها وفروعهـا ، واصول الاحكام في الشرع اربعة :

أحدها : علمه بكتاب الله عز وجل على الوجه الذي يصح به معرفـة ما تضمنه من الاحكام ناسخا ومنسوخا ، ومحكما ومتشابهـا ، وعموما وخصوصا ، ومجملا ومفسرا .

والثاني : علمه بسنة رسول الله (ص) الثابتة من أقواله وأفعاله ،وطرق مجيئها في التواتر والآحاد والصحة والفساد .

والثالث : علمه باقاويل السلف فيما اجمعوا عليه واختلفوا فيه ، ليتبع الاجماع ، ويجتهد برأيه مع الاختلاف .

والرابع : علمه بالقياس الموجب لرد الفروع المسكوت عنها الى الاصول المنطوق بها والمجمع عليها حتى يجد طريقا الى العلم باحكـام النوازل ، ويميز الحق من الباطل .

فاذا أحاط علما بهذه الاصول الاربعة في احكام الشريعة صار من اهل الاجتهاد في الدين ، وجاز له ان يفتي ويقضي ، وان اخل بها او بشيء منها خرج من ان يكون من اهل الاجتهاد ، ولم يجز ان يفتي ولا ان يقضي[1] .

ومن هنـا نرى ان ثقافـة القاضي ينبغي أن تكون واسـعة لكي

(١) ينظر بشأن اعمال قاضي القضاء نهاية الارب ج٦، ص ٢٤٨ ، ٢٥٠ .

يستطيع ان يؤدي واجبه خير اداء ، واذا ما اراد السلطان ان يختار قاضيا اخذ هذه الشروط بنظر الاعتبار الى جانب شخصية القاضي وولائه للسلطان في كثير من الاحيان . وكان الاختيار يقع على ابرز فقهاء كل مذهب ، ولو لم يكن القزويني من فقهاء الشافعية البارزين لما اختير لمنصب قضاء الشافعية في دمشق وقاضيا للقضاة في القاهرة ،وهو منصب كبير لا يقدر عليه الا من اوتي علما عظيما ، وتفهما عميقا ، لان الشافعي يكون اعلى القضاة وهو المتحدث على الموازع الحكمية والاوقاف واكثر الوظائف ، ويختص بتولية النواب في النواحي والاعمال[1] .

وليس من السهل ان يكون القزويني مؤلفا عالما في البلاغة لو لم يكن واسع الاطلاع ، عارفا باساليب هذا الفن وكتبه المشهورة .وتبدو ثقافته واطلاعه الواسع في كتابيه : التلخيص والايضاح ، فقد استطاع ان يتمثل كتب البلاغة ، ويمزج بينها ، ويخرج لنا علوم البلاغة اخراجا آخر فيه تهذيب لبلاغة عبدالقاهر ، وتنسيق لمنهج السكاكي وبلاغته.

ونرجح أنّ ثقافته الفقهية والدينية كانت اعمق من ثقافته اللغوية لأنه لم يدرس البلاغة إلا لتكون وسيلة لفهم كتب الفقه واصوله والتعبير الفصيح . ولم يؤلف في البلاغة الا بعد أنْ نضجت عقليته ، وتولى المناصب الكبيرة في التدريس والخطابة والقضاء .

أساتيذه :

وكان ابوه أول استاذ تلقى عليه الدرس ، يقول صاحب الدارس في تاريخ المدارس : « وتفقه بابيه »[2] . ومعنى هذا ان اباه كان فقيها ، عالما وان لم تشر المصادر الى ذلك . وعندما دخل هو وأخوه امام الدين دمشق سمع فيها من العز الفاروتي وطائفة ، واخذ عن الايكي وغيره ،

---

(١) ينظر صبح الاعشى ج٤ ص ١٩٢ .

(٢) الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص ١٩٦ .

وخرّج له البرزالي جزء من حديثه وحدث به وافتى ، واخذ المعقول عن الشيخ شمس الدين الابجي[1] . وكان اساتذته ممن يشهد لهم بالبراعة في اصول الدين وعلوم العربية ، فقد كان عزالدين ابو العباس احمد بن ابراهيم الفاروتي مقرئا واعظا ، ومفسرا خطيبا ، روى عنه الكثير بالحرمين والعراق ودمشق وقرأ عليه القراءات جماعات ، وقدم دمشق في سنة ٦٩١ هـ وولى مشيخة الحديث بالظاهرية وتدريس النجيبية ، وولي خطابة الجامع بعد ابن المرحل ثم عزل من الخطابة بالخطيب الموفق فتألم لذلك ، وترك الجهات ، واودع بعض كتبه وكانت كثيرة ، ثم توفي بواسط في العراق في ذي الحجة سنة ٦٩٤ هـ وقد نيف على الثمانين[2] . ومن هنا نرى ان جلال الدين اتصل باستاذه الفاروتي بعد سنة ٦٩١ هـ وهي السنة التي ولي فيها مشيخة الحديث بالظاهرية .

أما استاذه الايكي فهو شمس الدين محمد بن ابي بكر بن محمد الفارسي ، كان احد الفضلاء الحلالين للمشاكل ، المفسرين للمعضلات ، ولا سيما في علم الاصلين والمنطق وعلم الاوائل . باشر في وقت مشيخة الشيوخ بمصر واقام يدرس بالغزالية قبل ذلك ، وتوفي يوم الجمعة ودفن يوم السبت ومشى الناس في جنازته منهم قاضي القضاة امام الدين القزويني في الرابع من شهر رمضان سنة ٦٩٧ هـ ، ودفن بمقابر الصوفية وعُمِلَ عزاؤه بخانقاه السميساطية ، وكان معظما من نفوس كثير من العلماء[3] .

ومن اساتذته عمر بن الياس بن يونس المراغي ابو القاسم الصوفي كمال الدين المولود باذربيجان سنة ٦٤٣ هـ ، قدم دمشق سنة ٧٢٩ وهو ابن نيف وثمانين سنة ، وجاور قبل ذلك بالقدس سنة ، واقام قبلها بمصر

---

(١) ينظر الدرر الكامنة ج٤ ص ٣ ، مفتاح السعادة ج١ ص ١٦٨ ، بغية الوعاة ص ٦٦ الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص ١٦٩ ، مرآة الجنان ج٤ ص ٣٠١ .
(٢) تنظر ترجمته في مرآة الجنان ج٤ ص٢٢٣ ، والدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٣٥ .
(٣) الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص ٤٢٢ .

خمس عشرة سنة . ويبدو أنّ القزويني لازمه قبل مجيئه الى دمشق ، وقرأ عليه ، وحينما جاء المراغي الى دمشق لم يحظ بالتفاتة من تلميذه لذلك نجدهم يقولون عنه : « ولما كان بدمشق كان يذكر ان الجلال القزويني قرأ عليه قديما ، ويعتب عليه في عدم انصافه له »[1] .

ولكن هل أثّرت هذه الثقافة في جلال الدين وماذا كانت ثمرة هذا التوجيه ؟ لقد ألّف « التلخيص » و « الايضاح » وهما زبدة كتب البلاغة العربية ، وألقى الخطب الرنانة في مساجد دمشق والقاهرة ، وحاضر ودرّس زمنا طويلا .

إنّ ثقافته الواسعة ، وتوليه القضاء ، وعصره الذي عاش فيه ، وبيئته التي اضطرب فيها لم تؤثر في كتبه تأثيرا واضحا ، وكأنه حينما وضع كتابيه البلاغيين كان يعيش في جرجان ، وخوارزم ، لا في مصر والشام ، وليته استفاد من اشتغاله بالقضاء في النقد والتحليل كما استفاد من قبل القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني صاحب « الوساطة بين المتنبي وخصومه » ، فقد كان شأنه في البلاغة والنقد كشأنه حينما كان يجلس للقضاء ينصت الى الشهود ويجمع الادلة من هنا وهناك ، ليقضي بين المتخاصمين ، ويلقي الحكم كما تمليه الادلة ويرضاه الوجدان .

شعره :

ولم تذكر المصادر شعرا للقزويني مع انه كان يتذوقه ، ويقرؤه كثيرا ، وكان مولعا بشعر الارجاني ويراه من اكبر شعراء العجم وهو القائل :

أنا اشعر الفقهاء غير مدافع   بالعصر او انا افقه الشعراء

واختصر ديوانه وسماه « الشذر المرجاني من شعر الارجاني » ،

---

(1) الدرر الكامنة ج٣ ص ١٥٧ .

وكان كثير الاستشهاد بشعره في الايضاح .

وقد ذكر القدماء انه لم ينظم بيتا واحدا من الشعر مع قوة باعه في الادب[1] ، لكنّ الدسوقي يذكر له بيت شعر مترجم عن الفارسية هو:

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق

ويقول : « فهذا البيت له ، وقد وجد بيتا فارسيا في هذا المعنى فترجمه بالعربية بما ذكر »[2] . والغريب ان القزويني نفسه لم ينسب ترجمة البيت الى نفسه ، وقد قال في التلخيص عنه : « كقوله » وفي الايضاح : « كمعنى بيت فارسي ترجمته »[3] . وخرج الدسوقي قوله هذا على وجه بعيد فقال : « وقال كقوله ولم يقل : كقولي ، اما التجريد أو نظر لمعناه فانه للفارسي تأمل » . وكأنّ الدسوقي — رحمه الله — لم يقرأ كتب البلاغة المتقدمة ، وكان عبدالقاهر قد ذكره في « اسرار البلاغة » على انه ترجمة معنى بيت فارسي ولم يذكر قائله كما لم يذكر نصه الفارسي ، وذكره العصام في الاطول وهو :

كرنبودي عزم جوزا خدمتش كس نديدي برميان او كمر[4]

ولعل الذي اوقع الدسوقي في الخطأ ما ذكره التفتازاني في شرحه المطول ، يقول « هذا البيت للمصنف وقد وجد بيتا فارسيا في المعنى فترجمه »[5] ، ولا نجد غير التفتازاني والدسوقي من ينسبه الى القزويني ، وقد ذكره عبدالرحيم العباسي ، ولكنه لم يذكر اسم قائله واكتفى بان ذكر انه مترجم عن الفارسية[6] .

---

(١) بغية الوعاة ص ٦٦ ، ومفتاح السعادة ج١ ص ١٦٨ .
(٢) حاشية الدسوقي ج٤ ص ٣٨٠ .
(٣) ينظر التلخيص ص ٣٧٨ ، والايضاح ص ٣٧١ .
(٤) الاطول ج٢ ص٢١١ . وفي أسرار البلاغة (ط. ريتر) هامش ص٢٥٦ ادرميان اوكر .
(٥) المطول ص ٤٣٧ .
(٦) معاهد التنصيص ج٣ ص ٦٧ .

نثـــره :

واذا كان الخطيب القزويني لم يقل بيت شعر واحد فانه قد كتب نثرا ، وليست خطبه التي كان يلقيها في المساجد الا نموذجا ممتازا يدل على قدرة فائقة في الانشاء ، وتبـــدو قابليته على الكتابة في كتبـه البلاغية التي راعى فيها سلامة العبارة والفصاحة مع السهولة والابتعاد عن التكلف والسجع والمطابقة وغيرها مما كان كتّاب عصره يوشحون به كلامهم ، فيخرجونه هياكل ليس فيها طلاوة او رونق .

ومن امثلة نثره الذي ابتعد فيه عن اسلوب عصره قوله معلقاعلى البيت :

والمجدُ يدعو أنْ يدومَ لجيده　　عقدٌ مساعي ابنِ العميدِ نظامُه

يقول : « فانه شبه المجد بانسان بديع الجمال في ميل النفوس اليه، واثبت له جيدا على سبيل الاستعارة التخييلية ، ثم اثبت لجيده عقـدا ترشيحاً للاستعارة ،ثم خص مساعي ابن العميد بانها نظامه فنبه بذلك على اعتنائه خاصة بتزيينه ، وبذلك على محبته وحده له ، وبهـا على اختصاصه به ، ونبه بدعاء المجد ان يدوم لجيده ذلك العقد على طلبه دوام بقاء ابن العميد ، وبذلك على اختصاصه به »[1] . وهذا اسلوب هاديء ليس فيه تكلف المتحذلقين ولا اغرابهم في الصنعة البديعية .

واذا كان قد ابتعد عن الزخرفة والمحسنات في كتبه البلاغية فانه لم يستطع الابتعاد عنها فيما كتب من نثر وخطب ، ومن امثلـة نثره البديعي تقريظه كتاب « مجمع الفرائد » لابن نباتة المصري (٧٦٨ هـ)، يقول :

« هذا سماء حكم بدائع ، وفقر روائع ، فلا بدع أن ســـميت سطالع[2] الفوائد ، واصداف كريمة حوت دررا يتيمـة ، فلا غرو ان

(١) الايضاح ص ٣٢٥ .

(٢) في سجع المطوق مخطوطة الاوقاف ببغداد : « بمطلع » .

رسمت بمجمع الفرائد • وحدائق تتف زاهية ناضرة حقائق بأن تكون وجوه اهل الحقائق الى عيونها ناظره • وابكار افكارهن ضرائرالنجوم وانفاس خواطر اطيب من فوح الازاهر جادتها الغيوم ، ومباني بيـان كل مبنى كبانيه كريم • ومغاني معانٍ تحل فيها القلوب فلا يرى قلب عنهـا يريم • ورياض لطائف سرقت منها لطائم[1] المسـك الاذفر • وحياض طرائف برقت عليها سحائب كل ذهن صائب ، فَسَحّ عليهـا صيبها الاوفر • ومحاسن اذا تليت سورها على البلغاء ظلت اعناقهم لها خاضعين• واذا جليت صورها على الفصحاء بهرت النـاظرين منهم والسامعين ، فكيف لا وهي صوب العقول ونظم العقود • وقد بدئت بكلام من كلامه الى الحق يقود ، وعن الباطل يذود • أبان مؤلفهـا ما نبه عليه من معانيه الدقيقة انه معتصم من البراعة في صناعة البلاغة بعروة وثيقة • ودل بما اورد فيها من كلامه الذي هو أدق من انفاس النسيم وأحق بميـل الانفس اليه من العقد النظيم • انه حاز قصبات السبق في حلبات النظم والنثر حتى فخر كل مفاخر ، وفاز من تحقيـق الفضائل بما فيه من تصديق القائل: كم ترك الاول للآخر • اعجب به مفصحا اذا وجه فكره الى المعاني القاصية الجديرة بان تكون على اذهان البلغاء عاصية ادركها في أقرب من لمح البصر وكساها من الفاظه البهية حللا سنية يحول دون محاولة حصر محاسنها الحصر ،وكيف وقد غذي بلباب الآداب والفها وعانق عقله عقائل الالباب كما عانقت اللام الفها • وقد زان ذلك باسم ملك اضحى المجد في ذراه الشريف ومقامه الانيف مرخى الذوائب ، وان سكتت الالسنة عن ذكر مآثره ونشر مفاخره[2] عجزا أثنت عليـه الحقائب • قمع بصوارمه اهل الفساد والعناد ، وجمع بمكارمه بـين الاشباه والاضداد ، وانفذ ايامه ولياليه في طلب العلوم حتى ملك منها الرقاب ، واقبلت عليه حقائقها وقد القت كل واحدة عن وجهها النقاب • وسالت لديه اوديتها الزاخرة ، فنالت منها افكاره الزاهرة بما استحق

(١) اللطيمة ج لطائم : المسك ، وعاء المسك ، سوق العطارين .
(٢) في مخطوطة الاوقاف : « وان سكتت الالسنة عن ذكر مفاخره ونشر مآثره » .

به ان يلعب مع الحبر بالبحر والعباب • وبالجملة لمحاسنه محاسن اذا نشرت تعطرت الاندية بنشر ندها ، واذا ذكرت كان الوقوف واجبا عند حدها • ادر الله عليه اخلاف النعم ، كما اقر لديه اصناف الكرم • وحرسه بعينه التي لا تنام حتى يكون بابه الشريف للانام حلال المورد وعلى نوائب الايام حرام الحرام • وهتك ستور الجهل بعلمه الذي هو في العالمين علم • وادام لنا نعمة وجوده كما ادام لنا فيض جوده فوجدانا كل شيء بعده عدم »[١] •

هذا نموذج من نثره ويلاحظ انه استعمل انواعا من البديع ،فهو مرة يزاوج في سجعاته ، وتارة يجانس ، واخرى يقتبس من القرآن الكريم الى آخر ما نجده واضحا في كلامه • ولم يكن بمقدورالقزويني ان يخرج في هذا النوع من الكتابة عن ذوق عصره واسلوب كتّابه الذين اولعوا بالجناس ، والسجع ، والتورية ، والطباق ، وغيرها من فنون البديع الاخرى •

(١) سجع المطوق ص ٢٠ وما بعدها (مخطوطة دار الكتب في القاهرة) ، وتنظر الرسالة في سجع المطوق (مخطوطة الاوقاف ببغداد) ص ٥٥–٥٧ •

٣

اخلاقـــه :

وكان جلال الدين القزويني على جانب عظيم من الخلق الكريم ، وتروي المصادر انه كان لطيف الذات ، حسن المحاضرة ، مفوها حسن الايراد او العبارة ، كريم النفس فصيحا ، حلو العبارة والخط ، سمحا جواداً حليما ، جم الفضائل ، كثير التحمل ، حسـن التقاضي ، لطيف السفارة ، لا يكاد يمنع من شيء يسأل عنه ، مليح الصورة ، موطأ الاكناف ، حاد الذهن ، يراعي قواعد البحث ، ويتوقد ذهنه ذكاء . وكان تقيا ورعا يؤدي شعائر الاسلام ، وقد ذهب الى بيت الله في سنة ٧٢١هـ وخرج اليها مع ركب الناصر محمد سنة ٧٣٢[١] .

وكان لهذه الصفات الكريمة أثر في علاقته بالناس فأقبل التلاميذ يجالسونه ويدرسون عليه ، وأقبل العلماء يحضرون مجالسه ويتحدثون اليه ، واهتم به الامراء والسلاطين ، فقربوه ، واسندوا اليه الوظائف الكبيرة كالخطابة والقضاء حتى قيل : « انه لم يوجد لاحد من القضاة منزلة عند سلطان تركي نظير منزلة جلال الدين »[٢] .

---

(١) ينظر البداية والنهاية ج١٤ ص ١٠٠ ، والسلوك ج٢ ق٢ ص ٣٥٢ ، والنجوم الزاهرة ج٩ ص ١٠٤ ، والمنهل الصافي ج٣ ص ١٧٦ ، ومفتاح السعادة ج١ ص ١٦٨ ، والدرر الكامنة ج٤ ص ٣ ، وبغية الوعاة ص ٦٦ ، والبدر الطالع ج٢ ص ١٨٣ ، وشذرات الذهب ج٦ ص ١٢٣ ، وطبقات الشافعية ج٥ ص ٢٣٨ ، والدارس في تاريخ المدارس ج١ ص ١٩٧ ، والوافي بالوفيات ج٣ ص ٢٤٢ ، ومرآة الجنان ج٤ ص ٣٠١ .

(٢) الدرر الكامنة ج٤ ص ٥ .

طلابـــه :

وأقبل الطلاب عليه ، وحضروا حلقات درسه في المساجد ومعاهد العلم ، وسمع عنه خلق كثير . وممن اخذ عنه بدمشق الحافظان ابن رافع البرزالي الذي خرج له جزء من حديثه عن جماعة من شـيوخه وحدث به . والمسند الدمشقي احمد بن هبةالله بن عساكر (٦٩٩ هـ).

وسمع عنه ابراهيم بن احمد بن هلال بن بدر الدين القـاضي برهان الدين الزرعى الحنبلي المولود سنة ٦٨٨ هـ .

واحمد بن عبدالرحمن بن عبـدالمؤمن بن ابي الفتح الصورى (٧٠١ هـ)[1] .

وممن أخذ عنه ، ولازمه : مغلطاى بن قليج بن عبدالله البكجرى الحنفي (٧٣٠هـ)وكان قد لازم الجلال القزويني ، فلما مات ابن سيد الناس تكلم له مع السلطان فولاه تدريس الحديث بالظاهرية »[2] .

ومن تلاميذه : عبدالله المغربي الاصل المشهور بالمنوفي(٧٤٩ هـ).
وعمر بن محمد بن علي بن فتوح (٧٥٢هـ)الذي اخذ عنه البلاغة.

وعبدالله بن عبدالرحمن بن عقيل (٧٦٩ هـ) النحوي المشهور ، وقد املى شرح الفية ابن مالك على اولاد استاذه جلالالدين .

وعبدالرحيم بن الحسن بن علي بن عمر الاموي الاسنوي نزيل القاهرة (٧٧٢ هـ) .

وبهاءالدين السبكي (٧٧٣ هـ) الذي روى عنـه « تلخيص المفتاح » وشرحه بكتابه « عروس الافراح » .

ومحمد بن يوسف بن احمد بن عبدالدائم الحلبي محبالـدين ناظر الجيش (٧٧٨ هـ) .

---

(١) الدرر الكامنة ج١ ص ١٥ ، ١٦٨ .
(٢) الدرر الكامنة ج٤ ص ٣٥٤ .

ومحمد بن احمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق التلمساني (٧٨١ هـ)[١] .

اصدقاؤه :

ولم تكن علاقة القزويني بتلاميذه وبمن أخذ وسمع عنه حسنة فحسب ، وانما كانت له علاقة وثيقة بغيرهم من الاعيان والوجوه ، وكان له اصدقاء يحبونه ويكرمونه وقد نال بعضهم حظوة عظيمة عنده . وكان يتردد كثيرا على اصدقائه ويحضر ندواتهم ومجالسهم ، ويتناقش معهم .

ومن اصدقائه احمد بن عثمان المقدمى ابو عبدالله شرف الدين ، وقد جاء الى دمشق سنة ٦٩٥ هـ واتصل بجلال الدين[٢] .

وممن نال حظوة عنده الشيخ شمس الدين محمود الاصبهاني ، يقول ابن كثير : « وكان عند القاضي جلال الدين القزويني »[٣] .

وممن كان يحبهم القزويني ويقدمهم يوسف بن ابي بكر بن خطيب بيت الآبار ، ولما ولي القضاء بمصر طلبه فولاه نظر الصدقات والايتام[٤] .

وممن لقيه الفقيهان أبو زيد عبدالرحمن ، وأبو موسى عيسى بن محمد بن عبدالله بن الامام ، وكانا قد رحلا الى المشرق في حدود سنة ٧٢٠ هـ فلقيا خلقا كثيرا ولقيا جلال الدين[٥] .

ومنهم أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبد النور « وكانت له رحلة الى المشرق لقي بها جلال الدين القزويني وحلبته »[٦] .

---

(١) ينظر الدرر الكامنه ج٢ ص ٣١٣ ، ٢٦٧ ، ٣٥٦ ، ج٣ ص ٣٦٢ ، وج٤ ص٢٩١ ، وبغية الوعاة ص ٣٦٣ ، ٢٨٤ ، ٣٠٥ ، ١١٨ ، ١١٩ .

(٢) الدرر الكامنه ج١ ص ٢٠١ .

(٣) البداية والنهاية ج١٤ ص ١١٧ .

(٤) الدرر الكامنه ج٤ ص ٤٨٣ .

(٥) نفح الطيب ج٧ ص ١٥٩ .

(٦) نفح الطيب ج٧ ص ١٥٩ .

ومن حضر القزويني عندهم محمد بن يعقوب بن الياس الدمشقي الامام بدرالدين المعروف بابن النحوية ، وقد اجتمع به الجلال وسأله عن قول أبي النجم :

قد أصبحت أمُ الخيارِ تَدَّعي   عليّ ذنباً كله لم أصْنَعِ

في تقديم حرف النفي وتأخيره فما اجاب بشيء ، قال الصفدي : « وقد تكلم على هذا كلاما جيدا في شرح كتابه ، والسبب في ذلك ان كل من وضع مصنفا لا يلزمه ان يستحضر الكلام عليه حتى يطلب منه ، لانه في حالة التصنيف يراجع الكتب المدونة ويطالع فيحرر الكلام ثم يُشذِّبُه »[1] . وقال ابن حجر : « او يكون السبب غير ذلك »[2] ، أي كون المجلس لا يحتمل الجواب ونحوه .

ومن حضر عندهم : عزالدين بن قاضي القضاة تقي الدين سليمان عندما جلس للتدريس بالجوزية ، ورشيد الدين الفارقي (٦٨٩ هـ) .

وبرهان الدين ابراهيم بن احمد بن هلال الزرعي الحنبلي .

وشهاب الدين بن جهبل .

ويحيى الدين الطرابلسي وغيرهم[3] .

صلابتـــه :

ودافع هو واخوه امام الدين عن ابن تيمية دفاعا مجيدا ، وكانت له مواقف مشرفة في كثير من القضايا . ووقف مع الناس بوجه الطغاة والحكام حينما فرضوا على الشعب الضرائب الفادحة ، وناله من جراء ذلك اذى كبير ، وأُهينَ ، وضرب ، ولكنه لم يأبَهْ بذلك وبقي على

---

(١) بغية الوعاة ج٧ ص ١١٧ .

(٢) الدرر الكامنه ج٤ ص ٢٨٦ .

(٣) ينظر البداية والنهاية ج١٣ ص ٣٥٢ ، والداوس في تاريخ المدارس ج١ ص ٣٥٢ ، ٧٤ ، ٣٠٦ ، ٢٣٢ .

رأيه . ولما عزل نائب دمشق الذي آذاه تولى منصب قاضي القضاء فيها، وبذلك نال المنصب عن جدارة ، لانه كان صَلْباً في الحق لا يخشى أحدا .

وقد جاء في ترجمة كراي المنصوري نائب السلطنة بدمشق : « ثم حضر الى دمشق نائبا في اول سنة ٧١١ هـ ، فضيق على الناس كافة ، وقرر على الاملاك اموالا تؤخذ في كل شهر . واجتمع القضاة والخطيب والعامة،وحملوا المصحف ، ووقفوا له بسوق الخيل ،فلما رآهم قال لهم: انقضى الشغل فامتنعوا ، فاشار عليهم الحاجب بعصا معه ففروا فهرول الذي يحمل المصحف فسقط منه ، فرجموا الحاجب ، فرد كراي الى القصر واخرق بالقاضي نجم الدين بن صصرى وبالخطيب . فصاح فيه الشيخ مجد الدين التونسي كفرت ، فأمر بضربه فضرب ضربا شديدا وأمر بالقاء الخطيب جلال الدين القزويني ليضرب فشفعوا فيه فنقل ذلك كله الى الناصر فانكره اشد الانكار »[1] .

---

(١) الدرر الكامنه ج٣ ص ٢٣٥ ، وينظر الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص ٢٩٨ .

٤

مناصبـــه :

وكان لابد لرجل كالقزويني أنْ يتسنم المناصب ، ويتقلدالوظائف في دولة المماليك البحرية التي امتد ظلها على مصر والشام ، ووحدت بينهما توحيدا بعث القوة في الاقليمين بعد ان كـــانت غارات المغول وهجمات الصليبيين واعداء العروبة والاسلام تترى عليهمـــا وتصب حقدها الدفين . وكانت اولى وظائفه القضاء في ناحية بالروم وهو دون العشرين ، ولم تذكر المصادر اسم هذه الناحية او مدة بقائه في الوظيفة وسيره فيها وعلاقته بالناس ، فهي تنتقل من هذه المعلومات القليلة الى توليه التدريس والقضاء بالشام ، وبذلك تبقى هذه الفترة من حيـــاته غامضة ، ولعلنا نجد في المصادر الغائبة عنـــا الآن ما يكشف جوانب حيـــاته الاولى .

وأول ما قام به جلال‌الدين بعد قدومه الى دمشق الشام الاتصال بحلقات الدرس والعلماء ممن بلغت شهرتهم الآفاق ، ولمـــا استكملت ثقافته وثبتت اقدامه في علوم الدين واللغة العربية ، درّس في مدارس دمشق الشام المنتشرة في كل مكان ، يقول ابن كثير في حوادث ســـنة ٦٩٣هـ : « وفي اليوم الثاني والعشرين من شعبان درّس بالمسرورية القاضي جلال‌الدين القزويني أخو امام الدين وحضر أخوه وقاضـــي

القضاة شهاب الدين ابن الخويي ، والشيخ تقي‌الدين بن تيمية ،وكان درسا حافلا »[1] .

وفي أواخر شوال سنة ٦٩٤ هـ قدمت من الديار المصرية تواقيع شتى منها تدريس الغزالية لابن صصرى عوضا عن الخطيب المقدسي ، وتوقيع بتدريس الامينية لامام الدين القزويني عن نجم الدين بن صصرى ، ورسم لاخيه جلال‌الدين بتدريس الظاهرية البرانية عوضا عنه[2] .

ولم يَبْقَ القزويني في هذه المدرسة طويلا ، ففي رجب سنة ٦٩٥ هـ درس كمال‌الدين بن القلانسي بها عوضا عنه . وفي سنة ٦٩٦هـ ناب عن اخيه امام الدين في القضاء[3] . وفي سنة ٦٩٩ هـ استطاع غازان ملك التتر ان يهزم جيوش المسلمين في الشام ، ويتوجه الى دمشق ، وخشي أهلها على انفسهم وخافوا من غازان وتشاوروا مع جماعة من العلماء الذين كانوا بدمشق وخرجوا اليه يطلبون منه‌الامان، وكان الخطيب القزويني أحدالخارجين لملاقاته مع قاضي القضاةبدرالدين ابن جماعة الشافعي ، والشيخ زين الدين الفارقي ، وتقي‌الدين‌بن تيمية الحراني ، والقاضي نجم‌الدين بن صصرى ، القاضي عزالدين بن تركي ، والشيخ عزالدين بن القلانسي . ودخل الفاتحون الغزاة دمشق وخطب لغازان على المنابر ، وكان امام‌الدين أخو الجلال قد ذهب في هذه الاثناء الى مصر . ولم تدم سيطرة الغزاة على الشام العربية ، فسرعان ما ارغموا على الخروج منها وعادت حرةً أبيةً لتعانق الاقليم المصري في ظل المماليك . وكانت فرحة الشعب في سورية عظيمة حين عادت الوحدة بين الاقليمين ، وخطب لسلطان مصر على منابر دمشق والشام ، يقول ابن كثير : « وفي يوم الجمعة سابع عشر رجب سنة

---

(١) البداية والنهاية ج١٣ ص ٣٣٦ ، والدارس في تاريخ المدارس ج١ ص ٤٥٦ .

(٢) البداية والنهاية ج١٣ ص ٣٣٩ ، والدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٩٥،٣٤٥، ٤٢٣ ، ٤٤٤ .

(٣) ينظر الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص ٣٤٥ والمنهل الصافي ج٣ص ١٧٥ .

٦٩٩ هـ أعيدت الخطبة بدمشق لصاحب مصر ، ففرح الناس بذلك ، وكان يخطب لغازان بدمشق وغيرها من بلاد الشام مائة يوم سواء.. وقدم الجيش السامي صحبة نائب دمشق جمال‌الدين آقوش الأفرم يوم السبت عاشر شعبان ، وثاني يوم دخل بقية العساكر وفيهم الاميران شمس‌الدين قراسنقر المنصوري ، وسيف الدين قطبك ،في تجمل. ومن هذا اليوم فتح باب العريش ، وفيه درس القاضي جلال‌الدين القزويني بالامينية عوضا عن اخيه قاضي القضاة امام‌الدين »[1] . وكان امام الدين قد مات في مصر حينما خرج من دمشق بعد دخول التتر بلاد الشام .

وكان القزويني في عهد تدريسه في مدارس دمشق ينوب عن آخيه في القضاء بدمشق ، وناب عن قاضي القضاة نجم‌الدين بن صصرى في مستهل المحرم سنة ٧٠٥ هـ ، ثم ولي خطابة الجامع الاموي بدمشق بعد وفاة شمس‌الدين محمد بن احمد بن عثمان الخلاطي .ففي يوم الاربعاء ثاني شوال سنة ٧٠٦ هـ اذن نائب السلطنة جمال‌الدين آقوش الافرم لجلال‌الدين أن يصلي بالناس ويخطب بجامع دمشق عوضا عن الشيخ شمس‌الدين فصلى الظهر يومئذ ، وخطب الجمعة ، واستمر بالامامة والخطابة حتى وصل توقيعه بذلك من القاهرةعاصمة الاقليمين[2] .

وحدثت في سنة ٧٠٩ هـ بعض الاضطرابات ، ونُحِّي القزويني عن الخطابة عندما دخل قراسنقر دمشق يوم الاثنين الخامس‌والعشرين من ذي القعدة ، وخطب مكانه القاضي بدرالدين محمد بن عثمان بن يوسف بن حداد الحنبلي في التاسع والعشرين منه باذن نائب السلطنة ، وقريء تقليده على المنبر بعد الصلاة بحضرة القضاة والاكابر والاعيان

---

(١) ينظر النجوم الزاهرة ج٨ ص ١٢٣ ، وبدائع الزهور ج١ ص ١٣٩ وتاريخ ابن خلدون ج٥ ص ٨٨٩ ، والسلوك ج١ ق٣ ص ٨٨٩ .

(٢) البداية والنهاية ج١٢ ص ١١ .

واستمر يباشر الامامة والخطابة اثنين واربعين يوما ، ثم اعيد القزويني بمرسوم سلطاني وباشر يوم الخميس ثاني عشر المحرم سنة ٧١٠هـ[١] .

الى القاهرة :

وبقي الخطيب القزويني في هذه الوظيفة الى سنة ٧٢٤ هـ ، وفيها خسف القمر ليلة الخميس للنصف من جمادى الآخرة بعد العشاء فصلى صلاة الكسوف باربع سور : (ق ، واقتربت ، والواقعة ، والقيامة) ، ثم صلى العشاء وخطب بعدها ، ثم اصبح فصلى بالناس الصبح ، وركب على البريد الى مصر ـ وكان سلطانها الملك الناصر محمد قد طلبه ـ ، لان نائب دمشق عزل جمال الدين الزرعي (٧٣٤هـ) قاضي القضاة بها ، وعيّنَ جلال الدين ، وأعلم السلطان بأنه كان ينوب عن اخيه امام الدين في قضاء الشام ، وأنه خطيبها ، وأطراه ووصفه بالفضل فامر باحضاره الى مصر ، وكان في كتاب النائب معه انه كثير البر للفقراء ، وانه ارتكب دَيْنا بسبب ذلك[٢] .

ووصل الى مصر في يوم الجمعة، واتفق ان اجتمع مع الناصر ساعة وصوله فأمره ان يخطب بجامع القلعة ففعل ، ثم لما فرغ نزل فقبل يد السلطان واعتذر بأنه متعب من اثر السفر ، ولم يكن يظن ان السلطان يأمره بالخطابة فشكره وسأله عن حاله ، وكم عليه من الدين فذكر ان عليه ثلاثين ألفا ، فأمر بوفائه عنه . وكان تنكز رافع عنه وقال هذا عليه ديون كثيرة وابنه نحس ولا يصلح أن يلي ابوه القضاء فيحمله الناس، فقال الناصر : أنا أوفي دينه وأدع ابنه عندي بالقاهرة .

ونزل الى خانقاه سعيد السعداء ثم ولاه قضاء القضاة بدمشق وخلع عليه يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الآخره سنة ٧٢٤ هـ .

---

(١) ينظر البداية والنهاية ج١٤ ص ٤٢ ، والسلوك ج٢ ق١ ص ٣٠ .
(٢) البداية والنهاية ج١٤ ص ٥٦ .

الى دمشق :

وسافر القزويني على البريد يوم الاثنين رابع عشريه فقدم دمشق خامس رجب على القضاء مع الخطابة ، وتدريس العادلية والغزالية ، فباشر ذلك كله ، وأخذت منه الامينية ، فدرس بها كمـــال‌الدين بن القلانسي مع وكالة بيت المال ، وأضيف اليه قضاء العسكر وخوطب بقاضي القضـــاة جلال الدين القزويني . وكتب الناصـــر مـــع تقليده ابن محمد بن علي بن عبدالواحـــد بن عبدالكريم الانصاري الدمشقي ابن الزملكاني (٧٢٧ هـ) بقضاء حلب . وامتنع عن قبول الولايـــة فغضب منه النائب وأمر بعزله من جميع وظائفه ، فما مضى الا قليل حتى ورد الخبر بموت قاضيها فقبل ابن الزملكاني الولايـــة حينئذ ، وعظم قدره عند النائب لانه امتنع عن قبول الولاية عن رجـــل حتى مات . واستناب القزويني يوم الخميس ثامن عشر شعبان سنة ٧٢٤هـ نائبين في الحكم هما : يوسف بن ابراهيم بن حجلة المحجي الصالحي، وقد ولي القضاء فيما بعد ، ومحمد بن علي بن ابراهيم المصري وحكما يومئذ[1] .

وكان الذي ساعد القزويني على تولية قضاء الشام عبداللطيف ابن خليفة شمس الدين ، وســـاعده بعد ذلك على تولية قضاء الديار المصرية[2] .

وقد رأى ابن بطوطة عندما زار دمشق الخطيب القزويني ،يقول وهو يتحدث عن ائمة جامع دمشق : « وائمته ثلاثة عشر اماما اولهم امام الشافعية ، وكان في عهد دخولي اليها امامهم قاضي القضـــــــاة جلال‌الدين محمد بن عبدالرحمن القزويني من كبار الفقهـــاء ، وهو خطيب بالمسجد ، وسكناه بدار الخطابة ، ويخرج من باب الحديدازاء

---

(١) ينظر الدرر الكامنة ج٤ ص ٤ ، ٧٦ والبداية والنهاية ج١٤ ص ١١٢،والسلوك ج٢ ق ١ ص ٢٥٤ ، والدارس في تاريخ المدارس ص ٣٦٥ ، ٤٢٤ .

(٢) الدرر الكامنة ج٢ ص ٤٠٦ .

المقصورة ، وهو الباب الذي كان يخرج منه معاوية رضي الله عنه ٠ وقد تولى جلال الدين بعد ذلك قضاء القضاة بالديار المصرية بعد أن أدى عنه الملك الناصر نحو مائة الف درهم كانت دَيْنا عليه بدمشق ٠ واذا سلّم امام الشافعية من صلاته ، اقام للصلاة امام مشهد علي ، ثم امام مشهد الحسين ، ثم امام مشهد الكلاسة ، ثم امام مشهد أبي بكر ، ثم امام مشهد عثمان رضي الله عنهم أجمعين »[1] ٠

عود الى القاهرة :

وبقي الخطيب على قضاء القضاة حتى دعي الى مصر ليتولى فيها قضاء القضاة بعد أن عمي قاضيها بدر الدين بن جماعة ، وتولى مكانه في الشام كمال الدين أبو المعالي الزملكاني الانصاري السماكي الدمشقي ، وكان ذلك في سنة ٧٢٧ هـ ٠ ففي يوم الجمعة منتصف جمادى الآخرة جاء البريد بطلب جلال الدين الى مصر فدخلها في مستهل رجب فخلع عليه بقضاء مصر ، وارسل ولده بدر الدين الى دمشق خطيبا للجامع الاموي ، وعلى تدريس الشامية الجوانية[2] ٠

وعظمت حاله في مصر ، ونال حظوة كبيرة عند السلطان الناصر محمد ، وكان مقدما أثيرا ٠ ولم تكن صلته بالناصر جديدة فقد عرفه وأتصل به منذ أن زار دمشق سنة ٧٠٩ هـ ٠ وودعه يوم عاد الى القاهرة يوم الثلاثاء تاسع رمضان سنة ٧٠٩ هـ ، مع من ودعه من أعيان دمشق ، كالقاضي ابن صصرى ، وصدر الدين الحنفي قاضي العساكر ، والشيخ كمال الدين بن الزملكاني وغيرهم[3] ٠

ولما جاء الى مصر وتولّى القضاء فيها علت منزلته ، وكان الناصر لا يرد له طلبا ، وعظم أمره جدا حتى كان يقدم القصص للسلطان في دار العدل فلا ترد له شفاعة وربما رمل على يد السلطان بنفسه ، وحج

---

(١) تحفة النظار (رحلة ابن بطوطة) ج١ ص ٥٦ ٠
(٢) الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص ٣٠٦ ، والمنهل الصافي ج٣ ص ١٧٥ ٠
(٣) ينظر البداية والنهاية ج١٤ ص ٥٢ ٠

مع السلطان فأعانه[1] .

وحسنت حاله في مصر وبنى على النيل دارا بما يزيدعلى الف الفدرهم، وقد اخذت منه عندما خرج الى دمشق قاضيا[2] . وكان ــ الى جانب كونه قاضيا ــ خطيبا في بعض مساجد القاهرة ، يتولى خطبة افتتاحها في بعض الاحيان ، وعندما كمل بناء جامع قوصون أقيمت الجمعة فيه يوم الجمعة حادي عشر شهر رمضان سنة ٧٣٠ هـ ، وخلع عليه الامير قوصون بعد فراغه وأركبه بغلة هائلة ، وكان يخطب بجامع القلعة شريكا لابن القسطلاني[3] .

عبث أولاده :

ولكن كيف يستسيغ أهل الحسد ما وصل اليه القزويني من منزلة عظيمة ؟ وكيف يرتاحون وهم يرونه بجنب السلطان وبيده الحل والعقد ، وبيده القضاء ؟ وما زالوا يسعون به الى السلطان ، وينقلون اليه ما يفعله أولاده ، وما يقومون به من عبث في القاهرة حتى عزلهمن قضاء مصر ونقله الى الشام سنة ٧٣٨ هـ . وكان ولده جمالالدين عبدالله سبب غضب السلطان عليه ونقله الى دمشق .

وقد روت المصادر قصة هذا الولد وما كان عليه من كثرة اللهو والشره والمال ، واخذ الرشوة من القضاة ونحوهم ، وتبسطه فيالترف حتى انه اقتنى عدة كثيرة من الخيول ، ورتب لها عدة من الاوجاقية والركابين[4] وسابق بها ، وكان قد شغف بسماع الغناء ، ومعاشرة الاحداث من اولاد الاكابر ومماليك الامراء ، وتجاهر بالمنكرات ،

---

(١) الدرر الكامنة ج٤ ص ٤ وينظر الوافي بالوفيات ج٣ ص ٢٤٢ والمنهل الصافي ج٣ ص ١٧٥ .

(٢) تاريخ ابن الوردي ج٢ ص ٣٢٥ .

(٣) النجوم الزاهرة ج٩ ص ٩٦ والبداية والنهاية ج ١٤ ص ١٤٨ والوافي بالوفيات ج٣ ص ٢٤٣ .

(٤) الاوجاقية ومفرده أوجاقي واوشاقي .

الركابين : ومفرده ركاب أي السائس . (ينظر هامش ص ٤٤٠ ج٢ ق ٢ من كتاب السلوك) .

فرفعت فيه قصة الى السلطان تتضمن شعرا بما هو عليه فأخرجه السلطان الى الشام ، ثم اعاده بسعي أبيه بعد مدة بسفارة أمير بكتمر الساقي ، فلم يتم الا نحو السنة ، وزاد في قبح السيرة فأخرجه السلطان ثانية واقام سنة فلم يطق أبوه غيبته عنه ، وكان قد فتن به حتى انه لشدة حبه اياه لا يكاد يصبر عنه ساعة واحدة فسأل السلطان في عودته ، وضمن توبته ، فأعاده السلطان الى القاهرة ، فانشأ بجوار بيت ابيه على النيل دارا كلف قضاة الاعمال فيها لحمل الرخام وغيره ، واستدعى لها الصناع من الشام ، وبالغ في اتقانها ، فبلغت النفقة عليها زيادة على خمسمائة الف درهم ، وبلغ السلطان ذلك فحدّث الامراء بما بلغه ، وانكر على القاضي تمكن ولده من هذا . فبعث الامير عزالدين أيدمر الخطيري الى القاضي يعنفه ويشنع عليه ويلومه على انفاق ولده هذا المال الكبير ، فاعتذر عنه بأنه اقترض ما عمَّر به هذه الدار ، فان سكنى القاهرة لم توافقهم واحتاجوا الى السكنى على النيل . واشترى في القاهرة دارا وجددها بما يزيد على مائتى الف درهم فكثر الكلام فيه، هذا مع جفائه للناس ، وقوة نفسه ، وسوء سيرته وسيرة اخوته ، وتغافل أبيهم عنهم وتصاممه عن الشكوى فيهم . فكتب في القاضي عدة اوراق للسلطان ونسب فيها الى انه لا يولي نائبا عنه في بلد حتى يجتمع باولاده . وشنّع فيها ان القضاة في ايامه انما تلي بالرشوة ، وكان السلطان لا يرشى ويعاقب من يرتشي أشد العقوبة . وكان يراعى القضاة لما في نفسه من اجلالهم وتعظيمهم ، الى أن تعاظم أمر اولاد جلال الدين وكثرت القصص فيهم وفي مملوكه . وعمل حسن الغزى الشاعر ، فيهم قصيدة « شنيعة » واوصلها الى شهاب الدين احمد بن فضل الله ، فقصد نكاية القزويني ، وأخبر السلطان بها ، وقرأها عليه ، فأثرت فيه ، وغيَّرته على القزويني ومنها :

قاضٍ على الأنام سلّ صارِما بحدّه يلتقط الدراهِما
وسنّ من أولادِه لها وما جردهم فانتهكوا المحَارما

والشبلُ في المخبر مثلُ الأسـدِ

✡ ✡

وابنه البدري خطيبٌ جُلَّق   بامرأةِ الكامل مُشغوف شَـقي
بادرِه بالعَزْلِ فليس يَرْتقي   منابرَ الاســـلامِ إلا مُتقي
متزرٌ ثوبَ العفافِ مُرْتَـدِ

✡ ✡

يا مالكَ الاسلامِ يا ذا الهِمَّه   أزِلْ عن المِلَّةِ هذي الغُمَّـه
واحلل بعبدِ الله سَيْفَ النِقْمه   فانه حجّاجُ هــذي الأمَّـــه
وَأرْدِ عَنْهُ رَدْعَ كُلِّ مُفْسِدِ

✡ ✡

فلما حضر القضاة الى دار العدل لم يؤذن لهم في دخوله ،وعندما نزلوا بعث السلطان الى القزويني مع الدوادار أنّ نائب الشام شكا من ابن المجد قاضي دمشق : وقد اقتضى رأيه أنْ تسافر الى الشـــام قاضيا كما كنت ، فانه استحى وجهه منك ومن الامراء والناس ، وكل ما عزمك أن ترجع ابنك عما هو عليه لا ترجعه ، فاذا حضـرت بدار العدل استعف من القضاء بحضرة الامراء ، واعلم انى آمر نائب الشام انه اذا رأى اولادك على سيرة غير مرضية قابلهم بما يستحقونه .

عود الى دمشق :

فلما كان الخميس وحضر قاضي القضاة القزويني دار العــدل سأل الحاجب ان يسأل له السلطان في تمكينــه مــن التوجــه الى دمشق ، فانّ مصر لم توافقه ولا وافقت اهله ، فأذن له السلطان في ذلك ونزل القزويني فأخذ في وفاء دينه وكان عليه لجهة وقف التربـة الاشرفية المجاورة لمشهد السيدة نفيسة مبلغ مائتي الف درهم وثلاثين الف درهم فباع املاكه واملاك أولاده وأثاثهم وتحفهم بربع ثمنهـا ، وكانت نفيسة فباعوا من صنف الاواني الصيني بمبلغ اربعـين الف درهم ، وباع عبدالله احدى عشرة جارية ما بين ثمانيـة آلاف درهم

الجارية الى اربعة آلاف ، وباع من اللؤلؤ والجوهر والزركش ماقيمته أكثر من مائة وعشرين الف درهم ، وباع داره بالقاهرة بخمسة وثلاثين الف درهم وأدوا ما عليهم من الدين للايتام وغيرهم .

ويقول المقريزي بعد هذه القصة : « وسار قاضي القضاة بأهله واولاده الى دمشق ، وصحبته ستون زوج محاير على الجمال في كل محارة امرأة ، وتأسف الناس على فراقه لمحبتهم له على بغضهم لاولاده فانه كان كريما ، جوادا ، سخيا ، له صدقات ومراعاة لارباب البيوت يهب الالف درهم ، ولم يعرف في دولة الاتراك بمصر قاض له مثل سعادته ولا مثل حظوته من السلطان وقوة حرمته »[1] .

وكان سفره في جمادى الآخرة سنة ٧٣٨ هـ ، وكانت مدة بقائه في مصر احد عشر عاما .

وفي يوم الاحد ثامن عشر من جمادى الآخرة سنة ٧٣٨هـ استدعى السلطان عزالدين عبدالعزيز بن قاضي القضاة بدرالدين محمد بن جماعة الشافعي وخلع عليه ، واستقر قاضي القضاة ، عوضا عن جلال الدين ، وفي يوم الاثنين تاسع عشره طلع القضاة الاربعة وقبلوا يد السلطان ، واستأذن قاضي القضاة عزالدين عبدالعزيز بن جماعة الشافعي في عزل نواب الحكم فانهم جميعا انما ولوا ببذلهم المال الجزيل لولد القزويني ، وانهم قد أفسدوا في الاعمال إفساداً عظيما . فاجابه السلطان ان يفعل ما فيه خلاصه من الله تعالى ، فنزل ابن جماعة، وكتب بعزل قضاة الوجه القبلي والوجه البحري باسرهم ، وعزل فخر الدين محمد بن محمد بن مسكين من نيابة الحكم بمصر ، وولّى عوضه بهاءالدين عبدالله بن عقيل ، وعين لقضاء الاعمال جماعة ممن وقع اختياره عليهم فلم يجسر أحد على معارضته ولا مخالفته، واستخلف عنه في القضاء تاج الدين محمد بن اسحاق المناوي ، وضياءالدين محمد ابن ابراهيم المناوي ، وعزل الضياء المحتسب من نظر الاوقاف حتى لم

---

(١) السلوك ج٢ ق ٢ ص ٤٤٢ .

يدع احدا بالقاهرة ومصر وأعمالها ممن ولاه القزويني .

يقول المقريزي : « فانكف عن الناس بذلك شر كبير وفساد كثير، وسار رفقاؤه الحنفي والحنبلي[1] مثل سيرته في النزاهة والصيانة »[2] .

والقى القزويني عصا الترحال في دمشق ليكون قاضي القضاة فيها ، وفرح به أهل الشام فرحا عظيما ، لانهم وجدوا فيه رفقا كبيرا ، وتيسرت لهم الارزاق والرواتب والمناصب باشارته . ولكنه لم يسلم من التهم ، ولم يَنْجُ من حقد الحاسدين فرفعت عنه قصة الى السلطان وفيها أنه يشرب الخمر ويفعل ويفعل ، فاتهم السلطان بكتابتها جماعة ، ثم تأملها كاتب السر فوجد فيها علاءالدين الكونوي بالكاف مكان القاف فعلم ان كاتبها هندي ، وفحصوا عن امرها الى أن وجدوا فقيرا نزل قرب خانقاه سعيد السعداء ، وكان اولا مقيما بدمشق فوقع بينه وبين القاضي جلال الدين كلام اوجب انتقاله الى مصر فكتب الرقعة، ودسها الى ان وقعت للسلطان في دار العدل ، وامر بتعزيره وشهرته فوقعت فيه شفاعة واطلق[3] .

وفاتـــه :

ولم تطل حياة القزويني فقد أصيب بالفالج ومات في السابع والعشرين من جمادى الاولى سنة ٧٣٩هـ (١٣٣٨ م)[4] أو في خامس عشر جمادى الآخرة[5] ، أو في منتصف جمادى الاولى[6] . يقول

(١) جاء في هامش ص ٤٤٣ ج٢ ق٢ من كتاب السلوك « مما يوجب الالتفات هنا أن قاضي القضاة الشافعي كان بيده عزل بعض موظفي الدولة من وظائفهم ، وهذا عدا ما كان بيده من السلطة التنفيذية بصدد نواب الحكم (القضاة) التابعين لمذهبه » .

(٢) السلوك ج٢ ق٢ ص ٤٤٣ ، وينظر الدرر الكامنة ج٢ ص ٣٧٩ .

(٣) ينظر الدرر الكامنة ج٤ ص ٦ والبدر الطالع ج٢ ص ١٨٣ .

(٤) تأريخ ابن الاردى ج٢ ص ٣٢٤ ، والمختصر في أخبار البشر ج٤ ص ١٢٨، ومعجم المؤلفين ج١ ص ١٤٦ .

(٥) النجوم الزاهرة ج٩ ص ٣١٨ .

(٦) شذرات الذهب ج٦ ص ١٢٤ ، ومفتاح السعادة ج١ ص ١٦٨ ، وبغية الوعاة ص ٩٦ والبدر الطالع ج٢ ص ١٨٤ .

المقريزي : « وفي مستهل جمادى الاولى (٧٣٩ هـ) صُلِّيَ صلاة الغائب على قاضي القضاة جلال الدين محمد القزويني »[١] .

ولم يشذ عن هذه الرواية الا ابن اياس، فقد ذكر وفاته في حوادث سنة ٧٢٠ هـ يقول : « ثم دخلت سنة عشرين وسبعمائة .. وفي هذه السنة توفي قاضي القضاة جلال الدين القزويني »[٢] . وهذا خطأ مبين ، لان القزويني في هذا العام كان ما يزال في دمشق ، ولم يسافر الى مصر ليكون قاضي القضاة فيها .

وشيعه عالم عظيم ودفن بمقابر الصوفية الواقعة امام جامعة دمشق الآن ، واسف الناس عليه اسفا شديدا ، لانه كان محبوبا ، ذا منزلة سامية في قلوب الشاميين والمصريين.

وتولى بعده قضاء دمشق الشيخ تقي الدين علي بن السبكي ، يقول أبو الفدا : « وفيه ــ جمادى الآخرة سنة ٧٣٩ هـ ــ ورد الخبر الى حلب ان الشيخ تقي الدين علي بن السبكي تولى قضاء القضاة في الشافعية بدمشق المحروسة بعد ان حدث الخطيب بدر الدين محمد بن القاضي جلال الدين نفسه بذلك وجزم به وقبل الهناء ، فقال فيه بعض أهل دمشق :

قد سَبَكَ السبكيّ قلبَ الخطيبْ   فعيشُه من بعدِها ما يطيبْ »[٣]

وبذلك انطوت صفحة قاضي قضاة الاقليمين[٤] ، ولكن صفحة عمله البلاغي لم تَطْوَ ، وستبقى ناصعة الى ما شاء الله .

---

(١) السلوك ج٢ ق٢ ص ٤٦٣ ، وينظر النهل الصافي ج٣ ص ١٧٦ .

(٢) بدائع الزهور ج١ ص ١٦١ .

(٣) المختصر في اخبار البشر ج٤ ص ١٤٩ .

(٤) جاء في شذرات الذهب ج٦ ص ١٢٣ : « وفيها قاضي الاقليمين جلال الدين محمد بن عبدالرحمن » .

ه

اولاده :

أما اولاد جلال الدين القزويني فقد تتبعنا اخبارهم ووجدنا منهم عبدالله ، وهو اكبرهم ــ كما يبدو من كنية أبيه ــ ، فهم يقولون عنه: « أبو عبدالله محمد .. » وكان هذا الابن منذ نعومة اظفاره نبيهــا فحفظ التنبيه وغيره ، ودرب الاحكام وناب عن ابيه بمصر لما حج مع الناصر ، وكان اولا قد قرر في كتابة الانشاء بدمشق ، وكان حسنا رائع الجمال ، ولما أسن صار ضخما ، ثقيل الحركة ، وكانت له رغبــة في اقتناء الخيول والمسابقة عليها فأخرجه السلطان مرتين من الديار المصرية بعد أن كثرت الشكاوى منه لسوء اخلاقه ، وعمَّرَ بجزيرة النيل دارا يقال انه أنفق عليها ألف الف درهم ، فلما أخرج من القاهرة باعها . وكان كثير التنعم بالجواري الحسان والآنية الثمينة ، وعنده من الكتب النفيسة ما ينيف على ثلاثة آلاف مجلد . وكان خطيب الجامع الاموي وتوفي في خامس عشر جمادى الاولى سنة ٧٤٣ هـ[١] .

ومن اولاده بدر الدين محمد بن محمد ، ولد بعد سنة ٧٠٠ هـ وحضر على ابن الموازيني ، وأجاز له ابن مشرف شرف الدين الفزاري، وتفقه ومهر في الخطابة . وخطب قبل أن يلي أبوه قضاء القضاة في حياة المشايخ الكبار ، ولما ولي ابوه القضاء استمر على خطابته وكان يدخل

---

(١) ينظر السلوك ج٢ ق٢ ص ٣٣٦ ، ٣٦٨ ، والدرر الكامنة ج٢ ص ٢٩٤ .

مصر كل سنة فيقيم مدة ويرجع بتشريف ، فكانت له بذلك وجاهة ، ثم ولي قضاء العسكر ، وناب لابيه وكان الامر كله مفوضا اليه ، وولي نظر الأمينية ودرس بعدة اماكن ثم نزع منه السبكي نظر الأمينيـة بعض رؤساء والي مصر ، وكان وافر الحشمة ، جميل السيرة ، حسن التأدية للخطبة ، طيب النغمة . ولما مات ابوه سمت همته الى ولايـة القضاء فلم يتفق له ذلك، وانتكست أحواله الى ان اكمده الحزن ، ويقال طلعت على قلبه دبلة ، ومات في جمادى الآخرة سنة ٧٤٣هـ[١] .

ومنهم عبدالرحيم تاج الدين ، ولد في حدود سنة ٧١٠ هـ ، وكان أعلم الشفة ، لكنه فصيح ، ولما مات بدرالدين استقر في خطابة الجامع بدمشق الشيخ تقي الدين السبكي ، فلما ملك الفخري دمشـق أعاد الخطابة لتـاج الدين ، ولمـا دخل السبكي القاهرة مطلوبا في أيـام الصالح اسماعيل بلغ تاج الدين أنه ولي الخطابة فصعـد المنبر يوم الجمعة وقال وهو جالس قبل الخطبة ، « هذا السبكي اخذ منـا الخطابه وقطع رزقنا » . وبكى فبكى العوام معه وتعصبوا له ، فلمـا جاء السبكي كادوا يرجمونه ، فترك الخطابة له واستمر فيها الى أن مات في الطاعون العام في ذي القعدة سنة ٧٤٩ هـ ، يقول الصفدي : « كان يخطب بلحن ويوردها بلا لحن ، ويقرأ طيبا في محرابه ، ويأتي من نغمة النغمة بما هو احرى به ، وكان يتعاجم في كلامه ، وله عنـد العوام قبول عظيم ، وكان مدرس الشامية الجوانية ، وكان قد قرأ في العربية على ابن عقيل ، وفي الاصول على شمس الدين الاصبهاني ، ولم يكن له يد في شيء من العلوم البتة ، وكانت جنازته حافلة جدا »[٢] .

ومنهم عبدالكريم محمد بن محمد صدرالدين ، تولى التدريس بالاتابكية بدمشق ثاني يوم من ذي الحجة سنة ٧٣٨ هـ . وتولى أخوه الخطيب بدرالدين التدريس في الغزالية والعادلية نيابة عن أبيهما قاضي

---

(١) الدرر الكامنة ج٤ ص ٣٦١ ، ج٤ ص ٨٥ .

(٢) الدرر الكامنة ج٢ ص ٣٦١ .

القضاة »[1] . وكان لعبدالكريم ولد أسمه محمد ، مات بدمشق في جمادى الاولى سنة ٧٥٥ هـ ، وقد ذكر ابن حجر انه حينما مات لم يجدوا له كفنا[2] .

وقد نال القزويني عنت وضيق بسبب هؤلاء الابناء ، ولفقت القصص عليه للتشنيع به ، فكان جزاء اعمالهم ان اخرج من مصر الى الشام .

(١) الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص ١٣٣ .
(٢) الدرر الكامنة ج٤ ص ٢٤ .

٦

مدائح ومراث :

وللشعراء في جلال الدين مدائح ومراثٍ كثيرة ، وقد عثرنا على قسم منها نثبتها هنا ، لأنها تعكس قيمته بين معاصريه وعلاقته بعلماء زمانه .

قال المقري وهو يتحدث عن الموشحات : « وهذا المنحى هو الذي سلكه الجمال ابن نباته اذ قال مادحا جلال الدين الخطيب رحم الله تعالى الجميع »(١) .

ما سَحّ محمرٌ دموعي وساح على الملاح
الا وفي قلبي المعنى جراح

* *

بي من بني الاتراك حلو الشباب مر السطا
عشقته حين عدمت الصواب من الخطا
تشكو حشا الغزلان منه النهاب اذا عطا
وربما تشكو الغصون اكتئاب اذا خطا
ما ماس ذاك الغصن بين الوشاح الا وراح
قول عذولي كله في الرياح

* *

---

(١) نفح الطيب ج٩ ص ٢٩٢ .

آهـا لصبٍ معـه حيث كـان دمع أريـق
هـذا أسير في وجوه الحسـان وذا طليـق
أرّقَ جسمي بالضنـا يوم بـان بدر الفريـق
فها أنا اليـوم لـه يا فـلان عبـد رقيـق
يزيد اجفـاني نـدى وارتيـاح نهـى اللواح
مثـل جلال الدين يوم السـماح

* *

حبـر لـه في الخلق ذكر جميـل لا يفتـرى
ماح على غيظ الغمـام البخيـل محل الثـرى
ما رأت العـين لـه من مثيـل ولا تـرى
يوقـد في اوطانـه للنزيـل نـار القـرى
شـرارها في الكبر حمر صحـاح لهـا اقتـداح
لكنهـا في القلب عـذب قـراح

* *

يا مالك العـلم وفيض النـدى جزت المـدى
فابـق وكـل العالمين الفـدا دع العـدا
انت الذي اصبح غيث الجـدا صبح الهـدى
كـم يقتفى منـك وكم يقتـدى ويجتـدى
علـم جلـى ونـوال صـراح صفو مبـاح
يروي به راوى الرجـا عن رباح

* *

ومغـرم لا يختشى مـن رقيب ولا عـذول
معلـق القلب بشـجو عجيب ولا وصـول
يسـكر لـكن بصفـات الحبيب لا بالشـمول
لما رنا الظبي ومـاس القضيب اضحى يقـول

كم ينتضي جفنا وعطفا صفاح على رماح
ما ذي محاسن ذي خزائن سلاح

* *

ولابن نباتة المصري قصائد أُخَر في مدح القزويني ولعل أقدمها قصيدته التي يقول فيها :

يا بروقا على رُبى يَبرينٍ[1] أي بيض أغمدت بين الجفون
نحرت نصلك الكرى فلهذا سال في مقلتي دمٌ من شجوني
وحكت رونق الثغور الى ان ضحكت بالبكا ثغور العيون
آه للثغر والفم العذب امسى منهما العقل بين ميم وسين

وغَريرٍ ما زلت ألقى الهوى فيه بدمع واف وصبر خؤون

ما عذولي في حبه برشيد لا ولا رأي ناصحي بأمينٍ
وديار عن الأحبة اقوت فصداها لبعدهم كالانين
درست فهي لا تبين الا بالاسى تستفز قلب الحزينٍ
أو أرى في أراكها ضوء ثغر كلما ضَلَّ رسمها يهديني
معبد طالما نعمت وعيشي مستماح اليدين غير ضنين
بغصون من أرضه كقدودٍ وقدود من اهله كغصون
وجنان الخدود يفتح فيها اللثم صدغا اطل كالزرفين

كنت فيها اثرى الانام من الصبوة واللهو والصبا والمجون
بين راح من الاباريق مكيول ، ولفظٍ من الغنا موزون
ذاك عيشٌ مضى عزيزا ، ولا غروَ لعينٍ تبكي بماء مهين
ووجوه مثل الدنانير قد عاجلها دهرها بصرف المنون

ثم زال الصبا ومن كان يُصبي وشجوني كما علمت شجوني
لست أسلو تلك المحاسن حتى يتسلى الندى جلال الدينٍ

(١) يبرين : قرية بضواحي حلب (ينظر ابن نباتة المصري ص ١٥٤) .

ملتقى الفصد ، مرتقى المدح ، مهوى الرقد، غوث الولي، غيظ القرين

بحرُ فقه وان تشا فابن بحر في ضروب البيان والتبيين
وخطيب يكفي الخطوب بلفظ يستميل الصخور بالتليين
ساجع يورق المنابر ميساً فتلذ الاسجاع فوق الغصون
وأمام المحراب يشهد علم حازه انه امام الفنون
وسريٌ ضاهى الهلال ارتفاعا وضياء بعزمه المستبين
ساور الفرقدين عنه الى أنْ اسلماه وتلّه للجبين
ضاع مدح يُهدى لغير علاه ضيْعَةَ البكر في يد العنّين
فعلت راحتاه في كل عسر مثل فعل المضاف بالتنوين
كل يوم فتوّة وفتاوٍ منقذات الجهول والمسكين

كلما قلل الثناء له نعمى اتانا بجوده بكمين
قسماً بالضحى لديه من البشر، وبالليل من يراع أمين

إنّ نظم المديح فرض علينا كل يوم لعزمه المسنون
شبه الناس جوده بالغوادي كاشتباه الهلال بالعرجون
شرف في تواضع واحتمال في اقتدار وهيبة في سكون
هكذا يفخر المحاول فخرا ليس حسن الوجوه كالتحسين
وهن الشهب سابقا واعتدى من عدم العجب وهو كالمرهون
وسعى بينها الى ان أتى منها بلفظ زاهٍ ورأي رصين
لجأ الفضل في علاه بطود مشمخرٍ سامي المثال ركين
ويراع قد كان مرباه قدما في عرين يسقى بغيث هتون

فلهذا في الجود حاكى حبا الغيث، وحاكى في اليأس أسد العرين

فيه سحر يبين عنا شكوكا أي سحر كما رأيت مبين
ووقى كل آمر جلب القصد لمغناه غير ما مغبون
من اناس سادوا وشادوا معاليهم بشد عند الفعال ولين
مثل بيض من الظبا رونقا في صفحات وجدّة في متون

ملكوا رايـة البيـان وحلوا عنق الدهر بالـكلام الثمين
أيها الماجد الذي حصّن الدين بأوراق كتبـه في حصـون
أمر الله أن تَسـود ويزهى حينك المجتبى على كـل حين
فابْقَ سامي المحل داني العطايا سامق المجد دائم التمكـين
واجتلِ البكر من ثنائي لا تحتاج من واصف الى تزيـينِ
انت اولى يا بحرَ علم وبـر كل وقت بمثل هذي النونِ
سلكت راحتاك ما استصعب الناس من الجود والعلى في الحزون
أصل هـذا الانام مـاء ولكن أنت من رائق وهم من أجون(١)

وهذه القصيدة وان لم تكن لها قيمة فنية فانها تعطينا صورة واضحة عن منزلة القزويني واهميته في الخطابة والقضاء والتأليف ، وقيمتـه بين رجال عصره من العلماء والادباء .

وقال ابن نباتة في الخطيب القزويني :

حاشاك يا عارض المكارم من عارض بأسٍ يضنني وتنكيدِ
قم للعلى والعلوم مشـتملاً ثياب سـراء ذات تجديد
يعتل عنك النسـيم سـائده وتحمل السقم أعين الغيـدِ
أنت الذي خبـره ومنظره آذن أمداحنـا بتسـديد
سر لمغناك من مآربنـا نجائب فاستوت على الجودي(٢)

وقال ابن نباتة في القزويني عندما تولى قضاء الشام سنة ٧٢٤هـ ، وقد أشار الى هـذه الحادثة في معرض تهنئته :

سقى حماك من الوسمي باكرُهُ حتى تبسمَ من عجبٍ أزاهرُهُ

---

(١) ينظر ديوان ابن نباته المصري ص ٤٩٥ ـ ٤٩٧ ، وسجع المطوق (مخطوطة دار الكتب بالقاهرة ص ٢٢ ب) ؛ و (مخطوطة الاوقاف ببغداد ص ٥٧ ـ ٦٠) .
(٢) ديوان ابن نباتة ص ١٦١ .

يا دار لهوي لا واشٍ آكاتمه ... ولا رقيب بمغناها أحـــاذره

حيث الشبيبة تُصبي كل ذي حور ... سيان أسود مرآهـــا وناظره

من كل محتكم الاجفان يخرجنا ... من أرض سلو تنافي الحب ساحره

ظبي اذا شمت خديه ومقلته ... أذاب لاهبــه قلبي وفــاتره

يأوي الى بيت قلب فيه مخترب ... فاعجب لمخرب بيت وهو عامره

كأنه بيت شعر في عروض جوى ... دارت عليه بلا ذنب دوائره

ليهن من باب مسرور بهجعته ... إني عليه قريح الطرف ساهره

مجري الدموع على طرف تألفها ... فاستسهلت لمجاريها محاجره

كم ليلة بت أشكو من تطاولها ... عليّ والافق داجي القلب كافره

وارقب الشهب فيه وهي ثابتة ... كأنما سمّرت منهــا مسامره

حتى بدا الصبح يحكي وجه سيدنا ... قاضي القضاة اذا استجداه زائره

لله صبح تجلى للشــريعة عن ... ذاك الجلال لقد جلت مآثره

افدي البريد وللتقليد في يده ... مخلّق تملأ الدنيا بشائــره

يكاد يلمع مطوي السطور به ... حتى ينم على فحواي ظاهره

مسرة كان طرف الشرع يرقبها ... ومطلب كانت العليا تجاوره

قاضي القضاة اذا استجداه زائره ... سبل القريض وصاغ القول ماهره

هذي كؤوس الثنا والحمد مترعة ... باكر صبوحك أهنا العيش باكره

واسمع مدائح قد فاه الجماد بها ... وقد ترنم فوق الايك طـائره

ما أحسن َ الدين َ والدنيا يسوسهما ... والطيلسان فلا تخفى مفاخره

كأنّ أبيض هذا تلو أسود ذا ... عين الزمان الذي ما زاغ باصره

حيث المقاصد في أبوابه زمراً ... فليس للدهر ذنب وهو غافره

فاستَجْلِ طلعة َذي بشر وذي كرم ... كالغيث بارقه الساري فماطره

تصبو لحبر فتاويه لواحظنا ... فما عيون المها الا محــابره

وينفذ الامر كالسهم القديم فما ... تحيد عن غرض التقوى اوامره

لا شيء أحسن من مرآه مقتبلا ... إلا محاسن ما ضمّت سرائره

تجلو المهابة في ناديه رونقهــا ... فما نكاد بنجوانا نجــاهره

ويفهم السر من حاجات أنفسنا ... فما نطيق على أمـــر نساتره

ياحاكماصانسوحالدينعاضده — وفازَ بالشرف المأثور ظـافره
وُلّيتَ بالعلملابالحظ مرتبةً — فاحكم بعلمك فيما انت ناظره
وانظرلحال غَريبالدار مفتقر — طال الزمان وما سدت مفاقره
نعم الفتىأنت قد برّت أوائله — في المكرماتوقد أربت اواخره
يمته دلفي الاصـل منتسبا — تأبى معاليـه أن تخفى عناصره
لا يستقر بكفيه الثـراء فما — تلك الحظوظ بها إلاّ معابره
زكا وأمكنه فعل الجميل فما — فيالناس لوقصرتجدواهعاذره
لئن تفرد بالعلياء سـؤدده — لقد تفرّد بالآداب شاعره[1]

وقال يمدحه أيضا :

إنّ طيفاً عن حال شجواي أملى — لست أدري أدّى الامانة أم لا ؟
جاء ضيفا ورده سـهد عيني — فتولـى بي الهمـوم وولّى
ليت طيف الحبيب ينقل جسمي — لا حديثي ، فكان يحسن نقـلا
بـأبي مـن اذا تثنى دلالا — أطرقت في رياضها القضب خجلى
فاتك اللحظ وهو حلو من الفتـ — ـك ، فيا حبذا الحسام المحلّى
عرف الناس سحر عينيه لما هَزّ — جفناً ، فصيّر الجفن نصـلا
وعليـه تأصـل الحب لمّـا — مدّ فرعا ، فصيّر الفرع أصـلا
مَدّ صدغا على عذار وخـدٍ — فرأينـا مرعى ومـاء وظـلا
ورنا بعـده الغزال فقلنـا : — حُطّ يا ظبي عن جفونك ثقـلا
ليس يسلى هواه من قلب صبّ — ونَعِم فوق نـار خديه يُسلى
يا سلوي عليه بعـداً وسحقا — واشتياقي اليـه أهـلا وسـهلا
أشتكي جوره التذاذاً بذكرى — شخصه كالاريحي منـه عـدلا
عجبي منـه ظالمـاً مستطيلا — وهو ان ماس أعدل الناس شكلا
باخل بالـكلام لكن له سيّان — لحظ تكلم النـاس طفـلا
يا بخيـلا بلفظـه ولقـاه — شَدّ ما قـد بخلت قولا وفعلا
خنت عهـدي ولست أول خل — خان بعد الولاء والود خـلا

---

(١) ديوان ابن نباتة ص ١٩٨ ــ ١٩٩ .

رب، يوم قد كان ريقك فيـــه لي راحا وكان خـدك نقـــلا
سائلي عن قديم دهري اليهـــا ذاك وقت مضى ودهـــر تولّى
وليـــال جـادت واعقبت الهم ،فيا ليت جودها كـــان بخلا
وحبيب جفا ولســـت بساليـه وحاشـاك ذاك الجمال وكـلا
تتقلى بـه العـواذل غبنــاً فهو يهوى ، وعذّلي فيه تُقلى
عذلوني وفي الحشـا عقـد ود لم يدع لاستماع عذل محـــلا
أنا في الحب مثل قاضي قضـاة الدين في الجود ليس يسمع عذلا
معرف في العلى لمـا فيـه يتلو وثنـاه على البســيطة يتلى
دلفـي يـوم الفخـــار يجلى وبـه منهـم الخطوب تجلى
حـاز غايات أهلـه بسـماعٍ قدّمتـه الى السـيادة أهـلا
فأفاض الجودين عــدلا ومالاً وحمى الجانبين حزنـا وسـهلا
وحرام أن يطـرق العسـر والجور ، فتى كان في مغانيـه حـلاّ
همـة تحسب النجوم على الافق شـعاعا مـن جرمهـا تتجلى
وعلوم فاضت على الارض بحراً هاديا لم يعفّ كالبحر سـبلا
كم قضى فرض قاصـد لحماه ثم والى فاتبـع الفرض نفـلا
كم جنينـا منـه المواهب شهدا اذ بنينـا لـه الركائب نمـلا
كم الى بيت ماله في العطـايا قد ضربنا بطالع العيس رمـلا
لائميه على المـكارم كفـوا إنّ للعب بالصبابـة شـغلا
يا له سالكاً بغـير مثيـــل في طـريق من السـيادة مثلى
واماما اقلامه كـل يـــوم تتلقى الاقـلام قـدح معلى
صـان للفضل ذمة وحوى العلم جميعـا ، فلم تقـل فيـه إلا
لو ارادت شـهب النجوم علاه ما عزا الفيلسوف للشـهب عقلا
ما ألذّ النعمى لديه ، وما أشقى حسودا بنـاره بـات يصلى
وعدوا ان لم ينـازله بالقتـل كفاه سيف التحسـد قتـلا

أضعف الهم جسمه فاذا قال لرجليه بادري كتبتْ : لا

قد بلونا السادات شرقاً وغربا فوجدنا جلال علياه أجلى
قيل يعنى عطارد قلت : لا ، بل مشتري الحمد بالنفائس بذلا

يا إماما اذا المفاخر نادته ، مشى ساحب الذيول مُدِلا
أتشكى لك الزمان الذي تملك اصلاحه لديّ فهل لا ؟

ومقام للعلم لولا نظام من مساعيك ما تنظّم شملا
ومحاريب شدتها بدروس وصلاة تحبى اليك وتجلى

حبذا أنوار شخصك في سجّاد محرابه النقى والمصلى

ربّ مدحٍ لولاك أمسى محالا ورجاء لولاك أصبح مَحْلا
حبذا لي مدائح فيك تبدى من حياء كالروض يحمل طلا
طال املاؤها عليك ، ولكن لك كف من العطالين يملا

عادة لامها النصيح على البذل، فقالت سجية الاصل : مهلا

إنْ أكن أحسن الثنا فيك قولا فلقد أحسنت أياديك فعلا
زادك الله بسطة واقتدارا ومقاما على السها ومحلاّ
جمع الله فيك ما عزّ في الخلق فسبحانه ، وعزّ وجلا(۱)

وفي ديوان ابن نباتة قصيدتان لم يذكر البشتكي جامع الديوان انهما قيلتا في الخطيب القزويني . والناظر فيهما يحس احساسا قويا بانهما في قاضي القضاة جلال الدين، وقد قيلت احداهما للتهنئة بالحج ، يقول فيها :

وكادت تبارينا دمشق بشجوها اليك وقد تشجى الربى والمعالمُ
لئن أوحشتها منك ربوة سؤدد لقد أوحشتها من نداك المقاسم
فوافيتَها ، والعيشُ مقتبلُ الهنا وعزمُك مبرورٌ وسرحك سالم

---

(۱) ديوان ابن نباتة ص ٥٥٢ ـ ٥٥٤ .

إليك جلالَ الدين أصبحت العلى وسلّم أعرابُ الورى والاعاجم[1]

والثانية يشير فيها الى أصل القزويني ، يقول :

بني دلف طبتم وطـاب قديمكم فأكرم بكم فرعاءواكرم بكم أصلا[2]

وكانت قصائد ابن نباتة المصري قد قيلت في القزويني حينما كان يشغل منصب خطيب جامع دمشق ومنصب القضاء فيها . واقتطع ابن نباتة عن المديح ولم يقل في القزويني بعد ذلك إلا مرثية واحدة بعد عودته الى دمشق ووفاته فيها . يقول :

كلٌّ حي قاضٍ عليه زوالـــه والى هذه الســبيل مآلـــه
يا جلالا عن الزمـــان تقضّى عز رب قضى وجلّ جلالـــه
ما اقتضى حظنـا بقاءك فينـا واحداً تشمل الأنـام ظلالـــه
هاديـــا للنـدى وللعلم ترجى كـــل يوم أقوالـه وفعـــاله
أين ذاك الغمـــام يدنو الى الناس ندى كفه ، ويعلو منالـــه
أين احكامـه وأين عـــلاه ؟ أين أقلامه وأيـــن نوالـــه ؟
قف بقبـر الإمـام يا نادبَ الفضل ، وخلِّ البكاء تهمي سـجاله
وانثر الدمـع حول مثواه نثراً مثلما ينثر الــكلام ارتجـاله
ودع الشـعر كان للشعر وقت بنـداه وقـد تغيّر حالـــه
وسـلا الصب واستراح المعنّى لا صباباته ولا عذّالــــه
أقفـــرت ساحة العلى فبيوت الشعر من بَعْدِ بُعْده أطلالـه
آه للطالبين علمـاً ورفــــداً بعدما غاض عزمه وأحتفالـــه
طالب العـــلم فيه للنحو نـوح لا تسل عنه كيف أصبح حالـه
طالب الجود مات من كان في الجود تبارى تحني يديـه شـــماله

---

(١) ديوان ابن نباتة ص ٤٣٢ — ٤٣٣ .
(٢) ديوان ابن نباتة ص ٥٥٦ .

طالب العلم مطلقا خل عنه   قيد العلم حزنه وكلاله
مات من كان ملتقى كل قصد   والى الله قصده واتكاله
عجباً من سريره يوم أودى   كيفما أورقت ورقت ظلاله
عجبا من زمانه حين ولّى   كيفما سُيِّرت ودكّت جباله
صعدت روحه لامثالها الزهر   وفي الارض أين أين مثاله
فتهاوت كواكب الافق تسعى   وانحنى يبدأ السلام هلاله
وعدمنا نحن الندى ولقينا   يتقاضى وفد الرجاء جلاله
يا له من مصاب دين ودنيا   طال فينا اشتغاله واشتعاله
شاب كالشيخ طفله وبكى الاشياخ فيه كأنهم أطفاله
ونعت مصر والشآم إماما   طرزت مجد ذا وذاك خلاله[1]
كم مقام كما سمعت ملوكي   ولديه تصرفت افعاله
كم بيمناه قصة قد أجيبت   وسؤول بها أجيب سؤاله
كم قريب دعا به وبعيد   وهو هام يد الندى هطاله
كم أتتني مع الركاب لهاه   ووفت لي مع الزمان خصاله
لو بقدر الأسى بكيت لسالت   مهجة كم وفت لها أفضاله
في سبيل العلى غمام تولّى   بعدما أخصب الورى اقباله
هكذا عادة الزمان بنوه   بسط ظل كما ترى وزواله
ودفين على بقايا دفين   مثلما قال من سرت امثاله
كم الى كم هذا التغافل منا   عن يقين الردى وهذا التباله
جاد يا قاضي القضاة ضريحا   كان فيه غيث يسر انهماله
وجزى الله جود كفك عنا   وتولاك جوده ونواله
لك منا نشر النسيم ثناء   ولنا بالاسى عليك اعتلاله[2]

ولابن نباتة المصري ترجمة للقزويني في كتابه « سجع المطوق »

---

(١) في هذه البيت وغيره اشارة الى الوحدة السياسية بين الاقليمين : المصري والشامي .

(٢) ديوان ابن نباتة المصري ص ٤٠٤ — ٤٠٥ .

ولكنها سجع كلها ، ومدح وتعظيم له •وقد ختمها بالقصيدة النونية السابقة ، وبرسالة كتبها اليه في يوم مثلج هي[1] :

« يا مولانا صبحك الله بكل صبيحة بيضاء لا من هذه الثلوج الملحة ، وكل غنيمة باردة لا من هذه الليالي المدلهمة • وكل ثغر باسم، ولا أعني هذه البروق اللامعة ، وكل ضرع حافل ولا أرضى هذه السحب الهامعة •

وسقى ديارك ــ غير مفسدها ــ صوب الربيع وديمة تهمي

كيف أنت في هذا الجليد الذي أذاب قلب الجليد ، وهذه الرحمة التي أوقعتنا في العذاب الشديد ، وهذا البرد الذي لا تقوى عليه الاجساد اذا كان يقوى على البرد الحديد • وهل عندك خبر من حال معتز مغترب ، مضطر مضطرب ، ساجد من شدة الهول مقترب •

أما أنا فقد تحصنت في هذه الواقعة بظل السماء ذات البروج ، ولبست السحاب الأبلق إلا انه من زرقة الجسد وبياض الثلوج • وتفاويت وما قوة من أشابه الضرب صورة ومعنى • وشاهدت الموت فليت الأيام أباحت لي من الكسوة كفنا حين أتاحت لي من الثلج قطنا• وجربت قول العربي المقرور ان الحسب ليدفيني فما وجدت الحسب إلا يدفنني • واستصوبت قول الآخر وقد رأى أعرابيا في مثل هذا اليوم ينشد :

كساني عامر فكسا بنيه عطاف المجد إنّ له عطافا

وقال : والله انك الى عطاف عباءة أحوج منك الى هذا العطاف ، وهذا وقت عاطفة من كرم مولانا تعطى على هذا الشين ، وتنصرف من هذا البلد الذي لا ازال فيه من برد جسد وسخنة عين ، وارسالها من ملابسة الشريعة وثيرة الجوانب قوية المناكب أكف بها العبرات والعبر،

---

(١) هذه القطعة والقصائد السابقة اضيفت في أثناء الطبع لتعطي صورة واضحة من علاقة القزويني بابن نباتة المصري .

واخلف قيس بن عاصم فاصبح سيد أهل الوبر . والله تعالى يعين بكرمه على هذا القطر وقطاره والافق ومطار امطاره ، ويعيننا على هذا البرد وان كان لؤلؤا منثورا ، وهذه السقيا وان كان مزاجها من الثلج كافورا »[1] .

ويقول في القزويني صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي وكيل المال وامام الادب في عصره من قصيدة امتدحه فيها :

هذا الامام الذي ترضى حكومته خلاف ماقاله النحوي في الصحف
له على كل قول بات ينصره وجه يصان عن التكليف بالكلف
حبر متى جال في بحث وجاد فلا تسأل عن البحر والهطالة الوطف
قد ذب عن ملة الاسلام ذب فتى يحمي الحمى بالعوالي السحر والرعف
ومذهب السنة الغراء قام به وثقف الحق من حيف ومن جنف
يأتي بكل دليل قد حكى جبلا فليس ينسفه ما يغلظ النسفي
وقد شفى العي لما بات منتصرا للشافعي برغم المذهب الحنفي
يحيي دروس ابن ادريس مباحثه فحبذا خلف منه عن السلف
فماارى ابن سريج ان يناظره من خيل ميدانه فليمض او يقف
ولو أتى مزني الفقه أغرقه ولم يعد قطرة في سحبه الذرف
وقد أقام شعار الأشعري فما يشك يوما ولا يشكو من الزيف
وليس للسيف حد يستقيم به ولو تصدى له ألقاه في التلف
والكايسي غدا في عينه سقم اذ راح ينظر من طرف اليه خفي
من معشر فخرهم أبقاه شاعرهم في قوله : انما الدنيا ابو دلف[2]

كلمات فيه :

وذكره القاضي شهاب الدين فضل الله العمري في كتابه « مسالك الابصار » فقال : « من ولد أبي دلف ، ومن مدد ذلك السلف . ولي أبوه

(1) سجع المطوق (مخطوطة دار الكتب في القاهرة ص ٤٥) و (مخطوطة الاوقاف ببغداد ص ٦٠) .
(2) طبقات الشافعية ج٥ ص ٢٣٩ .

وأخوه وشبهت النظراء ولم يؤاخذوه • ولي الخطابة وسلافيها ، ورقى اعواد المنابر وهز غصنها ، وكان صـدر المحافل اذا عقـدت وصيرفيّ المسائل اذا انتقدت • وكان طلق اليدين والكرم وان كـان بالدين انتهى »[1] •

وذكره الشيخ ابن نباتة المصري في سجع المطوق فقال : « الإمام المقدم على التحقيق والغمام المنشيء في مروج مهارقه كل روض أنيق • والسابق لرايات العلوم الذي أخلى له نحوها عن طريق • والبادي المطل على دقائقها التي اعترف له بالتقصير ذوو التحليق • والهـادي لمذاهب السنة الذي يشهد البحث أن بحر فكره عميق • والحبر أندى لا تدعى نفحات ذكره الزهور والصحيح انه أعطر من المسك العتيق • ناهيك من رجل على حين فترة من الهمم وظلمة من الدهر لا كالظلم • أطلعه الشرق كوكبا ملأ نوره الملأ بل بدرا لا يغتر بأشعة يواضعـه الاغلون فسر بنوره الى الابل صبحا فيحمد لديه الطالب سـراه لابل شمسا يتمثل في شخصه علماء الدهر الغابر فكان مرآة مرآه »[2] •

---

(۱) طبقات الشافعية ج٥ ص ٢٣٩ •

(۲) سجع المطوق (مخطوطة دار الكتب في القاهرة ص ٢٠) و (**مخطوطة الاوقاف** ببغداد ص ٥٤). وينظر طبقات الشافعية ج٥ ص ٢٣٨ •

الفصل الثاني

آثاره ومنهجه

١

نشأت البلاغة العربية مسائل متفرقة في كتب الفراء ، وأبي عبيدة، والجاحظ ، والمبرد . وكان ابن قتيبة ـ فيما نرى ـ أول مـن رتب بعض موضوعاتها وبوبها ، وعقد في كتابه « تأويل مشكل القرآن » أبوابا للمجاز ، والاستعارة ، والمقلوب ، والحذف ، والاختصـار ، وتكرار الكلام ، والزيادة فيه ، والكناية ، والتعريض ، ومخالفةظاهر اللفظ معناه . وكان لهذا التبويب أثر فيما كتب ابن المعتز الذي خطا بالبلاغة خطوة كبيرة نحو التبويب والتهذيب .

واخذت البلاغة تنمو وتزدهر حتى ظهر عبـدالقاهر الجرجاني فسار بها نحو الكمال ، وقرّرَ مسائلها ، وهذبها فـكان كتاباه : « دلائل الاعجاز » و « اسرار البلاغة » قمة البلاغة العربية ، تجلت فيهما العقلية الواعية التي تفهم الامور وتتذوق الأدب ، وبدا فيهمـا التبويب والتقسيم واضحا حتى عده بعض الباحثين واضع علمي المعاني والبيان بمفهومهما الاخير[1] .

---

(١) ينظر هامش ص : ت ، ث في دلائل الاعجاز وهامش ص ٤٦٩ في دائرة المعـارف الاسلامية (الطبعة العربية مادة بديع) ، وامالي علي عبدالرازق في البيان وتاريخه ص٣٢.

والواقع ان عبدالقاهر لم يكن واضع هذين العلمين ، لان رجال البلاغة كانوا قد بحثوا موضوعاتهما منذ عهـــد مبكر ، فتكلموا على المجاز ، والاستعارة ، والتشبيه ، والتقديم والتأخير ، والحذف والذكر، والاطناب والايجاز ، والتجنيس • ولم يأت عبدالقاهر بموضوعات جديدة الا ما كان من تهذيب ، وتبويب ، وتحليل للنصوص الادبية • وكان بحثه لا يختلف عن السابقين ، وكتـــاباه المشهوران يضمان موضوعات البلاغة كلها من معان وبيان وبديع ، ولم يفرق بينهما كما فعل المتأخرون ، ولم يقل هذه موضوعات المعاني ، وهـــذه مباحث البيان ، وتلك فنون البديـــع • وكانت طريقته في عدم تقسيم البلاغة الى علومها الثلاثة مدعاة لنقد المتأخرين ممن ســـيطرت على عقولهم نظرة تقسيم البلاغة فقال التفتازاني ـ السائر في فلك السكاكي ـ عن كتب عبدالقاهر : « كأنها عقد قد انفصم فتناثرت لآليه »[1] • ومن أجـــل ذلك لا نستطيع أن نقول بان عبدالقاهر واضع علمي المعاني والبيان لسببين :

الاول : ان موضوعاتهما قد بحثت قبله •

الثاني : أنه لم يفصل بينهما كما فعل المتأخرون •

ويمكن القول بانه مهد السبيل الى ذلك وأنه وضـــع « اسس المنهج التحليلي في دراسة البيان أو المعاني العقلية ومسايرة العبارات لها ودلالتها عليها »[2] •

وكان عبدالقاهر نفسه يرى ان هناك علما واحـــدا غاية الخائض في موضوعاته ان يستثير الاسرار التي ترفع من قدرة الكلام وتمنحه رتبة الشرف وتحله ذروة البلاغة •

وتمخضت عن الدراسات البلاغية مدرستان هما : المدرسة الادبية

---

(١) المطول ص ١٠ •

(٢) البيان العربي ص ١٣٣ •

والمدرسة الكلامية ، وكان لكل منهما خصائصها ومنهجها ، ولكنهما تتفقان في أمور منها : ان كلتيهما لم تقسم البلاغة الى علومها الثلاثة ، وانما كانت موضوعاتها تبحث على اعتبار انها فن واحد الهدف منه استثارة الاسرار التي ترفع من قيمة الكلام ، فلا تمييز بين موضوعات يحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره ، وموضوعات يراد بها معرفة ايراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة أو بالنقصان ، وموضوعات يعرف بها وجوه تحسين الكلام .

منهج السكاكي :

ولم تزل البلاغة تكمل شيئا فشيئا الى أن مَخَضَ السكاكي[1] زبدتها ، وهذّب مسائلها ، ورتّب ابوابها ، فكان أول من قسم البلاغة الى علمين متميزين : علم يتعلق بالنظم سماه « علم المعاني » ، وعلم يتعلق بالتشبيه ، والمجاز ، والكناية ، أو بالصورة الادبية سماه «علم البيان » . ولم يطلق على القسم الثالث مصطلح « علم البديع » وانما هو عنده وجوه مخصوصة يُؤتى بها قصد تحسين الكلام . ولهذا عرّف البلاغة تعريفا لم يدخل فيه البديع فقال : « البلاغة : هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها ، وايراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها »[2] .

وعرف علم المعاني بأنه : « تتبع خواص تراكيب الكلام في الافادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره »[3] . وقرر ــ كما قرر غيره ــ أنّ كلام العرب ضربان : خبر وطلب ، ولذلك قسم المعاني الى قانونين : الاول يتعلق بالخبر ، والثاني يتعلق بالطلب ، وقسم القانون الاول الى أربعة فنون :

---

(١) ينظر منهج السكاكي في كتاب « البلاغة عند السكاكي » ص ١١٥ وما بعدها .
(٢) مفتاح العلوم ص ١٩٦ .
(٣) مفتاح العلوم ص ٧٧ .

الاول : في تفصيل اعتبارات الاسناد الخبري ، تكلم فيه على انواع الخبر ، واغراضه ، ومؤكداته ، وخروجه عن مقتضى الظاهر •

الثاني : في تفصيل اعتبارات المسند اليه ، تحدث فيه عن حذف المسند اليه ، وذكره ، وتعريفه ، واضماره ، وتكلم على وصف المعرف ، وتأكيد المسند اليه ، وبيانه وتفسيره ، وبدله ، والحالة التي تقتضي العطف والفصل ، وتنكيره ، وتقديمه على المسند ، وتأخيره ، وقصره ، وخروجه على مقتضى الظاهر ، والالتفات •

الثالث : في تفصيل اعتبارات المسند ، تحدث فيه عن حذف المسند ، وذكره ، وافراده ، وكونه فعلا ، وتقييده ، وترك تقييده ، وكونه منكرا • وتكلم على تخصيصه ، وتركه ، وكونه اسما معرفا ، وجملة فعلية ، واسمية وظرفية • وتحدث عن تأخير المسند وتقديمه ، وعقد في هذا الفن فصلا تكلم فيه على الفعل ، وذكر تركه واثباته ، وترك مفعوله واثباته ، واضمار الفاعل واظهاره ، ثم تكلم على اعتبار التقديم والتأخير مع الفعل ، والحالات المقتضية لتقييد الفعل بالشرط •

الرابع : في تفصيل اعتبارات الفصل والوصل ، والايجاز والاطناب •

وبعد أن انتهى من هذا الفن عقد للقصر فصلا خاصا ، لانه ارجأ بحثه الى هذا المكان في كتابه « مفتاح العلوم » •

وقسم القانون الثاني الى خمسة أبواب هي : التمني ، والاستفهام ، والامر ، والنهي ، والنداء • وبعد أن انتهى من بحث الخبر والطلب تكلم على استعمال الخبر موضع الطلب ، واستعمال الطلب موضع الخبر ، وذكر اسلوب الحكيم في نهاية بحث المعاني •

بهذا المنهج بحث السكاكي علم المعاني ، وبهذا التقسيم رتب موضوعاته ، ويلاحظ أنه قدم البحث في الخبر مع أن كثيرا من الموضوعات التي بحثها فيه لا تخص الخبر وحده ، وانما هي مشتركة

بينه وبين الطلب . وعلل التفتازاني هذا المنهج بقوله : « وانما ابتدأ بابحاث الخبر لكونه اعظم شأنا وأعم فائدة ، لانه هو الذي يتصور بالصور الكثيرة ، وفيه تقع الصياغات العجيبة ، وبه تقع غالبا المزايا التي بها التفاضل ، ولكونه أصلا في الكلام ، لان الانشاء انمايحصل منه باشتقاق كالامر والنهي أو نقل كبئس ونعم وبعت واشتريت ، او زيادة اداة كالاستفهام ، والتمني ، وما أشبه ذلك ، ثم قدم بحث أحوال الاسناد على أحوال المسند اليه والمسند مع أن النسبة متأخرة عن الطرفين ، لان علم المعاني انما يبحث عن احوال اللفظ الموصوف بكونه مسندا اليه ومسندا. وهذا الوصف انما يتحقق بعد تحقيق الاسناد ، لانه ما لم يسند أحد الطرفين الى الاخر لم يصر احدهما مسندا اليه والآخر مسندا ، والمتقدم على النسبة انما هو ذات الطرفين ولا بحث لنا عنها »[1] .

وقال السكاكي عن البيان : « البيان معرفة ايراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان ، ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه »[2] . وحصر موضوعاته حصرا منطقيا فيه تمحل ، واغراق في الضبط ، وبُعْد" عن روح الادب والفن . ولما كان ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة غير ممكن بالدلالات الوضعية وانما يتأتى ذلك بالدلالات العقلية ، حصر علم البيان في المجاز والكناية ، لان دلالتهما عقلية فالمجاز انتقال من ملزوم الى لازم ، والكناية انتقال من لازم الى ملزوم يقول : «واذا ظهر لك أنّ مرجع علم البيان هاتان الجهتان علمت انصباب علم البيان الى التعرض للمجاز والكناية ، فان المجاز ينتقل فيه من الملزوم الى اللازم .. وأن الكناية ينتقل فيهـا من اللازم الى الملزوم »[3] .

---

(١) المطول ص ٤٣ .
(٢) مفتاح العلوم ص ٧٧ .
(٣) مفتاح العلوم ص ١٥٧ .

أما التشبيه فدلالته وضعية لذلك لا يدخل في علم البيان ، ولكن لما كان في المجاز ما ينبني على التشبيه تعين التعرض له ، يقول :« ثم ان المجاز اعني الاستعارة من حيث انها من فروع التشبيه لا تتحقق بمجرد حصول الانتقال من الملزوم الى اللازم لابد فيها من تقدمةتشبيه شيء بذلك من لازم له تستدعي تقديم التعرض للتشبيه ، فلا بد ان نأخذه اصلا ثالثا وتقدمه »[1] .

ومع هذا الحصر المنطقي فان السكاكي لم يستطع أن يخرج التشبيه من بحث البيان ، ولم يستطع اخيرا الا ان يعترف بأن من مَهَرَ في التشبيه مَلَكَ زمام التدرب في فنون السحر البياني . ولم يجعله مقدمة لدراسة الاستعارة ، وانما جعله اصلا ، لانه متشعب المباحث ، كثير الدوران في الكلام .

وبهذه الطريقة حصر السكاكي مباحث علم البيان في التشبيه والمجاز والكناية . وهذا الحصر ــ وان كان فيه اغراق في التكلف كما صرح بذلك السكاكي نفسه قائلا : « والمطلوب بهذا التكلف انما هو الضبط فاعلم »[2] ــ أدقّ من منهجه في بحث علم المعاني .

وقسم التشبيه الى اربعة مطالب ، تكلم في الاول على طرفي التشبيه ، وفي الثاني على وجه التشبيه ، وفي الثالث على الغرض من التشبيه ، وفي الرابع على احوال التشبيه من كونه قريبا أو غريبا،مقبولا أو مردودا . وهو في هذا التقسيم موفق الى حدٍّ ما لولا انه اضطرب قليلا في بحث المطالب الاربعة ففرق بعض المسائل هنا وهناك ، وكان من الدقة أن يجمع كل صنف في مطلبه .

وقسم المجاز كما قسمه السلف ، وعقد له خمسة فصول هي : المجاز اللغوي الراجع الى معنى الكلمة غير المفيد . والمجاز اللغوي

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٥٧ .

(٢) مفتاح العلوم ص ١٥٧ .

الراجع الى المعنى المفيد الخالي عن المبالغة في التشبيه .والاستعارةوهي ثمانية أقسام : المصرح بها التحقيقية مع القطع ، والمصرح بها التخييلية مع القطع ، والمصرح بها المحتملة للتحقيق والتخييل ، والاستعارة بالكناية الاصلية ، والتبعية ، والتجريدية . والضرب الرابع في المجاز اللغوي الراجع الى حكم الكلمة في الكلام ، والخامس في المجازالعقلي.

وقسم الكناية الى الكناية المطلوب بها نفس الموصوف ،والكناية المطلوب بها نفس الصفة ، والكناية المطلوب بها تخصيص الصفة بالموصوف .

اما ما يتعلق بالبديع فان السكاكي لم يسمّه بهذا المصطلح ، وانما سماه : وجوها مخصوصة يصار اليها لقصد تحسين الكلام ، وقسمه الى ضربين : ضرب يرجع الى المعنى ، وآخر يرجع الى اللفظ . ومن الاول : المطابقة ، المقابلة ، المشاكلة ، مراعاة النظير ، المزاوجة اللف والنشر ، الجمع ، التفريق ، التقسيم ، الجمع مع التفريق ،الجمع مع التقسيم ، الجمع مع التفريق والتقسيم ، الابهام ، تأكيد المدح بما يشبه الذم ، التوجيه،سوق المعلوم مساق غيره،الاعتراض ،الاستتباع، الالتفات ، تقليل اللفظ ولا تقليله .

ومن الثاني : التجنيس ، رد العجز الى الصدر ، القلب ، السجع، الفواصل ، الترجيع .

وترك انواعا اخرى من المحسنات لم يرَ لها قيمة كبيرة،يقول:«ويورد الاصحاب هنا أنواعا مثل كون الحروف منقوطة ، أو غير منقوطة ، أو البعض منقوطا والبعض غير منقوط بالسوية ، فلك ان تستخرج من هذا القبيل ما شئت وتلقب كلا من ذلك بما احببت »[1] .

ولا نريد البحث في قيمة هذا المنهج وصلاحه في دراسة البلاغة

---

(١) مفتاح العلوم ص ٢٠٤ .

فذلك ما بحثناه في كتابنا « البلاغة عند السكاكي »[١] .

واختصر السكاكي نفسه القسم الثالث من مفتاح العلوم بكتاب سماه « التبيان » ، ولم نجد له أثرا ، ولعله ضاع مع الكتب التي دمرتها النكبات . ووصل الينا أقدم تلخيصاته « المصباح » وكتاب « روض الاذهان في علم المعاني والبيان » لبدرالدين بن مالك . وهما — كما رأينا — تلخيص أمين لمفتاح العلوم مع اختلافات لا تكوّنُ اتجاها خاصا ، أو مذهبا بلاغيا جديدا .

مؤلفات القزويني :

واراد جلال‌الدين القزويني الذي كان يحب الادب ويحاضر به أن يساهم في الادب ويكتب في البلاغة فألف :

١ — التلخيص في علوم البلاغة (تلخيص المفتاح) .
٢ — الايضاح في علوم البلاغة .
٣ — الشذر المرجاني في شعر الارجاني ، او السور المرجاني في شعر الارجاني .
٤ — كتاب في الاصول .

وذكر القلقشندي ان للساوي لامية ضاهى فيها لامية‌ابن‌الحاجب في العروض وللامام القزويني شرح حسن عليها[٢] .

والكتابان الاولان في البلاغة ، أما الثالث فمختارات من ديوان الارجاني الذي كان يراه من مفاخر العجم ، يقول ابن حجر : « وكان يعظم الارجاني الشاعر ، ويقول إنه لم يكن للعجم نظيره ، واختصر ديوانه فسماه الشذر المرجاني من شعر الارجاني »[٣] . وكان لاعجابه

(١) بحث نلنا به درجة الماجستير من كلية الاداب بجامعة القاهرة بدرجة جيد جدا في اول شباط « فبراير » ١٩٦١ وطبع لاول مرة في بغداد سنة ١٩٦٤ . (تنظر ص ١١٥ وما بعدها) .

(٢) صبح الاعشى ج١ ص ٤٦٩ .

(٣) الدرر الكامنة ج٤ ص ٥ ، وينظر الوافي بالوفيات ج٣ ص ٢٤٣ .

بهذا الشاعر ان استشهد بكثير من شعره في كتبه .

ولم نعثر على شعر الارجاني الذي اختاره جلال الدين ، ولم يصفه احد من القدماء والمحدثين ، ولعل الايام تلقي ضوء عليه ، وتكشف لنا جانبا من جوانب القزويني الغامضة وتذوقه للادب وطريقته في اختيار الاشعار . واغلب الظن انه متأثر في هذا بمن اختار اشعارا لشاعر أو أكثر كضياء الدين بن الاثير الذي اختار من شعر ديك الجن وابي تمام والبحتري .

ولا نعرف شيئا عن الكتاب الرابع غير ما ذكره ابن عماد الحنبلي ، يقول : « وصنف في الاصول كتابا حسنا »[1] . والكتاب — من غير شك — في اصول الفقه الشافعي ، لان القزويني كان شافعيا وقاضي القضاة الشافعيين . ولعل في هذا الكتاب قيمة عظيمة ونفعا كبيرا لمن يريد أن يدرس القزويني ، وهو من غير شك يلقي ضوء على حياته الفقهية التي لم نستطع ان نجلوها بوضوح ، ونكشف عنها كشفا تاما لضياع الكتاب ، ولعدم معرفة ما فيه ، وسيملأ العثور عليه الحلقات المفقودة من حياة القزويني .

(١) شذرات الذهب ج٦ ص ١٢٣ .

٢

التلخيص

والكتاب الاول تلخيص للقسم الثالث من « مفتـاح العلوم » للسكاكي ، وهو كتاب نال شهرة واسعة ، وطبقت شهرته الخافقين ، واقبل الناس عليه قراءة وشرحا وتدريسا . وكان عند الازهريين الكتاب الاول الذي لا يبارى ، والآخر الذي ليس بعده غاية لمطلع ، يقول ابن خلدون : «والتلخيص وهو أصغر حجما من الايضاح، والعناية به لهذا العهد عند أهل المشرق في الشرح والتعليم اكثر من غيره»[١].

دوافع تأليفه :

وكان الدافع الى تأليفه ما رأى في كتاب السكاكي من حشو ، وتطويل ، واضطراب ، فاراد ان يهذّبه ويصونه عما فيه من تعقيد . وقد وضح القزويني هدفه في فاتحة الكتاب فقال : « اما بعد فلما كان علم البلاغة وتوابعها من اجل العلوم قدرا وادقها سرا ، اذ به تعرف دقائق العربية واسرارها ، وتكشف عن وجوه الاعجاز في نظم القرآن استارها ، وكان القسم الثالث من مفتاح العلوم الذي صنفه الفاضل العلامة ابو يعقوب يوسف السكاكي اعظم ما صنف فيه من الكتب المشهورة نفعا لكونه احسنها ترتيبا ، واتمها تحريرا ، واكثرها للاصول

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٢ .

جمعا ، ولكن كان غير مصون عن الحشو والتطويل والتعقيد قابلا للاختصار ، مفتقرا الى الايضاح والتجريد : الّفتُ مختصرا يتضمن ما فيه من القواعد ، ويشتمل على ما يحتاج اليه من الامثلة والشواهد، ولم آلُ جهدا في تحقيقه وتهذيبه ، ورتبته ترتيبا أقرب تناولا من ترتيبه ، ولم ابالغ في اختصار لفظه تقريبا لتعاطيه ، وطلبا لتسهيل فهمه على طالبيه وأضفت الى ذلك فوائد عثرت في بعض كتب القوم عليها، وزوائد لم اظفر في كلام احد بالتصريح بها والاشارة اليها ، وسميته « تلخيص المفتاح »(1) .

وتعجب بعض المحدثين من أن يدعي القزويني أن كتابه تلخيص للمفتاح وحده مع انه ملخص من كتب عدة، فلعبد القاهر فيه الشيء الكثير، ولابن سنان حظ وافر من المقدمة ، وكان من الامانة العلمية ان لا يغمط هذين العالمين فضلهما في كتابه ، بل يشير الى ما لهما من عمل واضح فيه (2) .

وليس هذا التعجب في مكانه ، لانّ القزويني لم يَدّعِ أنّ كتابه تلخيص للقسم الثالث من مفتاح العلوم ، وانما ذكر انه اضاف اليه فوائد عثر عليها في بعض الكتب ، وزاد عليه بما جادت قريحته واسعفته به عقليته في اثناء الكتابة ، وأي دليل اقوى من قوله : « واضفت الى ذلك فوائد عثرت في بعض كتب القوم عليها ، وزوائد لم اظفر في كلام احد بالتصريح بها ولا الاشارة اليها » .

متى ألف ؟

وليس في الكتاب اشارة الى تأريخ تأليفه ومكان كتابته ، ويرى الاستاذ الخولي ان القزويني كتبه في مصر ، يقول : « والراجح عندي

---

(1) التلخيص ص ٢٢ ــ ٢٣ .

(2) ينظر كتاب بحوث واراء في علوم البلاغة ص ٦٢ ، ١٣٧ ، وتاريخ علوم البلاغة ص ٣٤ .

ان القزويني كتب كتابيه تلخيص المفتاح والايضاح وهو بمصر ، لانه وفد من بلاده مبكرا وهو شاب ، وهنا اكتمل واطمأن واشتغل ،ويبدو ان كتابه الايضاح الذي وضعه تبيينا للتلخيص وتوضيحا له انما كان أثرا لحياته في البيئة المصرية الظاهرة الميل الى الطريقة الادبية في دراسة البلاغة »[1] •

وليس في هذا الرأي ما يرجح ان القزويني الف كتبه بعد ان استقر قاضيا للقضاء بمصر ، لاننا عثرنا على مخطوطة للايضاح كتبت سنة ٧٢٤ هـ وهي محفوظة في معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية بالقاهرة ، ومصورة عن مكتبة وليالدين • والايضاح شرح التخليص ، ومن هنا ينبغي ان يكون التلخيص قد ألف قبل هذا التاريخ أي قبل ان ينتقل المؤلف الى مصر سنة ٧٢٧ هـ ، وبذلك نستطيع ان نرجح ان التلخيص كتب في بيئة الشام قبل سنة ٧٢٤ هـ ، لانه نال مبكرا شهرة واسعة واقبل عليهالطلاب يدرسونه مع«الايضاح» ويعلقون عليه •

وذكر الاستاذ عزالدين التنوخي أنّ القزويني ألّف التلخيص بدمشق بعد ان انتقل الى قضائها ، ثم وضع عليه شرحا سماه الايضاح أو ايضاح التلخيص[2] • وهذا الرأي كالاول وان كان اقرب منه الى الواقع ، لان القزويني ــ كما نعلم ــ تولى القضاء في دمشق سنة ٧٢٤هـ ، وقد رأينا ان احدى نسخ الايضاح كتبت في هذا التاريخ ، وليس من الممكن ان يكتب الشرح قبل التلخيص ، ولذلك نستطيع ان نقرر ان التلخيص كتب قبل سنة ٧٢٤هـ وفي دمشق الشام •

منهجه:

ومنهج الكتاب لا يختلف عن منهج السكاكي اختلافا كبيرا ،فقد بدأه بمقدمة في فصاحة المفرد والكلام ، وعرف البلاغة بقوله:«والبلاغة

---

(١) مناهج تجديد ص ٢٤١ •
(٢) ينظر تهذيب الايضاح ج١ ص ١١ •

في الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته »[1] . وذكر ان مقامات الكلام متفاوتة ، فمقام كل من التنكير ، والاطلاق ، والتقديم ،والذكر يباين مقام خلافه ، ومقام الفصل يباين مقام الوصل ، ومقام الايجاز يباين مقام خلافه ، وكذا خطاب الذكي مع خطاب الغبي ، ولكل كلمة مع صاحبتها مقام ، وارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب ، وانحطاطه بعدمها ، فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب . فالبلاغة راجعة الى اللفظ باعتبار افادته المعنى بالتركيب ، وكثيرا ما يسمى ذلك فصاحة . ولها طرفان : اعلى وهو حد الاعجاز وما يقرب منه ، واسفل وهو ما اذا غير الكلام عنه الى ما دونه التحق عند البلغاء باصوات الحيوانات ، وبينهما مراتب كثيرة،وتتبعها وجوه آخر تورث الكلام حسنا .

وان البلاغة مرجعها الى الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد ، والى تمييز الفصيح من غيره ، والثاني منه ما يبين في علم متن اللغة او التصريف اوالنحو ، او يدرك بالحس وهو ماعدا التعقيد المعنوي . وما يحترز به عن الاول علم المعاني وما يحترز به عن التعقيد المعنوي علم البيان ، وما يعرف به وجوه التحسين علم البديع .وكثير يسمي الجميع علم البيان ، وبعضهم يسمي الاول علم المعاني ، والاخيرين علم البيان والثلاثة علم البديع .

وعلى هذا الاساس قسَّم البلاغة الى ثلاثة فنون : الاول: في علم المعاني : « وهو علم يعرف به احوال اللفظ العربي التي بهايطابقمقتضى الحال »[2] . وحصره في ثمانية أبواب : احوال الاسناد الخبري ، احوال المسند اليه ، احوال المسند ، أحول متعلقات الفعل ، القصر ، الانشاء ، الفصل والوصل ، الايجاز والاطناب والمساواة .وعلل هذا الحصر بقوله : « لان الكلام اما خبر أو انشاء ، لانه ان كان

---

(١) التلخيص ص ٣٣.

(٢) التلخيص ص ٣٧ .

لنسبته خارج تطابقه او لا تطابقه فخبر ، والا فانشاء ، والخبر لا بد له من مسند اليه ومسند واسناد ، والمسند قد يكون له متعلقات اذا كان فعلا أو في معناه ، وكل من الاسناد والتعلق اما بقصر أو بغيرقصر، وكل جملة قرنت باخرى اما معطوفة عليها او غير معطوفة ، والكلام البليغ اما زائد على أصل المراد لفائدة او غير زائد »[١] .

والثاني : في علم البيان « وهو علم يعرف به ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه»[٢].ودلالة اللفظ اماعلى تمام ما وضع له او على جزئه او على خارج عنه ، وتسمى الاولى وضعية ،وكل من الاخيرتين عقلية ، وتختص الاولى بالمطابقة ، والثانية بالتضمن ، والثالثة بالالتزام ، وشرطه اللزوم الذهني ولولاعتقادالمخاطب بعرف او غيره . والايراد المذكور لايتأتى بالوضعية ، لان السامع اذا كان عالما بوضع الالفاظ لم يكن بعضها اوضح، والا لم يكن كل واحدد الاعليه. ويتأتى بالعقلية لجواز ان تختلف، مراتب اللزوم في الوضوح، ثم اللفظ المراد به لازم ما وضع له ان قامت قرينة على عدم ارادته فمجاز والا فكناية ، وقدم عليها لان معناه كجزء معناها ، ثم منه ما يبنى على التشبيه فتعين التعرض له فانحصر في الثلاثة .

وعلى هذا الاساس قسّمَ علم البيان الى التشبيه والمجاز والكناية، فالتشبيه هو الدلالة على مشاركة امر لامر في معنى ، وقد عقد له فصولا في اركانه وهي : طرفاه ووجهه واداته ، وفي الغرض منه ، وفي اقسامه . والحقيقة هي الكلمة المستعملة فيما وضعت له في اصطلاح التخاطب ، والمجاز مفرد ومركب ، اما المفرد فهو الكلمة المستعملة في غير ماوضعت له في اصطلاح التخاطب على وجه يصح مع قرينة عدم ارادته ، وكل منهما لغوي وشرعي وعرفي خاص او عام ، والمجاز مرسل ان كانت العلاقة غير المشابهة والا فاستعارة ، وكثيرا ما تطلق الاستعارة على

---

(١) التلخيص ص ٣٨ .

(٢) التلخيص ص ٢٣٦ .

استعمال اسم المشبه به في المشبه . والكناية لفظ اريد به لازم معناه مع جواز ارادته معه ، وهي ثلاثة أقسام : الاولى المطلوب بها غير صفة ولا نسبة ، والثانية المطلوب بها صفة ، والثالثة مطلوب بها نسبة .

وختم بحث البيان بقوله : « أطبق البلغاء على ان المجاز والكناية أبلغ من الحقيقة والتصريح ، لان الانتقال فيهما من الملزوم الى اللازم فهو كدعوى الشيء ببينة ،وأن الاستعارة أبلغ من التشبيه ، لانها نوع من المجاز »[1] .

والثالث : في علم البديع «وهو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة »[2] . وهي ضربان : معنوي ولفظي .

أما المعنوي فمنه : المطابقة ، مراعاة النظير ، الارصاد ، المشاكلة ، المزاوجة ، العكس ، الرجوع ، التورية ، الاستخدام ، اللف والنشر ، الجمع ، التفريق ، التقسيم ، الجمع مع التفريق ، الجمع مع التقسيم ، الجمع مع التفريق والتقسيم ، التجريد ، المبالغة ، المذهب الكلامي ، حسن التعليل ، التفريع ، تأكيد المدح بما يشبه الذم ، تأكيد الذم بما يشبه المدح ، الاستتباع ، الادماج ، التوجيه ، الهزل الذي يراد به الجد ، تجاهل العارف ، القول بالموجب ، الاطراد .

وأما اللفظي فمنه : الجناس ، رد العجز على الصدر ، السجع ، الموازنة ، القلب ، التشريع ، لزوم ما لا يلزم .

واصل الحسن في هذا كله ان تكون الالفاظ تابعة للمعاني .

وختم الكتاب ببحث في السرقات الشعرية ، وما يتصل بها من الاقتباس ، والتضمين ، والعقد ، والحل ، والتلميح ، ثم عقد فصلا في حسن الابتداء ، وحسن التخلص ، وحسن الانتهاء .

---

(١) التلخيص ص ٣٤٦ .

(٢) التلخيص ص ٣٤٧ .

والخطيب القزويني ـ وان تابع السكاكي في منهجه وتلخيصه للقسم الثالث من مفتاح العلوم ـ لم يتقيد تمام التقيد به ، وانما حاول ان يقدم ويؤخر ، ويرتب ويهذب ، ويضيف موضوعات اخرى . واولها بحث الفصاحة الذي صدر به كتابه وجعله مقدمة ، ولعله متأثر في ذلك بابن سنان الذي بحث الفصاحة في أول كتابه « سر الفصاحة » . وكان السكاكي قد تكلم عليها بعد ان انتهى من بحث علم البيان ، لانه لا يراها لازمة للبلاغة كما ذهب القزويني اليه . وصنف موضوعات علمي المعاني والبيان أحسن من تصنيف السكاكي وترتيبه . وخالفه في المجاز العقلي ، فقد تحدث السكاكي عنه في علم البيان وأنكره بعد ذلك على اعتبار انه استعارة بالكناية ، أما القزويني فقد تكلم عليه في علم المعاني ، لان الاسناد عنده منه حقيقة عقلية وهي اسناد الفعل أو معناه الى ما هو له عند المتكلم في الظاهر ، ومنه مجاز عقلي وهو اسناده الى مُلابَسٍ له غير ما هو له ، بتأول . ولم يتكلم السكاكي على السرقات الشعرية وحسن الابتداء والتخلص والانتهاء ، وان كان غيره قد سبقه الى ذلك . أما القزويني فقد جعلها خاتمة الكتاب ، ولعله متأثر بضياء الدين بن الاثير الذي بحثها في خاتمة « المثل السائر » . وبذلك نرى القزويني لا يقف عند ما رسمه السكاكي ، وانما حاول ان يتصرف بالمنهج تصرفا أملته عليه ثقافته وطبيعة البيئة التي عاش فيها .

ونال التلخيص منزلة عظيمة ، واصبح المحور الذي دارت عليه البلاغة العربية حتى العصر الحديث ، وتسابق الناس الى اقتناء مخطوطاته ودراستها ، والتعليق عليها وشرحها ، وأخذوا يبحثون عن نسخه التي كتبها القزويني بيده ، يقول السيوطي في البغية : « وقد ملكته بخطه الحسن ونظمته في ارجوزة »[1] ويقول في شرح عقود الجمان : « والتلخيص تأليف قاضي القضاة جلال الدين محمد بن عبدالرحمن القزويني وعندي منه نسخة بخط مؤلفه »[2] .

(١) بغية الوعاة ص ٦٦ .

(٢) شرح عقود الجمان ص ٣ .

مخطوطاته :

وانتشرت نسخه في الخافقين ، وما تزال مخطوطاته الكثيرة تملأ المكتبات العامة والخزائن الخاصة،ومن مخطوطاته المحفوظةبدارالكتب بالقاهرة :

(١) نسخة مكتوبة بخط حسين بن اينبك فرغ من كتابتها يوم الاربعاء العاشر من شهر جمادى الآخرة سنة ٨٢٩ هـ في مدينة توقات ، وبهامشها تقييدات ورقمها ١١ .

(٢) نسخة بهامشها تقييدات كثيرة ، ورقمها ١٢ .

(٣) نسخة مخطوطة بخط حبيب بن عمر ، فرغ من كتابتها في شهر جمادى الآخرة سنة ١٠٠٦ هـ ، وبهامشها تقييدات ، ورقمها١٣ .

(٤) نسخة ضمن مجموعة مخطوطة رقمها ٧١ .

(٥) نسخة مخطوطة رقمها ٣٥٦ .

(٦) نسخة أخرى بها خرم ، رقمها ٣٥٧ .

(٧) نسخة مخطوطة بها خرم ، رقمها ٣٥٨ .

(٨) نسخة أخرى ، رقمها ٣٥٩ .

(٩) نسخة مخطوطة يليها القسم الثالث من مفتاح العلوم للسكاكي ، رقمها ٣٩٦ .

(١٠) نسخة مخطوطة سنة ١١٣١هـ بهامشها تقييدات ، ورقمها ٥٣٠ .

(١١) نسخة مخطوطة سنة ٩٧٠ هـ بهامشها تقييدات ، ورقمها ٥٤٥ .

(١٢) نسخة أخرى بهامشها تقييدات ، رقمها ٥٥٣ .

(١٣) نسخة ضمن مجموعة مخطوطة بخطوط مختلفة ، رقمها ٤٤ م .

(١٤) قطعة من نسخة اخرى تنتهي الى قوله : « واللام للاشارة الى معهود من باب أحوال المسند اليه ضمن مجموعة مخطوطة ، رقمها ١٦٧ مجاميع .

(١٥) نسخة ضمن مجموعة مخطوطة بخط خليل بن علي البروسي ،فرغ

من كتابتها سنة ١١٨١هـ • ورقمها ٥٠٢ مجاميع •

(١٦) نسخة ضمن مجموعة مخطوطة بقلم معتاد ، تمت كتابتها سنة ١٠٩٧ هـ ، ورقمها ٥٤٣ مجاميع •

(١٧) نسخة ضمن مجموعة مخطوطة ، رقمها ٦١٣ مجاميع •

(١٨) نسخة بقلم نسخ جميل اولها محلى ومنقوش بالذهب والالوان وباقيها مجدول بالذهب ويظهر انها مخطوطة من القرن الثالث عشر الهجري في ٩٠ ورقة ومسطرتها ١٣ سطرا ١١×١٨ ورقمها ٥٢٨٩ •

وفي مكتبة الاوقاف العامة ببغداد مخطوطتان منه ، الاولى رقمها ١٦٦٦ وهي ٢٠×١٤ س ، والثانية رقمها ١٠٤٤ ، وهي ٣١×١٢ س •

وفي خزانة ولي افندي باستانبول نسخة برقم ٢٧٤١ • وفي خزانة نور عثمانية نسخة بقلم تعليق رقمها ٤٣٧٧ ، وفي خزانة راغب باشا نسختان برقم ١٢٢٤ ، ١٢٢٥ ، وعند الاستاذ عباس العزاوي ببغداد نسخ مخطوطة منه[١] •

وفي مكتبات الموصل نسخ مخطوطة ، واحدة في المدرسة المحمدية ، وثانية في جامع بكر أفندي ، وثالثة في مدرسة الخياط ، ورابعة في مكتبة جامع الباشا[٢] •

وفي مكتبة المشهد الرضوي بايران نسختان ، كتبت الاولى بخط مبارك شاه ابن هندو بن مبارك المعروف بكركر ، في سنة ٧٥٣هـ ، وخطها نسخ في الصفحة الواحدة ١٧ سطرا وهي وقف ابن خاتون ، وعدد اوراقها ٤٥ ، وهي برقم ٦ • وكتبت الثانية بخط محمد بن منصور بن قطب الدين سنة ٩٦٧ هـ ، خطها نسخي في ١٦ و١٧ سطرا ، واوقفها السيد محمد زمان سنة ١٠٢٤ هـ ، وعدد أوراقها ٤٩ ورقة رقمها ٧١[٣] •

(١) ينظر تاريخ الادب العربي في العراق ج١ ص ٢١٤ .
(٢) ينظر مخطوطات الموصل ص ٦٩ ، ٧٧ ، ١٤٧ ، ١٤٨ .
(٣) ينظر فهرس مخطوطات المشهد الرضوي ج٣ ص ٥٤ .

ولو مضينا تتبع مخطوطات التلخيص لوجدنا مئـــات النسخ منتشرة في مكتبات العالم .

طبعاتـه :

وطبع عدة مرات منها :

(١) نسخة طبعت ضمن مجموعة في مطبعة الشيخ حسن الطوخي بمصر سنة ١٢٩٧ هـ .
(٢) نسخة ضمن ست مجموعات طبعت بمطبعة الشيخ محمد أبي زيد بمصر سنة ١٣٠٣ هـ .
(٣) نسخة طبعت ضمن مجموعة في المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٠٦ هـ .
(٤) نسخة طبعت ضمن مجموعة في مطبعة الشيخ محمد أبي زيد بمصر سنة ١٣٠٢ هـ .
(٥) نسخة طبعت بمطبعة السيد علي بمصر ضمن مجموعة سنة ١٣٠٤ هـ .
(٦) نسخة طبعت ضمن مجموعة في المطبعة الشرقية بمصر سنة ١٣٠٦ هـ .
(٧) نسخة طبعت ضمن مجموعة في المطبعة الحميدية المصرية ســـنة ١٣٢٣ هـ .
(٨) نسخة طبعت ضمن مجموعة في مطبعة ابي الذهب بمصـــر سنة ١٣٢٤ هـ .
(٩) نسخة طبعت في مجلد ببيروت سنة ١٣٠٢ هـ .
(١٠) نسخة طبعت في القاهرة بلا تاريخ .
(١١) نسخة طبعت في القاهرة سنة ١٣١٠ هـ .
(١٢) نسخة طبعت في القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ .
(١٣) نسخة طبعت في الاستانة .
(١٤) نسخة طبعت في القاهرة طبع حجر سنة ١٢٧٦ هـ .
(١٥) نسخة طبعت في القاهرة سنة ١٢٨٠ هـ .
(١٦) نسخة طبعت في المطبعة العثمانية بالقاهرة .
(١٧) نسخة طبعت في مطبعة الصدق بالقاهرة .

(١٨) نسخة طبعت في كلكتة سنة ١٨١٥ م •

(١٩) نسخة قام بتحقيقها وطبعها الاستاذ عبدالرحمن البرقوقي منشيء البيان ، وهي أضبط ما طبع من الكتاب وأصح نسخه ، وقد صدرت طبعته الاولى سنة ١٣٢٢ هـ ـ (١٩٠٤ م) وفيها مقدمة عن البلاغة بقلم المحقق ، مع تقريظ للامام محمد عبده •

يقول الشيخ الامام : « شرحه كثير من الناظرين في الفن وتعلق الاغلب بلفظه ، ولم ينظروا الغاية من وضعه ، فصرفوا الوقت فيه ، وخانتهم البلاغة نفسها بجميع مقاصدها ، فلا هم يحسنون اذا كتبوا ، ولا هم يقنعون اذا خطبوا ، ولا هم يحسنون الاستماع اذا خوطبوا كما هو معروف لانفسهم ولكل من يعرفهم •

شرحه الشيخ عبدالرحمن البرقوقى واطلعت على نموذج من شرحه ، فوجدته كافيا في تبيين معنى ما في الكتاب ، موجها نظر الناظر فيه الى ما قصد منه ، ولا حاجة بالسائر الى الغاية من الفن الى ما هو اكثر مما جاء فيه ، وانما الواجب عليه تحصيل الملكة بالعمل ، ومزاولة كلام البلغاء ، وكسب أساليب الفصحاء حتى يتم له من شأنه ما يريد ، ويشهد له كلامه قبل ان يشهد هو لنفسه ، وليس لكلامه ان يشهد حتى يروق العلم واهله ، وعدوه وخله • واسأل الله ان ينتفع بهذا الشرح مطالعه ، ويستفيد منه مراجعه »[١] •

وطريقة البرقوقي في الشرح هي أن يذكر معاني المفردات الغامضة ويكمل بعض نصوص القزويني في التلخيص من كتابه الايضاح او من كتب البلاغة الاخرى ، وينقل بعض النصوص من كتابي عبد القاهر،ومن الكشاف للزمخشري ، والمثل السائر لابن الاثير ، ومفتاح العلوم للسكاكي • وقد أجاد الشارح ، ويمكن أن نعتبر هذا الشرح وحده كتابا في البلاغة لما فيه من اضافات وفوائد جمة •

---

(١) التلخيص ص ١٩ ــ ٢٠ •

واعيد طبع الكتاب سنة ١٣٥٠ هـ (١٩٣٢ م) وما يزال التعويل على هذه الطبعة في دراسة التلخيص وقراءته .

شـــروحه :

وشغل الناس بشرح التلخيص والتعليق عليه ونظمه وشرح شواهده، وكان منذ أن ألفه القزويني مداراً لبحوث البلاغة وعمدتها كما يقول بهاء الدين السبكي : « أما بعد ، فان تلخيص المفتاح في علم البلاغة وتوابعها باجماع من وقف عليه ، واتفاق من صرف العناية اليه ، انفع كتاب في هذا العلم صنف ، واجمع مختصر فيه على مقدار حجمه ألف »[(١)] .

ويبدو أن اهل المشرق اهتموا بشرحه قبل غيرهم لاهتمامهم بكتاب السكاكي واعتمادهم على القواعد في دراسة علوم اللغة العربية ، ولكن تلك الشروح التي كتبت في المشرق لم تكن الا مجالا لعرض الآراء الفلسفية والعقائد الدينية ، لا يخرج أولهم على آخرهم ، ولا يضيف من فكره ومن ذوقه ما يجعل شرحه متميزا عن غيره ، وقد اجاد السبكي وصف هذه الشروح وأحسن في تقييمها ، يقول : « ولقد وصل الينا من تلك البلاد على التلخيص شروح رحم الله مصنفيها ، فانهم ماتوا وهم أخيار وبيض وجوههم في الآخرة ، كما سودهم بالمعالي في هذه الدار . لا تنشرح لبعضها الصدور الضيقة ولا تنفتح عندها مغلقة ، ولا ينقدح فيها زناد الفكر عن مسألة محققة . يتناولون المعنى الواحد بالطرق المختلفة ويتناوبون المشكل والواضح على أسلوب واحد ، كلهم قد ألفه لا يخالف المتأخر منهم المتقدم الا بتغيير العبارة ، ولا يجد له على حل ما أشكل على غيره أو استشكال ما اتضح جسارة، ولا يطمع أن يذوق ما في الاستدراك من اللذة ، ولا تطمح نفسه لان يقال برز على من سبقه وبذه ، بل يسري خلف من تقدمه حتى في الكلمة الفذة، ويسير أثره

---

(١) عروس الافراح ج١ ص ٤ .

حذو القُذَّة بالقُذَّة[1]. قصارى احدهم ان يعزو أبياتا من الشواهد لقائليها ، ويوسع الدائرة بما لا يقام له وزن من تكميل نقائصها وانشاد ما قبلها وما يليها ، وينشر للراغب مفردات الالفاظ من واضح كلام العرب ، ويذكر ما لا حرج على مخالفته من اصطلاحات لبعض أهل الادب ، ولا يزيد في شرح عبارة المصنف على الايضاح زينا وجد أم شينا . فلو نطق التلخيص لتلا : ما جئتم به هذه بضاعتنا ردت الينا»[2]، ويمضي السبكي في نقد هذه الشروح مبينا ما فيها من نقص وابتعادعن حقيقة البلاغة .

وشروح التلخيص كثيرة جدا ، وأول شروحه كتاب «الايضاح » للقزويني نفسه ، ثم تتابعت الشروح بعد ذلك ومنها :

(١) شرح محمد بن مظفر الخلخالي (٧٤٥ هـ) أوله : « الحمد لله الذي أسبغ على الانسان نعمة ظاهرة وباطنة » . وقد ذكر أن المتن مشتمل على مباحث شريفة لا تكاد توجد في غيره من الكتب، ولم يكن له غير ما هو كالشرح له من كتاب الايضاح فشرحه شرحا وافيا مشيرا الى أجوبة ما اعترض به مؤلفه فيه وفي كتاب الايضاح على صاحب مفتاح العلوم،وسماه مفتاح تلخيص المفتاح[3] .

(٢) شرح شمس الدين محمد بن عثمان بن محمد الزوزني (٧٩٢ هـ) اوله : « بالله استعين واليه أتضرع » .

(٣) شرح العلامة سعدالدين مسعود بن عمر التفتازاني (٧٩٢ هـ) وهو شرح ممزوج فرغ من تأليفه في صفر سنة ٧٤٨هـ،ثم شرحه شرحا ثانيا ممزوجا مختصرا عن الاول زاد فيه ونقص ، وفرغ منه بغجروان سنة ٧٥٦ هـ . واشتهر الشرح الاول بالمطول والثاني

---

(١) جاء في اساس البلاغة للزمخشري ص ٧٥٠ : «قذ الريش بالمقذ : حذف اطرافه ومنه القذة ، فيقال : « حذو القذة بالقذة » .

(٢) عروس الافراح ج١ ص ٦ .

(٣) ينظر الدرر الكامنة ج٤ ص ٢٠٦ ، وبغية الوعاة ص ١٠٦ ومفتاح السعادة ج١ ص ١٦٩ وكشف الظنون ج١ ص ٤٧٤ ، وتأريخ علوم البلاغة ص ١٣٧ .

بالمختصر ، وهما أشهر شروح التلخيص وقد طبعا عدة مرات •

حواش على المطول :

وعلى المطول حواشٍ كثيرة منها :

حاشية السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني (٨١٦ هـ) اولها : « الحمد لله رب العالمين » • وذكر أنه قيد على حواشٍ مجملة حين قرأه بعض الطلبة عليه ، ثم سألوا تعليقها مفصلة ففعل ، فجاءت مشتملة على فوائد منها ما هو توضيح لمقاصده ومنها ما هو تنبيه على مزاله ، وفيها اعتراضات على الشارح وتحقيقات لا بأس بها ، وقد طبعت على حاشية المطول المطبوع في استانبول •

وعلى هذه الحاشية حواشٍ منها :

حاشية مصلح الدين مصطفى بن حسام الرومي ، اجاب فيها عن اعتراضات المولى خسرو على الشريف ، ولكن أطال واطنب •

وحاشية المولى يوسف بن حسين الكرماستي (٩٠٨ هـ) •

وحاشية الشريف المرتضى •

حواش على المطول :

ومن الحواشي على المطول :

حاشية المولى حسن بن محمد شاه الفناري (٨٨٦ هـ) •

وحاشية محمد بن فراموز الشهير بملا خسرو (٨٨٥هـ) •

وحاشية أبي القاسم بن أبي بكر الليثي السمرقندي •

وحاشية ميرزا جان حبيب الله الشيرازي (٩٩٤ هـ) •

وحاشية شيخ الاسلام في مدينة هراة احمد بن يحيى بن محمد الحفيد المتوفى شهيدا سنة (٩٠٦ هـ) •

وحاشية مصلح الدين محمد اللاري (٩٧٩ هـ) •

وحاشية الشيخ علاءالدين علي بن محمد الشاهر ودي البسطامي

الشهير بمصنفك (٨٧١ هـ) .

وحاشية المولى احمد بن عبدالله القريمي (٨٥٠ هـ) .

وحاشية احمد الطالشي .

وحاشية شمس الدين محمد ابن احمد البسطامي (٨٤٢ هـ) .

وحاشية عزالدين محمد بن ابي بكر المعروف بابن جماعة (٨١٩هـ) .

وحاشية الشيخ يحيى بن سيف (يوسف) السيرامي المصري الحنفي (٨٧٣ هـ) .

وحاشية المولى حسن بن عبدالصمد السامسوني (٨٩١ هـ) .

وحاشية نظام الدين عثمان الخطائي (٩٠١ هـ) وهي حاشية لطيفة [1] .

وعلى المطول تقرير لمحمد بن محمد الانبابي المصري الشافعي شيخ الازهر المتوفى سنة ١٣١٢ هـ . وتقرير لعبدالرحمن الشربيني شيخ الجامع الازهر المتوفى سنة ١٣٢٠ هـ .

حواش على المختصر :

وعلى المختصر حواش كثيرة منها :

حاشية نظام الدين الخطائي .

وحاشية عبدالله بن شهاب الدين اليزدي .

وحاشية على حاشية الخطائي للفاضل ميرزا جان حبيب الله .

وحاشية ابراهيم بن احمد الشهير بابن الملا الجلبي .

وحاشية المولى يوسف بن حسين الكرماستي .

وحاشية حميدالدين بن أفضل الدين الحسيني .

وحاشية المولى محمد بن الخطيب الشهير بخطيب زاده الرومي (٩٠١ هـ) .

---

(١) تنظر هذه الحواشي في بغية الوعاة ص ١٤ و ٢٦ وخلاصة الاثر ج٤ ص ٤٩٢ وكشف الظنون ج١ ص ٤٧٦ وتأريخ علوم البلاغة ص ٣٦ و١٦٠ و١٦٤ و١٦٦ و١٦٩ و١٨٤ و ١٨٥ و ١٨٦ و ٢٠٠ و ٢٠١ .

وحاشية شهاب الدين احمد بن قاسم العبادي الازهري (٩٩٤هـ) .
وحاشية ياسين العليمي (١٠٦١ هـ) .
وحاشية الخفاجي (١٠٦٩ هـ) .
وحاشية الحنفي (١١٨١ هـ) .
وحاشية البناني من علماء القرن الثالث عشر .
وحاشية الدسوقي (١٢٣٠ هـ) وهي من أحسن الحواشي واروعها وقد اختصرها الحاج علي الاقشهري بن عثمان وطبعت في الاستانة سنة ١٢٨٠ هـ .

وحاشية الصفوي القلعاوي (١٠٢٥ هـ)[١] .
وعلى المختصر تقرير لمحمد بن محمد الانبابي شيخ الجامع الازهر (١٣٢١هـ) وعليه شرح قيم لابن يعقوب المغربي سماه «مواهب الفتاح» .

(٤) شرح العلامة اكمل الدين محمد بن محمود البابرتي (٧٨٦ هـ) ، وهو شرح بالقول اوله « الحمد لله الذي أفاض أنواع الحكم .. » فرغ من تأليفه في رمضان ٧٧٢ هـ ، ونبه على ما ورد عليه من الاعتراضات ، وأشار الى اجوبتها . ويقال ان له حاشية على المطول أيضا[٢] .

(٥) شرح بهاء الدين بن احمد بن علي بن عبد الكافي السبكي (٧٧٣هـ) سماه « عروس الافراح » ، وهو من اروع الشروح ، واكثرها فائدة وقيمة ، وعليه حاشية لمحمد بن ابي بكر بن جماعة عز الدين (٨١٩ هـ)[٣] .

(٦) شرح محب الدين محمد بن يوسف بن احمد بن عبد الدائم المعروف بناظر الجيش (٧٧٨ هـ) .

(٧) شرح جلال الدين رسول بن احمد بن يوسف التباني (٧٩٣ هـ) .

---

(١) ينظر تأريخ علوم البلاغة ص ٣٦ و٣٧ و ٢٠١ .
(٢) ينظر صبح الاعشى ج١ ص ٤٦٩ وحسن المحاضرة ج١ ص ٢٦ ، بغية الوعاة ص ١٠٣ وكشف الظنون ج١ ص ٤٧٧ ، وتأريخ علوم البلاغة ص ١٠٣ .
(٣) بغية الوعاة ص ٢٦ .

(٨) شرح الشيخ شمس الدين أبي عبدالله محمد بن يوسف بن الياس القونوي الحنفي (٧٨٨ هـ)[١] .

(٩) شرح محمد بن أحمد بن الموفق القيصري ، فرغ منه في رمضان سنة ٧٦١ هـ .

(١٠) شرح السيد عبدالله بن الحسن المعروف بنقره كار (٧٥٠ هـ).

(١١) شرح عصام الدين ابراهيم بن عربشاه الاسفراييني (٩٤٥ هـ) سماه « الاطول » .

(١٢) شرح محمد بن محمد بن محمد التبريزي ، سماه « نفائس التنصيص » ، وهو شرح بـ « قال » .. « أقول » .

(١٣) شرح مسمى « توضيح فتوح الارواح » ، أوله : « الحمد لله الذي ابدع الانسان ببديع قدرته » ، وهو شرح كبير بالقول ، ذكر فيه ان جمال الدين أشار الى تأليفه .

(١٤) ومن شروحه الحديثة شرح الاستاذ عبدالرحمن البرقوقي ، وقد تحدثنا عنه .

هذه بعض شروح التلخيص ، ويوجد كثير منها في دار الكتب بالقاهرة ، ومكتبة جامعة الازهر ، ومكتبة الاوقاف ببغداد ، ومكتبة المتحف العراقي ، ومكتبات استانبول وايران وغيرها .

مختصرات التلخيص :

واختصروا التلخيص ومن مختصراته :

(١) تلخيص التلخيص لشهاب الدين احمد بن محمد المعروف بالصاحب (٧٨٨ هـ) سماه « لطيف المعاني »[٢] .

---

(١) ينظر حسن المحاضرة ج١ ص ٣١٠ وبغية الوعاة ص ١١٨ و١٢٥ والدرر الكامنة ج٤ ص ٢٩٠ و٢٩٤ وتاريخ علوم البلاغة ص ١٤٦ و١٥٠ .

(٢) الدرر الكامنة ج١ ص ٢٤٩ .

(٢) تلخيص التلخيص لزين الدين أبي محمد عبدالرحمن بن أبي بكر المعروف بالعيني سماه « تحفة المعاني لعلم المعاني » •

(٣) تلخيص التلخيص للمولى لطف‌الله بن حسن التوقاني المتوفى شهيدا سنة (٩٠٠ هـ) •

(٤) تلخيص التلخيص لعزالدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن جماعة (٨١٩ هـ)[١] •

(٥) تلخيص التلخيص للمولى برويز الرومي (٩٨٧ هـ) وله شرح على ما اختصره •

(٦) تلخيص التلخيص لنورالدين بن حمزة بن طورغود ، ذكر أنه ألف في طريق الحج سنة ٩٦٢ هـ ، ورتّبه على مقدمة وثلاثة مسالك ، وسماه « المسالك » • وقد شرحه شرحا ممزوجا سماه « الهوادي » •

(٧) تلخيص التلخيص المسمى « اقصى الاماني في علم البيان والبديع والمعاني » ، وهو للعلامة ابي يحيى زكريا بن محمد الانصاري الشافعي المولود بـ « سُنَيْكَة » في بلاد مديرية الشرقية بمصر سنة ٨٢٦هـ، والمتوفى بالقاهرة سنة٩٢٦هـ•وقداختصرفيه تلخيص المفتاح وحذف منه المسائل المختلف فيها،والامثلة والشواهد،وما فيه نظر ، ورتبه على مقدمة وثلاثة فنون • وفي دار الكتب بالقاهرة نسخة منه ضمن مجموعة في مجلد بقلم معتاد بخط عبدالرزاق بن محمد بن مكتوم المنيلي ، فرغ من كتابته في يوم السبت الرابع والعشرين من شهر الله المحرم سنة ١٢٣٣ هـ ، رقمها ٦٠٤ • وقد شرحه بشرح سماه « فتح منزل المباني »[٢] •

---

(١) بغية الوعاة ص ٢٦ ، وتأريخ علوم البلاغة ص ١٦٠ •

(٢) ينظر الكواكب السائرة ج١ ص ١٩٦ وتأريخ علوم البلاغة ص ١٧٧ وفهرس دار الكتب ج٢ ص ١٧٦ •

(٨) تلخيص التلخيص المسمى « انبوب البلاغة » ، اوله « الحمد لله الذي خلق الانسان علمه البيان .. » للعالم خضر بن محمد الاماسي المفتي باماسية ، الّفه سنة ١٠٦٠ هـ ثم شرحه وسماه: « افاضة الانبوب » أو « الافاضة لانبوب البلاغة » ، وهو شرح ممزوج[١] .

منظومات التلخيص :

وللتلخيص منظومات منها :

(١) نظم زين‌الدين أبي العز طاهر بن حسن بن‌حبيب الحلبي (٨٠٨هـ) سماه « التلخيص في نظم التلخيص » وهو ألفان وخمسمائة بيت.

(٢) نظم شهاب‌الدين احمد بن عبدالله القلجي المولود سنة ٨٢٩ هـ والمتوفى سنة ٨٩٢ هـ .

(٣) نظم زين‌الدين عبدالرحمن العيني مختصر التلخيص نفسه .

(٤) نظم الشيخ جلال‌الدين أبي بكر السيوطي، (٩١١ هـ) سماه : « عقود الجمان في علم المعاني والبيان » ، وشرحه بكتاب سماه : « شرح عقود الجمان »[٢] . وله نكت على التلخيص وتخريج أبياته مروية بالاسناد مع ذكر القصيدة عليها .

(٥) نظم الشيخ أبي النجا بن خلف المصري المولود سنة ٨٤٩هـ[٣] .

(٦) نظم عبدالرحمن بن محمد بن عامر الاخضري المالكي المتوفى في أواخر القرن العاشر ، سماه : « الجوهر المكنون في الثلاثة الفنون » . وهو نظم لمتن تلخيص القزويني ويشتمل على ثلاثة

---

(١) ينظر كشف الظنون ج١ ص ٤٧٨ .

(٢) طبع في القاهرة سنة ١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م باسم « شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان » .

(٣) ينظر كشف الظنون ج١ ص٤٧٨و٤٧٩وتاريخ الادب العربي في العراق ج١ص٢١٦.

فنون ، أوله :

الحمد لله البديع الهـادي   الى بيـان مهيع الرشـاد

وقد شرحه أحمد منهوري بشرح سماه « حلية اللب المصون على الجوهر المكنون » • وشرحه العلامـة ابن يعقوب المكناسـي (١٢٠٨ هـ) • وشرحه العلامة علي الغزي • ووضع تعليقات على شرح الدمنهوري مخلوف بن محمد البدوي من علمـاء القرن الثالث عشر[١] •

(٧) نظم عبدالله محمد بن مرزوق الشهير بالحفيد ، نظمـه في حال صغره[٢] •

شرح أبيـات التلخيص :

وشرح ابيات التلخيص السيوطي ، يقول العباسي : « ولم أرَ من عمل على تلك الشواهد شرحا يشفي العليل ويروي الغليل ، غير أن شيخنا المرحوم العلامة الجلال السيوطي ــ سقى الله من صوب الرحمة ثراه واكرم منزله ومثواه ــ عمل على بعضها تعليقا لطيفا لم يكمله،ولم يخرج عن مسودته[٣] •

وشرحها عبدالرحيم بن احمد العبادي العباسي (٩٦٣ هـ) بكتاب سماه « معاهد التنصيص على شواهد التلخيص » ، وقد ذكر فيه معاني الابيات وتراجم قائليها ، ووضع في كل فن ما يناسبه من نظائره الادبية ومزج الهزل بالجد • وكان الذي حداه الى ذلك انه وجد في تلخيص القزويني من الشواهد الشعرية ما يعزى للاقدمين ، وما ينسب للمولدين الا أن اكثرها مجهول ، وربما عزاه بعض شارحي الكتاب لغير قائليه ، ولذلك رأى بعد أن وجد كتاب شيخه السيوطي غير شاف للغليل ، أن

---

(١) ينظر سلك الدرر ج١ ص ١١٧ وتأريخ علوم البلاغة ١٨٠ و ١٨١ .
(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٣٩٤ .
(٣) معاهد التنصيص ج١ ص ٢ .

يضع كتابا يشرح فيه أبيات التلخيص • وقد طبع الكتاب بالقاهرة في اربعة أجزاء بتحقيق الاستاذ الشيخ محمد محيي الدين عبدالحميد •

واختصر الكتاب احمد بن أحمد المعروف بالعجمي الاحمدي الوفائي من علماء القرن الحادي عشر ، وفرغ من مختصره سنة ١٠٩٣ هـ[1] •

ولمحمد ذهني شرح أبيات التلخيص وشرحه وحاشية السيد ،طبع للمرة الثالثة في استانبول سنة ١٣٢٧ هـ ، وهو في ٥٢٨ صفحة مع ثماني صفحات تقريظ وفهارس ، وفي الصفحة الاخيرة ما يشير الى أن الطبعة الثانية كانت في قازان •

هذه أهم شروح التلخيص وتلخيصاته ، وليس لمعظمها قيمة علمية كبيرة ، ولعل اهمها « الايضاح » للقزويني نفسه ، و « المطول » للتفتازاني ، و « عروس الافراح » للسبكي ، و « مواهب الفتاح » لابن يعقوب المغربي • وقد جمع السيد فرج الله زكي بعض هذه الشروح في كتاب واحد سماه « شروح التلخيص » ، جمع فيه مختصر السعد ، و« مواهب الفتاح » للمغربي ، و « عروس الافراح » للسبكي، ووضع على الحاشية كتاب الايضاح ، وحاشية الدسوقي على شرح السعد • وطريقته في ترتيبها أن بدأ في صلب الصفحة بشرح السعد ، ثم ثنّى بمواهب الفتاح ، وثلّث بعروس الافراح ، وصدّر الهامش بالايضاح ، وذكر بعده حاشية الدسوقي •

---

(١) تأريخ علوم البلاغة ص ١٨٢ •

٣

الايضـــاح

وأحسّ الخطيب القزويني بأن في كتابه « التلخيص » غموضـا وتعقيدا ، وأن فيه ايجازا والتواء ، فرأى ان يضع شرحا يحل مشكله ويوضح غامضه فألف الايضاح . يقول : « أما بعد فهذا كتاب في علم البلاغة وتوابعها ترجمته بالايضاح ، وجعلته على ترتيب مختصري الذي سميته « تلخيص المفتاح » ، وبسطت فيه القول ليكون كالشرح لـه فاوضحت مواضعـه المشـكلة وفصلت معانيـه المجملة ، وعمـدت الى ما خلا عنـه المختصـر مما تضمنه مفتـاح العلوم والى ما خلا عنه المفتاح من كلام الشيخ الامام عبدالقاهر الجرجاني ــ رحمه الله ــ في كتابيه : « دلائل الاعجاز » و « اسرار البلاغة » ، والى ما تيسـر النظر فيه من كلام غيرهما ، فاستخرجت زبدة ذلك كله ، وهذبتهـا ، ورتبتها حتى استقر كل شيء منها في محله وأضفت الى ذلك ما أدى أليه فكري ، ولم أجده لغيري فجاء بحمد الله جامعا لاشتات هـــذا العام »[1] .

متى ألفه :

وقد ألفه قبل سنة ٧٢٤ هـ أو في هذه السنة على أقل تقدير ،لان

(١) الايضاح ص ١ .

احدى نسخه كتبت فيها ، ومن هنا لا نرى وجها لما ذهب اليه الاستاذ الخولي من أن القزويني ألف كتابيه « التلخيص » و « الايضاح »وهو بمصر • وأغلب الظن ان الكتاب ألف في الشام ، لان صاحبه كان في هذا التاريخ وقبله خطيبا في الجامع الاموي وقاضيا لقضاة الشافعية في دمشق •

منهجـه :

ومنهج القزويني في « الايضاح » لا يختلف عن منهج التلخيص ، وان كان يختلف عنه في العرض والتحليل اختلافا قليلا • والمؤلف في هذا الكتاب يجمع بين طريقتي عبدالقاهر والسكاكي في البلاغة ، ويمتاز بجودة أسلوبه وهو أسلوب عربي مبين ليس فيه تكلف واسراف في الصنعة ، ولا التواء الاعاجم في التعبير • وقد أضاف الاستطراد الى المحسنات المعنوية وكان قد أغفل ذكره في التلخيص ، وناقش السكاكي وعبدالقاهر ورد عليهما في كثير من المواضع مما سنذكره في الفصل القادم •

والايضاح أهم شروح التلخيص ، وأروع كتب مدرسة البلاغة الكلامية التي كان السكاكي شيخها ، وهو أجدى نفعا للدارسين من الشروح الاخرى ، وان كانت المصطلحات العلمية والعبارات الفلسفية والبحوث والتقسيمات النظرية تؤوده وتضفي عليه ظلالا ثقيلة • والايضاح بعد هذا كله خلاصة بحوث علماء البلاغة العربية منذ نشأتها حتى عصره •

مخطوطاته :

ومخطوطات الايضاح كثيرة ، منها في دار الكتب بالقاهرة :

(١) نسخة كتبها موسى بن عمر ، فرغ من كتابتها في العشر الاول من شهر صفر ٧٧٣ هـ ، وبهامشها تقييدات كثيرة رقمها ١ بلاغة •

(٢) نسخة بها خرم في الاول رقمها ١٤٤ •

(٣) نسخة اخرى رقمها ١٦٢ .

(٤) نسخة بخط بدرالدين السيرايي ، فرغ من كتابتها في وقت الضحى من يوم الجمعة الرابع والعشرين من شهر رمضان سنة ٧٣٢ هـ في بلدة خوارزم ، بها خرم في الاول ورقمها ١٩٧ .

(٥) نسخة بخط على بن الحسن بن محمد بن عبدالسلام الرجائي الاصفهاني ، فرغ من كتابتها في يوم السبت غرة شهر جمادى الآخرة سنة ٧٧٣ هـ ، ورقمها ٣ م .

وفي معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية في القاهرة نسخة قديمة مصورة كتبت سنة ٧٢٤ هـ بخط محمد بن علي بن محمد الجرجاني صاحب « الاشارات في البلاغة » ، والنسخة الاصلية محفوظة في مكتبة ولي الدين بتركية ، وهي ١٤٥ ورقة حجم متوسط .

وفي مكتبة الأوقاف العامة ببغداد نسختان : الاولى رقمها ١٧١٦ وهي ٢٧×١٨ س . والثانية رقمها ٦١٨٩ وهي ٢٣×١٦ س ، وقد كتبت سنة ٧٤١ هـ .

وفي مكتبات الموصل نسخ مخطوطة منها نسخة مكتبة جامع الباشا ، وجامع الحجيات ، والمدرسة المحمدية ، ومدرسة الملا زكريا .

وفي مكتبة جامعة ييل في نيوهافن بالولايات المتحدة الامريكية نسخة كتبت في دمشق سنة ٧١٥ هـ[١] .

وفي مكتبة المشهد الرضوي بايران نسخة كتبها حسن بن يوسف سنة ٧٦٥ هـ ، خطها نسخ ، ١٣ سطرا في الصفحة ، وقد أوقفها حاج سيد محمد سنة ١٣٠٩ هـ ، وعدد اوراقها ٢٢٨[٢] .

وفي خزانة ولي الدين نسخة مكتوبة بقلم نسخ رقمها ٢٧٤١ .

---

(١) ينظر جولة في دار الكتب الامريكية ص ٧٥ .

(٢) فهرس مخطوطات المشهد الرضوي ج٣ ص ٥٣ .

وفي خزانة نور عثمانية نسخة كتبت بقلم تعليق رقمها ٤٣٧٧ ٠

وفي خزانة راغب باشا نسختان برقم ١٢٢٤ ، ٢٢٥ ٠

وفي خزانة كوبرلي وعند الاستاذ عباس العزاوي ببغـــداد نسخ كثيرة منــــه[١] ٠

شــــروحه :

وعلى الايضاح شروح كثيرة منها :

(١) شرح جمال‌الدين محمد بن محمد الاقسرائي المتوفى سنة ٨٠٠هـ سماه : « ايضاح الايضاح » ٠ وفي الشقائق ان السيد الشريف توجه اليه ليقرأ عليه فوصل اليه الشرح المذكور في الطريق فلمــا رآه قال : هو شرح كالذباب الاصفر على لحم البقر ، لانه كتاب مبسوط لا يحتاج الى الشرح الا في بعض المواضع ، والشارح كتب المتن بتمامه بالمداد الاحمر فبقى الشرح فيما بينها كالذباب على اللحم ٠ وروي انه صنفه لامير قرامان فجعل له كل يوم‌ألف درهم[٢] ٠ وذكر بعضهم أنه لا يعرف له شـــــرحا غير شرح الاقسرائي[٣] ٠

وفي دار الكتب بالقاهرة نسخة منــه مكتوبة بخط رسول بن حمزة بن سليمان ، وقد فرغ من كتابتها سنة ٨١٤ هـ وبهامشها تقييدات ، رقمها ٢ و ٤٥٩ ٠

وفي معهد المخطوطات بالجامعة العربية نسخة كتبت سنة٧٧٧هـ، وهي مصورة عن النسخة المحفوظة بمكتبة البلدية بالاسكندرية ٠

وفي مكتبة الاوقاف ببغداد نسخة منه رقمهــا ٦٢٠٦ وهي

---

(١) ينظر تأريخ الادب العربي في العراق ج١ ص ٢١٦ ، ٢١٧ ٠

(٢) مفتاح السعادة ج١ ص ١٦٩ وكشف الظنون ج١ ص ٢١١ وتأريخ علوم البلاغـــة ص ١٥٤ ٠

(٣) مفتاح السعادة ج١ ص ١٦٩ ٠

٢١ × ١٤ س .

(٢) شرح علاء الدين علي بن عمر الاسود (٨٠٠ هـ) .

(٣) شرح حيدر بن محمد الحوافي المعروف بالصدر الهروي (٨٢٠هـ) .

(٤) شرح المولى محيي الدين محمد بن ابراهيم النكساري (٩٠١هـ) .

(٥) شرح حيدرة الشيرازي برهان الدين ، وهو شرح ممزوج ذكره السيوطي[١] .

حواش على الايضاح :

وعلى الايضاح حواش منها :

حاشية الشيخ شمس الدين محمد بن محمد الجزري (٨٣٣ هـ) .

وحاشية شمس الدين محمد بن احمد النكساري سماها : « الايضاح »[٢] ، وفي مدرسة الخياط بالموصل نسخة من كتاب « توضيح الايضاح » لم يذكر مؤلفها .

والايضاح من كتب البلاغة التي تدرس في المعاهد والجامعات الحديثة ، وقد نال اهتماما كبيرا وشرح وطبع عدة مرات . وأثار حركة قوية في البحث والتأليف الى جانب اثارته الاحقاد والضغائن بين الناشرين والمحققين . وتنجلى هذه الخصومة في المشادة العنيفة التي قامت بين الاستاذين عبد المتعال الصعيدي ومحمد عبدالمنعم خفاجي ، واحتد الجدل وكثر الرد ، وقد صور الاستاذ خفاجي هذا الجدل والنقاش في كتابه « فصول في النقد » ، وفي كتاب الايضاح[٤] .

طبعاته :

ومن طبعات الكتاب :

(١) طبع بهامش كتاب شروح التلخيص ، وليس عليه تعليق أو شرح .

---

(١) بغية الوعاة ص ٢٤٠ ومفتاح السعادة ج١ ص ١٦٩ وتأريخ علوم البلاغة ص١٦١ .

(٢) كشف الظنون ج١ ص ٢١١ .

(٣) ينظر مخطوطات الموصل ص ١٤٧ .

(٤) ينظر ص ٨٤ — ١٢٠ من الكتاب الثالث منه ، والايضاح طبعة الخفاجي ج٣ الصفحات الاخيرة و ج٤ ص ٣ — ٢٤ .

(٢) طبع في مطبعة محمد علي صبيح واولاده بالقاهرة عدة مرات،منها سنة ١٣٤٨ هـ ، بتصحيح احمد مصطفى الفقي ، وسنة ١٣٦٦هـ • وهاتان الطبعتان من أردأ طبعات الايضاح ، لانها مشحونة بالاخطاء الفظيعة والتصحيف الكثير • وليس فيها تصحيحات في الهوامش أو تعليقات توضح غامض الكتاب ، وتجلو معانيه الملتوية ، وليس فيه تكملة لشاهد أو لنص ، ولا نسبة بعضها الى قائلها • وقد تداخلت بعض العبارات ، وضاعت بينها الابيات الشعرية •

(٣) وطبعه الاستاذ عبدالمتعال الصعيدي في اربعة أجزاء • ولما رأى فيه غموضا والتواء كشف عن هذا الغموض وجلّى الالتباس بكتابه :« بغية الايضاح لتلخيص المفتاح » ، وهو في اربعة أجزاء• وأضاف اليه تمرينات لم يذكرها القزويني ، وبذلك أضفى على الكتاب مسحة مدرسية •

(٤) وقام بتحقيقه والتعليق عليه الاستاذ محمد عبدالمنعم خفاجي ، وظهرت طبعته الاولى سنة ١٣٦٨ هـ (١٩٤٩ م) في ستة أجزاء• وأعاد طبعه مشروحا شرحا وافيا سنة ١٣٧٢ هـ (١٩٥٣ م) ولم يكمله حتى الآن • يقول المحقق : « هذا شرح جديد للايضاح ، يتناول بالبحث ، والتحليل ، والدراسة ، والتعليق ، والشرح ، جميع مسائله وشواهده ، ويشير الى مصادره ومراجعه التي ألف منها الخطيب هذا الكتاب • وهو عمل سيكون له أثره في البلاغة العربية وفي خدمة الايضاح ، وتذليل صعوبات البحث فيه »[1]•

ويمتاز هذا الشرح بدقة البحث ، ووضوح الشرح ، وتحليل المذاهب المختلفة ، وإنْ ملأَه صاحبه بما لا يمت الى كتاب القزويني بصلة كمقالاته التي نشرها في المجلات •

ومهما يكن من شيء فقد بذل الاستاذ خفاجي جهدا في شرحه واخراجه •

(١) الايضاح ج١ ص ١٣ .

(٥) وطبعه الاستاذ عزالدين التنوخي عضو المجمع العلمي العربي بدمشق وسماه : « تهذيب الايضاح » ، وهو في ثلاثة أجزاء .
ولم يتبع الشارح ترتيب القزويني في الكتاب ، وانما قدّم وأخّر فكان الجزء الاول للبديع ، والثاني للبيان ، والثالث للمعاني ، وأضاف اليه تمرينات كثيرة ونماذج محلولة . ولم يكتف بهذا وانما حذف من الكتاب ما يتعلق بالقضايا الفلسفية ، وكلام القزويني في الملكة ، واختلاف ابراهيم النظام والجاحظ من علماء الكلام في مفهوم الخبر ، وعبارة السكاكي في بحث لازم فائدة الخبر ، وتعريفه للحقيقة العقلية ، ودفاعه عن تعريفه ، واعتراض القزويني على هذا التعريف ، وتعريفه للمجاز العقلي ، ودفاعه ، واعتراض القزويني الذي اعترض عليه بهاءالدين السبكي في « عروس الأفراح »[1] .

وحذف فصلا كبيرا من الايضاح ، هو بحث السرقات الذي تكلم عليه البلاغيون والنقاد العرب منذ القديم ، والمحذوف : أنواع الاتفاق في المعنى ، الاتفاق في عموم الغرض وحكمه ، الاتفاق في الدلالة على الغرض وأنواعه ، الاتفاق فيما يشترك الناس في معرفته ، الاتفاق فيما لا ينال الا بفكر ، ضروب الاخذ ، الاخذ الظاهر وأنواعه ، الانتحال أو النسخ ، الاغارة او المسخ ، الالمام او السلخ ، الاخذ الخفي وأنواعه ، النقل ، القلب ، خير أنواع الاخذ .

وعلل التنوخي عمله هذا بقوله : « ونحن آثرنا حذفه ، لانه من فن النقد ، ولانه ليس كل ما يفيد من غير الفن الثالث مما يجب ذكره وأيضاحه ، ولكننا أثبتنا ما يتصل بفن السرقات كالاقتباس والتضمين والعقد والحل والتلميح ، لانا نرى أن هذه الانواع الخمسة من

---

(١) ينظر تهذيب الايضاح ج٣ ص ٢٦ ، ٤٨ ، ٧٤ وغيرها .

المحسنات البديعية وهي التي لا بأس بذكرها لفائدتها وعلاقتها بتراثنا الادبي الذي ندرسه ، وانما جعل هذه الانواع الخمسة مما يتصل بالسرقات لانها تشبهها بأن في كل منها اخذ شيء من اخر »[1] .

ولم يضع الفصل الثاني عنوانا لبحث الابتداء والتخلص والانتهاء وانما وضع له عنوان « الخاتمة » وقال : « اخترنا هذا العنوان بدل الفصل الثاني لاننا حذفنا الفصل الاول : فصل السرقات الشعرية ، لانه من بابة النقد »[2] .

وهذا لا يجوز في التحقيق العلمي، وكان من الدقة أن يذكر هذه المسائل ، ويشير اليها في الهوامش ويشرح ما غمض منها لا ان يحذفها ويغير فيها ، ولعل عذره في ذلك أنه طبع الكتاب ليدرسه الطلاب الذين أشفق الاستاذ عليهم اشفاقا عظيما .

(٦) وقامت بتحقيقه وطبعه لجنة من اساتذة كلية اللغة العربية بجامعة الازهر اختارها وأشرف عليها فضيلة شيخ الكلية الاستاذ محمد محيى الدين عبدالحميد وطبع الكتاب في مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة ، وقد كتبوا لها تقديما في اثنتي عشرة صفحة ، تحدثوا فيها عن البلاغة والنقد ، واشاروا الى القزويني وما عمله في البلاغة. وقسّموا الكتاب الى جزءين : الاول في المعاني ، والثاني في البيان والبديع ، وهو في مجلد واحد في ٤٦٤ صفحة .

وتمتاز هذه الطبعة بالدقة والترتيب الجيد ووضع العناوين التي تُسَهِّل قراءته والاستفادة منه . ويمكن القول بأن هذه الطبعة من أحسن طبعات الايضاح وأدقها .

هذه آثار الخطيب القزويني التي عرضنا لها بالتفصيل ، ولكن من أين استقى مادتها ؟.. ومن الذين تأثر بهم ونقل عنهم ؟.

---

(١) تهذيب الايضاح ج١ هامش ص ٣٠٠ .

(٢) تهذيب الايضاح ج١ هامش ص ٣٤٠ .

الفصل الثالث

مصادره

١

ذكر جلال الدين القزويني في فاتحة التلخيص أن كتابه تلخيص للقسم الثالث من مفتاح العلوم ، وانه قام بهذا الجهد لما رأى المفتاح غير مصون عن الحشو والتطويل والتعقيد قابلا للاختصار ، مفتقرا الى الايضاح والتجريد . ولم يقف عندما جاء به السكاكي ، بل اضاف اليه فوائد عثر عليها في بعض كتب القوم ، وزوائد لم يظفر في كلام احد بالتصريح بها والاشارة اليها .

وذكر في مقدمة الايضاح أنه وضعه شرحا لكتاب التلخيص ، ولم يكتف بما فيه أو في «مفتاح العلوم» ، وانما أضاف اليه ما خلا عنه من كلام الشيخ عبدالقاهر في كتابه « دلائل الاعجاز » « واسرار البلاغة» ، وما ذكره رجال البلاغة وما هداه اليه فكره . ولم يذكر في مقدمة كتابيه الا مفتاح العلوم وكتابي عبدالقاهر ، اما الكتب الاخرى التي يبدو أنه استفاد منها فلم يذكرها كما فعل ابن منقذ ، وابن ابي الاصبع المصري وبهاءالدين السبكي الذين ذكروا مصادرهم . وقد سار على

طريقة بدر الدين بن مالك في «تلخيص المفتاح»، ولم يشر اليه في مقدمته، ولم يذكر فضله واتجاهه في تهذيب المفتاح وترتيبه . ولا نجد في كتابيه إشارات الا الى القاضي ابي الحسن الجرجاني صاحب « الوساطة بين المتنبي وخصومه » ، وعبدالقاهر ، والزمخشري والسكاكي ، وابن الاثير ، وابن ابي الاصبع المصري مؤلف « تحرير التحبير »و « بديع القرآن » . أما غيرهم من علماء اللغة والبلاغة كالمبرد ، والرماني ، والعسكري ، وابن سنان ، وبدر الدين بن مالك ، فانه لم يشر اليهم .

مع المبرد :

وقد حاولنا أن نجد أثر المبرد (٢٨٥ هـ)[١] فلم نجد أثره في القزويني واضحا الا ما ذكره السبكي ، يقول وهو يتحدث عن المؤكدات: « قال : وتقول لمن يبالغ في الانكار : اني لصادق ، ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن رسل عيسى عليه الصلاة والسلام حين ارسلهم الى اهل انطاكية اذ كذبوا في المرة الاولى « إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ »[٢] ، وفي الثانية لما تكرر منهم الانكار: «رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ»[٣]، ونقل المصنف هذا الترتيب عن المبرد[٤] .

مع الجرجاني :

وتابع القزويني صاحب « الوساطة » علي بن عبدالعزيز الجرجاني (٣٦٦ هـ)[٥] في التشبيه المحذوف الاداة ، وهل هو استعارة أوتشبيه بليغ . فاذا كان المشبه غير مذكور ولا مقدر مثل:«رنت لنا ظبية»و«لقيته أسدا » فلا خلاف ان هذا ليس بتشبيه ، وان الاسم فيه استعارة ، واذا كان المشبه مذكورا أو مقدرا فاسم المشبه به ان كان خبرا أو في حكم

(١) تنظر ترجمة المبرد في تأريخ بغداد ج١ ص ١٧٠ ، وانباه الرواة ج٢ ص ١٤٣ .
(٢) سورة يس ، الآية ١٤ .
(٣) سورة يس ، الآية ١٦ .
(٤) عروس الافراح ج١ ص ٢٠٦ .
(٥) تنظر ترجمته في معجم الادباء ج١٤ ص ١٤ ، وطبقات الشافعية ج٢ ص ٣٠٨ .

الخبر ، كخبر « كان » و « إنّ » ،والمفعول الثاني لباب علمت،والحال، فالاصحّ أنه يسمى تشبيها ، وان الاسم فيه لا يسمى استعارة .

هذا رأي القزويني وهو متابعة لصاحب الوساطة الذي فرق بين التشبيه والاستعارة على هذا الوجه أو يقرب منه ، يقول : « وربما جاء في هذا الباب ما يظنه الناس استعارة وهو تشبيه أو مثل ، فقد رأيت بعض أهل الادب ذكر أنواعا من الاستعارة عد فيها قول ابي نواس :

والحُبُّ ظَهْر أنت راكبُه فاذا صرفت عِنانَه انصرفَا

ولست أرى هذا وما اشبهه استعارة ، وانما معنى البيت أن الحب مثل ظهر ، أو الحب كظهر تديره كيف شئت اذا ملكت عنانه فهو اما ضرب مثل او تشبيه شيء بشيء ، وانما الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الاصل ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها . وملاكها تقريب الشبه ومناسبة المستعار له للمستعار منه وامتزاج اللفظ بالمعنى حتى لا يوجد بينهما منافرة ولا يتبين في احدهما اعراض عن الآخر »[1] .

وصرح القزويني بهذه المتابعة فقال : « وهو اختيار المحققين كالقاضي أبي الحسن الجرجاني ، والشيخ عبدالقاهر ، والشيخ جارالله العلامة ، والشيخ صاحب المفتاح ــ رحمهم الله ــ »[2] .

مع الرماني :

وذكر السبكي أن الذي ذكره القزويني في تقسيم الايجاز الى ايجاز قصر ، وايجاز حذف ، وغيره تبع فيه جميعه الرماني المتوفى سنة (٣٨٦ هـ)[3] . واذا رجعنا الى ما ذكره الرماني ، والقزويني وجدنا

(١) الوساطة ص ٤١ ، وينظر الايضاح ص ٢٨٠ .
(٢) الايضاح ص ٢٨١ .
(٣) عروس الافراح ج٣ ص ٢٠٢ . وتنظر ترجمة الرماني في تأريخ بغداد ج١١ ص ١٦ ، ومعجم الادباء ج١٤ ص ٧٣ .

تشابها بينهما ، ولكن الاخير امتاز بالعرض المفصل ، والشرح المسهب ، والتقسيمات الكثيرة . فقد ذكر الرماني أن الايجاز حذف وقصـــر ، والايجاز بعد ذلك على ثلاثة اضرب : الايجاز بسلوك الطريق الاقرب دون الابعد . وايجاز باعتماد الغرض دون ما تشعب . وايجاز باظهار الفائدة بما يستحسن دون ما يستقبح . وانتهى الى ان للايجاز فضيلة وعلوا على سائر الكلام .

وقسمه الخطيب الى ايجاز القصر وايجاز الحذف ، ويكون الاخير اما بحذف المضاف ، أو الموصوف ، او الصفة ، او جواب الشرط ، او حذف جزء من اجزاء الجملة،أو حذف جملة مضمونها مسبب بعد ذكر، أو جملة مضمونها سبب بعد ذكر مسببه ، او الحذف باكثر من جملة . وقد فصل في هذه الموضوعات تفصيلا لا نجده عند الرماني[1] .

مع العسكري :

وكان لابي هلال العسكري (٣٩٥هـ)[2] اثر فيما كتب القزويني عن الحذف ، يقول العسكري : « ومن الحذف الرديء قول الحـــارث ابن حلزة :

والعيـــش خير" في ظـــــلا   لِ النوك[3] ممن عاش كَدّاً

وانما اراد : والعيش الناعم خير فيظلال النوك من العيش الشاق في ظلال العقل .

ومثله قول عروة بن الورد :

عجبت لهم اذ يقتلون نفوسَهم   وقتلهم عند الوغى كان أعـذرا

يعني : اذ يقتلون نفوسهم في السلم[4] .

(١) النكت في اعجاز القرآن ص ٧٠ وما بعدها ، والايضاح ص ١٨٢ وما بعدها .

(٢) تنظر ترجمة العسكري في معجم الادباء ج٨ ص ٢٥٨ ، وبغية الوعاة ص ٢٢١ ، وكتاب « ابو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية » .

(٣) النوك : الحمق .

(٤) كتاب الصناعتين ص ٨٨ . ١٨٢

ونقل القزويني هذين المثالين وعلق عليهما بكلام العسكري نفسه، فقال عن البيت الاول : « فانه اراد العيش الناعم في ظلال النوك خير من العيش الشاق في ظلال العقل » وقال عن الثاني : « انه اراد اذ يقتلون نفوسهم في السلم »[1] . وهذا يكفي للتدليل على اتفاق الرجلين في الموضوع .

ادعـــاء :

وأول ما يطالعنا في مقدمة « الايضاح » ادعاء مؤلفه بأنه لم يجد فيما بلغه من أقوال في تفسير الفصاحة والبلاغة ما يصلح لتعريفهما به ، ولا ما يشير الى الفرق بين كون الموصوف بهما الكلام ، وكون الموصوف بهما المتكلم . وهذه دعوى عريضة لا نجد ما يبررها ، لان القدماء أطنبوا في بحث هذه الموضوعات ، وتوسعوا فيها ، ووضحوا كل شيء . ولعل الجاحظ (٢٥٥ هـ) كان من اقدم الذين تعرضوا لبحث الفصاحة والبلاغة ، وذكر كثيرا من صفات الالفاظ ، وقال : إنّ من الفاظ العرب الفاظ تتنافر وان كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد انشادها الا ببعض الاستكراه ، من ذلك قول الشاعر :

وقبرُ حَرْبٍ بمكانٍ قفر — وليس قُرْبَ قبرِ حَرْبٍ قَبْرُ

ومن ذلك قول ابن يسير في احمد بن يوسف حين استبطأه :

كم لها وقفة بباب كريمٍ — رجعت من نداه بالتعطيلِ
لا أُديل الآمال بعدك اني — بعدها بالآمال جِدُّ بخيلِ
لم يضرها والحمد لله شيء — وانثنت نحو عَزْفِ نَفْسٍ ذَهولِ

يقول الجاحظ : « فتفقد النصف الاخير من هذا البيت ، فانك ستجد بعض الفاظه تتبرأ من بعض »[2] . ولكن الجاحظ لم يجمع هذه الاحكام في ابواب خاصة ، وانما نثرها في كتابه كاسلوبه في البحث

---

(١) الايضاح ص ١٧٧ .
(٢) البيان والتبيين ج١ ص ٦٦ .

والتأليف ، فكان موضع نقد ابي هلال الذي قال : « الا أن الابانة عن حدود الشعر ، واقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه ، ومنتشرة في اثنائه ، فهي ضالة بين الأمثلة لا توجد الا بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير »[1] .

وحاول ابو هلال ان يرتب هذه المسائل ، ويهذبها ، فعقد في «كتاب الصناعتين » فصولا في الابانة عن موضوع البلاغة في اللغة ، والقول في الفصاحة ، وما يتشعب منه ، والابانه عن حد البلاغة وتفسير ما جاء عن الحكماء والعلماء في حدودها . وفَرَّقَ بين الفصاحة والبلاغة ، وذكر أنّ البلاغة هي كل ما تبلغ به قلب السامع فتمكنه في نفسه لتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن ، وذكر ان الفصاحة قد اختلف في معناها فقال قوم : انها من قولهم افصح فلان عما في نفسه اذا اظهره ، وقال بعضهم : الفصاحة تمام آلة البيان[2] .

مع ابن سنان :

وذكر ابن سنان الخفاجي (٤٦٦ هـ) أنّ الفصاحة مقصورة على وصف الالفاظ ، والبلاغة لا تكون الا وصفا للالفاظ مع المعاني ، ولهذا لا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة ، وإنْ قيل فيها فصيحة ، وكل كلام بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغا .وذكر حدودا مختلفة للبلاغة ، ولكنه لم يعجب بواحد منها ، ثم قال : « إنّ الفصاحة على ما قدمنا نعت للالفاظ اذا وجدت على شروط عدة ، ومتى تكاملت تلك الشروط فلا مزيد على فصاحة تلك الالفاظ ، وبحسب الموجود منها تأخذ القسط من الوصف ، وبوجود اضدادها تستحق الاطراح والذم »[3] . وقسم تلك الشروط الى قسمين : الاول منها يوجد في اللفظة الواحدة على انفرادها من غير ان ينضم اليها شيء من

---

(١) كتاب الصناعتين ص ٥ .

(٢) كتاب الصناعتين ص ٧ .

(٣) سر الفصاحة ص ٦٥ .

الالفاظ وتؤلف معه • والثاني يوجد في الالفاظ المنظوم بعضها مع بعض •

فاما الذي يوجد في الالفاظ المنظومة فثمانية اشياء :

الاول : ان يكون تأليف تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج
والثاني : أن تجد لتأليف اللفظ في السمع حسنا ومزية على غيرها وأن تساويا في التأليف من الحروف المتباعدة •

والثالث : أن تكون الكلمة غير متوعرة وحشية •
والرابع : ان تكون الكلمة غير ساقطة عامية •
والخامس : أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذ •

والسادس : ألا تكون الكلمة قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره، فاذا وردت وهي غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت وان كملت فيها الصفات المذكورة سابقا •

والسابع : أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف ، فانها متى زادت على الامثلة المعتادة المعروفة قبحت وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة •

والثامن : ان تكون الكلمة مصغرة في موضع عبر بها فيه عن شيء لطيف ، أو خفي ، أو قليل ، او ما يجري مجرى ذلك •

وطبق هذه الشروط على الالفاظ المؤلفة ، ونفى منها ما لم يصح، واثبت ما صح وكان له أثر كبير في الكلام •

وبحث الفصاحة كثير من علماء البلاغة كابن رشيق ، وعبدالقاهر، وجاء ابن الاثير وبحثها بحثا واسعا ، وردّ على ابن سنان ردا عنيفا ، وفند آراءه ، ولم يأخذ الا بالقليل النادر منها(١) •

---

(١) ينظر المثل السائر ج١ ص ١٥٢ ، والجامع الكبير ص ٣٤ ، ٣٦ ، ٧٧ •

وكان لبحثي ابن سنان وابن الاثير في الفصاحة اثر فيمن جاء بعدهما، فقد لخصهما علماء البلاغة المتأخرون ، وجعلوهما في مقدمة ما يعرضون من علوم البلاغة . وعلى هذا الاساس سار القزويني في بحث الفصاحة ، فجعلها مقدمة لكتابيه « التلخيص » و « الايضاح » ، وبذلك خرج على السكاكي الذي بحثها بعد موضوعات علم البيان ، وقسمها الى قسمين : قسم راجع الى المعنى وهو خلوص الكلام عن التعقيد، وقسم راجع الى اللفظ وهو ان تكون الكلمة عربية أصيلة ، وعلامة ذلك أن تكون على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم كثيرة الدوران، واستعمالهم لها أكثر ، لا مما أحدثها المولدون ، ولا مما اخطأت فيه العامة ، وأن تكون اجرى على قوانين اللغة ، وأن تكون سليمة عن التنافر . أما المراد بتعقيد الكلام فهو أن يعثر صاحبه فكرك في متصرفه، ويشيك طريقك الى المعنى ، ويوعر مذهبك نحوه حتى يقسم فكرك ، ويشعب ظنك الى ان لا تدري من اين تتوصل وبأي طريق معناه يتحصل كقول الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مملكاً أبو أمه حي أبوه يقاربه

وكقول أبي تمام :

ثانيه في كبد السماء ولم يكن كاثنين ثانٍ اذ هما في الغارِ[1]

ويرى الاستاذ محمد عبدالمنعم خفاجي أن ما ذكره القزويني في « التلخيص »و«الايضاح» هو خلاصة ما اقتبسه من ابن سنان[2] .وهو رأي لا ينطبق تماما على ما نلاحظه من تفاوت بين الرجلين في البحث ، وان استفاد القزويني من ابن سنان استفادة عظيمة ، ونقل بعض أمثلته وتقسيماته . ولعل المتابعة التامة تتضح في تقديم بحث الفصاحة على فنون البلاغة الاخرى .

---

(١) ينظر مفتاح العلوم ص ١٩٦ .

(٢) ينظر الايضاح (طبعة خفاجي) ج١ هامش ص ٢٦ .

ونقل عنه نقلا تاما تعليقه على بيت المتنبي :[1]

ولافَضْلَ فيهم للشجاعةِ والنَّدى　　　وصبرِ الفتى لولا لقاءُ شعُوبِ

وهذا يدلنا دلالة واضحة على ان القزويني استفاد من « سر الفصاحة » ، ولكنه عرف كيف يُخفي نقله ، ويرتب موضوعات كتابه .

مع ابن الاثير :

ويبدو تأثر القزويني واضحا بابن الاثير في بحث السرقات ، والعقد والحل ، وحسن الابتداء ، والتخلص ، والانتهاء ، وقد اشار اليه في هذه الموضوعات وسماه صاحب « الوشي المرقوم في حل المنظوم » .

لقد تحدث ابن الاثير عن السرقات وألّف كتابا في ذلك لم يصل الينا وبحثها في كتابه « الجامع الكبير » ولكنه بحثها بالتفصيل في : « المثل السائر » وقسمها الى خمسة أقسام : النسخ ، والسلخ ، والمسخ ، واخذ المعنى مع الزيادة عليه ، وعكس المعنى الى ضده . ويكاد يكون بحث السرقات عند القزويني قريبا من بحث ابن الاثير ، فقد قسمه الى ضربين : ظاهر ، وغير ظاهر ، والظاهر ان يؤخذ المعنى كله أما مع اللفظ كله أو بعضه ، وأما وحده ، ويسمى الاول : الانتحال او النسخ ، والثاني : الاغارة او المسخ ، والثالث : الالمام او السلخ . والاخذ الخفي أو غير الظاهر أنواع منها أن يتشابه معنى الاول ومعنى الثاني ، أو ينقل معنى الاول الى غير محله ، او ان يكون معنى الثاني نقيض الاول . وهذه الاقسام لا تخرج عن الاقسام التي ذكرها ابن الاثير وان كانت تختلف بعض الاختلاف في الترتيب والامثلة[2] .

وتكلم ابن الاثير على التضمين ، وهذا النوع فيه نظر بين حسن يكتسب به الكلام طلاوة ، ومعيب عند قوم ، وهو عندهم معدود من

---

(١) ينظر سر الفصاحة ص ١٧٥ ، والايضاح ص ١٧٨ .

(٢) ينظر المثل السائر ج٢ ص ٣٦٢ وما بعدها ، والايضاح ص ٤٠١ وما بعدها .

عيوب الشعر . فالحسن الذي يكتسب به الكلام طلاوة هو أن يضمن الآيات والاخبار النبوية ، وذلك يرد على وجهين : احدهما تضمين كلي، والآخر تضمين جزئي . فاما التضمين الكلي : فهو أن تذكر الآية والخبر بجملتهما . وأما التضمين الجزئي فهو أن تدرج بعض الآية والخبر في ضمن الكلام فيكون جزء منه . وأما المعيب عند قوم فهو تضمين الاسناد ، وذلك يقع في بيتين من الشعر أو فصلين من الكلام المنثور على أن يكون الاول منهما مسنداً الى الثاني فلا يقوم الاول بنفسه ، ولا يتم معناه الا بالثاني. وهذا هو المعدود من عيوب الشعر وهو عند ابن الاثير غير معيب « لانه ان كان سبب عيبه أن يعلق البيت الاول على الثاني فليس ذلك بسبب يوجب عيبا اذ لا فرق بين البيتين من الشعر في تعلق احدهما بالآخر ، وبين الفقرتين من الكلام المنثور في تعلق احداهما بالاخرى »[1] أو أن يضمن الشاعر شعره والناثر نثره كلاما آخر بغيره قصدا للاستعانة على تأكيد المعنى المقصود ، ولو لم يذكر ذلك التضمين لكان المعنى تاما ، وربما ضمن الشاعر البيت من شعره بنصف بيت أوأقل منه كما قال جحظة :

قُمْ فاسقنيها يا غلامُ وغنني ذَهَبَ الذين يُعاش في أكنافِهِم

واعتبر القزويني تضمين الكلام شيئا من القرآن أو الحديث اقتباسا . أما التضمين عنده فهو أن يضمن الشعر شيئا من شعر الغير مع التنبيه عليه ان لم يكن مشهورا عند البلغاء[2] .

وعقد ابن الاثير فصولا في المباديء والافتتاحات ، وفي التخلص والاقتضاب ، وأجاد في بحثها ، وأكثَرَ من الامثلة والشواهد الجيدة، وتكلم القزويني عليها ولكنه لم يستطع ان يحلّق كما حلق سابقه ، وأن يجوّد كما جوّد في العرض والتحليل .

---

(١) المثل السائر ج٢ ص ٣٤٢ .
(٢) الايضاح ص ٤١٦ ، ٤٨٩ .

مع ابن أبي الاصبع :

واطلع القزويني على ما كتبه ابن ابي الاصبع المصري وان لم يُشر الى ذلك ، ونقل عنه القول بالموجب الذي ابتدعه المصري ، وان قال ابن حجة الحموي انه هو واسلوب الحكيم سواء[1] . وهذا ما لا يرضاه الباحث المدقق عندما يمعن النظر في الموضوعين ، ويقارن بينهما . وهما وان اتفقا في كون كل منهما اخراج الكلام على غير مقتضى الظاهر ، فانهما يفترقان في الغاية . فالهدف من القول بالموجب رد كلام المتكلم وعكس معناه ، وهدف الثاني : تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيها على أنه الاولى بالقصد اوالسائل بغيرما يتطلب تنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيها على انه الاولى بحاله والمهم له[2] . وتكلم عليه عبدالقاهر وسماه مغالطة[3] . وتحدث السكاكي عن اسلوب الحكيم ، وقال عنه بأنه تلقي المخاطب بغير ما يترقب كما قال الشاعر :

أتتْ تشتكي عندي مزاولةَ القرى ... وقد رأت الضيفان ينحون منزلي
فقلت : كأني ما سمعت كلامها : ... هم الضيف جدي في قراهم وعجّلي

أو السائل بغير ما يتطلب كما قال تعالى : « يَسْألونَكَ عن الأهِلَّةِ ، قُلْ هي مَواقيتُ للناسِ والحَجِّ »[4] ، ومنه قول القبعثرى الخارجي للحجاج لما قال له متوعدا بالقيد : لاحملنك على الادهم ، فقال متغابيا : مثل الامير يحمل على الادهم والاشهب . فابرز وعيده في معرض الوعد واراه بالطف عبارة ان مرءً مثله مطاع الامر وفي بسطة اليد خيق بأن يعد لا أن يوعد[5] .

---

(١) ينظر خزانة الادب ص ١١٦ .

(٢) ينظر بديع القرآن هامش ص ٣١٤ ، وابن ابي الاصبع المصري بين علماء البلاغة ص ٣٢١ .

(٣) ينظر دلائل الاعجاز ص ١٠٧ .

(٤) سورة البقرة ، الآية ١٨٩ .

(٥) ينظر مفتاح العلوم ص ١٥٥ ـ ١٥٦ .

وتكلم القزويني عليه في « التلخيص »[1] ، وبحثه بالتفصيل في « الايضاح » وقال عنه : « ومن خلاف المقتضى ما سماه السكاكي الاسلوب الحكيم وهو تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيها على انه الاولى بالقصد ، او السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيها على انه الاولى بحاله أو المهم له »[2] . وهو قسمان : الاول : كقول القبعثرى والبيتين المتقدمين . والثاني : كقوله تعالى: « يَسْأَلونَكَ عن الأهِلَّةِ ، قُلْ هي مواقيتُ للناسِ والحَجِّ » وكقوله: « يَسْأَلُونَكَ ماذا يُنْفِقونَ ؟ قُلْ : ما انفقتم مِنْ خَيْرٍ فللوالدينِ والاقربينَ واليتامى والمساكينِ وابنِ السَّبيلِ »[3] .

ولو كان الاسلوب الحكيم هو القول بالموجب نفسه لما بحثه القزويني مرتين : مرة في علم المعاني واخرى في فنون البديع . ومن هنا يتضح اختلاف هدفي الفنين ، وان اتفقا في انهما اخراج الكلام على غير مقتضى الظاهر . يقول ابن أبي الاصبع المصري عن القول بالموجب : « هو أن يخاطب المتكلم مخاطبا بكلام فيعمد المخاطب الى كل كلمة مفردة من كلام المتكلم فيبني عليها من كلامه مايوجب عكس معنى المتكلم، لان حقيقة القول بالموجب رد الخصم كلام خصمه من فحوى كلامه »[4]، ومثل له بقول ابن حجاج :

قُلْتُ: ثَقَّلْتُ اذأتيتُ مِرارا قال : ثَقَّلْتَ كاهلي بالأيادي

قُلْتُ : طَوَّلْتُ، قال : لا بل تطولت،وأبرمتُ ، قال : حبل ودادي

وقول ابن الدويدة المغربي في رجل أودع بعض القضاة مالاً فادعى ضياعه :

(١) التلخيص ص ٩٧ — ٩٩ .
(٢) الايضاح ص ٧٥ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ٢١٥ .
(٤) بديع القرآن ص ٣١٤ .

إنْ قال: قد ضاعتْ فصدِّقْ انها ضاعتْ، ولكن منك يَعْني لو يَعي
أو قال : قد وقعتْ فصدِّقْ انها وقعت ، ولكن منه أحْسَنَ موقعِ

ومن أمثلته ما جاء في القرآن الكريم : « يقولونَ : لَئِنْ رَجَعْنا الى المدينةِ لَيُخْرِجَنَّ الاعَزُّ منها الأذَلَّ »[1] .

ونرجح أن الخطيب القزويني تأثر بابن ابي الاصبع الذي ابتدع هذا النوع وأضافه الى البديع . ولكن القزويني لم ينقل ماذكره المصري نقلا تاما ، وانما نظر فيه واستفاد منه ، وقسَّمَه تقسيما لم يذكره السابق ولم يشر اليه ، واضاف اليه أمثلة أخرى .

لقد قسم القزويني القول بالموجب الى ضربين :

أحدهما : ان تقع صفة في كلام الغير كناية عن شيء اثبت له حكم فتثبت في كلامك تلك الصفة لغير ذلك الشيء من غير تعرض لثبوت ذلك الحكم له أو انتفائه ، كقوله تعالى : « يقولون : لَئِنْ رَجَعْنا الى المدينةِ لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذَلَّ ، ولله العِزَّةُ ولرسولِهِ وللمؤمنينَ »[2] .

والثاني : حمل لفظ وقع في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه ، كقوله :

قُلْتُ : ثقلت اذ أتيت مرارًا قال : ثقلت كاهلي بالايادي
قلت : طولت ، قال : لا بل تطولت وأبرمت ، قال : حَبْلَ ودادي

ومنه قول القاضي الأرجاني :

غالطتني اذ كست جسمي الضنا كسوةً عرت من اللحم العظاما
ثم قالت: أنت عندي في الهوى مثل عيني ، صدقت ، لكن سقاما

(١) سورة المنافقون ، الآية ٨ .
(٢) تكملة الآية : « ولكن المنافقين لا يعلمون » . سورة البقرة ، الآية ٨ .

ومنه قول ابن دويدة المغربي من ابيات يخاطب بها رجلا أودع بعض القضاة مالا ، فادّعى القاضي ضياعه :

إنْ قال:قد ضاعت فيصدقانها ضاعت ولكن منك يَعْنى لو تَعي
أو قال : قد وقعت فيصدقانها وقعت ، ولكن منه أحْسَنَ موقعِ

وقريب من هذا قول الآخر :

واخوان حسبتهم دُروعـا فكانوها ، ولـكن للاعـادي
وخلتهم سِـهاما صائبـات فكانوها ، ولـكن في فؤادي
وقالوا قد صفت منا قلوب" لقد صدقوا ، ولـكن من ودادي

وقال القزويني بعد البيتين الاولين : « ولك ان تجعل نحوهمـا ضربا ثالثا »[1] •

والتشابه بين الرجلين واضح مما يدعو الى القول بأن القزويني اخذ هذا الفن البديعي من ابن أبي الاصبع ، وان الامثلة لتـدل دلالة أكيدة على ذلك • والفرق بينهمـا ان الاول لم يقسم القول بالموجب الى ضربين كما قسمه القزويني ، ولم يذكر له أمثلة كثيرة ، ومن هنا نجد القزويني لا يقلد غيره وانما يأخذ ما عند المتقدمين ويضيف اليـه ما يهديه اليه فكره •

وما دام القزويني قد اطلع على كتب ابن ابي الاصبع ونقل عنه القول بالموجب ، فلا بد انه استفاد منه في بحث فنون البديع ، وإنْ كنـا لا نستطيع الجزم بذلك جزما قاطعا ، لان هذه الفنون بُحِثت منذعهد مبكر •

وذهب ابن ابي الاصبع الى ان التدبيج من ابتداعه وانـه لم يسبق اليه ، وأيد ابن حجة الحموي هذا قائلا : « نوع التدبيج من مستخرجات ابن ابي الاصبع »[2] • والحقيقة انه مسبوق اليه مـن

(١) الايضاح ص ٣٨٢ ٣٨٠ •
(٢) خزانة الادب ص ٤٤١ •

علماء البديع فهو بعينه التورية او الكناية ، أو هو بعينه ما سماه ابن سنان : المخالف ، والحقه بالطباق • ويرى الدكتور حفني شرف أن ليس لابن أبي الاصبع في هذا الا الاسم[1] • وبحثه القزويني في فن الطباق متابعا ابن سنان ، ونرى انه لم يستفد من ابن ابي الاصبع الا في تسمية هذا النوع •

ونقل من شعره أمثلة قليلة منها قوله في بحث احسن وجوه التضمين ، يقول : « واحسن وجوه التضمين أن يزيد المضمن في الفرع عليه في الاصل بنكتة كالتورية ، والتشبيه في قول صاحب التحبير[2] :

اذا الوهم ابدى لي لماها وثغرَها ... تذكرتُ ما بين العُذيبِ وبارق
ويذكرني في قدها ومدامعي ... مجرَّ عواليناً ومجرى السوابقِ[3]

مع بدرالدين بن مالك :

وتأثر القزويني ببدرالدين بن مالك وان لم يشر اليه ، ويتضح ذلك في متابعته في تلخيص مفتاح العلوم ، وقد سن بدرالدين سنة الاختصار بعد ان لخص السكاكي مفتاحه بكتاب سماه « التبيان» • ونرجح أن القزويني تابعه في تسمية المحسنات بالبديع ، لاننا لم نجد احدا قبل بدرالدين اطلق عليه هذا المصطلح الذي اطلقه الرواة وابن المعتز على فنون البلاغة المختلفة ، وان السكاكي الذي قسم البلاغة وصاغها الصياغة الاخيرة لم يسمه بهذا وانما هي عنده « وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار اليها لقصد تحسين الكلام »[4] • وقسَّمَها الى ضربين : ضرب يرجع الى المعنى ، وآخر الى اللفظ •

(١) ينظر ابن ابي الاصبع المصري بين علماء البلاغة ص ٢٨٨ ، وبديع القرآن هامش ص ٢٤٢ •

(٢) أي تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان اعجاز القرآن لابن ابي الاصبع المصري • وقد طبع بتحقيق الدكتور حفني محمد شرف في القاهرة سنة ١٣٨٣ هـ — ١٩٦٣ •

(٣) الايضاح ص ٤٢٢ •

(٤) مفتاح العلوم ص ٢٠٠ •

ونقل عنه بحث تقديم المسند اليه على المسند ، فقد ذكر بدرالدين أنه يقدم اذا « دل على العموم كما تقول : كل انسان لم يقم ، فيقدم ليفيد نفي القيام عن كل واحد من الناس ، لان الموجبة المعدولة المهملة في قوة السالبة الجزئية المستلزمة نفي الحكم عن جملة الافراد دون كل واحد منها ، فاذا سورت بكل وجب ان يكون لافادة العموم لا لتأكيد نفي الحكم عن جملة الافراد لان التأسيس خير من التأكيد ولو لم تقدم فقلت : لم يقم كل انسان كان نفيا للقيام عن جملة الافراد دون كل واحد منها لان السالبة المهملة في قوة السالبة الكلية المقتضية سلب الحكم عن كل فرد لورود موضوعها في سياق النفي ، فاذا سورت بكل وجب أن يكون لافادة نفي الحكم عن جملة الافراد لئلا يلزم ترجيح التأكيد على التأسيس »[1] .

ولم يُعْجِب القزويني هذا التعليلُ فردّه عليه قائلا : « وفيه نظر ، لان النفي عن جملة الافراد في الصورة الاولى اعني الموجبة المعدولة المهملة كقولنا : انسان لم يقم ، وعن كل فرد في الصورة الثانية أعني السالبة المهملة كقولنا : لم يقم انسان ، انما افاده الاسناد الى انسان فاذا اضيف «كل» الى «انسان» وحول الاسناد اليه فافاد في الصورة الاولى نفي الحكم عن جملة الافراد وفي الثانية نفيه عن كل فرد منها ، كان «كل» تأسيسا لا تأكيدا ، لان التأكيد لفظ يفيد تقوية ما يفيده لفظ آخر وما نحن فيه ليس كذلك »[2] .

وقال ان ما ذكره بدرالدين من أن «كل» في النفي مفيدة للعموم تارة ، وغير مفيدة اخرى مشهور وقد تعرض له الشيخ عبدالقاهر وغيره. وان كلام عبدالقاهر ليؤيد قول بدرالدين وان اختلفا في التعليل اذ ان كلام صاحب « المصباح » حق ، ولكن تعليله غير حسن ، وقد ذكر القزويني رأي عبدالقاهر ليشير الى التعليل الدقيق .

---

(١) المصباح ص ١٣ .

(٢) الايضاح ص ٦٥ .

والفرق واضح بين بدرالدين والخطيب في التعليل ، ففي الوقت الذي نرى فيه الاول يسير على اصطلاح أهل المنطق فيذكر السالبة والمهملة والمسورة والمعدولة في هذا التعليل نجد الثاني يبتعد عنها ، وينفر منها، ويدعو الى السير على منهج اهل العربية في الشرح والتعليل . ولعل في هذا المثال ما يوضح استفادة القزويني من بدرالدين وعبد القاهر في التوجيه ، وهي استفادة تظهر قدرته على الرد والمناقشة ونفي ما يراه غير مفيد ، وأخذ ما يرى فيه النفع وانارة السبيل .

٢

وكان تأثر القزويني بهؤلاء قليلا ، ولذلك لم يشر الى اكثرهم ، ولم يقف عند آرائهم ، ويناقشهم نقاشا طويلا . ولعل اشهر من استفاد منهم وأخذ آراءهم ورد عليهم : عبدالقاهر ، والزمخشري،والسكاكي. وقد ذكرهم في كل مسألة وموضوع ، وأخذ عنهم ورد عليهم ، ولنتابعه مع هؤلاء الثلاثة الذين بنوا للبلاغة كيانها ، واشادوا صرحها ، وارسوا ركنها الوطيد .

القزويني وعبدالقاهر

الف عبدالقاهر الجرجاني[1] كتابين هما : « دلائل الاعجاز » و « أسرار البلاغة » ، وهما قمة البلاغة العربية . وقد سيطرت على الكتاب الاول نظرية النظم ، والنظم عنده : « ليس الا ان تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه واصوله ،وتعرف مناهجه التي نهجت ، فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها »[2] . ولا يقصد بالنحو معناه الضيق الذي فهمه المتأخرون ، وانما يريد به المعاني الاضافية التي يصورها النحو .

---

(١) تنظر ترجمة عبدالقاهر في طبقات الشافعية ج٣ ص ٢٦٢ ، وشذرات الذهب ج٣ ص ٣٤٠ ، والنجوم الزاهرة ج٥ ص ١٠٨ ، وانباه الرواة ج٢ ص ١٨٨ .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٦٤ .

وتكلم في هذا الكتاب على الفصاحة ، والبلاغة ، والكناية ، والمجاز ، واللفظ ، والنظم ، والتقديم والتأخير ، والحذف ونكته ، والفصل والوصل ، والقصر ، والاختصاص ، وتحرير القول في الاعجاز ، والفصاحة ، والبلاغة وغيرها .

وأثّرَ هذا الكتاب في البلاغة تأثيرا عظيما ، واستفاد السكاكي منه حينما وضع « مفتاح العلوم » ، وقد جعله المحور الاول في «علم المعاني» ، واصبحت موضوعات النظم ــ التي أجاد عبدالقاهر في بحثها ــ موضوعات علم المعاني ، وسار على منهجه المتأخرون .

والكتاب الثاني في الموضوعات التي اطلق السكاكي عليها فيما بعد : « علم البيان » . وقد تكلم عبدالقاهر فيه على التشبيه ، والمجاز بأنواعه ، وأطال الوقوف عندها ، فكان اول من ميّزَ اقسامها ، وهذّب مسائلها . وامتاز بالتحليل والنقد ، وابراز الصور الادبية في الامثلة الرائعة التي ذكرها والشواهد التي ساقها ، وكانت بحوثه في البيان احسن ما عرفته البلاغة العربية . وسار علماء البلاغة على خطا عبدالقاهر ، وكان رائدهم في كل ما كتبوا ، واستاذهم فيما ذهبوا اليه ، وما ذكروا من آراء ومناقشات .

ولم يستطع القزويني وهو يبحث في البلاغة أن ينجو من تأثيره ، وكيف يستطيع ذلك وهو يختصر « مفتاح العلوم » الذي كان زبدة كتب عبدالقاهر ؟ وأنّى له الابتعاد عن آرائه وهو يشرح التلخيص ؟ يقول : « وعمدت الى ما خلا عنه المختصر مما تضمنه مفتاح العلوم ، والى ما خلا عنه المفتاح من كلام الشيخ الامام عبدالقاهر الجرجاني ــ رحمه الله ــ في كتابيه « دلائل الاعجاز » و « وأسرار البلاغة » » . وهذا اعتراف صريح بأنه استفاد من عبدالقاهر ونقل آراءه .

الفصاحة :

وقد استفاد منه في بحث الفصاحة ونقل تحليله وتعليقه على أبيات الشعر ، يقول عبدالقاهر معلقا على بيت العباس بن الاحنف :

سأطْلُبُ بُعْدَ الدارِ عنكم لتقربوا
وتسكبُ عينايَ الدموعَ لتجمدا

« بدأ بسكب الدموع على ما يوجبه الفراق من الحزن والكمد فأحسن وأصاب ، لان من شأن البكاء أبدا ان يكون امارة للحزن ، وان يجعل دلالة عليه وكناية عنه كقولهم : ابكاني واضحكني على معنى ساءني وسرني ، وكما قال :

أبكانيَ الدَّهْرُ ويا رُبَّمَا أضحكني الدَّهْرُ بمايُرْضي

ثم ساق هذا القياس الى نقيضه فالتمس ان يدل على ما يوجبه دوام التلاقي من السرور بقوله « لتجمدا » وظن ان الجمود يبلغ له في افادة المسرة والسلامة من الحزن ما بلغ سكب الدمع في الدلالة على الكآبة والوقوع في الحزن . ونظر الى الجمود خلو العين من البكاء وانتفاء الدموع عنها ، وانه اذا قال « لتجمدا » فكأنه قال : احزن اليوم لئلا احزن غدا ، وتبكي عيناي جهدهما لئلا تبكيا ابدا . وغلط فيما ظن وذاك ان الجمود هو ان لا تبكي العين مع أن الحال حال بكاء ، ومع أن العين يراد منها أن تبكي ويشتكي من أن لا تبكي ، ولذلك لا ترى أحدا يذكر عينه بالجمود الا وهو يشكوها ، ويذمها ، وينسبها الى البخل ، ويعدّ امتناعها من البكاء تركا لمعونة صاحبها على ما به من الهم ، الا ترى الى قوله :

ألا أنَّ عيناً لم تَجُدْ يومَ واسطٍ عليك بجاري دَمْعِها لجمودُ

فأتى بالجمود تأكيدا لنفي الجود ، ومحال أن يجعلها لا تجود بالبكاء

وليس هناك التماس بكاء[1] .

ونقل القزويني هذا الشرح والتعليل والامثلة والابيات الشعرية، ولم يختلف عنه الا في تقديم بعض العبارات وتأخيرها وتلخيصها في بعض الاحيان[2] .

وقال عبدالقاهر عن الاضافات : « قال الصاحب: اياك والاضافات المتداخلة فان ذلك لا يحسن ، وذكر انه يستعمل في الهجاء كقول القائل:

يا علي بن حمزة بن عماره أنتَ واللهِ ثَلْجة" في خياره

ولا شبهة في ثقل ذلك في الاكثر ، ولكنه إذا سلم من الاستكراه لطف وملح ومما حسن فيه قول ابن المعتز أيضا :

وظَلَّتْ تديرُ الراحَ أيدي جاذرٍ عتاقٍ دنانيرِ الوجوهِ ملاحِ

ومما جاء منه حسناً جميلا قول الخالدي في صفة غلام له :

ويَعْرِفُ الشِّعْرَ مثل معرفتي وهو على أن يَزيدَ مُجْتَهِدُ
وصيرفيٌّ القريض وزان دينارِ المعاني الدقاقِ منتقدُ »[3]

وأخذ القزويني هذا الرأي وأمثلة عبدالقاهر ، وأثبته في كتابه راداً على من يذهب الى أنَّ تتابع الاضافات من عيوب الفصاحة . ووضع قاعدة هي : ان التتابع إنْ أفضى باللفظ الى الثقل على اللسان فقد حصل الاحتراز عنه ، وإلا فلا يخل بالفصاحة ، وقد قال النبي(ص): « الكريمُ بنُ الكريمِ يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ اسحاقَ بنِ ابراهيمَ »[4] .

---

(1) دلائل الاعجاز ص ٢٠٧ ـ ٢٠٩ .
(2) الايضاح ص ٦ .
(3) دلائل الاعجاز ص ٨٢ .
(4) الايضاح ص ٨ .

النظـم :

واخذ عنه النظم الذي قال عنه : إنّه توخي معاني النحو فيما بين الكلام على حسب الاغراض التي يصاغ لها الكلام[1] . ولم يُسَمِّه القزويني بهذا الاسم ، وانما سماه تطبيق الكلام على مقتضى الحال . وقال : إنّ مقتضى الحال مختلف فان مقامات الكلام متفاوتة ، فمقام التنكير يباين مقام التعريف ، ومقام الاطلاق يباين مقام التقييد ، ومقام التقديم يباين مقام التأخير ، ومقام الفصل يباين مقام الوصل ، ومقام الذكر يباين مقام الحذف ، ومقام القصر يباين مقام خلافه ، ومقام الايجاز يباين مقام الاطناب والمساواة ، وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي ، وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام[2] .

وهـذا ما ذكره عبدالقاهر وأشار اليه بقوله : « واعلم أنْ ليس النظم الا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه واصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها . وذلك انا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه ، فينظر في الخبر الى الوجوه التي تراها في قولك « زيد منطلق » ، و « زيـد ينطلق » ، و « ينطلق زيد » ، و « منطلق زيد » ، و « زيد المنطلق » ، و « المنطلق زيد » ، و « زيد هو المنطلق » ، و « زيدٌ هو منطلق » .

وفي الشرط والجزاء الى الوجوه التي تراها في قولك : « إنْ تَخْرُجْ اخـرُجْ » ، و « إنْ خَرَجْتَ خَـرَجْتُ » ، و « انْ تَخْرُجْ فأنا خارج » ، و « أنا خارج إنْ خَرَجْتَ » ، و « أنـا

---

(1) مماتجدر الاشارة اليه ان القاضي عبدالجبار الاسد آبادي المتوفى سنة ٤١٥هـ قد بحث هذا الموضوع قبل عبدالقاهر . (ينظر المغني في ابواب التوحيد والعدل ج ١٦ ص ١٩٩ وما بعدها) .

(2) الايضاح ص ٩ .

إنْ خَرَجْتَ خارج » .

وفي الحال الى الوجوه التي تراها في قولك : « جاء زيد مسرعاً»، و « جاء يُسْرِع » ، و « جاءني وهو مسرع » ، أو « هو يسرع » ، « جاءني قد أسرع » ، و « جاءني وقد أسرع » ، فيعرف لكل من ذلك موضعه ويجيء به حيث ينبغي له .

وينظر في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى ، فيضع كلا من ذلك في خاص معناه نحو أنْ يجيء بـ « ما » في نفي الحال ، وبـ « لا » اذا اريد نفي الاستقبال، وبـ « ان » فيما يترجح بين أن يكون وان لا يكون ، وبـ « إذا » فيما علم أنه كائن .

وينظر في الجمل التي ترد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع « الواو » من موضع « الفاء » ، وموضع « الفاء » من موضع « ثم » ، وموضع « أو » من موضع « أم » ، وموضع « لكن » من موضع « بل » .

ويتصرف في التعريف والتنكير ، والتقديم والتأخير في الكلام كله، وفي الحذف والتكرار ، والاضمار والاظهار ، فيضع كلا من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له »[1] .

وهذا ما سماه القزويني مقتضى الحال ومقامات الكلام ،يقول بعد أن تكلم على تفاوت الاساليب لتفاوت المقامات : « وهذا ــ اعني تطبيق الكلام على مقتضى الحال ــ هو الذي يسميه الشيخ عبدالقاهر بالنظم حيث يقول : النظم تآخي معاني النحو فيما بين الكلم على حسب الاغراض التي يصاغ لها الكلام »[2] .

اللفظ والمعنى :

ونقل كلامه في البلاغة بين اللفظ والمعنى ، ووجّه ما اضطرب فيه

(١) دلائل الاعجاز ص ٦٤ ــ ٦٥ .
(٢) الايضاح ص ٩ .

توجيها حسنا . وتلخيص ذلك ان عبدالقاهر ذكر في « دلائل الاعجاز » أنّ الفصاحة صفة راجعة الى المعنى دون اللفظ ، وصرّح في مواضع منه بأن فضيلة الكلام للفظه لا لمعناه . يقول : ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة ، وان سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم او سوار ، فكما ان محالا اذا أنت أردت النظر في صوغ الخاتم وفي جودة العمل ورداءته ان تنظر الى الفضة الحاملة لتلك الصورة او الذهب الذي وقع فيه العمل وتلك الصنعة ، كذلك محال اذا اردت أن تعرف مكان الفضل والمزية في الكلام أن تنظر في مجرد معناه ، وكما انالو فضلنا خاتما على خاتم بان تكون فضة هذا أجود أو فصّه أنفس لم يكن ذلك تفضيلا له من حيث هو خاتم ، كذلك ينبغي اذا فضلنا بيتا على بيت من اجل معناه أن لا يكون تفضيلا له من حيث هو شعر وكلام »[1] .

ومعنى هذا ان عبدالقاهر يرى انه لا يمكن معرفة الفضل والمزية بمجرد النظر في معنى الكلام . وقد قال القزويني موجها كلامه : « هذا لفظه ، وهو صريح في ان الكلام من حيث هو كلام لا يوصف بالفضيلة باعتبار شرف معناه ، ولا شك ان الفصاحة من صفاته الفاضلة ، فلا تكون راجعة الى المعنى ، وقد صَرَّحَ فيما سبق بأنها راجعة الى المعنى دون اللفظ . فالجمع بينهما بما قدمناه بحمل كلامه حيث نفى انها من صفات اللفظ على نفي أنها من صفات المفردات من غير اعتبار التركيب ، وحيث أثبت انها من صفاته على انها من صفاته باعتبار افادته المعنى عند التركيب »[2] .

تقديم المسند اليه :

ورد عليه في تقديم المسند اليه ، لان عبدالقاهر يرى ان المسند

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١٩٦ ــ ١٩٧ .

(٢) الايضاح ص ١١ .

حرف بزك

اليه يقدم ليفيد تخصيصه بالخبر الفعلي إنْ ولي صرف النفي كقولك : « ما انا قلت هذا » ، أي : لم أقله مع انه مقول . فأفاد نفي الفعل عنك وثبوته لغيرك ، فلا تقول ذلك الا في شيء ثبت انه قول وانت تريد نفي كونك قائلا له ، ومنه قول الشاعر :

وما أنا أسقمتُ جِسمي به ولا أنا أضرمت في القلبِ نارا

والمعنى ان هذا السقم الموجود ، والضرم الثابت ما انا جالب لهما فالقصد الى نفي كونه فاعلا لهما لا الى نفيهما . ولهذا لا يقال : ما انا قلت ولا أحد غيري ، لمناقضة منطوق الثاني مفهوم الاول ، بل يقال : ما قلت أنا ولا احد غيري . ولا يقال ما انا رأيت أحدا من الناس ، ولا أنا ضربت الا زيدا ، بل يقال ما رأيت او ما رأيت أنا احدا من الناس، وما ضربت او ما ضربت أنا الا زيدا ، لان المنفي في الاول الرؤيةالواقعة على كل واحد من الناس ، وفي الثاني الضرب الواقع على كل واحد منهم سوى زيد . وقد سبق ان ما يفيد التقديم ثبوته لغير المذكوروهو ما نفي عن المذكور فيكون الاول مقتضيا ، لان انسانا غير المتكلم قد رأى كل الناس . والثاني مقتضيا لان انسانا غير المتكلم قد ضرب من عدا زيدا منهم وكلاهما محال . وعلل عبدالقاهر امتناع الثاني بأن نقض النفي بـ « الا » يقتضي ان يكون القائل له قد ضرب زيدا ، وايلاء الضمير حرف النفي يقتضي ان لا يكون ضربه »[1] .

وقال الخطيب القزويني عنه : « وفيه نظر ، لانا لا نسلم ان ايلاء الضمير حرف النفي يقتضي ذلك . فان قيلَ الاستثناء الذي فيه مفرغ، وذلك يقتضي انلا يكون ضرباحدا من الناس،وذلك يستلزمانلايكون ضربزيدا،قلنا:ان لزم ذلك فليس للتقديم لجريانه في غير صورةالتقديم أيضا كقولنا : « ما ضربت الا زيدا »[2] .

---

(1) دلائل الاعجاز ص ٩٧ .

(2) الايضاح ص ٥٤ — ٥٥ .

الحـــذف :

ونقل عنه الحذف الذي قرينته وقوع الكلام جوابا عن سؤال مقدر كقوله تعالى : « جَعلُوا لله شُركاءَ الجِنّ »[1] فان لله شركاء ان جعلا مفعولين لـ « جعلوا » ويحتمل الجن وجهين :

أحدهما : ما ذكره عبدالقاهر أن يكون منصوبا بمحذوف دال عليه سؤال مقدر كأنه قيل : « من جعلوا لله شركاء فقيل : الجن ، فيفيد الكلام انكار الشرك مطلقا فيدخل اتخاذ الشرك من غير الجن في الانكار دخول اتخاذه من الجن .

والثاني : ما ذكره الزمخشري وهو أن ينتصب « الجن » بدلا من « شركاء » فيفيد انكار الشريك مطلقا ايضا[2] .

خروج الاستفهام :

ورد عليه في خروج الاستفهام عن معناه ، يقول : « ومنهاالتقرير، ويشترط في الهمزة أن يليها المقرر به كقولك : « أفعلت ؟ » اذا أردت أن تقرره بان الفعل كان منه ، وكقولك : « أأنت فعلت ؟ » اذا اردت ان تقرر بانه الفاعل . وذهب الشيخ عبدالقاهر والسكاكي وغيرهما الى ان قوله « أأنت فَعَلْتَ هذا بآلهتِنا يا إبراهيم »[3] من هذا الضرب قال الشيخ : « لم يقولوا ذلك له عليه السلام وهم يريدون ان يقرّ لهم بأنّ كسر الاصنام قد كان ولكن ان يقر بأنه منه كان وكيف . وقد أشاروا له الى الفعل في قولهم : « أأنت فعلت هذا ؟ » وقال عليه السلام : « بلْ فَعَلَهُ كبيرُهم هذا » . ولو كان التقرير بالفعل في

---

(١) سورة الانعام ، الآية ١٠٠ .

(٢) الايضاح ص ٨٥ ودلائل الاعجاز ص ٢٢١ ، والكشاف ج٢ ص ٤١ .

(٣) سورة الانبياء ، الآية ٦٢ .

قولهم : « أأنت فعلت ؟ » ، لكان الجواب : فعلت او لم أفعل .

وفيه نظر ، لجواز ان تكون الهمزة فيه على أصلها ، اذ ليس في السياق ما يدل على انهم كانوا عالمين بأنه عليه السلام هو الذي كسر الاصنام »[1] .

مفعول المشيئة :

ويبدو تأثره به ونقله عنه واضحا في بحث مفعول المشيئة ، وقد نقل امثلته وتعليقه مع بعض التغييرات[2] .

الاستعارة :

ونقل عنه تعليقه على الاستعارة ، يقول عبدالقاهر : « أفلا ترى في الاستعارة العامي المبتذل كقولنا : « رأيت أسدا » ، و « وردت بحرا »، و « لقيت بدرا » . والخاصي النادر الذي لا تجده الا في كلام الفحول، ولا يقوى عليه الا افراد الرجال كقوله :

أخذنا باطرافِ الاحاديثِ بيننا وسالت باعناقِ المطيّ الأباطحُ

اراد : أنَّها سارت سيرا حثيثا في غاية السرعة ، وكانت سريعة في لينٍ وسلاسة ، كأنها كانت سيولا وقعت في تلك الاباطح ، فجرت بها . ومثل هذه الاستعارة في الحسن واللطف وعلو الطبقة في هذه اللفظة بعينها قول الآخر :

سالت عليه شعابُ الحيِّ حين دعا أنصارَه بوجوهٍ كالدنانيرِ

اراد أنَّه مطاعٌ في الحي ، وأنَّهم يسرعون الى نصرته ، وانه لا يدعوهم لحرب او نازل خطب إلا أتوه ، وكثروا عليه ، وازدحموا حواليه حتى تجدهم كالسيول تجيء من ههنا وهنا ، وتنصب من هذا

---

(١) الايضاح ص ١٣٨ .

(٢) دلائل الاعجاز ص ١٣٦ ، والايضاح ص ١٠٦ .

وذاك حتى يغص بها الوادي ويطفح منها[1] وهـــذا ما ذكره القزويني بالنص في بحثه عن وجوه الغرابة في الاستعارة[2] .

التمثيل والمجاز المركب :

ووافقه في التمثيل اوالمجاز المركب وقال عن كلام عبـــدالقاهر في قوله تعالى : « إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قَلْبٌ » [3]:«هذا معنى كلام الشيخ وهو حق ، لان المراد بالآية الحث على النظر والتقريع على تركـــه »[4] .

ويلاحظ ان القزويني اتخذ من عبدالقاهر إماما له في البلاغة ،وإنْ خالفه في بعض المسائل ورد عليه احيانا . ونرى أنّ القزويني كانموفقا الى حد ما في بحث هذه الموضوعات وإنْ كان عبدالقاهر أكثر تجديدا، وأروع تحليلا .

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٥٨ ــ ٥٩ .
(٢) الايضاح ص ٢٩٣ ــ ٢٩٤ .
(٣) سورة ق ، الآية ٣٧ .
(٤) الايضاح ص ٣٠٨ .

القزويني والزمخشري

لم يؤلف الزمخشري[1] (٥٣٨ هـ) كتابا في البلاغة ، وانما نثر كثيرا من مسائلها في تفسيره الكشاف . وعلما المعاني والبيان عنده من الوسائل المهمة في تفسير القرآن الكريم وما فيه من روعة واعجاز،يقول: « ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق الا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعاني وعلم البيان »[2] .

ولقد عني في تفسيره عناية كبيرة بتطبيق قواعد البلاغة على القرآن ، والتنبيه الى ما حوى من أسرار الفصاحة والبلاغة حتى قال ابن خلدون عن الكشاف : « وهو كله مبني على هذا الفن ، وهو اصله »[3] ، ومن هنا كان دارسه يحتاج الى ثقافة بلاغية واسعة .وقد شعر القدماء بهذه الحاجة فكانوا اذا ما اقدموا على دراسته تزودوا بثقافة بلاغية ، ووضعوا الكتب الخاصة في تعلمها كما فعل العلوي حينما شرع بعض الطلاب يقرأون عليه « الكشاف » فوضع لهم كتاب الطراز ليكون عونا على فهم ما في التفسير .

وأثّر الكشاف في البلاغة ، وتجلى ذلك في الرازي والسكاكي

---

(١) تنظر ترجمة الزمخشري في معجم الأدباء ج١٩ ص ١٢٦ ، وانباه الرواة ج٣ ص ٢٦٥ ، وشذرات الذهب ج٤ ص ١١٨ ، وبغية الوعاة ص ٣٨٨ .

(٢) الكشاف ج١ ص : ك .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٢ .

والقزويني ، ويبدو اتجاه الخطيب الى الزمخشري واعتماده عليه واضحا في تخريج الشواهد القرآنية وتحرير المشاكل البلاغية الغامضة ، وقد مكنه اطلاعه على الكشاف ان يقف في اكثر المسائل الخلافية موقف الحكم الفيصل . لقد نقل عنه تفسيره لقوله تعالى : « لا تتخذوا إلهينِ اثنينِ إنّما هو اله" واحِد" »[١]، يقول الزمخشري فيها : « الاسم الحامل لمعنى الافراد والتثنية دال على شيئين : على الجنسية والعدد المخصوص ، فاذا اريد الدلالة على ان المعنى به منهما والذي يساق اليه الحديث هو العدد شفع بما يؤكده فدل به على القصد اليه به ، الا ترى انك لو قلت : انما هو اله ولم تؤكده بواحد لم يحسن وخيل انك تثبت الالهية لا الوحدانية »[٢] ويقول في تفسير قوله تعالى: « وما مِنْ دابةٍ في الارضِ ولا طائرٍ يطيرُ بجناحيه »[٣] : « معنى ذلك زيادة التعميم والاحاطة كانه قيل : وما من دابة فقط في جميع الارضين السبع ، وما من طائر قط في جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه الا امم امثالهم محفوظة احوالها غير مهمل امرها »[٤] .

الالتفات :

وتأثر به في تعليل حسن الالتفات وقال عنه : « واعلم أن الالتفات من محاسن الكلام ووجه حسنه على ما ذكر الزمخشري هو ان الكلام اذا نقل من اسلوب الى اسلوب كان ذلك احسن تطرية لنشاط السامع، وأكثر ايقاظا للاصغاء اليه من اجرائه على اسلوب واحد»[٥] . ولكنه لم يتابعه تمام المتابعة فقد ذكر الزمخشري ثلاث التفاتات في ابيات امريء القيس الثلاثة :

تطاول ليلك بالاثمد ونام الخليُّ ولم ترقدِ

(١) سورة النحل ، الآية ٥١ .
(٢) الكشاف ج٢ ص ٤٧٥ ، والايضاح ص ٤٩ .
(٣) سورة الانعام ، الآية ٣٨ .
(٤) الكشاف ج٢ ص ١٦ ، والايضاح ص ٤٩ — ٥٠ .
(٥) الايضاح ص ٧٣ .

وبات وباتت لـه ليلـــة ”كليلـةِ ذي العـائرِ الأرمدِ
وذلك من نبأٍ جـــاءني وخبرته عن أبي الأسودِ[1]

يذكر القزويني ان الالتفـات في البيت الاول على المشهور ، وفي الثاني التفاتة واحدة فيتعين أن يكون في الثالث التفاتتان ، قيل هما في قوله « جاءني » احداهما باعتبار الانتقال من الخطاب في البيت الاول ، والاخرى باعتبار الانتقال من الغيبة في الثاني. ويرى انفي هذا نظراً،لان الانتقال انما يكون من شيء حاصل ملتبس به ، واذ قد حصل الانتقال من الخطاب في البيت الاول الى الغيبة في الثاني لم يبق الخطاب حاصلا ملتبسا به ، فيكون الانتقال الى المتكلم في الثالث من الغيبة وحدها ، لا منها ،ومن الخطاب جميعا فلم يكن في البيت الثالث الا التفاتةواحدة. وقيل : احداهما في قوله « وذلك » لانه التفات من الغيبة الى الخطاب، والثانية في قوله « جاءني » لانه التفات من الخطاب الى التكلم ، وهو عند القزويني أقرب[2] .

والغريب ان القزويني لم يستفد في بحث الالتفات مما كتبـه ابن الاثير الذي وَضَّحَ معناه ، ورَدَّ على الزمخشري في وجه حسنه ، ولم يوافقه على رأيه . يقول : « وليس الامر كما ذكره ، لان الانتقـال في الكلام من اسلوب الى اسلوب اذا لم يكن الا تطرية لنشاط السامع وايقاظا للاصغاء اليه ، فان ذلك دليل على ان السامع يمـل من اسلوب واحد فينتقل الى غيره ليجد نشاطا للاستماع ، وهذا قدح في الـكلام لا وصف له ، لانه لو كان حسنا لما مُلَّ »[3] .

ويرى ابن الاثير ان الانتقال من الخطاب الى الغيبة ، او من الغيبة الى الخطاب لا يكون الا لفائدة اقتضته وتلك الفائدة امر وراء الانتقال من اسلوب الى اسلوب ، وقد شرحه ووضحه في المثل السائر احسن

---

(١) الكشاف ج١ ص ١١ ــ ١٢ .
(٢) الايضاح ص ٧٣ .
(٣) المثل السائر ج٢ ص ٤ .

توضيح . ولولا متابعة القزويني للزمخشري في كثير من الاحيان لما وقف عند ما ذكره ولاستفاد من علماء البلاغة الذين عاشوا في بيئةمصر والشام . وكان عليه أن يستفيد مما كتب ابن الاثير في هذا الباب ، لا أن يسرف في متابعة أهل المشرق ممن اهتموا بالفلسفة ، والمنطق ، وابتعدوا عن ادراك اسرار الجمال ، وتعليله .

لـو :

وقال في تفسير قوله تعالى : « قُلْ لو أنتم تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ ربي »[1] : « لو حقها ان تدخل على الافعال دون الاسماء ، فلا بد من فعل بعدها في « لو انتم تملكون » . وتقديره : لو تملكون تملكون ، فاضمر « تملك » اضمارا على شريطة التفسير ، وابدل من الضمير المتصل الذي هو الواو ضمير منفصل ، وهو « انتم » لسقوط ما يتصل به من اللفظ ، فـ « أنتم » فاعل الفعل المضمر و « تملكون » تفسيره . وهذا هوالوجه الذي يقتضيه علم البيان ، وهو ان «انتم تملكون » فيه دلالة على الاختصاص ، وان الناس هم المختصون بالشح المتبالغ

ونحوه قول حاتم :

لو ذاتُ سوارٍ لَطمتني

وقول المتلمس :

ولو غيرُ أخوالي أرادوا نقيصتي جعلت لهم فوق العرانين ميسما[2]

تقييد الفعل بالشرط :

وقال القزويني في بحث تقييد الفعل بالشرط : « قال الزمخشري وللجهل بمواقع « إنْ » و « اذا » يزيغ كثير من الخاصة عن الصواب

---

(١) سورة الاسراء ، الآية ١٠٠ .

(٢) الكشاف ج٢ ص ٥٤٣ ، والايضاح ص ٨٢ .

فيغلطون ، الا ترى الى عبدالرحمن بن حسان كيف اخطأ بهما الموقع في قوله يخاطب بعض الولاة وقد سأله حاجة فلم يقضها ثم شفع له فيها فقضاها :

ذممتولم تحمد وادركت حاجتي تولى سواكمأجْرَها واصطناعَها
أبَى لك كسب الحمد رأي مقصرٍ ونفس أضاف الله بالخير باعَها
إذا هي حثتـــه على الخير مرةً عصاها وإنْ هَمَّتْ بشرٍ أطاعَها

فلو عكس لاصاب »[1] •

وخالفه في بحث دواعي مخالفة المقتضى في فعلي الشرط والجزاء، يقول : « ومما يتصل بما ذكرناه ان الزمخشري قـــدر قوله تعالى « ودوا لو تكفرون » عطفا على جواب الشرط في قوله تعـالى « إنْ يَثقَفُوكم يكونوا لكم أعداءً ويَبْسُطُوا إليكم أيْـــدِيَهُمْ وألسنَتَهُمْ بالسوءِ ، ووَدُّوا لو تَكْفُرون »[2] ، وقال : الماضي وان كان يجري في باب الشرط مجرى المضارع في علم الاعراب فان فيه نكتة كأنه قيل: وودوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم ، يعني انهم يريدون ان يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعا من قتل الانفس ، وتمزيق الاعراض ، وردكم كفارا • اسبق المضار عندهم وأولها لعلمهم ان الدين اعز عليكم من ارواحكم ، لانكم باذلون لها دونه ، والعدو أهم شيء عنده أن يقصد أعز شيء عنـــد صاحبـه »[3] ، ويرى القزويني ان هذا حسن دقيق ، لكن في جعل « وودوا لو تكفرون » عطفا على جواب الشرط نظرا ، لان ودادتهم انيرتدوا كفارا حاصلة وان لم يظفروا بهم فلا يكون في تقييدها بالشرط فائدة ، فالاولى ان يجعل قول « وودوا لو تكفرون » عطفا على الجملة الشرطية كقوله تعالى : « وإنْ يقاتلوكم

---

(١) الايضاح ص ٩٠ •
(٢) سورة الممتحنة ، الاية ٢ •
(٣) الايضاح ص ٩٤ ـ ٩٥ ، والكشاف ج٤ ص ٤٠٩ •

يُولوكم الادبارَ ثم لا يُنْصَرون »[1] .

موضع الفاء والواو :

ونقل تفسير الزمخشري لقوله تعالى :« ولقدآتينا داودَ وسليمانَ علِمْاً ، وقالا : الحمدُ لله »[2] ، يقول:«فان قلت:اليس هذا موضع الفاء دون الواو كقولك : اعطيته فشكر ومنعته فصبر ؟ قلت : بلى ، ولكنه عطفه بالواو اشعاراً بأن ما قالاه بعض ما احدث فيهما ايتاء العلم وشيء من مواجبه فاضمر ذلك ثم عطف عليه التحميد كأنه قال : ولقد آتيناهما علما فعملا به وعلماه وعرفا حق النعمة فيه والفضيلة »[3].

الاطناب بالتذييل :

وقال القزويني وهو يتحدث عن الاطناب بالتذييل:« وهو ضربان: ضرب لا يخرج مخرج المثل لعدم استقلاله بافادة المراد وتوقفه على ما قبله كقوله تعالى : « ذلك جَزَيْناهم بما كَفروا وهل نُجَازي الا الكَفُور »[4] ، ان قلنا ان المعنى : وهل يجازى ذلك الجزاء ؟ وقال الزمخشري : وفيه وجه آخر وهو ان الجزاء عام لكل مكافأة يستعمل تارة في معنى المعاقبة واخرى في معنى الاثابة ، فلما استعمل في معنى المعاقبة في قوله « جزيناهم بما كفروا » بمعنى عاقبناهم بكفرهم، قيل : وهل يجازى الا الكفور ، بمعنى : وهل يعاقب ؟ فعلى هذا يكون في الضرب الثاني »[5] .

وجه الشبه :

ونقل رأيه في وجه الشبه في قوله تعالى : « هُنَّ لِباس" لكم

---

(1) سورة آل عمران ، الآية ١١١ .
(2) سورة النمل ، الآية ١٥ .
(3) الكشاف ج٣ ص ٢٧٧ – ٢٧٨ ، والايضاح ص ١٩٢ .
(4) سورة سبأ ، الآية ١٧ .
(5) الايضاح ص ٢٠٠ – ٢٠١ ، والكشاف ج٣ ص ٤٥٥ .

وأنتم لِباسٌ لَهُنَّ »[1] ، اذ اعتبره الزمخشري حسيا ، لانه لما كان الرجل والمرأة يعتنقان ويشتمل كل واحد منهما على صاحبه في عناقه شبه باللباس المشتمل عليه[2] واستفاد منه في توجه الاستعارة في قوله تعالى : « فأذاقَها اللهُ لباسَ الجوعِ والخَوْفِ »[3] . وقال انها على ظاهر قول الشيخ جار الله العلامة استعارة عقلية ، لانه قال:شبه باللباس لاشتماله على الملابس ما غشى الانسان والتبس به من بعض الحوادث وعلى ظاهر قول الشيخ صاحب المفتاح حسية ، لانه جعل اللباس استعارة لما يلبسه الانسان عند جوعه وخوفه من امتقاع اللون ورثاثة الهيئة »[4] .

المجاز المركب :

ونقل تفسيره لقوله تعالى : « وَلَمَّا سَكَتَ عن مَوسَى الغَضَبُ » وقولهم : « اعتصمت بحبله » في بحث المجاز المركب ، وميز بين « ولما سكت » و « لما سكن » ، ويرى ان الاولى يستفصحها كل ذي طبع سليم وذوق صحيح ، اما الثانية وهي قراءة معاوية بن مرة فلا تجد النفس عندها شيئا من تلك الهزة وطرفا من تلك الروعة[6] .

وفَضَّلَ رأي الزمخشري على رأي عبدالقاهر في شرح بيت لبيد:

وغداة ريحٍ قد كشفت وقرة   اذ اصبحت بيد الشمالِ زمامُها

ويرى الزمخشري أنَّ الضمير في « اصبحت » و « زمامها » للقرَّة ، بينما جعلها عبد القاهر للغداة ، يقول القزويني : « والاول

---

(1) سورة البقرة ، الاية ١٨٧ .
(2) الايضاح ص ٢٤٣ ، والكشاف ج١ ص ١٧٤ .
(3) سورة النحل ، الاية ١١٢ .
(٤) الايضاح ص ٢٨٠ ، والكشاف ج٢ ص ٤٩٨ .
(٥) سورة الاعراف ، الاية ١٥٤ .
(٦) الايضاح ص ٣٠٦ ، والكشاف ج٢ ص ١٢٨ .

أظهر »[1] .

الكناية والتعريض :

وتكلم الزمخشري على الكناية والتعريض وفرق بينهما ، وجعل كل واحد منهما قائما بنفسه ، يقول : « فان قلت : أي فرق بين الكناية والتعريض ؟ قلت : الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه له كقولك: «طويل النجاد والحمائل » لطول القامة ، و « كثير الرماد » للمضياف .

والتعريض ان تذكر شيئا تدل به على شيء لم تذكره كما يقال للمحتاج اليه : جئتك لاسلم عليك ولانظر الى وجهك الكريم ، ولذلك قالوا :

وَحَسْبُكَ بالتسليمِ مني تقاضيا

وكأنه احالة الى عرض يدل على الغرض ويسمى التلويح ، لانه يلوح منه ما يريده »[2] .

ولم يبحث القزويني كلا من الكناية والتعريض على انفراد ، ولم يفرق بينهما كما فعل الزمخشري وابن الاثير ، وانما تابع السكاكي في ذلك وقال : « إنَّ الكناية تتفاوت الى تعريض وتلويح ورمز وايماء واشارة ، فان كانت عرضية فالمناسب أن تسمى تعريضا »[3] .

فنون بديعية :

ومع ان الزمخشري لم يهتم بالبديع كثيرا ، لانه يرى ان القرآن مختص بعلمين هما : المعاني والبيان ، الا انه نثر في تفسيره بعض هذه الفنون . ويرى الاستاذ مصطفى الصاوي الجويني ان الزمخشري لم يذكر الا ثلاثة ضروب من أضرب البديع هي : الجناس والمشاكلة

---

(١) الايضاح ص ٣١٠ .

(٢) الكشاف ج١ ص ٢١٥ .

(٣) الايضاح ص ٣٢٧ .

واسلوب اللف[1] . والحق ان في الكشاف ضروبا اخرى لم ينتبه لها الصاوي مع ان القزويني أشار الى بعضها ، يقول وهو يتحدث عن الاستطراد : « وعليه قوله تعالى : « يا بَني آدَمَ قد أنزلنا عليكم لباساً يُواري سؤاتِكم وريشاً ، ولباسُ التقوى ذلك خيرٌ ،ذلك من آياتِ الله لعلهم يَذَّكرونَ »[2] ، قال الزمخشري : هذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر السوءات،وخصف الورق عليها اظهارا للمنة فيما خلق الله من اللباس ، ولما في العري ، وكشف العورة من المهانة والفضيحة ،واشعارا بان التستر باب عظيم من أبواب التقوى»[3] .

وذكر الزمخشري التوجيه وان لم يسمه بهذا المصطلح ،وانما اطلق عليه اسم ذي الوجهين حينما فسر قوله تعالى : « ويقولونَ سَمِعْنا وعَصَيْنا واسْمَعْ غيرَ مُسْمَعٍ وراعِنا ليّاً بألسنَتِهم »[4] . ونقل القزويني عنه هذا التفسير ، يقول في بحث المحسنات المعنوية « ومنه التوجيه : وهو ايراد الكلام محتملا لوجهين مختلفين .. وعليه قوله تعالى : « واسمع غير مسمع وراعنا » قال الزمخشري : غير مسمع ، حال من المخاطب أي اسمع وانت غير مسمع وهو قول ذو وجهين يحتمل الذم أي اسمع منا مدعوا عليك بـ « لا سمعت » ... ويحتمل المدح أي : اسمع غير مسمع مكروها من قولك : اسمع فلان فلانا ، اذا سبه »[5] .

وخلاصة ما تقدم ان الخطيب القزويني لم يستفد من الزمخشري كما استفاد من عبدالقاهر،لا في تحديدمصطلحات البلاغة ولا في التقسيم أو العرض ،وانما استفاد منه في تفسير بعض الآيات وتوجيه الآراء .

---

(١) منهج الزمخشري في تفسير القرآن ص ٢٥٦ ـ ٢٥٩ .

(٢) سورة الاعراف الآية ٢٦ .

(٣) الايضاح ص ٣٥٠ ، والكشاف ج٢ ص ٧٦ .

(٤) سورة النساء ، الآية ٤٦ .

(٥) الايضاح ص ٣٧٧ ، والكشاف ج١ ص ٤٠٠ .

وعلة ذلك ما قدمنا من إن الزمخشري لم يكن مؤلفا في البلاغة أو باحثا فيها ، وانما استفاد منها في تفسير القرآن وتوجيه آياته الكريمة ، ومن هنا كانت متابعة القزويني له في هذا المضمار .

ولم يتأثر القزويني بالكشاف وحده ، وانما استفاد من كتابه المفصل في بحث « هل » .

ونرى أن القزويني كان على صلة وثيقة بالسكاكي ، فهو الذي اختصر القسم الثالث من مفتاحه وهو الذي شرح هذا التلخيص ، ومن هنا كانت العلاقة بينهما وطيدة ، وكانت بلاغة القزويني عرضا لبلاغة السكاكي وآرائه ، مع شرح وتوضيح لآراء غيره ، وتنبيه الى ما عرض له ، واستخلصه بنفسه .

القزويني والسكاكي

اختصر الخطيب القزويني القسم الثالث من مفتاح العلوم للسكاكي (٦٢٦ هـ)[١] شيخ المدرسة الكلامية ، وبذلك عرف في الاقاليم الاسلامية الوسطى كالعراق والشام ومصر والمغرب ، وان كان بدرالدين قد لخصه بكتابيه « المصباح » و « روض الاذهان» ولكنهما لم ينتشرا ويشتهرا كما اشتهر تلخيص القزويني الذي انكب عليه المؤلفون منذ عصر القزويني حتى الآن شرحا وتهذيبا، ونظماوتلخيصا. والسكاكي هو الذي هذّب مسائل البلاغة ، ومخّض زبدتها،ووضعها الوضع الاخير . وعندما جاء القزويني وجد الطريق ممهدا ، ووجد اسباب البحث قد كملت أو كادت فوضع كتاب التلخيص وشرحه وفك غامضه وعويصه بكتاب « الايضاح » الذي يعتبر من خيرة كتب البلاغة الكلامية . ولم يقف القزويني عندما ذكره السكاكي في مفتاح العلوم ولم يأخذ كل ما جاء به قضايا مسلما بها ، بل وقف عند كل رأي مدققا ، وأخذ ما رآه صوابا قريبا الى الذوق العربي السليم ، ورفض ما لم يجده صحيحا ، او وجد فيه ابتعادا عن جادة الادب ، وسبيل الذوق .

واذا اردنا ان نرى القزويني والسكاكي معا فليس لنا الا اتباع ما سرنا عليه سابقا . وقبل كل شيء لا بد أن نشير الى أن الخطيب

(١) تنظر ترجمته في البلاغة عند السكاكي ص ٤٦ — ٧٣،وتنظر المصادر المذكورةفيه.

خالف السكاكي في المنهج خلافا قليلا ، وقدم وأخر ، وما ذكرناه سابقا عن منهج الرجلين يغنينا عن التكرار .

تعريف المعاني :

عرف السكاكي علم المعاني بأنه « تتبع خواص تراكيب الكلام في الافادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره »[1] . ثم قال : « واعني بتراكيب الكلام : التراكيب الصادرة عمن له فضل تمييز ومعرفة وهي تراكيب البلغاء » .

ويرى القزويني ان هذا الحد غير صحيح اذ التتبع ليس بعلم ولا صادق عليه فلا يصح تعريف شيء من العلوم به ، ولا شك ان معرفة البليغ من حيث هو بليغ متوقفة على معرفة البلاغة ، وقد عرفها بقوله : « البلاغة هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها ، وايراد انواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها »[2] ، ثم قال القزويني : « فان اراد بالتراكيب في حد البلاغة تراكيب البلغاء وهو الظاهر فقد جاء الدور ، وان اراد غيرها فلم يبينه على قوله « وغيره » مبهم لم يبين مراده به »[3] .

الخبــر :

ولا يرى القزويني في تفسير السكاكي لقوله تعالى وتعليقه عليه : « ولقد عَلِمُوا لمن اشتراه مالَهُ في الآخرة من خَلاقٍ ، ولَبِئْسَ ما شَرَوا به أنفُسَهم لو كانوا يَعْلَمُونَ »[4] . لا يرى في قوله الوضوح . يقول في بحث اعتبار ما وراء الظاهر بلاغة : « وقد ينزل

---

(١) مفتاح العلوم ص ٧٧ .
(٢) مفتاح العلوم ص ١٩٦ .
(٣) الايضاح ص ١٢ .
(٤) سورة البقرة ، الآية ١٠٢ .

العالم بفائدة الخبر ولازم فائدته منزلة الجاهل لعدم جريه على موجب العلم فيلقى اليه الخبر كما يلقى الى الجاهل باحداهما ، قال السكاكي: وان شئت فعليك بكلام رب العزة : « ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ، ولبئس ما شروا به انفسهم لو كانوا يعلمون » كيف تجد صدره يصف أهل الكتاب بالعلم على سبيل التوكيد القسمي وآخره ينفيه عنهم حيث لم يعملوا بعلمهم ، ونظيره في النفي والاثبات : « وما رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ » [1] وقوله تعالى : « وإنْ نَكثوا أيمانَهم من بَعْدِ عَهْدِهم وطَعَنُوا في دِينِكم فقاتِلوا أئمةَ الكُفْرِ إنَّهم لا أيْمانَ لهم لَعلَّهُم يَنْتَهُون » [2] . يقول القزويني : « هذا لفظه ، وفيه ايهام ان الآية الاولى من امثلة تنزيل العالم بفائدة الخبر ولازم فائدته منزلة الجاهل بهما ، وليست منها ، بل هي من امثلة تنزيل العالم بالشيء منزلة الجاهل به لعدم جريه على موجب العلم ، والفرق بينهما ظاهر » [3] .

المجاز العقلي :

واختلف عنه في بحث المجاز العقلي ، فقد انكره السكاكي، وأدخله في الاستعارة بالكناية ، اما القزويني فقد رد عليه ولم يعتبره من مباحث علم البيان وانما من المعاني ، لانه يرى ان المسمى بالحقيقة العقلية والمجاز العقلي هو الاسناد لا الكلام ، خلاف السكاكي الذي يرى ان المسمى بهما هو الكلام لا الاسناد . يقول القزويني : « قد تبين بما ذكرنا ان المسمى بالحقيقة العقلية والمجاز العقلي على ما ذكره السكاكي هو الكلام لا الاسناد ، وهذا يوافق ظاهر كلام الشيخ عبد القاهر في مواضع من « دلائل الاعجاز » وعلى ما ذكرنا هو الاسناد لا الكلام . وهذا ظاهر ما نقله الشيخ أبو عمرو بن الحاجب ــ رحمه الله ــ عن

---

(١) سورة الانفال ، الآية ١٧ .
(٢) سورة التوبة ، الآية ١٢ . ينظر الايضاح ص ١٧ ، ومفتاح العلوم ص ٨٢ .
(٣) الايضاح ص ١٨ .

الشيخ عبدالقاهر وهو قول الزمخشري في الكشاف وغيره ، وانما اخترناه لان نسبة المسمى حقيقة أو مجازا الى العقل على هذا لنفسه بلا وساطة شيء ، وعلى الاول لاشتماله على ما ينتسب الى العقل اعني الاسناد »[1] .

وعلى هذا الاساس درسه في باب الاسناد من مباحث علم المعانى ولم يذكره في البيان مع المجاز اللغوي كما فعل السكاكي ، والاختلاف بينهما في الحقيقة والمجاز العقليين هو ان السكاكي بحثهما في علم البيان وبحثهما القزويني في المعاني . وأنكر الاول المجاز العقلي واعتبره استعارة بالكناية ، ورد القزويني هذا الرأي ورأى ان المجاز العقلي موضوع قائم بذاته ولا يمكن ان ينخرط في سلك الاستعارة .

اسرار ذكر المسند اليه :

ورد عليه في اسرار ذكر المسند اليه ، فالسكاكي يرى أنه يذكر اما لكون الخبر عام النسبة الى كل مسند اليه والمراد تخصيصه بمعين كقولك : زيد جاء ، وعمرو ذهب ، وخالد في الدار ، وقوله :

الله انجح ما طلبتُ بـه والبرُّ خيرُ حقيبةِ الرحلِ

وقوله :

والنفسُ راغبةٌ اذا رَغّبْتَها واذا تُرَدُّ الى قليلٍ تَقْنَعَ

ويرى القزويني ان في هذا نظرا ، لانه ان قامت قرينة تدل عليه ان حُذِفَ ، فعموم الخبر وارادة تخصيصه بمعين وحدهما،لايقتضيان ذكره والا فيكون ذكره واجبا »[2] .

---

(١) الايضاح ص ٢٦ .

(٢) مفتاح العلوم ص ٨٥ ، والايضاح ص ٣٣ ــ ٣٤ .

التعريف بالموصولية :

وفند رأيه في التعريف بالموصولية ، يرى السكاكي انه ربما جعل ذريعة الى تحقيق الخبر كقوله :

إنَّ الذين ترونهم إخوانكم يشفي غليلَ صدورهم أن تُصرعوا

ويرى القزويني ان فيه نظرا ، اذ لا يظهر بين الايماء الى وجه بناء الخبر وتحقيق الخبر فرق فكيف يجعل الاول ذريعة الى الثاني ، والمسند اليه في البيت الثاني ليس فيه ايماء الى وجه بناء الخبر عليه ، بل لا يبعد ان يكون فيه ايماء الى بناء نقيضه عليه[1] .

التعظيم والتكثير :

ولم يفرق السكاكي بين التعظيم والتكثير ، ولا بين التحقير والتقليل ، وجعل التكثير في قولهم : شر أهر ذا ناب للتعظيم ، وفي قوله تعالى : « ولَئِنْ مَسَّتْهُم نَفْحَةٌ من عَذَابِ رَبِّك »[2] ، لخلافه ، وقد رد عليه القزويني فقال : « وفي كليهما نظر ، أما الاول فلما سيأتي ، وأما الثاني فلان خلاف التعظيم مستفاد من البناء للمرة ومن نفس الكلمة لانها اما من قولهم : نفحت الريح اذا هبت أي هبة ، او من قولهم : نفح الطيب اذا فاح أي فوحة كما يقال : شمة ، واستعماله له بهذا المعنى في الشر استعارة اذ أصله يستعمل في الخير ، يقال : له نفحة طيبة ، أي هبة من الخير »[3] .

وذهب السكاكي الى ان قوله تعالى : « يا أبَتِ إني أخافُ أنْ يَمَسَّكَ عذابٌ من الرَّحمن »[4] بالتنكير دون « عذاب الرحمة »

---

(١) مفتاح العلوم ص ٨٧ ، والايضاح ص ٣٨ .
(٢) سورة الانبياء ، الاية ٤٦ .
(٣) الايضاح ص ٤٧ .
(٤) سورة مريم ، الاية ٤٥ .

بالاضافة ، اما للتهويل واما لخلافه • ويرى القزويني انه لخلافه ، واليه ميل الزمخشري ، فانه ذكر ان ابراهيم عليه السلام لم يخل هذا الكلام من حسن الادب مع ابيه حيث لم يصرح فيه ان العذاب لاحق له لاصق به ، ولكنه قال : « إنّي أخافُ أنْ يَمَسَّكَ عذابٌ من الرّحمنِ »[1] فذكر الخوف والمس ونكر العذاب[2] •

كـــل :

وخالفه في الكلام على « كل » في بحث توكيـد المسند اليه وهو يتحدث عن دفع توهم التجوز او السهو أو عدم الشمول فمثل لـــه السكاكي بقوله : « كل رجل عارف » و « كل انسان حي » وهذا غير صحيح عند القزويني ، لانه يرى ان كلمة «كل » تارة تقع تأسيسا وذلك اذا افادت الشمول من اصله حتى لولا مكانها لما عقل ، وتارة تقـــع تأكيدا وذلك اذا لم تفده من اصله ، بل يمتنع ان يكون اللفظ المقتضي له مستعملا في غيره • اما الاول فهو أن تكون مضافة الى نكرة كقوله تعالى : « كُلُّ حِزْبٍ بما لديهم فَرِحونَ » [3] وقوله : « وكُلَّ شيءٍ فَصَّلْناه تَفْصيلا »[4] وقوله : « وهُمْ مِنْ كُلِّ حَدْبٍ يَنْسِلُونَ »[5] ، وأما الثاني فما عدا ذلك كقوله تعالى: « فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ »[6] وهي في قوله : « كل رجل عارف » و « كل انسان حيوان » من الاول لا الثاني ، لانها لو حذفت منهما لم يفهم الشمول اصلا »[7] •

---

(١) سورة مريم ، الآية ٤٥ .

(٢) الايضـــاح ص ٤٧ .

(٣) سورة المؤمنون ، الآية ٥٣ ، وسورة الروم ، الآية ٣٢ .

(٤) سورة الاسراء ، الآية ١٢ .

(٥) سورة الانبياء ، الآية ٩٦ .

(٦) سورة الحجر ، الآية ٣٠ .

(٧) الايضاح ص ٥١ ، ومفتاح العلوم ص ٩١ .

التقديم للاختصاص :

ورد عليه في التقديم للاختصاص وعرض لمذهبي عبد القاهر والسكاكي ، وكان السكاكي قد اشترط في افادة التقديم الاختصاص امرين :

أحدهما : انه يجوز تقدير كونه في الاصل مؤخرا بأن يكون فاعلا في المعنى فقط مثل : « انا قمت » . فانه يجوز ان تقدر اصله «قمت أنا » على ان « أنا » تأكيد للفاعل الذي هو التاء في « قمت » فقدم انا ، وجعل مبتدأ .

وثانيهما : أن يقدر كونه كذلك .

ولا يرى القزويني هذا الرأي ، وقد عرض لرأي عبدالقاهر والزمخشري في ذلك ورَدَّ على السكاكي[1] .

الالتفات :

وكما خالف القزويني الزمخشري والجمهور في الألتفات ، نراه يخالف السكاكي فيه فيعرض آراءه ويعلق عليها ، وكان السكاكي قد ذهب الى ان الالتفات غير مختص بالمسند اليه ، بل التكلم والخطاب والغيبة مطلقا ينقل كل واحد منهما الى الآخر ، كقول ربيعة بن مقروم:

بانت سعادُ فأمسى القلبُ مَعْمودا واخلفتك ابنةُ الحرِّ المواعيدا

وقوله :

تذكرت والذكرى تهيجك زينبا واصبح باقي وصلها قد تقضبا
وحل بفلجٍ فالأباترِ اهلُنا وشَطَّت فحلت غمرة فمثقبا[2]

---

(١) الايضاح ص ٥٩ — ٦٣ .

(٢) مفتاح العلوم ص ٩٥ — ٩٦ .

والمشهور عند الجمهور ان الالتفات : هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها • يقول القزويني : « وهذا أخص من تفسير السكاكي ، لانه اراد بالنقل ان يعبر بطريق من هذه الطرق عما عبر عنه بغيره ، أو كان مقتضى الظاهر ان يعبر عنه بغيره منها • فكل التفاوت عندهم التفات عنده من غير عكس »[1] • ومثال الالتفات من التكلم الى الخطاب قوله تعالى : « وما لي لا أعبُدُ الذي فَطَرني واليه تُرْجَعونَ »[2] ، ومن التكلم الى الغيبة قوله تعالى : « إنّا أعطيناكَ الكوثر فَصَلِّ لربِكَ وانحرْ »[3] ، ومن الخطاب الى التكلم قول علقمة بن عبدة :

طحا بك قلبٌ في الحسانِ طروبُ   بُعَيدَ الشباب عَصْرَ حانَ مَشيبُ
يكلفني ليلي وقد شط وليها   وعادت عوادٍ بيننا وخطوبَ

ومن الخطاب الى الغيبة قوله تعالى: « حتى إذا كُنْتُم في الفُلْكِ وجَرَيْنَ بهم »[4] ومن الغيبة الى التكلم قوله تعالى : « واللهُ الذي أرسل الرياحَ فتُثيرُ سَحابا فسُقْناه »[5] ، ومن الغيبة الى الخطاب قوله تعالى : « مالِكِ يَوْمِ الدينِ • إيّاكَ نَعْبُدُ وإيّاكَ نستعين »[6] ، وقول عبدالله بن عبدة :

ما أنْ ترى السيدزيداً في نفوسهم   كما يـراه بنـو كوز ومرهوبُ

إنْ تسألوا الحقَ نُعْطِ الحقَ سائلَه
والدرعُ محقبةٌ والسيفُ مقروب

---

(١) الايضاح ص ٧١ .
(٢) سورة يس ، الآية ٢٢ .
(٣) سورة الكوثر ، الآيتان ١ ، ٢ .
(٤) سورة يونس ، الآية ٢٢ .
(٥) سورة فاطر ، الآية ٩ .
(٦) سورة الفاتحة ، الآيتان ٤ ، ٥ .

وذكر السكاكي أبيات امرىء القيس :

تطاولَ ليلُك بالأثمدِ ونام الخليُّ ولم ترقدِ
وباتَ وباتت له ليلةٌ كليلةِ ذي العائرِ الأرمدِ
وذلك من نبأ جاءني وخبرته من أبي الأسودِ

وذكر في تفسيرها وجوها : احدها ان يكون قصد تهويل الخطب واستفظاعه فنبه في التفاته الاول على أن نفسه وقت ورود ذلك النبأ عليها ولهت لَهُ ولَهَ الثكلى ، فأقامها مقام المصاب الذي لا يتسلى بعض التسلى الا بتفجع الملوك له وتحزنهم عليه . وخاطبها بـ « تطاول ليلك » تسلية على انها لفظاعة شأن النبأ ابدت قلقا شديدا ولم تتصبر ــ فعل الملوك ــ فشك في أنها نفسه ، فأقامها مقام مكروب وخاطبها بذلك تسلية . وفي الثاني على انه صادق في التحزن خاطب أو لا ؟. وفي الثالث على أنه يريد نفسه ، أو نبه في الاول على ان النبأ لشدته تركه حائرا فما فطن معه لمقتضى الحال فجرى على لسانه ما كان الفه من الخطاب الدائر في مجاري امور الكبار أمرا ونهيا ، وفي الثاني على أنه بعد الصدمة الاولى افاق شيئا فلم يجد النفس معه ، فبنى الكلام على الغيبة ، وفي الثالث على ما سبق في الوجه الاول . او نبه في الاول على انها حين لم تثبت ولم تتبصر غاظه ذلك فأقامها مقام المستحق للعقاب فخاطبها على سبيل التوبيخ والتعبير بذلك ، وفي الثاني على أنه الحامل على الخطاب والعتاب لما كان هو الغيظ والغضب وسكت عنه الغضب بالعتاب ولى عنها الوجه وهو يدمدم قائلا : « وبات وباتت له » وفي الثالث على ما سبق .

يقول القزويني : « هذا كلامه ولا يخفى على المنصف ما فيه من التعسف »[1] .

---

(١) الايضاح ص ٧٥ ، ومفتاح العلوم ص ٩٦ وما بعدها .

ولم يستطع السكاكي والقزويني ان يضعا الالتفات الوضع الاخير او ان يبحثاه بحثا ادبيا كما فعل ابن الاثير ، فبقي يتأرجح بين علم المعاني وعلم البديع . والى هذا أشار ابن يعقوب المغربي قائلا : « ويسمى هذا النقل بجميع أقسامه عند علماء المعاني التفاتا اخذا من التفات الانسان يمينا وشمالا وبالعكس . فان قلت : لاي وجه خصص تسميته بعلماء المعاني مع ان عد الالتفات من البديع أقرب ، لان حاصل ما فيه انه يفيد الكلام ظرافة وحسن تطرية فيصغى اليه لظرافته وابتداعه، ولا يكون الكلام به مطابقا لمقتضى الحال فلا يكون من علم المعاني فضلا عن كونه يختص بهم فيسمونه به دون اهل البديع ..؟ قلت : « اما كونه من الاصول التي تذكر في علم المعاني فصحيح كما اذا اقتضى المقام فائدته من طلب مزيد الاصغاء ، لكون الكلام سؤالا ، أو مدحا ، او اقامة حجة، أوغير ذلك فهو من هذا الوجه من علم المعاني . ومن جهة كونه شيئا ظريفا مستبدعا يكون من علم البديع . وكثيرا ما يوجد في المعاني مثل هذا فليفهم ، واما تخصيص علم المعاني بالتسمية فلا حجر فيه والله اعلم »[1] . وكرر هذا الكلام في مكان آخر[2] ، ومعنى ذلك ان البلاغيين لم يتفقوا على هذا الفن ، اهو من علم البديع أم هو من علم المعاني ؟ ولم يجرهم الى هذا الا شعورهم باضطراب منهجهم الذي بنوا عليه البلاغة .

القلب :

وخالفه في القلب ، فقد رده قوم مطلقا ، وقبله مطلقا قوم منهم السكاكي الذي يقول عنه : « وهو شعبة من الاخراج لا على مقتضى الظاهر ولها شيوع في التراكيب ، وهي مما يورث الكلام ملاحة، ولا يشجع عليها الا كمال البلاغة ، تأتي في الكلام وفي الاشعار وفي

---

(١) مواهب الفتاح ج١ ص ٤٦٣ — ٤٦٤ .

(٢) ينظر مواهب الفتاح ج١ ص ٤٧٣ .

التنزيل »[1] . ويرى القزويني انه ان تضمن اعتبارا لطيفا قُبل وإلا رُدّ ، لذلك يقول عن قوله تعالى : « وكَمْ من قَرية أهلكناها فجاءَها بأسُنا »[2] ليس واردا على القلب اذ ليس في تقدير القلب فيه اعتبار لطيف ، وكذا قوله تعالى : « ثم دَنا فتَدَلّى »[3] وكذا قوله تعالى : « اذهبْ بكتابي هذا فألْقِه اليهم ثُمّ تَوَلَّ عنهم فانْظُرْ ماذا يُرْجِعُون »[4] . فأصل الاول : اردنا اهلاكها فجاءها بأسنا أي اهلاكنا . وأصل الثاني : ثم أراد الدنو من محمد صلى الله عليه وسلم فتدلى فتعلق عليه في الهواء . ومعنى الثالث : تَنَحّ عنهم الى مكان قريب تتوارى فيه ليكون ما يقولونه بمسمع منه فانظر ماذا يرجعون »[5] .

وقد رأى السكاكي أنّ في هذه الآيات قلبا، ولكن القزويني لا يرى ذلك ، ومن هنا جاء الاختلاف بينهما فذهب الاول الى قبوله مطلقا ، وذهب الثاني الى قبوله ان تضمن اعتبارا لطيفا . ومع ذلك لم يضعه السكاكي في مكانه اللائق من فنون البلاغة ويبين أهميته ، فبقي يتردد في اقسام البلاغة كلها فهو من علم المعاني ان قصدت به المطابقة ، وان لم تقصد فهو في التشبيه المقلوب من علم البيان ، او هو من علم البديع .

واسرف في الرد عليه في باب ذكر المسند وافراده ، وفي حذف المفعول[6] .

التقديم :

وقسم السكاكي التقديم للعناية قسمين :

احدهما : أن يكون اصل ما تقدم في الكلام هو التقديم ، ولا

(١) مفتاح العلوم ص ١٠١ .
(٢) سورة الاعراف ، الآية ٤ .
(٣) سورة النجم ، الآية ٨ .
(٤) سورة النمل ، الآية ٢٨ .
(٥) الايضاح ص ٧٩ .
(٦) الايضاح ص ٨٦ ، ٨٧ ، ١٠٦ – ١٠٩ .

مقتضى للعدول عنه كالمبتدأ المعرف ، فان اصله التقديم على الخبر نحو: « زيد عارف » وكذي الحال المعرف فأصله التقديم على «الحال» نحو: « جاء زيد راكبا » ، وكالعامل فاصله التقديم على معموله نحو « عرف زيد عمرا » ، وكالفاعل فأصله التقدم على المفعولات ومـا يشبهها من الحال ، والتمييز نحو : « ضرب زيد الجاني بالسوط يوم الجمعة أمام بكر ضربا شديدا تأديبا له ممتلئا من الغضب » ، وكالذي يكون في حكم المبتدأ من مفعولي باب علمت نحو « علمت زيدا منطلقا » او في حكم فاعل من مفعول باب أعطيت وكسوت ، وكالمفعول المتعدى اليه بغير وساطة فاصلة التقدم على المتعدى اليه بواسطة نحو : « ضربت الجاني بالسوط » ، وكالتوابع فاصلها ان تذكر مع المتبوع فلا يقدم غيرها عليها .

وثانيهما : ان تكون العناية بتقديمه والاهتمام بشأنه لكونه في نفسه نصب عينك ، وان التفات الخاطر اليه في التزايد ، كما نجدك قد منيت بهجر حبيبك وقيل لك : ما تتمنى ؟ تقول : وجه الحبيب أتمنى ، وعليه قوله تعالى : « وجَعَلوا للهِ شركاء »[1] او لعارض يورثه ذلك كما اذا اخذت في الحديث وتوهمت لقرائن الاحوال من أنت معـه في الحديث ملتفت الخـاطر الى معنى ينتظر من مسـاقك الحـديث المامك به فيبرز ذلك المعنى عندك في معرض أمر يتجدد في شأنه التقاضي ساعة فساعة[2] .

ولا يرى القزويني فيما ذكره السكاكي ما يدعو الى الاطمئنان فيرد عليه قائلا : « وفيما ذكر نظر من وجوه :

احدها : انه جعل تقديم « لله » على « شركاء » للعناية والاهتمام ، وليس كذلك فان الآية مسوقة للانكار التوبيخي فيمنع أن يكون تعلق « اجعلوا » بـ « لله » منكرا من غير اعتبار تعلقه بـ «شركاء » اذ لاينكر

---

(١) سورة الرعد ، الآية ٣٣ .

(٢) مفتاح العلوم ص ١١٣ — ١١٤ .

ان يكون جعل ما متعلقا به ، فيتعين أن يكون انكار تعلقه به اعتبار تعلقه بـ « شركاء » وتعلق بـ « شركاء » كذلك منكر باعتبار تعلقه بـ « لله » فلم يبق فرق بين التلاوة وعكسها . وقد علم بهذا ان كل فعل متعد الى مفعولين لم يكن الاعتناء بذكر احدهما الا اعتبار تعلقه بالآخر، اذا قدم أحدهما على الآخر لم يصح تقديمه بالعناية .

وثانيها : أنه جعل التقديم للاحتراز عن الاخلال ببيان المعنى ، والتقديم للرعاية على الفاصلة في القسم الثاني وليسا منه .

وثالثها : أن تعلق « من قومه » بـ « الدنيا » على تقدير تأخره غير معقول المعنى الاعلى وجه بعيد[1] .

القصـــر :

وبحث القزويني القصر ، والفصل والوصل بحثا اكثر ترتيبا وطلاوة من بحث السكاكي ورد عليه في عدة مواضع ، وأخذ عليه اهماله القصر الحقيقي وادخال قصر التعيين في قصر الافراد وعدم اشتراطه في قصر الموصوف أفرادا عدم تنافي الصفتين ولا في قصره قلبا تحقق تنافيهما[2] . وفضّل رأي عبد القاهر على رأيه فيما بين طرق القصر من فروق . يقول السكاكي : ان شرط مجامعة النفي بـ « لا » العاطفة للطريق الثالث من طرق القصر وهو ما كان بـ « انما » ان لا يكون الوصف مختصا بالموصوف كقوله تعالى : « إنّما يستجيبُ الذين يَسْمَعون »[3] فان كل عاقل يعلم ان الاستجابة لا تكون الا ممن يسمع ، وكذا قولهم : « انما يعجل من يخشى الفوت » ، ويقول عبد القاهر : لا تحسن مجامعته له في المختص كما تحسن في غير المختص ، ويقول القزويني : « وهذا أقرب »[4] .

---

(١) الايضاح ص ١١٧ – ١١٨ .
(٢) الايضاح ص ١٢٠ .
(٣) سورة الانعام ، الآية ٣٦ .
(٤) الايضاح ص ١٢٢ .

الفصل والوصل :

ورَدَّ عليه في الفصل والوصل عند كلامه على القطع والجامع وأنواعه بين الجملتين[1] .

الايجاز والاطناب :

وبَحَثَ الايجاز والاطناب بحثا مفصلا في « مفتاح العلوم »،وهو من امتع البحوث في هذا الموضوع ، وادخل في الاطناب موضوعات كان المتقدمون قد عدوها من أبواب البديع ، وأفردوا لها فصولا خاصة كالايضاح بعد الابهام ، وذكر الخاص بعد العام ، والتكرار ، والايغال، والتذييل ، والتكميل ، والاحتراس[2] .

وقسَّمَ الايجاز الى ايجاز قصر وايجاز حذف ، واطنب في الكلام فيهما فتكلم على المحذوف اذا كان جملة او جزء جملة أو أكثر من جملة، وهذا ما لم يفعله السكاكي . وردَّ عليه ردا عنيفا في اول هذا الفصل ، لان السكاكي قال : « أما الايجاز والاطناب فلكونهما نسبيين لا يتيسر الكلام فيهما الا بترك التحقيق والبناء على شيء عرفي ، مثل جعل كلام الاوساط . والاطناب هو اداؤه باكثر من عباراتهم سواء كانت القلة أو الاعتراف بذلك مقيسا عليه ، ولنُسَمِّه متعارف الاوساط ، وانه من باب البلاغة لا يحمد منهم ولا يذم . ثم عرف الايجاز والاطناب بقوله: « فالايجاز هو اداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الأوساط . والاطناب هو اداؤه باكثر من عباراتهم سواء كانت القلة أو الكثرة راجعة الى الجمل أو الى غير الجمل »[3] . وقال ان الاختصار لكونه من الامور النسبية يرجع الى بيان دعواه الى ما سبق تارة والى كون المقام خليقا بأبسط مما ذكر اخرى . ولم يرَ القزويني في هذا

---

(١) الايضاح ص ١٥٥ — ١٦٢ .

(٢) ينظر كتاب الصناعتين مثلا

(٣) مفتاح العلوم ص ١٣٣ .

الكلام ما فيه الصحة والدقة فقال : « وفيه نظر ، لان كون الشيء نسبيا لا يقتضي ان لا يتيسر الكلام فيه الا بترك التحقيق والبناء على شيء عرفي ، ثم البناء على متعارف الاوساط والبسط الذي يكون المقصود جديرا به رد الى جهالة فكيف يصلح للتعريف ؟ والاقرب ان يقال : المقبول من طرق التعبير عن المعنى هو تأدية اصل المراد بلفظ مساو لـه أو ناقص عنه ، واف ، او زائد عليه بفائدة »[1] .

ورد عليه في موضوعات علم البيان ، ومن ذلك بحثه عن المشترك في موضوع الحقيقة والمجاز والتاء في لفظة الحقيقة .

التمثيـل :

واختلف عنه في التمثيل اختلافا يسيرا ، فهو يرى ــ مع متابعته للسكاكي في تقسيم وجه الشبه ــ ان التشبيه التمثيلي ما كان وجهـه منتزعا من امور متعددة سواء كان حسيا ام عقليا ، اما السكاكي فذكر ان التشبيه متى كان وجهه وصفا غير حقيقي وكان منتزعا من عدة امور خص باسم التمثيل[2] . والاختلاف بينهما ان السكاكي يرى أنّه لابد أن يكون وجه الشبه وصفاً غير حقيقي أي عقليا ، أمـا الثاني فيرى أن يكون حسيا وعقليا . وعلى هذا الاساس فان رأي القزويني في التشبيه هو أن كل تشبيه كان وجهه حسيا مفردا تشـبيه غير تمثيلي ، وان كل تشبيه كان وجهه حسيا مركبا تشبيه تمثيلي ، وان كل تشبيه كان وجهه عقليا حقيقيا مفردا تشبيه غير تمثيلي ،وأن كل تشبيه كان وجهه عقلياغير حقيقي مركبا تمثيلي[3] .

استعارة محسوس لمحسوس :

وانكر على السكاكي اهماله استعارة محسوس لمحسوس بما بعضه

---

(١) الايضاح ص ١٧٧ .

(٢) مفتاح العلوم ص ١٦٤ والايضاح ص ٢٤٩ .

(٣) ينظر فصل التشبيه في الايضاح ، ودراسات لبلاغة عبدالقاهر ص ٢٥ .

حسي ، وبعضه عقلي كقولك « رأيت شمسا » وأنت تريـــد انسانا ، تشبيها بالشمس في حسن الطلعة ، ونباهة الشأن • ونقده في القرينة في قول الشاعـر :

تقـري الرياحُ رياضَ الحـزن مزهرةً
اذا سـرى النوم في الاجفان ايقاظـا[1]

الحقيقة والمجاز :

وعقد القزويني فصلا رد فيه على السكاكي في باب الحقيقة والمجاز وناقشه ، يقول : « اعلم ان كلام السكاكي في هـذا الباب ــ أعني باب الحقيقة والمجاز ــ والفصل الذي يليه مخالف لمواضع مما ذكرنا ، فلابد من التعرض لها ، ولبيان ما فيها »[2] • وقد ناقش السكاكي في تعريف الحقيقة والمجاز وتقسيمه للمجاز ، وفي تعريفه الاستعارة التخييليـة ، والمكنية ، والتبعية مما سنذكر طرفا منه في باب « بلاغة القزويني » •

البديـع :

وبعد أن انتهى من البيان عقد للبديع بابا واضـاف الى ما ذكره السكاكي فنونا أخرى كالارصاد ، والاستطراد ، والتجريد ، والموازنة، والقول بالموجب ، والتشريع • وترك أنواعا كثيرة أشار السكاكي اليها، كأوجه التحسين الراجعـة الى الخط دون اللفظ ، أو كون الحروف منقوطة وغير منقوطة •

وبحثه في البديع احسن من بحث السكاكي الذي أماته ، وأحالـه جملا لا روح فيها ، وعبارات لا توحي بشيء • أما القزويني فقد توسع في بحثه ، وأكثَرَ من الامثلة ، وقسمها تقسيما ليس فيـه التكلف والاسراف في الصنعة حتى أن بعض الباحثين المحدثين في البلاغة وفنونها

---

(١) الايضـاح ص ٢٩٧ ، ٣٠٠ •
(٢) الايضاح ص ٣١١ •

المختلفة أثنى عليه في هذا المضمار ، فقال الاستاذ علي الجندي متحدثا عن الجناس : « ومقارنة ما كتب عن الجناس ، وانعام النظر فيما وردمنه في الشعر يتبين لنا أن تقسيم الخطيب أحمَدُ هذه التقسيمات جميعا ، وأبعدُها عن الاسراف ، فالانواعُ التي ذكرها كثيرة الورود قوية الصلة بالطبع ، ولهذا يمكن أن نعدها أصول الجناس »[1] . ويمكن تطبيق كلام الاستاذ الجندي على كثير من أنواع البديع التي ذكرها القزويني ، فهي وان لم تكن الصورة المثلى لبحثه فنون البديع ــ أحسن من كلام السكاكي ، ذلك الكلام الذي سيطر عليه الجفاف ، وسادته روح التقنين الضيق . ولو اطال القزويني في بحثها وذكر الامثلة الحية لعُدَّ من المبرزين في هذا المضمار لما امتاز به من ذوق أدبي صافٍ ، وطبيعة فنية صادقة كانت حصيلة بيئة مصر والشام العربية . ومع ذلك فقد رد على السكاكي في بعض المواضع ، واختلف معه في بعض المصطلحات ، فاطلق على سوق المعلوم مساق غيره مصطلح « تجاهل العارف » .

انفـراد :

وانفرد القزويني عن السكاكي بفصلين هما : السرقات ، وحسن الابتداء والانتهاء ، ولم يكن فيهما مجددا ، الا انها التفاتة حسنة منه تشير الى ما رزق من ارهاف ، وحس ، وتذوق للادب واساليبه .

ومن هنا نجد القزويني يتأثر بالسكاكي في ناحيتين : المنهج ، ومادة البحث . ولكنه لم يتابعه متابعة تامة ، وانما حاول أن يفند آراءه ويرد عليها ، ولعل ما ذكرناه يوضح هذا خير توضيح ، ويلقي ضوء على عمل السكاكي والقزويني في البلاغة العربية .

☆ ☆

هذا هو منهج القزويني في البلاغة ، وتلك كتبه وآثاره ، ويمكن أن نلخص مصادرها في انه استفاد من كتب المبرد ، و « النكت في اعجاز

---

(1) فن الجناس ص ٦١ .

القرآن » للرماني ، و « كتاب الصناعتين » للعسكري ، و «الوساطة » للقاضي الجرجاني ، وكتاب « المفردات في غـــريب القرآن » للراغب الاصفهاني ، و « سر الفصاحة » لابن سنان ، و « المثـــل السائر » و « الوشى المرقوم » لابن الاثير ، و « بديـــع القرآن » و « تحرير التحبير » لابن أبي الاصبع المصري ، و«المصباح» لبدرالدين بن مالك .
ويبدو أثر « دلائل الاعجاز » و « واســـرار البلاغة » لعبد القاهر و « الكشاف » للزمخشري و « مفتاح العلوم » للسكاكي واضحـا في بلاغة القزويني ، وقد سار على خطاهم ولم يتخلص من بلاغتهم وتأثيرهم الا قليـــلا .

الباب الثاني

بلاغة القزويني



الفصل الأول



١

شغل النقاد منذ القديم باللفظ والمعنى أو بالشكل والمضمون ، وانقسموا الى مؤيدين للفظ ومدافعين عن المعنى ، والى من جمع بين الاثنين . وهذه مسألة من مسائل علم الجمال الحديث وقد شغل بها الاقدمون والعرب ووضعوا مقاييس للفظ والمعنى ، ولعل ارسطو من اوائل الذين شغلوا بهذا الموضوع وكتبوا فيه .

رأي الجاحظ :

والجاحظ من أوائل الذين أثاروا هذه المشكلة عند العرب حينما قال : « والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي ، والعربي ، والبدوي ، والقروي ، والمدني ، وانما الشأن في اقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك . فانما الشعر

صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير »[1] .

وظن بعضهم ان الجاحظ يميل الى اللفظ كل الميل ، وانه لا يرى للمعنى قيمة ، والواقع أنه عني باللفظ واعطاه نصيبه من الاهتمام،وهذا واضح لكل من يقرأ كتبه ويمعن النظر فيها .

ولعل دفاعه عن اللفظ في كثير من الاحيان يعود الى ما كان بين العنصرين العربي والاعجمي من صراع ، فقد تشيّع الاعاجم للمعنى تشيعا عظيما ، وأتجه العرب الى اللفظ يعظمونه ويضفون عليه صفات كبيرة[2] . وعرف الجاحظ بكرهه للشعوبية الحاقدة ودفاعه عن العرب فجنح هذا الجنوح في تعظّيم اللفظ وتقديره ، مع انه يروي ان بعضهم لا يحفل إلا بالمعنى ، كأبي عمرو الشيباني الذي يرى أن المعنى متى كان رائعا حسنا ظل كذلك في أية عبارة وضع فيها فالبيتان :

لا تَحْسَبَنَّ الموتَ موتَ البلى فانما الموتُ سؤالُ الرجال
كلاهما موتٌ ولكنَّ ذا أفظعُ من ذاك لذلِ السؤال

استحسنهما أبو عمرو على حين ليست عليهما مسحة أدبية سوى الوزن ، وعابه الجاحظ ورأى أنه مسرف في تقديرهما . يقول : « وأنا رأيت أبا عمرو الشيباني وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين ونحن في المسجد يوم الجمعة أنْ كلف رجلا حتى أحضره دواة وقرطاسا حتى كتبهما له وانا ازعم ان صاحب هذين البيتين لا يقول شعرا ابدا ، ولولا ان ادخل في الحكم بعض الفتك لزعمت أنَّ ابنه لا يقول شعرا ابدا »[3] .

ووضع الجاحظ مقاييس للفظ وتكلم على تنافر الالفاظ وما ينبغي تجنبه ، ولكنه لم يهمل المعنى والتأكيد عليه ، ومن هنا لا تتفق مع

(١) الحيوان ج٣ ص ١٣١ ــ ١٣٢ .
(٢) ينظر في النقد الادبي ص ١٦١ وابو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية ص ١٣٢ .
(٣) الحيوان ج٣ ص ١٣١ .

ما ذهب اليه بعضهم من ان الجاحظ كرس جهوده في خدمة الالفاظ ، ولاجله خاض عبد القاهر غمار هذا البحث.ويرى الدكتور محمدمندور ان كل آراء عبدالقاهر تنحصر في مسألتين :

الاولى : انكاره لما رآه الجاحظ من اهمية فصاحة الالفاظ باعتبار تلك الفصاحة صفة في اللفظ ذاته ، ثم ثورته على مذهب العسكري الذي يرد جودة الكلام الى محسنات لفظية تقف عند الشكل .

الثانية : تعليقه جودة الكلام بخصائص في النظم[1] .

وفيما نقله عبد القاهر من اهتمام الجاحظ بالصياغة والمعنى خير دليل لتفنيد ما ذهب اليه مندور .

رأي ابن قتيبة :

وذكر ابن قتيبة ان الشعر اربعة أضرب : ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه كقول القائل في بعض بني أمية :

في كفه خيزرانٌ ريحُه عَبِقٌ من كف أروع في عرنينه شَمَمُ
يُغضي حياءً ويُغْضى من مهابته فما يكلم الا حين يَبْتَسِمُ

وكقول أوس بن حجر :

أيَّتُها النَّفْسُ أجملي جَزَعا إنَّ الذي تَحْذَرينَ قَدْ وَقَعا

وضرب منه حَسُنَ لفظه وحلا ، فاذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى كقول القائل :

ولماقَضَيْنا من منى كُلَّ حاجةٍ ومَسَّحَ بالأركانِ منْ هوماسحُ
وشُدَّتْ على حُدْبِ المهارى رحالُنا
ولا ينظرُ الغادي الذي هو رائحُ

---

(١) في الميزان الجديد ص ١٤٩ .

أخذنا بأطرافِ الاحاديث بيننـــا وسالتْ بأعناقِ المَطى الأباطـحُ

يقول معلقا عليها : « هذه الالفاظ كما ترى احسن شيء مخـــارج ومقاطع ، وان نظرت الى ما تحتها من المعنى وجدته : ولما قطعنا أيام منى، واستلمنا الاركان ، وعالينـــا ابلنا الانضاء ، ومضى النـــاس لا ينظر الغادي الرائح ، ابتدأنا في الحديث وسارت المطي في الاباطح . وهـــذا الصنف كثير »[1] .

ونحوه قول المعلوط[2] :

إنّ الذينَ غَدَوا بلبك غادَروا وَشَلاً بعينك لا يزالُ مَعِينا
غَيَّضْنَ من عَبراتهنّ وقُلْنَ لي: ماذا لَقِيت من الهَوى ولَقِينا

وضرب منه جاد معناه ، وقصرت الفاظه عنه كقول لبيد بن ربيعة :

ما عاتبُ المرء الـــكريم كنفسه والمرءُ يُصْلِحه الجليسُ الصالحُ

وضرب منه تأخر معناه ، وتأخر لفظه كقول الاعشى في امرأة :

وفُوها كاقاحيٍّ غذاه دائمُ الهَطْلِ
كما شِيب براح باردٍ من عَسَلِ النَحْلِ[3]

فابن قتيبة يذهب الى « أنّ البلاغة لا تقتصر على اللفظ فهي قد تكون فيه فقط ، وقد تكون في المعنى فقط ، وقد تكون فيهما جميعا ، وقـــد تنقصهما جميعا . فليس اللفظ وحده هو الذي يعطي النماذج الادبيـــة قيمتها من فن وجمال ، فالمعنى يشركه في ذلك اذ يوصف، بالرداءة والقبح كما يوصف بالجودة والجمال »[4] . وكأنّ ابن قتيبة في ذلك يرد على

(١) الشعر والشعراء ص ٨ .
(٢) يروى البيتان لجرير وهما في ديوانه ص ٥٧٨ .
(٣) الشعر والشعراء ص ٧ — ١٠ .
(٤) في النقد الادبي ص ١٦٢ .

الجاحظ مذهبه في تقديم اللفظ على المعنى من حيث بلاغة الكلام • وقد سار ابن طباطبا في « عيار الشعر » على خطاه ، واستمد حديثه عن المعاني والالفاظ من فكرته •

واهتم النقاد والبلاغيون بالموضوع فتكلم قدامة بن جعفر على اللفظ وليس في كلامه ما يشير الى تفضيله اللفظ او المعنى بصراحة وإنْ وضع لكل منهما اصولا وقواعد ، وقال : « نعت اللفظ أن يكون سَمْحا ، سهل مخارج الحروف من مواضعها ، عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة »[1] •

وتحدث ابو هلال عنهما وعقد لكل منهما فصلا •

رأي عبدالقاهر :

وكان عبد القاهر ممن اهتم بالمعنى مع اهتمامه بالصياغة ، وإنْ ذهب الى أن الالفاظ خدم للمعاني ، وأوعية لها ، وهي تتبعها في حسنها وجمالها وقبحها ورداءتها • يقول : « ولن تجد أيمن طائرا ، وأحسن اولا وآخرا ، وأهدى الى الاحسان ، واجلب للاستحسان من ان ترسل المعاني على سجيتها وتدعها تطلب لأنفسها الالفاظ فانها اذا تركت وما تريد لم تَكْتَسِ الا ما يليق بها ، ولم تلبسْ من المعارض الا ما يزينها، فاما ان تضع في نفسك أنه لا بد من أن تجنّس أو تسجع بلفظين مخصوصين ، فهو الذي انت بعرض الاستكراه ، وعلى خطر من الخطأ والوقوع في الذم فان ساعدك الجد كما ساعد في قوله :

أوْدَعاني أمُتْ بما أوْدَعاني

وكما ساعد أبا تمام في نحو قوله :

وأنجدتمُ من بَعْدِ إتهامِ دَارِكم فيادمعُ أنْجِدني على ساكني نَجْدِ

(١) نقد الشعر ص ١٠ •

وقوله :

هُنَّ الحَمامُ فإنْ كَسَرْتَ عِيافةً
من حائِهِنَّ فانهنَّ حِمَامُ

فذاك ، والا اطلقت لسنة العيب »(١) .

والالفاظ عند عبدالقاهر لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كلم مفردة ، وأنَّ الالفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك بما لا تعلق له بصريح اللفظ . ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك ، وتؤنسك في موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر كلفظ الاخدع في بيت الحماسة :

تَلَفَّتُّ نحو الحي حتى وجَدتني وَجِعتُ من الاصغاء لِيتاً وأخدعا(٢)

وبيت البحتري :

وإنّي وإنْ بَلَّغتني شَرَفَ الغِنى
واعتقت من رِقّ المطامع أخْدَعي

فان لها في هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن ، ثم انك تتأملها في بيت أبي تمام :

يا دَهْرُ قَوِّمْ من أخدعيك فقد
أضْجَجْتَ هذا الانامَ من خُرُقِكْ

---

(١) اسرار البلاغة ص ١٩ — ٢٠ .

(٢) الليت : صفحة العنق ، مثناه : ليتان ، ج : أليات .
الاخدع : عرق في صفحة العنق ، يقال : لاقيمن اخدعيك ، أي : لاذهبن كبرك ، وفلان شديد الاخدع : كناية عن العتو والشدة . ج : أخادع .

فتجد لها من الثقل على النفس ، ومن التنغيص والتكدير أضعاف، مـا وجدت هناك من الروح ، والخفة ، والايناس ، والبهجة ٠

ومن أعجب ذلك لفظة « الشيء » فانك تراهـا مقبولة حسنة في موضع ، وضعيفة مستكرهة في موضع ، وإن اردت أن تعرف ذلك فانظر الى قول عمر بن أبي ربيعة :

ومـن مـاليءٍ عينيـه من شَـيءٍ غَيْرِه
اذا راحَ نحو الجَمـرة البيضُ كالدُّمَى

والى قول أبي حية :

اذا ما تقاضى المرءَ يومٌ وليلةٌ تقاضاه شيءٌ لا يمل التقَاضِيَا

فانك تعرف حسنها ، ومكانها من القبول ٠ ثم انظر اليها في بيت المتنبي:

لو الفلكُ الدوارُ ابغضت سعيه لعوقـه شـيءٌ عن الدَّورانِ

فانك تراها تقل ، وتضؤل بحسب نبلها وحسنها ٠

وينتهي عبدالقاهر الى أن الكلمة لو كانت اذا حسنت ، من حيث هي لفظ ، واذا استحقت المزية والشرف ، استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع اخوأتها المجاورة لها في النظم ، لمـا اختلف بها الحـال ، ولكانت امـا ان تحسن أبدا ، أو لا تحسن ابدا[(١)] ٠

ولم يقف عبد القاهر عند الاهتمام بالنظم ، وانما اهتم بالتصوير الادبي الذي لا يكون الا بترتيب الالفاظ والتأليف بينهـا ٠ يقول : « ومعلوم ان سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة ، وان سبيلَ المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه كالفضـة

---

(١) ينظر دلائل الاعجاز ص ٣٨ وما بعدها ٠

والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار . فكما ان محالا اذا أنت اردت النظر في صوغ الخاتم وفي جودة العمل ورداءته ان تنظر الى الفضة الحاملة لتلك الصورة ، او الذهب الذي وقع فيه العمل وتلك الصنعة . كذلك محال اذا اردت أن تعرف مكان الفضل والمزية في الكلام أن تنظر في مجرد معناه . وكما انا لو فضلنا خاتما على خاتم بأن تكون فضة هذا اجود ، او فصه أنفس ، لم يكن ذلك تفضيلا له من حيث هو خاتم ، كذلك ينبغي اذا فضلنا بيتا على بيت من اجل معناه ان لا يكون تفضيلا له من حيث هو شعر وكلام . وهذا قاطع فاعرفه »[1] .

فعبد القاهر يرى ان للتصوير الادبي قيمة كبيرة ، ولهذا اطال الكلام في اسرار البلاغة على الوسائل والاساليب التي تجعل الصورة حسنة مقبولة ، ولكنه مع ذلك لا يرى للكلام قيمة في لفظه أو معناه ، وانما هو الترابط بينهما . ودعاه هذا الى القول بنظرية النظم ، والنظم ــ عنده ــ ليس الا توخي معاني النحو وتعليق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض . وذهب أبعد من هذا ورأى أن في الاستعارة ما لا يمكن بيانه الا بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته . يقول معلقا على الاستعارة في بيت الشاعر :

سالت عليه شعابُ الحي حين دعا أنصارهَ بوجوهٍ كالدنانيرِ

« فانك ترى هذه الاستعارة على لطفها وغرابتها إنما تم لها الحسن وانتهى الى حيث انتهى بما توخي في وضع الكلام من التقديم والتأخير ، وتجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها . وان شككت فاعمد الى الجارين والظرف فأزل كلا منها عن مكانه الذي وضعه الشاعر فيه فقل : « سالت شعاب الحي بوجوه كالدنانير عليه حين دعا انصاره » . ثم انظر كيف يكون الحال وكيف يذهب الحسن والحلاوة ، وكيف

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١٩٦ ــ ١٩٧ .

تعدم أريحيتك التي كانت،وكيف تذهب النشوة التي كنت تجدها»[1].

فالفصاحة عنده لا تحصل الا بتوخي معاني النحو أي في النظم ، والالفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف ، ويعمد بها الى وجه دون وجه من التركيب والترتيب . فلو انك عمدت الى بيت شعر أو فصل نثر ، فعددت كلماته عداً كيف جاء وأتفق ،وابطلت نضده ونظامه الذي عليه بني وفيه افرغ المعنى واجري ، وغيرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد كما أفاد وبنسقه المخصوص أبان المراد نحو ان تقول في: « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » : « منزل قفا ذكرى من نبك حبيب» أخرجته من كمال البيان الى محال الهذيان . نعم ، واسقطت نسبته من صاحبه ، وقطعت الرحم بينه وبين منشئه بل احلت ان يكون له اضافة الى قائل ونسب يختص بمتكلم[2] .

وينتهي الى الحكم بالخطأ على من قصر الفصاحة على الكلمات من حيث هي الفاظ منطوقة واصوات مسموعة ، والكاتب لا يطلب اللفظ بحال وانما يطلب المعنى ، واذا ظفر بالمعنى فاللفظ معه وازاء ناظره .وهو في هذا يتفق مع ما يقوله نوديه (Nodier) في هذا المعنى:« ان الكلمة ثمرة للفكرة ، فمتى نضجت الفكرة سقطت كما تسقط الثمرة الناضجة، ولكنها تسقط على كلمتها » . ومع ما يقوله جوبير (Joubert) « وعندما تصل الفكرة الى تمامها تصيح بكلمتها »[3] .

رأي ابن الاثير :

وآثر ضياءالدين بن الاثير جانب اللفظ على المعنى في تقدير البلاغة او تقدير القيم الفنية للادب . وهذا أمر طبيعي في عصره الذي اهتم فيه الكتاب بتخير الالفاظ والتفنن في رصفها ، وكان هذا هو الذي يميز

(١) دلائل الاعجاز ص ٧٨ .

(٢) اسرار البلاغة ص ٨ .

(٣) ينظر بلاغة ارسطو ص ٣٧٩ ، ونظرية عبدالقاهر في النظم ص ٨٢ ، وينظر دلائل الاعجاز ص ٤٩

كاتبا عن كاتب ، وعلى اساسه كان السلاطين والامراء يختارون كتّاب الانشاء ممن يحسنون الكتابة في الدواوين التي كانت معاني رسائلها معروفة شائعة ليس من فرق بينها الا في اختيار الالفاظ ، وتحبير العبارات ، وتنميق الالفاظ .

رأي ابن خلدون :

وذهب ابن خلدون الى ان صناعة الكلام نظما ونثرا ، انما هي في الالفاظ لا في المعاني ، وانما المعاني تبع لها وهي اصل ، فالصانع الذي يحاول ملكة الكلام في النظم والنثر انما يحاولها في الالفاظ بحفظ امثالها من كلام العرب ليكثر استعماله وجريه على لسانه حتى تستقر له الملكة في لسان مضر ، ويتخلص من العجمة التي رُبي عليها في جيله ، ويفرض نفسه مثل وليد نشأ في جيل العرب ، ويلقن لغتهم كما يلقنها الصبي حتى يصير كأنه واحد منهم في لسانهم . ويرى ان المعاني موجودة عند كل واحد ، وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى فلا يحتاج الى صناعة[1] .

آراء الغربيين :

ولم يكن العرب وحدهم ممن اعتنقوا هذا المذهب في عصورهم السالفة ، وانما اعتنقه جماعة من نقاد الغرب المحدثين ، ونادوا به ، مثل « شارلتن » الذي يقول : إنّ الشعر مؤلف من الفاظ ومن الفاظ فقط كما تتألف سائر ضروب الكلام ، فكل ما للشعر من سحر يفتن القلوب انما هو صادر عن الالفاظ والالفاظ وحدها . ويذهب « شيلر » الى ان الفن فيه الشكل وهو كل شيء والمعنى ليس شيئا مذكورا[2] ولكن كثيرا من نقاد العرب كانوا يعتبرون اللفظ والمعنى سواء ولا يفصلون بينهما ، ولعل صحيفة بشر بن المعتمر (٢١٠هـ) من اقدم الرسائل التي

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٧٧ .

(٢) فنون الادب ص ٤ ، وقدامة بن جعفر والنقد الادبي ص ١٨٥ .

وصلت الينا بهذا الصدد،فهو ينصح بترك التوعر الذي يسلم الى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك المعاني ويشـين الالفاظ ، ومن اراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما فان حق المعنى الشريف اللفظ الشـريف ، ومن حقهما ان يصانا عما يفسدهما ويهجنهما[1] .

رأي ابن طباطبا :

وكان ابن قتيبة الذي اشرنا الى كلامه فيما سبق ممن يسوي بين اللفظ والمعنى ، وكان ابن طباطبا يرى ان اللفظ والمعنى ضروريان ،يقول وهو يتحدث عن الشعر : « وان نقص جزء من اجزائه التي يعمل بها ، وهي اعتدال الوزن وصواب المعنى ، وحسن الالفاظ كان انكار الفهم اياه على قدر نقصان اجزائه . ومثال ذلك الغناء المطرب الذي يتضاعف له طرب مستمعه المتفهم لمعناه ولفظه مع طيب الحانه ، فاما المقتصر على طيب اللحن منه دون ما سـواه فناقص الطرب »[2] . ويذهب الى ان الكلام الذي لا معنى له كالجسد الذي لا روح فيه كمـا قال بعض الحكماء : « للكلام جسد وروح ، فجسده النطق وروحه معناه »[3] . وللمعاني ألفاظ تشاكلها فتحسن فيها وتقبح في غيرها ، فهي لها كالمعرض للجارية الحسناء التي تزداد حسنا في بعض المعارض دون بعض وكم من معنى حسن قد شين بمعرضه الذي ابرزه فيه ، وكم معرض حسن قـد ابتذل على معنى قبيح البسه ، وكم من صارم عضب قـد انتضاه من وددت لو انه انتضاه فهزه ثم لم يضرب به[4] .

رأي ابن رشيق :

وربط ابن رشيق بين اللفظ والمعنى ، وقال : « إنّ اللفظ جسم ،

---

(١) ينظر البيان والتبيين ج١ ص ١٣٦ .
(٢) عيار الشعر ص ١٥
(٣) عيار الشعر ص ١١
(٤) عيار الشعر ص ٨ .

وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فاذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه كما يعرض لبعض الاجسام من العرج والشلل والعور وما أشبه ذلك من غير ان تذهب الروح . وكذلك ان ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك اوفر حظ كالذي يعرض للاجسام من المرض بمرض الارواح ولا تجد معنى يختل الا من جهة اللفظ وجريه فيه على غير الواجب قياسا على ما قدمت من ادواء الجسوم والروح . فان اختل المعنى كله وفسد بقي اللفظ مواتا لا فائدة فيه ، وان كان حسن الطلاوة في السمع ، كما ان الميت لم ينقص من شخصه شيء في رأي العين الا انه لا ينتفع به ولا يفيد فائدة ، وكذلك ان اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى ، لانا لا نجد روحا في غير جسم البتة »[1] .

وللبحتري أبيات يشارك فيها رأي من يسوون بين اللفظ والمعنى ، يقول :

حجج تخرس الأكَدَّ بألفا ظ فرادى كالجوهرِ المعدودِ
ومعانٍ لو فَصَّلَتْها القوافي هَجَّنَتْ شِعْرَ جرولٍ ولبيدِ
حُزْنَ مستعملَ الكلام اختيارا وتجنبن ظلمةَ التعقيدِ
وركبن اللفظ القريب فأدْرَكْنَ غايةَ المرادِ البعيدِ
كالعذارى غَدَوْنَ في الحلل الصُّفْرِ اذا رُحْنَ في الخطوط السُّودِ[2]

الصلة بين اللفظ والمعنى :

ولكن هل ترك اصحاب اللفظ المعنى ، وهجر اصحاب المعنى اللفظ؟ إنَّ الباحث في آراء المتقدمين لا يجد حدا فاصلا بين الرأي الاول والرأي الثاني ، فالذي يفضل اللفظ لا يترك المعنى ، والذي يفضل المعنى لا يطرح اللفظ وان كان جنوحه الى أحدهما أكثر . وسبب ذلك ان النقاد

(١) العمدة ج١ ص ١٢٤ .
(٢) ديوان البحتري ج٢ ص ٣٢٩ .

والبلاغيين القدماء احسوا ان لكلٍ منهما اهمية وميزة ، ولعلّ الجاحظ وعبدالقاهر أحسن من يمثل ما نذهب اليه فالاول مع جنوحه الى اللفظ نراه يؤكد على المعنى ، ويلح في الاهتمام به . والثاني مع تأكيده على المعنى وان الالفاظ لا قيمة لها من غير النظم ، نجده يشير الى الالفاظ وقيمتها وان لم يصرح بذلك فقد كان حذرا في تعبيراته وتعليلاته ، يقول : « واذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرا او يستجيد نثرا ، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول : حلو رشيق ، وحسن أنيق ، وعذب سائغ ، وخلوب رائع ، فاعلم انه ليس ينبئك عن أحوال ترجع الى اجراس الحروف والى ظاهر الوضع اللغوي، بل الى امر يقع من المرء في فؤاده ، وفضل يقتدحه العقل من زناده»[1] .

---

(١) اسرار البلاغة ص ٩ .

٣

الاهتمام باللفظ :

واهتم النقاد العرب بالالفاظ ووضعوا لها قواعد وأصولا ، وكان الجاحظ من اوائل الذين عرضوا لها وسار على نهجه قدامة بن جعفر ، وأبو هلال ، وابن سنان ، وابن الاثير .

وعندما قسم السكاكي البلاغة الى أقسامها المعروفة لم يعقد فصلا للالفاظ ، وانما تكلم على الفصاحة بعد ان انتهى من بحث موضوعات البيان ، وذكر ان الفصاحة قسمان : قسم راجع الى المعنى وهو خلوص الكلام من التعقيد ، وآخر راجع الى اللفظ وهو ان تكون الكلمة عربية أصيلة . وعلامة ذلك ان تكون كثيرة الدوران على ألسنة الموثوق بعربيتهم ، واستعمالها أكثر لا مما احدثها المولدون ، ولا مما اخطأت فيه العامة ، وان تكون أجرى على قوانين اللغة ، وان تكون سليمة عن التنافر . والمراد بتعقيد الكلام هو أن يعثر صاحبه فكرك في متصرفه ويشيك طريقك الى المعنى ويوعر مذهبك نحوه ، حتى يقسم فكرك ، ويشعب ظنك الى أن لا تدري من أين تتوصل ، وبأي طريق معناه يتحصل كقول الفرزدق :

وما مِثْلُه في الناسِ إلا مملَّكاً أبو أمــه حيٌّ أبوهُ يُقَارِبُهْ

وكقول أبي تمام :

ثانيه في كَبِدِ السَّماءِ ولم يَكُن   كاثنينِ ثانٍ إذْ هُما في الغارِ

وغير المعقد ، هو ان يفتح صاحبه لفكرتك الطريق المستوي ويمهده،وان كان في معاطف نصب عليه النار ، وأوقد الانوار حتى تسلكه سلوك المتبين لوجهته ، وتقطعه قطع الواثق بالنجح في طيته[1] • وجعل السكاكي الفصاحة غير لازمة للبلاغة وحصر مرجع البلاغة في علمي المعاني والبيان ، ولم يجعل للفصاحة مرجعا في شيء منهما •

وعندما اختصر بدرالدين بن مالك القسم الثالث من « مفتاح العلوم » تكلم على الفصاحة بعد موضوعات علم البيان ، واطلق عليها اسم « علم البديع » • وقال عنه : « هو معرفة توابع الفصاحة » وعرف الفصاحة بأنها : « صوغ الكلام على وجه له توفية بتمام الافهام لمعناه ، وتبين المراد منه »[2] • وقسمها الى معنوية ولفظية ، وذكر ما في مفتاح العلوم من صفاتهما ، وقسم المعنوية الى مختصة بالافهام والتبيين ، ومختصة بالتزيين والتحسين •

وعندما جاء الخطيب القزويني وجد السبيل ممهدا لبحث الفصاحة فاستفاد من علماء البلاغة المتقدمين ، ورتب بحث الالفاظ ترتيبا اقتضته عقليته المنطقية واسلوبه الفلسفي الذي عالج به موضوعات البلاغة كلها • وخالف السكاكي وبدر الدين في بحث الفصاحة ولم يبحثها بعد موضوعات البيان ولم يدخلها في البديع ، وانما جعلها مقدمة للتلخيص والايضاح • وفي هذه المقدمة ــ التي كانت كشفا عن معنى الفصاحة والبلاغة وانحصار علم البلاغة في المعاني والبيان ــ تكلم على صفات الالفاظ وما ينبغي ان تكون عليه • وبحثه ــ وإن لم يكن عميقا عمق

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٩٦ ــ ١٩٧ •

(٢) المصباح ص ٧٥ •

بحث ابن سنان وابن الاثير ــ ، كان ايذانا بجعله مقدمة لعلوم البلاغة منذ عصره حتى اليوم •

رأي القزويني :

بدأ القزويني مقدمته في الفصاحة بقوله : « للنـــــاس في تفسير الفصاحة والبلاغة أقوال مختلفة لم أجد ــ فيما بلغني منها ــ ما يصلح لتعريفهما به ، ولا ما يشير الى الفرق بين كون الموصوف بهما الكلام ، وكون الموصوف بهما المتكلم ، فالاولى ان نقتصر على تلخيص القول فيهما بالاعتبارين »[1] • وهذا اغراق في الغلو ، واسراف في الابتعادعن الحقيقة ، لان النقاد والبلاغيين اهتموا بهما ، ووضعوا لهمــــا حدودا وفرّقوا بينهما في مختلف العصور ، وكانت البحوثالتي كتبها الجاحظ، وقدامة بن جعفر ، وأبو هلال العسكري ، وابن سنان الخفاجي ، وعبد القاهر الجرجاني ، وضياءالدين بن الاثير ، من خيرة ما كتب ، وأروع ما خطته يد بلاغي ناقد •

لقد ذكر أبو هلال أنّ بعضهم قال : إنّ الفصـــاحة من قولهم : أفصح فلان عما في نفسه اذا اظهره • والشاهد على انها هي الاظهارقول العرب : « افصح الصبح » اذا اضاء ، و « افصح اللبن » اذا انجلت عنه رغوته فظهر وفصح • واذا كان الامر على هذا ، فالفصاحة والبلاغـــة ترجعان الى معنى واحد وان اختلف اصلاهما ، لان كل واحد منهما انما هو الابانة عن المعنى ، والاظهار له • وذكر عن بعضهم أنّ الفصاحة تمام آلة البيان ، فلهذا لا يجوز أن يسمى الله تعالى فصيحاً، اذ كانتالفصاحة تتضمن معنى الآلة ، ولا يجوز على الله تعالى الوصفُ بالآلة ، ويوصف كلامه بالفصاحة لما يتضمن من تمام البيان • والدليل على ذلك ان الالثغ والتمتام لا يسميان فصيحين لنقصان آلتهما عن اقامة الحروف فعلىهذا تكون الفصاحة والبلاغة مختلفتين وذلك ان الفصاحة تمام آلة البيـــان فهي مقصورة على اللفظ ، لان الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى ، والبلاغة

---

(٣) الايضاح ص ٢ •

انما هي انهاء المعنى الى القلب فكأنها مقصورة على المعنى[1] .

وذكر ابن سنان ان الفصاحة الظهور والبيان ، ومنها « أفصح اللبن » اذا انجلت رغوته وفصح فهو فصيح . قال الشاعر :

وتَحت الرغوةِ اللَّبَنُ الفصيحُ

ويقال : « افصح الصبح » اذا بدا ضوءه ، و « افصح كل شيء » اذا وضح . وسمي الكلام الفصيح فصيحا ، كأنهم سموه بيانا لاعرابه عما عبر به عنه واظهاره له اظهارا جليا[2] .

والفرق بين الفصاحة والبلاغة عنده أن « الفصاحة مقصورة على وصف الالفاظ ، والبلاغة لا تكون الا وصفا للالفاظ مع المعاني . لا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة ، وإن قيل فيها فصيحة . وكل كلام بليغ فصيح ، وليس كل فصيح بليغا »[3] .

وذكر ابن الاثير أنَّ الكلام الفصيح هو الظاهر البَيِّنُ ، والفرق بين البلاغة والفصاحة ان الاولى شاملة للالفاظ والمعاني وهي أخص من الفصاحة كالانسان من الحيوان فكل انسان حيوان ، وليس كل حيوان انسانا . وكذلك يقال كل كلام بليغ فصيح ، وليس كل كلام فصيح بليغا . ولا تكون البلاغة الا في اللفظ والمعنى بشرط التركيب فان اللفظة الواحدة لا يطلق عليها اسم البلاغة ويطلق عليها اسم الفصاحة ، اذ يوجد فيها الوصف المختص بالفصاحة وهو الحسن، وأما وصف البلاغة فلا يوجد فيها لخلوها من المعنى المفيد الذي ينتظم كلاما[4] .

وليس ما كتبه القزويني في الفصاحة والالفاظ الا خلاصة هذه البحوث ، فكيف — إذَنْ — لم يترك القدماء تعريفا للفصاحة او البلاغة

(١) كتاب الصناعتين ص ٧ — ٨ .
(٢) سر الفصاحة ص ٥٩ .
(٣) سر الفصاحة ص ٦٠ .
(٤) المثل السائر ج١ ص ٦٩ — ٧٠ .

يمكن الاعتماد عليه والاستنارة به . ولعله متأثر في هـــذه الدعوى بعبد القاهر الذي يقول : « لم أزَل منذ خدمت العلم أنظر فيما قالــه العلماء في معنى الفصاحة ، والبلاغة ، والبيان ، والبراعة ، وفي بيـــان المغزى من هذه العبارات ، وتفسير المراد بها ، فأجد بعض ذلك كالرمز والاشارة في خفاء ، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليطلب ، وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج . وكما يفتح لك الطريق الى المطلوب لتسلكه وتوضع لك القاعدة لتبني عليها ، ووجدت المعول على انها ههنا نظما ، وترتيبا ، وتأليفا ، وتركيبا ، وصياغة ، وتصويرا ، ونسجا ، وتحبيرا . وان سبيل هذه المعاني في الكلام الذي هي مجاز فيه سبيلها في الانشاء التي هي حقيقة فيها »[1] .

ويقول في مكان آخر : « انا لم نَرَ العقلاء قد رضوا من انفسهم في شيء من العلوم ان يحفظوا كلاما للاولين ، ويتدارسوه ، ويكلم بــه بعضهم بعضا من غير ان يعرفوا له معنى ، ويقفوا منه على غرض صحيح ، ويكون عندهم ان يسألوا عنه بيان له وتفسير ، إلا علم الفصاحة ، فانك ترى طبقات من الناس يتداولون فيما بينهم الفاظا للقدماء ، وعبارات من غير ان يعرفوا لها معنى اصلا ، او يستطيعوا أن يسألوا عنها ان يذكروا لها تفسيرا يصح »[2] .

وهذا صحيح بالنسبة للقرون الاولى ، ولعبد القاهر الذي لم يفرق بين الفصاحة والبلاغة ، لانهما عنده يعبر بهما عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا ، وتكلموا وأخبروا الســـامعين عن الاغراض والمقاصد ، وراموا ان يعلموهم ما في نفوسهم ، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم[3] . والفصاحة والبلاغة والبراعة والبيان مترادفات عنده ، امــا بالنسبة للقزويني فغير صحيح ، لانه قد استقرت قبله هذه المصطلحات ،

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٨ ـ ٢٩ .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٣٥٠ .

(٣) دلائل الاعجاز ص ٣٥ .

واصبح للفصاحة مدلولها وللبلاغة مفهومها . وكان ابن سنان ، وابن الاثير قد سبقاه الى ذلك ، ووضعا كل شيء وأتماه ، وان كان ابن الاثير قد دعا الى مثل ما دعا اليه القزويني ورأى ان هذا الباب متعذر على الباحث ، وان القدماء لم يكشفوا أمره ويوضحوا معناه وان ما ذكروه ليبعث الحيرة[1] .

والفصاحة والبلاغة عند القزويني تقع كل واحدة منهما صفة لمعنيين :

أحدهما : الكلام كما في قولك : « قصيدة فصيحة او بليغة » ، و « رسالة فصيحة او بليغة » .

والثاني : المتكلم كما في قولك : « شاعر فصيح او بليغ »، و« كاتب فصيح او بليغ » .

ويرى أبو هلال أن البلاغة من صفة الكلام لا من صفة المتكلم ، فلهذا لا يجوز ان يسمى الله تعالى بليغا اذ لا يجوز ان يوصف بصفة كان موضوعها الكلام ، واما تسمية المتكلم بليغا فتوسع ، وحقيقته ان كلامه بليغ كما تقول فلان رجل محكم ، ثم كثر استعمال ذلك حتى صار كالحقيقة ويرى أنه لا يجوز ان يسمى فصيحا ، لان الفصاحة تتضمن معنى الآلة وهي اللسان[2] .

فصاحة اللفظة المفردة

والفصاحة خاصة تقع صفة للمفرد ، فيقال : كلمة فصيحة ، ولا يقال كلمة بليغة ، ووضع القزويني للفظة المفردة شروطا هي : خلوصه من تنافر الحروف ، والغرابة ، ومخالفة القياس اللغوي .

---

(١) ينظر المثل السائر ج١ ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٢) الايضاح ص ٢ وكتاب الصناعتين ص ٦ .

التنافـر :

فالتنافر منه تكون الكلمة بسببه متناهية في الثقـل على اللسـان وعسر النطق بها كما روى ان اعرابيا سئل عن ناقته فقال : « تركتهـا ترعى الهعخع » • ومنه ما هو دون ذلك كلفظ « مستشـزر » في قول امريء القيس :

غدائـِرُهـا مستشزراتٌ الى العلى   تَضل العقاص في مُثَنى ومُرْسَلِ

ولم يشرح القزويني هذا التنافر ، ولم يذكر سببه ، وكان ابن سنان قد علل ذلك بقوله : « وعلة هذا واضحـة وهي ان الحروف التي هي اصوات تجري من السمع مجرى الالوان المتقاربة ، ولهذا كان البياض مع السواد احسن منه مع الصفرة ، لقرب ما بينه وبين الاصفر وبعـد ما بينه وبين الاسود واذا كان هذا موجودا على هذه الصفة لا يحسن النزاع فيه كانت العلة في حسن اللفظة المؤلفة من الحروف المتباعدة هي العلة في حسن النقوش اذا مزجت من الالوان المتباعدة »[1] •

لقد جمعت لفظة « الهعخع » القبح من اطرافه ، لان جميع حروفها حلقية ، وحرف حلقي واحد يبعث على النفرة والثقل فكيف اذا اجتمع الهاء والعين والخاء في كلمة واحدة ؟ ولفظة « مستشزرات » ــ وان كانت اخف منها ــ ثقيلة لتوسط الشين التي هي من الحروف المهموسة الرخوة بين التاء التي هي من المهموسة الشديدة ، وبين الزاي التي هي من المجهورة الرخوة • ويرى النقاد ان امرء القيس لو قال:«مستشرف» لزال الثقل •

الغرابـة :

والغرابة أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها فيحتاج في معرفته

---

(١) سر الفصاحة ص ٦٦ •

الى ان ينقر في كتب اللغة المبسوطة ، كما روي عن عيسى بن عمر النحوي انه سقط عن حمار فاجتمع عليه الناس ، فقال : « ما لكم تكأكأتم عليَّ تكأكؤكم على ذي جنة ، افرنقعوا عني » .

أو يخرج له وجه بعيد كما في قول العجاج :

وفاحماً ومرسنا مُسَرَّجا

فانه لم يعرف ما اراد بقوله « مسرجا » حتى اختلف في تخريجه ، فقيل : هو من قولهم للسيوف « سريجية » منسوبة الى قين يقال له سريج، يريد انه في الاستواء والدقة كالسيف السريجي . وقيل : من السراج ، يريد انه في البريق كالسراج وهذا يقرب من قولهم : « سَرُج وجهه » ، أي : حسن و « سَرَّجَ اللهُ وَجْهَهُ » ، أي : بهجه وحسنه .

وهذا بحث اهتم به النقاد العرب، ويروى ان عمربن الخطاب(رضي) مدح زهير بن ابي سلمى بمجانبته المعاظلة وقال : « وكان لا يعاظل بين الكلام »[1] .

وتكلم ابن سنان عليه وعاب الذين يكثرون من الوحشي الغريب في كلامهم ، وبَيَّنَ ما وقع فيه بعضهم فخرج كلامه عن الفصاحة وبعد الفهم . يقول عن بعضهم : « وقد رأيت أنا جماعة يتعمدون هذا فقلت لهم : إنْ سررتم بمعرفتكم وحشي اللغة ، فيجب ان تغتموا بسوء حظكم من البلاغة »[2] . ويرى أنَّ البدوي صاحب الطبع اعذر من القروي المتكلف ، لان هذا لا يعرف هذه الامور الا بعد البحث والطلب وتجشم العناء في التصفح . ويرى ابن الاثير ان الوحشي ليس المستقبح من الالفاظ ، وانما هو قسمان :

احدهما غريب حسن ، والآخر غريب قبيح ، وذلك انه منسوب الى

---

(١) نقد الشعر ص ١٠٣ .

(٢) سر الفصاحة ص ٧٥ .

اسم الوحشي الذي يسكن القفار وليس بأنيس ، وكذلك الالفاظ التي لم تكن مأنوسة الاستعمال • وليس من شـــرط الوحشي أن يكون مستقبحا ، بل أن يكون نافرا لا يألف الانس فتارة يكون حسنا وتارة يكون قبيحا ، وعلى هذا فان احد قسمي الوحشي وهو الغريب الحسن مختلف باختلاف النسب والاضافات ، وأما القسم الآخر من الوحشـي الذي هو قبيح ، فانّ الناس في استقباحه سواء ، ولا يختلف فيـــه عربي بادي ، ولا قروي متحضر • وأحسن الالفـــاظ ما كان مألوفا متداولا ، لانه لم يكن مألوفا الا لمكان حسنه •

والالفاظ تنقسم ثلاثة اقسام : قسمان حسنان وقسم قبيـــح ، فالقسمان الحسنان : احدهما ما تداول استعماله الاول والآخر ولا يطلق عليه أنه وحشي ، والآخر ما تداول استعماله الاول دون الآخر •ويختلف في استعماله بالنسبة الى الزمن وأهله ، وهذا هو الذي لا يعاب استعماله عند العرب لانه لم يكن عندهم وحشيا ، وهو عندنا وحشي ، وقدتضمن القرآن الكريم منه كلمات معدودة وهي التي يطلق عليها «غريب القرآن»، وكذلك تضمن الحديث النبوي منه شيئا وهو الذي يطلق عليه « غريب الحديث » •

واما القبيح من الالفاظ الذي يعاب استعماله فلا يسمى وحشـــيا فقط بل يسمى الوحشي الغليظ ، ويسمى المتوعر ، وليس وراءه في القبح درجة اخرى ولا يستعمله الا اجهل الناس ممن لم يخطر بباله معرفـة هذا الفن[1] •

ولم يقسم القزويني الالفاظ الغريبة هذا التقسيم ، ولم يشرحها هذا الشرح وانما عرضها ملخصة ممثلة بمثالين لا قيمة لهما ، وإنْ كانـا يشيران في خفاء الى ان المقصود بالغريبة عنده ما خفي معناه واختلف في تفسيره ، وان كان المثال الاول يوحي بأن المقصود هو الغرابة في المعنى

---

(١) المثل السائر ج١ ص ١٥٥ ، ٥٧ ، ١٦٣ •

والوحشية في اللفظ . ولم يضع قاعدة ثابتة للوحشي او الغريب من الالفاظ ، ولم يشر الى مذهب اهل الحاضرة والبادية فيها .

مخالفة القياس اللغوي :

ومخالفة القياس كقول الشاعر :

الحَمْدُ للهِ العلي الأجْلَلِ   الواهب الفضل الكريمِ المجزلِ

فان القياس « الاجلّ » بالادغام . ولم يوضح القزويني مخالفة القياس ، ولا ندري هل المقصود ان تكون كلمة على خلاف ما ثبت عن واضع اللغة ، او المقصود مخالفة القياس الصرفي . ولكن الاستاذ عبد المتعال الصعيدي يقول : « وقد حمله على القياس الصرفي » وهو خطأ لان مخالفة القياس الصرفي لا تخل دائما بالفصاحة اذ توجد كلمات كثيرة فصيحة على خلافه ، وذلك مثل آل وماء ويأبى وعور ويعور »[1] .

وكان ابن سنان قد تكلم على هذا الشرط ، ووضّحه ، وأدخل فيه كل ما ينكره أهل اللغة ، ويرده علماء النحو من التصرف الفاسد في الكلمة . وقد يكون ذلك لاجل ان اللفظة بعينها غير عربية ، كما انكروا على أبي الشيص قوله :

وجناح مقصوصٍ تحيف ريشه   ريب الزمان تَحيّفَ المقراضِ

وقد تكون الكلمة عربية الا انها قد عبر بها عن غير ما وضعت له في عرف اللغة كما قال ابو تمام :

حلت محل البكر من معطى وقد   زفت من المعطى زفاف الأيّمِ

وقال البحتري :

يشق عليه الريحُ كلَّ عشية   جيوبَ الغمام بين بِكْرٍ وأيّمِ

(١) بغية الايضاح ج١ هامش ص ٩ .

وقد يكون على جهة الحذف من الكلمة كقول رؤبة بن العجاج :

قواطنـاً مكة من ورق الحمَـا[1]

وقد يكون على وجه الزيادة في الكلمة ، مثل ان يشبع الحركةفيها فتصير حرفا كما قال الشاعر :

وأنتَ على الغواية حين ترمى وعن عيبِ الرجالِ بمنتزاحِ

وقد يكون ايراد الكلمة على الوجه الشاذ القليل وهو اردأ اللغات فيها لشذوذه كقول المتنبي :

واذا الفتى طرح الكلام معرضاً في مجلس أخذ الكلام اللذ عنا

وقد يكون لان الكلمة بخلاف الصيغة في الجمع أو غيره كما قال الطرماح :

واكـره ان يعيب على قومي هجاي الارذلين ذوي الحنات

ومن هذا النوع ان يبدل حرف من حروف الكلمة بغيره او يظهر التضعيف فيها ، او ان يصرف ما لا ينصرف ، أو ان يمنع الصرف ما ينصرف ، او ان يقصر الممدود ، ويمد المقصور ، ويحـذف الاعراب للضرورة ، او ان يذكر المؤنث ويؤنث المذكر .

ويرى ابن سنان ان هذه واشباهها ، وان لم تؤثر في فصاحةالكلمة كبير تأثير فانه يؤثر صيانتها عنها ، لان الفصاحة تنبىء عن اختيـار الكلمة وحسنها وطلاوتها[2] .

هذا ما ذكره ابن سنان وفصّله ،بيد ان القزويني لم يشر الىهذا كله ، ولم يوضح قصده بمخالفة القياس ، وان كان المثـال الذي ذكره

---

(١) أي الحمام .

(٢) سر الفصاحة ص ٨٢ ـ ٩١ .

يوحي بأنه يريد مخالفة القياس الصرفي ، وهو تضييق للبحث ، وحصر له في ناحية معينة . وقد جال فيه ابن سنان من قبل ، وذكر مواضع مخالفة القياس ، ومثّل لها بما أظهر معناها . ولعل ولع المتأخرين بالاختصار ، والتقسيمات الجافة هي التي دفعت القزويني الى ان ينطق بعبارة ويسكت ، من غير ان يشرحها ، ويشير الى مواطن العيب في مخالفة القياس .

واضاف الى ذلك خلوص الكلمة من الكراهة في السمع بأن تمج الكلمة ويتبرأ من سماعها كما يتبرأ من سماع الاصوات المنكرة ، فان اللفظ من قبيل الاصوات ، والاصوات منها ما تستلذ النفس سماعه ، ومنها ما تكره سماعه كلفظة « الجرشّى » في قول أبي الطيب :

مبارك الاسم أغرّ اللقب كريم الجرشّى شريف النسب

ووضع القزويني قاعدة للفظة الفصيحة فقال : « ثم علامة كون الكلمة فصيحة أنْ يكون استعمال العرب الموثوق بعربيتهم لها كثيرا أو اكثر من استعمالهم ما بمعناها »(١) .

فصاحة الكلام :

وبعد ان انتهى القزويني من بحث فصاحة اللفظة المفردة ، تحدث عن فصاحة الكلام ، وهي : خلوصه من ضعف التأليف ،وتنافر الكلمات، والتعقيد مع فصاحتها .

ضعف التأليف :

ومثل لضعف التأليف بقوله : « ضرب غلامه زيدا » . وهوممتنع عندالجمهور لئلا يلزم رجوعه الى ما هو متأخر لفظا ورتبه ، ورد علىمن يذهب الى أن بيت النابغة الذبياني :

(١) الايضاح ص ٤ .

جزى ربُّه عني عديَّ بنَ حاتِمٍ جزاءَ الكلاب العاويات وقدْ فعَل

من هذا النوع ، وقال : إنَّ الضمير في « ربه » لمصدر « جزى » ، اي: رب الجزاء كما في قوله تعالى : « اعْدِلُوا هو أقْربُ للتقوى »[1] • أي : العدل •

التنافر :

والتنافر ما تكون الالفاظ بسببه متناهية في الثقل على اللسان وعسر النطق بها ، متتابعة كما في البيت الذي انشده الجاحظ :

وقَبْرُ حَرْبٍ بمكانٍ قَفْرٍ وليس قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قبرُ

ومنه ما دون ذلك كقول ابي تمام :

كريمٌ متى أمدحه أمدحه والورى مَعْي ، وإذا ما لمته لمته وحدي

وسبب التنافر في « أمدحه » ما بين الحاء والهاء من تنافر ، لانهما حرفان حلقيان • وهذا ما اشار اليه الجاحظ من قبل قائلا : « ومن الفاظ العرب الفاظ تتنافر وان كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد انشادها الا ببعض الاستكراه »[2] • ومَثَّلَ له بالبيت المتقدم، ثم قال : « ومن ذلك قول ابن يسير في احمد بن يوسف حين استبطأه :

هل مُعينٌ على البكا والعويلِ أمْ مُعَزٍّ على المصابِ الجليلِ
مَيِّتٌ مات وهو في ورق العيش ، مقيم به وظلٍّ ظليلِ
في عِدادِ الموتى وفي عامرِ الدنيا ، أبو جعفر أخي وخليلي
لم يَمُتْ ميتةَ الوفاء ولكنْ ماتَ عن كلِ صالحٍ وجميلِ
لا أُذيلُ الآمالَ بعدك إنّي بعدها بالآمال جِدُّ بخيلِ

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٨ •

(٢) البيان والتبيين ج١ ص ٦٥ •

كم لها وقفة بباب كريمٍ رَجَعَتْ من نداه بالتعطيلِ
لم يضرْها والحمدُ لله شيءٌ وانثنت نحو عَزْفِ نَفسٍ ذهولِ

يقول : « فتفقد النصف الاخير من هذا البيت فانك ستجد بعض الفاظه يتبرأ من بعض »[1].

وذهب ابو الحسن على بن عيسى الرماني الى ان التأليف على ثلاثة أضرب : متنافر ، ومتلائم في الطبقة الوسطى ، ومتلائم في الطبقة العليا . ومَثَّلَ للتأليف المتنافر بالبيت السابق ، وللتأليف المتلائم في الطبقة الوسطى ، وهو من أحسنها ، بقول الشاعر :

رَمَتْنِي وسترُ اللهِ بيني وبينَها عشيةَ آرام الكناسِ رميمُ
رميم التي قالت لجيران بَيْتِها ضَمِنْتُ لكم ألاّ يزالَ يَهيمُ
ألا رُبَّ يومٍ لو رمتني رميتُها ولكنَّ عهدي بالنِضالِ قديمُ

والمتلائم في الطبقة العليا القرآن كله[2] .

ولم يعجب ابن سنان بهذا التقسيم وقال : إنَّ القسمة فاسدة ، لان التأليف على ضربين : متنافر ومتلائم . وقد يقع في المتلائم ما بعضه أشد تلاؤما من بعض على حسب ما يقع التأليف عليه ، ولا يحتاج أن يجعل ذلك قسما ثالثا . وقد اراد ابن سنان من هذا ان يؤيد دعواه بأن لا فرق بين القرآن وفصيح الكلام المختار ، ومتى ما رجع الانسان الى نفسه وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار ، وجد في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه[3] . وذكر الامثلة التي ذكرها القزويني وانتهى الى انه اذا كان يقبح تكرار الحروف المتقاربة المخارج ، فتكرار الكلمة بعينها أقبح ، وأشنع الا اذا كانت هنالك اعتبارات اخرى .

---

(١) البيان والتبيين ج١ ص ٦٦ .
(٢) النكت في اعجاز القرآن ص ٨٧ — ٨٨ .
(٣) سر الفصاحة ص ١٠٩ — ١١٠ .

التعقيـد :

والتعقيد أنْ لا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المراد به ، ولـه سببان

احدهما : ما يرجع الى اللفظ وهو أن يختل نظم الكلام ولا يدري السامع كيف يتوصل منه الى معناه كقول الفرزدق :

وما مثلُه في الناسِ إلا مُملكـاً أبو أمِه حيٌّ أبوهُ يقارِبُـهْ

ووضع القزويني قاعدة للكلام الخالي من التعقيد اللفظي ، وقـال انه : « ما سلم نظمه من الخلل فلم يكن فيه ما يخالف الاصل من تقديم او تأخير ، او اضمار ، أو غير ذلك الا وقد قامت عليه قرينة ظاهرة لفظية أو معنوية »[1] .

وهذا ما تكلم عليه عبد القاهر ، وسمّاه « التعقيد » او « فسـاد النظم » ، يقول : « وأما التعقيد ، فانما كان مذموما لاجـل ان اللفظ لم يرتب الترتيب الذي بمثله تحصل الدلالة على الغرض حتى احتـاج السامع ان يطلب المعنى بالحيلة ، ويسعى اليه من غير الطـريق »[2] . وتحدث عنه في « دلائل الاعجاز » و « اسرار البلاغة » ومَثّلَ له ببيت الفرزدق السابق ، وبيت المتنبي :

الطّيبُ أنتَ اذا أصابك طيبُـه والماءُ أنْتَ اذا اغتسلت الغاسلُ

وقولـه :

وفاؤكمـا كالرَّبعِ أشـجاه طاسـمُه
بأنْ تَسْعِدا والدَّمْعُ أشـفاه سـاجِمُه

---

(١) الايضـاح ص ٦

(٢) اسرار البلاغة ص ١٦٢ .

وقول أبي تمـام :

ثانيه في كَبِدِ السَّماءِ ولم يَكُنْ كاثنين ثانٍ إذْ هما في الغـارِ

وقوله :

يَدي لمن شـاء رَهْنٌ لم يَذُقْ جُرَعاً
من راحتيـه دَرى مـا الصَّـابُ والعَسَلُ

وقال عن بيت الفرزدق : « فخـذ اليك الآن بيت الفرزدق الذي يضرب به المثل في تعسف اللفظ فانظر أتتصور أنْ يكون ذلك للفظه من حيث انك انكرت شيئا من حروفه ، أو صادفت وحشيا غريبا أو سوقيا ضعيفا ، أم ليس إلا لانه لم يرتب الالفاظ في الذكر على موجب ترتيب المعاني في الفكر ، فَكَدَّ ، وكَدَّرَ ، ومنع السامع ان يفهم الغرض الا بأن يقدم ويؤخر . ثم أسرف في ابطال النظام وابعاد المراد وصـار كمن رمى باجزاء تتألف منها صورة ولكن بعد أن يراجع فيها بابا من الهندسة لفرط ما عادى بين اشكالها وشدة ماخالف بين اوضاعها »[1] .ويرى أنّ الابيات الاخرى ذمت ، لانها احوجت الى فكر زائد على المقدار الذي يجب في مثله وكدت بسوء الدلالة واودع المعنى في قالب غير مستو ولا مملس . وهذا راجع كله الى سوء النظم ، والترتيب ، ووضع الكلمات في غير مواضعها ، واحلالها في غير أماكنها .

وأدخله ابن سنان في بحث التقديم والتأخير ، واعتبره ابن الاثير من المعاظلة المعنوية التي يسببها التقديم والتأخير[2] ، ولكن القزويني ادخله في بحث الالفاظ او الفصاحة .

والثاني : ما يرجع الى المعنى ، وهو ان لا يكون انتقال الذهن من

---

(١) اسرار البلاغة ص ٢٦ ، وينظر دلائل الاعجاز ص ٦٥ ـ ٦٧ .

(٢) ينظر سر الفصاحة ص ١٢٥ ، والمثل السائر ج١ ص ٢٩٤ ، و ج٢ ص ٤٤ ومـا بعدهـا .

المعنى الاول الى المعنى الثاني الذي هو لازمه والمراد به ظـاهرا كقول العباس بن الأحنف :

سـأطْلُبُ بُعْـدَ الدارِ عنكم لتقـرُبُوا
وتسكبُ عينـاي الدموعَ لتَجْمُـدَا

كَنَّى بسكب الدموع عما يوجبه الفراق من الحزن وأصاب ،لانَّ من شأن البكاء ان يكون كناية عنه ، كقولهم :

« أبكاني واضحكني » ، أي : أساءني وسرني ، كما قال الحماسي:

أبكـاني الدَّهْرُ ويا ربمـا أضحكني الدَّهْرُ بما يُرْضِي

ثم طرد ذلك في نقيضـه فاراد أن يكني عما يوجبـه دوام التلاقي من السرور بالجمود ، لظنه ان الجمود خلو العين من البكاء مطلقا من غير اعتبار شيء آخر ، يقول : « وأخطأ لان الجمود خلو العين من البكاء في حال ارادة البكاء منها ، فلا يكون كناية عن المسرة ، وانما يكون كناية عن البخل كما قال الشاعر :

ألا انَّ عيناً لم تَجُدْ يومواسِطٍ عليك بجاري دَمْعِها لجَمودُ(١)

وهو كلام عبدالقاهر في « دلائل الاعجاز » .

وضبط الكلام الخالي عن التعقيد المعنوي فقال عنه : « ما كـان الانتقال من معناه الاول الى معناه الثاني الذي هو المراد به ظاهرا حتى يخيل الى السامع انه فهمه من حاق اللفظ »(٢) .

وأضاف الى ذلك خلوص الكلام من كثرة التكرار كقول المتنبي :

وتُسْعِدُني في غَمرةبعدغَمْرةٍ سبوح لهـا منها عليها شـواهد

(١) الايضـاح ص ٦ .
(٢) الايضـاح ص ٦ .

وأنكر أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب تكرر حروف الرباطات وقال في كتابه « الخراج وصناعة الكتابة » : فأما « له منه » أو « منه عليه » او « به له » او ما جرى هذا المجرى ففيه قبح . وسبيل ذلك إذا وقع ان يحتال في فصل ما بين الحرفين بكلمة مثل أن يأتي ما يحتاج الى ان يقال فيه : أقمت شهيدا به عليه فيقال : أقمت عليه شهيدا به »[1] .

وقال أبو هلال : « وينبغي ان تتجنب اعـادة حروف الصلات والرباطات في موضع واحد اذا كتب مثل : منه له عنه ، أو عليه فيه ، أو به له منه »[2] . ويرى انه لا يعرف أحدا كان يتتبع العيوب فيأتيها غير مكترث الا المتنبي فانه ضمن شعره جميع عيوب الكلام ما أعدمه شيئا منه حتى تخطى الى هذا النوع كبيته السابق فاتى من الاستكراه بما لا يطار غرابه .

وعقد ابن الاثير فصلا في الالفاظ المركبة عن المعاظلة اللفظية ، تكلم فيه على هذه النقطة وقسمها الى خمسة أقسام[3] :

الاولى : ما يختص بادوات الـكلام نحو : « من » و « الى » و « عن » و « على » واشباهها كقول المتنبي :

تبيت وفودُهم تسري اليـه ... وجدواه التي سألوا اغتفارُ
فخلفهم بـرد البيض عنهم ... وهـامهم لـه معهم معارُ

والثـاني : يختص بتكرار الحروف ، وهو الذي ذكره الجـاحظ والقزويني عن البيت :

وقبـر حـرب بمكان قفـر ... وليس قرب قبر حرب قبـرُ

والثالث : أنْ ترد الالفاظ على صيغة الفعل يتبع بعضها بعضا،فمنها

---

(١) سر الفصاحة ص ١١٨ .

(٢) كتاب الصناعتين ص ١٦٠ .

(٣) المثل السائر ج١ ص ٢٩٢ وما بعدها .

ما يختلف بين ماضٍ ومستقبل ، ومنهـــا ما لا يختلف • فالاول كقول القاضي الارجاني في أبيات يصف فيها الشمعة :

بالنار فرقت الحوادثُ بيننـــا وبها نذرت أعود أقتـــل روحي

فقوله : « نذرت أعود اقتل » من المعاظلة • وأما ما يرد على نهج واحد من الصيغة الفعلية فكقول أبي الطيب المتنبي :

أقل ، انل ، اقطع ، احمل ، عل ، سل ، أعـــد ،
زد ، هش ، بش ، تفضّ ، ادن ، ســر ، صــل

فهذه الفاظ جاءت على صيغة واحدة وهي صيغة الامر كأنه قال « افعل أفعل » • وهذا تكرار للصيغة وان لم يكن تكرارا للحروف الاانهاخوه، وهذه الفاظ متراكبة متداخلة ، ولو عطفها بالواو لكان أقرب حالا كمـــا قال عبدالسلام بن رغبان :

فَسد الناسُ فاطلب الرزقَ بالسيفِ وإلا فمت شـــديدَ الهزالِ
أحل،وامرر،وضر،وانفع ، ولن ، واخشن،وابرز ، ثم انتدب للمعالي

ألا ترىانه لما عطف ههنا بالواو لمتتراكب الالفاظكتراكبهافي بيتالمتنبي•

والرابع : هو الذي يتضمن اضافات كثيرة كقولهم : « سرج فرس غلام زيد » ، وعليه قول الشاعر :

حمامة جرعا حومة الجندل اسجعي فانت بمرأى من ســـعاد ومســـمعِ

والخامس : ان ترد صفات متعددة على نحو واحد كقول المتنبي :

دان ، بعيـــد ، محـــب ، مبغض ، بهـــج ،
أغرّ ، حلو ، مـُمـّر ، لـــين ، شـــــرسُ
نـــد ، ابى ، غـَـــرٍ ، واف ، اخى ثقـــة
جعـــد ، ســـريٍ ، نــــه ، ندب ، رضى ندسُ

وهذا كأنه سلسلة ، وقليلا ما يوجد في أشعار الشعراء .

تتابع الاضافات :

ومما يتعلق بهذا خلو الكلام من تتابع الاضافات كقول ابن بابك :

حمامة جرعا حومة الجندل اسجعي   فانت بمرأى من سعاد ومسمعِ

وكان الصاحب بن عباد قد اشار الى ذلك كما ذكر عبد القاهر قائلا: اياك والاضافات المتداخلة فانها لا تحسن ، وذكر انها تستعمل في الهجاء كقول القائل :

يا علي بن حمزة بن عمارة   أنت والله ثلجة في خياره

ويرى القزويني ان هذا الشرط لا يؤخذ به دائما ، لان ذلك ان افضى باللفظ الى الثقل على اللسان فقد حصل الاحتراز عنه ، والا فلا تخل بالفصاحة وقد قال النبي (ص) : « الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم » . وهذا رأي عبد القاهر ، يقول: « لكنه اذا سلم من الاستكراه ملح ولطف » . ومما حسن فيه قول ابن المعتز :

وظلت تديرُ الراحَ أيدي جآذرٍ   عتاقِ دنانيرِ الوجوهِ ملاحِ

ومما جاء فيه حسنا جميلا قول الخالدي يصف غلاما له :

ويعرف الشِّعْرَ مثلَ معرفتي   وهو على أن يَزيدَ مجتهدُ
وصيرفي القريضِ ، وزّان دينارِ المعاني الدقاق منتقدُ[1]

وتكلم القزويني على هذا النوع في قسم المحسنات المعنوية ، وأطلق عليه اسم الاطراد ، وهو : « ان يأتي بأسماء الممدوح او غيره ، أو آبائه

---

(1) الايضاح ص ٨ ، ودلائل الاعجاز ص ٨٢ .

على ترتيب الولادة من غير تكلف في السبك حتى تكون الاســـماء في تحدرها كالماء الجاري في اطراده وسهولة انسجامه »[1] • كقول الشاعر:

إنْ يقتلوكَ فقدثَلَلْتَ عروشَهم بعتيبةِ بنِ الحارثِ بن شــهابِ

وقول دريد بن الصمة :

قتلنا بعبــدِ الله خــيرَ لِداتِــه ذؤاب بن اســماء بن زيد بن قارب

وفيه تعرض للمقتول به ولشرف المقتول • قيل لما سمعه عبدالملك ابن مروان قال : لولا القافية لبلغ به آدم ، ومنه كلام الرسول المتقدم •

وبذلك نجده قد تكلم على هذا الفن في موضعين مرة في الفصاحة، وتارة في البديع ، مع أن عبدالقاهر ذكره في النظم عندما يتحدفي الوضع، ويدق في الصنع •

ما يتعلق بالالفاظ المركبة :

ومما يتعلق بالالفاظ المركبة الفنون التي اطلق عليها القزويني اسم المحسنات اللفظية ، وهي في الواقع عظيمة الاهمية في دراسة الالفاظ بعد أن تدخل في الجمل وتكون العبارات • وينبغي أن تدخل هــذه الفنون في بحث الالفاظ ، لان لها قيمة في نقد الكلام ، ومعرفة جيده من رديئه، وجميله من قبيحه • واذا تابع القزويني شــيخَ المدرسة الكلاميـــة السكاكي فتحدث عنها في البديع ، فان دراستها هنا أجدى واكثر نفعا • وقــد ســبق الى ذلك علماء البلاغة العربيــة كأبن الاثير الذي قسم الصناعة اللفظية الى قسمين :

الاول : في اللفظة المفردة •

والثاني : في الالفاظ المركبة • وأدخل فيه السجع ، والتصــريع ،

---

(١) الايضــاح ص ٣٨٢ •

والتجنيس ، والترصيع ، ولزوم ما لا يلزم ، والموازنة ، واختلاف صيغ الالفاظ ، وتكرير الحروف •

ونحن ــ مع ايماننا بأن هذه الفنون ينبغي ان تبحث في هــــذا الفصل ــ ارجأنا بحثها الى فن البديع حتى لا نخرج عن المنهــج الذي اختطه القزويني لبلاغته •

* *

هذا بحث القزويني في الفصاحة والالفاظ ، وهو بحث جاف ليست له أهمية عظيمة ، وكان من المتوقع ان يبدع القزويني فيها بعد ان كتب ابن سنان ، وابن الاثير بحوثا مستفيضة عنها • ولكنه رجل ســيطرت عليه النزعة التعليمية ، فأحال البلاغة الى قواعد يحفظها الدارسون ، غير ملتفت الى ما تقدمه لهم من ثقافة تؤهلهم لتذوق الادب ، ومن مقاييس يزنون بها الكلام •

٣

المعنـــى :

اما ما يتعلق بالمعاني فان القزويني لم يصرح انه من أنصار المعنى ، وإنْ كان كلامه الذي ينقله عن عبدالقاهر يدل على ذلك • يقول وهو يتكلم على شرط الحسن في المحسنات اللفظية : « واصل الحسن في جميع ذلك ــ اعني القسم اللفظي ــ كما قال الشيخ عبدالقاهر ، هو ان تكون الالفاظ تابعة للمعاني ، فان المعاني اذا ارسلت على ســجيتها ، وتركت وما تريد ، طلبت لانفسها الالفاظ ولم تكتس الا ما يليق بهـا »[1] • ويفهم من هذا انه يدعو الى ان يكون اللفظ والمعنى متلازمين والا فلا قيمة للفظ نهتم به ، ونبذل جهدنا وطاقتنا لاجله ، ونترك المعنى • ومما يوضح هذا قوله : « فالبلاغة صفة راجعة الى اللفظ باعتبار افادته المعنى عند التركيب ، وكثيرا ما يسمى ذلك فصاحة »[2] • وهو بذلك يتابـع عبد القاهر الذي لا يرى مزية للفظ من غير تركيب ، وان النظم كل شيء ، ولذلك نرى القزويني يـوجِّه كلامه وتردده في البلاغة ، فتارة يراهـا راجعة الى المعنى دون اللفظ ، ومرة يصرح أن فضيلة الكلام للفظ لا لمعناه • يقول القزويني بعد ان نقل نصين من « دلائل الاعجـــاز »

(١) الايضـــاح ص ٤٠٠ •
(٢) الايضـــاح ص ١٠ •

للتدليل على الرأيين : « هذا لفظه وهو صريح في ان الكلام من حيث هو كلام لا يوصف بالفضيلة باعتبار شرف معناه • ولا شك ان الفصاحة من صفاته الفاضلة فلا تكون راجعة الى المعنى•وقد صرح فيما سبق بانها راجعة الى المعنى دون اللفظ فالجمع بينهما بما قدمناه بحمل كلامه حيث نفى انها من صفات اللفظ على نفي انها من صفات المفردات من غير اعتبار التركيب ، وحيث اثبت انها من صفاته على انها من صفاته باعتبار افادته المعنى عند التركيب »[1] •

وانه لبديهي ان يتجه القزويني اتجاه عبدالقاهر وهو احد رجال مدرسته البلاغية التي أوصلها السكاكي الى قواعد جافة ، وأصول تضيق بها صدور الدارسين •

ولم يضع القزويني مقاييس للمعاني ، لانه لم يكن ناقدا ذواقة كالامدي ، وابن الاثير ، وانما كان ناقدا بلاغيا يهتم بوضع القواعد ويحسن التقسيمات • ومع ذلك نستطيع أن نقول انه تكلم على كثير منها في كتابيه « التلخيص » و « الايضاح » ، فالصحة والخطأ والابتكار والتقليد ، والوفاء بالمعنى، والمقياس النفسي ، والصدق والكذب ، والابتداع والاتباع ، والوضوح والغموض ، والالفة والندرة ، أشار اليها في بحوثه البلاغية وان لم يفرد لها فصولا• ونرى ان تضم الى مقاييس المعنى ما ذكره في المحسنات المعنوية كالمبالغة ، وصحة التقسيم ، والمطابقة ، وقد آثرنا بحثها في علم البديع متابعة للقزويني في منهجه ، وان كان قدامة بن جعفر ، وابن الاثير ، والنقاد الآخرون قد ذكروها في مقاييس المعاني •

---

(١) الايضاح ص ١١ •

الفصل الثاني

علم المعاني

لا نعرف احدا قبل السكاكي استعمل مصطلح المعاني، وأطلقه على قسم من علوم البلاغة . وكل ما نعرف ان عبارة معاني النحو وردت في المناظرة التي قامت بين الحسن بن عبدالله المرزباني المعروف بابي سعيد السيرافي (٣٦٨ هـ) ، وأبي بشر متى بن يونس في مجلس الوزير ابي الفتح بن جعفر بن الفرات . يقول السيرافي « معاني النحو منقسمة بين حركات النحو وسكناته ، وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير ، وتوخي الصواب في ذلك،وتجنب الخطأ في ذلك ، وإنْ زاغ شيء عن النعت فانه لا يخلو ان يكون سائغا بالاستعمال النادر ، والتأويل البعيد ، او مردودا لخروجه عن عادة القوم الجارية على فطرتهم »[1] .

وكان لنظرية النظم أثرٌ كبير في اظهار هذا النوع من الدراسات البلاغية ، وقد وضحت معالم هذه النظرية وبلغت أوْجَ نضجها على يدي عبد القاهر الذي اعاد وكرر في اثباتها والتأكيد عليها . والنظم عنده

---

(١) المقابسات ص ٨٠ ، ومعجم الادباء ج٨ ص ٢١٤

ليس الا « ان تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه واصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت ، فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك ، فلا تخل بشيء منها »[1] .

إنّ النظم عنده ليس إلا توخي معاني النحو وأحكامه بين الكلمة ، ولا يقصد بالنحو معناه الضيق الذي فهمه المتأخرون وانما يريد المعاني الاضافية التي يصورها النحو . وبذلك رسم في « دلائل الاعجاز» طريقا جديدا للبحث النحوي تجاوز اواخر الكلمة وعلامات الاعراب ، وبين ان للكلام نظما ، وأنّ رعاية هذا النظم واتباع قوانينه هي السبيل الى الابانة والافهام . وبرهن على أهمية النظم ، ورجوع مزية الكلام اليه بقوله : « فلو انك عمدت الى بيت شعر ، أو فصل نثر ، فعددت كلماته عدا كيف جاء واتفق وابطلت نضده ونظامه الذي عليه بني وفيه افرغ المعنى واجري ، وغيّرت ترتيبه الذي بخصوصيته افادكما افاد، وبنسقه المخصوص ابان المراد نحو ان تقول في « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » : « منزل قفا من نبك حبيب » ، اخرجته من كمال البيان الى محال الهذيان »[1] .

وكان عبدالقاهر سباقا الى شرح نظرية النظم ومن اوائل الذين حللوا الكلام تحليلا يعتمد على نظرية النظم . ومنهجه منهج اللغوي لانه اهتم بالنحو بمعناه الواسع ، يقول الدكتور محمد مندور عن هذا المنهج : « أنه يستند الى نظرية في اللغة ، أرى ويرى معي كل من يمعن النظر ، انها تماشي ما وصل اليه علم اللسان الحديث من آراء . ونقطة البدء تجدها في آخر « دلائل الاعجاز » حيث يقرر المؤلف ما قرره علماء اليوم من ان اللغة ليست مجموعة من الالفاظ ، بل مجموعة من العلاقات sesteme des rapports . وعلى هذا الاساس العام بنى

(١) دلائل الاعجاز ص ٦٤

(٢) اسرار البلاغة في ٨ .

عبد القاهر كل تفكيره اللغوي الفني »[1] .

وأثّرت نظرية النظم في البلاغة ، فأدخلها البلاغيون في بحوثهم ، وجعلوها أحد أقسام البلاغة الثلاثة ، وهو « علم المعاني » . ولكن ما هذه المباحث التي اطلق عليها عبد القاهر اسم النظم ؟

يقول : « اعلم ان ليس النظم الا ان تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها . وذلك انا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير ان ينظر في وجوه كل باب وفروقه فينظر في الخبر الى الوجوه التي تراها في قولك :«زيد منطلق » ، و « زيد ينطلق » ، و « ينطلق زيد » ، و « منطلق زيد » ، و « زيد المنطلق » ، و « والمنطلق زيد » ، و « زيد هو المنطلق » ، و « زيد هو منطلق » .

وفي الشرط والجزاء الى الوجوه التي تراها في قولك:« إنْ تخرجْ أخرجْ » ، و « إنْ خرجتَ خرَجْتُ » ، و « إنْ تخرجْ فانا خارجٌ » ، و « أنا خارج إنْ خرجتَ »،و « أنا إنْ خرجتَ خارجٌ » » .

وفي الحال الى الوجوه التي تراها في قولك : « جاءني زيدمسرعا»، و « جاءني يسرع » ، و « جاءني وهو مسرع » او « هو يسرع » ، و « جاءني وقد اسرع » ، فيعرف لكل من ذلك موضعه ، ويجيء به حيث ينبغي له .

وينظر في الحروف التي تشترك في معنى لم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى فيضع كلا من ذلك في خاص معناه نحو أنْ يجيء بـ « ما » في نفي الحال ، وبـ « لا » اذا اراد نفي الاستقبال وبـ « إنْ » فيما يترجح بين ان يكون وان لا يكون ، وبـ « اذا » فيما علم انه كائن .

---

(1) الميزان الجديد ص ١٤٧ ، وينظر النقد المنهجي عند العرب ص ٣٢٨ .

وينظر في الجمل التي تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع « الواو» من موضع«الفاء»، وموضع « الفاء » من موضع « ثم » وموضع « او » من موضع « أم »، وموضع « لكن » من موضع « بل » .

ويتصرف في التعريف والتنكير ، والتقديم والتأخير في الكلام كله، وفي الحذف والتكرار ، والاضمار والاظهار فيضع كلا من ذلك مكانه، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له .

هذا هو السبيل ، فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إنْ كان صوابا وخطؤه إنْ كان خطأ الى النظم ويدخل تحت هذا الاسم الا وهو معنى من معاني النحو قد اصيب به موضعه ، ووضع في حقه أو عومل بخلاف هذه المعاملة ، فازيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له . فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم او فساده ، او وصف بمزية وفضل فيه ، إلا وانت تجد مرجع تلك الصحة ، وذلك الفساد ، وتلك المزية،وذلك الفضل الى معاني النحو وأحكامه ، ووجدته يدخل في أصل من اصوله،ويتصل بباب من ابوابه »[1] .

فالنظم عند عبد القاهر ــ كما يتضح من هذا النص ــ يشمل الخبر، وأركان الجملة ، وما يحدث فيها من تقديم وتأخير ، وكون المسند اسما او فعلا ، وما يتعلق بالمسند والمسند اليه من شرط وحال . ويشمل الفصل والوصل ومعرفة مواضعهما ، ومعاني « الواو » و « الفاء» و « ثم » و « بل » و « لكن » وغيرها من ادوات العطف . ويشمل التعريف والتنكير ، والحذف والذكر ، والاضمار والاظهار .

وليست هذه الموضوعات الا مباحث « علم المعاني » الذي حصره

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٦٤ ــ ٦٥ .

السكاكي بقوله : « إنّ علم المعاني ، هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الافادة ، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره »[1] .

تساؤل :

ومع ان احدا لم يطلق مصطلح « علم المعاني » على بعض بحوث البلاغة قبل السكاكي ، إلا أنّ الباحث ليحار حينما يجد مصطلحي « المعاني » و « البيان » مستعملين قبله . فالزمخشري يشير اليهما في الكشاف ، يقول وهو يتحدث عن التفسير : « ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق ؛ الا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما : « علم المعاني » و « علم البيان »[2] . وكلام الزمخشري هذا غير واضح ، لانه كثيرا ما يردد هذين المصطلحين ، وكثيرا ما يطلق مصطلح « البيان » على البلاغة كلها ، ولم يضع حدا بين موضوعات « علم المعاني » و « علم البيان » ، وإنْ ذكر كثيرا من موضوعاتهما . ولعل سبب ذلك انه لم يكن يبحث في علم البلاغة حينما الف « الكشاف » وانما كان يفسر القرآن الكريم ، ويوضح ما فيه من معانٍ سامية ، وما فيه من روعة وتأثير ، أما مسائل البلاغة فلم يذكرها الا لاظهار روعة القرآن واعجازه . ومن هنا كان « الكشاف » من اهم مصادر البلاغة وان لم يكن مؤلفا من اجلها .

ونراه يسمي البلاغة بديعا ، فهو في تفسير قوله تعالى : « أولئكَ الذين اشْتَرَوا الضَّلالَةَ بالهُدى ، فما رَبِحَتْ تِجارَتُهمْ وما كانوا مُهْتَدين »[3] ، يقول : « هذا من الصنعة البديعية التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا ، وهي ان تساق كلمة مساق مجاز »[4] .

---

(١) مفتاح العلوم ص ٧٧ .

(٢) الكشاف ج١ ص : ك

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٦ .

(٤) الكشاف ج١ ص ٥٣ .

ويخالف ما تعارف عليه البلاغيون احيانا ، فيجعل الالتفات من البيان ، ويقول في العدول عن لفظ الغيبة الى لفظ الخطاب : « قلت : هذا يسمى الالتفات في علم البيان »[1] .

وذكر فخر الدين الرازي (٦٠٦ هـ) مصطلحي « علم المعاني » و « علم البيان » ، ولكنه لم يعرفهما ، ويوضحهما ،ويحدد موضوعاتهما يقول وهو يتحدث عن الخبر : « ولكن الخبر هو الذي يتصور بالصور الكثيرة ، وتظهر فيه الدقائق العجيبة والأسرار الغريبة من علم المعاني والبيان »[2] . ويلاحظ ان عبارة « من علم المعاني والبيان » غامضة لا يفهم منها الا معنى عام وهو البلاغة بصورتها الواسعة ، اما معانيهما الخاصة التي حصرها السكاكي فلم يشر اليها الرازي وكأن المعاني والبيان عنده يرادفان البلاغة .

ويكرر السكاكي بعض العبارات مثل « صناعة علم المعاني » و « علماء علم المعاني » و « اذهان الراضة في علماء المعاني » و « أئمة علم المعاني »[3]،ولم يحدد معاني هذه العبارات ،ولا ندري ما المقصود بها ؟ ومَنْ علماء المعاني وأئمته ؟ لاننا لم نعثر في تاريخ البلاغة قبل السكاكي على علماء اختصوا بالمعاني وبحثوه كما بحثه السكاكي،وحدد موضوعاته ، ولم تكن البلاغة قبله مقسمة الى معانٍ وبيانٍ وبديع .

ولما كنا لم نستطع ان نتبين مفهوم المعاني قبل السكاكي ، ولم نستطع ان نعرف احدا كتب في علم المعاني قبله بالطريقة التي وصلت الينا عنه في مفتاح العلوم ، ما دامت هذه الامور لم تتضح مع ورود مصطلحي « المعاني » و « البيان » في « الكشاف » و « نهاية الايجاز » ، فاننا نستطيع على ضوء ذلك ان نقرر ان السكاكي اول من قسم البلاغة الى معانٍ وبيان ومحسنات ، وحدد موضوعاتها ،وأثبت قواعدها واصولها.

---

(١) الكشاف ج١ ص ١١ .
(٢) نهاية الايجاز في دراية الاعجاز ص ٣٦ .
(٣) مفتاح العلوم ص ٨١ ، ٩٥ ، ١١٩ ، ١٢١ .

وانه اول من اطلق على الموضوعات المتعلقة بالنظم مصطلح علم المعاني، وعلى الموضوعات التي تبحث في الصورة الادبية ، أي : التشبيه ، والمجاز والكناية ، مصطلح علم البيان . وانه اول من اطلق على غير هذين العلمين اسم المحسنات ، وقسَّمها الى ما يختص بالمعنى ، وما يتعلق باللفظ ، مع الاحتراز بانه لم يُسَمِّ هذه المحسنات بديعا ، وكان بدر الدين بن مالك هو الذي اطلق عليها هذا المصطلح في كتابه «المصباح» .

وسار القزويني على خطا السكاكي في بحث علم المعاني وهو عنده: « علم يعرف به احوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال»[1] . ولم يقبل تعريف السكاكي للمعاني وهو « تتبع خواص تراكيب الكلام في الافادة ، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره »[2] ، لان التتبع ليس بعلم ولا صادق عليه ، فلا يصح تعريف شيء من العلوم به .

وحصر علم المعاني في ثمانية ابواب : احوال الاسناد الخبري ، وأحوال المسند اليه ، واحوال المسند ، واحوال متعلقات الفعل، والقصر، والانشاء ، والفصل والوصل ، والايجاز والاطناب والمساواة . ووجه الحصر ان الكلام اما خبر ، او انشاء ، لانه اما ان يكون لنسبته خارج تطابقه او لا تطابقه ، او لا يكون لها خارج . الاول الخبر والثاني الانشاء . ثم الخبر لا بد له من اسناد ، ومسند اليه ، ومسند ، واحوال هذه الثلاثة هي الابواب الثلاثة الاولى . ثم المسند قد يكون له متعلقات اذا كان فعلا او متصلا به أو في معناه كاسم الفاعل ونحوه ، وهذا هو الباب الرابع . ثم الاسناد والتعلق كل واحد منهما يكون اما بقصد او بغير قصد وهذا هو الباب الخامس . والانشاء هو الباب السادس . ثم الجملة اذا قرنت باخرى فتكون الثانية اما معطوفة على الاولى ، او غير معطوفة ، وهذا هو الباب السابع . ولفظ الكلام البليغ اما زائد على

---

(١) الايضاح ص ١٢ .

(٢) مفتاح العلوم ص ٧٧ .

أصل المراد لفائدة او غير زائد عليه ، وهذا هو الباب الثامن •

وهذا المنهج يختلف عن منهج السكاكي في بحث موضوعات علم المعـاني كمـا رأينـا في فصل سابق ، وهو أقرب الى الكمال منه،لان القزويني ضم الموضوعات المتشابهة ووضعها تحت فصل واحد • وكان في طريقته اقل شكلية من السكاكي الذي مزق اوصال البلاغة شـر ممزق • ومع هذا لن تتخذ منهجه في بحث موضوعات علم المعاني عند القزويني ،لان فيه تمزيقا لموضوعات التقديم والتأخير،والذكروالحذف•

لقد تكلم في باب المسند اليه على الحذف والذكر ، والتعـريف والتنكير ، والتقديم والتأخير ، وعاد فذكر الموضوعات نفسها في فصل المسند وبذلك فرق الموضوعات المتشابهة وكان الاولى به ان يجمعهـا ويوحدها ، فيضع للتقديم والتأخير فصلا ، وللحذف والذكر فصلا ، وللتعريف والتنكير فصلا ، وبذلك يجعل لهذه الموضوعات قيمة وتأثيرا في التعبير • وقد صنع عبد القاهر وابن الاثير هذا الصنيع مـن قبل ، وضموا المتشابهات ، ووحّدوا الموضوعات ، وأخرجوا للناس كتبا من خيرة ما كتب في البلاغة العربية •

ونحن في دراستنا لعلم المعاني عند القزويني سنشير الى بحثه للجملة وما يتبعها من تقديم وتأخير ، وحذف وذكر وقصر ، وكلامه على الفصل والوصل ، وخوضه في الايجاز والاطناب • ولن نقف الا وقفـات نعرض ونوجه ونقارن •

الجملــة

الجملة الفاظ مركبة تدل على معنى ، او هي كمـــا يقول النحاة : « اللفظ المفيد فائدة يحسن السكوت عليها »[1] ، ولا تكون الجملة الا اذا استوفت ركنين هما : المسند اليه والمسند ، واذا ما حذف من الجملة احد هذين الركنين فان النحاة يلجأون الى التقدير والى التمحـــلات لتستقيم لهم قاعدتهم . واستعمل القدماء هذين المصطلحين فقال سيبويه امام النحاة : « هذا باب المسند والمسند اليه وهما ما لا يستغنى واحد منهما عن الآخر ، ولا يجد المتكلم منه بدا . فمن ذلك الاسم المبتـــدأ والمبني عليه وهو قولك : « عبدالله اخوك » ، و « هذا اخوك »، ومثل ذلك قولك : « يذهب زيد » فلا بد للفعل من الاسم كما لم يكن للاسم الاول بد من الآخر في الابتداء . ومما يكون بمنزلة الابتـــداء قولك : « كان عبدالله منطلقا » ، و « ليت زيدا منطلق » ، لان هذا يحتاج الى ما بعده كاحتياج المبتدأ الى ما بعده »[2] .

والمسند عندهم الفعل التام ، واسم الفعل ، وخبر المبتدأ والمبتدأ المكتفي بمرفوعه ، وما أصله خبر المبتدأ ، والمصدر النائب عن فعل الامر . اما المسند اليه فهو الفاعل ، ونائبه ، والمبتدأ ، وما اصله المبتدأ .

ولم يأخذ النحاة بهذين المصطلحين بعد سـيبويه وان اداروهما في

(١) شرح ابن عقيل ج١ ص ١٤ .

(٢) كتاب سيبويه ج١ ص ٧ .

كتبهم وانما استعملوا ما يقابلهما من مبتدأ وخبر او فعل وفاعل وغيرها مما نجده في كتبهم • ولكن علماء البلاغة أخذوهما وبنوا عليهما دراستهم في علم المعاني ، فانحصرت دراستهم في المسند والمسند اليه ، ومايتبعهما من ذكر وحذف ، وتقديم وتأخير وقصر • ولا يتجاوزون ذلك الا حينما يتحدثون عن الفصل والوصل ، والمساواة والايجاز والاطناب ، وهو تجاوز لا يبعد عن الجملتين في كثير من الاحيان • وكان اكثر البلاغيين تمسكا بهذا المنهج رجال المدرسة الكلامية كالسكاكي والقزويني وشراح التلخيص ، اما عبدالقاهر وابن الاثير وغيرهما من اعلام المدرسة الادبية فلم يتجهوا هذا الاتجاه ولم ينحوا هذا المنحى ، وانما كانوا يحكّمون الذوق وتحسس مواطن الجمال في الكلام • ونتج عن هذا ان مزقت البلاغة العربية شر ممزق ، فكان الحذف في عدة مواضع والذكر في ابواب متفرقة ، لانهما درسا في المسند اليه مرة ، وفي المسند تارة ، وفي متعلقات الفعل تارة ثالثة • ومثل هذا يقال في الموضوعات التي بحثها عبد القاهر وابن الاثير تحت فصول موحدة فيها الروعة والنفع وانارة سبيل الدارسين ، وفيها تهذيب للذوق وتنمية الملكة الادبية • وقد كان بحث القزويني ومن لَفّ لفه ، وسار على منهجه أقرب الى الدراسات النحوية ، ومن هنا جاءت جافة لا رواء فيها ولا رونق ، ولا تفيد في تربية الذوق وصقله وان كانت فيها بعض الومضات التي يمكن الاستفادة منها في كتابة البلاغة الجديدة •

ومما تجدر الاشارة اليه هنا أن القزويني ابتعد عن مجال الدراسات النحوية المتأخرة من اهتمام بالعامل والاعراب وغير ذلك ، ولكن دراسته هذه لا تجدي نفعا في البلاغة ولا تقدم غذاء فيه النماء والتطور ، لان تحليقه كان دون تحليق عبدالقاهر وابن الاثير ، وإنْ حَلّقَ في اجواء غير اجواء النحاة المتأخرين •

نمـوذج :

ولكي نبرهن على انه اتجه في معظم بحوثه هذه اتجاها نحويا نعرض

بحثه في الذكر والحذف بايجاز . فقد ذكر ان المسند اليه يذكر وهو الاصل ولا مقتضى للحذف الا اذا كانت فائدةلها أثرها في التعبيرويكون ذكره للاحتياط لضعف التعويل على القرينة ، او التنبيه على غباءالسامع، أو لزيادة الايضاح والتقرير ، أو لاظهار تعظيمه ، او اهانته ، او للتبرك او لاستلذاذه،أو لبسط الكلام حيث الاصغاءمطلوب ،كقولهتعالىحكاية عن موسى عليه السلام : « هي عَصاي »[1] .

وذكر السكاكي أنّ المسند اليه يذكر اذا كان الخبر عام النسبةالى كل مسند اليه ، والمراد تخصيصه بمعين مثل : « زيد جاء » و « عمرو ذهب » و « خالد في الدار » ، وقوله :

الله انجح ما طلبت به والبر خير حقيبة الرجلِ

وقوله :

النفسُ راغبة اذا رغّبتها واذا ترد الى قليلٍ تقنعُ[2]

ويرى القزويني ان هذا الرأي ليس بصحيح ، لانه ان قامت قرينة تدل عليه ان حذف فعموم الخبر وإرادة تخصيصة بمعين وحدهما لا يقتضيان ذكره والا فيكون ذكره واجبا[3] .

ويذكر المسند لزيادة التقرير،والتعريض بغباء السامع، والاستلذاذ والتعظيم ، والاهانة وبسط الكلام ، او ليتعين كونه اسما فيستفاد منه الثبوت ، أو كونه فعلا فيستفاد منه التجدد ، او كونهظرفافيورث احتمال الثبوت والتجدد .

وذكر السكاكي انه يذكر للتعجب من المسند اليه بذكره مثل «زيد يقاوم الاسد » مع دلالة قرائن الاحوال ، ولكن القزويني يرى أنّ

---

(١) سورة طه ، الآية ١٨ .
(٢) مفتاح العلوم ص ٨٥ .
(٣) الايضاح ص ٣٤ .

التعجب يحصل بلا ذكر المسند اذا قامت عليه القرينة[1] .

اما الحذف فهو باب واسع تجول فيه الاقلام ، وميدان فسيح تضطرب فيه القابليات الفنية ، فيحسن استعماله مَنْ كانت له معرفة واسعة باساليب التعبير ، وذوق يدرك به اسرار الحذف . ويكون حذف المسند اليه لمجرد الاختصار ، والاحتراز عن العبث بترك ما لا ضرورة لذكره وذلك مما يكسب الكلام قوة وجمالا ، أو لتخييل ان في تركه تعويلا على شهادة العقل ، وفي ذكره تعويلا على شهادة اللفظ من حيث الظاهر ، أو لاختبار تنبه السامع له عند القرينة او مقدار تنبهه ، او لايهام ان في تركه تطهيرا له عن اللسان ، او ليكون على سبيل الانكار إنْ مست اليه حاجة ، او لان الخبر لا يصلح الا له حقيقة او دعاء .

ولا نرى في معظم ما ذكره القزويني سببا لغويا في حذفه الا ماذكره من امور عقلية قد تكون بالنحو واساليبه الصق ، وان كان اول كلامه يشير الى ان المسند اليه يحذف ، لان معنى العبارة مفهوم ، وان في ذكره زيادة لا فائدة فيها . وان كنا نحمد له في هذا المقام فاننا نحمد له قوله: « واما لاعتبار آخر مناسب لا يهدى الى مثله الا العقل السليم والطبع المستقيم »[2] .

ومن امثلة الحذف قول الشاعر :

ساشكرُ عَمْراً إنْ تراختمنيَّتي أيادي لم تمنن وان هي جَلَّتِ
فتى غيرمحجوب الغنى عن صديقهِ ولا مظهر الشكوى اذا النعلُ زلَّتِ

وقول الآخر :

سريعٌ الى ابن العم يلطم وَجْهَهُ وليس الى داعي النَّدى بسريعِ
حريصٌ على الدنيا ، مضيعٌ لدينه وليس لما في بيته بمضيعِ

(١) مفتاح العلوم ص ٩٩ ، والايضاح ص ٨٦ .
(٢) الايضاح ص ٣٢ .

وهذه أمثلة عبد القاهر والسكاكي . ولم يعلل القزويني جمال الحذف وقيمته ، وان كان عبد القاهر قد قال بعد ذكرها : « فتأمل الان هذهالابيات كلها واستقرها واحدا واحدا ، وانظر الى موقعها في نفسك، والى ما تجده من اللطف والظرف اذا أنت مررت بموضع الحذف منها ، ثم قلبت النفس عما تجد ، والطفت النظر فيما تحس به ، ثم تكلف ان ترد ما حذف الشاعر ، وان تخرجه الى لفظك وتوقعه في سمعك ، فانك تعلم ان الذي قلت كما قلت ، وان رب حذف هو قلادة الجيد وقاعدة التجويد »[1] .

ويحذف المسند لنحو ما سبق في المسند اليه من تخييل العدول الى أقوى الدليلين ، ومن اختبار تنبه السامع عند قيام القرينة ، او مقدار تنبهه ، ومن الاختصار والاحتراز عن العبث بناء على الظاهر ، أما مع ضيق المقام كقوله :

نحنُ بما عندنا وأنت بما عندكَ راضٍ والرأيُ مختلفُ

أي : نحن بما عندنا راضون .

واما بدون الضيق كقوله تعالى : « واللهُ ورسولُه أحَقُّ أنْ يُرْضُوه »[2] . أي : والله احق ان يرضوه .

وقد يكون حذفه لتكثير الفائدة كقوله تعالى : « بل سَوَّلَتْ لكم أنْفُسُكم أمراً فَصَبْرٌ جَميلٌ »[3] وقوله : « سُورةٌ انزلناها »[4] ، وقوله : « وأَقْسموا باللهِ جَهْدَ أيمانِهم لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لا تُقْسِموا ، طاعةٌ معروفةٌ »[5] .

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١١٦ .
(٢) سورة التوبة ، الآية ٦٢ .
(٣) سورة يوسف ، الآية ١٨ .
(٤) سورة النور ، الآية ١ .
(٥) سورة النور ، الآية ٥٣ .

فكل منها يحتمل حذفَ المسند اليه والمسند ، أي : فأمري صبر جميل" ، او فصبر" جميل اجمل ، وهذه سورة انزلناها ، او فيما اوحينا اليك سورة انزلناها ، وامركم او الذي يطلب فيكم طاعة معروفة معلومة، ومنهم من ادخل قوله تعالى : «ولا تقولوا ثلاثة" »[1] في هذا الباب ، ولكن القزويني رد عليه ولم يأخذ برأيه[2] .

ولا بد للحذف من قرينه كوقوع الكلام جوابا عن سؤال اما محقق كقوله تعالى : « ولَئِنْ سألتهم مَنْ خَلَقَ السماوات والارضَ ليقولُنَّ الله »[3] ، واما مقدر كقوله : « كذلكَ يُوحي اليك والى الذينَ من قَبْلِكَ اللهُ العزيزُ الحكيمُ » [4] ببناء الفعل للمفعول . وقد ذكر ان الفعل المتعدي اذا اسند الى فاعله ولم يذكر له مفعول فهو على ضربين[5] :

الاول : ان يكون الغرض اثبات المعنى في نفسه للفاعل على الاطلاق أو نفيه عنه كذلك فيتنزل منزلة اللازم ، ولا يذكر له مفعول لئلا يتوهم السامع ان الغرض الاخبار به باعتبار تعلقه بالمفعول ، ولا يقدر ، لان المقدر في حكم المذكور ، وهذا الضرب قسمان : لانه أما ان يجعل الفعل مطلقا كناية عن الفعل متعلقا بمفعول مخصوص دلت عليه قرينة ، أوْ لا . والاول كقول البحتري يمدح المعتز بالله ويعرض بالمستعين بالله :

شجوُ حسادِه وغيظ عداه ... ان يرى مبصر ويسمع واعٍ

فجعل مطلق الرؤية كناية عن رؤية محاسنه وآثاره ، ومطلق السماع كناية عن سماع اخباره ، وقد خالف القزويني عبد القاهر في

(١) سورة النساء ، الآية ١٧١ .
(٢) الايضاح ص ٨٣ ــ ٨٤ .
(٣) سورة لقمان ، الآية ٢٥ .
(٤) سورة الشورى ، الآية ٣ .
(٥) الايضاح ص ١٠٣ وما بعدها .

هذه المسألة في أمرين :

الاول : انه يرى ان الفعل هنا منزل منزلة اللازم ، ويراه عبد القاهر مما له مفعول مقصود محذوف .

والثاني : انه يجعل الفعل مطلقا كناية عن نفسه متعلقا بمفعول مخصوص ، ولا يراه عبد القاهر كناية[1] .

والثاني : كقوله تعالى « قُلْ هَلْ يَستوي الذين يَعْلَمُون والذينَ لا يَعْلَمونَ » [2] . أي من يحدث له معنى العلم ومن لا يحدث .

والضرب الثاني : أن يكون الغرض افادة تعلقه بمفعول ، فيجب تقديره بحسب القرائن ثم حذفه من اللفظ ، اما للبيان بعد الابهام كما فى فعل المشيئة اذ لم يكن في تعلقه بمفعوله غرابة كقوله تعالى : « فلو شاءَ لهداكُم أجمعينَ »[3] وقوله : « فإنْ يشأ اللهُ يَخْتِمْ على قَلبِكَ »[4] . وقول البحتري :

لو شئت لم تفسد سماحةَ حاتم كرماً ولم تهدم مآثر خالد

فان كان في تعليق الفعل به غرابة ذكر المفعول ليتقرر في نفس السامع كقوله : « لو شئت ان أرد على الامير رددت » ، وعليه قول الشاعر :

ولو شئتأنْ أبكيدماً لبكيته عليه ، ولكن ساحةُ الصَّبْرِ أوْسَعُ

وعلة جمال اظهار المفعول به أنه كان بدع عجيب انَ يشأ الانسان ان يبكي دما ، فلما كان كذلك كان الاولى ان يصرح بذكره ليقرره في

---

(1) الايضاح ص ١٠٤ ولائل الاعجاز ص ١٢٠ .
(2) سورة الزمر ، الآية ٩ .
(3) سورة الانعام ، الآية ١٤٩ .
(4) سورة الشورى ، الآية ٢٤ .

نفس السامع ، ويؤنسه به . وكذلك الحال متى كان مفعول المشيئة أمرا عظيما او بديعا غريبا فعندئذ يكون الاحسن ان يذكر ولا يضمر فاذا لم يكن مما يكبره السامع فالحذف[1] .

ولا يكتفي القزويني بالنقل ، وانما يصحح ما وقع فيه القدماء فيقول معلقا على قول أبي الحسين علي بن أحمد الجوهري أحد شعراء الصاحب بن عباد :

فلم يُبْقِ مني الشوقُ غيرَ تفكّري فلو شئتُ أنْ ابكي بكيتُ تَفَكُّرَا

فليس منه ، لانه لم يرد ان يقول : « فلو شئت أنْ ابكي تفكرا» ولكنه اراد أنْ يقول : افناني النحول فلم يبق مني غير خواطر تجول حتى لو شئت البكاء فمريت جفوني وعصرت عيني ليسيل منها دمع لم أجده ، ولخرج منها بدل الدمع التفكر . فالمراد بالبكاء في الاول الحقيقي ، وفي الثاني غير الحقيقي ، فالثاني لا يصح ان يكون تفسيرا للاول »[2] .

ولم يستطع القزويني ان يحلق كما حلّق عبد القاهر في تعليل جمال حذف المفعول بعد المشيئة ، وعلل عبد القاهر ذلك بان في البيان بعد الابهام وبعد تحريك النفس الى معرفته لطفاً ونبلاً لا يكون اذا لم يتقدم ما يحرك . فانت اذا قلت : « لو شئت » علم السامع انك قد علقت هذه المشيئة في المعنى بشيء فهو يصنع في نفسه أن ههنا شيئا تقتضيه المشيئة فاذا قلت : لم تفسد سماحة حاتم « عرف ذلك الشيء »[3] .

وأما لدفع ان يتوهم السامع في اول الامر ارادة شيء غير المراد كقول البحتري :

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١٢٦ .

(٢) الايضاح ص ١٠٦ .

(٣) دلائل الاعجاز ص ١٢٥ .

وكم ذدت عني من تحامل حادث   وسورة أيام حَزَزْن الى العَظْمِ

اذ لو قال : « حززن اللحم » لجاز ان يتوهم السامع قبل ذكر ما بعده ان الحزّ كان في بعض اللحم ، ولم ينته الى العظم فترك ذكر اللحم ليبرىء السامع من هذا الوهم ، ويصور في نفسه من أول الامر ان الحز مضى في اللحم حتى لم يرده الا العظم .

واما لانه اريد ذكره ثانيا على وجه يتضمن ايقاع الفعل على صريح لفظه اظهارا لكمال العناية بوقوعه عليه كقول البحترى :

قد طلبنا فلم نجد لك في السؤْ   دَدِ والمجدِ والمكارمِ مِثْلا

أي : « قد طلبنا لك مثلا في السؤدد والمجد والمكارم » ، فحذف المثل اذ كان غرضه ان يوقع نفي الوجود على صريح لفظ المثل .

واما للقصد الى التعميم في المفعول ، والامتناع عن ان يقصره السامع على ما يذكر معه دون غيره مع الاختصار كقوله تعالى « واللهُ يدعو الى دارِ السَّلامِ » [1] ، أي يدعو كل احد .

وأما للرعاية على الفاصلة كقوله سبحانه : « والضّحى . واللّيلِ اذا سَجَى . ما وَدّعَكَ رَبّكَ وما قَلَى » [2] أي : وما قلاك .

وأما لاستهجان ذكره كما روي عن عائشة (رض) انها قالت : « ما رأيت منه ولا رأى مني » تعني العورة .

واما لمجرد الاختصار كقوله تعالى : « أَهذا الذي بَعَثَ اللهُ رَسولا » [3] ومنه قوله : « وَلمّا ورد ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عليه أُمّةً مِن النّاسِ يَسْقُونَ ، وَوَجَد مِنْ دُونِهم امرأتينِ

---

(١) سورة يونس ، الآية ٢٥ .
(٢) سورة الضحى ، الآيات ١ ـ ٣ .
(٣) سورة الفرقان ، الآية ٤١ .

تَذودان قال : ما خَطْبُكُما ؟ قالتالا نَسْقي حتى يُصْدِرَ الرِعاءُ وأبونا شَيْخٌ كبيرٌ • فسقى لهما »[1] •

ومع ان القزويني أَلَمّ باكثر مواضع حذف المفعول ، ورتبها ، وبوبها تبويبا حسنا ، غير ان بحثه تعوزه الطلاوة والتحليل ، وهو ــ وان انتفع ببلاغة عبدالقاهر كثيرا ــ[2] ، لم يكن له نَفَسُه وقابليته على التحليق ، ولم تكن له اجادة ابن الاثير فى العرض والتحليل وقد علل هذان الكاتبان قيمة الحذف ، وتعليلهما اقرب الى الذوق منه الى القواعد وضبط الاصول ، يقول عبد القاهر : « واذ قد عرفت هذه الجملة في حال الحذف في المبتدأ فاعلم ان ذلك سبيله في كل شيء • فما اسم او فعل تجده قد حذف ثم اصيب موضعه وحذف في الحال فينبغي ان يحذف فيها الا وانت تجد حذفه هناك احسن من ذكره وترى اضماره في النفس اولى وآنس من النطق به »[3] • وهذا يدلنا على ابتعاده عن تعليل النحاة •

وبهذا الاسلوب بَحَثَ القزويني موضوعات الجملة كالتقديم والتأخير ، والتعريف والتنكير ، والتقييد بالتوابع ، والقصر ،والخروج عن مقتضى الظاهر • ولا نرى في طريقته هذه فائدة كبيرة ، لانه لم يستطع ان يعطي الجملة حقها من البحث ، ولم يقدر ان يحلل كما حلل عبد القاهر ، وبذلك أعطى صورة غير واضحة عن أساليب التقديم والتأخير ، والحذف والذكر ، والقصر ، والتعريف والتنكير وغيرها من الموضوعات التي تدخل في بحث الجملة •

ونرى أن نضم معظم الموضوعات التي ذكرها والامثلة التي سردها الى فصول النحو لتعطيها حيوية وتكسبها رواء ، وبذلك نخلص البلاغة من جمودها ، ونبعث الحياة في النحو من جديد •

---

(١) سورة القصص ، الآيتان ٢٣ ــ ٢٤ •

(٢) ينظر دلائل الاعجاز ص ١١٨ وما بعدها •

(٣) دلائل الاعجاز ص ١١٧ •

الفصل والوصل

قيل للفارسي : ما البلاغة ؟ قال : معرفة الفصل من الوصل .
وذهب كثير من بلاغيي العرب الى ما ذهب اليه الفارسي ، واعتبروا الفصل والوصل فنا عظيما ، صعب المسلك ، دقيق المأخذ لا يحيط علما بكنهه الا من أوتي في فهم كلام العرب طبعا سليما ، ورزق في ادراك أسراره ذوقا صحيحا . ولهذا قصر بعضهم البلاغة على معرفته . ولا يرى القزويني هذا الرأي ، يقول : « وما قصرها عليه لان الامر كذلك ، وانما حاول بذلك التنبيه على مزيد غموضه ، وأن أحدا لا يكمل فيه الاكمل في سائر فنونها ، فوجب الاعتناء بتحقيقه على أبلغ وجه فى البيان » [1] .

والوصل عطف بعض الجمل على بعض ، والفصل تركه ولذلك نرى أن يبحث هذا الموضوع بعد بحث الجملة كما فعلنا .

لقد تكلم الجاحظ وأبو هلال [2] على الفصل ، ولكنهما لم يوضحا طرقه واساليبه ، لان عنايتهم بالقضايا الادبية والنظرة الفنية حالت دون ذلك . ولعل عبد القاهر كان من اوائل الذين بحثوه بحثا مفصلا يقوم على التقسيم ، والتحديد ، والتعليل ، والتحليل ، وربطه

---

(١) الايضاح ص ١٤٧ .

(٢) البيان والتبيين ج١ ص ٨٨ ، وكتاب الصناعتين ص ٤٣٨ .

بباب العطف عندما ربط البلاغة بمعاني النحو وجعل النظم توخيا له ، وأجمل مواضع الفصل والوصل بقوله : « أن الجمل على ثلاثة أضرب :

جملة حالها مع التي قبلها حال الصفة مع الموصوف والتأكيد مع المؤكد فلا يكون فيها العطف البتة لشبه العطف فيها لو عطفت بعطف الشيء على نفسه .

وجملة حالها مع التي قبلها حال الاسم يكون غير الذي قبله الا انه يشاركه في حكم ويدخل معه في معنى مثل أن يكون كلا الاسمين فاعلا أو مفعولا أو مضافا اليه فيكون حقها العطف .

وجملة ليست في شيء من الحالين ، بل سبيلها مع التي قبلها سبيل الاسم مع الاسم لا يكون منه في شيء فلا يكون اياه ولا مشاركا له في معنى بل هو شيء ان ذكر لم يذكر الا بأمر ينفرد به ، ويكون ذكر الذي قبله وترك الذكر سواء في حاله لعدم التعلق بينه وبينه رأسا ، وحق هذا ترك العطف البتة .

فترك العطف يكون اما للاتصال الى الغاية أو الانفصال الى الغاية ، والعطف لما هو واسطة بين الامرين وكان له حال بين حالين فاعرفه »[1] .

وعلى هذا الاساس وضع عبدالقاهر أصول بحث الفصل والوصل ، وقوانينه ، وذكر الامثلة الكثيرة . وجاء علماء البلاغة فاختصروا بحوثه وبوبوها وقسموها ، وكان تحديدهم أكثر ضبطا ، وقواعدهم اكثر تقييدا . وكان السكاكي من أشهر الذين اتبعوه ولكنه لم يوضح الموضوع ولم يبحثه كما ينبغي ، وانصرف الى البحث في الجامع وأنواعه ، واستفاد الخطيب القزويني من الرجلين فكان بحثه للفصل والوصل يجمع بين تحديد القاعدة ، والشرح والتعليل ، أي بين طريقتي عبد القاهر والسكاكي .

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١٨٧ — ١٨٨ .

يذهب القزويني الى انه اذا أتت جملة بعد جملة فالاولى منهما اما ان يكون لها محل من الاعراب ، أوْ لا ، وعلى الاول ان قصد التشريك بينها وبين الثانية في حكم الاعراب عطفت عليها ، وهذا كعطف المفرد لان الجملة لا يكون لها محل من الاعراب حتى تكون واقعة موقع المفرد فكما يشترط في كون العطف بالواو ونحوه مقبولا في المفرد أن يكون بين المعطوف والمعطوف عليه جهة جامعة كما في قوله تعالى :

« يَعْلمُ ما يَلِجُ في الارضِ ، وما يَخْرُجُ منها ، وما يَنْزِلُ من السماءِ وما يَعْرُجُ فيها »[1] • ولهذا عيب على أبي تمام قوله :

لا والذي هو عالِمٌ أن النَّوى صَبِرٌ وأنَّ أبا الحسين كريم

اذ لا مناسبة بين كرم أبي الحسين ومرارة النوى ، ولا تعلق لاحدهما بالآخر ولانّه لم يقصد ذلك ترك عطفها •

وعلى الثاني ان قصد بيان ارتباط الثانية بالاولى على معنى بعض حروف العطف سوى الواحد عطفت عليها بذلك الحرف فنقول « دخل زيد فخرج عمرو » • وان لم يقصد ذلك فان كان للاولى حكم لم يقصد اعطاؤه للثانية تعين الفصل كقوله تعالى : « واذا خَلَوْا الى شياطينِهم قالوا إنّا مَعَكُمْ ، إنّما نحن مُسْتَهْزِئون ، اللهُ يَسْتَهْزِيءُ بهم »[2] • وان لم يكن للاولى حكم فان كان بين الجملتين كمال الانقطاع ، وليس في الفصل ايهام خلاف المقصود ، أو كمال الاتصال ، أو كانت الثانية بمنزلة المنقطعة عن الاولى أو بمنزلة المتصلة بها كذلك يتعين الفصل •

---

(١) سورة سبأ ، الآية ٢ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٤ ـ ١٥ .

وأما كمال الانقطاع فيكون لامر يرجع الى الاسناد أو الى طرفيه :

الاول : ان تختلف الجملتان خبراً وانشاءا ، لفظاً ومعنى كقول الشاعر :

وقال رائدهم : أرسوا نزاولها فكلُ حتف امرىء يجري بمقدارِ

أو معنى لا لفظا مثل « مات فلان ، رحمه الله » .

وأما قول اليزيدى :

مَلَّكْتُه حَبلي ولكنَّه القاه مِن زُهْدٍ على غاربي
وقال : إني في الهوى كاذِبٌ انتقم اللهُ من الكاذِبِ

فَعَدَّه السكاكي من هذا النوع ، وحمله عبد القاهر على الاستئناف بتقدير « قلت »[1] .

الثاني : ألا يكون بين الجملتين جامع .

وأما كمال الاتصال فيكون لامور ثلاثة :

الاول : أن تكون الثانية مؤكدة للاولى ، والمقتضي للتأكيد دفع توهم التجوز والغلط وهو قسمان :

أحدهما : أن تنزل الثانية من الاولى منزلة التأكيد المعنوي من متبوعه في افادة التقرير مع الاختلاف في المعنى ، كقوله تعالى : « ألم . ذلكَ الكتابُ لا ريْبَ فيه » [2] .

وثانيهما : أن تنزل الثانية من الاولى منزلة التأكيد اللفظي من متبوعه في اتحاد المعنى كقوله تعالى : « ذلك الكتابُ لا ريبَ فيه هُدًى للمتقينَ »[3] .

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٣ ؛ ودلائل الاعجاز ص ١٨٣ .
(٢) سورة البقرة ، الايتان ١ ــ ٢ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ٢ .

الثاني : ان تكون الثانية بدلا من الاولى والمقتضي للابدال كون الاولى غير وافية بتمام المراد بخلاف الثانية،او المقام يقتضي اعتناء بشأنه لنكتة، ككونه مطلوبا في نفسه ، أو فظيعا ، او عجيبا ، او لطيفا . وهو ضربان :

أحدهما : أن تنزل الثانية من الاولى منزلة بدل البعض من متبوعه كقوله تعالى :

« أمَدَّكُمْ بما تَعْلَمون . أمَدَّكم بأنعام وبنين . وجنات وعيون »[1] .

وثانيهما : أن تنزل الثانية من الاولى منزلة بدل الاشتمال من متبوعه كقوله تعالى :

« اتَّبِعوا المُرْسَلين . اتبِعوا من لا يسألُكم أجْراً وهم مهتدون »[2] .

الثالث : أن تكون الثانية بياناً للاولى ، وذلك بأن تنزل منها منزلة عطف البيان من متبوعه في افادة الايضاح ، والمقتضي للتبيين أن يكون في الاولى نوع خفاء مع اقتضاء ازالته ، كقوله تعالى : « فَوَسْوَسَ اليه الشَّيْطانُ قال : يا آدَمُ هَلْ أدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخُلْدِ ومُلْكٍ لا يَبْلى »[3] .

وأما كون الثانية بمنزلة المنقطعة عن الاولى فلكون عطفها عليها موهما لعطفها على غيرها ، ويسمى الفصل لذلك قطعا ،مثاله قول الشاعر:

وتظنُّ سلمى أنني أبغي بها بدلاً أراها في الضلالِ تَهيمُ

واما كونها بمنزلة المتصلة بها فلكونها جوابا عن سؤال اقتضته

(١) سورة الشعراء ، الآية ١٣٢ ــ ١٣٤ .
(٢) سورة يس ، الآية ٢٠ ــ ٢١ .
(٣) سورة طه ، الآية ١٢٠ .

الاولى فتنزل منزلته ، فتفصل الثانية عنها كما يفصل الجواب عن السؤال ، ويسمى الفصل لذلك استئنافا ، وكذا الجملة الثانية تسمى استئنافا . والاستئناف ثلاثة أضرب ، لان السؤال الذي تضمنته الجملة الاولى أما عن سبب الحكم فيها مطلقا كقوله :

قال لي : كيف أنت ؟ قلت : عليلُ   سَهَرٌ دائمٌ ، وحزنٌ طويلُ

واما عن سبب خاص له ، كقوله تعالى « وما أُبري نَفْسي ، إنَّ النَفْسَ لأمَّارة بالسّوء »[1] . واما عن غيرهما كقوله تعالى : «قالوا سلاماً ، قالَ : سَلامٌ »[2] . ومنه قول الشاعر :

زعم العواذلُ أنني في غَمْرةٍ   صَدَقوا ، ولكن غَمْرتي لا تنجلي

ومن الاستئناف ما يأتي باعادة اسم ما استؤنف عنه مثل « أحسنت الى زيد ، زيدٌ حقيق بالاحسان» . ومنه ما يبنى على صفته مثل: «أحسنت الى زيد ، صديقك القديم أهل لذلك » . وهذا أبلغ لانطوائه على بيان السبب .

وقد يحذف صدر الاستئناف لقيام قرينة كقوله تعالى : «يُسَبِّحُ لَهُ فيها بالغُدُوِّ والآصال رجالٌ »[3] . فيمن قرأ « يسبح » مبنياً للمفعول ، وعليه نحو قولهم « نعم الرجل او رجلا زيد» . وقد يحذف الاستئناف كله ويقام ما يدل عليه مقامه كقول الحماسي :

زَعمتم أنَّ أخوتكم قريشٌ   لهم إلف وليس لكم إلافُ

هذه هي المواضع التي يكون فيها الفصل ، فان لم يكن بين الجملتين شيء من هذه الاحوال تعين الوصل اما لدفع ايهام خلاف

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٥٣ .

(٢) سورة هود ، الآية ٦٩

(٣) سورة النور ، الآيتان ٣٦ و ٣٧ .

المقصود كقول البلغاء « لا ، وأيدك الله » . وإمّا للتوسّط بين حالتي كمال الانقطاع وكمال الاتصال ، وهو ضربان :

احدهما : ان يتفقا خبرا أو انشاء ، لفظا ومعنى ، كقوله تعالى : « إنَّ الابرارَ لفي نعيم ، وإنَّ الفُجّارَ لفي جَحيم »[1] .

والثاني : أن يتّفقا كذلك معنى لا لفظاً كقوله تعالى : « وإذْ أَخَذْنا ميثاقَ بني اسرائيل لا تعبُدونَ إلاّ اللهَ ، وبالوالدينِ إحْسانا ، وذي القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وقولوا »[2] .

وتكلم القزويني بعد هذا على الجامع وأنواعه ، وقسّمه الى عقلي، ووهمي ، وخيالي ، وقد تابع السكاكي في ان لصاحب المعاني فضل احتياج الى التنبّه لانواع الجامع لا سيما الخيالي . ونرى ان هذه البحوث ليست من البلاغة في شيء،وان صاحب علم المعاني لا يحتاج اليها بدليل اننا ندرس الفصل والوصل الآن ونفهم اسلوبيهما وطرقهما ولا نعرف شيئا عن الجامع وأنواعه ، وأن صعوبة هذه البحوث في كتب المتأخرين ناتجة عن ادخال هذه الموضوعات الغريبة في البلاغة .

وبعد أن انتهى من هذه البحوث الفلسفية ، تكلم على الجملة الحالية وحكم الواو معها ، وهذا البحث وان لم يكن من الفصل والوصل الا ان البلاغيين يرون أنه لما كانت الجملة الحالية تارة تجيء بالواو وأخرى بغيرها ناسب الكلام عليها من هذه الناحية في باب الفصل والوصل . والى ذلك أشار القزويني قائلا : « ومما يتصل بهذا الباب القول في الجملة اذا وقعت حالا منتقلة فانها تجيء تارة بالواو وتارة بغير الواو »[3] .

والجملة الحالية ان خلت من ضمير صاحبها ، فهي تارة تأتي بالواو،

---

(1) سورة الانفطار ، الايتان ١٣ ــ ١٤ .
(2) سورة البقرة ، الآية ٨٣ .
(3) الايضاح ص ١٦٥ .

وثانية تأتي بدونها ، واذا كانت الجملة فعلية والفعل مضارع مثبت امتنع الواو كقوله تعالى : « ونَذَرُهُمْ في طُغْيانِهم يَعْمَهون »[1] وأما ما جاء نحو قول بعض العرب : « قمت وأصك عينه أو وجهه » ، وقول عبد الله بن همام السلولي :

فلما خشيتُ أظافيرهم   نجوت وأرهنهم مالِكا

فقيل : على حذف المبتدأ ، أي : وأنا اصك عينه ، وأنا أرهنهم ، وقيل : الاول شاذ ، والثاني ضرورة .

وان كان الفعل مضارعا منفيا ، فيجوز فيه الامران من غير ترجيح لدلالته على المقارنة لكونه مضارعا ، وعدم دلالته على الحصول لكونه منفيا . أما مجيئه بالواو فكقول مسكين الدارمي :

أكسبته الورقُ البيضُ أباً   ولقد كان ولا يُدْعَى لأبْ

وقول مالك بن رفيع ، وكان قد جنى جناية ، فطلبه مصعب بن الزبير :

بَغاني مصعبٌ وبنو أبيه   فأين أحيدُ عنهم ؟ لا أحيدُ
أقادوا من دمي وتوعدوني   وكنت وما ينهنهني الوعيد

وأما مجيئه بغير واو ، فكقوله تعالى : « وما لنا لا نؤمن باللهِ »[2] ، وقول الاعشى :

أتينا أصبهانَ فهزلتنا   وكنا قبل ذلك في نعيمِ
وكان سفاهةً مني وجهلا   مسيري ، لا أسير الى حميمِ

وان كان ماضيا لفظا أو معنى ، فكذلك يجوز الامران من غير

---

(1) سورة الانعام ، الآية ١١٠ .
(2) سورة المائدة ، الآية ٨٤ .

ترجيح ، أما مجيئه بالواو فكقوله تعالى : « أنَّى يكونُ لي غلامٌ وقد بلغني الكبر »[1] ، وكقول امرىء القيس .

أيقتلني وقد شَغَفْتُ فؤادَها كما شعَفَ المهنوءَةَ الرجل الطالي

وأمـا مجيئـه بلا واو فكقوله تعالى : « أو جاءُوكم حَصِرتْ صدورُهم »[2] ، وقول الشاعر :

وإني لتعروني لذكـراكِ هزّةٌ كما انتفضَ العصفورُ بَلّله القَطْرُ

وان كانت الجملة اسمية ، فالمشهور انه يجوز فيها الامران ، ومجيء الواو أولى ، أما الاول فلعكس ما ذكرناه في المصـدرة بالماضي المثبت ، فمجيء الواو كقوله تعالى :

« فلا تَجْعلوا لله أنداداً وأنتم تَعْلَمون »[3] . وقوله : « ولا تُباشِروُهنّ وأنتـم عاكِفونَ في المَساجد » [4] . وقول الشاعر امرىء القيس :

ايقتُلني والمشرَفِيُّ مُضاجعي ومسنونةٌ زُرْقٌ كأنيابِ أغوالِ

والخلو منها كما رواه سيبويه : « كلمته فوه الى فيّ » و « رجع عوده على بدئه » .

وأما الثاني فلعدم دلالة الاسميـــة على عدم الثبوت مع ظهور الاستئناف فيها لاستقلالها بالفائدة، فتحسن زيادة رابط تتأكد الربط . وقد نقل بعد ذلك كلام عبد القاهر في هذا الموضوع .

ومحسنات الوصل عند القزويني تناسـب الجملتين في الاسـمية

(١) سورة آل عمران ، الآية ٤٠ .
(٢) سورة النساء ، الآية ٩٠ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٢ .
(٤) سورة البقرة ، الآية ١٨٧ .

والفعلية وفي المضي والمضارعة ، الا لمانع، كما اذا أريد باحداهما التجدد وبالاخرى الثبوت ، كما اذا كان زيد وعمرو قاعدين ، ثم قام زيد دون عمرو ، وقلت : « قام زيد وعمرو قاعد » .

وقد جرى القزويني فى جعل الفصل والوصل خاصا بالجمل كما فعل عبد القاهر في « دلائل الاعجاز » والعلوى في « الطراز »وابن قيم الجوزية في « الفوائد » ، وذهب السكاكى الى انهما يأتيان في عطف الجمل والمفردات ، وفي العطف بالواو وغيره من حروف العطف وان المعول عليه في ذلك هو الجهة الجامعة فمتى وجدت صح العطف في الجمل لانواع هذا الجامع والتيقظ لها ، لا سيما النوع الخيالي فان جمعه على مجرى الالف والعادة بحسب ما تنعقد الاسباب في استيداع الصور وخزانة الخيال ، وأن الاسباب لكما ترى الى اي حد تتباين في شأن الجمع بين صور وصور ، فمن أسباب تجمع بين صومعة ،وقنديل، وقرآن ، ومن أسباب تجمع بين دسكرة وابريق وأقران[1] . وتبعه في ذلك المتأخرون .

والحق ما ذهب اليه عبد القاهر والقزويني ، لان العطف بالواو لا يفيد معنى خاصا كما تفيده حروف العطف الاخر كالفاء التي تفيد العطف باتصال ، و « ثم » التي تفيد العطف بانفصال . وان دقة الوصل والفصل تظهر في ذلك ، أما عطف المفرد على المفرد فانه يأتى للتشريك في الحكم وكذلك الجمل التي لها محل من الاعراب لوقوعها موقع المفرد ، وبذلك نرى ان عبد القاهر والقزويني ابتعدا قليلا عن اتجاه النحاة في بحث الفصل والوصل .

وكم كنا نود لو ان القزويني أظهر محسنات الوصل في أثناء بحثه ، ووضع اليد على مواطن الجمال كما فعل عبد القاهر ، ولكنه لم يستفد من تحليله وتعليقه كما استفاد في حصر القواعد وضبطها . ولا

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٢٤ .

يمكن أن ننظر الى الفصل والوصل هذه النظرة لانه « ليس للعبارة في العلم استقلال بل هى تخضع خضوعا شديدا للعبارات السابقة واللاحقة اذ ليس لها وجود متميز ، وهي ترتبط بما يتقدمها ويتأخر منها ارتباط الاسباب بالمسببات والعلل الحتمية بالمعلومات ، ولهذا الارتباط المنطقي الشديد أو قل الحاد ، ظاهرة نحوية واضحة هي كثرة لا نلاحظها في العبارات الادبية ، بل قد تفقد فيها حروف العطف . وحتى ان وجدت قلما تتبين وظيفتها في الربط ، ولذلك كان البلاغيون يهتمون بدراسة باب الوصل والفصل ، أو بعبارة أخرى باب الاتصال والانفصال بين الجمل الادبية ويتمحلون فيه تمحلات يبدو فيها التعسف ، لانهم يريدون أن يخضعوا الجمل في الادب لمنطق العقل ، وهي انما يسيطر عليها منطق العاطفة »[1] .

(١) في النقد الادبي ص ٧٤ .

الايجاز والاطناب والمساواة

ولقد كان القزويني اكثر توفيقا فيهذا البحث منه فيبحوث الجملة، والفصل والوصل ، وعلة ذلك ــ كما نرى ــ أن هذا الموضوع اكثر بعدا من غيره عن بحوث النحو المحضة ، فاستطاع أن ينجو من قيده ويحلق بعيدا ، يضاف الى ذلك أن هذا الموضوع قد بحث قبله وأشبع تفصيلا . والجديد في بحث القزويني هذا انه جمع شتات الموضوع ووحد فروعه وأبوابه ، فقد كان كل جزء منه يبحث منفردا ، وأوضح مثال على ذلك أنواع الاطناب التي ذكرها ، كالتوشيح ، والتكرار والايغال ، والتذييل ، والتكميل ، والتتميم . ونظرة في « كتاب الصناعتين » لابي هلال العسكري ترينا كيف كانت هذه الفنون مستقلة لها أبوابها وتقسيماتها ، ولكن القزويني استطاع أن يجمع الاشباه والنظائر ، ويوحّد بينها في باب واحد تقليلا للمصطلحات وابتعادا عن كثرة الابواب . ومن هنا نرى ان القزويني أحْسَنَ وأجادَ في عمله ، ومنع هذه الفنون من الاضطراب ، فهي عند بعضهم مستقلة ، وهي عند آخرين من ضروب البديع .

ولا نعتبر بحث القزويني لهذا الموضوع كاملا ، خاليا من كل عيب فان النقص ليلفه من كل جانب ، ولكننا نرى أن نستفيد منه في بلاغتنا الجديدة ، ولكي نعطي فكرة واضحة عن معالجتـه للموضوع نذكر التكرار فنقول : انه الحاح على جهة هامة في العبارة يعنى بها الاديب

اكثر من عنايته بسواها [١] . وقد عرفه القدماء من الشعراء والكتاب وعلماء البلاغة والنقد ، وشغل النقادَ تكرارُ القرآن الكريم . وذكروا أنواع التكرار واقسامه، ومتى يحسن، ومتى يقبح . وكان الجاحظ قد عرض له في كتبه ، يقول : « وجعل ابن السماك يوما يتكلم وجارية له حيث تسمع كلامه فلما انصرف اليها قال لها : كيف سمعت كلامي ؟ قالت « ما أحْسَنَه لولا أنك تكثر ترداده قال : أردده حتى يفهمه من لم يفهمه . قالت : الى ان يفهمه من لا يفهمه قد مله من يفهمه »[٢] ، وتناول بحثه العلماء الذين تكلموا في اعجاز القرآن كالباقلاني والسكاكي والعلوي[٣] ، والباحثون في البلاغة والنقد كالعسكري وابن رشيق وابن الاثير[٤] . وقسَّمه الاخيران ، وذكرا أنواعه وعرضا أمثلة كثيرة له .

ولم يعرف القدماء من التكرار الا التكرار البياني ، أما تكرار التقسيم والتكرار اللا شعوري فأغلب الظن انهم لم يعرفوهما، ولتكرار البياني أبسط الانواع جميعا وقد أوجدت الحياة الادبية الجديدة فنونا من التكرار .

والتكرار اما ان يكون بكلمة ، او بعبارة، او بمقطع . وكان اهتمام القدماء بالاول اكثر الا ما كان من حديثهم عن تكرار قوله تعالى : « فبأي آلاء ربكما تكذبان » في سورة الرحمن .

أما التكرار عند القزويني فليس بالبحث الطريف فلا تقسيم لانواعه ، ولا عرض لامثلة جيدة . وقد اكتفى بان ذكر ان الاطناب يكون بالتكرار لنكتة كتأكيد الانذار في قوله تعالى : « كلا سوف تعلمونَ . ثم كلا سوف تعلمون »[٥] . وكزيادة التنبيه على ما ينفي

---

(١) ينظر بحث التكرار في كتاب قضايا الشعر المعاصر ص ٢٤٠ وما بعدها .

(٢) البيان والتبيين ج١ ص ١٠٤ .

(٣) اعجاز القرآن ص ١٦٠ ، مفتاح العلوم ص ٢٨١ ، والطراز ج٣ ص ٤٤٣ .

(٤) العمدة ج٢ ص ٧٣ ، والمثل السائر ج٢ ص ١٥٧ .

(٥) سورة التكاثر ، الآيتان ٣ ، ٤ .

التهمة ليكمل تلقي الكلام بالقبول كما في قوله تعالى : « وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيلَ الرشاد ، يا قوم إنّما هذه الحياةُ الدنيا متاعٌ »[1] . وقد يكرر اللفظ لطول في الكلام كما في قوله تعالى : « ثمّ إنّ ربَّكَ للذين عملوا السّوء بجهالةٍ ، ثمّ تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ، إنّ ربّك من بعدها لغفور رحيم »[2] ، وقد يكرر لتعدد المتعلق كما كرر تعالى في قوله : «فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

هذه هي المعاني التي ذكرها القزويني للتكرار ولم يفصّل فيها،ولم يتوسع في دراستها ، ولو رجعنا الى كلام العرب لوجدنا للتكرار معاني كثيرة فقد ذكروا انه يكون لتأكيد غرض من الاغراض أو للمبالغة فيه وذلك كالغزل والتنويه والاشارة اليه . ويشمل المدح ، والهجاء على سبيل التشهير ، والازدراء ، والتهكم ، والتنقيص ، والتفريع ، والتوبيخ ، والتعظيم ، للمحكي عنه ، والوعيد ، والتهديد ، والتوجع في الرثاء ، والتأبين ، والاستغاثة ، والتفخيم ، والتعجب ، والاستبعاد ، والتهويل ، والتقرير ، والانكار ، وغير ذلك[3] .

ومع ذلك فان هذه البحوث القصيرة خير من بحوث الجملة ، أو الفصل والوصل ، وقد انطلق فيها القزويني ، وابتعد كثيرا عن الاجواء النحوية التي تقتل الاحساس المرهف والشعور الفني .

واذا ما اردنا ان نحكم على بحث القزويني لاساليب التعبير ، فاننا نرى أنه لم يبتعد كثيرا في بحث الجملة ، أو الفصل والوصل ، عن منهج النحاة وان أشار الى المعاني الاضافية التي تؤديها الجمل أو الى معنى المعنى ، وهو ما لم يشر اليه النحاة ، لان الاعراب والصحةوالخطأ شغلتهم عن هذا كله . ولعل أحسن ما في بحث علم المعاني عند القزويني

---

(1) سورة غافر ، الآيتان ٣٨ ، ٣٩ .

(2) سورة النحل ، الآية ١١٩ .

(3) تنظر هذه المعاني في كتاب البلاغة الفنية ص ١٨٢ وما بعدها .

موضوعات المساواة والايجاز والاطناب ، ويمكن أن نستفيـــد من تقسيماته في بلاغتنا الحديثة ونضيف اليها ما استجد من أســـاليب التعبير مع تعمق في التحليل ، ونظرة شاملة تأخذ الكل أساسا لدراستها لا الجزء الذي لا يجدي في دراسة الفنون الادبيـة كثيرا • ويسـتطيع النحوي المجدد ان يأخذ من اشـارات البلاغيين ـ ومنهم القزويني ـ منهجا لتجديد النحو واعادة الحياة اليـــه ، لان النحو ينبغي ألا يهتم بالصحة والخطأ والاعراب وانما يجب ان يتجاوزه الى معـاني العبارات وهو الذي انتبه عبد القاهر اليه ، وأطلق عليه اسم النظم وما أحوجنـا الى العودة لمنهج عبد القاهر وتلاميذ مدرسته في دراسة النحو ليكون أقرب الى واقع اللغة العربية •

ومهما يكن من شيء فقد اسـتطاع القزويني أن يحلق في بحث موضوعات علم المعاني اكثر مما فعل السكاكي ، وأن ينسقها تنسـيقا فيه دقـــة ووضوح •

الفصل الثالث

علم البيان

عرف العرب كثيراً من ألوان الخيال ، ولكنهم لم يهتموا به ، ولم يقسموه هذا التقسيم الذي تعارف عليه النقاد حديثا ، ووقفوا عند ما يمكن ان يكون الخيال تداعي معانٍ ، فحصروا دراسته في أبواب المجاز المرسل والتشبيه والاستعارة والكناية ، وهي مبنية على تداعى المعاني « لان الصلة في المجاز المرسل غير المشابهة ، ولكن هناك صلة أخرى تجمع بينهما كالصلة بين السبب والمسبب ، والمكان والحال فيه ، والجار ومجاوره ، والجزء والكل ، بما يندرج تحت قانون تداعى المعانى »[1] وهذه الفنون ليست غاية في ذاتها ، وانما هي غاية لمعان تمثلها ، معان تصور انطباعات روح الكون في خيال الاديب ولكل أديب انطباعاته ، ولكل أديب استعاراته ، وتشبيهاته ، ومجازاته ، بحيث نستطيع ان نقول أنها صوره ، صور نفسه ، وما انعكس عليها من روح الوجود .

---

(١) اسس النقد عند العرب ص ٤٧٣ .

ودراستهم لهذه الموضوعات لا تكاد تخرج عن الجمله أوالجملتين، وليتهم اهتموا بالقطعة الادبية والعمل الفني الكامل . وشغل القدماء بهذه الفنون وعرفوا أساليبها وكان اهتمامهم منصبا على التشبيه في أول الامر ، لانه اقرب الى الواقع الحسي وأقرب الى طبيعة الشعر في العصر الجاهلي ، وصدر الاسلام ، حتى أن الدكتور عبدالعزيز الاهواني اعتبره في كثير من الحالات مظهرا من مظاهر البدائية في التفكير والسذاجة الاولية في التعبير[1] . وانتبهوا الى روعة التشبيه وجماله قبل ان يلتفتوا الى روعة الاستعارة وسحرها ، ولعل ما كتبه المبرد عن التشبيه خير دليل على اهتمامهم بهذا النوع من اساليب التعبير ، وقد قسمه الى أربعة اضرب : تشبيه مفرط ، وتشبيه مصيب ، وتشبيه مقارب ، وتشبيه بعيد[2] . وانتبه الى تشبيه صورة بصورة في قول مجنون بني عامر :

كأنَّ القلبَ ليلة قيل يُغدَى ... بليلى العامريةِ أو يُراحُ
قطاةٌ عزّها شَرَكٌ فباتَتْ ... تُعالجه وقد عَلِق الجناحُ
لها فرخانِ قد غلقا بوكرٍ ... فعشهما تصفّقُه الرياحُ
فلا بالليلِ نالَتْ ما تُرجّي ... ولا بالصبحِ كان لها براحُ

لقد أحسَّ المبرد بما في هذا التشبيه من روعة وجمال ، وقد قال الشعراء قبله وبعده فلم يبلغوا هذا المقدار من الاصابة في التشبيه[3] .

وعندما تقدمت الدراسات البيانية افرد النقاد والبلاغيون لصور التعبير بحوثا مستفيضة،فتكلموا على التشبيه،والمجاز وانواعه، والكناية وما فيها من صور خيالية ، لانها هي التي « تخلق الاتزان اللطيف في ثنايا العمل الشعري وتضفي عليه وشاحا من الجمال والرونق اذا

---

(١) ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر ص ١٢٨ .
(٢) الكامل ج٣ ص ٨٥٣ وما بعدها .
(٣) الكامل ج٢ ص ٧٤٧ .

استخدمت استخداما طبيعيا لا أثر للتكلف فيه ، واذا ابتعدت عن الاغراق في التخيل والتيه فيما وراء الطبيعة »[1] .

وكرس عبد القاهر جهوده في كتاب « اسرار البلاغة » لدراسة التشبيه والاستعارة ، واظهار ما لها من قيمة في التعبير ، ودرسها في « دلائل الاعجاز » على أنها من النظم ، يقول : « وذلك لان هذه المعاني التي هي الاستعارة ، والكناية ، والتمثيل ، وسائر ضروب المجاز من بعدها من مقتضيات النظم وعنها يحدث وبها يكون ، لانه لا يتصور ان يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد لم يتوخ فيما بينها حكم من أحكام النحو ، فلا يتصور ان يكون ههنا فعل او اسم قد دخلته الاستعارة من دون أن يكون قد ألف مع غيره أفلا ترى انه ان قدر في « اشتعل » من قوله تعالى : « واشتعلَ الرأسُ شيبا »[2] انْ لا يكون الرأس فاعلا له ، ويكون « شيبا » منصوبا عنه على التمييز لم يتصور أن يكون مستعارا ، وهكذا السبيل في نظائر الاستعارة فاعرف ذلك »[3] .

واعتبر التشبيه ، والتمثيل ، والاستعارة عمدة الكلام ، وكأنَّ جل محاسنه متفرعة عنها وراجعة اليها ، وكأنها اقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها واقطار تحيط بها من جهاتها[4] وعندما بحثها بدأ بذكر الحقيقة والمجاز ، وبحث التشبيه والتمثيل وبنى بحث الاستعارة عليها ، وقد وفّى هذه الفنون حقها ، وفصل القول فيها تفصيلا .

ادخال الدلالات :

وعندما جاء السكاكي وقَسَّم البلاغة الى المعاني ، والبيان ، والمحسنات اللفظية والمعنوية ، ادخل الدلالات في تقسيم موضوعات علم البيان ، وأقحمها فيه اقحاما ، ورأى ان صاحب علم البيان له فضل

---

(١) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث ص ٤٦ .
(٢) سورة مريم ، الآية ٤ .
(٣) دلائل الاعجاز ص ٣٠٠ ـ ٣٠١ .
(٤) اسرار البلاغة ص ٣٣ .

احتياج الى التعرض لانواع دلالات الكلم . ولاجل هذا بحثها ، وذكر أنواعها ، يقول : « لا شبهة في ان اللفظة متى كانت موضوعة لمفهوم أمكن ان تدل عليه من غير زيادة ولا نقصان بحكم الوضع وتسمى هذه دلالة المطابقة ودلالة وضعية . ومتى كان المفهوم ذلك ولنسمه أصليا تعلق بمفهوم آخر امكن ان تدل عليه بواسطة ذلك التعلق بحكم العقل سواء كان ذلك المفهوم الآخر داخلا في مفهومها الاصلي كالسقف مثلا في مفهوم البيت ، ويسمى هذا دلالة التضمن ودلالة عقلية أيضا . او خارجا عنه كالحائط عن مفهوم السقف وتسمى هذه دلالة الالتزام ودلالة عقلية أيضا »[1] .

فالدلالات التي تحدث عنها السكاكي وذكرها في بحث البيان هي: دلالة اللفظ على تمام ما وضع له ، ودلالة التضمن وهي دلالة اللفظ على جزء ما وضع له او جزء مسماه مع دخوله فيه . ودلالة الالتزام وهي دلالة اللفظ على معنى خارج عن مسماه لازم له . وتسمى دلالة المطابقة دلالة وضعية ، لان السبب في ذلك حصولها عند سماع اللفظ او تذكره هو معرفة الوضع دون حاجة الى شيء آخر . اما دلالتا التضمن والالتزام فتسميان دلالتين عقليتين ، لان حصولهما بانتقال العقل من الكل الى الجزء في الاولى ، ومن الملزوم الى اللازم في الثانية . بمعنى ان الواضع وضع اللفظ ليفيد جميع المعنى غير ان العقل اقتضى ان الشيء لا يوجد بدون جزئه او لازمه[2] .

وقد بنى السكاكي تقسيم البيان على هذه الدلالات فاخرج التشبيه، لان دلالته وضعية ، والدلالة الوضعية لا يمكن بها ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة ، ويؤيد ذلك بقوله : « فانك اذا اردت تشبيه الخد بالورد في الحمرة مثلا وقلت : خد يشبه الورد امتنع أن يكون كلام مؤد لهذا المعنى بالدلالات الوضعية اكمل منه في الوضوح او انقص منه،

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٥٦ .

(٢) ينظر الطراز ج١ ص ٣٤ – ٣٩ ، وفن التشبيه ج١ ص ١٨ – ١٩

فانك اذا اقمت مقام كل كلمة منها ما يرادفها فالسامع ان كان عالما بكونها موضوعة لتلك المفهومات كان فهمه منه كفهمه من تلك من غير تفاوت في الوضوح ، وإلا لَمْ يفهم شيئا اصلا . وانما يمكن ذلك في الدلالات العقلية مثل أن يكون لشيء تعلق بآخر ولثان ولثالث ، فاذا اريد التوصل بواحد منها الى المتعلق به فمتى تفاوتت تلك الثلاثة في وضوح التعلق وخفائه صح في طريق افادته الوضوح والخفاء »[1] .

وهو في هذا قد اخرج التشبيه من البيان ، أما الموضوعات الاخرى فيقول في حصرها : « واذا عرفت ان ايراد المعنى الواحد على صور مختلفة لا يتأتى الا في الدلالات العقلية ، وهي الانتقال من معنى الى معنى بسبب علاقة بينهما كلزوم احدهما الآخر بوجه من الوجوه ، ظهر لك ان علم البيان مرجعه المعاني . ثم اذا عرفت ان اللزوم اذا تصور بين الشيئين فاما أن يكون من الجانبين كالذي بين الامام والخلف بحكم العقل ، وبين طول القامة وبين طول النجاد بحكم الاعتقاد ، او من جانب واحد كالذي بين العلم والحياة بحكم العقل أو بين الاسد والجرأة بحكم الاعتقاد ، ظهر لك ان مرجع علم البيان اعتبار هاتين الجهتين : جهة الانتقال من ملزوم الى لازم ، وجهة الانتقال من لازم الى ملزوم . ولا يربك بظاهرة الانتقال من أحد لازمي الشيء الى الآخر ما اذا انتقل من بياض الثلج الى البرودة فمرجعه ما ذكر ينتقل من البياض الى الثلج ، ثم من الثلج الى البرودة فتأمل .

واذا ظهر لك ان مرجع علم البيان هاتان الجهتان علمت انصباب علم البيان الى التعرض للمجاز والكناية ، فان المجاز ينتقل فيه من الملزوم الى اللازم كما تقول « رعينا الغيث » والمراد لازمه وهو النبت . وقد سبق ان اللزوم لا يجب ان يكون عقليا ، بل ان كان اعتقاديا اما لعرف او لغير عرف صح البناء عليه . واما نحو قولك « امطرت السماء نباتا » أي غيثا من المجازات المنتقل فيها من اللازم الى الملزوم

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٥٧ .

فمنخرط في سلك « رعينا الغيث » ، وان الكناية ينتقل فيها من اللازم الى الملزوم كما تقول « فلان طويل النجاد » فلا يصار الى جعل النجاد طويلا او قصيرا ، إلا لكون القامة طويلة او قصيرة ، فلا علينا ان تتخذهما اصلين »[1] .

وبهذه الطريقة البعيدة عن دراسة الادب ومقاييسه، حصر السكاكي علم البيان في بحثين هما : المجاز ، والكناية ، لان دلالتهما عقلية، والدلالة العقلية هي التي يمكن بها ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه . اما التشبيه فقد أخرجه في هذا الحصر من البيان لان دلالته وضعية ، والدلالة الوضعية لايمكن بها ايراد المعنى بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه ، لان السامع اذا كان عالما بوضع الالفاظ لم يكن بعضها اوضح دلالة من بعض ، وإلا لم يكن كل منها دالا عليها .

ولم يستطع السكاكي ان يُخرج التشبيه من علم البيان مع انه صرح بأن دلالته وضعية ؛ وأنى له ان يخرجه وهو يعلم أنه باب كثير الاستعمال في اللغة ، وان له مزايا تورث الكلام حسنا وجمالا . ولكن كيف يضمه الى مباحث علم البيان ؟

لقد احتال واصطنع طريقة فيها تكلف وتعسف ، يقول : « ثم ان المجاز أعني الاستعارة من حيث أنها من فروع التشبيه لا تتحقق بمجرد حصول الانتقال من الملزوم الى اللازم ، بل لا بد فيها من تقدمة تشبيه شيء بذلك الملزوم في لازم له تستدعي تقديم التعرض للتشبيه ، فلا بد من ان نأخذه اصلا ثالثا ونقدمه ، فهو الذي اذا مهرت فيه ملكت زمام التدرب في فنون السحر البياني »[2] .

وليس التشبيه فنا طارئا ــ كما يزعم ــ وانما هو فن كثير الدوران في كلام العرب ، يقول المبرد : « والتشبيه جار في كثير من الكلام أعني

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٥٧ .
(٢) مفتاح العلوم ص ١٥٧ .

كلام العرب حتى لو قال قائل انه اكثر كلامهم لم يبعد »[1] . ولا ندري لماذا أسرف السكاكي في اصطناع هذا الاسلوب وهو يعترف بأن التشبيه اذا مهر الانسان فيه ملك زمام التدرب في فنون السحر البياني ، ولكن البلاغيين بحثوه في علم البيان واعتبروه من أهم بحوثه ، بل اعتبره السكاكي اصلا ثالثا من اصول البيان وقدمه على جميع الأصول .وقد حمل المولى عصام حملة شديدة على السكاكي لعدّه التشبيه اصلا ثالثا من اصول البيان[2] .

ولما جاء القزويني وجد الطريق معبدة ، ووجد فنون البيان قد انحصرت واستقرت ، وسار على هديه فعرفه بقوله : « هو علم يعرف به ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه »[3]. وكان قوله « بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه »مدعاة للكلام في الدلالات التي وَرّط السكاكي البلاغيين فيها . وقد أطنب في ذكر شروط دلالة الالتزام وذكر ان ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة لا يتأتى بالدلالة الوضعية ، لان السامع اذ كان عالما بوضع الالفاظ لم يكن بعضها اوضح دلالة من بعض وإلا لَمْ يكن كل واحد منها دالا،وانما يتأتى بالدلالات العقلية لجواز ان يكون للشيء لوازم بعضها اوضح لزوما من بعض . وقد ظن بعض شراح التلخيص ان دلالة التضمن ليست كدلالةالالتزام، ولذلك يقول السبكي:« وليس كذلك بل الذي يظهر انها تتأتى بالدلالة العقلية تضمنا كانت أم التزاما »[4] . وقسمه كما قسمه السكاكي ، لان اللفظ المراد به لازم ما وضع له ان قامت قرينة على عدم ارادة ما وضع له فهو مجاز ، والا فهو كناية ، ثم المجاز منه الاستعارة ، وهي ماتُبتَنَى على التشبيه فيتعين التعرض له ،فانحصر المقصود في التشبيه والمجاز والكناية . وقدّم التشبيه على المجاز لابتناء الاستعارة عليه ، وقدم

(١) الكامل ج٣ ص ٨١٨ .

(٢) ينظر الفوائد الغياثية ص ١٩٥ ، وفن التشبيه ج١ ص ٢٣ .

(٣) الايضاح ص ٢١٢ .

(٤) عروس الافراح ج٢ ص ٢٧٩ .

المجاز على الكناية لنزول معناه من معناها منزلة الجزء من الكل • ولعل هذا هو السر في ادخال الكناية في البيان ، لانها تحتاج الى قرينة تدل على المعنى المراد منها ، كما ان المجاز في حاجة الى هذه القرينة ، غير ان قرينة المجاز تمنع من ارادة المعنى الاصلي وقرينة الكناية لا تمنع من ارادة المعنى الحقيقي •

وعلى هذا الاساس بحث القزويني اساليب الخيال عند النقاد العرب وجمع التشبيه والمجاز والكناية •

ولنبحث هذه الفنون عند القزويني مكتفين بأهم ما ذكر ، لان غرضنا ليس سرد أنواعها وتقسيماتها الكثيرة ، وانما هدفنا ذكر أهم ما فيها ليتسنى لنا فهم ما ذهب اليه القزويني والمتأخرون ، وما ينبغي ان نأخذه منها وما يجب رده ورفضه • ولنبدأ بالتشبيه :

التشبيه

١

رأينا كيف اخرج البلاغيون فن التشبيه من علم البيان، واعتبروه بابا ممهدا لدراسة الاستعارة المبنية عليه . وهذا رأي لا نقرهم عليه ، لان التشبيه باب واسع وهو اكثر الفنون استعمالا ودورانافيالاساليب العربية ، وكان من أوائل الموضوعات التي بحثت واهتم بها النقاد والبلاغيون ، فدار في كتبهم المختلفة ، وألفت كتب خاصة به كـ « التشبيهات » لابن ابي عون ، و « الجمان في تشبيهات القرآن »[1] لابن ناقيا البغدادي و « فن التشبيه » للاستاذ علي الجندي وهو من المعاصرين .

ولا يختلف القدماء في بيان أهمية التشبيه وقيمته في التعبير ، ولكنهم لا يتفقون على جعله من فنون علم البيان ، ولا يتفقون على اعتباره من المجاز . ومدرسة السكاكي هي التي لا تعتبره من علم البيان وان بحثته فيه ، لان دلالته وضعية واعتبره كثير من علماء البلاغة ركنا اساسيا في بحوث البلاغة . وذكر بعض من دار في فلك السكاكي ان الاختلاف في وضوح الدلالة وخفائها موجود في التشبيه،

---

(١) كلفت وزارة الثقافة والارشاد العراقية المؤلف والدكتورة خديجة الحديثي بتحقيقه لاخراجه في سلسلة « احياء التراث العربي الاسلامي » التي تصدرها .

ولذلك فهو فن مستقل عن علم البيان قصدا وان توقف عليه بعض أبوابه ، لان توقف بعض الابواب على بعض لايوجب كون المتوقف عليه مقدمة للفن[1] .

لقد حاولوا ان يعللوا سبب بحثه منفصلا لا مقدمة للاستعارة ، غير انهم لم يدخلوه فيه . وكان من الاحسن ان يعتبروه فنا مستقلا من فنون البلاغة ، وبذلك يريحون أنفسهم عناء التعليل ، ويريحون الآخرين عناء الحيرة للتوفيق بين الآراء المضطربة المتناقضة .

اما من حيث اعتباره مجازا او غير مجاز فقد اختلفوا فيه ، فذهب بعضهم الى انه ليس مجازا ، ولعل عبدالقاهر من اوائل الذين صرحوا بذلك ، يقول : « ان كل متعاط لتشبيه صريح لا يكون نقل اللفظ من شأنه ولا من مقتضى غرضه ، فاذا قلت : « زيد كالاسد » ، و « هذا الخبر كالشمس في الشهرة » ، و « له رأي كالسيف في المضاء » ، لم يكن نقل للفظ عن موضوعه . ولو كان الامر على خلاف ذلك ، لوجب ألا يكون في الدنيا تشبيه ألا وهو مجاز وهو محال ، لان التشبيه معنى من المعاني وله حروف واسماء تدل عليه فاذا صرح بذكر ما هو موضوع للدلالة عليه كان الكلام حقيقة كالحلم في سائر المعاني فاعرفه »[2] . وتبعه فخرالدين الرازي[3] ، والمطرزي الذي يقول : « التشبيه وان لم يكن من باب المجاز في شيء الا اني اوردته لامرين :

أحدهما : ان يكون توطئة لمن يسلك سبيل الاستعارة، والتمثيل، لانه كالاصل لهما وهما كالفرع له .

والثاني : أنه ركن من اركان البلاغة لاخراجه الخفي الى الجلي ،

---

(١) ينظر مواهب الفتاح وحاشية الدسوقي من شروح التلخيص ج٣ ص ٢٩٠ .
(٢) اسرار البلاغة ص ٢٧٦ .
(٣) نهاية الايجاز في دراية الاعجاز ص ٧٧ .

وادنائه البعيد من القريب »[1] .

وسار على خطوه السكاكي ، والقزويني ، وشُرّاح تلخيصه من المتأخرين ، والى ذلك أشار ابن قيم الجوزية بقوله : «وذهب المحققون من متأخري علماء هذه الصناعة وحذاقها الى ان التشبيه ليس من المجاز ، لانه معنى من المعاني وله حروف والفاظ تدل عليه »[2] .

وذهبت جماعة اخرى الى ان التشبيه مجاز ، والى ذلك اشار ابن الجوزية بقوله : « والذي عليه جمهور أهل الصناعة ان التشبيه من انواع المجاز ، وتصانيفهم كلها تصرح بذلك وتشير اليه »[3] .

ولعل ابن رشيق من اشهر من صرح بذلك فقال : « وأما كون التشبيه داخلا تحت المجاز فلان المتشابهين في اكثر الاشياء انما يتشابهان بالمقارنة على المسامحة والاصطلاح لا على الحقيقة »[4] .

وقرر ابن الاثير ان الذي انكشف له بالنظر الصحيح ، ان المجاز ينقسم قسمين : توسع في الكلام وتشبيه ، والتشبيه ضربان : تشبيه تام ، وتشبيه محذوف وهو الاستعارة[5] . والى ذلك ذهب والد بهاء الدين السبكي في تفسيره[6] .

وذهبت جماعة ثالثة الى ان التشبيه يكون مجازا ، واليه ذهب عزالدين بن عبدالسلام والسبكي[7] .

ولسنا هنا بصدد البحث في التشبيه عند النقاد العرب ونكتفي بذكر وجهة نظر القزويني فيه مع مقارنات وتوجيهات .

---

(1) الايضاح في شرح مقامات الحريري ص ٥ .
(2) الفوائد ص ٥٤ .
(3) الفوائد ص ٥٤ .
(4) العمدة ج١ ص ٢٦٨ .
(5) المثل السائر ج١ ص ٣٥٦ .
(6) عروس الافراح ج٣ ص ٢٩٠ .
(7) عروس الافراح ج٣ ص ٢٩٠ . والاتقان في علوم القرآن ج٢ ص ٤١ .

تعريف القزويني للتشبيه :

يقول القزويني : « التشبيه الدلالة على مشاركة امر لآخر في معنى »[1] وهو ما لم يكن على وجه الاستعارة التحقيقية ولا الاستعارة بالكناية ولا التجريد . وليس في تعريفه ما يوضح معنى التشبيه ، وان كان أحسن من تعريف السكاكي ، لان التشبيه ليس الا لمح صلة بين امرين من حيث وقعهما النفسي . ومن هنا فليس هناك شرط ان يشبه الادنى بالاعلى والاقل بالأكثر .

تقسيماته :

ولا يختلف تقسيمه عن تقسيم السكاكي للتشبيه وان كان أكثر لباقة منه في العرض والتحليل ، فقد تكلم على اركانه الاربعة وهي : طرفاه ووجهه واداته . وطرفاه اما حسيان او عقليان او مختلفان ، والحسي : المدركُ هو أو مادته باحدى الحواس الخمس الظاهرة فدخل فيه الخيالي كما في قوله :

وكأنَّ محمرَ الشقيقِ اذا تصوَّبَ أوْ تَصَعَّدْ
أعلامُ ياقوتٍ نُشِرْنَ على بساطٍ من زَبَرْجَدْ

وقوله :

كُلُّنا باسطُ اليدِ نحو نيلوفر نَدي
كدبابيسِ عَسْجَدٍ قُضْبُها من زَبَرْجَدِ

والعقلي : ما عدا ذلك ، وأدخل فيه الوهمي وهو ما ليس مدركا بشيء من الحواس الخمس الظاهرة ، مع انه لو ادرك لم يدرك الا بها ، كقول امرىء القيس :

---

(١) الايضاح ص ٢١٣ .

أيقتلني والمشرفيُّ مضاجعي ومسنونة زُرْق كأنياب أغوال

وقوله تعالى : « طَلْعُها كأنّه رؤوسُ الشياطين »[1] .

ووجه الشبه : هو المعنى الذي يشترك فيه الطرفان تحقيقا او تخييلا ، والمراد بالتخييل ان لا يمكن وجوده في المشبه به إلا على تأويل، كما في قول القاضي التنوخي :

وكأنَّ النجومَ بين دجاها سُنَنٌ لاح بينهن ابْتِداعُ

ومن التشبيه التخييلي قول ابي طالب الرَّقّيّ :

ولقد ذكرتك والظلامُ كأنه يومُ النّوى وفؤادُ مَنْ لَمْ يَعْشَقِ

وهو اما غير خارج عن حقيقة الطرفين أو خارج ، والاول : اما تمام حقيقتهما كما في تشبيه انسان بانسان في كونه انسانا ، أو جزؤهما كما في تشبيه بعض الحيوانات العجم بالانسان في كونه حيوانا.والثاني: صفة أما حقيقية أو اضافية . والحقيقية : اما حسية وهي الكيفيات الجسمية مما يدرك بالبصر من الالوان والاشكال والمقادير والحركات وما يتصل بها من الحسن والقبح وغير ذلك ، او بالسمع من الاصوات القوية والضعيفة والتى بين بين ، أو بالذوق من أنواع الطعوم ، أو بالشم من انواع الروائح ، أو باللمس من الحرارة ، والبرودة ، والرطوبة ، واليبوسة ، والخشونة ، والملاسة ، واللين ، والصلابة ، والخفة ، والثقل ، وما ينضاف اليها . وأما عقلية كالكيفيات النفسية من الذكاء ، والتيقظ ، والمعرفة والعلم ، والقدرة ، والكرم ، والسخاء ، والغضب ، والحلم ، وما جرى مجراها من الغرائزوالاخلاق. والاضافية كازالة الحجاب في تشبيه الحجة بالشمس .

---

(1) سورة الصافات ، الآية ٦٥ .

ويمضي القزويني في هـذه التقسيمات الكثيرة التي يتيه المتأدب والدارس فيها ويضل فكره • ويقسم وجه الشبه تقسيماً آخر فهو اما واحد أو غير واحد ، والواحد اما حسي أو عقلي ، وغير الواحد امـا بمنزلة الواحد لكونه مركبا من أمرين أو امور ، أو متعدد غير مركب • والمركب اما حسي أو عقلي • والمتعدد اما حسي أو عقلي أو مختلف • والحسي لايكون طرفاه الا حسيين لامتناع أن يدرك بالحس من غير الحسي شيء • والعقلي طرفاه إما عقليان أو حسيان او مختلفان لجواز ان يدرك بالعقل من الحسي شيء •

وتكلم على أداة التشبيه ، وقسّم التشبيه باعتبارها الى مؤكـد ومرسل ، وقسمه باعتبار طرفيه أربعة أقسام : تشبيه المفرد بالمفرد وهو ما طرفاه مفردان ، وتشبيه المركب بالمركب وهو ما طرفاه كثرتـان مجتمعتان ، وتشبيه المفرد بالمركب ، وتشبيه المركب بالمفرد •

وقسمه باعتبار وجهه الى تمثيل وغير تمثيل ، والتمثيل عنـده ما وجهه وصف منتزع من متعدد أمرين او امور كقول ابن المعتز :

اصبِرْ على مَضَضِ الحَسُو د فـإنّ صبْرَكَ قاتلُه
فالنـارُ تأكل بعضَهَـا إنْ لم تجـد ما تاكُلُـه

وبذلك أدخل التمثيل في التشبيه ، واعتبره نوعا منه ، وهو بذلك يتابع عبد القاهر والسكاكي ، ولعل قدامة بن جعفر اول من عد التمثيل مخالفا للتشبيه وهو عنده من نعوت ائتلاف اللفظ والمعنى يقول عنه : « التمثيل وهو ان يريد الشاعر اشارة الى معنى فيضع كلاما يدل على معنى آخر ، وذلك المعنى الآخر والكلام منبئان عما اراد ان يشير اليه ، مثال ذلك قول الرماح بن ميادة :

ألم تكُ في يمنى يديك جعلتني فلا تجعلنّي بَعْدَها في شمالِكا
ولو أنني أذنبتُ ما كُنت هالكاً على خصلةٍ من صالحات خصالِكا

فعدل عن ان يقول في البيت الاول : انه كان عنـــده مقدما فلا يؤخره ، أو مقربا فلا يبعده ، او مجتبى فلا يجتنبــه ، الى ان قال انه كان في يميني يديه ، فلا يجعله في اليســرى • ذهابا نحو الامر الذي قصد الاشارة اليه بلفظ ومعنى يجريان مجرى المثل وقصد الاغراب في الدلالة والابداع في المقالة[1] •

ولكن عبد القاهر الجرجانى قسم التشبيه الى قسمين :

احدهما : أن يكون تشبيه الشيء بالشيء مـــن جهة أمرٍ بيِّن لا يحتاج فيه الى تأول ، كتشبيه الشيء بالشيء من جهـــة الصورة والشكل ، وكالتشبيه من جهة اللون ، ومن جهة الصورة واللون ، أو من جهة الهيئة • والشبه في هذا لا يجرى فيه التأويل ولا يفتقر اليــه في تحصيـــــل •

وثانيهما : أن يكون التشبيه محصلا بضرب من التأويل مثل «هذه حجة كالشمس في الظهور » فذلك تشبيه لا يتم الا بتأول[2] •

وهذا هو التمثيل عنده ، فكل تشبيه يكون وجه الشبه فيـــه حســـيا مفردا أو مركبـــا ، او كان من الغرائز مفردا ، فهو تشبيه غير تمثيلي ، أما اذا كان وجه الشبه فيه عقليا مفردا أو مركبـــــا فهو تشبيــه تمثيلــي •

ويرى عبد القاهر ان التمثيل محتاج الى التأول بينما لا يحتـــاج التشبيه اليه ، ولعل سر ذلك أن وجه الشبه في التمثيل ظاهره خلاف المقصود منه ، وأن الاشتراك بين الطرفين في حكم لازم لوجه الشبــه ومقضيّ له ، فالجامع في الحقيقة لازم لما ذكر في الكلام أو فهم منه •

وفَرَّقَ عبد القاهر بين التشبيه والتمثيل ، والتشبيه عنده عـــام

---

(١) نقد الشعر ص ٩٠ .

(٢) اسرار البلاغة ص ١٠٠ وما بعدها .

والتمثيل أخص منه ، فكل تمثيل تشبيه ، وليس كل تشبيه تمثيلا ، فأنت تقول في قول الشاعر :

وقد لاح في الصبح الثريا لمن رأى كعنقود ملاحية حين نورا[1]

انه تشبيه حسن ولا تقول هو تمثيل • وكذلك تقول : ابن المعتز حسن التشبيهات بديعها لانك تعنى تشبيهه المبصرات بعضها ببعض وكل ما لا يوجد التشبيه فيه من طرق التأول كقوله :

كأن العيون النرجس الغض حولها مداهن در حشوهن عقيق

وقوله :

وأرى الثريا في السماء كأنها قدم تبدت من ثياب حداد

وما كان من هذا الجنس ، ولا تريد نحو قوله :

اصبر على مضض الحسو د فان صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

ويرى ان المثل الحقيقي والتشبيه الذي هو الاولى بان يسمى تمثيلا لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح ، ما تجده لا يحصل الا من الكلام : جملتين أو اكثر ، حتى ان التشبيه كلما كان اوغل في كونه عقليا محضا كانت الحاجة الى الجملة اكثر ، وذلك كقوله تعالى : « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والأنعام ،حتى اذا أخذت الارض زخرفها ، وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس» [2] •

---

(١) الملاح : نبت من نبات الحمض ، الواحدة : ملاحة .

(٢) سورة يونس ، الآية ٢٤ .

فقد كثرت الجمل فيه حتى أنك ترى في هذه الآيـــة عشر جمل اذا فصلت ، والشبه منتزع من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضهامن بعض ، ولا حذف شيء منها ، فلو حذفت منها جملة واحـــدة من أي موضع كان اخل ذلك بالمغزى من التشبيه[١] .

ويرى السكاكي ان كل تشبيه لا يكون وجه الشبه فيه حسيا مفردا او مركبا أو عقليا أو حقيقيا مركبا ، فهو تشبيه تمثيلي ، والى ذلك أشار بقوله : « واعلم ان التشبيه متى كان وجهــه غير حقيقي وكان منتزعا من عدة آمور خص باسم التمثيل »[٢] .

والتمثيل عند الجمهور اعم مما كان الوجه فيه حقيقيا بان يكون حسيا ، كما في تشبيه النقع مـع الاسـياف بالليل مع الـكواكب ، فانهما مركبان . ومما كان غير حقيقي كما في تشبيه حال المنـــافقين بحال الذي اســتوقد نارا فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم في قوله تعالى : « مَثَلُهم كَمَثَلِ الذي اســـتوقد نارا »[٣] . يقول الدســـوقي : « التمثيل : هو هيئـة مأخوذة من متعدد ، ســواء كان الطرفان مفردين ، او مركبين ، او كان احدهمـــا مفردا والآخر مركبا ، وسواء كان ذلك الوصف المنتزع حسيا بان كان منتزعا من حسي أو عقلياً ، أو اعتباريا وهميا ، وهذا مذهب الجمهور »[٤] . ولذلك فكل تمثيل عند السكاكي تمثيل عند الجمهور ، وليس كل تمثيل عندهم تمثيلا عنده ، فبين المذهبين عموم وخصوص مطلق باعتبار الصدق .

ولا يبتعـد القزويني عنهم كثيرا ، فكل تشبيه يكون وجهه مفردا أو عقليـا حقيقيـا مفردا أو غير عقلي حقيقي مفردا ، فهو تشبيه غير تمثيلي ، أما اذا كان وجهــه حسيا مركبا أو غير حقيقي مركبـا ، فهو

---

(١) ينظر اسرار البلاغة ص ١٢٢ .
(٢) مفتاح العلوم ص ١٦٤ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ١٧ . ينظر مواهب الفتاح ج٣ ص ٤٣٣ .
(٤) حاشية الدسوقي ج٣ ص ٤٣٢ .

تشبيه تمثيلي ، والى ذلك اشار بقوله : « التمثيل ما وجهه وصف منتزع من متعدد أمرين او امور »[1] . ولم يَرَ في تقييد السكاكي له وجها .

ولقد وافق القزويني السكاكي في امور كثيرة ، وخالفه ، وخالف عبد القاهر فيما اذا كان الوجه مركبا حسيا ، ورأى انه جدير باسم التمثيل لمشاركته العقلي في مزاياه ، وقد رَجَّحَ الاستاذ العدل رأيه فقال : « واذا صح ما تقدم فاني ارجح رأي الخطيب ، فان في المركبات الحسية صورا عجيبة تحتاج الى حذق وذكاء »[2] .

واعترض العصام على القزويني في تقسيم التشبيه الى تمثيل وغيره ، وذكر ان تقسيمه للتمثيل وغيره من تقسيم الشيء نفسه وغيره، لان التمثيل يرادف التشبيه كما ذهب اليه الزمخشري[3] .

ويعد كثير من البلاغيين التمثيل مجازا اذا جاء على الاستعارة ، والى ذلك يذهب عبد القاهر وابن قيم الجوزية[4] مع ان عبدالقاهر فرق بين الاستعارة ـ وهي مجاز ـ والتمثيل ، فالاستعارة تكون في لفظ ينقل عن اصله اللغوي ويجرى على ما لم يوضع له من اجل شبه بين ما نقله اليه وما نقل عنه ، فاذا قلت : « رأيت أسدا » تريد به الرجل الشجاع كانت الاستعارة في كلمة الاسد ، والتمثيل هو التشبيه المنتزع من مجموع أمور لا تحصل الا بجملة من الكلام أو اكثر[5] . ويرى ابن يعقوب المغربي ان فيه استعارة مفرد وكلمة واحدة[6] .

---

(١) الايضاح ص ٢٤٩ .

(٢) دراسات تفصيلية ص ٢٧ .

(٣) الاطول ج٢ ص ٩٩ ؛ وتنظر حاشية الدسوقي ج٣ ص ٤٣٢ .

(٤) دلائل الاعجاز ص ٥٣ ، ٥٤ ، الفوائد ص ٦٦ .

(٥) ينظر فصل الفرق بين الاستعارة والتمثيل في اسرار البلاغة ص ٢٧٣ ومابعدها.

(٦) مواهب الفتاح ج٢ ص ٤٣٣ .

وهذا يجرنا الى بحث التشبيه المؤكد هل هو استعـــارة او تشـــبيه ؟ لقـــد ذكره قدامـــة والعسكري والغـــانمي وابن ســـنان في الاستعارة ، ولم يذكروا ان الاصل فيه انه تشبيه بليغ ، لذلك نجـــد ابن قيم الجوزية يستغرب من هذا قائلا : « فما أعلم هل ذلك لخفائه عليهم أو انهم عرفوه ولم يذكروه ، وهو الاصـــل المقيس عليـــه في التشبيه الذي اجمع عليه المحققون من علماء البيان »[1] .

وبحث ابن الاثير هـــذه المسألة بالتفصيل وذكر ان التشـــبيه نوعان : تشبيه مظهر الاداة ، وتشبيه مضمر الاداة ، وهذا التشبيـــه المضمر الاداة خلطه قوم بالاستعارة ، ولم يفرقوا بينهما وهـــذا خطأ محض ، ووضع قاعدة لمعرفة التشبيه من الاســـتعارة ، يقول : « اذا ذكر المنقول والمنقول اليه على انه تشبيه مضمر الاداة قيل فيه : « زيد أسد » ، أي كالاسد ، فاداة التشبيه فيـــه مضمرة ، واذا اظهرت حسن حضورها ولم تقدح في الكلام الذى اظهرت فيه ولا تزيل عنه فصاحة ولا بلاغة ، وهذا بخلاف ما اذا ذكر المنقول اليـــه دون المنقول فانـــه لا يحسن فيه ظهور اداة التشبيه ومتى اظهرت أزالت من ذلك الكلام ما كان متصفا به من جنس فصاحة وبلاغة ، وهـــذا هو الاستعارة . ولنضرب لذلك مثلا نوضحه فنقول : قد ورد هـــذا البيت لبعض الشعـــــراء وهـــــو :

فرعاءُ إنْ نهضت لحاجتهـــا عجل القضيب وأبطأ الدعْصُ

وهذا قد ذكر فيه المنقول اليه دون المنقول ، لان تقديره : « عجل قد كالقضيب ، وأبطأ ردف كالدعص » . وبين ايراده على هذاالتقدير وبين ايراده على هيئته في البيت بون بعيد في الحسن والملاحـــة . والفرق اذن أن التشبيه المضمر الاداة يحسن اظهـــار أداة التشبيه فيـــه والاستعارة لا يحسن ذلك فيها ، وعلى هذا فان الاستعارة لا تكون

---

(١) الفوائد ص ٥١ .

الا بحيث يُطوى ذكر المستعار له الذى هو المنقول اليـه ، ويُكتفى بذكر المستعار الذي هو المنقول »[1] .

ويرى القزويني انه تشبيه لا استعارة ، وان هـذا النوع يسمى تشبيها اذا حذفت فيه الاداة وكان اسم المشبه به خبرا للمشبه او فى حكم الخبر مثل « زيد أسد » وكقوله تعـالى : « صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ »[2] أي : هم . ونحوه قول من يخاطب الحجاج :

أسَدٌ عليَّ وفي الحروب نعامةٌ ... فتخاءُ تنفِرُ من صفيرِ الصافِرِ

ومثل : « رأيت زيدا بحرا »[3] .

ولم يوضح هذه النقطة وقد شرحها المتأخرون ، وفَصَّلوا القول فيها ، ووضعوا لها قواعد واصولا[4] .

وقد لا يراد التشبيه او التمثيل ، وانما يراد مجرد الجمع بين شيئين في أمر ، لذلك يترك التشبيه الى الحكم بالتشابه ليكون كل واحد من الطرفين مشبها به احترازاً من ترجيح احد المتساويين على المعنى الآخر ، كقول ابى اسحاق الصـابى :

تشابه دمعى اذ جرى ومُدامتى ... فمن مثل مافى الكأس عيني تسكبُ
فو الله ما أدرى أبالخمر أسبلت ... جفونى ام من عبرتى كنت أشربُ

وكقول الصاحب بن عباد :

رَقَّ الزجاجُ وراقت الخَمْرُ ... وتشـابها فتشاكَـل الأمْرُ
فكأنما خَمْرٌ ولا قَـدَحٌ ... وكـأنمـا قَدحٌ ولا خَمْرُ

---

(1) المثل السائر ج1 ص 257 وتنظر ص 388 وما بعدها .
(2) سورة البقرة ، الآية 18 ، 171 .
(3) الايضـاح ص 213 .
(4) شروح التلخيص ج3 ص 297 وما بعدها .

ولم يَدْعُ القزويني الى هذا ، إلا ما كان في أذهان البلاغيين من كون التشبيه الحاق الناقص في وجه الشبه حقيقة أو ادعاء بالزائد ، ولذلك يشبه الاقل بالاكثر ، والادنى بالاعلى ، وهو ما ذهب اليه السكاكي حينما قال : « المشبه به حقه أن يكون أعرف بجهة التشبيه من المشبه ، واخص فيها ، وأقوى حالا معها »[1] ، والى ذلك ذهب ابن الاثير فقال :

« انه قد تقرر في أصل الفائدة المستنتجة من التشبيه أنه يشبه الشيء بما يطلق عليه لفظة « أفعل » بما هو أبين وأوضح ، أو بما هو أحسن منه ، أو أقبح ، وكذلك يشبه الاقل بالاكثر ، والادنى بالاعلى »[2] . ومن هنا نراهم يلجأون الى تسمية ما اتفق فيه المشبه والمشبه به بالمنزلة : « التشابه » ويرون انه اذا كان المشبه به أتم واقوى من المشبه في وجه الشبه سمي ذلك « تشبيها مقلوبا » كما سماه القزويني ، أو « الطرد والعكس » كما سماه ابن الاثير ، أو « غلبة الفروع على الاصول » كما يسميه المتأخرون[3] ، لانه لا يعقل ان يشبه شيء عظيم بأصغر منه .

وهذه نظرة لا نراها صحيحة لان الشاعر عندما يشبه لا يلتفت الى هذه الامور العقلية ، وانما يذهب وراءما تمليه عاطفته وأحاسيسه ، وقد انتبه عبد القاهر والقزويني الى ما في هذا النوع من أثر نفسي ، وعللاه تعليلا ان لم يكن رائعا فان فيه لمحة مما نريده[4] .

(١) مفتاح العلوم ص ١٦٤ .
(٢) المثل السائر ج١ ص ٤٢٢ .
(٣) ينظر الايضاح ص ٢٤٠ ، والمثل السائر ج١ ص ٤٢١ .
(٤) ينظر اسرار البلاغة ص ٢٥٧ ، الايضاح ص ٢٤٥ .

٢

اهمية التشبيه والتمثيل :

وتحدث النقاد والبلاغيون عن أهمية التشبيه والتمثيل في التعبير فقال ابن رشيق : « التشبيه والاستعارة جميعا يخرجان الاغمض الى الاوضح ، ويقربان البعيد كما شرط الرماني في كتابه »[١] • ويرى ابن الاثير ان التشبيه يجمع صفات ثلاث هي : المبالغة ، والبيان ، والايجاز • وفائدته : « انك اذا مثلت الشيء بالشيء ، فانما تقصد به اثبات الخيال فى النفس بصورة المشبه به او بمعناه ، وذلك أوكد فى طرفي الترغيب فيه أو التنفير عنه ، الا ترى انك اذا شبهت صورة بصورة هيأحسن منها كان ذلك مثبتا في النفس خيالا حسنا يدعو الى الترغيب فيها ، وكذلك اذا شبهتها بصورة شيء أقبح منها كان ذلك مثبتا في النفس خيالا قبيحا ، يدعو الى التنفير عنها • وهذا لا نزاع فيه »[٢] • وضرب لذلك مثلا فذكر ان ابن الرومي مدح العسل وذمه في بيت من الشعر هو :

تقول : «هذا مجاجُ النحل »تمدحه   وان تعبقلت:«ذا قيءُ الزنابيرِ »

فقد مدح وذم الشيء الواحد بتصريف التشبيه المجازي المضمر

---

(١) العمدة ج١ ص ٢٨٧ •

(٢) المثل السائر ج١ ص ٣٩٤ •

الاداة الذى خيل به الى السامع خيالا يحسن الشيء عنده تارة ويقبح اخرى ، ولولا التوصل بطريق التشبيه على هذا الوجه لما امكنه ذلك .

واجاد عبدالقاهر في ذكر فائدة التشبيه والتمثيل وجمالهما وما لهما من تأثير في الكلام ، يقول : « واعلم ان مما اتفق العقلاء عليهانالتمثيل اذا جاء في أعقاب المعاني ، أو برزت هي باختصار في معرضه ، وتقلت من صورها الاصلية الى صورته كساها أبهة واكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها »[1] . وذكر لذلك عللا واسبابا كل منها يقتضي ان يفخم المعنى التمثيلي ، وينبل ، ويشرف ، ويكمل . واول ذلك وأظهره ان أنس النفوس موقوف على ان تخرجها من خفي الى جلي نحو ان تنقلها عن العقل الى الاحساس ، وعما يعلم بالفكر الى ما يعلم بالطبع .

ذلك ان المعاني التي يجيء التمثيل في عقيبها على ضربين :

غريب بديع : يمكن ان يخالف فيه ويدعى امتناعه واستحالةوجوده كقول الشاعر :

فان تَفُق الانام وانت منهم ... فانّ المسكَ بعضُ دمِ الغزالِ

وذلك انه اراد إنْ فاق الأنام وفاتهم الى حد بطل معه أن يكون بينه وبينهم مشابهة ومقاربة ، بل صار كأنه اصل بنفسه وجنس برأسه، وهذا امر غريب وهو ان يتناهى بعض أجزاء الجنس في الفضائل الخاصة به الى ان يصير كأنه ليس من ذلك الجنس .

والضرب الثاني : ألا يكون المعنى غريبا نادرا ، بل ان ينفي عن فعل من الافعال التي يفعلها الانسان الفائدة ، ويدعي انه لا يحصل منه على طائل ثم يمثله في ذلك بالقبض على الماء أو الراقم فيه فليس بمنكر مستبعد خطأ الانسان في فعله ، أو ظنه ، وأمله وطلبه كما في قول الشاعر :

---

(١) اسرار البلاغة ص ١٢٨ .

فأصبحت من ليلى الغداةَ كقابضٍ على الماءِ خانته فروجُ الاصابعِ

والشاعر هنا أراد أن يبين مقدار خيبة أمله ، فعندما جاء بالتمثيل أراك رؤية لا تشك معها ولا ترتاب انه بلغ في خيبة ظنه ، وبوار سعيه، الى اقصى المبالغ ، وانتهى فيه الى ابعد الغايات حتى لم يحظ لا بأقل ولا باكثر ، وهذا يعود الى التمثيل لانا نعلم ان المشاهـدة تؤثر في النفوس حتى مع العلم بصدق الخبر[١] .

والتمثيل « يعمل عمل السحر فى تأليف المتباين حتى يختصر بعد ما بين المشرق والمغرب ، وهو يريك للمعـاني الممثلة بالاوهـام شبها فى الاشخاص الماثلة ، وينطق لك الاخرس ويعطيك البيان من الاعجم ، ويريك الحياة في الجماد ، ويريك التئام عين الاضداد ، ويجعل الشيء قريبا بعيدا معا »[٢] .

والتمثيل « يأتيك من الشيء الواحد باشـياء عديدة ويشتق من الاصل الواحد اغصانا فى كل غصن ثمر على حدة .. ويعطيك مـن القمر الشهرة في الرجل ، والنباهة ، والعزة ، والرفعة ، ويعطيك الكمال عن النقصان ، والنقصان عن الكمال ، ويعطيك شـبه الانسان في نشأته وتمامه الى ان يبلغ حد التمام ، ثم تراجعه اذا انقضت حدة الشباب . وكذلك يتفرع من حالتي تمامه ونقصانه فروع لطيفة ، وهكذا ينظر الى مقابلته الشمس واستمداده من نورها ، والى كون ذلك سبب زيادته ، ونقصه ، وحصوله في المحاق ، وغير ذلك مما يشبه به من حيث المنظر . هذا الى ان المعنى إذا اتاك ممثلا فهو في الاكثر ينجلي لك بعـد أن يحوجك الى طلبه بالفكرة ومن المركوز في الطبع أن الشيء اذا نيل بعد الطلب له والاشتياق اليه ، كان نيله أحلى ، وكان موقعه من النفس أجل والطف . وذلك يكون بتقرير الشبه بين الاشياء المختلفة[٣] .

---

(١) اسرار البلاغة ص ١٣٨ ـ ١٤٠ .

(٢) اسرار البلاغة ص ١٤٨ .

(٣) اسرار البلاغة ص ١٥٤ وما بعدها .

وسار القزويني على خطاه فذكر ان مما اتفق العقلاء على شرف قدره ، وفخامة أمره في فن البلاغة ، وان تعقيب المعاني به لا سيما قسم التمثيل منه يضاعف قواها في تحريك النفوس الى المقصود بها مدحا كان او ذما او افتخارا او غير ذلك ، وضرب لذلك امثلة منها قول البحتري :

دانٍ على أيدي العفاة وشاسعٌ عن كلِّ نِدٍ في النَّدى وضَريبِ
كالبدرِ أفرط في العلوِ وضوءُه للعصبةِ السارينَ جِدُّ قريبِ

وقول أبي تمام :

واذا أرادَ اللهُ نَشْرَ فضيلةٍ طُويت أتاح لها لسانَ حسودِ
لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورت ماكان يُعْرفُ طيبُ عَرْفِ العودِ

وذكر أن لهذا الحسن ولهذه الروعة أسبابا ، منها ما يحصل للنفس من الأنس باخراجها من خفي الى جلي كالانتقال مما يحصل لها بالفكرة الى ما يعلم بالفطرة ، او باخراجها مما لم تألف الى ما الفته ، ومما تعلمه الى ما هي به اعلم .

ومن فضائل التشبيه انه يأتيك من الشيء الواحد باشياء عدة نحو ان يعطيك من الزند بايرائه شبه الجواد والذكي والنجح في الامور ، وباصلاده شبه البخيل والبليد والخيبة في السعي ، ومن القمر الكمال عن النقصان كما قال ابو تمام :

لَهْفي على تلك الشواهدِ فيهما لو أمهلت حتى تصيرَ شمائِلا
لغدا سكوتُهما حجى وصباهما حلما ، وتلك الاريحية نائِلا
ولأعقب النجمُ المرذُّ بديمةٍ ولعاد ذاك الطلُّ جوداً وابِلا
إنَّ الهلالَ اذا رأيتَ نمُوَّهُ أيقنت أنْ سيصيرُ بدراً كاملا

والنقصان من الكمال كقول ابي العلاء المعري :

وانْ كنت تبغي العيشَ فابْغ توســـطاً
فعنـــد التنـــاهي يقصـــر المتطاولُ
توقى البـــدور النقص وهي أهلّـــة"
ويُدركهـا النقصانُ وهي كوامـــلُ

وكذا ينظر الى بعده وارتفاعه ، وقرب ضوئه وشعاعه ، في نحو ما مضى في بيتي البحترى ، والى ظهوره في كل مكان كمـــا في قـــول المتنبـــى :

كالبدرِ من حيثُ التفتَ وَجَدْتَه   يُهْدي الى عينيك نوراً ثاقبا

وتكلم على الغرض من التشبيه وقسمه الى قسمين : قسم يرجع الى المشبه ، وآخر يعود الى المشبه به •

واغراضه التي ترجع الى المشبه منها : بيان ان وجود المشبه ممكن، وذلك في كل أمر غريب يمكن أن يخالف فيه ، ويُدَّعَى امتناعه كمـا في بيت المتنبي :

فان تَفُـقْ الانـام وأنتَ منهم   فإنَّ المسكَ بعضُ دمِ الغزالِ

أو بيان حاله كما في تشبيه ثوب بثوب آخر في الســواد ، اذا علم لون المشبه به دون المشبَّه ، أو بيان مقدار حـاله في القوة والضعف والزيادة والنقصان كقول الشاعر :

فأصبحت من ليلى الغداةَ كقابضٍ   على الماءِ خانته فروجُ الأصابع

أو تقرير حاله في نفس السامع كما في تشبيه من لا يحصل مـن سعيه على طائل بمن يرقم على الماء،وعليه قوله تعالى : « وإذْ نَتَقْنا الجَبَلَ فَوْقهم كأنَّه ظُلَّة" » [1] •

---

(١) سورة الاعراف ، الآية ١٧١ •

ومنها تزيينه للترغيب فيه كما في تشبيه وجه أسود بمقلة الظبي أو تشويهه للتنفير عنه كبيت ابن الرومي في العسل • او استطرافه كما في تشبيه فحم فيه جمر موقد ببحر من المسك موجه الذهب،لابرازه في صورة الممتنع عادة • وللاستطراف وجه آخر وهو أن يكون المشبَّهُ به نادر الحضور اما مطلقا ، واما عند حضور المشبه كما في قول ابن الرومي :

ولازوردية تزهو بزُرقتها بين الرياض على حُمْرِ اليواقيتِ
كأنها فوق قاماتٍ ضعفن بها أوائلُ النارِ في أطرافِ كبريتِ

ويقول القزويني:« فان صورة اتصال النار بأطراف الكبريت لا يندر حضورها في الذهن ندرة صورة بحر من المسك موجه الذهب ، وانما النادر حضورها عند حضور صورة البنفسج ، فاذا حضر مع صحة الشبه استطرف ، لمشاهدة عناق بين صورتين لا تتراءى ناراهما »[1] •

وليس في هذا التفسير والتعليل ما فى قول عبد القاهر من روعة حيث يقول : « ولذلك تجد تشبيه البنفسج في قوله أغرب، واعجب ، واحق بالولوع ، واجدر من تشبيه النرجس بمداهن در حشوهن عقيق ، لانه اذ ذاك مشبه لنبات غض يرف ، واوراقه رطبة ترى الماء منها يشف بلهب نار مستولٍ عليه اليبس وباد فيه الكلف ، ومبنى الطباع وموضوع الجبلة على أن الشيء اذا ظهر من مكان لم يعهد ظهوره منه وخرج من موضوع ليس بمعدن له كانت صبابة النفوس به اكثر ، وكان بالشغف منها اجدر فسواء في اثارة التعجب واخراجك الى روعة المستغرب وجودك الشيء في مكان ليس من امكنته ، ووجود شيء لم يوجد ولم يعرف من اصله في ذاته وصفته ، ولو انه شبه البنفسج ببعض النبات ، او صادف له شبها في شيء من المتلونات لم تجد له هذه الغرابة ، ولم يخل من الحسن هذا الحظ »[2] •

---

(١) الايضاح ص ٢٣٨ ــ ٢٣٩ •

(٢) اسرار البلاغة ص ١٤٧ ــ ١٤٨ •

وليس فيما ذهب اليه القزويني او عبد القاهر جمال أخّـاذ وتأثير رائع ، وان النفس لا ترتاح للعلاقة بين زهرة البنفسج ـ التي توحي الى النفس بالهدوء والاستسلام وفقدان المقاومة وأوائل النار التي تحمل الى النفس القوة والمهاجمة[1] .

وأغراضه التي ترجع الى المشبه به تكون في الغالب ايهام ان المشبه به أتم من المشبه في وجه الشبه ، وذلك في التشبيه المقلوب ، وهو ان يكون الامر بالعكس كقول محمد بن وهيب :

وبـدا الصباحُ كأنَّ غُرَّتَه   وَجْه الخليفةِ حين يُمْتَدَحُ

والحسن من القزويني ان انتبه هنا الى ما في هذا التعبير من أثر في النفس ، وان المعاني اذا وردت هذا المورد كان لها نوع من السرور عجيب . وقد يكون الغرض بيان الاهتمام بالمشبه به وغير ذلك . واذا اردنا ان نوجز فائدة التشبيه كما رآها القزويني وغيره من البلاغيين فاننا نقول انه يأتي للايجاز والاختصار ، او للتوضيح والتبيين ، او للمبالغة ، أو التوكيد .

هـذا بحث القزويني للتشبيه ، وهو بحث تابع فيه القدماء ، وقرر قواعدهم واصولهم التي رأوها ، وابتعد ـ كما ابتعدوا ـ عن تقرير أثر التشبيه النفسي ، وما يبعثه من ايحاءات وصور جميلة ، وتعلقوا بالقضايا العقلية ، والتقسيمات الشكلية التي لا تجدي نفعا ، ولا توحي بجمال أخّاذ وسحر عجيب ، ولذلك اعتمدوا في عقد التشبيه العقل يعتبرونه رابطا بين امرين او مفرقا بينهما ، ولذلك اعتبر القزويني من التشبيه الرائع قول ابن الرومي :

بذل الوعـد للاخلاّء سمحا   وأبَى بعـد ذاك بذل العطاءِ

فغدا كالخلافِ يُورق للعينِ ويأبَى الاثمارَ كُلَّ الابـاءِ

---

(١) ينظر اسس النقد عند العرب ص ٤٨٨ ، ومن بلاغة القرآن ص ١٨٨ .

وليس في هذين البيتين ما يدعو الى هذا الاعجاب .

ولقد جرتهم هذه النظرة الى ان يضطربوا في اغراض التشبيه فذكر القزويني ان من اغراضه بيان ان وجود المشبه ممكن ، وذلك في كل امر غريب يمكن أن يخالف فيه ويدعى امتناعه ومثل له ببيت المتنبي :

فان تَفُق الانـام وأنت منهم فإنَّ المسكَ بعضُ دمِ الغزالِ

وليس في هذا البيت تشبيه فني مقبول ، فليس الاثر الذي يحدثه المسك في النفس سوى الارتياح لرائحته الذكية ، ولا يمر بالخاطر انـه بعض دم الغزال بل ان هذا الخاطر اذا مر بالنفس قلل من قيمـة المسك ومن التلذذ به[1] .

وليس من اغراضه ما ذكره القزويني من الاسـتطراف ، « فليس تشبيه فحم فيه جمر موقد ببحر من المسك موجه الذهب تشبيها فنيـا على هذا المقياس الذي وضعناه ، فان بحر المسك ذا الموج الذهبي ليس بهذا المصباح الوهاج الذي ينير الصورة ويهبها نورا ووضوحا »[2] .

وقد كان على البلاغيـين ان يستلهموا القرآن الكريم في بحث التشبيه كما استلهمه ابن ناقيا البغدادي ، ويسيروا على منهج ما جاء في الآيات من تشبيهات رائعة ، ويعقدوا المقارنة بينه وبين كلام البلغاء ، ويشيروا الى ما بينها من تفاوت ، لان التشبيه في القرآن ليس عنصـرا اضافيا في الجملة ولكنه جزء أساسي لا يتم المعنى بدونه .

---

(١) ينظر من بلاغة القرآن ص ١٩٠ .

(٢) ينظر من بلاغة القرآن ص ١٩١ .

المجـــاز

١

واذا ما اصر المتأخرون على جعل التشبيه مقدمة لبحث الاستعارة، وأنه ليس من علم البيان ، لان دلالته وضعية ، فانهم لم يستطيعوا ان يخرجوا المجاز منه . فهو عندهم اصل هذا الفن بل هو علم البيان ، وبه يمكن ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة فهو كالكناية وان كان اكثر منها استعمالا،وأوسع تفننا في اداء المعاني والصور الادبية.

والمجاز فن قديم قدم التعبير الادبي نفسه ، عرفـــه المتقدمون واتخذه بعضهم عنوانا لكتبهم كمجاز القرآن لابي عبيدة الذي كان من أقدم الكتب التي وصلت الينا وفيها اشارات كثيرة الى مسائل البلاغة وموضوعاتها ، وان لم يقصد المعنى الاصطلاحي له ، وانما عنى بمجاز الآية ما يعبر به عنها[١] .

واهتم النقاد والبلاغيون بعرض صور المجاز وانواعه وان لم يهتموا به كما اهتموا بالتشبيه والاستعارة ، ولم يحدد معنى هذا المصطلح الا بعد القرون الثلاثة الاولى والى هذا يشير ابن تيمية (٧٢٨ هـ) ويذكر ان تقسيم اللفظ الى حقيقة ومجاز اصطلاح حادث بعد القرون الثلاثـة

---

(١) ينظر البلاغة عند السكاكي ص ٨١ .

الاولى ، والغالب انه كان من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين[1] .

تفسيم الاوائل :

وعندما وضع عبد القاهر كتابيه المشهورين اخذ هذا الفن البياني منزلتـه واستقرت قواعده واصوله ، يقول في تعريفه : « وأمـا المجاز فكل كلمة اريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والاول فهو مجاز . وان شئت قلت : كل كلمة جزت بها ما وقعت له في وضع الواضع الى ما لم توضع له ، من غير ان تستأنف فيها وضعا لملاحظة بين ما تجوز بها اليه وبين اصلها الذي وضعت له في وضع واضعها فهي مجاز »[2] . وقَسَّمَ المجاز الى عقلي ولغوي ، وفَرَّقَ بينهما ، وانتهى الى انه « ينبغي ان تعلم ان من حقك ان اردت ان تقضي في الجملة بمجاز أو حقيقة أن تنظر اليها من جهتين :

احداهما : ان تنظر الى ما وقع بها من الاثبات أهو في حقه وموضعه أم قد زال عن الموضع الذي ينبغي ان يكون فيه .

والثانية : ان تنظر الى المعنى المثبت اعني ما وقع عليه الاثبات كالحياة في قولك : « أحيا الله زيدا » ، أثابت هو على الحقيقة أم قد عدل به عنه »[3] .

فمثال ما دخله المجاز من جهة الاثبات دون المثبت قول الشاعر :

أشاب الصغيرَ وأفنى الكبيرَ　　كَرُّ الغداةِ ومَرُّ العَشيِّ

المجاز واقع في اثبات الشيب فعلا لكر الليالي ، وهو الذي ازيل عن موضعه الذي ينبغي أن يكون فيه ، لان من حق هذا الاثبات ألا يكون إلا مع اسماء الله تعالى ، واما المثبت فلم يقع فيه مجاز لانه

---

(١) كتاب الايمان ص ٣٥ .

(٢) اسرار البلاغة ص ٣٩٨ .

(٣) اسرار البلاغة ص ٤١١ .

الشيب وهو موجود •

ومثال ما دخل في المجاز في مثبته دون اثباته قوله عز وجل : «أو مَنْ كان مَيْتاً فأحييناه، وجعلنا له نورا يمشي به في الناس»[1]. فالمعنى على ان جعل العلم والهدى والحكمة حياة للقلوب، ومن الواضح في قوله تعالى : « فاحيينا به الأرضَ بعد مَوْتِها »[2] جعل خضرة الارض ، ونضرتها بما يظهره الله تعالى فيها من النبات والازهار ، حياة لها ، فكان ذلك مجازا في المثبت من حيث جعل ما ليس بحياة حياة على التشبيه ، فاما نفس الاثبات فحقيقة ، لان الذى فعل ذلك هو الله •

وقد يتصور ان يدخل المجاز للجملة من الطريقين جميعا ، وذلك ان يشبه معنى ، بمعنى ، وصفة بصفة ، فيُستعار لهذه اسم تلك ثم تثبت فعلا لما لم يصح الفعل منه فيكون في كل واحد من الاثبات والمثبت مجاز كما في قول المتنبي :

وتُحيِي له المالَ الصوارمُ والقنا ويقتل ما يُحيي التبسمُ والجدا

جعل الزيادة والوفور حياة في المال ، وتفريقه في العطاء قتلا له ، ثم اثبت الحياة فعلا للتبسم مع العلم بان الفعل لا يصح منهما • فاذا كان المجاز في الاثبات لزم الا يحصل الا بالجملة التى هى تأليف بين حديث ومحدث عنه ، وكان المرجع فيه الى العقل المحض وأنه القاضي فيه دون اللغة ، لان اللغة لم تأت لتحكم بحكم أو لتثبت ونبقي وما يعترض على هذه الدعوى من تصديق او تكذيب هو اعتراض على المتكلم وليس اللغة في ذلك مدخل في قليل ولا كثير • أما اذا كان المجاز في المثبت كقوله تعالى : « فاحيينا به الارض » فانما كان مأخذه اللغة ، لان طريقه أن اجرى اسم الحياة على ماليس بحياة تشبيها وتمثيلا ، واللغة هى التى اقتضت ان تكون الحياة اسما للصفة التى هى ضد الموت • فاذا تجوز

---

(1) سورة الانعام ، الآية ١٢٢ •

(2) سورة فاطر ، الآية ٩ •

في الاسم فاجري على غيرها فالحديث مع اللغـــة ، والاول هو المجاز العقلي ، والثاني المجاز اللغوي .

ولا يكون الكلام مجازا من غير علاقة وهي الامر الذى يكون به الارتباط بين المعنى الحقيقى والمعنى المجازى وبه الانتقال مـــن الاول للثانى كالمشابهة في مجاز الاستعارة ، وكالسببية والمسببية فى المجـــاز المرســـــل .

وسار البلاغيون على خطا عبد القاهر في بحث المجـــاز ، وقَسَّمه السكاكى الى مجاز لغوى ، ومجاز عقلي . وقَسَّم بحث المجاز الـــى خمسة فصول هى : المجاز اللغوى الراجع الى معنى الكلمة غير المفيد ، والمجاز اللغوى الراجع الى المعنى المفيد الخالى عن المبالغة في التشبيه ، والاستعارة ، والمجاز اللغوى الراجع الى حكم الكلمة في الكـــلام ، والمجاز العقلى . وهذا تقسيم السلف كما صرح السكاكى به ، ولـــم يقبله ورأى ان المجاز ينبغى ان يكون كله لغويا ، وقَسَّمه الى مفيد ، وغير مفيد . وقَسَّم المفيدالى استعارة وغير استعارة ، والاستعارةالى انواعها المختلفة .

تقسيم القزويني :

وعندما جاء القزوينى لم يسر على هذا المنهج في تقسيم المجاز ،وانما قسمه الى مجاز مفرد ، ومركب . وقال عن المفرد : « اما المفرد فهـــو الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له في اصطلاح به التخاطب على وجه يصح مع قرينة عدم ارادته »[1] . وهو لغوى ، وشرعـــى ، وعرفى . وقال عن المركب : « واما المجاز المركب فهو اللفظ المركب المستعمل فيما شبه بمعناه الاصلي تشبيه التمثيل للمبالغة في التشبيه »[2] كقول الوليد بن يزيد : « فانى اراك تقدم رجلا وتؤخر اخرى » ، وقوله تعـــــالى :

---

(١) الايضاح ص ٢٦٨ .
(٢) الايضاح ص ٣٠٤ .

« والأَرْضُ جميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيامةِ »[1] • وهــذا ما يسمى التمثيل على سبيل الاستعارة وقد يسمى التمثيل ، يقول «ومتى فشا استعماله كذلك سمي مثلا ، ولذلك لا تغير الامثال »[2] والمجاز المفرد اما مرسل أو استعارة • ولم يدخل المجاز العقلي في هذا البحث ، لانه تكلم عليه في علم المعاني •

وقد جرّ البحث في المجاز الى الكلام على الحقيقة ، فعرفوها ، وذكروا أنواعها ، والى ذلك ذهب القزويني وتابعهم في تعريفهـــا وتقسيماتها ، يقول عنها : « الحقيقة الكلمة المستعملة فيما وضعــت له في اصطلاح به التخاطب »[3] • وقسّمها الى لغوية ، وشرعيــة ، وعرفية خاصة ، او عامة ، وهــذا ما تعارف عليه البلاغيون عنــد بحث الحقيقة والمجـــاز •

ولما كنا قد صورنا منهج القزويني في بحث المجاز فاننا نبدأ بجمع مباحثه ، وضمّ بعضها الى الآخر •

---

(١) سورة الزمر ، الآية ٦٧ •
(٢) الايضاح ص ٣٠٧ •
(٣) الايضــاح ص ٢٦٥ •

٢

المجاز العقلي :

كان عبد القاهر من أوائل الذين بحثوا هذا النوع من المجاز ،وقد أولاه عناية كبيرة ، وفَصَّل فيه تفصيلا عظيما ، يقول : « وحَدُّه أنَّ كل كلمة اخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه فى العقل لضرب من التأول فهو مجاز »[١] . وسماه مجازا عقليا ، ومجازا حكميا ، ومجازا في الاثبات ، واسنادا مجازيا[٢] . وسماه السكاكي مجازا عقليا وتابعه القزوينى في ذلك . وعلل المتأخرون هذه التسميات المختلفة فقال المغربى : « ومن الاسناد مطلقا مجاز عقلى ، لان حصوله بالتصرف العقلى ، ويسمى مجازا حكميا لوقوعه في الحكم بالمسند اليه ، ويسمى أيضا مجازاً في الاثبات لحصوله في اثبات احد الطرفين للآخر ، والسلب حقيقته ومجازه تابعة لما يحق في الاثبات كما تقدم ، ويسمى ايضااسنادا مجازيا نسبة الى المجاز بمعنى المصدر لان الاسناد جاوز به المتكلم حقيقته واصله الى غير ذلك »[٣] . ويرى السبكي أن يسمى هذا « مجاز الملابسة » ، ولا يقال مجاز اسناد لقلة استعمال الاسناد بين الفعل وفاعله أو ما قام مقامه . ولعل الذى دعاه الى ذلك أنه وجدأن علاقة المجاز العقلى هى الملابسة كما يفهم من كلام القزوينى ، وانه لا بد منها في كل مجاز عقلى، والى ذلك يشير السيوطى بقوله :«المجاز

---

(١) اسرار البلاغة ص ٤٣٠ .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٢٢٧ ، ٢٣١ ، واسرار البلاغة ص ٤١١ .

(٣) مواهب المفتاح ج١ ص ٢٣١ .

في التركيب ، ويسمى مجاز الاسناد ، والمجاز العقلي ، وعلاقته الملابسة، وذلك أن يسند الفعل أو شبهه الى غير ما هو له اصالة لملابسته لـــه كقوله تعالى : « وإذا تُليتْ عليهم آياتُه زادتهم إيماناً » [١] .

واذا ما ذهبنا نستقصي بحث المجاز العقلى عند القدماء فاننـــا لا نجدهم يشيرون الى اسمه هذا او الى انواعه ، وان رأينابعض امثلته في كتاب سيبويه كقول الخنساء :

ترعى اذا نسيت حتى اذا ادكرت — فانما هى إقبالٌ وادبارُ

وكقولهم « نهارك صائم » و « ليلك قائم »[٢] . وهو عنـــده محمول على السعة والحذف . وفي كتاب الكامل للمبرد كقول جرير :

لقد لمتنا يا أمَّ غيلان في السرى — ونمت وما ليلُ المطــي بنائمِ

وقول رؤبة بن العجاج :

حارث قد فَرَّجْتَ عني غَمِّي — فنـــام ليلي وتجلَّى هَمِّي

وقول العرب « نهارك صائم » و « ليلك قائم »[٣] . وهو في ذلك يذهب مذهب سيبويه فيه ، الا انه يرى أن في هذه الاساليب مبالغـة الى جانب السعة والحذف .

ونجد امثلة للمجاز العقلى في « الموازنة » للآمدى ، و «الصاحبى» لاحمد بن فارس ، ولكن هؤلاء لم يتكلموا عليه كما تكلم عبد القاهر ، ومن هنا ذهب الدكتور طه حسين الى أن المجاز العقلى من ابتكـــار عبدالقاهر الجرجاني[٤] . وهـــذا رأي كان العلوي قد نبـــه اليه من قبل وقال : « اعلم أن ما ذكرناه في المجاز الاسنادى العقلى هو ما قرره

---

(١) سورة الانفال ، الآية ٢ . ينظر الاتقان في علوم القرآن ج٢ ص ٣٦ .
(٢) كتاب سيبويه ج١ ص ١٦٩ ، وتنظر ص ٨٠ ، ٨٩ ، ١٠٨ ، ١١٠ .
(٣) الكامل ج١ ص ١١٨ ، ١٨٨ ، ج٣ ص ١١٧٠ .
(٤) البيان العربي من الجاحظ الى عبد القاهر ـ مقدمة نقد النثر ص ٢٩ .

الشيخ النحرير عبد القاهر الجرجاني ، واستخرجه بفكرته الصافية ، وتابعه على ذلك الجهابذة من اهل هذه الصناعة كالزمخشري وابن الخطيب الرازي وغيرهما »[1] .

والمجاز الواقع في الاثبات عند عبد القاهر متلقى من العقل ، وفي المثبت متلقى من اللغة ، فالاول عقلي والثاني لغوي ، وذلك ان الاثبات اذا كان من شرطه ان يقيد مرتين ولزم من ذلك الا يجعل الا بالجملة التي هي تأليف بين حديث ومحدث عنه ، أو مسند ومسند اليه علمت أن مأخذه العقل وانه القاضي فيه دون اللغة ، لان اللغة لم تأْتِ لتحكم بحكم أو لتثبت وتنفي[2] . وتحدث عنه في كتابيه « دلائل الاعجاز » و « أسرار البلاغة » وفَصَّل القول فيه . وخلاصة ما قاله أن في الكلام مجازا يكون التجوز في حكم يجرى على الكلمة وتكون الكلمة متروكة على ظاهرها ويكون معناها مقصودا في نفسه ومرادا من غير تورية ولا تعريض ، والمثال فيه قولهم « نهارُكَ صائمٌ » و « ليلُكَ قائِمٌ » و « نام ليلي وتجلّى همي » .وقوله تعالى :« فما رَبِحت تِجارَتُهم »[3] وقول الفرزدق :

سقاها خروقٌ في المسامع لم تكن علاطا ولا مخبوطةً في الملاغمِ[4]

يقول : « انت ترى مجازا في هذا كله ، ولكن لا في ذوات الكلم وأنفس الالفاظ ، ولكن في احكام اجريت عليها . أفلا ترى انك لم تتجوز في قولك « نهارك صائم » و « ليلك قائم » في نفس «صائم » و « قائم » ولكن في أن اجريتهما خبرين على النهار والليل . وكذلك ليس المجاز في الآية في « ربحت » نفسها ولكن في اسنادها الى التجارة،

(١) الطراز ج٣ ص ٢٥٧ .
(٢) اسرار البلاغة ص ٤١٩ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ١٦ .
(٤) علط الناقة : وسمها بالعلاط . والعلاط : صفحة العنق ، او حبل يجعل في عنق البعير . الملغم : الفم والانف وما حولهما . ج : ملاغم .

وهكذا الحكم في قوله « سقاها خروق » ليس التجوز في « سقاها » ولكن في ان اسندها الى الخروق . أفلا ترى انك لا ترى شيئا منها الا وقد اريد به معناه الذى وضع له على وجهه وحقيقته ، فلم يرد بـ« صائم » غير الصوم ولا بـ « قائم » غير القيام ، ولا بـ « ربحت » غير الربح ، ولا بـ « سقت » غير السقي ، كما أريد في قوله :

وســـالت باعناقِ المَطِيِّ الأباطحُ

غير السبيل »[1] .

وذكر أمثلة كثيرة له ، وقارنها بمجاز الحذف ، وأظهر ما في المجاز العقلي من روعة لا تكون في غيره[2] .

ويرى عبدالقاهر انه ليس بواجب في المجاز العقلي ان يكون للفعل فاعل في التقدير اذا انت نقلت الفعل اليه عدت به الى الحقيقة مثل انك تقول في : « ربحت تجارتهم » : ربحوا في تجارتهم ، وفي « يحمي نساءنا ضرب » : نحمي نساءنا بضرب ، فان ذلك لا يتأتى في كل شيء ، ألا ترى انه لا يمكنك أن تثبت للفعل في قولك : « اقدمنى بلدك حقٌ لي على انسان » فاعلا سوى الحق ، وكذلك لا تستطيع فى قوله :

وَصَيَّرني هـــواكِ وبـــي لِحَيْني يُضْرَبُ المَثَـــلُ

وقـــولـــــه :

يَزيدُك وَجْهُـــهُ حُسْنًا اذا ما زِدْتَـــه نَظَـــرا

ان تزعم أن لـ « صيرني » فاعلا قد نقل عنه الفعل فجعل للهوى كما في « ربحت تجارتهم » و « يحمي نساءنا ضرب » . ولا تستطيع كذلك ان تقدر لـ « يزيد » في قولك « يزيدك وجهه » فاعلا غـــير

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٢٨ ، وينظر كلامه في اسرار البلاغة ص ٤٥٠ وما بعدها .
(٢) ينظر دلائل الاعجاز ص ٢٣٣ وما بعدها .

الوجــــه » [1] .

وهذا المجاز ـ كما يرى عبدالقاهر ـ كنز من كنوزالبلاغة ،ومادة الشاعر المفلق ، والكاتب البليغ في الابداع ، والاحسان ، والاتســاع في طرق البيان . وسبب اللطف فيه أنه ليس كل شيء يصلح لان يتعاطى فيه هذا المجاز بسهولة ، بل تجدك في كثير من الامر وانت تحتاج الى ان تهيء الشيء وتصلحــه لذلك بشيء تتوخاه في النظم ، وان اردت مثالا في ذلك فانظر الى قوله :

تناسَ طِــــلابَ العامرية إنْ نأتْ
بــأسجعَ مرقــالِ الضحى قلقِ الضّفرِ
اذا مـــــا احسته الافــــاعى تحيّزت
شــواة الافاعى فى مثلمــــة سُمْرِ
تجوب له الظلماءَ عينٌ كأنهــــا
زجاجةُ شَرْبٍ غير مـلأى ولا صفرِ

يصف جملا ويريد أن يهتدي بنور عينه في الظلمــاء ، ويمكن بها أن يخرقها ، ويمضي فيها ، ولولاها لكانت الظلماء كالسد والحـــاجز الذى لا يجد شيئا يفرجه به ، ويجعل لنفسه فيه سبيلا . فأنــت الان تعلم أنه لولا انه قال « تجوب له » فعلق « له » بـ « تجوب » لمـا صلحت العين لان يسند « تجوب » اليها ، ولكان لا تتبين جهــــة التجوز في جعل « تجوب » فعلا للعين كما ينبغي ، وكذلك تعلم أنه لو قال مثلا « تجوب له الظلماء عينه » لم يكن له هذا الموقع ، ولاضطرب عليه معناه ، وانقطع السلك من حيث يعيبه حينئذ ان يصف العين بمـا وصفها به الآن فتأمل هذا واعتبره » [2] .

واستفاد الزمخشري في كشافه من آراء عبـد القاهر ومن ذلك

---

(1) دلائل الاعجاز ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .
(2) دلائل الاعجاز ص ٢٣١ .

تفسيره لقوله تعالى : « فما ربحت تجارتهم » يقول : « قلت هو من الاسناد المجازي ، وهو ان يسند الفعل الى شيء يتلبس بالذي هو في الحقيقة له كما تلبست التجارة بالمشترين »[1] .

وسار الرازي على خطا عبد القاهر وخالفه احيانا ، فهو بعد ان عرض رأي عبدالقاهر قال : « هذا رأيه وفيه نظر ، لان الفعل يستحيل وجوده الا من الفاعل ، فالفعل المسند الى شيء أما ان يسند الى ما هو مستند فى ذاته اليه فيكون الاسناد حقيقيا ، واذا لم يسند الى ذلك الشيء فلا بد من شيء آخر يكون هو مستنداً لذاته اليه ، وإلا لزم حصول الفعل لا عن الفاعل وهو محال . واما قولك « اقدمني بلدك حق لي » فالاقدام عبارة عن فعل القادر للقدوم ، والقادر فى فعله للشيء لا يحتاج الا الى الداعي ، وهو العلم والاعتقاد لكون الفعل مصلحة وذلك هنا حاصل لان علمه بان له فى تلك البلدة حقا هو الحامل له على ذلك الفعل . واذا ثبت ذلك ظهر انه لا مجاز في هذا الكلام أصلا ، لان الإقدام حاصل وذلك لا يستدعي الا الغرض والغرض هو ذلك الحق ، فاذن لا مجاز فى هذا الكلام ، اللهم الا ان يقال الداعي هو العلم بذلك الحق لا نفسه فيكون مجازا من هذا الوجه ، ولكن لو ثبت ذلك بطل دعواه لان المجاز ههنا اظهر من وجود الحقيقة . وأماقوله « يزيدك وجهه حسنا » فالزيادة في الحسن لها فاعل حقيقي وهو الله تعالى ، وكذلك القول في سائر الامثلة المذكورة »[2] .

ولما وضع السكاكي البلاغة وضعها الاخير ، بحث المجاز العقلي في علم البيان وقال عنه : « المجاز العقلي هو الكلام المفاد به خلاف ماعند المتكلم من الحكم فيه لضرب من التأويل افادة الخلاف لابوساطة وضع كقولك : « أنبت الربيع البقل » و « شفى الطبيب المريض » و

(١) الكشاف ج١ ص ٥٣ ، وينظر المطول ص ٥٨ .

(٢) نهاية الايجاز في دراية الاعجاز ص ٥٢ – ٥٣ .

« كسا الخليفة الكعبة » و « هزم الامير الجند » و « بنى الوزير القصر »[1] .

وتابع عبد القاهر ولكنه خالفه في انه لا يجوز ان لا يكون فاعل للافعال في مثل « سرتني رؤيتك » و « اقدمني بلدك حق لي على فلان » ، وفي قول الشاعر :

وصَيَّرني هواكِ وبي ... لِحَيني يُضْرَبُ المَثَلُ

ومثل :

يَزيدُكَ وَجْهُهُ حُسْناً ... اذا ما زِدْتَه نَظَرا

لانه يرى ان المجاز لا يتحقق مهما كان بدون حقيقة يكون متعديا عنها لامتناع تحقق فرع من غير أصل ، ولهذا فانه لا يجوز في الامثلة المتقدمة « ان لا يكون لكل من هذه الافعال فاعل في التقدير اذا أنت اسندت الفعل اليه وجدت الحكم واقعا في مكانه الاصلي عند العقل »[2] . وكان عبد القاهر قد رأى غير هذا ، وذكر أنه ليس بواجب في هذا أنْ يكون للفعل فاعل في التقدير .

وبعد أن بحث السكاكي المجاز العقلي في علم البيان ، عاد وأنكره، ورأى نظمه في سلك الاستعارة بالكناية وذلك بجعل الربيع في « انبت الربيع البقل » استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقي بواسطة المبالغة في التشبيه على ما عليه مبنى الاستعارة ، وجعل نسبة الانبات اليه قرينة الاستعارة ، وبجعل الاميرفي « هزم الامير الجند » المدبرلاسباب هزيمة العدو إستعارة بالكناية عن الجند الهازم ، وجعل نسبة الهزم اليه قرينة للاستعارة[3] .

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٨٥ .
(٢) مفتاح العلوم ص ١٨٧ .
(٣) مفتاح العلوم ص ١٨٩ .

وما ذهب اليه السكاكي حاصل شبهة ذكرها عبدالقاهر، ورد عليها يقول في اسلوب « صاغ الربيع الوشي » : « فان قلت : اليس الكلام على الجملة معقودا على تشبيه الربيع بالقادر في تعلق وجود الصوغ والنسج به فكيف لم يجز دخول « كأنّ » في الكلام من هذه الجهة ، فان هذا التشبيه ليس هو التشبيه الذى يعقد في الكلام ويفاد بـ « كأنّ » و « الكاف » ونحوهما ، وانما هو عبارة عن الجهة التي راعاها المتكلم حين اعطى الربيع حكم القادر في اسناد الفعل اليه ، ووزانه وزان قولنا انهم يشبهون « ما » بـ « ليس » فيرفعون بها المبتدأ وينصبون بها الخبر فيقولون : « ما زيد منطلقا » فنخبر عن تقدير قدروه في نفوسهم وجهة راعوها في اعطاء « ما » حكم « ليس » في العمل ، حكما لا يتصور ان يكون قولنا « ما زيد منطلقا » تشبيهاعلى حد « كأن زيدا الاسد » كذلك لا يكون « صاغ الربيع » من التشبيه ، فكلامنا اذن في تشبيه منقول منطوق به وأنت في تشبيه معقول غير داخل في النطق ، هذا وان يكن ههنا تشبيه فهو في الربيع لا في الفعل المسند اليه . واختلافنا في صاغ وحاك هل يكون تشبيها واستعارة ام لا ، فلا يلتقي الشبيهان أو يلتقي المشئم والمعرق »[١] .

وسار السكاكي على ضوء هذه الشبهة فانكر المجاز العقلي،ونظمه في سلك الاستعارة بالكناية ، مع أن علاقة الاستعارة المشابهة وعلاقته خلاف ذلك .

واعتبر القزويني هذا المجاز مجازا بالاسناد ، وأخرجه من علم البيان ، وادخله في علم المعاني وعقد له فصلا بعنوان « الاسناد منه حقيقة عقلية ومنه مجاز عقلى » وقال عنه : « اننا لم نورد الكلام في الحقيقة والمجاز العقليين في علم البيان كما فعل السكاكى ، ومن تبعه لدخوله في تعريف علم المعانى دون تعريف علم البيان »[٢] .

---

(١) اسرار البلاغة ص ٤٢٩ .
(٢) الايضاح ص ٣١ .

ابتدأ بحث المجاز العقلي في تعريف الحقيقة العقلية ، وذكر أقسامها، يقول : « اما الحقيقة : فهي اسناد الفعل او معناه الى ما هو له عند المتكلم في الظاهر »[1] . وهي اربعة اضرب : ما يطابق الواقع واعتقاده كقول المؤمن : « أنبت الله البقل » ، وما يطابق الواقع دون اعتقاده كقول المعتزلي لمن لا يعرف حاله وهو يخفيها عنه : « خالق الافعال كلها هو الله تعالى » ، وما يطابق اعتقاده دون الواقع كقول الجاهل « شفى الطبيب المريض » ، ومالا يطابق شيئا منهما كالاقوال الكاذبة التي يكون القائل عالما بحالها دون المخاطب . وعرّف المجاز العقلي بقوله : « واما المجاز فهو اسناد الفعل أو معناه الى ملابس له غير ما هو له بتأول »[2] .

وللفعل ملابسات شتى ذكرها القزويني ، فهو يلابس الفاعل ، والمفعول به ، والمصدر ، والزمان ، والمكان ، والسبب . وهذه هي أنواع العلاقة فيه كقوله في المفعول به « عيشة راضية » و « ماءدافق» وفي عكسه « سيل مفعم » وفي المصدر « شعر شاعر » . وقد ذهب السبكي الى ان هذا المثال ليس صحيحا لان « شعراً » في قولنا «شعر شاعر » المراد به المشعور وهو نفس المنظوم لا الشعر الذي هو المصدر، والمثال الصحيح قول الشاعر :

سيذكرني قومي اذا جَدَّ جِدُّهم وفي الليلةِ الظلماءِ يُفتَقَدُ البَدْرُ

وقوله تعالى « فاذا نُفِخَ في الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ »[3]

ومنه قولهم في الزمان « نهاره صائم » و « ليله قائم » ، وفي المكان « طريق سائر »و « نهر جار » . وفي السبب « بنى الامير المدينة » .

وذكر التفتازاني ، وابن يعقوب المغربي أنّ الاسناد العقلي يجري

---

(١) الايضاح ص ٢١ .
(٢) الايضاح ص ٢٢ .
(٣) سورة الحاقة ، الآية ١٣ . ينظر عروس الافراح ج١ ص ٢٣٦ .

في النسبة غير الاسنادية من الاضافية والايقاعية نحو : « اعجبني انبات الربيع وجري الانهار » ، قال الله تعالى : « ولا تُطيعوا أمْرَ المسرفينَ »[1] • ومعنى هذا ان المجاز اوسع مما ذكره السكاكي والقزويني •

وعلّلَ المغربي اعتبار النسبة الايقاعية والاضافية مجازية بقوله : « وانما جعلت النسبة الايقاعية والاضافية مجازية لانه تجوز بها عما ينبغي لها من كون الوقوع على المفعول به الحقيقي في الاولى وكون الاضافة الى الفاعل الحقيقي في الثانية الى غيرهما كما تجوز بالاسناد عما ينبغي له الى غيره فكانت النسبة فيما ذكرت مجازية الا انها قد تكون مع ذلك كناية عن المجاز الاسنادي كقولهم « سل الهموم »[2] •

وسمي الاسناد في هذين الضربين من الكلام عقليا لاستناده الى العقل دون الوضع ، لان اسناد الكلمة شيء يحصل بقصد المتكلم دون واضع اللغة فلا يصير « ضرب » خبرا عن « زيد » بواضع اللغة ، بل بمن قصد اثبات الضرب لا لاثبات الخروج وانه لاثباته في زمن ماض وليس لاثباته في زمان مستقبل ، فاما تعيين من ثبت له فانما يتعلق بمن اراد ذلك من المخبرين ، ولو كان لغويا لكان حكمنا بانه مجاز في مثل قولنا « خط أحسن مما وشى الربيع » من جهة ان الفعل لا يصح الا من الحى القادر حكما بان اللغة هى التى اوجبت ان يختص الفعل بالحى القادر دون الجماد ، وذلك مما لا يشك في بطلانه • وهذا ما تكلم عليه عبد القاهر بالتفصيل ، وذكر الامثلة نفسها ، وتابعه القزويني في الشرح والتحليل[3] •

والمسمى بالحقيقة العقلية والمجاز العقلى عند السكاكى هو الكلام

---

(١) سورة الشعراء ، الآية ١٥١ . ينظر المختصر ج١ ص ٢٤٠ ، والمطول ص ٥٩ ، ومواهب الفتاح ج١ص ٢٤٠ وما بعدها .

(٢) مواهب الفتاح ج١ ص ٢٤١

(٣) اسرار البلاغة ص ٤٥٠ والايضاح ص ٢٣ .

لا الاسناد ، وهذا يوافق كلام عبد القاهر في مواضع من « دلائل الاعجاز » ، أما عند القزويني فهو الاسناد لا الكلام وهذا ظاهر ما نقله ابو عمرو بن الحاجب من عبد القاهر وهو قول الزمخشري في الكشاف[1] .

وعلل سبب اختياره هذا الرأي بقوله : « وانما اخترناه ، لان نسبة المسمى حقيقة أو مجازا الى العقل على هذا لنفسه بلا وساطة شيء ، وعلى الاول لاشتماله على ما ينتسب الى العقل،أعني الاسناد»[2]، وأيَّدَهُ السبكي فقال : « قلت : بل لا يصح من جهة المعنى الا ذلك ، والسكاكي في جميع الباب يقول اسناد حقيقة واسناد مجاز كما قال غيره »[3] .

وقسم الخطيب المجاز العقلي باعتبار طرفيه الى أربعةاقسام، فهما اما حقيقتان مثل « انبت الربيع البقل » وعليه قول رؤبة بن العجاج :

حارث قد فَرَّجْتَ عني غَمِّي فنام ليلي وتَجلَّى هَمِّي

وقول جرير :

رشيَّبَ ايام الفراق مفارقي وانشزن نفسي فوق حَيْثُ تكونُ

وقوله :

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى ونمت وما ليلُ المطي بنائمِ

واما مجازان مثل « أحيا الارضَ شبابُ الزمان » .

واما مختلفان مثل:«انبتَ البقلَ شبابُ الزمان »،و« احياالارضَ الربيع » وعليه قول الرجل لصاحبه « احيتني رؤيتك » ، أي آنستني

---

(١) ينظر عروس الافراح ج١ ص ٢٤٨ .
(٢) الايضاح ص ٣٦ .
(٣) عروس الافراح ج١ ص ٢٤٨ .

وسرتني • ومثله قول المتنبي :

وتحيي له المال الصوارم والقنا ويقتل ما تحيي التبسم والجدا

وهذه أقسام الحقيقة العقلية نفسها ، لكن يختلف الحال بالنظر لمن صدرت منه من كونه مؤمنا أو جاهلا •

وترك القزويني بيان اقسام الحقيقة لعلمها بالمقايسة ولقلة الاهتمام بحالهـا •

وما ذكره القزوينى من اقسام المجاز العقلى مبني على مذهبه ومذهب الجمهور ممن عدم رده الى الاستعارة المكنية ، وأما على مذهب السكاكي ومن رده اليها « فطرفاه حينئذ لا يكونان الا مجازين إنْ كان التخييل مجازا ، أو مجازا وحقيقة إنْ كان التخييل حقيقة »[1] •

وكرر القزوينى ما قاله عبد القاهر والسكاكى من أن المجاز العقلي كثير في القرآن الكريم وضرب له امثلة كقوله تعالى : « واذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيماناً »[2] • وقوله « وذلكُم ظَنُّكُم الذي ظننتم بربكم أرداكُم »[3] • وقوله « يُذَبِّحُ أبناءَهُم »[4] • وقوله : « يَنْزِعُ عنهما لباسَهُما »[5] • وقوله : « ألم تَرَ الى الذين بَدَّلُوا نعمةَ اللهِ كُفْراً وأحَلُّوا قومهم دارَ البَوار؟»[6] • وقوله « يَوماً يَجْعَلُ الولدانَ شِيبا »[7] • وقوله « وأخرَجَتِ الارضُ أثقالَها »[8] •

---

(١) حاشية الدسوقى ج١ ص ٢٤٨ •
(٢) سورة الانفال ، الآية ٢ •
(٣) سورة فصلت ، الآيــة ٢٣ •
(٤) ســورة القصص ، الآيــة ٤ •
(٥) ســورة الاعراف ، الايــة ٢٧ •
(٦) سورة ابراهيم ، الآيــة ٢٨ •
(٧) ســورة المزمل ، الآيــة ١٧ •
(٨) سورة الزلزلة ، الآيــة ٢ •

ولا يختص المجاز العقلي بالخبر بل يجري في الانشاء كقوله تعالى: « وقال فرعونُ ياهامانُ ابْنِ لي صَرْحا »[1] • وقوله « فأوْقِدْ لِي يا هامانُ على الطينِ فاجْعَلْ لي صَرْحاً » [2] • وقوله : « فلا يُخْرِجَنَّكُما من الجَنَّةِ فَتَشْقَى » [3] •

وفي هذا رد على الظاهرية الذين يذهبون الى عدم وقوع المجاز العقلي في القرآن لايهام المجاز الكذب ، والقرآن منزه عنه • وهو رأي بعيد عن اسلوب العرب في التعبير ، ونرى ان القزويني وغيره قد احسن حينما قرر أنَّ القرآن الكريم لا يخلو من هذا الاسلوب العربي، وان التعبير به حسن جيد ما دامت فيه قرينة تمنع الايهام او الكذب •

ولا بد للمجاز العقلي من قرينة اما لفظية كما في قول ابي النجم :

قد أصبحت أمُّ الخيار تَدَّعي   عليَّ ذنباً كله لم أصْنَعِ
مِنْ أنْ رأت رأسي كرأسِ الاصلع
مَيَّزَ عنه قُنْزُعاً في قُنْزُعِ [4]
جذب الليالي أبطِئي أو اسرعي

فهو مجاز بدليل قوله بعده :

أفناهقيلُ اللهِ للشمسِ :اطلُعي   حتى اذا واراكِ أفْقٌ فارجِعِي

او غير لفظية أي معنوية كاستحالة صدور المسند من المسند اليه المذكور أو قيامه به عقلا مثل « محبتك جاءت بي اليك » او عادة مثل « هزم الامير الجند » و « كسا الخليفة الكعبة » و « بنى الوزير القصر » وكصدور الكلام من الموحد في قول الحماسي :

---

(١) سورة غافر ، الآية ٣٦ •
(٢) سورة القصص ، الآية ٣٨ •
(٣) سورة طه ، الآية ١١٧ •
(٤) القنزع : الخصلة من الشعر تترك على رأس الصبي ، الشعر حول الراس •

أشابَ الصغيرَ وأفنى الكبيرَ   كَرُّ الغَـداةِ ومَرُّ العشـي

وتابع عبدالقاهر والرازي في انه لا بد من التلطف، عنـد التجوز ، ونقل كلام الاول وتعليقه على الابيات المتقدمـة في وصف الجمل[1] . وخالف عبدالقاهر في انه لا بد لكل مجاز من حقيقة ، وتابـع الرازي والسكاكي وذهب الى ان الفعل المبني للفاعل في المجاز العقلي واجب ان يكون له فاعل في التقدير اذا اسند اليه صار الاسناد حقيقـة ، وذكـر أمثلتهما . ولعل في قوله « وقد يكون خفيا لا يظهر الا بعـد نظر وتأمل »[2] ، تعريضا بعبد القاهر وردا عليه .

وذهب المتأخرون الى ان فيما ذهب القزويني اليه تكلفا وتطلبا لما لا يقصد في الاستعمال ولا يتعلق به الغرض في التراكيب ، وان الحـق ما ذكره عبدالقاهر ، لانه لم يرد ان هذه الافعال الاعتبارية لا موصوف لها في نفس الامر بكون الاسناد اليه حقيقة ، بل المراد انه لم يستعمل لعدم تعلق الغرض به[3] .

ولم يُسَلِّم القزويني بكل ما ذكره السكاكي ، ورَدَّ عليـه ، وناقشه في تعريف الحقيقة والمجاز العقليين، ورأى انه لم يحسن حدهما ، وقد عدل عن تعريفه لامور :

الاول : انه جعلها صفة للكلام بينما جعلها القزويني للاسناد .

والثاني : انه غير مطرد لصدقه على ما ليس المسند فيه فعلا او في معناه نحو « الانسان جسم » ، مع انه لا يسمى حقيقة ولا مجازا .

الثالث : انه غير منعكس لعدم صدقه على ما يطابق الاعتقاد سواء

---

(١) ينظر دلائل الاعجاز ص ٢٣١ ونهاية الايجاز في دراية الاعجاز ص ٥٣ والايضاح ص ٢٩ .

(٢) الايضـاح ص ٢٩ .

(٣) شروح التلخيص ج١ ص ٢٦١ ـ ٢٦٣ .

يطابق الواقع ام لا ، لانه ترك التقييد بقولنا « في الظاهر »[1] .

ويرى بعضهم أنه خرج من تعريف القزويني للاسناد المجازي أمران:

أحدهما : وصف الفاعل ، أو المفعول بالمصدر نحو « رجل عدل »، وقول الخنساء :

ترعى اذا نسيت حتى اذا ادّكرت فإنّما هي إقبالٌ وإدبارُ

والثاني : وصف الشيء بوصف محدثه وصاحبه مثل « الكتاب الحكيم » و « الاسلوب الحكيم » . فان المبني للفاعل قد اسند الى المفعول لكن لا الى المفعول الذي يلابسه ذلك المسند بل فعل آخر من افعاله مثل « انشأت الكتاب » .

وأجاب التفتازاني عن هذا قائلا : « ويمكن الجواب عن الاول بانه ليس عنده بمجاز كما انه ليس بحقيقة . وعن الثاني بان الملابسة اعم من ان يكون بواسطة حرف او بدونها . وهذه الصورة من قبيل الاول اذ الاصل هو حكيم في اسلوبه وكتابه ، وبعيد واليم في ضلاله وعذابه ، فيكون مما بني للفاعل واسند الى المفعول بواسطة فتأمل وقس عليه نظائره »[2] .

ولم يقبل القزويني ما ذهب السكاكي اليه من نظم المجاز العقلي في سلك الاستعارة بالكناية ، لانه يستلزم أن يكون المراد بـ « عيشة » في قوله تعالى : « فهو في عيشةٍ راضيةٍ »[3] صاحب العيشة لا العيشة ، و بـ « ماء » في قوله تعالى « خُلِقَ من ماءٍ دافِقٍ »[4] فاعل الدفق لا المني ، وان لا تصح الاضافة في نحو قولهم « فلان نهاره صائم ، وليله قائم » لان المراد بالنهار على هذا فلان نفسه ، واضافة الشيء الى

---

(1) المطول ص ٥٥ وما بعدها ، وينظر الايضاح ص ٢٤ ــ ٢٥ .

(2) المطول ص ٥٨ .

(3) سورة الحاقة ، الآية ٢١ .

(4) سورة الطارق ، الآية ٦ .

نفسه لا تصح • وان لا يكون الامر بالايقاد على الطين في احدى الآيتين وبالبناء فيهما لهامان مع ان النداء له ، وان يتوقف جواز التركيب في نحو قولهم « انبت الربيع البقل » و « سـرتني رؤيتك » على الاذن الشرعي لان اسماء الله تعالى توقيفية ، وكل ذلك منتف ظاهر الانتفاء • يقول : « ثم ما ذكره منقوض بنحو قولهم : « فلان نهاره صائم » فان الاسناد فيه مجاز ، ولا يجوز أن يكون النهار استعارة بالكناية عن فلان ، لان ذكر طرفي التشبيه يمنع من حمل الكلام على الاستعارة ، ويوجب حمله على التشبيه ، ولهذا عد نحو قولهم « رأيت بفلان أسدا ولقيني منه اسد » تشبيها لا استعارة كما صرح السكاكي أيضا بذلك في كتابه »[1] •

وسار بعض المتأخرين على هدى السكاكي فقال احدهم في توجيه قوله : « اقدمني بلدك حق لي على فلان » يجوز ان يراد بالاقـدام الحمل على القدوم على جهة المجاز المرسـل فيكون المعنى حملني على القدوم حق ، ويصح أن يكون في الكلام استعارة بالكناية بأن شـبه الحق بمقدم تشبيها مضمرا في النفس ، وطوى ذكر المشبه به وهو المقدم ، ورمز له بذكر لازمه وهو الاقدام تخييلا • وعلى هـذين الاحتمالين لا يكون في الكلام مجاز عقلي[2] •

ومهما يكن من شيء فللمجاز العقلي أثره وقيمته في التعبير ، وان انكره السكاكي ، ونظمه في سلك الاستعارة بالكناية ، وادخله القزويني في علم المعاني • ونرى أن يبحث في المجاز لا في الاسـناد كمـا فعـل القزويني ، وقد كان منهجه هذا مثار نقد المتأخرين السائرين في ركابه ، يقول التفتازاني : « وفيه نظر ، لان علم المعاني انما يبحث عن الاحوال المذكورة من حيث انها يطابق بها اللفظ مقتضى الحال ، وظاهر ان البحث في الحقيقة والمجاز العقليين ليس من هذه الحيثية فلا يكون داخلا في علم المعاني ، والا فالحقيقة والمجاز اللغويان ايضا من احوال المسـند

---

(١) الايضـاح ص ٣١ •

(٢) تنظر حاشية الدسوقي ج١ ص ٢٦٢ •

اليه أو المسند »[1] .

ولا نتفق مع ما ذهب اليه الدكتور بدوي طبانة حيث يقول ان هذا « البحث أولى به ان يضم الى مباحث علم الكلام ، لانه كلام في الاثر والمؤثر والصنعة والصانع »[2] . نعم قد يكون هذا صحيحا لو انشغل البلاغيون بالمناقشات العقلية وحدها ، ولكنهم اوضحوا ميزة المجاز العقلي وأثره ، وان ما نقلناه عن عبدالقاهر والقزويني ليدل دلالةواضحة على ان هذا الضرب من المجاز كنز من كنوز البلاغة ، وذخر يعمد اليه الكاتب البليغ والشاعر المفلق ، والخطيب المصقع . وليس ادل على ما نذهب اليه من ان العرب المتقدمين استعملوه ، واشار اليه النقاد والبلاغيون القدامى ، وذكروا امثلته وان لم يطلقوا عليه اسم المجاز العقلي . وهذا كله يدل على انه لون من التعبير واسلوب له قيمته وأثره . ونحن حينما نعيد بحثه في بلاغتنا الجديدة ينبغي أن نحذف كل ما فيه من مناقشات كلامية بعيدة عن جو النقد والبلاغة ، وتذوق النص الادبي . وان فيما كتبه عبد القاهر والسكاكي والقزويني لمادة غزيرة لها اهميتها في بلاغتنا الجديدة .

(١) المطول ص ٥٤ .

(٢) البيان العربي (ط ٢) ص ٢٩٠ .

٣

المجاز المرسل :

قسم القزويني المجاز المفرد الى قسمين : مرسل ، واستعارة ، لان العلاقــة المصححــة ان كانت تشبيه معناه بمــا هو موضوع له فهو استعارة ، والا فهو مرسل • وَعَرَّفَ المرسل بقوله : « وهو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضــع له ملابسة غير التشبيه »[١] • كاليد اذا استعملت في النعمة او فى القدرة ، وكــالراوية للمزادة مــع كونها للبعير الحامل لها ، وكالاكاف في قول الشاعر :

إنَّ لنــا أحمــرةً عجــافا   يَأْكُلْنَ كل ليلــة اكافا[٢]

وسمي هــــذا النوع مرسلا لان الارسال في اللغــة الاطلاق ، والمجاز الاســتعاري مقيــد بادعاء ان المشــبه من جنس المشبه به ، والمرسل مطلق من هــذا القيد ، وقيل : انما سمي مرسلا لارساله عن التقييد بعلاقة مخصوصة ، بل ردد بين عــــلاقات ، بخلاف المجــــاز الاستعاري فانه مقيد بعلاقة واحدة وهي المشابهة[٣] •

ولم نجد أحداً أطلق اسم المجاز المرسل على هذا النوع قبــــل

---

(١) الايضـــاح ص ٢٧٠ •

(٢) الاكاف : برذعة الحمـار •

(٣) تنظر حاشية الدسوقى ج٤ ص ٢٩ •

القزويني ، وكان القدماء قــد ذكروا أنواعه كأبي حامــد الغزالي ولم يُسَمِّه ، يقول ابن الاثير : « وقسم المجاز الى اربعة عشر قسما وتلك الاربعة عشر ترجع الى الثلاثة التــي اشرت اليها وهـــى : التوسع ، والتشبيه ، والاستعارة ، ولا تخرج عنها »[1] .

والانواع التى ذكرها له ورد عليها هى :

جعل الشيء بسبب المشاركة في خاصة كقولهم للشجاع « اسد » .

وتسميته الشيء باسم ما يؤول اليــه كقوله تعالى : « إني أَرَاني أَعصِر خَمْراً »[2] .

وتسمية الشيء باسم فرعه كقول الشاعر :

وما العيشُ إلّا نومةٌ وتشرقٌ   وتَمْرٌ على رأسِ النخيلِ وماءُ

وتسمة الشيء باسم اصله كقولهم للآدمى « مضغة » .
وتسمية الشيء بدواعيه كتسميتهم الاعتقاد« قولا » .
وتسمية الشيء باسم مكانه كقولهم للمطر « سماء » .
وتسمية الشيء باسم مجاوره كقولهم للمزادة « راوية » .
وتسمية الشيء باسم جزئه كقولك لمن تبغضه « ابعد الله وجهــه عني » .
وتسمية الشيء باسم ضده كقولهم للاسود والابيض «جون» .
وتسمية الشيء بفعله كتسمية الخمر « مسكرا » .
وتسمية الشيء بكله كقولك في جواب « ما فعل زيد؟» :«القيام» .
والزيادة في الكلام لغير فائدة كقوله تعالى : « فبما رَحْمَةٍ مــن الله لِنْتَ لهم[3] .

---

(١) المثل السائر ج١ ص ٣٦٨ .
(٢) سورة يوسف ، الآيــة ٣٦ .
(٣) سورة آل عمران ، الآيــة ١٥٩ .

وتسمية الشيء بحكمه كقوله تعالى : « وامرأةً مؤمنةً إنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا للنبي إنْ أرادَ النبيُّ أن يَسْتَنْكِحَهَا »[1] والنقصان الذى لا يبطل به المعنى كحذف الموصوف واقامة الصفة مقامه كقوله تعالى : « وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أو إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ به بريئا »[2] أي شخصا بريئا .

وكحذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه كقوله تعالى «واسْأَلِ القَرْيَةَ »[3] ، أي : أهلها .

وهذه الانواع التي ذكرها الغزالي لا تختص كلها بالمجاز المرسل ، وانما فيها ما يتعلق بالاستعارة ، ومجاز الزيادة ، ومجاز الحذف ، ولكن اكثرها مما ادخله المتأخرون في المجاز المرسل .

وتكلم عبد القاهر عليه في بحث الاستعارة ، ولم يُسمِّه ، لانه قَسَّم الاستعارة الى مفيدة ، وغير مفيدة ، وجعل غير المفيدة ما استعملت في شيء بقيد مع كونها موضوعا لذلك الشيء بقيد آخر من غير قصد التشبيه . وصَرَّحَ بأن الشفة والانف موضوعان للعضوين المخصوصين من الانسان ، فان قصد التشبيه صار اللفظ استعارة كقولهم في مواضع الذم « غليظ المشفر » فأنه بمنزلة أن يقال كأن شفته فى الغلظ مشفر البعير وعليه قول الفرزدق :

فلو كنت ضبياً عرفت قرابتي ولكنَّ زنجِيٌّ غليظُ المشافرِ [4]

وتكلم السكاكى عليه ، ولم يسمه مجازا مرسلا ، وانما قَسَّم المجاز اللغوى الى مفيد وخالٍ عن الفائدة . يقول عن غير المفيد « المجاز اللغوى الراجع الى معنى الكلمة غير المفيد هو أن تكون الكلمة

(١) سورة الاحزاب ، الآية ٥٠ .
(٢) سورة النساء ، الآية ١١٢ .
(٣) سورة يوسف ، الآية ٨٢ .
(٤) ينظر اسرار البلاغة ص ٣٦ وما بعدها والايضاح ص ٢٧٧ .

موضوعة لحقيقة من الحقائق مع قيد فتستعملها لتلك الحقيقة لا مع ذلك القيد بمعونة القرينة »[1] . مثل أن تستعمل المرسن وأنه لمعنى الانف مع قيد أن يكون انف مرسون استعمال الانف من غير زيادة قيد بمعونة القرائن كقول العجاج :

وفاحماً ومرسنا مُسَرَّجا

ويقول عن الآخر : « المجاز اللغوي الراجع الى المعنى المفيد الخالي عن المبالغة في التشبيه ، وهو ان تعدى الكلمة عن مفهومها الاصلي بمعونة القرينة الى غيره لملاحظة بينهما ونوع تعلق ، نحو أن تراد النعمة باليد »[2] . وهذا النوع هو الذي اطلق عليه المتأخرون اسم : « المجاز المرسل » .

والمجاز المرسل عند السكاكي نوع من الاستعارة ، فاذا كانت المشابهة في العلاقة قوية بحيث يمكن ادعاء ان هذا هو ذاك كان استعارة ، وإلاّ كان مجازا مرسلا . ويشهد لصحة ذلك قول السكاكي في المجاز المرسل انه « الخالي عن المبالغة في التشبيه » . ولم يقل « الخالي عن التشبيه » . وهذا قريب من رأي عبدالقاهر .

وتابع بدر الدين بن مالك السكاكي في تقسيم المجاز ولم يَأْتِ بتقسيم جديد[3] . وكان بحث ابن قيم الجوزية (٧٥١ هـ) معاصر القزويني من اوسع بحوث المجاز المرسل ، واكثرها تفصيلا .

وخطا القزويني خطوة حسنة في دراسة المجاز المرسل ، وذكر له تسعة وجوه غير اطلاق اليد على النعمة والقدرة بعلاقة المجاورة . وقد ذكر التفتازاني ان انواع العلاقة المعتبرة فيه كثيرة ترتقي الى خمسة وعشرين[4] .

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٧٢ .

(٢) مفتاح العلوم ص ١٧٢ .

(٣) المصباح ص ٥٩ وما بعدها .

(٤) المطول ص ٣٥٥ .

والانواع التي ذكرها القزويني غير ما ذكر في اول بحثه هي :

تسمية الشيء باسم جزئه كالعين في الربيئة وعليه قوله تعالى : « قم الليلَ إلا قليلا »[1] أي : صَلِّ ، ونحوه : « ولا تَقُمْ فيه ابدا» أي : لاتصلِّ .

ومنها عكس ذلك أي التجوز باسم الكل عن الجزء كقوله تعالى: « يجعلونَ اصابعهم في آذانهم »[2] .

ومنها تسمية المسبب باسم السبب كقولهم « رعينا الغيث » أي النبات ، وعليه قوله تعالى : « فَمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثلِ ما اعتدى عليكم »[3] وعليه قول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلَنْ أحدٌ علينا فنجهل فوق جَهْلِ الجاهلينا

ومنها تسمية السبب باسم المسبب كقولهم « امطرت السماء نباتا» وقوله تعالى : « وأنزلَ لكم من الأنعامِ ثمانيةَ أزواج »[4] وقوله : « ويُنَزِلُ لكم من السَّماء رِزْقا »[5] . وجعل من هذا النوع قولهم « فلان اكل الدم » أي الدية التى هى مسببة عن الدم ، قال الشاعر :

أكلت دماً انلم ارعك بضَرَّةٍ بعيدةِ مهوى القرطِ طيبةِ النَّشْرِ

وقد رد التفتازاني عليه قائلا « وأورد في الايضاح في امثلة تسمية السبب باسم المسبب قولهم « فلان اكل الدم » أي الدية المسببة عن الدم وهو سهو ، بل هو من تسمية المسبب باسم السبب »[6] .

(١) سورة المزمل ، الآية ٢ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ١٩ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ١٩٤ .
(٤) سورة الزمر ، الآية ٦ .
(٥) سورة غافر ،الآية ١٣ .
(٦) المختصر ج٤ ص ٣٨ ، وينظر مواهب الفتاح ج٤ ص ٣٩ .

ومنها تسمية الشيء باسم ما كان عليه كقوله عز وجل : « وآتوا اليتامى أموالهم »[1] اي الذين كانوا يتامى اذ لا يتم بعد البلوغ .

ومنها تسمية الشيء باسم ما يؤول اليه كقوله تعالى : « إني أراني أعصر خمرا »[2] أي : عنباً .

ومنها تسمية الحالّ باسم محله كقوله تعالى : « فليدع ناديه »[3] ، أي اهل ناديه .

ومنها عكس ذلك نحو قوله تعالى : « وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله »[4] . أي في الجنة .

ومنها تسمية الشيء باسم آلته كقوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه »[5] أي بلغة قومه ، وقوله تعالى «واجعل لي لسان صدق في الآخرين » [6] ، اي ذكرا جميلا ، وثناء حسنا .

واكتفى القزويني بذكر هذه الانواع ووضع للمجاز المرسل قاعدة عامة ، يقول : « وكذا غير ذلك مما بين معنى اللفظ وما هو موضوع له تعلق سوى التشبيه »[7] . وكان اهماله لكثير من انواعه مثار نقد المتأخرين مما سنذكر بعضه في فصل آخر .

ولم يوضح القزويني بلاغة المجاز المرسل واهميته لانه يراه قسما من المجاز الذى تكلم على أهميته بصورة عامة بعد ان انتهى من بحثه، والاديب عندما يستعمل هذا النوع من المجاز لا يستعمله عبثا وانما

---

(١) سورة النساء ، الآية ٢ .
(٢) سورة يوسف ، الآية ٣٦ .
(٣) سورة العلق ، الآية ١٧ .
(٤) سورة آل عمران ، الآية ١٠٧ .
(٥) سورة ابراهيم ، الآية ٤ .
(٦) سورة الشعراء ، الآية ٨٤ .
(٧) الايضاح ٢٧٦ .

يجد فيه تعبيرا عن فكرته وافصاحا عن عواطفه ومشاعره لما بين السبب والمسبب ، او الجزء والكل او غير ذلك من علاقة واضحة يدركهـــا بشعوره ويحسها بملكته الادبية ، وقد احسن المغربى في بيان بلاغتـه حينما قال : « ان الانتقال في المجاز المرسل واضح والابلغية فيه ليست الا من جهة تقرير المراد في الذهن لاشعار الملزوم باللازم ، وســوق القرينة الى خصومه فكأنه قرر مرتين »[1] .

(١) مواهب الفتاح ج٤ ص ٢٧٧ .

٤

الاستعارة :

لعل الجاحظ أول من عَرَّفَ الاستعارة بقوله « الاستعارة تسمية الشيء باسم غيره اذا قام مقامه »[1] ، وهذا تعريف لغوي ليس فيه حصر لانواعها ، وتابعه البلاغيون الاوائل كابن قتيبة ، والمبرد ، وابن المعتز . وكان عبد القاهر من أدق الذين حصروا هذا المصطلح حصرا منطقيا حيث يقول : « الاستعارة ان تريد تشبيه الشيء بالشيء فتدع ان تفصح بالتشبيه ، وتظهره ، وتجيء الى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه »[2] . وَقَدَّمَ بحثها على التشبيه ، والتمثيل ، لانه يحلها بين فنون القول مكانة رفيعة ، وقسَّمها الى استعارة مفيدة وغير مفيدة ، وتكلم على الحقيقية ، والتخييلية ، والتمثيلية .

وجاء الرازي فضبط أقسامها ، وحدد رسومها ، وذكر الاصلية والتبعية . وتكلم على ترشيح الاستعارة وتجريدها والاستعارة بالكناية والاستعارة التخييلية[3] . واستفاد السكاكي من الرازي ويكاد تعريفه للاستعارة وتقسيمها الى عدة انواع لا يخرج عما ذكره ، يقول في تعريفها : « هي ان تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر

---

(١) البيان والتبيين ج١ ص ١٥٣ .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٥٣ .

(٣) نهاية الايجاز في دراية الاعجاز ص ٨٩ ، ٩٢ ، ١٠٢ .

مدعيا دخول المشبه في جنس المشبه به ، دالاً على ذلك باثباتك للمشبه ما يخص المشبه بـه »[1] • وفي هـذا التعريف حصـر للاستعارة التصريحية والمكنية ، وهو أدق التعريفات تحديدا ، وأحسنها ضبطـا ويعتبر السكاكي هذا التعريف أحسن من تعريف الذى قال : « إنّهـا نقل العبارة من معنى الى معنى » ، لان الاستعارة لا يمكن ان تكون الا ادعاء لا نقلا لان فيها ما لا يتصور تقدير النقل فيه كقول لبيد :

وغداة ريح قد كشفت وقرةٍ اذ أصبحت بيد الشمال زمامُها

انه لا يمكن أن تزعم أن لفظ « اليد » قد نقل عن شيء الى شيء، لانه ليس المعنى على أنه شبه شيئا باليد فيمكن أن تزعم أنه نقل لفظ اليد اليه ، وانما المعنى أنه اراد أن يثبت للشمال في تصريفها الغداةعلى طبيعتها شبه الانسان قد اخذ الشيء بيده يقلبه ويصـرفه كيف يريد ، ولا يمكن أن يكون هذا الادعاء • وكان عبد القاهر أول من تنبه الى ان الاستعارة ادعاء الاسم للشيء لا نقل الاسم عن الشيء[2] •

وقسمها السكاكي الى ثمانية أنواع : الاستعارة المصرح بهـا التحقيقية مع القطع ، الاستعارة المصرح بها التخييلية مـع القطع ، الاستعارة المصرح بها المحتمل للتحقيق والتخييل ، الاستعارة بالكناية، الاستعارة الاصلية ، الاستعارة التبعية ، تجريد الاستعارة وترشيحها •

ولم يبتعد القزويني عن السكاكي وهو يختصر « مفتاح العلوم» أو يشرح تلخيصه فقسم المجاز المفرد الى مجاز مرسل واستعـارة ، والاستعارة عنده : « هي ما كانت علاقته تشبيه معناه بما وضع له»[3] وهذه هي الاستعارة التحقيقية عنده ، أو التصريحية التى يذكر فيهـا

(١) مفتـاح العلـوم ص ١٧٤ •
(٢) دلائل الاعجاز ص ٣٣ وما بعدها .
(٣) الايضـاح ص ٢٧٨ •

المشبه به دون المشبه . وسبب تقييد هذا النوع من الاستعــــارة بالتحقيقية لتحقق معناها حسا او عقلا ، أي التى تتناول أمرا معلومــا يمكن ان ينص عليه ويشار اليه اشارة حسية أو عقلية فيقال : أن اللفظ نقل من مسماه الاصلي فجعل اسما له على سبيل الاعارة للمبالغــة في التشبيــــه .

ومثال الحسي : « رأيت أسدا »أي : رجلا شجاعا ، والعقلي:«ابديت نورا» أي:حـُجـّة،يقول عبدالقاهر عن هذهالاستعارة:«فالاسمفيهذاكله كما تراه متناولا شيئا معلوما يمكن أن ينص عليه فيقال انه عنى بالاسم وكنى به عنه ونقل عن مسماه الاصلي فجعل اســما له على ســـبيل الاستعارة والمبالغة في التشبيه »[1] .

ونبه القزويني الى ما ذكره في بحث التشبيه من حذف اداةالتشبيه هل يكون تشبيها أو استعارة ووضع هاتين القاعدتين :

الاولى : ان لا يكون المشبه مذكورا ولا مقدرا مثل « رنت لنــا ظـَبية » وأنت تريد امرأة ، وهذا بلا خلاف ليس بتشبيه وان الاسم فيه استعــــارة .

الثانية : ان يكون المشبه مذكورا أو مقدرا ، فاسم المشبــه به ان كان خبرا أو في حكم الخبر كخبر « كان »و « إن » والمفعول الثــاني لباب « علمت » ، والحال ، فالاصح أن يسمى تشبيها ، وأن الاســم فيه لا يسمى استعارة .

وان لم يكن اسم المشبه به خبرا للمشبه ولا فيحكم الخبركقولهم « رأيت بفلان اسدا » و « لقيني منه اســـد » سمي تجريدا ، ولم يُسَمَّ استعارة ، لانه انما يتصور الحكم على الاسم بالاستعارة اذا جرى بوجه على ما يدعى انه مستعار له ، اما باستعماله فيه ، أوباثبات

(١) اسرار البلاغة ص ٥١ .

معناه له ، والاسم في مثل هذا غير جارٍ على المشبه بوجه ، ولانه يجيء على هذه الطريقة ما لم يتصور فيه التشبيه فيظن انه استعارة كقوله تعالى : « لهم فيها دارُ الخُلْد »[1] اذ ليس المعنى على تشبيه جهنم بدار الخلد اذ هي نفسها دار الخلد ، وكقول الشاعر :

يا خير من يركب المطيَّ ولا   يشرب كأساً بكفِّ من بَخِلا

فانه لا يتصور فيه التشبيه ، وانما المعنى انه ليس ببخيل ، ولا يسمى تشبيها ، لان اسم المشبه به لم يجتلب فيه لاثبات التشبيه .

والاستعارة عنده مجاز لغوى ، ودليله على ذلك كونها موضوعة للمشبه به لا للمشبه ولا لامر اعم منهما ، كالاسد فانه موضوع للسبع المخصوص لا للرجل الشجاع ولا للشجاع مطلقا، لانه لو كان موضوعا لاحدهما لكان استعماله في الرجل الشجاع من جهة التحقيق لا من جهة التشبيه . وايضا لو كان موضوعا للشجاع مطلقا لكان وصفا لاسم جنس . وهو في ذلك يتابع السكاكي في جعلها مجازا لغويا . وليس له او لاستاذه ان يرى غير هذا الرأي ، لان السكاكي انكر المجاز العقلي ، ونظمه في سلك الاستعارة بالكناية ، وليس عنده الا المجاز اللغوي . وبحث القزويني العقليَّ في الاسناد ، ولم يدخله في علم البيان ، ولم يبق الا المجاز اللغوي فعد الاستعارة منه .

وعرض القزويني رأي من يذهب الى ان الاستعارة مجاز عقلي ، بمعنى ان التصرف فيها في امر عقلي لا لغوي لانها لا تطلق على المشبه الا بعد ادعاء دخوله في جنس المشبه به ، لان نقل الاسم وحده لو كان استعارة لكانت الاعلام المنقولة كـ « يزيد » و « يشكر » استعارة ، ولما كانت الاستعارة ابلغ من الحقيقة لانه لا بلاغة في اطلاق الاسم المجرد عاريا عن معناه ، ولما صح ان يقال لمن قال « رأيت اسدا » يعني زيدا : انه جعله اسدا .

---

(١) سورة فصلت ، الآية ٢٨ .

واذا كان نقل الاسم تبعا لنقل المعنى كان الاسم مستعملا فيما وضع له ولهذا صح التعجب في قول ابن العميد :

قامت تظللني من الشمسِ ... شمسٌ أعزّ عليّ من نفسي
قامتْ تظللني ، ومن عجبٍ ... شمسٌ تظللني من الشمسِ

والنهي عنه في قول الآخر :

لا تعجبوا من بلى غلالته ... قد زرّ أزراره على القمرِ

وقوله :

ترى الثياب من الكتان يلمحها ... نورٌ من البدر أحيانا فيبليها
فكيف تنكر أنْ تبلى معاجرها[1] ... والبدر في كل وقت طالعٌ فيها

ولكن القزويني لا يرى هذا الرأى ، ويرجّح أن الاستعارة مجاز لغوي ، وينقض هذا الرأي بقوله : « والجواب عنه أن ادعاء دخول المشبه في جنس المشبه به لا يخرج اللفظ عن كونه مستعملا في غير ما وضع له ، واما التعجب والنهي عنه فيما ذكر فلبناء الاستعارة على تناسي التشبيه قضاء لحق المبالغة »[2] .

وهنا يعترضه سؤال من قال : إنّ اصرار المتكلم على ادعاء الاسدية للرجل ينافي نصبه قرينة مانعة من ان يراد به السبع المخصوص . ويجيب القزويني قائلا « لا منافاة » وهنا يستعين بما ذكره السكاكي .

ووجه التوفيق كما ذكر السكاكي أن تبنى دعوى الاسدية للرجل على ادعاء أن افراد جنس الاسد قسمان بطريق التأويل : متعارف وهو

---

(١) المعجر : ثوب تشده المرأة على رأسها .
(٢) الايضاح ص ٢٨٦ .

الذي له غاية الجرأة ونهاية قوة البطش ، مع الصورة المخصوصة ، وغير متعارف وهو الذي له تلك الجرأة وتلك القوة لا مع تلك الصورة بل مع صورة اخرى على نحو ما ارتكب المتنبي هذا الادعاء في عد نفسه وجماعته من جنس الجن ، وعد جماله من جنس الطير حين قال :

نحن قومٌ مِ الجنِ في زي ناسٍ فوق طيرٍ لهـا شخوصُ الجمال

مستشهدا لدعواه هاتيك بالمخيلات العرفية ، وان تخصص القرينة بنفيها المتعارف الذى يسبق الى الفهم ليتعين الآخر .

ومن البناء على هذا التنويع قول عمرو بن معد يكرب الزبيدى :

وخيل قد دلفت لها بخيلٍ تحية بينهم ضربٌ وجيعُ

وقولهم « عتابك السيف » وقوله تعالى « يَوْمَ لا يَنْفعُ مالٌ ولا بنونَ ، إلاَّ مَنْ أتى اللهَ بقلبٍ سليم »[1] ومنه قول الشاعر :

وبلدةٍ ليس بها أنيسُ الا اليعافيرُ وإلاَّ العيسُ[2]

ولا نرى لهذهالتعنيلات فائدة في فهم الاستعارة ، وتذوقها ،وكان عليهما أن يبتعدا عن هذا التمحل والاغراق في التأويل . وان الاستعارة سواء كانت مجازا لغويا أم عقليا تورث الكلام حسنا وجمالا ، وتضفي على الادب خيالا وصورا رائعة . ولا يقع الاديب في ورطة الكـذب ان استعملها لانها تفارقه من وجهين : بناء الدعوى فيها على التأويل ، ونصب القرينة على أن المراد بها خلاف ظاهرها . وهـــذان الامران يمنحانها القوة في التعبير والتأثير العظيم .

وقرينة الاستعارة اما معنى واحد مثل « رأيت أسداً يرمي » ، أو

---

(١) سورة الشعراء ، الآيتـان ٨٨ ــ ٨٩ .

(٢) ينظر مفتاح العلوم ص ١٧٦ والايضاح ص ٢٨٦ ــ ٢٨٧ .

أكثر كقول بعض العرب :

فان تعافوا العدلَ والايمانا   فان في أيماننا نيرانا

أي سيوفا كأنها شعل نيران .

أو معانٍ مربوط بعضها ببعض كما في قول البحتري :

وصاعقةٍ من نصله تنكفي بها   على أرؤسِ الاقران خمسُ سحائبِ

عنى بـ « خمس سحائب » انامل الممدوح .

وقَسَّم القزويني هذا النوع من الاستعارة اقساما كثيرة ، قسمها باعتبار الطرفين ، وباعتبار الجامع ، وباعتبار طرفيها والجامع معا ، وباعتبار اللفظ ، وباعتبار الخارج . وهذه تقسيمات لم نرها عند المتقدمين وسنشرع بذكرها لانها جديدة وجديرة بالعرض والتحليل .

١ ـ انقسام الاستعارة باعتبار الطرفين :

وهي قسمان ، لان اجتماعهما اما ممكن أو ممتنع ، والاولى وفاقية ، والثانية عنادية . أما الوفاقية فكقوله تعالى « أحييناه » في قوله « أَو مَنْ كان مَيْتاً فأحييناه » [١] . فان المراد هديناه . وأما العنادية فمنها ما كان وضع التشبيه فيه على ترك الاعتداد بالصفة وان كانت موجودة لخلوها مما هو ثمرتها والمقصود منها واذا ما خلت منه لم تستحق الشرف كاستعارة اسم المعدوم للموجود اذا لم تحصل منه فائدة من الفوائد المطلوبة من مثله ، فيكون مشاركا للمعدوم في ذلك ، أو اسم الموجود للمعدوم اذا كانت الآثار المطلوبة من مثله موجودة حال عدمه ، فيكون مشاركا للموجود في ذلك او اسم الميت للحيّ الجاهل لانه عدم فائدة الحياة والمقصود بها ، أعني العلم فيكون مشاركا للميت في ذلك . والضدان ان كانا قابلين للشدة والضعف كان استعارة

---

(١) سورة الانعام : الآية ١٢٢ .

اسم الاشد للاضعف اولى ، فكل من كان اقل علما واضعف قوة كان اولى بان يستعار له اسم الميت ، وكذا في جانب الاشد فكل من كان اكثر علما كان اولى بأن يقال له « انه حي » وكذا من كان اشرف علما وعليه قوله تعالى : « او من كان ميتا فاحييناه » .

وأدخل القزويني في هذا النوع ما سمي بالاستعارة التهكمية او التمليحية ، وذلك اذا استعمل في ضد معناه او نقيضه كقوله تعالى : « فَبَشِّرْهُمْ بعذابٍ أليمٍ »[1] .

٢ ـ انقسام الاستعارة باعتبار الجامع :

وهي قسمان :

أحدهما : ما يكون الجامع فيه داخلا في مفهوم الطرفين كاستعارة الطيران للعدْو ، كقول الشاعرة ترثي قتيلاً :

لو يشأ طاربه ذو ميعةٍ لاحق الآطالِ نَهْدٌ ذو خصل[2]

وكاستعارة الفيض لانبساط الفجر في قول الشاعر :

يتراكمون على الاسنة في الوغى كالفجر فاض على نجوم الغيهبِ

وكاستعارة التقطيع لتفريق الجماعة وابعاد بعضهم عن بعض في قوله تعالى : « وَقَطَّعْناهم في الأرضِ أُمَما »[3] . وكاستعارة الخياطة لِسَرْد الدرع في قول القطامي :

لم تلق قوما هم شَرٌّ لاخوتهم مِنَّا عَشيةَ يجري بالدمِ الوادي
نقريهم لهذمياتٍ نَقُدُّ بها ما كان خاطعليهم كُلُّ زَرَّادِ[4]

(١) سورة آل عمران ، الآية ٢١ .
(٢) ميعة الفرس : اول جريه ،الاطال جمع اطل: الخاصرة . نهد الفرس : كان نهد ، ونهد : اسرع .
(٣) سورة الاعراف ، الآية ١٦٨ .
(٤) اللهذم : الحاد القاطع من السيوف .

وكاستعارة النثر لاسقاط المنهزمين وتفريقهم في قول المتنبي :

نثرتهم فوق الأحيدبِ نثرةً ... كما نُثرت فوق العروسِ الدراهمُ

والثاني : ما يكون الجامع فيه غير داخل في مفهوم الطرفين مثل قولك : « رأيت شمسا » أي انسانا يتهلل وجهه، فالجامع بينهما التلألؤ، وهو غير داخل في مفهومهما .

وتنقسم باعتبار الجامع ايضا الى عامية وخاصيَّة ، فالعامية المبتذلة لظهور الجامع فيها مثل « رأيت اسدا » . والخاصية الغريبة التى لا يظفر بها الا من ارتفع عن طبقة العامة كقول طفيل الغنوي :

وجعلت كُوري فوق ناجيةٍ ... يقتات شَحْمَ سنامها الرَّحْلُ (1)

والغرابة قد تكون في الشبه نفسه كقول يزيد بن مسلمة :

واذا احتبى قَرَبوسَه بعنانه ... علك الشكيمَ الى انصراف الزائرِ (2)

شبه هيئة العنان في موقعه من حنو السرج بهيئة الثوب في موقعه من ركبة المحتبي . وقد تحصل بتصرف في العامية ، كما في قول الشاعر :

ولما قضينا من مِنى كل حاجةٍ ... ومسَّحَ بالأركان من هو ماسحُ
وشدت على دهم المهارى رحالنا ... ولم ينظر الغادي الذي هو رائحَ
أخذنا باطرافِ الاحاديثِ بيننا ... وسالت باعناق المطيّ الأباطحُ

وكقول ابن المعتز :

سالت عليه شعابُ الحى حين دعا ... أنصارهَ بوجوه كالدنانيرِ

(1) الكور : الرحل، وهو ما يجعل على ظهر الجمل كالسرج . الناجية: الناقة السريعة
(2) احتبى احتباء : جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ، بالثوب اشتمل به والتف . القربوس : حنو السرج ، اي قسمه المقوس المرتفع من قدام المقعد ومؤخره . الشكيم حديدة اللجام المعترضة في فم الفرس .

وقد تحصل الغرابة في الجمع بين عدة استعارات لالحاق الشكل بالشكل كقول امرئ القيس :

فقلتُ له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناءَ بكلكلِ

ولم يخرج القزويني في تحليل هذه الامثلة عن عبد القاهر وتحليله واعجابه بالاستعارات[1] .

٣ ـ انقسام الاستعارة باعتبار طرفيها والجامع :

وهي ستة أقسام :

استعارة محسوس لمحسوس بوجه حسي كقوله تعالى : «فأخْرَجَ لهم عِجْلاً جَسَداً له خُوار» [2] . فالمستعار منه ولد البقرة والمستعار له الحيوان ، والجامع لهما الشكل والجميع حسي . واستعارة محسوس لمحسوس بوجه عقلي كقوله تعالى : « وآيَةٌ لهم الليلُ نَسْلَخُ منه النهارَ » [3] . فالمستعار منه كشط الجلد وازالته عن الشاة ، والمستعار له ازالة الضوء عن مكان الليل وهما حسيان ، والجامع لهما ما يعقل من ترتب أمر على آخر . واستعارة محسوس لمحسوس بما بعضه حسي وبعضه عقلي مثل « رأيت شمسا » أي انسانا شبيها بالشمس في حسن الطلعة ونباهة الشأن .

واستعارة معقول لمعقول كقوله تعالى : « مَنْ بَعَثَنا مِنْ مرقدِنا »[4] فالمستعار منه الرقاد ، والمستعار له الموت ، والجامع لهما عدم ظهور الافعال والجميع عقلي .

واستعارة محسوس لمعقول كقوله تعالى : « فاصْدَعْ بما

---

(١) ينظر دلائل الاعجاز ص ٥٨ وما بعدها ، والايضاح ص ٢٩٢ وما بعدها

(٢) سورة طه ، الآية ٨٨ .

(٣) سورة يس ، الآية ٣٧ .

(٤) سورة يس ، الآية ٥٢ .

تُؤْمَرُ »[1] . فان المستعار منـه صدع الزجاجة وهوحسي والمستعار له تبليغ الرسالة والجامع لهما التأثير وهما عقليان .

واستعـارة معقول لمحسوس كقوله تعالى : « إِنَّا لَمَّا طَغَى الماءُ »[2] فالمستعار كثرة المـاء وهو حسي والمستعار منه التكبر والجامع الاستعلاء المفرط وهما عقليان .

وكان الرازى والسكاكى قد قسماها الى استعارة اسم المحسوس للمحسوس بسبب المشاركة في وصف محسوس ، واستعارة المحسوس لمحسوس لشبه عقلى ، واستعارة المحسوس للمعقول ، واستعـارة المعقول للمعقول ، واستعارة المعقول للمحسوس[3] .

وأخذ القزوينى هذا التقسيم وأضاف اليه قسما سادسا ، وهـو استعارة محسوس لمحسوس بما بعضـه حسي وبعضه عقلى . ولعـل الرجلين اهملاه لشهرته ، ولان معظم الاستعارات المعروفة من هـذا النوع ، وقد علل التفتازاني اهمال السكاكي لهذا النوع بقوله : « وقد أهمل صاحب المفتاح هذا القسم لندرة وقوعه ، ولانه في الحقيقـة استعارتان ، فان الجامع في احداهما حسي وفي الاخرى عقلى ، فيدخل فيما تقدم ولا يكون نوعا آخر »[4]، وللسبكي كلام قريب من هذا ، وان اختلف عنه بعض الاختلاف[5] .

ويمتاز القزوينى عن الرازى والسكاكى انه لم يَكْتَفِ بالنقل ، وانما حَكَّم ذوقه وعقله في كثير من الامثلة ، ومن أمثلة نقده ما قاله في قوله تعالى : « واشـتعل الرأس شيبا »[6] فقـد جعله الرازي

---

(١) سورة الحجر ، الآيـة ٩٤ .
(٢) سـورة الحاقة ، الآيـة ١١ .
(٣) نهاية الايجاز في دراية الاعجاز ص ٩٩ ، ومفتاح العلوم ص ١٨٢–١٨٤ .
(٤) المطـول ص ٣٧٠ .
(٥) عروس الافراح ج٤ ص ١٠٢ .
(٦) سـورة مريم ، الآيـة ٤ .

والسكاكي من استعارة محسوس لمحسوس بوجـــــه حسي ، ورأى القزويني أنها ليست من هذا النوع ، يقول : « واما قوله تعـــالى : « واشتعل الرأس شيبا » فليس مما نحن فيه وان عد منه ، لأن فيـه تشبيهين : تشبيه الشيب بشواظ النار في بياضه وانارته ، وتشبيـــه انتشاره في الشعر باشتعالها في سرعةالانبساط مع تعذر تلافيه .والاول استعارة بالكناية والجامع في الثاني عقلي ، وكلامنا في غيرهما »[١] ، ومن أمثلة ذلك ما ذكره في استعارة محسوس لمحسوس بوجه عقلي فقد جعل السكاكي منه قوله تعالى : « إذْ أرْسلنا عليهم الريحَ العقيمَ »[٢] وقال : « فالمستعار له الريح ، والمستعار منه المرء ، والجامع المنع مـن ظهور النتيجة والأثر فالطرفان حسيان ووجه الشبه عقلي »[٣] . ورد عليه قائلا : « وفيه نظر ، لان العقيم صفة للمرأة لا اسم لها ، وكذلك جعلت صفة للريح لا اسما ، والحق أن المستعار منه ما في المرأة من الصفة التي تمنع من الحمل ، والمستعار له ما في الريح من الصفة التي تمنع من انشاء مطر والقاح شجر والجامع لهما ما ذكر »[٤] .

٤ ـ انقسام الاستعارة باعتبار اللفظ :

وهي قسمان ، لأنه ان كان اسم جنس فأصلية كأسد وقتل ، وإلاّ فتبعية كالافعال والصفات المشتقة منها والحروف ، لان الاستعارة تعتمد التشبيه والتشبيه يعتمد كون المشبه موصوفا وانما يصلح للموصوفية الحقائق والصفات المشتقة منها والحروف . ومـدار قرينة التبعية في الافعال والصفات المشتقة منها على نسبتها الى الفاعل كما في قولنـا « نطقت الحال » ، او الى المفعول ، كقول ابن المعتز :

جُمِعَ الحقُّ لنا في امام　　　　قَتَلَ البُخْلَ وأحيا السَّماحا

(١) الايضاح ص ٢٩٦ ، وينظر نهاية الايجاز في دراية الاعجاز ص ٩٩ ومفتـــاح العلـــوم ص ١٨٣ .

(٢) ســورة الذاريات ، الآيـة ٤١ .

(٣) مفتاح العلوم ص ١٨٣ ـ ١٨٤ .

(٤) الايضـــاح ص ٢٩٧ .

أو الى المفعولين الاول والثاني كقول الحريري :

واقري المسامع إمـا نطقتَ بياناً يقودالحَرَ ونَ الشَّموسا

او الى المجرور كقوله تعالى : « فبشِّرْهُم بعذابٍ أليم »[1] ٠

وأضاف السكاكى أنها تكون الى الجميع كقول الشاعر :

تقرى الرياح رياض الحزن مزهرةً اذا سرى النومُ فيالاجفان إيقاظا

ولم يقبله القزويني ورأى ان فيه نظرا[2] ٠

٥ ـ انقسام الاستعارة باعتبار الخارج :

وهي ثلاثة أقسام : المطلقة : وهي التي لم تقترن بصفة ولا تفريع كلام ، والمراد المعنوية لا النعت٠ والمجردة : وهي التي قرنت بما يلائم المستعار له كقول كثير :

غمر الرداء اذا تبسم ضاحكا غلقت لضحكته رقاب المال

وعليه قوله تعالى : «فأذاقها اللهُ لباسَ الجوعِ والخوفِ »[3] ٠ واختلف الزمخشرى والسكاكى في استعارة هذه الآية فذهب الاول الى انها استعارة عقلية ، يقول : «فان قلت : الاذاقة واللباس استعارتان فما وجه صحتهما والاذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار فما وجه صحة ايقاعهما عليه ؟ قلت : أما الاذاقة فقـد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمس النـاس منها فيقولون ذاق فلان البؤس والضر واذاقه العذاب ، شبه ما يدرك من أثر الضرر والالم بما يدرك من طعم المر والبشع ٠ وأما اللبـاس فقد شـبه به

---

(١) سـورة آل عمران ، الآيـة ٢١ ٠

(٢) الايضاح ص ٣٠٠ ، وينظر مفتاح العلوم ص ١٨١ ٠

(٣) سـورة النحل ، الآية ١١٢ ٠

لاشتماله على الملابس ما غشي الانسان والتبس به من بعض الحوادث ، واما ايقاع الاذاقة على لباس الجوع والخوف فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس فكأنه قيل : فأذاقه الله ما غشيهم من الجوع والخوف »[1] • واعتبرها السكاكي استعارة حسية ، يقول : « الظاهر على اللباس عند اصحابنا الحمل على التخييل ، وان كان يحتمل عندي ان يحمل على التحقيق وهو أن يستعار لما يلبسه الانسان عند جوعه من انتقاع اللون ورثاثة الهيئة »[2] • واستفاد القزويني من تفسير الآية في توجيه الاستعارة •

والمرشحة : هي التي قرنت بما يلائم المستعار منه كقوله :

يُنازعني ردائي عبدُ عَمْرو ٭ رويدك يا أخا عمرو بنِ بَكْر
لي الشطر الذي ملكت يميني ٭ ودونك فاعتجر منه بشطرِ [3]

وعليه قوله تعالى : « أولئكَ الذين اشتَرَوا الضَّلالة بالهُدى فما رَبِحَتْ تجارتُهم »[4] • وقد يجتمع التجريد والترشيح كما في قول زهير :

لَدى أسدٍ شاكي السلاح مقذف ٭ له لبد أظفاره لم تُقَلَّمِ

ويرى القزويني ان الترشيح ابلغ من التجريد لاشتماله على تحقيق المبالغة ، ولهذا كان مبناه على تناسي التشبيه حتى انه يوضع الكلام في علو المنزلة وضعه في علو المكان[5] • ونقل هنا الامثلة التي ذكرها السكاكي وزاد أمثلة اخرى ، ومعظم ما جاء به لا يخرج عما ذكره السكاكي في الامثلة والتعليل ، وما اروع عبارة السكاكي في هذا

---

(١) الكشاف ج٢ ص ٤٩٨ •
(٢) مفتاح العلوم ص ١٧٩ •
(٣) اعتجر اعتجارا بالعمامة : لفها على رأسه ، ورد طرفها على وجهه •
(٤) سورة البقرة ، الآية ١٦ •
(٥) الايضاح ص ٣٠٢ •

الموضوع : يقول بعد ان ذكر الامثلة : « أو ماترى هؤلاء فيما فعلوا كيف نبذوا أمر التشبيه وراء ظهورهم، وكيف نسوا حديث الاستعارة كأن لم تخطر منهم على بال ولا رأوها ولا طيف خيال . واذا كانوامع التشبيه والاعتراف بالاصل يسوغون أن لا يبنوا الا على الفعل فهم الى تسويغ ذلك مع جحد الاصل في الاستعارة اقرب »[1] . وهذه نظرة بعيدة عن تمحلات الفلسفة وتعليلات المتحذلقين ، وانها لالتفاتة حسنة من السكاكي الذي غاص في الفلسفة وعلم الكلام حتى نسي انه يبحث في فن جميل .

وبعد ان انتهى القزويني من الاستعارة التحقيقية تحدث عن المجاز المركب وهو ما أشرنا اليه سابقا ، ثم عقد فصلا خاصا في « بيان الاستعارة بالكناية والاستعارة التخييلية »[2] وسبب افرادهما أنهما عنده أمران معنويان غير داخلين في تعريف المجاز .

الاستعارة بالكناية :

وعرّف الاستعارة بالكناية بقوله : « قد يضمر التشبيه في النفس فلا يصرح بشيء من أركانه سوى لفظ المشبه ، ويدل عليه بأن يثبت للمشبه أمر مختص بالمشبه به من غير أن يكون هناك أمر ثابت حساً أو عقلا أجري عليه اسم ذلك الامر فيسمى التشبيه استعارة بالكناية أو مكنيا عنها ، واثبات ذلك الامر للمشبه استعارة تخييلية »[3] .

وقرينة المكنية عنده يجب أن تكون تخييلية ، خلافا للزمخشري الذي يذهب الى انه ليس من الواجب ان تكون تخييلية ، بل ان تكون تحقيقية فان في قوله تعالى : « يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ »[4] استعارة بالكناية بتشبيه العهد بالحبل والنقض استعارة لابطال العهد ، وبذلك

(١) مفتاح العلوم ص ١٨٣ .
(٢) الايضاح ص ٣٠٩ وما بعدها .
(٣) الايضاح ص ٣٠٩ .
(٤) سورة البقرة ، الآية ٢٧ .

وجد هذا النوع من الاستعارة بدون التخييلية[1] • وضرب القزويني لذلك مثلا قول لبيـــد :

وغداة ريح قد كشفت وقرة   اذ أصبحت بيد الشمال زمامُها

فقد أثبت للشمال يدا على سبيل التخييل مبالغة في تشبيهها بالانسان المصـــرف لزمامه • وان الامر المختص بالمشبه به المثبت للمشبه ، منــه ما لا يكمل وجه الشبه في المشبه به بدونه كما في قول أبي ذؤيب الهذلي:

واذا المنيةُ أنشبت أظفارَها   ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

ومنه ما به يكون قوام وجه الشبه في المشبه به كما في قول الشاعر:

فلئن نطقت بشكر برِّكَ مفصحاً   فلسانُ حالي بالشكاية أنطَقُ

وذكر بيت زهير :

صحا القلبُ عن سلمى وأقصر باطلُه   وعُرِّيَ أفراسُ الصِّبا ورواحِلُه

ورأى أنه يحتمل أن يكون استعارة تخييلية ، أو استعارة تحقيقية، يقول : « أما التخييل فأن يكون أراد ان يبين أنه ترك ما كان يرتكبه أوانَ المحبة من الجهل والغي واعرض عن معاودته فتعطلت آلاته كأي امر وطنت النفس على تركه فانه تهمل آلاته فتتعطل ، فشبه الصبا بجهة من جهات المسير كالحج والتجارة قضي فيها الوطر فأهملت آلاتهـــا فتعطلت فأثبت له الافراس والرواحل ، فالصبا على هذا مـــن الصبوة بمعنى الميل الى الجهل ، والفتوة لا بمعنى الفتاء ، وأما التحقيق فان يكون اراد دواعي النفوس وشهواتها والقوى الحاصلة لها في استيفاء اللذات ، أو الاسباب التي قلما تتآخذ في اتباع الغي الاأوان الصبا»[2] •

---

(١) ينظر الكشاف ج١ ص ٩٠ والاطول ج٢ ص ١٦٣ وحاشية الدسوقي ج٤ ص١٥٩

(٢) الايضـــاح ص ٣١١ .

والامر في هذا النوع من الاستعارة لا يتعدى التخيل والوهم والتقدير في النفس من غير أن يكون هناك شيء يحس وذات تتحصل[1] . ولعل تفريق عبد القاهر بين التحقيقية والتخييلية كان من أحسن ما كتب في هذا الموضوع ، فقد ذكر ان الفصل بين القسمين هو أنك اذا رجعت في القسم الاول الى التشبيه الذي هو المغزى من كل استعارة تفيد وجدته يأتيك عفوا ، وان رمته في القسم الثانى وجدته لا يواتيك تلك المواتاة وانما يتراءى لك التشبيه بعد ان تخرق اليه سترا ، وتعمل تأملا وفكرا ، وبعد أن تغير الطريقة وتخرج عن الحذو الاول .

وطريقة اخرى في بيان الفرق بين القسمين هو ان الشبه في القسم الاول وصف موجود في الشيء الذى استعرت له ، واليد في « اذ اصبحت بيد الشمال زمامها » ليست توصف بالشبه ولكنه صفة تكسبها اليد صاحبها وتحصل له بها وهي التصرف على وجه مخصوص »[2] .

والمكنية والتخييلية عند القزويني أمران معنويان أي فعلان من افعال المتكلم القائمة بنفسه ، وهما غير داخلين في تعريف المجاز الذى هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة مانعة ، فالمجاز من عوارض الالفاظ ، وهما عنده ليسا بلفظين لان احدهما التشبيه المضمر والآخر اثبات لوازم المشبه به للمشبه ، وهذا خلاف ما ذكره عبد القاهر والزمخشري والسكاكي ، فقد ذهب الاولان الى ان الاستعارة بالكناية اسم المشبه به المحذوف والمرموز له باثبات شيء من لوازمه للمشبه ، وصرح الزمخشري في تفسير قوله تعالى : « الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ »[3] ، أن من اسرار

---

(١) ينظر اسرار البلاغة ص ٥٣ .

(٢) اسرار البلاغة ص ٥٣ ــ ٥٨ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٧ .

البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار ، ثم يرمزوا اليه بذكر شيء من روادفه فينبهوا بتلك الرمزة على مكانه ، ونحوه قولك « شجاع يفترس أقرانه وعالم يغترف منه الناس »[1] .

وذهب السكاكي الى انها لفظ المشبه المستعمل في المشبه به ادعاء بقرينة استعارة ما هو من لوازم المشبه به لصورة متخيلة متوهمة . ويستفاد من كلام السكاكي في موضع من مفتاحه انها اسم المشبه به المحذوف ، يقول : « ويسمى المشبه به ـ مذكورا أو محذوفا ـ مستعارا منه ، واسمه مستعارا ، والمشبه به مستعارا له »[2] .

وللعصام رأي رابع في الاستعارة بالكناية فقد ذكر بعد أن اورد رأي القدماء والسكاكي والقزويني ان الاستعارة بالكناية فيما بين الاستعارات استعارة مقلوبة مبنية على التشبيه المقلوب لكمال المبالغة في التشبيه فهو ابلغ من المصرحة فكما انّ قولنا : « ان السبع كالمنية » تشبيه مقلوب يعود الغرض منه الى المشبه به ، كذلك أنشبت اظفارها استعارة مقلوبة استعير بعد تشبيه السبع بالمنية المنية للسبع الادعائي ، واريد بالمنية معناها بعد جعلها سبعا تنبيها على ان المنية بلغت في الاغتيال مرتبة ينبغي ان يستعير السبع عنها اسمها دون العكس فالمنية وضعت موضع السبع[3] . ورجح الانبابي في حاشيته على الرسالة البيانية رأي القزويني وجعله مستنبطا من كلام عبد القاهر[4] .

الاستعارة التخييلية :

واختلف القوم في الاستعارة التخييلية ، فذهب عبد القاهر والزمخشري والقزويني الى انها اثبات لازم المشبه به للمشبه ، ورأى

---

(١) الكشاف ج١ ص ٩٠ .
(٢) مفتاح العلوم ص ١٧٤ .
(٣) الاطول ج٢ ص ١٥٠ .
(٤) ينظر الايضاح (طبعة خفاجي) ج٥ هامش ص ١٤٠ .

السكاكي انها اسم لازم المشبه به المبتعار الصورة الوهمية التي اثبتت للمشبه ، وهي عند القزويني حقيقة ، ولفظ الاظفار في قول الشاعر :

وإذا المنيةُ أنشبت أظفارَها ألفيتَ كل تميمة لا تَنفعُ

مستعمل في معناه الحقيقي وليس مجازا اصلا ، وانما التجوز في اثباتها للمنيـــــة .

حسن الاستعارة :

ووضع البلاغيون لحسن الاستعارة وجمالها شروطا ، يرى عبـد القاهر ان جمالها يعود الى ما توخي في جملتها من نظم ، وما توخي في وضع الكلام من ترتيب على نحو خاص، وأخذ لذلك مثلا قول الشاعر:

سالت عليه شعابُ الحي حين دعا أنصـــاره بوجوهٍ كالدنانـــير

يقول : « فانك ترى هذه الاستعارة على لطفها وغرابتها انما تم لها الحسن ، وانتهى الى حيث انتهى بما توخي في وضع الكلام من التقديم والتأخير . وتجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها ، وان شككت فاعمد الى الجارين والظرف ، فأزل كلا منها عن مكانه الذي وضعه الشاعر فيه فقل : « سالت شعاب الحي بوجوه كالدنانير عليـه حين دعا أنصاره » ثم انظر كيف يكون الحال وكيف يذهب الحسـن والحلاوة وكيف تعدم اريحيتك التي كانت ، وكيف تذهب النشوة التي كنت تجدهـــا »[1] .

ويذكر أن سر جمالها ليس في نقل كلمة من معنى الى معنى ، لأن ذلك يفقدها قوتها بل يضيع معناها ، لاننا لو نقلنا « الاسد » من معناه الحقيقي الى معنى الرجل الشجاع لصار معنى « رأيت أســدا » رأيت رجلا شجاعا فتفقد الاستعارة قوتها ولا تكون أقوى من الحقيقة فـي

---

(١) دلائل الاعجــاز ص ٧٨ .

شيء ولكن مصدر قوتها انما هى في ادعاء أن الرجل من جنس الأسد حقيقة له صفاته وطبيعته .

وذهب القزوينى مذهبا آخر في التعليل ، ورأى أن من شروط جمال التحقيقية والتمثيل ان لا تشم رائحة التشبيه من اللفظ لذلك ينبغي أن يكون الشبه بين طرفيها جليا بنفسه او عُرْفٍ أو غيره ، وإلاّ صار تعمية والغازا لا استعارة وتمثيلا ، واذا ما قوي الشبه بين الطرفين بحيث صار الفرع كالاصل لم يحسن التشبيه ، وتعينت الاستعارة ، ويكون حسن المكني عنها برعاية جهات حسن التشبيه . ولا تخرج عن هذه القاعدة الا التخييلية فانه يرى ان حسنها بحسب حسن المكني عنها ، لانها لا تكون الا تابعة لها[1] .

وبذلك لم يستطع القزويني ان يظهر لنا قيمة الاستعارة كما ينبغي وكما توحيه وربط بينها وبين التشبيه ، لانه يرى انها مبنية عليه ،وهذا ما دهب اليه عبد القاهر فاكد في كتبه انها ليست تخييلا وانما هى مبنية على التشبيه ، يقول : « واعلم ان الاستعارة لا تدخل في قبيل التخييل لان المستعير لا يقصد الى اثبات معنى اللفظة المستعارة ، وانما يعمد الى اثبات شبه هناك فلا يكون مخبره على خلاف خبره . وكيف يعرض الشك في أن لا مدخل للاستعارة في هذا الفن ، وهى كثيرة في التنزيل على ما لا يخفى كقوله تعالى : « واشتعل الرأس شيبا » ثم لا شبهة في أن ليس المعنى على اثبات الاشتعال ظاهرا ، وانما المراد اثبات شبهه »[2] . وشرح معنى التخييل قائلا : « وجملة الحديث الذي أريده بالتخييل ههنا ما يثبت فيه الشاعر أمرا غير ثابت اصلا ويدعي دعوى لا طريق الى تحصيلها ويقول قولا يخدع فيه نفسه ويريها ما ترى . أما الاستعارة فان سبيلها سبيل الكلام المحذوف في انك اذا رجعت الى اصله وجدت قائله وهو يثبت أمرا عقليا صحيحا ويدعي

(١) ينظر الايضاح ص ٣١٧ .
(٢) اسرار البلاغة ص ٣١٠ .

دعوى لها شبح في الاصل . وستمر بك ضروب من التخييل هي أظهر أمراً في البعد عن الحقيقة تكشف وجهه في انه خداع للعقل وضرب من التزويق »[1] .

ويؤكد عبد القاهر على ان الاستعارة ضرب من التمثيل فيقول : « أما الاستعارة فهي ضرب من التشبيه ونمط من التمثيل »[2] . وهو عندما يعلل حسن الاستعارة يذكر ان حسنها يكون على قدر اخفاء التشبيه ، يقول : « واعلم ان من شأن الاستعارةانك كلما زدتارادتك التشبيه اخفاء ازدادت الاستعارة حسنا حتى انك تراها أقرب ماتكون اذا كان الكلام قد أُلِّفَ تأليفا ان أردت أن تفصح فيه التشبيهخرجت الى شيء تعافه النفس ، ويلفظه السمع ومثال ذلك قول ابن المعتز :

أَثمرتْ أغصانُ راحتِـه   بجنانِ الحُسْنِ عنّابا

ألا ترى انك إن حملت نفسك على ان تظهر التشبيه ، وتفصح به احتجت الى ان تقول : أثمرت أصابع يده التي هي كالاغصان لطالبي الحسن شبيه العناب من اطرافها المخضوبة ،وهذا مالاتخفىغثاثته»[3] . ولكنه يرى أن الاستعارة ادعاء وليست نقلا ، لاننا في كثير من الاحيان نرى في الاستعارة ما لا يتصور تقدير النقل فيه ، يقول : « فقد تبينمن غير وجه أن الاستعارة انما هى ادعاء معنى الاسم للشيء لا نقل الاسم عن الشيء . واذا ثبت انها ادعاء معنى الاسم للشيء علمت ان الـذى قالوه من انها تعليق للعبارة على غير ما وضعت له في اللغة ونقل لهـا عما وضعت له ، كلام قد تسامحوا فيه ، لانه اذا كانت الاستعارةادعاء معنى الاسم لم يكن الاسم مزالا عما وضع له بل مقرا عليه »[4] .

ولم يَنْسَ عبد القاهر وهو يتحدث عن حسن الاستعارة ومزيتها

---

(١) اسرار البلاغة ص ٣١١ .
(٢) اسرار البلاغة ص ٢٦ .
(٣) دلائل الاعجاز ص ٣٤٦ .
(٤) دلائل الاعجاز ص ٣٣٥ ، وتنظر ص ٣٣٣ .

النَّظْمَ الذي شغل نفسه به وأخذ يعيده ويكرره في كتبه ، ويرى أن حسنها يعود في كثير من الاحيان الى النظم ، وضرب لذلك مثلا ان اللفظة الواحدة تستعار في مكان فتكون جميلة حسنة ولكنها تكون أجمل واحسن اذا استعيرت في مكان آخر ، مثال ذلك ان تنظر الى لفظة الجسر في قول ابى تمام :

لا يطمع المرء ان يجتاب لجته بالقولِ ما لم يكن جسراً له العملُ

وقولـــه :

بصرت بالراحةِ العظمى فلم ترها تنال إلاّ على جسر من التَّعَبِ

فنرى في الثاني حسنا لا نراه في الاول ثم تنظر اليها في قول ربيعة الـــرقـــى :

قولي نعم ، ونعم إنْ قلت واجبة قالت: عسى،وعسى جسرالى نعمِ

فنرى لها لطفا ، وخلابة ، وحسنا ليس الفضل فيه بقليل » (١) .

لقد استطاع عبدالقاهر بما أوتي من ذوق وحس مرهفين ومقدرة على التحليل والتعليل أن يظهر لنا قيمة الاستعارة وميزتها مع انها في رأيه ورأى القزويني مبنية على التشبيه ، وكان جديراً بالقزويني أن يستفيد منه في هذه الناحية فيجعل من الاستعارة فنا له قيمته وأثره في التعبير ، وفي ايحاء الصور والاخيلة الجميلة .

وفكرة بناء الاستعارة على التشبيه مقتبسة من خطابة أرسطو نقلها قدامة وأشار اليها صاحب « الوساطة » وصاحب « الموازنة » وابن رشيق في « العمدة » ، وآمن بها عبد القاهر ومن بعده من علماء البيان(٢) كالقزويني وشراح تلخيصه . والذي دعاهم الى ذلك نظرة

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٦٢ .

(٢) ينظر عبدالقاهر والبلاغة العربية ص ١١١ .

بعضهم الى المجاز على أنه كذب وقد فرّق عبد القاهر والقزويني بين الاستعارة والكذب ، وانها مبنية على التأويل ونصب القرينة على أنّ المراد بها خلاف الظاهر ، وذلك ليبتعدا عن هذه الشبهة .

ولا نرى أن تبنى الاستعارة على التشبيه لاننا لا نستطيع في كثير من الاحيان أن نثبته في الاستعارة التخييلية ، وانه لمن الخير لهذا الفن أن ينظر اليه نظرة أدبية محضة وان نشير الى ما يوحيه من صور ويبعث من أخيلة ، وقد استطاع ابن رشيق أن يتخلص من سيطرة هذه النزعة ، ورأى انها من التشبيه ولكن بغير اداته وعلى غير أسلوبه ، والتشبيه عنده تخيل وأيهام لا تحقيق واثبات واقع ، وهو داخل تحت المجاز ، لان المتشابهين في اكثر الاشياء انما يتشابهان بالمقارنة على المسامحة والاصطلاح لا على الحقيقة [1] . ولذلك لا نذهب الى ان الاستعارة من باب التشبيه ، لان كثيرا من اقسامها مبني على التخييل كالتخييلية ، يضاف الى ذلك ان بعض الاستعارات شديدةالتخييل بحيث تنوسي فيها التشبيه كالابيات التي ذكرت في الاستعارة الترشيحية كقول ابي تمام :

ويصعد حتى يظن الجهولُ ... بأن له حاجةً في السماء

وقول ابن الرومي :

يا آل نوبخت لاعدمتكم ... ولا تبدلتُ بعدكم بَدَلا
إنْ صَحَّ علم النجوم كان لكم ... حقا اذا ما سواكم انتحلا
كم عالم فيكم وليس بأن ... قاسى ، ولكن بان رقى فعلا
أعلاكم في السماء مجدُكم ... فلستم تجهلون ما جَهِلا
شافهتم البدر بالسؤال عن الـ ... أمر الى ان بلغتم زُحَلا

(١) ينظر العمدة ج١ ص ٢٦٨ .

وقـــول بشــــار :

اتتنى الشمس زائــرة   ولم تكُ تبرح الفلكــا

وقول المتنبــى :

ولم أرَ قبلي من مَشى البدرُ نحوَه   ولا رجلا قامت تعانقه الأسْدُ

وقد ذكر القزوينى نفسه ان الترشيح مبناه على التناسي ، وليس من البعيد ان تكون الاستعارة كلها مبنية عليــه ، يقول : « والترشيح ابلغ من التجريد لاشتماله على تحقيق المبالغة ، ولهذا كــان مبناه على تناسي التشبيه » [1] . وبذلك نخلص من تقدير التشبيه الذى يكون في كثير من الاحيان قبيحا لا قيمة له ، ونخلّص انفســنا من النقاش في بعض الاستعارات وهل هى تشبيه ام استعارة .

---

(1) الايضــــاح ص ٣٠٢ .

٥

انواع اخرى من المجاز :

بحث علماء البلاغة المتأخرون كثيرا من المعاني المجازية في غير بحث المجاز أو علم البيان ، وعلة ذلك انها جاءت في اماكن لا علاقة لها بعلم البيان في نظرهم كبحثهم الخروج على مقتضى الظاهر ، ومعاني الفنون الانشائية ، وبعض فنون البديع . ونرى ان هذه الموضوعات تختص ببحث المجاز . ولا نبعد كثيرا في هذا الرأي او نخالف البلاغيين ، لانهم صرحوا بهذا واشاروا اليه ، ولعل ابن قتيبة اقدم من اشار الى ذلك حينما عقد بابا في « مخالفة ظاهر اللفظ معناه » [1] . وذكر خروج الدعاء ، والاستفهام ، والامر الى معان أخر غير مطلوب بها المعنى الحقيقي ، فالدعاء يأتي على جهة الذم كقوله تعالى : « قُتِلَ الانسانُ ما أَكْفَرَهُ » [2] . والتعجب مثل : « قاتله الله ما احسن ما قال » .
والاستفهام يكون للتقرير كقوله تعالى : «أأنت قُلْتَ للناسِ اتخذوني وأمي الهينِ من دُونِ الله » [3] ، والتعجب كقوله : « عَمَّ يتساءلونَ . عن النبأ العظيمِ » [4] ، والتوبيخ كقوله : « أتأتونَ الذُّكْرانَ في العالَمين » [5] ، والامر يكون للتهديد كقوله : « اعْملوا ما

---

(١) ينظر تاويل مشكل القرآن ص ٢١٣ وما بعدها .
(٢) سورة عبس ، الآية ١٧ .
(٣) سورة المائدة ، الآية ١١٦
(٤) سورة النبأ الآيتان ١ ، ٢ .
(٥) سورة الشعراء ، الآية ١٦٥ .

شِئْتُمْ »[1] ، وللتأديب كقوله :«وأشْهِدوا ذَوَي عَدْلٍ منكم»[2] وقوله : « واهْجُروهُنَّ في المضاجعِ واضْرِبوهُنَّ »[3] وللاباحة كقوله : « فكاتِبوهم إنْ عَلِمْتُم فيهم خَيْرا »[4] . ومنه عام يراد به خاص ، وجمع يراد به واحد واثنان ، وواحد يراد به جميع ، ووصف الجميع بصفة الواحد .

واشار ابن قيم الجوزية الى هذه الناحية وعقد فصلا في التجوزفي الافعال وفصلا في التجوز بالحروف[5] . وقرر ان الخروج عن الظاهر مجاز ، ولذلك عد منه التجوز بالماضي عن المستقبل ، والتعبير بالمستقبل عن الماضي ، وان خروج الخبر والانشاء مجاز . وذهب ابعد من هذا فذكر رأي من يذهب الى ان التقديم والتأخير مجاز ، لان فيه تقديم ما رتبته التأخير كالمفعول ، وتأخير ما رتبته التقديم كالفاعل والمفعول به في نقل كل واحد منهما على رتبته وحقه[6] .

وقال التفتازاني عن أدوات الاستفهام : « ثم ان هذه الكلمات الاستفهامية كثيرا ما تستعمل في غير الاستفهام مما يناسبالمقام بمعونة القرائن ، وتحقيق كيفية هذا المجاز وبيان انه من اي نوع من أنواعه مما لم يحم احد حوله »[7] .

وقال السبكي بعد ان تكلم على خروج الكلام على مقتضى الظاهر : « لعلك تقول غالب ما سبق او كله من انواع المجاز ومحله علم البيان ، فالجواب ان الامر كذلك ولكن جرت عادة اكثرهم بذكر هذه الانواع في هذا العلم فتبعناهم ، وتداخل علم البيان وعلم المعاني

---

(١) سورة فصلت ، الآية ٤٠ .
(٢) سورة الطلاق ، الآية ٢ .
(٣) سورة النساء ، الاية ٣٤ .
(٤) سورة النور ، الآية ٣٣ .
(٥) الفوائد ص ٣٢ وما بعدها .
(٦) الفوائد ص ٨٢ .
(٧) المطول ص ٢٣٥ .

كثير »[1] . وذهب الى ان بعض انواع البديع مجـاز كالمشاكلة ، والتورية المرشحة ، والاستخدام[2] .

وذهب العصام الى ان الخبر عندما يخرج عن معناه يكون مجـازا لاستعماله في غير ما وضع له ويحتمل بعضها الكناية[3] .

وذهب ابن يعقوب المغربى الى ان اغراض الانشاء والخبر مجاز له علاقة وان في المشاكلة ، والتورية مجازا[4] .

وبحث السيوطي المجـاز اللغوي او المجاز المفرد ، وقسّمه الى أنواع كثيرة وأدخل فيه خروج الخبر والانشاء الى معان مجـازية ، واشار الى من يذهب الى ان التقديم والتأخير ، والتأكيد ، والالتفات ، والتغليب من المجاز[5] .

وفصّل الدسوقي الكلام في هـذه الموضوعات ، وذهب الى أن معظم الخروج عن الظاهر مجاز مرسل ، وبذلك اكمل ما اشـار اليه التفتازانى من ان هذا البحث لم يحم حوله احد .

ولاجل هذا سنجمع البحوث المتعلقة بالمجاز في هذا الفصل بعـد ان فرقها القزويني في مواضع مختلفة ، فذكرها في علم المعاني تارة وفي علم البيان اخـرى .

مجاز الحذف والزيادة :

واول ما نبدأ بذكره هنا مجاز الحذف والزيادة ، فقد ذكرهما القزويني في علم البيان بعد مناقشة السكاكى وقال ان الكلمة كمـا توصف بالمجاز لنقلها عن معناها الاصلي توصف به لنقلها عن اعرابهـا

---

(1) عروس الافراح ج1 ص 493 .
(2) ينظر عروس الافراح ج4 ص 311 ، 325 ، 327 .
(3) الاطـول ج1 ص 253 .
(4) مواهب المفتاح ج2 ص 337 ، وج4 ص 309 ، 322 .
(5) الاتقان في علوم القرآن ج2 ص 36 وما بعدها

الاصلي الى غيره لحذف لفظ او زيادة لفظ ، فالحذف كقوله تعالى : « واسأل القريةَ »[1] أي أهل القرية فاعراب القريــة في الاصل هو الجر فحذف المضاف واعطي المضاف اليه اعرابه ، والزيادة كقوله تعالى: « ليس كمثلِه شَيء »[2] على القول بزيادة الكاف أي:ليس مثلهشيء • وليس كل حذف او زيادة توجب وصف الكلمة بالمجاز ، وانما يكون كذلك اذا اوجب الحذف او الزيادة تغيير الاعراب ، فان كان الحذفاو الزيادة لا يوجب تغير الاعراب نحو قوله تعالى : « أو كصَيِّبٍ من السماء »[3] وقوله : « فبما رحمــةٍ من الله لِنْتَ لَهُمْ »[4] فــلا توصف بالمجاز[5] • وقــد ذهب السكاكي الى ان الموصوف بالتجوز المذكور والمسمى بلفظ المجاز هو نفس الاعراب ، فالنصب في القريــة مثلا يوصف بانه تجوز فيه بنقله لغير محله ، لان القرية بسبب التقدير في محل جر ، وقد اوقع فيها النصب • ويسمى ذلك الاعراب بنفســه مجازا لما وقع التجوز فيه ورأيه فيه ان يعد ملحقا بالمجاز ، ومشبها لــه لما بينهما من الشبه وهو اشتراكهما في التعدي عن الاصل الى غير أصل، لا ان يعد مجازا ، ولاجل هذا لم يذكر حده شاملا[6] •

والمسمى بالمجاز الموصوف بالتجوز عند القزوينى هو الكلمــة المعربة لا اعرابها ، ويرى المغربى ان هذا هو الاقرب لوجهين :

أحدهما : كون مدلول لفظ المجاز في الموضعين هو الكلمة بخلاف اطلاقه على الاعراب ، فانه يقتضي مخالفة في المــدلولين اذ يكون لفظ المجاز هنا كيفية الكلمة لا نفسها ، ومدلولها فيما تقدم نفس الكلمة •

وثانيهما : ان اطلاق لفظ المجاز على الاعراب كما هو ظاهر كــلام

---

(١) سورة يوسف ، الآيــة ٨٢ .
(٢) سورة الشورى ، الآيــة ١١ .
(٣) سورة البقرة ، الآيــة ١٩ .
(٤) سورة آل عمران ، الآيــة ١٥٩ .
(٥) الايضاح ص ٣١٧ — ٣١٨ .
(٦) مفتاح العلوم ص ١٨٥ .

السكاكي سببه كما تقدم ان الاعراب وقع في غير اصله ، وذلك ربما يدعى ظهوره في النقصان لان المقدر كالمذكور ، فالقرية في قوله تعالى « واسأل القرية » حكمها الجر بتقدير المضاف فقد وقع النصب في محل الجر الذي هو الاصل بسبب التقدير الذي هو الذكر ، فصح ان الاعراب في النقصان الذي يستدعي التقدير في غير محله فيسمى مجازا [1] .

وبالغ عبدالقاهر في النكير على من اطلق القول بوصف الكلمة بالمجاز للحذف او الزيادة ، ولكن السيوطي يرى ان المشهور في الحذف انه من المجاز وان انكره بعضهم ، لان المجاز استعمال اللفظ في غير موضعه والحذف كذلك [2] . والى هذا ذهب الرماني وابن رشيق ، يقول الاخير وهو يتحدث عن الايجاز : «والضرب الثاني بما ذكره الرماني وهو قول الله عز وجل : « واسأل القرية » يسمونه الاكتفاء وهو داخل في باب المجاز »[3] .

الخروج على مقتضى الظاهر :

وثانيهما : الخروج على مقتضى الظاهر ، وهو ما ذكره القزويني في علم المعاني فقد يخرج المسند اليه على مقتضى الظاهر فيوضع المضمر موضع المظهر كما في باب « نعم وبئس » مثل : « نعم رجلا زيد » و « بئس رجلا عمرو » . وكما في ضمير الشأن والقصة نحو قوله تعالى : « قُلْ هوَ اللهُ أحَدٌ »[4] ، وقوله : « إنَّه لا يُفلِحُ الكافرونَ »[5] وقوله : « فإنَّها لا تَعمى الأَبصارُ »[6] .

---

(١) مواهب الفتاح ج٤ ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥ .
(٢) ينظر اسرار البلاغة ص ٤٥٧ ، والاتقان في علوم القرآن ج٢ ص ٤٠ .
(٣) العمدة ج١ ص ٢٥١ .
(٤) سورة الاخلاص ، الآية ١ .
(٥) سورة الانعام ، الآية ١٣٥ .
(٦) سورة الحج ، الآية ٤٦ .

وقد يعكس فيوضع المظهر موضع المضمر ، فان كان المظهر اسم اشارة فذلك اما لكمال العناية بتمييزه لاختصاصه بحكم بديع كقوله :

كم عاقلٍ عاقلٍ أعيت مذاهبه   وجاهلٍ جـــاهلٍ تلقاه مرزوقا
هذا الذي ترك الاوهامَ حائرة   وَصَيَّرَ العالم النحريرَ زنديقا

واما للتهكم بالسامع كما اذا كان فاقد البصر ، او لم يكن ثم مشار اليه اصلا . واما للنداء على كمال بلادته بانه لا يدرك غير المحسوس بالبصر ، أو على كمال فطانته بان غير المحسوس بالبصر عنـــده كالمحسوس عنـد غيره . واما لادعـاء انـه كمل ظهوره حتى كـأنه محسوس بالبصر .

وان كان المظهر اسم اشارة فالعدول اليه عن المضمر اما لزيـــادة التمكين كقوله تعالى : « قل هو الله احد ، الله الصمد » . واما لادخال الروع في ضمير السامع وتربية المهابة . واما لتقوية داعي المـأمور ، مثالهما قول الخلفاء : « أمير المؤمنين يأمرك بكذا » . واما للاسـتعطاف كقولـــه :

إلهي عبدُك العاصي أتاكـــا   مقراً بالذنوب وقـد دعاكا

وقد يخرج غير المسند اليه على مقتضى الظاهر كقول الشاعر :

تعاللتِ كي أشجى وما بك علة   تريدين قتلي قـد ظفرت بذلِكا

وكقوله تعالى : « وبالحقِ أنزلناه ، وبالحقِ نزل » [(١)] وقولـه:
« فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُوا قولاً غيرَ الذي قيل لهم،فأنزلنا على الذينَ ظَلَموا » [(٢)] . وقول الشاعر :

إنْ تسألوا الحق نُعْطِ الحق سائله   والدرع محقبة والسيف مقروب

(١) سورة الاسراء ، الآيـة ١٠٥ .
(٢) سورة البقرة ، الآيـة ٥٩ .

ومن الخروج على مقتضى الظاهر التعبير عن المستقبل بلفظ المضي تنبيها على تحقق وقوعه وان ما هو للوقوع كالواقع كقوله تعالى : « ويَوم يُنْفَخُ في الصُّورِ فَفَزِع مَن في السماواتِ ، ومَن في الأرضِ إلا مَنْ شَاء اللهُ »[1] .

ومثله التعبير عنه باسم الفاعل كقوله تعالى : « وإنَّ الدينَ لواقع »[2] . وكذا اسم المفعول كقوله تعالى : « ذلك يَوْمٌ مَجموعٌ له الناسُ ، وذلكَ يَوْمٌ مَشْهودٌ »[3] وهذا ما تكلم عليه ابن الاثير وعدَّه من الالتفات .

وذهب بعضهم الى ان تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر من باب الكناية ، وقيل انه من قبيل الاستعارة بالكناية والتخييل ، ولكن الدسوقي يقول : « والحق انه لا يقال فيه شيء من ذلك ، لان المجاز والكناية انما هو اعتبار المعاني التي يوضع لها اللفظ ، وهذا بخلاف ذلك اذ لم يستعمل اللفظ فيه لانها معان عرضية » .

وادخل القزويني في هذا البحث الالتفات والاسلوب الحكيم والقلب وهو عند غيره من البديع .

الانشاء المجازي :

وثالثها : خروج الانشاء عن معانيه ، فان الفاظ الاستفهام تستعمل في معان غير معانيه بحسب ما يناسب المقام منها : الاستبطاء كقوله تعالى : « حتى يقولَ الرسولُ والذين آمنوا معه ، متى نَصْرُ الله ؟ »[4] . والتعجب كقوله : « ما لي لا أرى الهُدْهُدَ ؟ »[5] . والتنبيه على الضلال

---

(١) سورة النمل ، الآية ٨٧ .

(٢) سورة الذاريات ، الآية ٦ .

(٣) سورة هود ، الآية ١٠٣ .

(٤) سورة البقرة ، الآية ٢١٤ .

(٥) سورة النمل ، الآية ٢٠ .

كقوله : « فأين تَذْهبون »[1] ، والوعيد كقوله : « ألَمْ نُهْلِكِ الأولينَ »[2] ، والامر كقوله : « فَهَل أنتم مُسلمون »[3] والتقرير كقوله تعالى : « أأنْتَ فَعَلْتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيمُ »[4] .

ويرى القزويني ان الهمزة هنا يجوز ان تكون على أصلها اذ ليس في السياق ما يدل على انهم كانوا عالمين بأنه ـ عليه السلام ـ هو الذي كسر الاصنام[5] ، والانكار اما للتوبيخ نحو : « أعصيت ربك »، او للتكذيب بمعنى : «لم يكن» كقوله تعالى : « أفأصفاكم ربُّكم بالبنينَ واتَّخَذَ من الملائِكةِ إناثا »[6] ، أو بمعنى « لا يكون » كقوله تعالى : « أنلزِمُكموها وأنتم لها كارِهون »[7] ، وعليه قول امرىء القيس:

أيقتلني والمشرفيُّ مضاجعي ومسنونةٌ زُرْقٌ كأنياب أغوالِ

ومن مجيء الهمزة للانكار قوله تعالى : « أليس اللهُ بكافٍ عَبْدَهُ »[8] .

وقول جرير :

ألستم خَيْرَ من رَكِبَ المطايا واندى العالمينَ بطونَ راحِ

والتهكم كقوله تعالى: «أصلاتُك تأمرُكَ أنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤنا أوْ أنْ نَفْعَلَ في أموالِنا ما نشاء »[9] .

والتحقير كقولك : « من هذا؟» ، والتهويل كقراءة ابن عباس رضي

(١) سورة التكوير ، الآية ٢٦ .
(٢) سورة المرسلات ، الآية ١٦ .
(٣) سورة هود ، الآية ١٤ .
(٤) سورة الانبياء ، الآية ٦٢ .
(٥) الايضاح ص ١٣٨ .
(٦) سورة الاسراء ، الآية ٤٠ .
(٧) سورة هود ، الآية ٢٨ .
(٨) سورة الزمر ، الآية ٣٦ .
(٩) سورة هود ، الآية ٨٧ .

الله عنهما: « ولَقَدْ نَجّينا بني إسرائيلَ من العَذَابِ المُهينِ • مِنْ فِرعونَ »[1] بلفظ الاستفهام •

والاستبعاد كقوله : « أنّى لهم الذكرى وقد جاءهم رسـول مُبين • ثُمَّ تَوَلّوا عنه ، وقالوا مُعَلَّمٌ مجنون »[2] •

والتوبيخ والتعجب جميعا كقولـه : « كيف تَكْفُرونَ بالله وكنتُمْ أمواتاًفأحياكم ثُمَّ يُميتكم ثم يُحييكم ثم اليه تُرْجَعون »[3] •

وتستعمل صيغة الامر ، في غير طلب الفعل مجازا بحسب مناسبة المقام كالاباحة في قول كثير :

أسيئي بنا أو أحسني لاملومة   لدينـا ولا مقلية ان تقلّتِ

والتهديد كقوله تعالى : « اعملوا ما شِئْتُم »[4] • والتعجيـز كقولـه : « فاتوا بسورةٍ مِنْ مِثْلِـهِ »[5] • والتسخير كقوله : « كونوا قِرَدَةً خاسِئينَ »[6] • والاهـانة كقولـه : « كونوا حجارةً أو حَديدا »[7] • والتسوية كقوله: « أنْفِقوا طَوْعاً أوْ كَرْهاً لن يُتَقَبَّلَ منكم »[8] • والتمني كقول امرىء القيس :

ألا أيها الليلُ الطويلُ ألاانْجَلِ   بصبح وما الاصباح منكَ بأمثلِ

والدعاء كقوله تعـالى : « رَبِّ اغفرْ لي ولوالديَّ »[9] •

---

(١) سورة الدخان ، الايتان ٣٠ ، ٣١ .
(٢) سورة الدخان ، الايتان ١٣ ، ١٤ .
(٣) سورة البقرة ، الآيـة ٢٨ .
(٤) سورة فصلت ، الآية ٤٠
(٥) سورة البقرة ، الآية ٢٣ .
(٦) سورة البقرة ، الآيـة ٦٥ .
(٧) سورة الاسراء ، الآيـة ٥٠ .
(٨) سورة التوبة ، الآيـة ٥٣ .
(٩) سورة نوح ، الآيـة ٢٨ .

والالتماس كقولك لمن يساويك في الرتبة : « افعل » بدون الاستعلاء ، والاحتقار كقوله تعالى : « أَلْقُوا ما أنتم مُلْقُون »[1] .

ويستعمل النهي في غير معناه كالتهديد وغيره .

وتستعمل صيغة النداء في غير معناه مجازا ، كالاغراء في قولك لمن أقبل يتظلم : « يا مظلوم »،والاختصاص في قولهم:«أنا أفعل كذا أيها الرجـــــل » .

ويقع الخبر موقع الانشاء للتفاؤل أو لاظهار الحرص في وقوعـه وغير ذلك[2] .

ولم يذكر القزوينى علاقات المجاز في هذه الانواع ، ولعـــــل الدسوقى كان من أول من فصل فيها ، فذكرأن معظم هذه الفنون مجاز مرسل له علاقــة .

التغليب :

ورابعها : التغليب الذي عده التفتازاني ، والدسوقي من المجاز ، يقول الاخير : « وبالجملة فالتغليب اما مجاز مرسل علاقته الجزئية أو المصاحبة ، او من قبيل عموم المجاز »[3] .

---

(١) سورة يونس ، الآية ٨٠ .
(٢) الايضاح ص ١٣٠ – ١٤٧ .
(٣) حاشية الدسوقى ج٢ ص ٥١ ، وينظر المطول ص ١٥٩ .

الكنـاية

للكناية عدة معانٍ ، فقد جاءت بمعنى الضمير ، والكنية ،وبمعناها الاصطلاحي • وذكرت انواعها في الكتب الاولى ، وبقي مدلولها لغويا حتى ضبطها عبد القاهر بقوله : « الكناية أن يريد المتكلم اثبات معنى من المعـاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكنه يجيء الى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومي به اليه ويجعله دليلاعليه»[1] •

والكناية لون من ألوان الخيال ، وقد عني بها نقاد العرب ،وعرفوا لها مكانتها في الايضاح والتأثير، ويرى ابن الاثير أنها جزء من الاستعارة ولا تأتي الا على حكمها خاصة ، لان الاسـتعارة لا تكون الا بحيث يطوى ذكر المكنى عنه • ونسبتهاالى الاستعارة نسبة خـاص الى عام فيقال : كل كناية استعارة ، وليس كل استعارة كناية ، فالكنايـة وان كانت جزءً من الاستعارة الا ان بينهمـا ثلاثـة فروق : الخصوص والعموم ، والتصريح وعدمه ، والحمل على جانب الحقيقة والمجاز•ومن هنا قد يأتي ما يجوز أن يكون كناية ، ويجوز أن يكون استعارة وذلك يختلف باختـلاف النظر اليـه بمفرده والنظر الى ما بعده كقول نصر ابن سيار :

أرى خَلَل الرماد وميض جَمْرٍ ويوشك أنْ يكـونَ له ضرامُ
فان النارَ بالزنـدين تُورَى وان الحرب أولها كـــلامُ

(١) دلائل الاعجاز ص ٥٢ •

أقول من التعجب: ليت شعري أأيقاظ أميةُ أمْ نيامُ ؟
فإنْ هبوا فذاك بقاء ملك وإنْ رقدوا فاني لا أنامُ

فالبيت الاول لو ورد بمفرده كان كناية ، لانه يجوز حمله على جانب الحقيقة وحمله على جانب المجاز ، أما الحقيقة فانه أخبر أنه رأى وميض جمر في خلل الرماد وأنه سيضطرم ، وأما المجاز فانه أراد أن هناك ابتداءَ شرٍ كامنٍ ومثله بوميض جمر من خلل الرماد . واذا نظرنا الى الابيات جملتها أختص البيت الاول منها بالاستعارة دون الكناية [1] .

وقسم ابن الاثير الكناية الى ما يحسن استعماله ، وما يقبح ، وقَسَّم الاول الى التمثيل ، والارداف ، والمجاورة .ولكنه عاد وأنكر التقسيم الاخير في « المثل السائر » ، ورأى انه غير صحيح ، لان شرط التقسيم أن يكون كل قسم منه مختصا بصفة خاصة تفصله عن عموم الاصل . واكتفى بتقسيمها الى ما يحسن استعماله ، وما لا يحسن . ووضح ما يراد من التمثيل والارداف والمجاورة [2] .

ولم يفرق كثيرون بين الكناية والتعريض ، ولكن الزمخشرى فرق بينهما وجعل كلا منهما قائما بنفسه ، يقول : « فان قلت : أي فرق بين الكناية والتعريض ؟ قلت : الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه له كقولك: « طويل النجاد والحمائل » لطويل القامة و « كثير الرماد » للمضياف .

والتعريض أن تذكر شيئا تدل به على شيء لم تذكره ، كما يقول للمحتاج اليه « جئتك لاسلم عليك ولانظر الى وجهك الكريم » ولذلك قالوا :

وحسبك بالتسليم مني تقاضيا

---

(١) المثل السائر ج٢ ص ١٩٧ .

(٢) ينظر المثل السائر ج٢ ص ١٩٩ وما بعدها . والجامع الكبير ص ١٥٦ ومابعدها

وكأنه احالة الى عرض يدل على الغرض ، ويسمى : « التلويح ، لانه يلوح منه ما يريده »[1] .

وشدد ابن الاثير النكير على من خلط بينهما كـالغانمي ، وابن سنان ، وأبي هلال ، وذهب الى ان لكل منهما حدا خاصا ، وأغراضا معينة . والكناية عنده « كل لفظة دلت على معنى يجوز حملـه على جانبى الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز » »[2] .

والتعريض : « هو اللفظ الدال على الشيء مـن طريق المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي »[3] .

فالفرق بينهما ان الكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معا فتأتي على هذا تارة وعلى هذا أخرى ، أما التعريض فانه يختص باللفظ المركـب ولا يأتى في اللفظ المفرد البتة ، والدليل على ذلك أنه لايفهم المعنى فيه من جهة الحقيقة ولا من جهـة المجاز ، وانمـا يفهم من جهـة التلويح والاشارة ، وذلك لا يستقل به اللفظ المفرد ، ولكنه يحتاج في الدلالة عليه الى اللفظ المركب .

وكان على السكاكى وهو المولع بالتحديد والتقسيم أن يفرق بين الكناية والتعريض ، ولكنه لم يفعل واكتفى بان قال : « متى كـانت الكناية عرضية على ما عرفت كان اطلاق اسم التعريض عليها مناسبا ، واذا لم تكن كذلك نظر ، فان كانت ذات مسافة بينها وبين المكنى عنـه متباعدة لتوسط لوازم كما في كثير الرماد وأشباهه كان اطلاق اسـم التلويح عليها مناسبا ، لان التلويح هو ان تشير الى غيرك عن بعد ، وان كانت ذات مسافة قريبة مع نوع من الخفاء كنحو عريض القفا ،وعريض الوسادة كان اطلاق اسم الرمز عليها مناسبا »[4] . وذكر أن التعريض

---

(١) الكشـاف ج١ ص ٢١٥ .

(٢) المثل السائر ج٢ ص ١٩٤ .

(٣) المثل السائر ج٢ ص ١٩٨ .

(٤) مفتاح العلوم ص ١٩٤ .

يكون على سبيل الكناية تارة وعلى سبيل المجاز تارة اخرى .

وسار القزويني على خطا السكاكي ، ولم يخرج عما كتبه عن الكناية ، يقول : « الكناية : لفظ أريد به لازم معناه مع جواز ارادة معناه حينئذ »[1] . وفرّق بينها وبين المجاز على أساس هذا التعريف أي من جهة ارادة المعنى مع ارادة لازمه ، لان المجاز يتنافى مع ذلك ، ورفض ما ذهب اليه السكاكي من أن الفرق بينهما هو أن مبنى الكناية على الانتقال من اللازم الى الملزوم ومبنى المجاز على الانتقال من الملزوم الى اللازم . يقول : « وفيه نظر ، لان اللازم ما لم يكن ملزوما يمتنع ان ينتقل منه الى الملزوم فيكون الانتقال حينئذ من الملزوم الى اللازم . ولو قيل : « اللزوم من الطرفين من خواص الكناية دون المجاز أو شرط لها دونه اندفع هذا الاعتراض ، لكن اتجه منع الاختصاص والاشتراط »[2] .

رأي القزويني :

والكناية عند القزويني واسطة بين الحقيقة والمجاز ، اما عند السكاكي فهي حقيقة لاستعمال اللفظ في معناه وان اريد منه لازم ذلك المعنى . وذهب ابن الاثير الى ان « الكناية ما جاز حمله على جانب الحقيقة كما يجوز حمله على جانب المجاز »[3] .

وعلل المتأخرون مذهب القزويني فقال الدسوقي : « الكناية اخراجها بناء على انها واسطة لا حقيقة ولا مجاز ، أما انها ليست حقيقة فلأنها كما سبق اللفظ المستعمل فيما وضع له والكناية ليست كذلك ، وأما انها ليست مجازا فلأنه اشترط فيه القرينة المانعة عن ارادة الحقيقة ، والكناية ليست كذلك ، ولهذا اخرجها من تعريف المجاز »[4] .

---

(١) الايضاح ص ٣١٨ .
(٢) الايضاح ص ٣١٩ .
(٣) المثل السائر ج٢ ص ٢١٠ .
(٤) حاشية الدسوقي ج٤ ص ٢٦ .

وقد لخص السيوطى المذاهب المختلفة في الكناية ، يقول :«الكناية وفيها اربعة مذاهب :

أحدها : أنها حقيقة ، قاله ابن عبد السلام ، وهو الظاهر ، لانها استعملت فيما وضعت له ، واريد بها الدلالات على غيره •

الثاني : أنهـا مجـاز •

الثالث : أنها لا حقيقة ولا مجاز ، واليه ذهب صـاحب التلخيص لمنعه في المجاز أن يراد المعنى الحقيقي مع المجازي وتجويزه ذلك فيها •

الرابع : وهو اختيار الشيخ تقى الدين السبكى ، أنها تقسم الـى حقيقة ومجاز ، فان استعملت اللفظ في معناه مرادا من لازم المعنى أيضا فهو حقيقة ، وان لم يرد المعنى بل عبر بالملزوم عن اللازم فهو مجـاز لاستعماله في غير ما وضع له »[1] •

وقسم القزوينى الكناية الى ثلاثة أقسام :

الاول : الكناية المطلوب بها غير صفة ولا نسبة ، ومنها ما هو معنى واحد كقول الشاعر كناية عن القلب :

الضاربين بكل أبيض مخذمٍ والطاعنين مجامعَ الاضغانِ

وبيت البحتـرى :

فاتبعتها أخرى فأضللت نصلها بحيث يكون اللبُّ والرعبُ والحقدُ

ومنها ما هو مجموع معانٍ كقولنا كناية عن الانسان : « حـي مستوي القامة ، عريض الاظفار » •

الثاني : المطلوب بها صفة ، وهى ضربان قريبة وبعيدة ، والقريبـة ما ينتقل منها الى المطلوب بها لا بواسطة ، وهي امـا واضحة كقولهم

---

(١) الاتقان ج٢ ص ٤١ •

كناية عن طويل القــامة : « طويل نجاده ، وطويل النجاد » . ومنهــا قول الحماسي :

أبتِ الروادفُ والثدىُّ لقمصها ... مسَّ البطون وأن تمسَّ ظهورا

واما خفية كقولهم كناية عن الابله : « عريض القفا » .

والبعيدة ما ينتقل منها الى المطلوب بها بواسطة ، كقولهم كنايةعن الابله : « عريض الوسادة » فانه ينتقل من عرض الوسادة الى عرض القفا ومنه الى المقصود . وكقوله :

وما يك فيَّ من عيبٍ فاني ... جبانُ الكلبِ مهزولُ الفصيلِ

ومن هذا النوع قول نصيب :

لعبد العزيز علــى قومــــه ... وغيرهــم منـــن ظاهــــره
فبابك أسهــلُ أبوابهـــم ... ودارُكَ مأهولـــةٌ عامره
وكلبُــك آنس بالزائريــن ... مــن الأمِ بالابنــةِ الزائره

الثالث : المطلوب بها نسبة كقول زياد الاعجم :

إن السماحةَ والمروءةَ والندى ... في قبَّةٍ ضربت على ابنِ الحَشْرَجِ

ونظيره قولهم : « المجد بين ثوبيه ، والكرم بين برديه » . وهذا النوع من الكناية جعله عبد القاهرمن قبيل المجاز الاسنادى ، وأنشد عليه قول يزيد بن الحكم يمدح يزيد بن المهلب وهو في سجن الحجاج:

أصبح في قيدك السماحة والمجـ ... ـدُ وفضلُ الصلاح والحسبِ[(١)]

وأشار القزويني الى انه قد يظن أن هنا قسما رابعــا ، وهو أن

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٣٨ ، وينظر عروس الافراح ج٤ ص ٢٥٨ .

يكون المطلوب بالكناية الوصف والنسبة معا كما يقال : « يكثر الرماد في ساحة عمرو » في الكناية عن أنّ عمراً مضياف ، يقول: «وليس بذاك ، اذ ليس ما ذكر بكناية واحدة بل هو كنايتان : أحداهما عن المضيافية ، والثانية : عن اثباتها لعمرو »[1] .

هذه هي اقسام الكناية التي ذكرها السكاكي والقزويني ، وقال السبكي أن الطيبي ذكر نوعا من الكناية وهو اختصاص الموصوف بالصفة واعاده السبكي الى الانواع الاخرى ، وذكر ان الزمخشري استنبط نوعا من الكناية وهو أن يعمد الى جملة معناها على خلاف الظاهر فيأخذ الخلاصة منها من غير اعتبار مفرداتها بالحقيقة أو المجاز . ولكن السبكي يرى أن يكون هذا من الاستعارة بالتمثيل كما في قوله تعالى : « والأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يومَ القيامةِ ، والسماواتُ مطويّاتٌ بيمينهِ »[2] .

وليس في هذه التقسيمات فائدة كبيرة ، ونرى ان نعود الى تقسيم ابن الأثير فنقسمها الى ما يحسن استعماله ، وما لا يحسن ، ونضع لها بعض القواعد والاصول ، وبذلك نخلص البلاغة من كثرة التقسيمات ، واضطراب المصطلحات ، واختلاف البلاغيين فيها .

ونقل القزويني ما ذكره السكاكي من ان الكناية تتفاوت الى تعريض ، وتلويح ، ورمز ، وايماء ، واشارة ، فان كانت عرضية فالمناسب أن تسمى تعريضا ، والا فان كان بينها وبين المكنى عنه مسافة متباعدة لكثرة الوسائط كما في « كثير الرماد » وأشباهه فالمناسب أن تسمى تلويحا ، لان التلويح هو أن تشير الى غيرك عن بعد ، والا فان كان فيها نوع خفاء فالمناسب ان تسمى رمزا ، لان الرمز هو ان تشير الى قريب منك على سبيل الخفية ، والا فالمناسب ان تسمى ايماء واشارة كقول أبي تمام يصف ابلا :

---

(١) الايضاح ص ٣٢٧ .

(٢) سورة الزمر ، الآية ٦٧ . ينظر عروس الافراح ج٤ ص ٢٦١ ـ ٢٦٢ .

أبين فما يَزُرْنَ سوى كريمٍ وحسبك أَنْ يزرن أبا سعيدِ

والكناية صور مختلفة لا يمكن حصرها ، وقد صدق عبد القاهر حينما قال : « وليس لشعب هذا الاصل ، وفروعه، وأمثلته ،وصوره، وطرقه ، ومسالكه ، حَدٌّ ونهاية »[1] .

والتعريض قد يكون مجازا مثل « آذيتني فستعرف » وأنت لا تريد المخاطب ، بل تريد انسانا معه، وان اردتهما جميعا كان كناية .

اهمية الكناية :

وليس في بحث القزويني ما ينفع في دراسة الكناية على اعتبارانها لون من الوان الخيال ، ووسيلة من وسائل التعبير . ولعل ما كتبه ابن الاثير في « الجامع الكبير » و « المثل السائر » يغني الباحث في هذا الموضوع ، فقد جعل لهذا الفن روحا ، وبعث فيه حياة ، فاذا بالكناية صور متحركة ، واذا بالامثلة توحي بكل بديع عجيب .

وليت المتأخرين استفادوا مما ذكره ابن الاثير ، وتركوا ما كتبه السكاكي والقزويني وراءهم ظهريا .

قيمة هذه الفنون :

وبعد أن أنتهى القزويني من بحث المجاز والكناية ذكر ان البلغاء اطبقوا على أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، وان الاستعارة ابلغ من التصريح بالتشبيه ، وان التمثيل على سبيل الاستعارة ابلغ من التمثيل لا على سبيل الاستعارة ، وان الكناية ابلغ من الافصاح بالذكر .

ولم يأتِ القزويني بجديد في ذلك ، وانما لخص ما ذكره عبد القاهر في « دلائل الاعجاز » و « اسرار البلاغة » . وليته نقل عنه

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٥٤١ .

تحليله للامثلة وتعليقه عليها ،ووقوفه عندمواطن الجمال وتحسسها[١] ولكنه اعرض عنه واكتفى بذكر نتف قليلة لا تـدل على شيء ، ولا تزيد المجاز والكناية قيمـة ، أو تجعل لها أثرا في التعبير ، وان كان ما ذكره الحق . يقول السبكي : « وبالجملـة ،الذي قاله المصنف هو الحق ولكنه لم يتوصل اليه بطريقه »[٢] .

ولا يرى الاستاذ الخولى قيمة في تعليل القزويني والقدمـاء للبلاغة والمجاز والكناية ، وأن تعليلاتهم لا تخرج عن الاحكـام القضائية ، يقول بعد ان ذكر آراءهم : « يقولون هذا ثم لا يعللون شيئا منه كله إلا بالفكرة السابقة في تأكيـد المدح بما يشبه الذم من قولهم : « انه كدعوى الشـيء ببيّنة » ، ويعودون الى الاسـتدلال والتلازم والانفكاك . وشهد الله والادباء وأولو الفن أن ليس شيء من ذلك الاستدلال ، ولا تلك البينة ، ولا هاتيكم الشهادة قد مرّ بخاطر القائل أو السامع ، أو وجدته نفس ادبية ، ولو كـانت العرب انما تصوغ عباراتها ، وتبتدع أساليبها علىهذا المنوال منالاستدلال القضائى ، لكانت عبارة التوثيقات المؤكدة ، ولغة الاشهادات المسهبة هى الفصحى ، ولوجب أن تكون هى لغة المعجزة القرآنية ، ولكـن العرب لم تفعل ذلك ولا قام عليـه ذوقها الفني . ولعل الاعتبـارات النفسية في تداعى المعانى وتجاذب الصور ونحو ذلك ممـا يكشف حسن هذه التعابير ويجسم ناحية القوة فيها دون برهان ولا اعادةولا مقاضاة او احتجاج »[٣] .

وما ذهب اليه الاستاذ الخولى أمر ينبغي أن يؤخذ به ،ويستفاد منه في البلاغة ، لا سيما بعد أن اصبح لعلم النفس أثر في الدراسات الادبية والنقدية في هذه الايام .

---

(١) ينظر دلائل الاعجاز ص ٥٦ وما بعدها بشأن المجاز و ص ٢٣٧ و ٣٤٣ وما بعدهـا بصـدد الكنايـة .

(٢) عروس الافراح ج٤ ص ٢٨١ .

(٣) مناهج تجديد ص ١٩٨ .

الفصل الرابع

علم البديع

١

في اللغـة :

جاء في لسان العرب :

« بدع الشيء يبدعه بدعا ، وابتـدعه : أنشأه ، وبدأه . وبـدع الركية : استنبطها واحدثها . وركى بديع: حديثة الحفر. والبديع والبدع: الشيء الذي يكون اولا ، وفي التنزيل : « قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً من الرُسُلِ »[1] . أي : ما كنت اول مـن ارسل ، قد ارسل قبلي رسل كثير . والبدعة : الحدث وكل محدثة .والبديع: المحدث العجيب، والبديع والمبدع . وابتدعت الشيء اخترعته لا على مثال ، والبديع من اسماء الله تعالى لابداعه الاشياء واحداثه اياها ، وهو البـديع الاول قبل كل شيء . وسقاء بديع : جديد ، وكذلك زمام بديع ، وأنشد ابن

---

(١) سورة الاحقاف ، الآيـة ٩ .

الاعرابى في السقاء لابى محمد الفقعي :

نضحن ماء البدن المسرّى نضح البديع العنق المصفرا

وحبل بديع : جديد ، والبديع المبتَدِع والمُبْتَدَع ، وشيء ابدع ــ بالكسر ــ أي متبوع ، وابدع الشاعر : جاء بالبديع[1] .

الرواة والبديع :

ولا يخرج معنى كلمة البديع في المعاجم الاخرى عن معنى الجدة والبراعة ، وقد كان الرواة اول من اطلق معنى البديع على المستطرف الجديد من الفنون الشعرية ، وعلى بعض الصور البيانية التي يأتي بها الشعراء في اشعارهم فتزيدها حسنا وجمالا ، يقول الجاحظ معلقا على بيت الاشهب بن رميلة :

هُمُ ساعدُ الدَّهرِ الذي يُتَّقى به وما خيرُ كفٍّ لا تنوءُ بساعد

« قوله ــ هم ساعد الدهر ــ انما هو مثَل ، وهذا الذي تسميه الرواة البديع »[2] . وقد دفعه غلوه في حب العرب والرد على الشعوبية الحاقدة الى ان يقول : «والبديع مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأربت على كل لسان »[3] .

المولدون والبديع :

وكان المولدون من شعراء الدولة العباسية قد أكثروا في أشعارهم من الصور البيانية التى سماها الجاحظ « البديع » . فكلثوم بن عمرو يذهب بشعره هذا المذهب ، وقدتبعه كثير من الشعراء كمنصور النمري ، ومسلم بن الوليد الانصاري ، وبشار بن برد ، وابن هرمة .

---

(١) لسان العرب (بدع) .
(٢) البيان والتبيين ج٤ ص ٥٥ .
(٣) البيان والتبيين ج٤ ص ٥٥ ، وينظر ج١ ص ٥١ .

وهذه ظاهرة ليست عجيبة غريبة بعد أن خرج العرب من جزيرتهم وأتصلوا بالعالم ، ودخلت حياة الترف مجتمعهم الجديد وتأنقوا في حياتهم المعاشية ، فكان لا بد أنْ يصطبغ أدبهم بهذه الصبغة الجديدة وأنْ يكثر الشعراء في شعرهم من البديع . وقد حمل لواء هذا الاتجاه بشار ، وابن هرمة ، وابو تمام ، وأضرابهم من الشعراء . وشاع هذا الاتجاه في الادب ، ولجّ المولدون في استعماله ، وتباهوا بانهم السباقون اليه مما حدا بالخليفة العباسي الشاعر عبد الله بن المعتز ان يؤلف كتاب « البديع » ، ليعلم ان بشار ومسلما وابا نواس ومن تَقَيَّلهم [١] ، وسلك سبيلهم لم يسبقوا الى هذا الفن ، ولكن كثر في اشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم ، فأعرب عنه ودل عليه ، وليعرف أنَّ المحدثين لم يسبقوا المتقدمين الى شيء من ابواب البديع » [٢] .

اول كتاب في البديع :

وظن بعض الباحثين أنَّ كتاب البديع كان أول مؤلف في البلاغة يتناول الادب تناولا فنيا ، يقول الدكتور بدوي طبانة : « انه اول كتاب يتناول الادب تناولا فنيا »[٣] . ويقول توري عن ابن المعتز : «وكتابه الذى يعد فتحا جديدا هو البديع » [٤] .

والواقع ان كتاب البديع لم يكن فتحا جديدا في البلاغة ، وانما كان خطوة جديدة في تقدمها وتطورها ، فقد سبقه الجاحظ بما كتب فيها وان لم يكن بحثه مبوبا كتبويب ابن المعتز . وسبقه ابن قتيبة الذى نظّم قسما كبيرا من موضوعات البلاغة في كتابه «تأويل مشكل القرآن » . وبحث استاذه ثعلب البلاغة بطريقة لا تختلف عن

(١) تقيل : اشبه .
(٢) البديع ص ١ — ٣ .
(٣) دراسات في نقد الادب العربي ص ١٧٧ .
(٤) دائرة المعارف الاسلامية ج١ ص ٢٨٠ مادة « ابن المعتز » .

طريقته كثيرا ، ولعل عدم اطلاع بعض الباحثين على كتـابي « تأويل مشكل القرآن » لابن قتيبة ، و « قواعد الشعر » لثعلب ، كـان سبب اعتبار بديع ابن المعتز فتحا جديدا •

وليس البديع عند ابن المعتز ما تعارف عليه المتأخرون من وجوه تحسين الكلام اللفظية والمعنوية ، وانما هو معنى واسع أو مصطلح عام تنطوي تحته كثير من موضوعات البلاغة كالاستعارة ، والجناس، والكناية ، والتشبيه ، والطباق •

وعاصر قدامةُ بن جعفر الشاعر ابن المعتز ، وجمع من البـديع أنواعاً كثيرة كالتصريع ، والسجع ، والجناس ، والطباق ، والالتفات، ولكنه لم ينظر اليه غير نظرة معاصـره • وتبعهما في ذلك ابو هلال العسكري ، وعقد الباب التاسع من «كتاب الصناعتـين » في شرح البديع • وهو عنده مختلف الصور البيانية من استعارة ، وتعريض ، وتطريز ، وتشطير • ولم يهتم علي بن عبد العزيز الجرجاني باصناف البديع ، ولم يذكر منها الا انواعا قليلة ، ويبدو انه يسمي جميع فنون القول بديعا كما كان الباقلاني يسميه •

واهتم المغاربة بالبديع اهتماما كبيرا ، وكان أشـهر من كتب فيه ابن رشيق ، ويقصد به فنون البلاغة كلها •

ولم يفرق ابن سنان بين موضوعات البلاغة وكان معاصره عبـد القاهر مثله ، فهو في كتابه « أسرار البـلاغة » أطلق البـديع على التشبيه ، والتمثيل ، والاستعارة ، وعلى سائر أقسام البديع كالتجنيس، والحشو ، والطباق ، وحسن التعليل ، ويسمى هذه الموضوعـات ــ وبحوثا اخرى دخلت في علم المعاني ــ : « بيانا » في كتابه « دلائل الاعجاز » • فكلمتا البيان والبديع متقاربتا المعنى عنـد عبد القاهر ، ولم يكن لهما المدلول الخاص الذى اطلقه السكاكي والمتأخرون •

وزاد الاهتمام بالبديع في القرنين السادس والسابـع ، واختلف

اتجاه اهل الشام ومصر عن المشارقة في بحثه ، فالبديع وان كان في هذا العصر يميل الى الشكلية اكثر من اتجاهه الى المعنى ، فأن اهل مصر والشام كانوا في بحثهم يعتمدون على الذوق الادبي ، وكان ابن منقذ وابن أبي الاصبع المصري خير من يمثل هذا الاتجاه .

ولم يهتم المشارقة بالبديع كما اهتم به المغاربة ، فالزمخشري – مثلا – لم يذكر منه الا انواعا قليلة جدا ، وتابعه المطرزي وغيره في هذا الاتجاه .

البديع عند السكاكي :

وكان للبيئة المشرقية التى عاش فيها السكاكى أثر" في بحثه انواع البديع ، فلم يهتم به اهتماما كبيرا ، ولعله كان ينظر اليه نظرة عبد القاهر والزمخشري وغيرهما ممن اهتم بعلمي المعاني والبيان ، ولم يذكر في البديع الا ستة وعشرين نوعا ، ويرى انه اكثر من هذا ، يقول : « فلك ان تستخرج من هذا القبيل ما شئت ، وتلقب كلاً من ذلك بما احببت »[١] ولم يُسَمِّ السكاكى هذا القسم من البلاغة بديعا ، وانما هو محسنات أو وجوه كثيرا ما يصار اليها لقصد تحسين الكلام ، ولم يحدد معنى هذه المحسنات كما حدد بقية المصطلحات . وكان الذى اطلق مصطلح البديع على المحسنات بدر الدين بن مالك (٦٨٦ هـ) وقال عنه : « هو معرفة توابع الفصاحة »[٢] وقَسَّمه الى ثلاثة اقسام .

ولم يدخل السكاكى البديع في البلاغة ، لانها عنده تختص بعلمي المعانى والبيان ويتضح هذا من تعريفه البلاغة ، يقول « البلاغةُ هي بلوغ المتكلم في تأدية المعانى حدًّاله اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها ، وايراد أنواع التشبيه ، والمجاز ، والكناية ، على وجهها »[٣] .

---

(١) مفتاح العلوم ص ٢٠٤ .

(٢) المصباح ص ٧٥ .

(٣) مفتاح العلوم ص ١٩٦ .

وبعد ان انتهى من بحث المعاني والبيان قال : « واذ قد تقرر ان البلاغة بمرجعيها ، وان الفصاحة بنوعيها مما يكسو الكلام حلة التزيين ، ويرقيه أعلى درجات التحسين ، فها هنا وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار اليها لقصد تحسين الكلام ، فلا علينا ان نشير الى الاعرف منها وهى قسمان : قسم يرجع الى المعنى ، وقسم يرجع الى اللفظ »(١) .

فمن القسم الاول : المطابقة ، والمقابلة ، والمشاكلة ، ومراعاة النظير ، والمزاوجة ، واللف والنشر ، والجمع ، والتفريق ، والتقسيم ، والجمع مع التفريق ، والجمع مع التقسيم ، والجمع مع التفريق والتقسيم ، والابهام ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، والتوجيه ، وسوق المعلوم مساق غيره ، والاعتراض ، والاستتباع ، والالتفات ، وتقليل اللفظ .

ومن القسم الثاني التجنيس ، ورد العجز الى الصدر ، والقلب ، والسجع ، والفواصل ، والترصيع .

البديع عند القزويني :

وكان هذا من السكاكى فتحا جديدا في تقسيم البلاغة ، وفصل المعاني والبيان ، وتبعه القزويني وفصل البديع فصلا تاما عن البلاغة ، وجعلها محصورة في المعاني والبيان ، يقول : « إنّ البلاغةَ في الكلام مرجعها الى الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد والى تمييز الكلام الفصيح من غيره ، والثانى اعنى التمييز منه ما يثبت في علم متن اللغة ، أو التصريف ، أو النحو ، أو يدرك بالحس ، وهو ما عدا التعقيد المعنوى ، وما يحترز به عن الاول أعني الخطأ هو علم المعاني ،وما يحترز به عن الثاني أعني التعقيد المعنوي هو علم البيان ، وما يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه

(١) مفتاح العلوم ص ٢٠٠ .

على مقتضى الحال وفصاحته هو علم البديع »[1] .

وقال عن البديع : « هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة »[2] .

والبديع — عنده — ضربان : ضرب يرجع الى المعنى ، وضرب يرجع الى اللفظ . وقد تكلم في الاول على المطابقة ، والمقابلة ، ومراعاة النظير ، والأرصاد ، والمشاكلة ، والاستطراد ، والمزاوجة ، والعكس والتبديل ، والرجوع ، والتورية ، والاستخدام ، واللف والنشر ، والجمع والتفريق ، والتقسيم ، والجمع مع التفريق ، والجمع مع التقسيم ، والجمع مع التقسيم والتفريق ، والتجريد ، والمبالغة والمذهب الكلامي ، وحسن التعليل ، والتفريع ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، وتأكيد الذم بما يشبه المدح ، والاستتباع والادماج ، والتوجيه ، والهزل الذي يراد به الجد ، وتجاهل العارف ، والقول بالموجب ، والاطراد .

وتكلم في الثاني على الجناس ، ورد العجز على الصدر ، والسجع ، والموازنة ، والقلب ، والتشريع ، ولزوم ما لا يلزم .

والقزويني في هذا يتابع السكاكي في تقسيمه الى هذين النوعين ، ولكنه زاد عليه فَعَدّ من المعنوي ثلاثين ضربا في «التلخيص» وواحدا وثلاثين في «الايضاح» ليس من بينها الالتفات ، والاعتراض ، والايجاز والاطناب . واكتفى بذكرها في علم المعاني ، وجعل الطباق مشتملا على المقابلة متأثرا بابن سنان .

والفنون البديعية التي زادها على ما ذكر السكاكي في المعنوية : الارصاد ، والعكس ، والرجوع ، والاستخدام ، والتجريد ، والمبالغة ، والمذهب الكلامي ، وحسن التعليل ، والتفريع ، وتأكيد الذم بما يشبه المدح ، والادماج ، والهزل الذي يراد به الجد ، والقول بالموجب ،

(١) الايضاح ص ١١ .
(٢) الايضاح ص ٣٣٤ .

والاطراد ، والاستطراد . وزاد على المحسنات اللفظية : الموازنة ، والتشريع ، ولزوم ما لا يلزم .

وذكر القزويني أنّ اصل المحسنات في القسم اللفظي أن تكون الالفاظ تابعة للمعاني ، فان المعاني اذا ارسلت على سجيتها وتركت وما تريد ، طلبت لانفسها الالفاظ ولم تكتس إلا ما يليق بها ، فإن كان خلاف ذلك كان كما قال أبو الطيب :

اذا لم تشاهد غَيْرَ حُسنِ شياتها   واعضائها فالحُسن عنك مُغيَّبُ

وذكر رأيه في المتأخرين واهتمامهم بالبديع فقال : « وقد يقع في كلام بعض المتاخرين ما حمل صاحبه فرط شغفه بامور ترجع الى ما له اسم في البديع على ان ينسى انه يتكلم ليفهم ، ويقول ليبين ، ويخيل اليه انه اذا جمع عدة من اقسام البديع في بيت فلا ضير أن يقع ما عناه في عمياء ، وأن يوقع السامع من طلبه في خبط عشواء »[1] .

وذكر أنّ بعضهم يذكر اشياء في البديع لا قيمة لها ، وقد تركها لعدم دخولها في فن البلاغة نحو ما يرجع في التحسين الى الخط دون اللفظ على انه لا يخلو من التكلف ككون الكلمتين متماثلتين في الخط ، وكون الحروف منقوطة أوغير منقوطة ، ونحو ما لا أثَرَ له في التحسين كما يسمى الترديد . أو لعدم جدواه نحو ما يوجد في كتب بعض المتأخرين مما هو داخل فيما ذكره ، كما سماه الايضاح فانه في الحقيقة راجع الى الاطناب . أو خلط فيه كما سماه حسن البيان ، كما انهم يدخلون فيهما يخص السرقات ، وحسن الابتداء ، والتخلص ، والانتهاء . وقد عقد لها فصلين ختم القزويني بهما كتابه .

إنّ البديع عند القزويني وغيره يعود على الكلام بالتحسين العرضي لا الذاتي ، مع ان كثيرا من الوان البديع يقتضيها الحال ، ويحتاج اليها

---

(١) الايضاح ص ٤٠٠ — ٤٠١ .

الاديب في شعره ونثره • وقد استطاع الدكتور حفني محمد شرف ان يظهر ذلك فعرض في كتابه : « ابن ابي الاصبع المصري بين علماء البلاغة » لالوان منه هي : صحة التقسيم ، والطباق ، والتسهيم ، واللف والنشر • وانتهى الى أنّ تحسينها ذاتي لا عرضي ، وختم كلامه بقوله : « ولعلي بعد سياقة تلك النصوص ، وهذه الامثلة أنْ أكون قد ألقيت شيئا من الوضوح على ذلك الغموض الذى اكتنف البديع فاعتبروه ذيلا من ذيول البلاغة ، وجعلوا تحسينه عرضيا لا ذاتيا »[1] •

المتأخرون والبديع :

وسار أكثر البلاغيين على خطاه ، وخالفه بعضهم ، يقول السبكى معلقا على تعريف القزوينى للبديع : « يحتمل أنْ يراد بعد معرفة رعاية تطبيقه وضوح الدلالة ، ويكون المراد هو قواعديعرف بها وجوه التحسين ووجوه التطبيق والوضوح ، ومعرفة التطبيق والوضوح سابقان على معرفة التحسين فيكون المعاني والبيان جزأين للبديع • ويحتمل ان يراد قواعد يعرف بها بعد معرفة التطبيق والوضوح وجوه التحسين ، فلا يكون المعانى والبيان جزأين للبديع بل مقدمتين له • وقد صرحوا بان المراد هو الاول •

والحق الذى لا ينازع فيه منصفان البديع لا يشترط فيهالتطبيق ولا وضوح الدلالة ، وان كل واحد من تطبيق الكلام على مقتضى الحال ومن الايراد بطرق مختلفة ، ومن وجوه التحسين قد يوجد دون الاخرين • وأول برهان على ذلك انك لا تجدهم في شيء من أمثلة البيان يتعرضون لاشتماله على التطبيق والايراد ، بل تجد كثيرا منها خاليا عن التشبيه ، والاستعارة ، والكناية ، التى هى طرق علم البيان• هذا هو الانصاف وان كان مخالفا لكلام الاكثرين »[2] •

---

(1) ابن ابى الاصبع المصرى بين علماء البلاغة ص ٩٤ .

(2) عروس الافراح ج٤ ص ٢٨٣ — ٢٨٤ .

واضطربوا في توزيع فنون البديع ، فوضع قسم منهـا في علم المعاني ، وأعيد بحثه في علم البديع . وعلة ذلك انهم كانوا ينظرون اليه من زاويتين الأولى : انّ تحسينه عرضي،والثانية:ان تحسينهذاتي . فان كان من الاول فهو من البديع ، وان كان من الثاني فهو من علم المعاني . والى ذلك اشار الدسوقي بقوله : « واعلم ان المحسنات البديعية انما يكون تحسينها عرضيا اذا اعتبرت من حيث انها محسنة ، وهي من هذه الجهة يبحث عنها في علم البديع ، واما اذا اعتبرت من حيث انها مطابقة لمقتضى الحال لكون الحال اقتضاها كانت موجبة للحسن الذاتي ، ومن هذه الجهة يبحث عنها في علم المعاني ، ولهذا ذكر المصنف فيه الالتفات الذي هو من المحسنات البديعية »[١] .

وكان ابن يعقوب المغربي قد ذهب الى هذا من قبل وقال : « ان البديعيات اذا قصد بها مناسبة الاحوال التي اوردت لاجلها عادت معاني . والمعاني اذا ذهل عن تلك المناسبات فيها واتي بهـا لاجل ظرافتها فقط كانت بديعيات »[٢] .

ولكنّ المتأخرين لم يحاولوا ان يصلحوا من منهج القزويني في البديع ، وان وضع بعضهم بديعيات تكلموا فيها على فنون البديع المختلفة واكدوا على البديع بصورة خاصة ، وساروا على هذا المنهج حتى عصرنا الحديث . وإنّه لمن المفيد حقا ان يعاد النظر فيه ، لان العصر الحاضر لن يستغني عن دراساته ما دام مقياسا بلاغيا جماليا يقاس به أدبنا الموروث وأدبنا الحديث .

لقد وقفت دراسة البديع عند القزويني وشرّاح تلخيصه ، ولم تتسع الا على يدي ابن حجة الحموي صاحب « خزانة الادب » ، ويلاحظ ان القزويني لم يقدم جديدا في هذا الفن البلاغي . وكل ما فعله توزيع موضوعاته على المحسنات المعنوية واللفظية ، وبذلك

---

(١) حاشية الدسوقي ج١ ص ١٣١ .

(٢) مواهب الفتاح ج٣ ص ٢٢٤ .

أوقف هذا الفن البديع ، وجعله هياكل لا تغني ولا تفيد في دراسة الادب ونقده • ولكن الباحث ـ مع ذلك ـ يستفيد كثيرا من مصطلحات البديع عنده ، لانها الصورة الاخيرة التى وقفت عندها كما يستفيد من بعض التقسيمات والامثلة التي عرضها ، وهي استفادة لا بأس بها •

نموذجان :

ولكي نعطي صورة واضحة عن البديع عند القزوينى نعرض نموذجين منه •

التقسيم :

فمن قسم المحسنات المعنوية التقسيم ، وهو أول أبواب قدامة بن جعفر • وهذا ليس مذهبا عربيا في النقد ، وإن كان الشعراء وغيرهم يستعملونه في اساليبهم ، وانما نقلوه عن حكماء اليونان وهو من اوائل مباحث المنطق [١] • ولكن ابن الاثير حينما يتكلم عليه يميز بين نوعين منه :

الاول : ما تقتضيه القسمة العقلية كما يذهب اليه المتكلمون كقولهم : « الجواهر لا تخلو اما ان تكون مجتمعة ، أو مفترقة ، أو لا مجتمعة ولا مفترقة ، أو مجتمعة ومفترقة معا ، أو بعضها مجتمعة وبعضها مفترقة • وهذه القسمة صحيحة من حيث العقل لاستيفاء الاقسام جميعا ، وان كان بعضها ما يستحيل وجوده •

والثاني : ما يقتضيه المعنى مما يمكن وجوده من غير ان يترك قسم واحد [٢] • وهذا ما يبحثه علماء البيان، أما القسم الاول فلا دخل له في البحوث البلاغية ، لانه يقتضي اشياء مستحيلة وقد استفاد منه

---

(١) ينظر نقد الشعر ص ٧٠ ، وقدامة بن جعفر والنقد الادبي ص ٢٤١ ومابعدها.
(٢) المثل السائر ج٢ ص ٣٠٤ .

علمـــــاء الصرف في اقسمة العقلية وذكروا أبنيـــة لا وجود لها في كـــلام العرب .

واختلفت العبارات في التقسيم ، ولكنها كلها راجعة الى هـــدف واحد ، ويرى ابن حجة ان كلام ابن ابي الاصبع اكثرها دلالة عليـــه وبذلك يعجبه تعريفه : « التقسيم عبارة عن استيفاء المتكلم اقسام المعنى الذي هو آخذ فيه بحيث لا يغادر منه شيئا »[1] . ويبدو انه لم يعجب بتعريف القزويني في « التلخيص » و « الايضاح » ، فقد قال عنه : انه « ذكر متعدد ثم اضـــافة ما لكلٍ اليـــه على التعيين »[2] . كقول ابـــي تمـــام :

فما هي الا الوحي أو حَدُّ مرهفٍ　　　تميل ظبـــاه أخدعي كـــل ماثلٍ
فهذا دواء الداء من كـــل عالم　　　وهذا دواء الداء من كل جاهلٍ

ونقل تعريف السكاكي وشواهـــده ، وانتهى الى ان التقسيم أعم من اللف والنشر . وقد يأتي في الكلام جمع مع تفريق وذلك ان يدخل شيئان في معنى واحد ، ويفرق بين جهتي الادخال كقول الوطواط :

فوجهك كالنارِ في ضوئهـــا　　　وقلبي كالنار في حَرِّهـــا

ومنه قوله تعالى : « وَجَعَلْنا اللَّيلَ والنهارَ آيتينِ ، فمحونا آيةَ الليلِ ، وَجَعَلْنا آيةَ النهارِ مُبْصِرَةً »[3] .

وقد يجيء جمع مع تقسيم ، وهو جمع متعـــدد تحت حكم ، ثم تقسيمه ، أو تقسيمه ثم جمعه فالاول كقول المتنبي :

حتى أقـــام على أرباض خرشنة　　　تشقى به الرومُ والصلبانُ والبيعُ
للسبي ما نكحوا ، والقتل ما ولدوا　　　والنهبِ ما جمعوا ، والنار ما زرعوا

---

(1) بديع القرآن ص ٦٥ ، وخزانة الادب ص ٣٦٢ .
(2) الايضاح ص ٣٥٨ .
(3) سورة الاسراء ، الآيـة ١٢ .

والثانى كقول حسان :

قوم اذا حاربوا ضَرّوا عدوهم أو حاولوا النفعَ في أشياعهم نفعوا
سجيةٌ تلك منهم غيرُ محدثةٍ إنّ الخلائقَ ـ فاعلم ـ شرها البدعُ

وقد يكون في الكلام الجمع مع التفريق والتقسيم كقوله تعالى : « يَوْمَ يأتي لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إلا باذنه ، فمنهم شقيٌّ وسعيد . فأمّا الذين شقوا ففي النارِ لهم فيها زفيرٌ وشَهيق خالدين فيها ما دامتِ السماواتُ والأرضُ إلاّ ما شاءَ ربكَ ، إنّ رَبّكَ فَعّال لما يُريد . وأمّا الذين سَعِدُوا ففي الجنةِ خالدينَ فيها ما دامتِ السماواتُ والأرض إلاّ ما شاء ربُك عَطاءً غيرَ مَجْذوذ »(١) .

وقد يطلق التقسيم على امرين :

أحدهما : ان يذكر احوال الشيء مضافا الى كل حال ما يليق بها كقول المتنبي :

سأطلب حَقّي بالقنا ومشايخٍ كأنهم من طول ما التثموا مُرْدُ
ثقالٌ اذا لاقوا، خفافٌ اذا دعُوا كثيرٌ اذا شدوا ، قليلٌ اذا عُدّوا

والثاني : استيفاء أقسام الشيء بالذكر كقوله تعالى : « ثُمّ أورثنا الكتابَ الذين اصطفينا من عبادِنا ، فمنهم ظالِمٌ لنفسه ، ومنهم مُقْتَصِدٌ ، ومنهم سابِقٌ بالخيراتِ باذنِ الله»(٢) . وقول نصيب :

فقال فريق القوم : لا ، وفريقهم : نعم،وفريق : لا يمن اللهِ ما ندري

ولم يتكلم القزويني على فساد التقسيم ، مع أن قدامة بن جعفر عقد له باباً ، وجعل هذا الفساد أنواعا منها : التكرار ، كقول هذيل

---

(١) سورة هود ، الآيات ١٠٥ ـ ١٠٨ .
(٢) سورة فاطر ، الآية ٣٢ .

الاشـــجعـــي :

فما بَرِحَتْ تومي إلَيَّ بطرفها وتومض أحيانا اذا خصمها غفلْ

لان « تومض » و « تومي بطرفها » متساويان في المعنى •

ودخول أحد القسمين في الاخر كقول أحدهم :

ابادر اهلاك مُسْتَهْلكٍ لما لي أو عبث العابثِ

ف « عبث العابث » داخل في « اهلاك مستهلك » •

أو أن يكون القسمان مما يجوز دخول أحدهما في الآخر كقول أبي عـدي القرشي :

غير ما أَنْ اكون نلت نوالاً من نداها عفوا ولا مهنيا

ف « العفو » قد يجوز ان يكون مهنيا ، و « المهني » قد يجوز ان يكـــون عفـــوا •

أو ان يترك بعض الاقسام مما يحتمل الواجب تركه ، كقول جرير في بني حنيفـــة :

صارت حنيفة أثلاثا فثلثهم من العبيد وثلث من مواليها [1]

ويلاحظ أن القزويني لم يستطع ان يوضح قيمة هـــذا الفن البديعي ، أو أن يشير الى اهميتـــه في الكلام مع ان قدامـــة بن جعفر وغيره من علماء البلاغة المتقـــدمين تحدثوا عنه ، وذكروا أقسامـــه وأمثلتـــه الرائعـــة •

---

(١) ينظر نقد الشعر ص ١١٩ ، وقدامة بن جعفر والنقد الادبي ص ٢٤٤ ــ ٢٤٦ .

الجنـاس :

ومن المحسنات اللفظية الجناس ، وهو فن قـديم عرف قبـل أن يؤلف ابن المعتز بديعه ، حيث ألف الاصمعي « كتاب الاجنـاس » ، وكانت فكرة تشابه الالفاظ في الشكل تراود ذهنه . وتبعه القاسم بن سلام،« وكان الجناس بعينه ضمن قضية اللفظ والمعنى التي اثارها بيان القرآن »[1] ، يقول ابن المعتزعنه : «هو ان تجيء الكلمة تجانس اخرى في بيت شعر وكلام ، ومجانستها لها ان تشبهها في تأليف حروفها»[2].

وأصبح الجناس أحد الفنون التى يدير فيها البلاغيون أقـلامهم ، ويذكرونها في كتبهم ، وهو عنـد بعضهم « غرة شـادخة في وجـه الكلام »[3] .

وشرّقوا في بحثه وغرّبوا ، واختلفوا فيما بينهم . وأهتم المشارقة ببحثه ، وفَصَّلَ فيه رشيد الدين الوطواط ايما تفصيل ، وقسّمه الى سبعة اقسام : التجنيس التام ، والتجنيس الناقص ، والتجنيس الزائد، والتجنيس المركب ، والتجنيس المكرر ، والتجنيس المطرف ، وتجنيس الخط »[4] .

واستفاد السكاكى منه ، وتابعه القزويني في معظم تقسيماته ، وإنْ كان قد أجاد في بحثه وذكر امثلته ، يقول : « الجنـاس بين اللفظين وهو تشابههما في اللفظ »[5] ، وقسّمه الى : التام وهو ان يتفق اللفظان في أنواع الحروف وأعدادها وهيئاتها وترتيبها ، فان كانا من نوع واحـد كاسمين سمي مماثلا كقوله تعالى : « ويوم تَقومُ السَّاعةُ يُقْسِمُ

---

(١) اثر القرآن في تطوير النقد العربى ص ٢٢٣ .
(٢) البديـع ص ٥٥ .
(٣) المثل السائر ج١ ص ٢٤٦ .
(٤) حدائق السحر في دقائق الشعر ص ٩٤ وما بعدها .
(٥) الايضـاح ص ٣٨٢ .

المجرمونَ ما لَبِثوا غَيرَ ساعةٍ »[1] ، وان كانا من نوعين كاسم وفعل سمي مستوفى كقول أبي تمام :

ما مات من كرمِ الزمانِ فانه يحيا لدى يحيى بن عبدالله

ونحوه قول الآخر :

وسميته يحيى ليحيا فلم يكن الى رَدّ أمْرِ الله فيه سبيل

وإنْ كان أحد لفظي التام مركبا سمي جناس التركيب ، ثم ان كان المركب منهما مركبا من كلمة وبعض كلمة سموه مرفواً كقول الحريري :

ولا تله عن تذكارِ ذنبك وابكه بدمع يحاكي الوبل حال مصابهِ
ومثل لعينيك الحمام ووقعه وروعة ملقاه ، ومطعم صابهِ

وإلا فان اتفقا في الخط سمي متشابهاً كقول أبي الفتح البستي :

اذا ملك لم يكن ذاهِبَه فَدَعْهُ فدولتُه ذاهِبَه

وإنْ اختلفا سمي مفروقا كقول أبي الفتح :

كلكم قد أخذ الجا مَ ولا جامَ لنا
ما الذي ضَرَّ مدير الـ جامِ لو جاملنا

وإنْ اختلفنا في هيآت الحروف سمي محرفا ، والاختلاف قد يكون في الحركة كقوله تعالى : « ولقد أَرْسلنا فيهمْ مُنذِرِينَ • فانْظُرْ كيف كان عاقِبَةُ المُنْذَرِين » [2] ، وقد يكون في الحركة والسكون كقولهم : « البدعة شَرَكُ الشِرْكِ » ، وقول أبي العلاء :

والحُسن يظهر في بيتين رونقهُ بيتٌ من الشعر أو بيتٌ من الشَّعَرِ

---

(1) سورة الروم ، الآية ٥٥ .
(2) سورة الصافات ، الآيتان ٧٢ ، ٧٣ .

وإنْ اختلفا في اعـداد الحروف سمي ناقصا ، ويكون ذلك على وجهـين :

أحدهما : ان يختلفا بزيادة حرف واحد في الاول كقوله تعالى : « والتفَّت السَّاقُ بالساقِ إلى ربك يومئـذ المسَاقُ »[1] ، أو في الوسط كقولهم : « جدي جهدي » ، أو في الآخر كقول أبي تمام :

يَمدون من أيدٍ عواصٍ عواصمٍ

تصول باسيافٍ قواضٍ قواضبِ

وقد يسمى هذا مطرفـا .

والثانى : ان يختلفا بزيادة أكثر من حرف واحد ، كقول الخنساء:

إنْ البكاءَ هو الشفـاءُ مـن الجوى بين الجوانح

وربما سمى هذا الضرب مذيلا .

وان اختلفا في انواع الحروف اشترط ان لا يقع الاختلاف باكثر من حرف ، ثم الحرفان المختلفان ان كانا متقاربين سمى الجناس مضارعا ويكونان اما في الاول كقـول الحريرى « بينى وبين كنى ليل دامس وطريق طامس » . واما في الوسط كقوله تعالى « وهُمْ يَنْهَوْنَ عنه ويَنْأوْنَ عنه »[2] . واما في الآخر كقول النبي (ص) : « الخيـل معقود بنواصيها الخير الى يوم القيامة » وان كانا غـير متقاربين سمى لاحقا ، ويكونان في الاول كقوله تعـالى « وَيْلٌ لكلِ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ »[3] . واما في الوسط كقوله : « ذلكم بما كنتم تَفْرحُونَ

(١) سورة القيامة ، الآيتان ٢٩ ، ٣٠ .
(٢) سورة الانعام ، الآية ٢٦ .
(٣) سورة الهمزة ، الآيـة ١ .

في الأرضِ بغيرِ الحقِ وبما كنتم تَمْرَحُون » [1] . واما في الآخر كقوله « واذا جاءهم أمر من الامن » . وقول البحتري :

هل لما فات من تلاقٍ تلافِ   أم لشاكٍ من الصبابةِ شافٍ

وان اختلفا في ترتيب الحروف سمي جناس القلب وهو ضربان : قلب الكل كقولهم : « حسامه فتح لأوليائه،حتف لاعدائه»،وقلب البعض كما جاء في الخبر : « اللهم استر عوراتنا ، وآمن من روعاتنا » . وعليه قول المتنبــــي :

مُمَنَّعةٌ مُنَعَّمةٌ رَداحٌ   يكلف لفظَها الطيرَ الوقوعا

واذا وقع احد المتجانسين جناس القلــب في اول البيت والآخر في آخره سمي : مقلوبا مجنحا ، واذا ولي احــد المتجانسين الآخر سمي مزدوجا ومكررا ومرددا ، كقوله تعالى : « وجِئْتُكَ من سَبَأٍ بنبأٍ يَقينٍ » [2] .

وهذا تقسيم القزويني للجناس ، وقد وهم المرشــدي فقال عن السيوطي انه تبع الخطيب في تلخيصه وايضاحه بجعل الجناس المحرف في اقسام الجناس التام لان القزويني عده قسما مستقلا ، وانما بدأ به بعــد التــام لقربه منه[3] وتقسيمه لا بأس به وبمقارنــة ما كتب عن الجناس وامعان النظر فيما ورد منه في الكلام يتبين ان تقسيم القزويني أحسن هذه التقسيمات وابعدها عن الاسراف ، ولهذا يمكن ان نعدها اصول الجنـــاس .

---

(1) سورة غافر ، الآيــة ٧٥ .

(2) سورة النمل ، الآيــة ٢٢ .

(3) ينظر المرشدي على العقود ج٢ ص ١٣ ، ومواهب الفتاح ج٤ ص ٤١٩ ، وفن الجنـــاس ص ٨٧ .

والحق القزويني بالجناس شيئين :

أحدهما : ان يجمع اللفظين الاشتقاق كقوله تعالى: «فأقِم وجْهَكَ للدينِ القَيّمِ »[1] ، وقول البحتري :

يعشى عن المجد الغبي ولن ترى   في سؤدد اربا لغير أريب

والثاني : ان يجمعهما المشابهة وهي ما يشبه الاشتقاق وليس به كقوله تعالى : « اثّاقَلْتُم الى الأرضِ أرضِيتم بالحياةِ الدنيا من الآخرةِ »[2] وقوله : « وَجَنى الجنتينِ دانٍ »[3] .

والاشتقاق هو الذى استخرجه أبو هلال يقول « وقد عرض لي بعد نظم هذه الانواع نوع آخر لم يذكره أحد ، وسميته المشتق »[4] . والغريب ان ابن حجة يذكر ان هذا النوع لم يأت في كتابي «التلخيص» و « الايضاح » ، وهذا سهو ، لان السكاكي ذكره والحقه بالجناس واعتبره ابن الاثير كذلك ، يقول : « اعلم ان جماعة من علماء البيان يفصلون الاشتقاق عن التجنيس وليس الامر كذلك بل التجنيس أمر عام لهذين النوعين في الكلام »[5] .

وتابعهم القزويني فى « التلخيص» و« الايضاح » .

ويذكر علماء البديع المتأخرون نوعا آخر للجناس وهو الجناس المعنوي، ولم يذكره القزويني ولم يشر اليه،وكان ابن حجة الحموي قد تكلم عليه فيما بعد ، يقول : « المعنوي طرفة من طرف الادب عزيز الوجود ، ولم يذكره الشيخ جلال الدين القزويني في التلخيص ولا في الايضاح »[6] .

(١) سورة الروم ، الآية ٤٣ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ٣٨ .

(٣) سورة الرحمن ، الآية ٥٤ .

(٤) كتاب الصناعتين ص ٤٣٠ ، وخزانة الادب ص ٣٦٨ ، وابو هلال العسكرى ومقاييسه البلاغية والنقدية ص ٢٢٥ .

(٥) المثل السائر ج٢ ص ٣٣٧ .

(٦) خزانة الادب ص ٤١ .

وهو ضربان : تجنيس اضمار ، وتجنيس اشارة ، والمعنوي المضمر هو ان يضمر الناظم ركني التجنيس ويأتي في الظاهر بما يرادف المضمر للدلالة عليه ، فإنْ تعذر المراد أتى بلفظ فيه كناية لطيفة تدل على المضمر بالمعنى كقول أبى بكر بن عبدون ، وقد اصطبح بخمرة ترك بعضها الى الليل فصارت خلا :

ألا في سبيل اللهو كأس مدامة أتتنا بطعم عهده غير ثابتِ
حكت بنت بسطام بن قيس صبيحة وأمست كجسم الشنفري بعد ثابتِ

والضرب الثاني من المعنوي : جناس الاشارة والكناية ، وسبب وروده في النظم ان الشاعر يعقد المجانسة في بيته بين الركنين في الجناس فلا يوافقه الوزن على ابرازهما فيضمر الواحد ، ويعدل بقوته الى مرادف فيه كناية لطيفة تدل عليه ، وهذا لا يتفق في الكلام المنثور[1] .

ونرى ان هذا لا تعلق له فيما نحن فيه ، ولذلك أهمله القزويني ، ولم يشر اليه مع ان فخر الدين الرازي ومعاصره الشهاب محمود ذكرا تجنيس الاشارة .

وللجناس تأثيره وقيمته لما فيه من ايهام النفس بان الكلمة المكررة ذات معنى واحد فاذا امعن المرء فيها النظر رأى للكلمتين معنيين مختلفين فيدفع ذلك الى الاعجاب بالكاتب أو الشاعر الذى اهتدى الى هذا الاستخدام[2] .

وللتجنيس أصله في الدراسات النفسية ، فهو لا يخرج عن نظرية تداعي الالفاظ وتداعي المعاني في علم النفس ، وجماله « يأتي في أنَّ السامع كان ينتظر معنى فخاتله الاديب وردد اللفظ بمعنى آخر فالسامع استفاد شيئا جديدا وهو يعاني انفعال المخاتلة والخداع الادبي . وبعد أن يفهم الجديد في الجناس يقع في انفعال آخر من المسرة والاعتراف

(١) خزانة الادب ص ٤١ وما بعدها .
(٢) ينظر اسس النقد عند العرب ص ٤٤٣ .

بان مستواه في الذكاء أقل من مستوى الاديب »[1] .

ولكن هل أحس القزويني بجمال الجناس وروعته ؟

ان القزوينى لم يبيّن أثره وجماله ، ولم تكن اشاراته عن حسنه الا اشارات عابرة وان كانت تدل على ذوق وادراك فني ، يقول في الجناس التام : « ووجه حسن هذا القسم ، حسن الافادة مع ان الصورة صورة الاعادة »[2] .

ويقول في بيت أبي تمام :

يمـــدون من أيد عواصٍ عواصمٍ
تصول باسيافٍ قواضٍ قواضبِ

بعد ان ذكر الجناس المطرف : « ووجه حسنه أنك تتوهم قبل ان يرد عليك آخر الكلمة كالميم من « عواصم » انها هى التى مضت ،وانما اتي بها للتأكيد حتى اذا تمكن آخرها في نفسك ووعاه سمعك، انصرف عنك ذلك التوهم،وفي هذا حصول الفائدة بعد ان يخالطك اليأس منها »[3] . وهذه التفاتة حسنة منه ، وان كان عبد القاهر يحمل على الذين يذهبون الى أن فصاحة الكلام تكون بالتجنس من غير الالتفات الى نظمــــه وترتيبه ، وان التجنيس لا يكون مقبولا حتى يكون المعنى هو الـــذى طلبه واستدعاه وساق نحوه ، وأن جماله لا يعود الى اللفظ ابـــدا . يقول بعد ان ذكر بيت ابى تمام :

ذهبت بمذهبه السماحةُ والتوت   فيه الظنون أمذهب أم مذهبُ

واذا نظرت الى تجنيس أبي تمام : «امذهب أم مذهب»فاستضعفته والى تجنيس القائل « حتى نجا من خوفه وما نجا » ، وقول المحدث :

---

(1) بلاغة ارسطو بين العرب واليونان ص ١٢٠ ، وقدامة بن جعفر والنقد الادبى ص ٢٩٧ .

(2) الايضاح ص ٣٨٤ .

(3) الايضاح ص ٣٨٦ .

ناظراه فيما جنى ناظراه   اودعاني أمتْ بمـا اودعاني

فاستحسنته ، لم تشك بحال ان ذلك لم يكن لامر يرجع الى اللفظ ولكن لانك رأيت الفائدة ضعفت في الاول وقويت في الثانى ، وذلـك انك رأيت أبا تمام لم يزدك بمذهب ومذهب على أن اسمعك حروفـا مكررة لا تجد لها فائدة ان وجدت الا متكلفة متمحلة ، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة ويوهمك انه لـم يزدك وقد احسن الزيادة ووفاها ، ولهذه النكتة كان التجنيس وخصوصـا المستوفى منه مثل : « نجا نجا » من حلى الشعر »[1] .

ولعل بهاء الدين السبكى كان اكثر توفيقا من القزوينى في اظهار روعته وجماله ، فقد نقل عن صاحب « كنز البلاغة » أن أهميتـه هي الميل الى الاصغاء اليه ، فان مناسبة الالفاظ تحدث ميلا واصغاء اليها ، ولان اللفظ المشترك اذا حمل على معنى ثم جاء المراد به معنى آخر كان للنفس تشوف اليه[2] .

ولعل فى هذين المثالين ما يوضح اتجاه القزوينى في البديع ، وهو اتجاه لا نحمده عليه كثيرا ، لان اخراج البديع عن البلاغة واعتبـاره ملحقا بها يؤتى به للزينة وتحسين الكلام غير صحيح ، بل المعنـى هو الذي يتطلبه . وقد يجيء فن بديعي وحده في الكلام فيزينه ، ويجعل له تأثيرا عظيما ، وقد انتبه القدماء لأهمية فنون البديع واعتبروهـا كفنون البلاغة والنقد الاخرى ، لها قيمتها وأثرها في التعبير . وإنّ ما ذكره القزويني منها ضروري ولا يمكن الاستغناء عنه ، اما ما ذكره المتأخرون فمعظمه لا قيمة له ، لان البديع ليس حلية يؤتى بها قسرا . وقد جرد القزويني كتابه منها ولم يأْت إلاّ بما فيـه النفع وله اهمية في التعبـير .

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٤٠٢ ، وينظر اسرار البلاغة ص ١٣ ، ١٤ .
(٢) ينظر عروس الافراح ج٤ ص ٤١٢ – ٤١٣ .

٢

البديعيات :

وكان لفصل البديع عن المعاني والبيان وجعله ذيلا لـه كما فعل القزويني أثر في اتجاه الادباء في عصر القزويني وما بعده الى البديع ودراسته دراسة عميقة واسعة وقد بدأت هذه الدراسات مبكرة ، ولكنها قويت في هذا العصر فكان « بديع القرآن »و«تحرير التحبير» لابن أبي الاصبع المصري .

واتجه الشعراء ينظمون البديع في مدح الرسول المنقذ محمد (ص) أو في الغزل ، ويحصرون فنونه في قصائد اطلق عليها اسم البديعيات . ومن أهم بديعيات عصر القزويني وما بعده بديعية صفي الدين الحلي (٧٥٠ هـ) [١] وهي في مائة وخمسة واربعين بيتا من بحر البسيط وروي الميم مطلعها :

إنْ جِئْتَ سلعاً فَسَلْ عن جيرةِ العَلَمِ
واقْرَ السلامَ على عُرْبٍ بذي سلَمِ

وضمن كل بيت فيها محسنا من محسنات البديع ، وقد ضمت مائة وخمسين محسنا ، حيث جعل فيها للجناس اثني عشر ضرباً نظمها في الابيات الخمسة الاولى . وسمّاها « الكافية البديعية في المدائح

(١) تنظر ترجمته في الدرر الكامنة ج٢ ص ٣٦٩ ، وقد طبعت بديعيته مع شرحها .

النبوية » ، وشرحها بكتاب سمّاه : « النتائج الالهية في شرح الكافية البديعية » • وصنف عبد الغنى انابلسي على هذه القصيدة شرحاسماه « الجوهر السني في شرح بديعية الصفي » •

ونظم ابن جابر الاندلسي (٧٨٠ هـ)[1] بديعية وهي كالبردة في الوزن والروي والموضوع ، وضمن كل بيت فيها نوعاً بديعياً من غير أن يسميه ، ومطلعها :

بطيبةَ انزلْ ويَمِّمْ سيّد الأمـــــم
وانْثُرْ له المدح وانْشُرْ أطيبَ الكَلِمِ

وسماها : « الحلة السِّيَرا في مدح خير الورى » • وقد شـرحها ابو جعفر احمد بن يوسف بن مالك الرعيني الغرناطي (٧٧٩هـ) بكتاب سماه : « طراز الحلة وشفاء الغلة »[2] • وقدّم لها مقدمة تتعلق بفن البديع ، تحدث فيها عن معناه لغة واصطلاحا ، وعن الفصاحة وشروطها في الكلمة والكلام المركب ، وتكلم على البلاغـة والفرق بينهـا وبين الفصاحة • واشار الى ان ابن جابر اتبع في سرد المحسنات البديعيـة الخطيب القزويني فى كتابيه « التلخيص »و « الايضاح » ، ولكنه بدأ بالقسم المتعلق باللفظ ، وأخر القسم المتعلق بالمعنى ، وهو في ذلـك يمضي على غرار بدر الدين بن مالك في كتابه « المصباح » •

يقول الرعيني : « وقد آن أن آخذ في الكلام على أبيات القصيدة حسبما تحصل به الفائدة ، ويعود على الناظر فيـه بأحسن عائدة ، فنقول : ان المصنف تبع في هذه القصيدة القاضي جلال الدين القزويني صاحب الايضاح والتلخيص ، فذكر من ألقاب البديع ما ذكره ، إلا أن

---

(١) تنظر ترجمته في شذرات الذهب ج٦ ص ٢٦٨ ، والدرر الكامنة ج٣ ص ٣٣٩ • ونكت الهميان ص ٢٤٤ •

(٢) في مكتبة الاوقاف ببغداد نسخة منها برقم ١٢١٤٢ (ينظر وصفها في كتاب المستدرك لعبدالله الجبوري ص ٢٦٧ ـ ٢٦٩) • وفي دار الكتب بالقاهرة ثلاث نسخ منها، برقم ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٨٢ بلاغة •

المصنف بدأ بالقسم الذى يتعلق باللفظ ، وأخَّر القسم الذى يتعلق بالمعنى على ما ستقف عليه • وهو في هذا الترتيب موافق لصاحب المصباح ، وهو ترتيب حسن ، لأن اللفظ وسيلة الى المعنى ، وحق الوسيلة أن تكون متقدمة، وايضافان ما يتعلق بالمعنى لا يكون الا بعد التراكيب بخلاف ما يتعلق باللفظ • وحال الافراد مقدم على حال التركيب » [1] •

ونظم عز الدين الموصلي (٧٨٩ هـ) [2] بديعية التزم فيها تسمية الفن البديعي مورياً بكلمة عنه في البيت الذي يتضمنه ، ومطلعها :

براعةٌ تستهلُّ الدمع في العلم — عبارة عن نداءِ المفردِ العَلَمِ

وظهر في هذه الفترة اديب ناقد كان له أثر كبير في البديعيات أو في البلاغة العربية ، وذلك الناقد أبو بكر علي بن حجة الحموي المولود في حماة سنة ٧٦٧ هـ أو ٧٧٧ هـ والمتوفى فيها سنة ٨٣٧ هـ [3] • وقد وجد ابن حجة عصره يزخر بالبديعيات وكان قد أعجب ببديعيتي الحلي والموصلى فاراد ان يضع بديعية تفوقهما وتعفو عليهما ، ووضع بديعيته وضمن كل بيت نوعا بديعيا مع الأشارة الى اسم هذا الفن في البيت نفسه ، وسماها « تقديم أبى بكر » وأبياتها مائة واثنان واربعون بيتا، وهي على البحر البسيط ، وروي الميم مطلعها :

لي في ابتدا مدحكم يا عُرْبَ ذي سَلَمِ
براعةٌ تستهل الدمعَ في العَلَمِ

يقول مفتخرا بها : « فجاءت بديعية هدمت بها ما نحته الموصلي

(١) طراز الحلة وشفاء الغلة ص ١٧ (مخطوطة الاوقاف ببغداد) .

(٢) تنظر ترجمته فى الدرر الكامنة ج٣ ص ٤٣ .

(٣) تنظر ترجمته في الضوء اللامع ج١١ ص ١٤٤ وشذرات الذهب ج٧ ص ٢١٩ ، وللاستاذ محمود رزق سليم دراسة عنه بعنوان « تقى الدين بن حجة الحموى » وكتب عنه فصلا كبيرا في كتابه « عصر سلاطين المماليك » ج٦ .

في بيوته من الجبال ، وجاريت الصفي مقيدا بتسمية النوع وهو من ذلك محلول العقال ، وسميتها « تقديم ابى بكر » ، عالما انه لا يسمع من الحلي والموصلي في هذا التقديم مقال »[1] ، وتضمنت هذه البديعية نحو مائة واربعين نوعا .

ورأى ابن حجة ان هذه البديعية لن تكون ذات فائدة وقيمة كبيرة ان بقيت ابيات شعر تحفظ وتروى من غير تفهم وتبصر بفنونها البديعية فوضع لها شرحا سماه « خزانة الادب وغاية الارب » ووازن بينها وبين بديعتي الموصلى والحلي .

ومنهجه فيها يختلف عن منهج البلاغيين الذين عرفوا في عصره بعد سيطرة تلخيص القزويني وشروحه على الدراسات البلاغية ، فلم يقسم البلاغة الى فنونها الثلاثة ، ولم يلتزم بالحدود والتقسيمات التى فرضتها بلاغة السكاكى والقزويني ، وانما سلك مذهبا آخر فيه ابتعاد عن كل ما يفسد الذوق ، وينفر الناس عن دراسة البلاغة والنقد . لقد كان ابن حجة يعرض الفن الذى ضمنه بيتا من البديعية ، فيعرّفه تعريفاً بلاغيا ، ويذكر أمثلة شعرية ونثرية كثيرة ، ويرد على بعضهم إنْ كان هناك مجال للرد والمناقشة ، ويوازن بين الآراء المختلفة .

ويمكن ان نعد « خزانة الادب » من خيرة كتب النقد والبلاغة بعد القزويني ، لان مؤلفها لم يلتزم بالمنهج السائد ، ولم يقلد المتقدمين تقليداً اعمى ، وانما جاء بكل طريف جديد بالنسبة لكتب عصره الذى سادته موجة التقليد واجترار الماضي . وللكتاب أهمية نقدية وبلاغية وتاريخية ، أما أهميته النقدية فلان ابن حجة كان ناقدا ماهرا في هذا الكتاب يعرض الامثلة ، ويوازن بينها ، ويعطي رأيه في كثير من الاحيان .

وأما أهميته البلاغية فقد شرح المؤلف فيه معاني الفنون البلاغية،

---

(١) خزانة الادب ص ٣ .

وذكر التعريفات والآراء المختلفة ، ونجد فيه كثيرا من أقوال علماء البلاغة الذين طمس الزمان آثارهم ، وعفَّى عليها ، ومن هنا كانت له أهمية بلاغية كبيرة .

وأما فائدته التاريخية والادبية فهى ان المؤلف يذكر أخبارا ادبية، ويسوق كثيرا من الامثلة الشعرية والنثرية مما لا يمكن العثور عليها في كتب أخرى . وقد خلد صفحات كثيرة من شعر معاصريه وأدبهم ،ولولا الخزانة لضاع واندثر ، وان الباحث ليستطيع ان يستخرج منها شعرا كثيرا لمعاصريه أو ممن عاشوا في العصر المملوكى .

ولا يخلو الكتاب من آراء شخصية ، والتفاتات نقدية صائبة كرأي ابن حجة في الجناس فهو يرى ان لا قيمة لما فيه من محسن لفظى، وانما تأتى أهميته وقيمته في كونه محسنا معنويا له أثر في التعبير والاداء . ومن أجل هذا بحث الجناس المعنوى الذى اهمله القزوينى وغيره من علماء البلاغة ، يقول : «أما الجناس فانه غير مذهبى ومذهب من نسجت على منواله من أهل الادب ، وكذلك كثرة اشتقاق الالفاظ. فان كلا منهما يؤدي الى العقادة والتعقيد عن اطلاق عنان البلاغة في مضمار المعانى المبتكرة كقول القائل واستحيى أن اقول انه ابو الطيب :

فقلقلت بالهمّ الذى قلقل الحشا   قلاقل عيش كلهن قلاقل

ولقد تصفحت ديوانه فلم اجد لوافد هذا النوع نزولا الا ما قل في أبياته وهو نادر جدا ، ولا العرب من قبله خيمت بابياتها عليه غيرأن هذا البيت حكمت على أبى الطيب به المقادير »[1] .

وفي « خزانة الادب » آراء كثيرة مبثوثة يمكن الاستفادة منها في بلاغتنا الحديثة . والى جانب هذا كله آراء يناقش فيها القزويني ويرد عليه ، وقد يوافقه أحيانا . واول ما نرى اشارته الى اهمال القزويني

---

(١) خزانة الادب ص ٢٠ .

الجناس المعنوي ، فقد قسمه الحموي الى ضربين : تجنيس اضمار ، وتجنيس اشارة . وهو عنده من أروع انواع الجناس لانه يتعلق بالمعنى ، ويضفي على الكلام جمالا دونه جمال الجناس اللفظي ، يقول عنه : « فان المعنوي طرفة من طرف الادب عزيز الوجود جدا ، ولم يذكره الشيخ جلال الدين القزويني في التلخيص ولا في الايضاح ، ولا ذكره ابن رشيق في العمدة ، ولا زكي الدين بن ابي الاصبع في التحرير ولا ابن منقذ في كتابه »[1] .

والجناس المعنوي عنده : « ان يضمر الناظم ركني التجنيس، ويأتي في الظاهر بما يرادف المضمر للدلالة عليه ، فان تعذر المراد أتى بلفظ فيه كناية لطيفة تدل على المضمر بالمعنى »[2] .

ونقل عن القزويني تعريف الاستطراد ، ويراه أقرب الى الغرض وأوفى بالمرام ، يقول « وحَدّهُ صاحب الايضاح الاستطراد بحد أتى فيه بالغرض بعدما بالغ في الايجاز فانه قال : الاستطراد هو الانتقال من معنى الى معنى آخر متصل به ، ثم يقصد بذكر الاول التوصل الى الثاني، ففي قوله « متصل به » جل القصد ، وعدم الاحتياج الى الكلام الكثير »[3] .

وادخل القزويني المقابلة في المطابقة[4] ، ولكن الحموي لا يقبل رأيه لانهما شيئان مختلفان ، يقول : « المقابلة أدخلها جماعة في المطابقة وهو غير صحيح ، فان المقابلة أعم من المطابقة وهي التنظير بين شيئين وأكثر وبين ما يخالف وما يوافق .. وهذا مذهب زكي الدين بن ابي الاصبع[5] . والفرق بين المطابقة والمقابلة من وجهين :

---

(١) خزانة الادب ص ٤١ .
(٢) خزانة الادب ص ٤١ .
(٣) خزانة الادب ص ٤٤ ، وينظر الايضاح ص ٣٤٩
(٤) ينظر الايضاح ص ٣٤١ .
(٥) خزانة الادب ص ٥٧ .

احدهما : ان المطابقة لا تكون الا بالجمع بين ضدين ، والمقابلة تكون غالبا بين أربعة أضداد ، ضدان في صدر الكلام ، وضدان في عجزه .

والثاني : ان المطابقة لا تكون الا بالاضداد ، والمقابلة بالاضداد وغير الاضداد ، ولكن بالاضداد أعلى رتبة ، وأعظم موقعا .

وهذا اختلاف شكلي بين الفنين ، وأي فرق بين الجمع بين ضدين أو اكثر ، ولكن ابن حجة ومن قبله ابن ابي الاصبع كانا مولعين بالتقسيمات وتفريع الفن الواحد الى عدة فروع لاجل التباهي بايجاد فنون بلاغية أو بديعية جديدة . ونرى ان القزويني كان اسلم نظرا ، وأصوب رأياً ، لانه لم يرد ان يفرع الفن الواحد الى فنون ، تقليلا للمصطلحات والاقسام التي لا قيمة لها في البلاغة والنقد .

واعجب ابن حجة ببيت القاضي الارجاني الذي جاء به القزويني شاهدا في الطباق يقول : « ومن لطيف هذا الطباق ما أورده القاضي جلال الدين القزويني في ايضاحه على تلخيصه وهو قول القاضي الارجاني :

ولقد نزلت من الملوك بماجدٍ فقر الرجال اليه مفتاح الغنى[1]

ونقل عن القزويني تفسيم القول بالموجب الى ضربين :

أحدهما : ان تقع صفة في كلام الغير كناية عن شيء أثبت له حكم فتثبت في كلامك تلك الصفة لغير ذلك الشيء من غير تعرض لثبوت ذلك الحكم له أو انتفائه عنه .

والثاني : حمل لفظ وقع في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه . وهذا هو القسم الذي عرف بين الناس ونظمه

(١) خزانة الادب ص ٧١ ، وينظر الايضاح ص ٢٣٥ .

اصحاب البديعيات .

وكان ابن ابى الاصبع قد تكلم عليه ، ولكنه لم يقسمه هــذا التقسيم فنقله ابن حجة عن القزوينى الا انه خلط بينه وبين اسلوب الحكيم ، وذكر الامثلة التى ذكرها السكاكى والقزوينى في اسلوب الحكيم في علم المعانى ، وأدخلاه في بحث خروج الكلام على مقتضى الظاهر[1] .

ونقده في بحث التورية ، لانه لم يفصل الكلام فيها ، ولم يعرض أنواعها التى عاشت في كلام المتأخرين ، يقول : «واما صاحب التلخيص فانه قال مشيرا الى البديع : ومنه التورية وتسمى الايهام ايضا ، وهى ان يطلق لفظ له معنيان قريب وبعيد وهى ضربان : مجردة ومرشحة ، ولم يزد على ذلك »[2] .

وهذا القول صحيح بالنسبة لما ذكره القزوينى في التلخيص، ولكن فيه بعدا عن الحقيقة بالنسبة لما جاء في الايضاح فقد تكلم عليها وذكر أمثلة كثيرة[3] ، ولكن الحموي لم يكفه هذا كله لان التورية في عصره استأثرت بجزء غير قليل من ادب العصر المملوكى ، وكان ميدانها مراح تسابق لادبائه ، والف الصفدى فيها كتاب « فض الختام عن التورية والاستخدام » . وكان ابن حجة متعصبا لها تعصبا عظيما ومتحمسا تحمسا شديدا وهى عنده في أعلى مراتب الادب ، يقول : « هذا النوع ــ اعني التورية ــ ما تنبه لمحاسنه الا من تأخر من حذاق الشعراء وأعيان الكتابة ، ولعمرى انهم بذلوا الطاقة في حسن سلوك الادب الى ان دخلوا اليها من باب التورية ، فان التورية من اغلى فنون الادب واعلاها رتبة ، وسحرها ينفث في القلوب ، ويفتح بها ابواب عطف ومحبة ، وما ابرز شمسها من غيوم النقد الا كل ضامر مهزول ، ولا احرز قصبات

---

(١) ينظر مفتاح العلوم ص ١٥٥ ، وتحرير التجبير ص ٥٩٩ ، وبديع القرآن ص٣١٤، والايضاح ص ٧٥ ، ٣٨٠ ، وخزانة الادب ص ١١٦ .

(٢) خزانة الادب ص ٢٤٢ .

(٣) التلخيص ص ٣٥٩ ، والايضاح ص ٣٥٣ .

سبقها من المتأخرين غير الفحول »[1] • ومن هنا أفاض في بحثها ، وفَصَّل في انواعها وامثلتها واخذت جزء كبيرا من كتابه ، واستغرق بحث التورية ١٤٠ صفحة ، ويمكن ان يعد هذا البحث وحده كتابا كاملا عن التورية اضافة الى كتابه عن التورية المسمى « كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام » الذى استدرك فيه على الصفدى ، وأوفى التورية حقها من البحث • ومن هنا رأى ان القزوينى لم يذكر شيئا عنها •

ويرى الحموى ان تعريف السكاكى والقزوينى للتقسيم ليس بذى قيمة اذا ما قورن بكلام ابن ابى الاصبع وتعريفه ، يقول بعد ان ذكر تعريفيهما : « ويعجبني بلاغة زكي الدين بن ابى الاصبع فانه قال : التقسيم عبارة عن استيفاء المتكلم أقسام المعنى الذى هو آخذ فيه »[2] • وقد قال السكاكي : « والتقسيم ، وهو ان تذكر شيئا ذا جزءين أو اكثر ثم تضيف الى كل واحد من اجزائه ما هو له عندك » • وقال القزويني : «هو ذكر متعدد ثم اضافة مالكل اليه على التعيين»[3] •

ويلاحظ أن تعريفى السكاكى والقزوينى أقرب الى مفهوم هذا الفن ، وانهما يدلان على معناه •

ويفضل رأى القزوينى في الرجوع وتسميته ، ولا يرى وجها في تسمية ابن المعتز وابى هلال وغيرهما لهذا الفن استدراكا واعتراضا ، ونقل تعريف القزويني له ، وأثنى عليه ثناء عظيما[4] ، وذكر انه لم يبحث الاشتقاق • يقول وهو يتحدث عنه : « وهذا النوع أعنى الاشتقاق استخرجه الامام ابو هلال العسكرى وذكره في اخر البديع من كتابه المعروف الصناعتين وعرفه بان قال : هو ان يشتق المتكلم من

(١) خزانة الادب ص ٢٣٩ •

(٢) خزانة الادب ص ٣٦٢ •

(٣) مفتاح العلوم ص ٢٠١ ، والايضاح ص ٣٥٨ ، والتلخيص ص ٣٦٤ •

(٤) خزانة الادب ص ٣٦٧ •

الاسم العلم معنى في غرض يقصده في مدح او هجاء أو غيره • وهذا النوع ما ذكره القاضي جلال الدين القزويني في التلخيص ولا في الايضاح »[1] •

وهذا نكران من الحموى ، لان القزويني تكلم عليه ولكنه لم يفرده بالبحث ، وانما الحقه بالجناس لذلك يقول في التلخيص : « ويلحق بالجناس شيئان :احدهما: ان يجمع اللفظين الاشتقاق نحو:«فأقمْ وجهك للدين القَيِّم » • والثاني : ان يجمعهما المشابهة وهي ما يشبه الاشتقاق نحو : « قال اني لعملكم من القالين »[2] •

وقد اتخذ الحموى من اقوال القزويني تأييدا الى ما ذهب اليه ، يقول في الايداع ، دعما لرأيه :

«ومما يؤيد قولي هذا قول القاضي جلال الدين القزويني في التلخيص • واحسنه ما زاد على الاصل بنكتة كالتورية والتشبيه »[3] • ونقل عنه تعريف التجريد ، ولكنه لم يستفد من أمثلته البديعة ، وذكر أمثلة لا رونق فيها ولا رواء كقول الشاعر :

أُعانِقُ غُصْنَ البانِ من لِينِ قَدِّها
وأجني جَنِيَّ الوَرْدِ مِنْ وَجَناتِها

فانه جرد من قدها غصنا ، ومن وجنتيها وردا[4] •

هذا ما نقله ابن حجة الحموى عن القزويني وما وافقه فيه أو خالفه، وهو يوضح لنا أثر الخطيب في البلاغة على نطاق واسع ، فلم ينج منه حتى اولئك الذين ابتعدوا عن منهجه ، وخاضوا في بحوث البديع •

---

(١) خزانة الادب ص ٣٦٨ •
(٢) التلخيص ص ٣٩٢ ، وينظر الايضاح ص ٣٨٩ •
(٣) خزانة الادب ص ٣٧٠ •
(٤) خزانة الادب ص ٤٣٦ •

ويلاحظ أن الحموى ـ وان استفــاد من الخطيب القزوينى ـ استطاع ان يصبغ تلك الفـائدة بصبغة جديدة ، وان يضفي عليها ظلالا ، ولم يكن الحموي ليستطيع ان يقلده في كل شيء وهو يشـرح بديعيته التى كان لها تنسيق خاص لموضوعات البلاغة التى لم يقسمهـا كالقزوينى الى المعانى والبيان والبديع ، ولم يوزعها كأبن الاثير فـي بابين كبيرين هما : الصناعة اللفظية والصناعة المعنوية • ومن هنا كانت له الحرية في ترتيب الموضوعات ، وعرضها ، وكانت له الحرية فيالشرح والتحليل فجاء بديعه اندى من بديع القزوينى ، واكثر روعة وتأثيرا • يضاف الى ذلك ان الحموي كان اديبا موهوبا ، وشاعرا مطبوعا فأثّر هذا كله في بلاغته ، اما القزوينى فلم تكن له اليـد الطولى في الادب والشعر ، وانما كان عالما فقيها فأثّر ذلك في بلاغته ، وطبعها بطابععلمى ليس فيـه من التحليل الادبي ، وتحسس مواطن الجمال ما في خزانـة الحمـوى •

ومهما يكن من شيء فان الحموى قدم للبديع أكثر مما قـدم القزويني ، وابدع في بحثـه ، وعرض اقسامه وامثلته أكثر ممـا فعل الخطيب ، ومن هنا نرى ان قيمة « خزانة الادب » كبيرة لا تدانيهـا قيمة ايضـاح القزويني •

* *

وللسيوطى بديعية سماها « نظم البديع في مدح خير شفيع » ولـه عليها شرح • ونظمت عائشة الباعونية (٩٢٢ هـ) بديعية سمتها «الفتح المبين في مدح الامين » أولها :

في حُسْنِ مطلعِ اقماري بذي سَلَمِ

أصبحت في زمرة العشاقِ كالعَلَمِ

وقد نظمتها على منوال بديعيه ابن حجة مع عـدم تسمية النوع

البديعي تمسكا بطلاقة الالفاظ وانسجام الكلمات ، وشرحتها كما فعل ابن حجة واعتمدت عليه كثيرا ، تقول : « وبعد فهذه قصيدة صادرة عن ذات قناع شاهدة بسلامة الطباع • منقحة بحسن البيان ، مبنية على أساس تقوى من الله ورضوان • سافرة عن وجوه البديع ، سامية بمدح الحبيب الشفيع • مطلقة من قيود تسمية الانواع ، مشرقة الطوالع في افق الابداع • موسومة بين القصائد النبويات ، بمقتضى الالهام الذى هو عمدة اهل الاشارات بالفتح المبين في مدح الامين • استخرت الله تعالى بعد تمام نظمها ، وثبوت اسمها ، في شيء يروق الطالب موارده ، وتعظم عند المستفيد فؤاده • وهو ان اذكر بعد كل بيت حد النوع الذي بنيت عليه ، وأقر شاهده فان ذلك مما يفتقر اليه وأنحو في ذلك سبيل الاختصار ولا أخل بواجب ، وأنبه على ما لا بد منه قصدا لنفع الطالب • والمسؤول من الفتاح بتأسيسها على قواعد اذن الله ان ترفع ومن مثبت رفعها بوجاهة مدح الوجيه المشفع ان يصلّى ويسلم عليه ويجعلها خالصة لوجهه الكريم » [1] •

ولصدر الدين بن معصوم الحسيني المدني (١١١٧ هـ) [2] بديعية مطلعها :

حُسْنُ ابتدائي بذكرى جيرةِ الحرمِ
لــه براعةُ شـــوق تستهلُّ دمي

ونظم عبد الغنى النابلسي المتوفى سنة (١١٤٣ هـ ـ ١٧٣١ م) [3] بديعيتين لم يلتزم في أولاهما تسمية النوع والتزمها في الثانية ، ومطلع الاولى :

يا منزلَ الركْبِ بين البانِ فالعلمِ
من سَفْحِ كاظمةٍ حُيِّيتَ بالدِّيَمِ

---

(١) شرح بديعية الباعونية ـ حاشية خزانة الادب ص ٣١٠ ـ ٣١١ •
(٢) تنظر ترجمته في البدر الطالع ج١ ص ٤٢٨ ، وروضات الجنات ص ٤٢١ •
(٣) تنظر ترجمته فى سلك الدرر فى اعيان القرن الثاني عشر للمرادي ، ج٣ ص ٣٠•

ومطلـــع الثـانيـة :

يا حُسْنَ مطلعٍ من أهوى بذي سَلَمِ
براعةُ الشَّوقِ في استهلالهـــا ألمي

وسمى منظومته « نسمات الاسحار »[1] .

وهناك بديعيات أُخر ، وكلها من البحر البسيط ومعظمهـا على روي الميم وفي مدح الرسول محمد (ص) واصحابه[2] .

وبقي البديع على هذه الحال تتقاذفه أشعار أصحاب البـــديع ، وتقضي على طلاوته كتب المختصرين والناظمين حتى أصبح قوالـــب جامدة ليس فيها النفع واثارة السبيل . وما أحوجنا اليوم الى ان نعيد النظر في فنونه على ضوء الدراسات الحديثة ، فنأخذ منهـــا ما كثر استعماله في كلام العرب ، وما كان له تأثير في ادبنا الحديث ، وبذلك نبعث الحياة فيه من جديد، ونعطيه حقه في الدراسات البلاغية والنقدية.

---

(١) تنظر دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة العربية) ج٣ هامش ص ٤٧٠ ، والبلاغة تطور وتأريخ ص ٣٦٤ ــ ٣٦٥ .

(٢) تنظر دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة العربية) ج٣ ص ٤٧٠ ، والبلاغة تطور وتأريخ ص ٣٦٥ ــ ٣٦٧ .

الفصل الخامس

السَّرِقَات

١

الابتداع والاتباع :

فطن النقاد العرب الى التجديد والتقليد ، وفرقوا بين الابتــداع والاتباع ووضعوا لذلك قواعد واصولا ، وقسموا المعانى الى ضربين: ضرب يبتدعه مؤلف الكلام من غير ان يقتدي فيه بمن ســبقه ، ومن ذلك ما ورد في شعر ابى تمام في وصف مصلبين :

بكروا واسروا في متون ضوامر   قيدت لهم من مربطِ النَّجــارِ
لا يبرحون ومن رآهم خــالهم   أبداً على سَفَرٍ مــن الأسفارِ

وهذا المعنى مما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة ، والخــاطر في مثل هذا المقام ينساق الى المعنى المخترع من غير كبير كلفة لشاهــــد الحــال الحــاضرة .

وضرب يحتذى فيه على مثال سابق ومنهج مطروق ، وهو جل ما يستعمله ارباب صناعة الكلام .

وقدسمى ابن رشيق النوع الاول المخترع ، والثانى التوليد [1].

وكان هذا مدعاة للبحث في السرقات ومتابعة الشعراء والكتاب فيما ابتدعوه وأخذوه ، وتفصيل انواع الاخذ .

السرقات قديمة :

والسرقات قديمة فى الادب العربى وقدوجدت بين شعراءالجاهلية، وفطن اليها النقاد والشعراء جميعا ، ولحظوا مظاهرهـــا بين امرىء القيس وطرفة بن العبد ، وبين الاعشى والنابغة الذبياني ، وبين أوس ابن حجر وزهير بن أبي سلمى ، وكان حسان بن ثابت يعتز بكلامهوينفي عن معانيه الأخذ والاغارة فيقول :

لا أسرق الشعراء ما نطقوا　　　بل لا يوافق شـــعرهم شعري

وكانت السرقة من موضوع الملاحــاة بين جرير والفرزدق ، كلٌّ ادّعى أن صاحبه يأخذ منه ، ومن ذلك قول الفرزدق يخاطب جرير :

إنْ تذكروا كرمي بلؤم ابيكم　　　وأوابدي تتنحلوا الاشـــعارا

وغضب على البعيث المجاشعى لما اخذ احد معانيه فقال فيه :

اذا ما قلت قـــافية شرودا　　　تنحلها ابن حمراء العجانِ

ولما قال بشار بن برد :

من راقب الناسَ لم يظفر بحاجته　　　وفاز بالطيبات الفاتكُ اللهجُ

وتبعه سلم الخاسر فقال :

من راقبَ الناسَ مات غَمّاً　　　وفاز باللذةِ الجسورُ

---

(١) ينظر العمدة جا ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، والمثل السائر جا ص ٢١٠ وما بعدها .

غضب منه بشار « وان كان بيت اسلم اخصر واجود سبكا واقرب الى الغاية »[1] .

وقد قال علي بن عبد العزيز الجرجاني : « والسرق ـ ايدك الله ـ داء قديم وعيب عتيق ، وما زال الشاعر يستعين بخاطر الاخر ، ويستمد من قريحته ، ويعتمد على معناه ولفظه »[2] ،وقال الآمدي : « انها باب ما يعرى منه أحد من الشعراء الا القليل »[3] وقال في موضع آخر انه « باب ما تعرى منه متقدم ولا متأخر »[4] . وقال ابن رشيق انها « باب متسع جدا ، ولا يقدر احد من الشعراء ان يدعي السلامة منه »[5] .

وكان الجاحظ قد اشار قبلهم الى السرقات ، ومهد للباحثين السبيل ، يقول : « لا يعلم في الارض شاعر تقدم في تشبيه مصيب تام ، وفي معنى غريب عجيب ، أو في معنى شريف كريم ، أو في بديع مخترع ، الا وكل من جاء من الشعراء من بعده أو معه ان هو لم يَعْدُ على لفظه فيسرق بعضه أو يدعيه بأسره فانه لا يدع أن يستعين بالمعنى ويجعل نفسه شريكا فيه ، كالمعنى الذى تتنازعه الشعراء فتختلف الفاظهم وأعاريض اشعارهم ولا يكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه ، أو لعله ان يجحد انه سمع بذلك المعنى قط ، وقال : « انه خطر على بالي من غير سماع كما خطر على بال الاول »[6] .

ولذلك نجد العرب يهتمون بدراسة السرقات ومشكلاتها ، وقد الفوا فيها الرسائل والكتب ولم تنفرد ببحثها جماعة دون جماعة ، وانما

---

(١) ينظر اصول النقد الادبى ص ٢٦٤ .
(٢) الوساطة ص ٢١٤ .
(٣) الموازنة ص ١١٥ .
(٤) الموازنة ص ٢٥٠ .
(٥) العمدة ج٢ ص ٢٨٠ .
(٦) الحيوان ج٣ ص ٣١١ .

اهتمت بها جماعات مختلفة فنجدها في كتب الطبقات والتراجم كما نجدها في كتب الادب والنقد والبلاغة .

كتب قديمة في السرقات :

وباب السرقات من أهم ابواب النقد العربي ، لانها كانت عماد الشعر وأساسه ، وقد ظهرت دراستها قبل وجود الحركة النقدية حول أبى تمام ،ومن اقدم الكتب التى تبحث في ذلك كتاب «سرقات الكميت من القرآن وغيره » لابي محمد عبدالله بن يحيى المعروف بأبي كناسة (٢٠٧ هـ) . وكتاب « سرقات الشعراء وما اتفقوا عليه» لابن السكيت (٢٤٠ هـ) ، وكتاب « إغارة كثير على الشعراء » للزبير بن بكار بن عبد الله القرشي (٢٥٦ هـ) . وكتاب « سرقات الشعراء » لاحمد بن أبي طاهر طيفور (٢٨٠ هـ)[1] .

واحتدم الصراع في القرن الثالث الهجرى وما بعده ، والفت كتب كثيرة في السرقات وكان لابي تمام والبحتري أثر في ذلك حيث انقسم الناس الى قسمين : فمن مؤيد لهما ، ومن منقص قدرهما موضحا ما اخذه البحترى من ابى تمام أو ما اخذه الشاعران من غيرهما . والفت كتب في ذلك منها : « كتاب السرقات » لجعفر بن حمدان أبي القاسم الفقيه (٣٢٣ هـ) ، يقول ابن النديم : « ولم يتمه ولو أتمه لاستغنى الناس عن كل كتاب في معناه »[2] . وكتاب « سرقات البحتري من أبي تمام »،وكتاب« السرقات الكبير » لابي ضياء بشر بن يحيى بن علي النصيبي ، و« الموازنة بين الطائيين » للآمدى وغيرها .

ابن طباطبا والسرقات :

وعالج محمد بن احمد بن طباطبا العلوى (٣٣٢ هـ) موضوع

---

(١) ينظر فهرست ابن النديم ص ١١٤ ، ١٦٧ ، ٢١٥ ، ومعجم الادباء ج٢ ص ٥٢، ج١١ ص ١٦٤ ، ومشكلة السرقات ص ٧٦ ــ ٧٧ .

(٢) فهرست ابن النديم ص ٢١٩

السرقات في كتابه « عيار الشعر » ، وتكلم فيه على المعانى الشعرية ، وكيف ان الشعراء السابقين غلبوا عليها فضاق السبيل امام المحدثين ولم يكن من التقليد والاخذ بد ، ويرى انه ينبغي ألا يغير الشاعر على معاني الشعر فيودعها شعره ، ويمزجها في أوزان مخالفة لأوزان الاشعار التي يتناول عنها ما يتناول ، لان هذا لا يستر سرقته ، وانما ينبغي عليه أن يديم النظر في الاشعار لتعلق معانيها بفهمه وترسخ أصولها في قلبه [1] . واذا تناول الشاعر المعانى التى سبق اليها فأبرزها في أحسن من الكسوة التى عليها لم يعب بل وجب له فضل لطفه واحسانه فيه كقول ابى نواس :

وان جرت الألفاظ منا بمدحةٍ ... لغيرك أنسانا فأنت الذي نعني

أخذه من الاحوص حيث يقول :

متى ما أقل في آخر الدهر مدحةً ... فما هي الا لابن ليلى المكرم

وكقول دعبل :

أحبُّ الشيبَ لما قيل ضيف ... كحبي للضيوفِ النازلينا

أخذه من الاحوص حيث يقول :

فبان مني شبابي بعد لذته ... كأنما كان ضيفاً نازلا رحلا

وكقول دعبل :

لا تعجبي يا سلمُ من رجُلٍ ... ضَحِك المشيبُ برأسه فبكَى

أخذه من قول الحسين بن مطير :

كل يوم بأقحوان جديد ... تضحك الأرض من بكاءِ السماءِ

---

(١) عيار الشعر ص ١٠ .

ويحتاج من سلك هذه السبل الى الطاف الحيلة ، وتدقيق النظر في تناول المعانى ، واستعارتها ، وتلبيسها حتى تخفى على نقادها والبصراء بها ، وينفرد بشهرتها كأنه غير مسبوق اليها فيستعمل المعانى المأخوذة من غير الجنس الذي تناولها منه[1] .

وليس في بحث ابن طباطبا تقسيم لهذا الفن ، وتنويع لمسائله ، ولو أنه قرر بعض أصول السرقات .

الجرجاني والسرقات :

وذكر علي بن عبد العزيز الجرجاني (٣٦٦ هـ) أن الشاعر لايزال يستعين بخاطر الآخر ، ويستمد من قريحته ، ويعتمد على معناه ولفظه ، لان من تقدم استغرق المعاني وسبق اليها واتى على معظمها ، ومن هنا يعذر أهل عصره اذ اخذوا من غيرهم واعتمدوا عليهم ، ولا يدعي الجرجانى القدرة على الاحاطة بجميع السرقات أو امكان تمييزها ،وهو يدعو الى التحرز من الاقدام قبل التبيّن والحكم الا بعد الثقة . والسرقات كثيرة وقد حصرها في : السرق ، والغصب ، والاغارة ، والاختلاس ، والالمام ، والملاحظة ، والمشترك الذى لا يجوز ادعاء السرق فيه ، والمبتذل الذي ليس أحد اولى به ، ووضع قاعدة عامة وهي أن المعاني المشتركة والمتداولة لا تعتبر سرقة يقول : « فمتى نظرت فرأيت أنّ تشبيه الحسن بالشمس والبدر ، والجواد بالغيث والبحر ، والبليد البطيء بالحجر والحمار ، والشجاع الماضي بالسيف والنار ، والصب المستهام بالمخبول في حيرته ، والسليم في سهره ، والسقيم في أنينه وتأمله ، أمور متقررة في النفوس متصورة للعقول، يشترك فيها الناطق، والأبكم ، والفصيح ، والاعجم ، والشاعر ، والمفحم ، حكمت بأن السرقة عنها منتفية والاخذ بالاتباع مستحيل ممتنع »[2] . ولا يمكن

---

(١) عيار الشعر ص ٧٦ وما بعدها .

(٢) الوساطة ص ١٨٣ .

أن نطلق السرقة الا في الامور المنسوبة لشاعر أو كاتب بعينه ، فالناس لا يزالون يشبهون الورد بالخدود ، والخدود بالورد نثرا ونظماوتقول فيه الشعراء فتكثر وهو من الباب الذى لا يكمن ادعاء السرقة فيه الا بتناول زيادة تضم اليه أو معنى يشفع به كقول علي بن الجهم :

عشـــية حياني بوردٍ كأنّه　　　خدودٌ أضيفت بعضهن الى بَعْضِ

فأضاف بعضهن الى بعض له ، وانْ أخذ فمنه يؤخذ واليه ينسب، وكقول ابن المعتـــز :

بياض في جوانبـــه احمرارٌ　　　كما احمَرّتْ من الخَجَلِ الخدودُ

والخجل انما يحمر وجنتاه ، فاما منبت الاصداغ ومحط العـــذار فقليلا ما يحمران فهذا التمييز مسلم به ، وان لم يكن يسبق اليـــه ولو اتفق له أن يقول : « حمرة في جوانبها بياض » لكان قد طبق المفصل ، وأصاب الطرف ، ووافق شبه الخجل ، لكن أراد أن البياض والحمرة يجتمعان فجعل الاحمرار في جوانب البياض فراغ عن موقع التشبيه ثم قال أبو سعيد المخزومي :

والورد فيه كأنما أوراقهُ　　　نزعت ورد مكانهن خـــدود

فلم يزد على ذلك التشبيه المجرد ، لكنه كساه هذا اللفظ الرشيق، فصرت اذا قسته الى غيره وجدت المعنى واحداً ، ثم أحسست في نفسك عنده هزة ، ووجدت طربة تعلم لها انه انفرد بفضيلة لم ينازع فيها .

يقول في السرقة الممدوحة : « ومتى جاءت السرقة هذا المجيء لم تعد من المعايب ، ولم تحص في جملة المثالب ، وكان صاحبها بالتفضيل أحق ، وبالمدح والتزكية أولى » (١) .

---

(١) الوساطة ص ١٨٨ .

وقد يحصل التفنن في السرقة ، ولا ينتبه اليها الا الحاذق الفطن وذلك كأنْ يؤخذ النسيب فيحول الى المديح كقول كثير :

أُريدُ لأنسى ذِكْرَها فكأنما تمثل لي ليلى بكل سبيلِ

أخذه أبو نواس فقال مادحا :

ملك تصور في القلوب مثاله فكأنه لم يَخْلُ منه مكانُ

وليس من شك في أنّ أحدهما من الآخر ، وإنْ كان الاول نسبيا والثاني مديحا[1] . ومن لطيف السرق ما جاء على وجه القلب وقصد به النقض كقول المتنبي :

أأحبه وأحب فيه ملامةً إنْ الملامة فيه من أعدائِه

نقض قول أبى الشيص :

أجِدُ الملامةَ في هواك لذيذةً حبا لذكرك فليلمني اللوّمُ

وأصله لابي نواس في قوله :

إذا غاديتنى بصبوح عَذْلٍ فممزوجاً بتسمية الحبيبِ
فاني لا اعد اللّومَ فيه عليك إذا فعلت من الذنوبِ[2]

ولعل أحسن ما في بحث القاضي الجرجانى تفصيله القول فيانواع السرقة المدوحة ، وتحرزه في الحكم على السرقة ، وبذلك تظهر لنا روح القاضي الذى لا تأخذه في الحق لومة لائم ، ولا يدين أحدا الا بعد ثبوت التهمة .

---

(١) الوساطة ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ .
(٢) الوساطة ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧

الامدي والسرقات :

ويرى الحسن بن بشر بن يحيى الآمدي (٣٧١ هـ) أنْ لا سرقة في الالفاظ ، لانها مباحة غير محظورة ، وانما السرقة تتحقق في المعانى البديعة المخترعة التى يختص بها شاعرلا في المعانى المشتركةبينالناس، الجارية في عاداتهم والمستعملة في أمثالهم ومحاوراتهم مما ترتفع الظنة فيه عن الذى يورده ، أن يقال أخذه من غيره يقول : « وانما السرق في البديع الذى ليس للناس فيه اشتراك » [(١)] • ويؤمن أنهـا ليست « من كبير مساويء الشعراء وخاصة المتأخرين اذ كان هذا بابا ما تعرى عنه متقدم ولا متأخر » [(٢)] • ويؤمن بالسرقة الممدوحة والأخـذ الحسن ، ويقرر أن تقارب بيئة الشاعرين يجعلهما متفقين في كثير من المعانى يقول : « غير منكر لشاعرين متناسبين من أهل بلدين متقاربين أن يتفقا في كثير من المعانى » [(٣)] • وهذا ما كره أبو هـلال حيـث يقول : « واذا كان القوم في قبيلة واحدة وفي ارض واحـدة فان خواطرهم تقع متقاربة كماأناخلاقهم وشمائلهم تكون متضارعة»[(٤)]•

العسكرى والسرقات :

وعني أبو هلال العسكرى (٣٩٥ هـ) بالسرقات الشعرية فـي كتاب الصناعتين وجعل هذه الدراسة في فصلين :

الاول : في حسن المأخذ ، وهو أن تأخـذ المعنى وتكسوه لفظا جديدا أجود من لفظه الاول ومن فعل ذلك كان أحق بالمعنى مـن صاحبه الاول ، وقد فصّل الكلام في وسائل الاخـذ الحسن وهى : أخذ معنى منظوم وايراده في كلام منثور أو من نثر فيورد في نظـم ،

---

(١) الموازنة ص ٤٧.
(٢) الموازنة ص ٢٥٠ .
(٣) الموازنة ص ٤٧ .
(٤) كتاب الصناعتين ص ٢٣٠ .

والنقل من غرض الى غرض • أما حل المنظوم ونظم المنثور فقد قسمه الى اربعة أضرب : ضرب منها يكون بادخال لفظة بين ألفاظه ، وضرب ينحل بتأخير لفظة منه وتقديم أخرى فيحسن محلوله ويستقيم ، وضرب منه أن توضع ألفاظ البيت في مواضع ولا يحسن وضعها في غيرها فيختل اذا نثر بتأخير لفظ وتقديم آخر ، وضرب تكسو ماتحله من المعانى ألفاظا من عندك ، وهذا ارفع الدرجات •

والثانى : في قبح الأخذ ، وهو أن يعمد الى المعنى فيتناوله لفظه كله أو اكثره ، او تخرجه في معرض مستهجن[1] •

فما أخذ بلفظه ومعناه ، وأدعي أخذه ، أو ادعي له انه لم يأخذه ، ولكن وقع له ما وقع للأول قول طرفة :

وقوفاً بهــا صحبي عليَّ مطيهم   يقولون لا تهلك أسى وتَجَلَّدِ

وهو قــول امرىء القيس :

وقوفاً بهــا صحبي عليَّ مطيهم   يقولون لا تهلك أسى وتَجَمَّلِ

وهذا الاخذمعيب وان ادّعِي ان الآخر لم يسمع الاول بل وقع لهذا كما وقع لذاك ، فان صحة ذلك لا يعلمها الا الله عز وجل ، والعيــب لازم للآخر •

والضرب الآخر من الاخذ المستهجن أن يأخذ المعنى فيفسده أو يعوصــه أو يخرجه في معرض قبيــح وكسوة مسترذلة كقول أبي كريمــــة :

قفــاه وجــه ثم وجــه الذي   قفاه وجه يشبه البــــدرا

---

(١) ينظر كتاب الصناعتين ص ٢١٦ وما بعدها ، وابو هلال العسكرى ومقاييســه البلاغية والنقدية ص ١٧٢ .

أخذه من قول أبي نواس :

بأبي أنت من مليحٍ بديعٍ   بذ حُسْنَ الوجوهِ حسنُ قفاكا

وأحسن ابن الرومي فيه فقال :

ما ساءني إعراضه   عني ولكن سَرَّني
سالفتاه عِوَضٌ   من كل شيء حسنِ

وقد تابع أبو هلال في دراسته هذه حسه الفنى ، وساير ذوقه الادبى وتخلص فيها من اساليب العلماء ومناهج المتكلمين [1] • ويرى الاستاذ محمد مصطفى هدارة أن أبا هلال سار في الاتجاه الذي يرمي الى ابعاد مشكلة السرقات عن محيط النقد الادبى ، وربطها بالبلاغة • وذلك واضح في كلامه على كمال الحلية والصياغة والحذق في رصف الالفاظ وعقد المنثور أي السرقة من النثر [2] وهذا حق لان أبا هلال لم يكن ناقدا بحتا وانما كان رجلا عالما وضع للبلاغة أصولها وقواعدها وكان من الطبيعى ان يضع لهذا البحث أصوله ويقنن قواعده •وبذلك ابتعد عن طريقة القاضي الجرجاني والآمدي في بحثها ، لأنهما سارا فيها في محيط النقد الادبى ، ولم يضعا القواعد ، ويضبطا الاصول كما فعل أبو هلال والمتأخرون •

ابن رشيق والسرقات :

وألمّ ابن رشيق القيروانى (٤٥٦ هـ) بآراء من سبقه من النقاد والبلاغيين في بحث السرقات ، ويعتبر كتاباه : « العمدة » و « قراضة الذهب » من خيرة الكتب التى تطرقت لهذا الموضوع ، وإنْ كان الاول أوفى وأكثر تفصيلا • وقد استهل ابن رشيق بحثه بقوله : « هذا باب متسع جداً لا يقدر أحدٌ من الشعراء أن يدعى السلامة منه ،وفيه

(١) ينظر ابو هلال العسكرى ومقاييسه البلاغية والنقدية ص ١٧٢ .
(٢) ينظر مشكلة السرقات ص ٩٨ .

أشياء غامضة الا عن البصير الحاذق بالصناعة ، واخر فاضحة لا تخفى على الجاهل المغفل »[1] • ويكون السرق في البديع الذي يختص به الشاعر لا في المعانى المشتركة الجارية في عاداتهم المستعملة في أمثالهم ومحاوراتهم •

وقد ذكر أنواع السرقات وحَدَّدَ مصطلحاتها ، وحصر أمثلتها وفنونها، فتكلم على الاصطراف ، والاجتلاب أو الاستلحاف ،والانتحال، والادعاء ، والإغارة ، والغصب ، والمرافدة أو الاسترفاد ، والاهتدام أو النسخ ، والنظر ، والملاحظة ، والالمام ، والاختلاس أو النقل ، والموازنة ، والعكس ، والمواردة ، والالتقاط ، والتلفيق أو الاجتذاب ، والتركيب ، وكشف المعنى •

ويمتاز ابن رشيق بانّه حدّدَ هذه المصطلحات ، ووضعها وضعاً يكاد يكون نهائيا بالنسبة لهذه البحوث •

والاخذ الحسن عنده يكون في اختصار المعنى ، أو بسطه ، أو تبيينه أو أن يختار له حسن الكلام ، أو رشيق الوزن ، أو صرفه عن وجهه الى وجه آخر • وسوء الاتباع أن يعمل الشاعر معنى رديئا مستهجنا ، ثم يأتي من بعده فيتبعه على رداءته[2] • كقول أبي تمام :

باشرت أسبابَ الغنى بمدائحٍ ضربت بأبوابِ الملوك طبولا

فقال أبو الطيب :

إذا كان بعض الناس سيفا لدولةٍ ففى الناس بوقات لها وطبولُ

واتبع ابن رشيق في «قراضة الذهب» سبيلا آخر ،وحصر السرقات في الانواع البديعية ، يقول : « السرقة انما تقع في البديع النادر

(١) العمدة ج٢ ص ٢٨٠ •
(٢) ينظر العمدة ج٢ ص ٢٩١ •

والخارج عن العادة ، وذلك في العبارات التي هي الالفاظ »[1] .

وجعل المطابقة والتجنيس أفصح سرقة من غيرها ، لان التشبيه وما شاكل يتسع فيه القول ، والمجانسة والتطبيق يضيق فيما تناوله اللفظ[2] . ومضى في ذكر أنواع السرقات البديعية كالايغال ، والتتبع، والمبالغة ، والتتميم ، والالتفات .

واذا ما أردنا أن نقارن بين « العمدة »و « القراضة » في بحث السرقات نجد أن ابن رشيق سار في الاول سيرة علماء البلاغة ، وأولع بالتحديد والتقسيم ، وذكر المصطلحات الكثيرة ، بينما نحا في الثاني منحى نقديا ، وكان لملكته الادبية ، وذوقه الصافي أثر واضح فيه .

عبدالقاهر والسرقات :

ودرس عبد القاهر (٤٧١ هـ) السرقات في كتابيه« أسرار البلاغة» و « دلائل الاعجاز » ، وجعل المعاني في قسمين :

الاول : عقلي يتفق العقلاء على الاخذ به ، والحكم بموجبه في كل جيل وأمة ، ويوجد له أصل في كل لسان ولغة ، ويكون مجراه في الكتابة الادبية مجرى الادلة التي يستنبطها العقلاء والفوائد التي تثيرها الحكماء،ولذلك تجد الاكثر منهذا التجنيس منتزعا من أحاديث النبي (ص) ، وكلام الصحابة ، ومنقولا من آثار السلف الذين شأنهم الصدق ، وقصدهم الحق ، أو ترى له أصلا في الامثال القديمةوالحكم المأثورة عند القدماء ، فمثلا قول المتنبي :

لا يسلم الشرفُ الرفيعُ من الأذى   حتى يراق على جوانبه الدم

مضى يقول لم يزل العقلاء يقضون بصحته ، ويرى العارفون بالسياسة الأخذ بسنته وبه جاءت أوامر الله سبحانه ، وعليه جرت

---

(١) قراضة الذهب ص ١٤ .
(٢) قراضة الذهب ص ١٨ .

الاحكام الشرعية والسنن النبوية وبه استقام لاهل الدين دينهم وانتفى عنهم أذى من يفتنهم ويضرهم اذ كان موضع الجبلة على ألا تخلو الدنيا من الطغاة الماردين والغزاة المعاندين (١) .

الثاني : تخييلي ، وهو الذى لا يمكن ان يقال انه صدق ، وانه ما أثبته ثابت ، وما نفاه منفى ، هو مفتن المذاهب كثير المسالك لا يكاد يحصر ، ومنه قول ابى تمام :

لا تنكري عَطَلَ الكريمِ من الغنى   فالسيلُ حَرَبٌ للمكانِ العالي

فهذا تدخيل الى السامع الكريم اذ كان موصوفا بالعلو والرفعة في قدره وكان الغني كالغيث في حاجة الخلق اليه وعظم نفعه وجب بالقياس ان ينزل من الكريم نزول ذلك السيل عن الطود العظيم ، ومعلوم انه قياس تخييل وايهام ، لا تحصيل واحكام .

ومن هذا القسم نوع يجيء مصنوعا في تلطف ، واستعين عليه بالرفق والحذق حتى أعطي شبها من الحق وغشي رونقا من الصدق كقول بشار :

الشيبُ كره ، وكره أن يفارقني   أعجب بشيء على البغضاء مودود

هو من حيث الظاهر صدق وحقيقة ، لان الانسان لا يعجب ان يدرك المشيب ، فاذا ادركه كره ان يفارقه فنراه لذلك ينكره ويكرهه ، الا أنك اذا رجعت الى التحقيق كانت الكراهية والبغضاء لاحقة للشيب على الحقيقة ، فاما كونه مرادا ومودودا فمتخيل فيه وليس بالحق والصدق (٢) .

وعقد فصلا في « الأخذ والسرقة والاستمداد والاستعانة » (٣) ، وجعل الاتفاق بين الشاعرين على وجهين :

---

(١) ينظر اسرار البلاغة ص ٢٩٨ — ٣٠١ .

(٢) ينظر اسرار البلاغة ص ٣٠٢ — ٣٠٣ .

(٣) اسرار البلاغة ص ٣٨٣ وما بعدها .

الاول . أنْ يكون في الغرض على العموم وهذا الاتفاق لا يدخل في الاخذ ، والسرقة ، والاستمداد ، والاستعانة ، كوصف الممدوح بالشجاعة ، والسخاء ، أو حسن الوجه والبهاء .

الثانى : الاشتراك في وجه الدلالة على الغرض ، وذلك بان يذكر ما يستدل به على اثباته له بالشجاعة والسخاء مثلا ، يقول في هذا : « وأما الاتفاق في وجه الدلالة على الغرض فيجب ان ينظر فيه ، فان كان مما اشترك الناس في معرفته وكان مستقرا في العقول والعادات ، فإنّ حكم ذلك وان كان خصوص المعنى حكم العموم . من ذلك التشبيه بالاسد في الشجاعة ، وبالبدر في النور والبهاء ، وبالصبح في الظهور والجلاء وفي الالتباس عنه والخفاء ، وكذلك قياس الواحد في خصلة من الخصال على المذكور بذلك والمشهور به ، والمشار اليه . سواء كان ذلك ممن حضرك في زمانك ام كان ممن سبق في الأزمنة الماضية والقرون الخالية ، لان هذا مما لا يختص بمعرفته قوم دون قوم ولا يحتاج في العلم به الى رؤية واستنباط وتدبر وتأمل ، وانما هو في حكم الغرائز المركوزة في النفوس والقضايا التي وضع العلم بها في القلوب ، وان كان مما ينتهى اليه المتكلم بنظر وتدبر ، ويناله بطلب واجتهاد ، ولم يكن كالاول في حضوره اياه ، وكونه في حكم ما يقابله الذى لا معاناة عليه فيه ، و لاحاجة به الى المحاولة والمزاولة ، والقياس ، والمباحثة ، والاستنباط ، والاستثارة »(١) . فهو الذي يجوز أن يدعى الاختصاص فيه والسبق والتقدم .

واتجه اتجاها آخر في « دلائل الاعجاز » ، ورأى ان السرقة ليست مجرد لفظ ومعنى وانما الامر صياغة وتصوير ، وأجمل فكرته في حقيقة الاخذ طبقا لنظرية النظم التي نادى بها ، يقول : « وجملة الامر انه كما لا تكون الفضة خاتما أو الذهب سوارا أو غيرهما من أصناف الحلى بانفسهما ، ولكن بما يحدث فيهما من الصورة كذلك

(١) اسرار البلاغة ص ٣٨٥ .

لا تكون الكلم المفردة التى هى اسماء وافعال وحروف كلاما وشعرامن غير ان يحدث فيها النظم الذي حقيقته توخي معاني النحو وأحكامه ، فاذن ليس لمن يتصدى لما ذكرنا من ان يعمد الى بيت فيضع مكان كل لفظة منها لفظة في معناها الا ان يترك عقله ويستخف ، ويعد معدّ الذى حكى انه قال انى قلت بيتا هو اشعر من بيت حسان ، قال حسان :

يغشون حتى مـا تهر كلابُهم لا يسألون عن السوادِ المُقبِلِ

وقلت :

يغشون حتى مـا تهر كلابهم أبداً ولا يسألون عن ذا المقبل

فقيل هو بيت حسان ولكنك قد افسدته » [١] .

وجعل المعنى المتداول بين الآخذ والمأخوذ منه قسمين :

الاول : ترى فيه أحد الشاعرين قد أتى بالمعنى غفلا ساذجا ،وترى الآخر قد أخرجه في صورة تروق وتعجب، ويكون ذلك أما لأن متأخرا قصر عن متقدم ، وأما لان هدي متأخر لشيء لم يهتد اليه المتقدم .

الثانى : ترى كل واحد من الشاعرين قـد صنع في المعنى وصور ، وهذا يدل على أن المعنى ينتقل من صورة الى صورة[٢] .

واهتم عبد القاهر بهذا النوع اهتماما كبيرا باعتبار أن النوع الاول ليس مجال دراسة البلاغيين ، لانه أمر ظاهر للعيان ولكن هذا القسم هو الميدان الذى يصول فيه البلاغى ليستخدم أدواته في الحكم على أي الصورتين أجمل من الاخرى ما دام المعنى واحدا »[٣] .

ويبدو من هذا الكلام كله أن عبد القاهر لم يعِر السرقة والأخذ كبير اهتمام ، ولم يبحثها الا على أنها لون من الوان اشتراك الشعراء

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٧٣ .
(٢) دلائل الاعجاز ص ٣٧٤ ، ٣٨٥ .
(٣) مشكلة السرقات ص ١٤١ .

في المعنى ، وسبب يمهد للموازنة بين المعانى ، ويرى الفرق في الصور التى يتناول بها الشعراء معنى واحدا .

ابن منقذ والسرقات :

وعقد أسامة بن منقذ فصولا مختلفة في : « البديع في نقد الشعر» وبيّن المقبول من السرقات وغير المقبول ، وجمع جمعاً يكاد يكون تاما ما قيل أن المتنبي أخذه عن ارسطو فَسَهَّل سبيل الموازنة بين شعر الشاعر وافكار الفيلسوف اليونانى ، وعقد بابا في الحل والعقد ، تكلم فيه على المناقلة بين أرسطو طاليس وأبي الطيب ، وأطال الحديث في هذا الموضوع [١] . ولم يفته في البحث أن يذكر كلام أرسطو ثم يذكر بيت المتنبي مثل : « قال الحكيم : اذا كانت الشهوة فوق القدرة كان هلاك الجسم دون بلوغ الشهوة ، وقال أبو الطيب المتنبي :

وإذا كانت النفوسُ كبارا تعبت في مرادِها الأجسامُ

واستمر في بحث سرقات المتنبي بهذه الطريقة ، وليس لاسامة شيء في هذا البحث الطويل ، وانما هو « الرسالة الحاتمية فيما وافق المتنبي في شعره كلام ارسطو في الحكمة » للامام أبي علي محمد بن محمد بن الحسن بن المظفر البغدادي ، وقد نقلها ابن منقذ نقلا يكاد يكون تاما ، ولم يشر الى ذلك ، ولا الى الرسالة الحاتمية في مصادره التى ذكرها في مقدمة كتابه مع أنه ذكر كتابي : « الحالي » و « المحاضرة » للحاتمي ، وعدهما من جملة مصادره التي وقف عليها واستفاد منها ، ولم ينتبه الدكتوران أحمد احمد بدوي وحامد عبد المجيد محققا « البديع في نقد الشعر » الى هذا واكتفيا في المقارنة بين كلام المتنبي وكلام ارسطو بالرجوع الى شرح العكبري لديوان المتنبي ، مع أن رسالة الحاتمي طبعت ثلاث مرات [٢] .

---

(١) البديع في نقد الشعر ص ٢٦٤ ـ ٢٨٣ .

(٢) ظهرت الطبعة الاولى في مجموعة للقس انطون بولاد دعاها راشد سوريا وطبعها

ابن الاثير والسرقات :

ولعل أوفى دراسة للسرقات ، وأوسعها ، وأكثرها تفصيلا ،ما كتبه ابن الاثير في « المثل السائر » و « الجامع الكبير » و « الاستدراك »، وقد اتبع منهجا فيه تحديد وحصر ، وعرض وتحليل ، وبذلك جمع بين القواعد البلاغية والنقد الذوقي في هذه الكتب الثلاثة ، ولا نعرف شيئا عن منهجه في كتابه الخاص بالسرقات الذي ذكره في المثل السائر . وليس من سبيل الى معرفة السرقات الشعرية والوقوف عليها الا بحفظ الاشعار الكثيرة التي لا يحصرها عدد يقول : «فمن رام الاخذ بنواحيها، والاشتمال على قواصيها بان يتصفح الاشعار تصفحا ، ويقتنع بتأملها ناظرا »[1] .

وكان ما كتبه ابن الاثير في هذا الموضوع خاتمة البحوث النقدية في السرقات وقد قسمها الى خمسة أقسام :

الاول : النسخ ، وهو أخذ اللفظ والمعنى برمته من غير زيادة عليه مأخوذاً ذلك من نسخ الكتاب .

الثاني : السلخ ، وهو أخذ بعض المعنى ، مأخوذا من سلخ الجلد.

الثالث : المسخ ، وهو احالة المعنى الى ما دونه ، مأخوذا ذلك من مسخ الآدميين قردة .

الرابع : أخذ المعنى مع الزيادة عليه .

الخامس : عكس المعنى الى ضده .

والنوعان الاخيران لم يذكرهما في كتابه الاستدراك ولا في كتابه عن السرقات الذي قسمها فيه الى نسخ ، وسلخ ، ومسخ . وقد تنبه اليهما في المثل السائر ، يقول : « وههنا قسمان أخللت بذكرهما في

في بيروت سنة ١٨٦٨ م وظهرت الطبعة الثانية في مطبعة الجوائب في القسطنطينية سنة ١٣٠٢ هـ (١٨٨٤م) في مجموعة التحفة البهية والطرفة الشهية ، وظهرت الطبعة الثالثة سنة ١٩٣١ مطبوعة بالمطبعة الكاثوليكية بتحقيق فؤاد افرام البستاني .

(١) المثل السائر ج٢ ص ٣٦٦ .

الكتاب الذى ألفته ، فأحدهما : أخذ المعنى مع الزيادة عليه ، والآخر : عكس المعنى الى ضده . وهذان القسمـــان ليسا بنسخ ؛ ولا سلخ ، ولا مســـــخ » (١) .

وقسم هذه الاقسام الى فروع كثيرة وجعل النسخ على ضربين :

الاول : يسمى وقوع الحافر على الحافر كقول امرىء القيس :

وقوفا بهــا صحبي عليَّ مطيهم يقولون لا تَهْلك أسىً وتَجَمَّلِ

وكقول طرفـــــة :

وقوفا بهــا صحبي عليَّ مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتَجَلَّدِ

الثانى : وهو الذى يؤخـــــذ فيه المعنى وأكثر اللفظ كقول بعض المتقدمين يمدح معبدا صاحب الغناء :

أجاد طويس والسريجي بعده وما قصباتُ السبق إلاَّ لمعبدِ

ثم قـــال أبو تمــام :

محاسنُ أصنافِ المغنين جَمَّةٌ وما قصباتُ السبق إلاَّ لمعبـدِ

وقَسَّمَ السلخ الى أحد عشر نوعا ، يقول : « وهــــذا تقسيم أوجبته القسمــة » (٢) .

الاول : ان يؤخذ المعنى ويستخرج منه ما يشبهه ولا يكون هو إيّاه . وهذا من أدق السرقات مذهبا ، وأحسنها صورة ، ولا يأتي الا قليلا ، فمن ذلك قول بعض شعراء الحماسة :

لقد زادني حباً لنفسي أنني بغيضٌ الى كل أمرىء غيرِ طائلِ

---

(١) المثل السائر ج٢ ص ٣٦٦ .

(٢) المثل السائر ج٢ ص ٣٧٣ .

أخذ المتنبي هذا المعنى واستخرج منه معنى آخر غيره الا أنه شبيه بـه فقـال :

واذا أتتك مذمتي من ناقـصٍ فهي الشهادةُ لي بأني كاملُ

الثاني : أن يؤخذ المعنى مجردا من اللفظ ، وذلك مما يصعب جدا ، ولا يكاد يأتي الا قليلا ، فمنه قول عروة بن الورد من شعراء الحماسة :

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا من المال يطرحْ نفسه كُلّ مطرحِ
ليبلغ عذراً أو ينال رغيبـةً ومبلغ نفسٍ عـذرها مثل منجحِ

أخذ أبو تمام هـذا المعنى فقـال :

فتى مـات بين الضَّرْب والطعنِ ميتةً
تقوم مقام النصر إنْ فاته النَّصْرُ

وهذا الضرب في سرقات المعانى من أشكلها ، وأدقها ، وأغربهـا ، وأبعدها مذهبا ، ولا يتفطن له ويستخرجه من الاشعـار الا بعض الخواطر دون بعض .

والثالث : وهو أخذ المعنى ويسير من اللفظ ، وذلك مـن أقبح السرقات ، وأظهرها شناعة على السارق . فمـن ذلـك قول البحتري فـى غـلام :

فوق ضعف الصغير إن وكل الام ـر اليهِ ودون كيـد الكبـار

سبقـه أبو نواس فقـال :

لم يخف من كبر عمـا يُرادُ به من الامور ولا أزرى من الصغر

الرابع : وهو أن يؤخذ المعنى فيعكس وذلك حسن يكاد يخرجـه حسنه عن حد السرقة . فمن ذلك قول ابن جعفر :

ولمـا بدا لي أنهـا لا تريدني ... وأنّ هواها ليس عني بمنجلي
تمنيتُ أنْ تهوى سواي لعلها ... تذوق صبابات الهوى فترق لي

وقال غيره :

ولقد سرّني صـدودك عني ... في طلابيـك وامتناعـك مني
حذراً أنْ أكون مفتاح غيري ... وإذا ما خلوتِ كنتِ التمني

أما ابن جعفر فانه تداءب وألقى عن منكبه رداء الغيرة ، وأما الآخر فجاء بالضد من ذلك وتغالى به غاية الغلو .

الخامس : وهو أن يؤخذ بعض المعنى ، فمن ذلك قول أمية بن أبى الصلت يمدح عبد الله بن جـدعـان :

عطاؤك زينٌ لامرىء انْ حبوته ... ببـذلٍ وما كل العطـاء يزينُ
وليس بشين لامرىء بذلُ وجهه ... اليك كمـا بعض السؤال يشينُ

أخـذه أبو تمـام فقـال :

تدعى عطاياه وفرا وهى إنْ شهرت ... كانت فخاراً لمن يعفوه مؤتنفا
ما زلت منتظراً أعجوبة زمنـا ... حتى رأيت سؤالا يجتنى شرفا

السادس : وهو أن يؤخذ المعنى فيزاد عليه معنى آخر ، فمما جاء منه قول الاخنس بن شهاب :

اذا قَصَّرَتْ أسيافنا كان وصلها ... خطانا الى أعدائنا متضـارب

أخذه مسلم بن الوليد فزاد عليه وهو قوله :

إنْ قصّر الرمح لم يَمْشِ الخطا عددا
أو عَرِد السيف لم يهمم بتعريـد

السابع : وهو أن يؤخذ المعنى فيكسَى عبارة أحسن من العبارة

الاولى ، وهذا هو المحمود الذى يخرج حسنه عن باب السرقة ، فمن ذلك قول أبى تمام :

جذلان من ظفر ، حران ان رجعت مخضوبة منكم أظفاره بدمِ

أخذه البحتري فقال :

اذا احتربت يوما ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعُها

الثامن : وهو إنْ يؤخذ المعنى ويسبك سبكا موجزا ، وذلك من أحسن السرقات لما فيه من الدلالة على بسطة الناظم في القول ، وسعة باعه في البلاغة ، فمن ذلك قول بشار :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيباتِ الفاتك اللهجُ

أخذه سلم الخاسر وكان تلميذه فقال :

من راقب الناسَ مات غَمّاً وفاز باللذةِ الجَسُورُ

التاسع : وهو أن يكون المعنى عاما فيجعل خاصا ، أو خاصا فيجعل عاما ، وهو من السرقات التى يسامح صاحبها ، فمن ذلك :

لا تَنْهَ عن خُلُق وتأتيَ مثلَه عار عليك اذا فعلت عظيمُ

أخذه أبو تمام فقال :

أألوم من بخلت يداه واغتدي للبخل قربا ؟ ساء ذاك صنيعا

العاشر : وهو زيادة البيان مع المساواة في المعنى ، وذلك بان يؤخذ المعنى فيضرب له مثال يوضحه فمما جاء منه قول أبي تمام :

هو الصنع ان يعجل فنفع وان يرث فللريثُ في بعض المواطن أنفعُ

أخذه المتنبي فأوضحه بمثال ضربه له وذلك قوله :

ومن الخير بطء سيبك عني أسرعُ السحبِ في المسيرِ الجهام

الحادي عشر : وهو اتحاد الطريق ، واختلاف المقصد • ومثاله أن يسلك الشاعران طريقا واحدة فتخرج بهما الى موردين أو روضين • وهناك يتبين فضل أحدهما على الآخر [1] •

وفي هذا الضرب تظهر قدرة ابن الاثير على التحليل ، والنقد ، وعرض الصور المختلفة ، والموازنة بينها • وقد اختار قصائد معينة وحللها وقارن بينها ، وحلل قصيدتي أبي تمام والمتنبي في رثاء طفل ، وقصيدتي البحترى والمتنبى في وصف الاسد ، وبذلك ينتقل من النظرة الجزئية الى النظرة العامة التى ترى العمل الادبي كلاً متكاملا لا يقبل التجزئة ، ولا النظرة الضيقة • ولا يرى الدكتور محمد مندور علاقة لهذا النوع بالسرقات ، وان ابن الاثير خلط بين السرقات والموازنات حرصا على كثرة الابواب واستقصائها [2] • ومن ينظر في هذا البحث يجد أنه من السرقة لا من الموازنة وان اتخذ ابن الاثير المقارنة سبيله الى ذلك • ونرى أن هذا العمل من أجل اعمال دراسة السرقات،وحبذا لو استمر ابن الاثير في هذا المنهج ليأتي بكل مايدهش، ويبعث على الاعجاب ، ولكنه اكتفى بهذه النماذج القليلة عارضا ، وموازنا ، وناقدا •

وتحدث عن السرقات في كتابيه الآخرين : « الجامع الكبير » و « الاستدراك »[3] • وكان بحث الاستدراك اكثر نضجا ، وأبعد عن تقنين القواعد والتقسيمات ، وبذلك اضاف الى هذه الدراسة أشياء كثيرة لها قيمتها في النقد والموازنات الادبية ، وقد تعرضنا لبعضه في فصل سابق • ونرى أن بحث ابن الاثير في السرقات من امتع واروع ما كتب فيها وينبغي ان نتبعه في بحثها وفي كل موازنة تعقد بين أديبين

---

(١) المثل السائر ج٢ ص ٣٧١ وما بعدها .

(٢) النقد المنهجى عند العرب ص ٣٦٨ — ٣٦٩ .

(٣) الجامع الكبير ص ٢٤٢ وما بعدها ، والاستدراك ص ٩ وما بعدها وص ٦١ وما بعدها .

تأثر أحدهما بالآخر • وكان ابن الاثير في هــذا الميدان واسع الأفق ، عظيم الادراك ، وقدجاء بالكثير مما لم يفعله غيره ،يقول:«وقد أوردت في هذا الموضوع من السرقات الشعرية ما لم يورده غيرى ، ونبهتعلى غوامض منها »[1] • وهذا حق ، لانه استفاد فائدة عظيمة ممن سبقوه كالجرجانى والآمـــدي •

واحتضرت المواهب وكادت تموت بعـــد ابن الاثير ، وانصرف البلاغيون والنقاد الى العبث ، والتفلسف في البحث ، وَحَشْرِ ما لا يمت الى البلاغة والنقد بصلة امعانا في التعقيد والفلسفة وعلم المنطق ، فاخرجوها عن اهدافها الادبية ، وكان نصيب السرقات كنصيب فنــون الادب الاخرى فاصابها الجمود وصارت قواعد لا تغني كثيرا •

(١) المثل السائر ج٢ ص ٣٧١ •

٢

السرقات في عصر القزويني :

وشاعت السرقات في عصر القزويني ، وألفت الكتب فيها ، وكانت مثارا لحركة نقد محمودة . ومن لطيف ما قال مجير الـــدين بن تميم (٦٨٤ هـ) منوها بسرقاته وتضميناته :

أطـــالع كُلّ ديوانٍ أراه ولم أزجر عن التضمين طيري
أُضَمِّنُ كل بيت فيـه معنى فشعري نصفه من شعر غيري(١)

واشتهرت سرقات ابن نباتة من علاءالدين الوادعي (٧١٦هـ) ، وسرقات صلاح الدين الصفدي من ابن نباتة . ولما وقف جمال الدين بن نباتة على سرقات الصفدى منه ألف في ذلك كتابا أسمـــاه « خبز الشعير » لانه مأكول مذموم ، وقد نقد الصفدي فيه ، وأورد كثيرا من سرقاته واستهل الحديث بقوله : « رَبِّ اغفر لي ولوالديَّ ولمن دَخَل بيتي مؤمنـــا »(٢) .

ويلاحظ أن أدباء هذا العصر لم يهتموا بدراسة السرقات النثرية ، وانما اتجهوا اتجاها تاما الى دراسة السرقات الشعرية وان كـــــان

(١) فوات الوفيات ج٢ ص ٣٤٠ .
(٢) سورة نوح الآية ٢٨ . ينظر عصر سلاطين المماليك ج٦ ص ١٢١ .

القلقشندى قد ربأ بالكاتب أن يسرق من غيره معناه ولفظه ، ولم يمنع أن يأخذ بعض الفقرات ويحور فيها بما يناسب كـــــلامه ، وما يشعر بذوقـــــــه [1] .

القزويني والسرقات :

ولم يترك القزويني وهو من أعلام القرن السابع البحث في السرقات، فدلا بدلوه ، وألحقها بالبديع ، فبعد أن انتهى من بحث فنون البـــديع المختلفة ذكر ان للبديع ملحقات ينبغي أهمالها وملحقات لا مانع مـــــن ذكرها وهي : القول في السرقات الشعرية وما يتصل بها ، والقول فـــي الابتداء والتخلص والانتهـــاء . وهذا اتجاه جديد بالنسبة لدراســـة السرقات ، وقد رأينا ان المتقدمين تكلموا عليها مع فنون البلاغة والنقد الاخرى ولم يجعلوها من البديع أو يلحقوها به ، وإن كـــــان بعض الباحثين يرى ان ابن وكيع (٣٩٣ هـ) أول من ربط بين السرقات وعلم البديع في دراسة منهجية وسار على منهجه ابو هلال وابن رشيق [2] . والواقع أن هؤلاء لم يجعلوه من البديع الذى فهمـــه المتأخرون ، لان البديع عندهم فنون البلاغة كلها قبل ان يقسمها السكاكي الى معانٍ ، وبيانٍ ، ومحسنات . وقد أثار العلوى هذه المشكلة وتساءل قـــائلا : « هل تعد السرقة الشعرية مـــن علم البديع أم لا ..؟ وأجـــــاب ان للمسألـــــة وجهـــين :

أحدهما : أنها تكون معدودة فيه ، لان كل واحد من الســــــابق واللاحق ، انما يتصرف في تأليف الكلام ، ونظمه ، وترديده بين الفصيح والافصح ، والاقبح والاحسن ، وهذه هي فائدة علم البديع وخلاصة جـــوهـــــره .

وثانيهما : أنها غير معدودة في علم البديع ، لان معنى السرقة هو

---

(١) ينظر صبح الاعشى ج٢ ص ٢٢٩ .

(٢) مشكلة السرقات ص ١١٨ ، ١٦١ ، ١٧٩ .

الاخذ ، ومجرد الاخذ لا يكون متعلقا باحوال الكلام ولا بشيء من صفاته فلاجل هذا لم تكن معدودة في علم البديع[1] .

واختار العلوى الاول وهو عدها من جملة اصناف البديع وأكّدَ هذا بقوله : « والبرهان القاطع على ما ذكرناه هو ان علم البديع أمر عارض لتأليف الالفاظ ، وصوغها ، وتنزيلها على هيئة تعجب الناظر ، وتشوق القلب والخاطر . وهذا موجود في السرقات الشعرية ، فان الشاعرين المفلقين يأخذ كل واحد منهما معنى صاحبه ، ويصوغه على خلاف تلك الصياغة ، ويقلبه على قالب آخر ، فاما زاد عليه وأما نقص عنه . وكل ذلك انما هو خوض في تأليف الكلام ونظمه ، وإذَنْ الأخلق عدها منه لما ذكرناه ، بل هى اخلق بذلك ، لانا اذا عددنا الطباق ، والتجنيس ، والترصيع ، والتصريع ، من علوم البديع مع انها انما اختصت بما اختصت به من التأليف وتنزيلها على تلك الهيئات من لسان واحد فكيف حالها اذا كانت مختصة بما ذكرناه من لسانين على هيئتين مختلفتين »[2] .

ولا نذهب الى ما ذهب اليه العلوي والقزويني في اعتبار السرقات الشعرية من البديع او ملحقة به ، لان هذا الفن باب اصيل من ابواب النقد له اصوله وفروعه ، وهو ليس حلية تقتسر لتزيين الكلام وتنميقه وانما هو باب واسع يجول فيه الناقد جولات ، فيوازن ، ويحلل ، ويشير الى الاخذ والاتفاق ، والى الابداع والاتباع ، وكيف يكون جزء منه ، وفيه من العيوب ما لا يرضاه البديع ولا تقبله الزينة البديعية التي وقف عندها المتأخرون ، كالنسخ . ولعل بحث ابن المعتز لحسن التضمين في كتاب البديع هو الذي دفع المتأخرين الى ان يعتبروا السرقات من علم البديع أو ملحقاته .

---

(١) الطراز ج٣ ص ١٨٩ .

(٢) الطراز ج٣ ص ١٨٩ — ١٩٠ .

ونرى ان يكون هذا البحث فنا مستقلا من فنون البلاغة والنقد لا ان يلحق بالبديع او بغيره من فنون البلاغة ، لانه موضوع هام ولان السرقات « ليست مشكلة صياغة وتباين في أوجه البديع فحسب ، ولكنها تطور المعنى من عصر لعصر ، ومن شاعر لآخر مما يخرج عن نطاق علم البديع »[1] . وليس ما ندعو اليه بجديد فقد بحثه المتقدمون على هذا الاساس ، وادخله ابن الاثير في ابواب الصناعة المعنوية الى جانب التشبيه ، والاستعارة ، والكناية ، والتقديم والتأخير ، والالتفات ، وبذلك كانت نظرته اليه نظرةً واسعة ، نظرةً فيها فهم عميق لاهمية هذا الموضوع وعلاقته بفنون البلاغة والنقد الاخرى .

ولم أرَ قبل القزويني من ربط السرقات بعلم البديع وجعلها ملحقة به ، وان كل من كتب فيها اعتبرها فنا من فنون البلاغة الاخرى ، ولم استطع ان اضع يدي على الكتاب الذي استفاد منه في هذا الموضوع والتقسيم ، فالسكاكي لم يتكلم على السرقات في كتابه «مفتاح العلوم» مطلقا ، ولا ندري كيف جاز للاستاذ محمد مصطفى هدارة ان يقول : « أن جمود السرقات قد بدا واضحا في كتاب السكاكي »[2] . ولعله ظن ان القزويني لم يضف شيئا في تلخيصه للمفتاح على ما ذكره السكاكي فوقع في هذه الشبهة ، وبذلك كان القزويني اول من الحقها بالبديع — فيما نعلم — وعلّل ابن يعقوب المغربي سبب الحاق القزويني للسرقات وحسن الابتداء بالبديع فقال : « وانما جمع هذه الاشياء في الخاتمة ، ولم يجعلها بابا من البديع او يجعل كل واحد منها بابا على حدة لوجهين :

أحدهما : أن كلا منها ليس أمرا يعم كل كلام ويغلب مكان جريانه في كل موطن ، أما في السرقات فظاهر لخروج النثر فيما يتصل بها لاختصاصها بالاخذ عن الغير ، واما في الابتداء والانتهاء والتخلص

---

(١) مشكلة السرقات ص ١٤٤ .

(٢) مشكلة السرقات ص ١١٩ .

فلخروج ما ليس في تلك المحال ، وهذا الوجه بعينه يمكن ان يجعل هو السر في جمعها لاشتراكهـا فيـه .

والوجه الثاني : ان الحسن فيها دون الحسن في غيرها مع سهولة التناول فلم تجعل بابا لقلة الاهتمام بشأنها ويسرها باعتبار غيرهـا وان كان الناس يهتمون بامورها ، أما في السرقات فلما علم من ان الابتداع ارفع واصعب من الاتباع ، وان كان فيه تغيير ما وكذا فيما يتعلق بها ، واما في الابتداء وما والاه فلما علم من ان رعاية تمام الحسن في جميع أجزاء الكلام أعلى واصعب ، ويمكن جعل هذا ايضـا هو السر فـي جمعهـا » (1) .

ومهما حاول انصار البديع ان يدعموا رأيهم ويبرهنوا على وجهـة نظرهم ، فان السرقات الشعرية تبقى فنا قائما بذاته الى جـانب فنون البلاغة ، ولا يمكن ان تعتبر خاتمة للبديع او ملحقة به . وان ما ذهب اليه بعضهم من ان هذا الفن لا يحتاج الى كبير عناء لا اسـاس له لان المتقدمين بذلوا في بحثه كل جهد وصرفوا كل طاقة وأشاروا الى ما فيه من صعوبة ، والى ما يحتاج اليه من اعتناء واهتمام ، وقد قـال ابن الاثير : « ومن المعلوم ان السرقات الشعرية لا يمكن الوقوف عليها الا بحفظ الاشعار الكثيرة التى لا يحصرها عدد فمن رام الاخذ بنواصيها والاشتمال عليها على قواصيها بان يتصفح الاشعار تصفحـا ويقتنع بتأملهـا نـاظـرا » (2) .

واذا كانت السرقات لا قيمة لها وكانت من اليسر والسهولة بمكان، فلماذا أفرد المتقدمون كتبا فيها ، وذكروا انواعها ، ووازنوا بين الشعراء وبيّنوا كل ما يتعلق بالابتداع والاتباع ، واوضحوا السرقات ،ودلوا عليها ، وارجعوها الى اصحابها ، وكانت مثار جدل ونقاش ، واختلاف في الرأى طوال القرون الماضية، واصبحت في العصر الحديث فصلا مهما من فصول النقد الادبى، وبحثاً له قيمته في الدراسات الادبية الحديثة.

---

(1) مواهب الفتاح ج٤ ص ٤٧٥ .

(2) المثل السائر ج٢ ص ٣٦٦ .

٣

ما السرقـــــة ؟

وقد ابتدأ القزويني بحث السرقات بالكلام على انواع الاتفاق فذكر ان اتفاق القائلين ان كان الغرض على العموم كالوصف بالشجاعـــة والسخاء والبلادة والذكاء فلا يعد سرقة ولا استعانة ولا نحوهما ، لان هذه امور متقررة في النفوس متصورة للعقول يشترك فيهـا الفصيح والاعجم ، والشاعر والمفحم . وان كان في وجــه الدلالة على الغرض ــ وينقسم الى اقسام كثيرة ــ منها التشبيه بما توجد الصفة فيه على الوجه البليغ ، ومنها ذكر هيئات تدل على الصفة لاختصاصها بمن لــه الصفة ، كوصف الرجل حال الحرب بالابتسام وسكون الجوارح وقلة الفكر كقولـــه :

كأنَّ دنانـــيراً على قسماتهم وان كان قد شف الوجوه لقاء

وكذا وصف الجواد بالتهلل عند ورود العفاة والارتياح لرؤيتهم ، ووصف البخيل بالعبوس وقلة البشر على سعة ذات اليد ومساعـــدة الدهر . فان كان مما يشترك الناس في معرفته لاســتقراره في العقول والعادات كتشبيه الفتاة الحسنة بالشمس والبدر ، والجواد بالغيــث والبحر ، والبليد البطيء بالحجر والحمار ، والشجاع الماضي بالسيف والنار ، فالاتفاق فيه كالاتفاق في عموم الغرض .

وان كان مما لا ينال الا بفكر ، ولا يصل اليه كل أحد فهذا الذي يجوز ان يدعى فيه الاختصاص والسبق ، وان يقضى بين القائلين فيه بالتفاضل وان احدهما فيه افضل من الآخر وان الثانى زاد على الاول او نقص عنه ، وهذا نوعان :

أحدهما : ما كان في أصله خاصيا غريبا .

والثاني : ما كان في اصله عاميا مبتذلا ، لكن تصرف فيه بما اخرجه من كونه ظاهرا ساذجا الى خلاف ذلك .

اقسام السرقة :

وبعد ان قدم هذا التمهيد للسرقات ، قَسَّمَ الاخذ والسرقة الى نوعين : ظاهر وغير ظاهر ، فالاخذ الظاهر هو ان يؤخذ المعنى كله ، اما مع اللفظ كله او بعضه ، واما وحده ، وتكلم على أنواع الاخذ الظاهر وهو ثلاثة أضرب :

الاول : الانتحال أو النسخ ، وذلك اذا أخذ الكلام كله من غير تغيير لنظمه فهو مذموم مردود ، لانه سرقة محضة كما حكي ان عبد الله بن الزبير دخل على معاوية فأنشده :

إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته على طرف الهجران ان كان يعقلُ
ويركب حد السيف من ان تضيمه اذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل

فقال له معاوية : لقد شعرت بعدى يا أبا بكر . ولم يفارق عبد الله المجلسَ حتى دخل معن بن أوس المزني فأنشد كلمته التي اولها :

لعمرك ما ادري واني لأوجلُ على أينا تعدو المنية أولُ

حتى أتى عليها وفيها ما أنشده عبدالله فأقبل معاوية على عبدالله وقال له : ألم تخبرني أنهما لك ، فقال المعنى لي واللفظ له ، وبعد فهو

أخي من الرضاعة وأنا أحق بشعره .

وروي لبعض المتقدمين يمدح معبداً :

أجاد طويس" والسريجيُّ بعده ... وما قصباتُ السبق إلا لمعبدِ

ولأبى تمـــــام :

محاسنُ أصناف المغنين جمَّةٌ ... وما قصباتُ السبقِ إلا لمعبدِ

وفي هذا المعنى ما كان التغيير فيه بابدال كلمة أو اكثر بما يُرادِفُها كقـــول امرىء القيس :

وقوفاً بها صحبي عليَّ مطيهم ... يقولون: لا تهلك أسى وتَجَمَّلِ

وقـــول طرفـــــة :

وقوفاً بهـــا صحبي عليَّ مطيهم ... يقولون لا تهلك أسى وتَجَلَّدِ

وهذا النوع معيب باتفاق النقاد ، وليست له قيمة ، ويؤاخذ عليه، وهذا الذي سماه النقاد وابن الاثير : « وقوع الحافر على الحافر » .

والثانى : الاغارة أو المسخ ، وذلك ان كان مع تغيير لنظمه أو كان المأخوذ بعض اللفظ . فان كـــان الثانى ابلغ مـــــن الاول لاختصاصه بفضيلة كحسن السبك ، أو الاختصار ، او الايضاح أو زيادة معنى ، فهو ممدوح مقبول كقول بشار :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته ... وفاز بالطيباتِ الفاتك اللهجُ

وقول سلـــم الخــــاسر :

من راقب الناسَ مات غَمًّا ... وفاز باللذةِ الجَسورُ

فبيت سلم أجود ســـبكا وأخصر .

وكقـول الآخـر :

خلقنا لهم في كل عينٍ وحاجبٍ　　بِسُمرِ القنا والبيض عيناً وحاجبا

وقول ابن نباتـة بعـــده :

خلقنا بأطراف القنافي ظهورِهم　　عيوناً لها وقع السيوف حواجب

فبيت ابن نباتة أبلغ ، لاختصاصه بزيادة معنى وهو الاشـارة الى انهزامهم . ومن الناس من جعلهما متساويين .

وان كان الثـاني دون الاول في البلاغة فهو مذموم مردود كقول أبـي تمـام :

هيهات لا يأتي الزمان بمثله　　إنَّ الزمانَ بمثله لبخيلُ

وقـول المتنبـي :

أعدَى الزمانَ سخاؤه فسخا به　　ولقد يكون به الزمـانُ بخيـلا

فان مصراع أبي تمام أحسن سبكا من مصراع ابى الطيب ، لقـد أراد أن يقول : « ولقد كان الزمان به بخيلا » فعدل عن المـاضي الى المضارع للوزن . وان كان مثله فالخطب فيه أهون ، وصـاحب الثاني أبعد من المذمة والفضل لصاحب الاول كقول الشاعر :

يا قوم اذني لبعض الحي عاشقة　　والاذنُ تَعْشَقُ قبل العينِ أحيانا

وقول ابن الشحنة الموصلي :

وإني امرؤ أحببتكم لمكارم　　سمعت بها والاذن كالعين تعشق

وكقول القاضي الارجـاني :

لم يبكني إلاّ حديث فراقكم　　لما أسر بـــه الَيّ مـودعي

هو ذلك الـــدر الذي أودعتم   في مسمعي ألقيتـــه من مدمعي

وقول جـار الله الزمخشرى :

وقائلة : ما هـــذه الدرر التي   تساقطها عيناك سمطين سمطين
فقلت:هي الدر الذي قد حشا به   أبو مضـر أذني تساقط من عيني

وذكر في هذا الضرب نوعا قبيحا جدا ، وهو ما يدل على السرقـة باتفاق الوزن والقافية كقول ابى تمـام :

مقيم الظن عنـــدك والاماني   وان قلقت ركابي في البـــلاد
ولا سافرت في الآفـــاق الا   ومن جـــدواك راحلتي وزادي

وقـــول المتنبـي :

واني عنـك بعـد غـد لغـاد   وقلبي عن فنـائك غير غـــاد
محبك حيثما اتجهت ركـــابي   وضيفك حيث كنت من البـلاد

والثالث : الالمام أو السلخ وهو ان يكون المأخوذ المعنى وحده وهو ثلاثـة أنواع :

اولهـا ، كقول البحتـري :

تصد حياءً ان تراك باوجـه   اتى الذنب عاصيها فليم مطيعها

وقـــول المتنبـــي :

وجرمٍ جرّه ســـفهاء قوم   وحل بغير جارمه العذاب

فان بيت ابى الطيب احسن سبكا وكأنه اقتبسه من قولـه تعالى : « أتُهْلِكُنا بما فَعَلَ السفهاءُ مِنّا ؟ »[1] .

---

(١) سورة الاعراف ، الآيـة ١٥٥ .

وثانيها ، كقول بعض الاعراب :

وريحها أطيب من طيبهـا　　　　والطيـب فيه المسك والعنبرُ

وقـــول بشـــار :

واذا أدنيت منــه بصـــلا　　　　غلب المسك على ريح البصل

وقـــول أشجـع :

وعلى عدوك يابن عم محمـد　　　　رصدان : ضوء الصبح والاظلامُ
فاذا تنبـه رعتـه واذا هـدا　　　　سلت عليه سيوفك الاحـلامُ

وقـول أبي الطيب :

يرى في النوم رمحك في كلاه　　　　ويخشى أن يراه في السهـاد

وثالثها ، كقول الاعرابي :

ولم يك اكثر الفتيان مـالا　　　　ولكن كان أرحبهم ذراعا

وقـــول أشجـع :

وليس بأوسعهم في الغنى　　　　ولكـن معروفه أوسع

وأما الأخذ غير الظاهر فمنه ان يتشابه معنى الاول ومعنى الثاني كقـول الطرمـاح :

لقـد زادني حبـا لنفسي أنني　　　　بغيض الى كلِ امرىء غيرِ طائلِ

وقـول المتنبـي :

واذا أتتك مذمتي من نـاقصٍ　　　　فهي الشهادة لي بأنّي كاملُ

وأوضح من ذلك قول جرير :

فلا يمنعك من أرب لحـاهم　　　　سواء ذو العمامة والخمـار

وقـول المتنبـــي :

ومن في كفه منهم قنـــاة　　　كمن في كفـه منهم خضابُ

يقول القزويني : « ولا يغرك مـــن البيتين المتشابهين أن يكون أحدهما نسيبا ، والآخر مديحا أو هجاء أو افتخارا أو غير ذلك ، فـان الشاعر الحاذق اذا عمد الى المعنى المختلس لينظمه تحيَّل في اخفـائه فَغَيَّر لفظه ، وعدل به عن نوعه ووزنه وقافيته » (١) .

وعد ابن الاثير هـــذا النوع من السلخ ، وهو ان يؤخذ المعنى ويستخرج منه ما يشبهه ولا يكون هو إيّاه ، وهذا من أدق السرقات مذهبا ، وأحسنها صورة ، ولا يأتى الا قليلا (٢) .

ومنه النقل،وهو أن ينقل معنى الاول الى غير محله كقول البحتري:

سلبوا وأشرقت الدماء عليهم　　　محمرة فكأنهم لم يسلبوا

نقله المتنبي الى السيف فقـال :

يبس النجيع عليه وهو مجردٌ　　　عن غمده ، فكأنما هو مُغْمَدُ

ومنه أن يكون معنى الثاني أشمل من معنى الاول كقول جرير :

إذا غضبت عليك بنو تميم　　　وجدت الناس كُلَّهم غِضابا

وقول أبى نواس :

ليس على الله بمستنكرٍ　　　أنْ يجمعَ العالمَ في واحدِ

ومنه القلب،وهو أن يكون معنى الثاني نقيض معنى الاول،سُمِّيَ

---

(١) الايضاح ص ٤١٣ .

(٢) المثل السائر ج٢ ص ٣٧٣ .

بذلك لقلب المعنى الى نقيضه كقول أبي الشيص :

أجد الملامة في هواك لذيذة حبا لذكرك فَلْيَلُمْني اللوَّمُ

وقول أبي الطيب :

أأحبه وأحب فيه ملامة إنَّ الملامةَ فيه من اعدائه

ومنه أن يؤخذ بعض المعنى ويضاف اليه زيادة تحسنه كقول الأفوه الاودي :

وترى الطير على آثارنا رأي عين ثقة ان ستمار

وقول أبي تمام :

وقد ظللت عقبان أعلامه ضحى بعقبان طيرٍ في الدماء نواهلِ
أقامت مع الرايات حتى كأنّها من الجيش ، الا أنها لم تقاتلِ

وهذه الانواع ونحوها اكثرها مقبولة .

ومنها ما أخرجه حسن التصرف من قبيل الاخذ والاتباع الى حيز الاختراع والابتداع ، وكلما كان اشد خفاء كان اقرب الى القبول ، وهذا خير انواع الاخذ ، ولكن متى يحكم على أحد الشاعرين بالاخذ ..؟

لم يترك القزويني هذه النقطة من غير ان يشيرَ اليها ، ويضع لها حكما وهو القاضي الذى شهدت له محافل دمشق والقاهرة بالعدل والانصاف وحسن السيرة ،ولم يكن ليلقي القول جزافا في السرقات لانه كثيرا ما تتوارد الخواطركما يحكىعن ابن ميادةانه انشد لنفسه:

مفيد ومتلاف اذا ما أتيته تهلل واهتز اهتزازَ المهنّدِ

فقيل له : أين يذهب بك ؟ هذا للحطيئة . فقال : الآن علمت أني

شاعر اذ وافقته على قوله ولم اسمعه . وتوارد الخواطر لا يمكن انكاره فاللغة الواحدة ، والبيئة الواحدة ، والجنس الواحد ،والثقافة الواحدة قد تؤدي الى ان يفكر اكثر من اثنين بمسألة واحدة ، وأن ينطقوا بعبارات واحدة ، وقد يصدرون عن نزعة انسانية مشتركة ليس لاحد فيها فضل السبق . ولذلك فالحكم بالسرقة ليس سهلا الا اذا علم بان الثانى كان يحفظ كلام الاول ، أو أخبر هو عن نفسه أنه أخذه منه وهو بذلك لا يدين الثانى بالسرقة والاخذ من غير دليل ، يقول : « ولهذا لا ينبغي لاحد بت الحكم على شاعر بالسرقة ما لم يعلم الحال ، وإلا فالذي ينبغي ان يقال : قال فلان كذا ، وقد سبقه اليه فلان فقال كذا ، فيغتنم به فضيلة الصدق ، ويسلم من دعوى العلم بالغيب ، ونسبة النقص الى الغير »[1] . وهذا شأن القاضي الذى يحكم بين الناس بالعدل ، وقد اتبع القاضي الجرجانى صاحب « الوساطة » من قبل هذه السبيل فكان منصفا عادلا .

والقزوينى متأثر الى حد كبير بالمتقدمين في بحث السرقات ، وقد استفاد ــ كما يبدو جليا ــ من « الوساطة » و « كتاب الصناعتين » وكتابى « أسرار البلاغة » و « ودلائل الاعجاز » و « المثل السائر »، ولكننا لا نقبل ما ذهب اليه الاستاذ هدارة قبولا تاما حيث قال : « الملاحظ في كتاب القزوينى وفي الشروح جميعا نقلهم المباشر لكلام عبد القاهر الجرجانى في اتفاق القائلين في الغرض على العموم أو في الدلالة على الغرض »[2] ، لاننا رأينا ان عبد القاهر لم يبحث الموضوع بهذه الطريقة ولم يقسمه هذه التقسيمات ، وان الحديث عن اتفاق القائلين في الغرض أو في الدلالة عليه قديم ، واننا لنجده في الوساطة والموازنة . ويمكن القول ان القزوينى استفاد من عبد القاهر الى حد ما ، أما استفادته الكبيرة فقد كانت من « الوساطة »

(١) الايضاح ص ٤١٥ ــ ٤١٦ .
(٢) مشكلة السرقات ص ١١٩ .

و « الصناعتين » و « المثل السائر » • ونستطيع على ضوء ما تقدم أن نعرف العبارات التى نقلها عن الوساطة بكل سهولة ، وهى تدل على نفسها اذا ما قورنت بالكلام الذى ذكرناه عن المتقدمين •

والجدير بالذكر اننا نجد القزويني لا يتابع احدا في التقسيم وان نقل عبارات او امثلة من غيره ، ونحن لا نجد عند غيره هذا التقسيم الثنائي ، الاخذ الظاهر والاخذ الخفي ، فابن الاثير ــ مثلا ــ مع تفصيلاته الكثيرة وتعمقه في البحث ــ لم يقسمها هذا التقسيم ، وانما جمع أضرب الاخذ الخفى في بحث السلخ واعتبرها انواعا منه •

وقد وفق القزوينى في بحث السرقات الى حد ما ، بيد أنَّ لنا ملاحظة تتعلق بطريقة العرض وهى انه لم يهتم بالموازنة والتحليل اهتماما كبيرا ، وكانت اشارته الى الموازنة بين بيت وآخر قليلة وحتى اذا وجدت ، فهى التفاتات جزئية لا تنظر الى الكل نظرة عامة فتوازن، وتحسن التعليل والتحليل • وهذه النظرة لم ينفرد بها القزوينى وحده وانما هى نظرة اكثر نقاد العرب • وحبذا لو استفاد القزوينى من موازنات ابن الاثير في الضرب الحادى عشر من السلخ حينماقارن بين قصيدتى ابى تمام والمتنبى في رثاء طفلين ، وبين قصيدتى البحترى والمتنبى في وصف الاسد ، فقد اتسعت نظرته في هذا البحث ، ورأى القصائد وحدة متكاملة بما فيها الالفاظ ، والمعانى ، والصور الادبية، وبما بينها من اتفاق ، وافتراق ، واتباع ، وابتداع •

وألحَق القزويني ببحث السرقات الاقتباس، والتضمين، والعقد، والحل، والتلميح • وهى موضوعات بحثها المتقدمون ، وافردوا لكل منها فصلا أو بابا كابن الاثير الذى تكلم على الحل والعقد في الفصل العاشر من مقدمة المثل السائر ، وبحث التضمين في الفصل السابع والعشرين من المقالة الثانية المتعلقة بالصناعة المعنوية •

وختم القزوينى بلاغته بالبحث في حسن الابتداء والتخلص

والانتهاء ، يقول : « ينبغي للمتكلم ان يتأنق في ثلاثة مواضع من كلامه حتى تكون أعذب لفظا واحسن سبكا واصح معنى . الاول : الابتداء ، لانه اول ما يقرع السمع فاذا كان كما ذكرنا أقبل السامع على الكلام فوعى جميعه وان كان بخلاف ذلك اعرض عنه ورفضه وان كان في غاية الحسن ...

والثاني : التلخيص ، ونعني به الانتقال مما شبب الكلام به من تشبيب أو غيره الى المقصود مع رعاية الملاءمة بينهما ، لان السامع يكون مترقبا للانتقال من التشبيب الى المقصود كيف يكون .؟ فاذا كان حسنا متلائم الطرفين ، حرّك من نشاط السامع وأعان على اصغائه الى ما بعده ، وان كان بخلاف ذلك كان الامر بالعكس ..

الثالث : الانتهاء لانه آخر ما يعيه السامع ويرتسم في النفس فان كان مختارا كما وصفنا جبر ما عساه وقع فيما قبله من التقصير ، وان كان غير مختار كان بخلاف ذلك وربما انسى محاسن ما قبله » (١) .

وليس في بحث القزويني لهذه الموضوعات جديد ولذلك لم تقف عليها ، ونرى ان العودة الى كتب المتقدمين أجدى وانفع ، فقد بحثها ابن الاثير في « المثل السائر » و « الجامع الكبير » بحثا موفقا ، وعرضها عرضا حسنا ، وذكر الامثلة الرائعة ، وقارن ، وحلل ،وبذلك اعطى للموضوعات قيمة كبيرة ، أما القزويني فقد جعلها قواعد جامدة ، وامثلة لا تنبض بالحياة .

* *

هذه بلاغة القزويني ، وهو يمثل فيها النقاد البلاغيين ، ويعتبر عمدتهم في العصر المملوكي . وقد وقفت البلاغة عندها ولم يأت المتأخرون بشيء جديد الا ما كان من شرح ، وتوجيه ، والتفاتات

---

(١) الايضاح ص ٤٢٨ ــ ٤٣٥ .

تقـدية لا تكـّون اتجاها ، أو ترسم منهجـا خاصا • ولعل ابن قيم الجوزية ، والعلوى ، وبهاء الدين السبكى، وابن حجة الحموى أشهر النقاد البلاغيين الذين جاؤا بعدالقرنالسابع الهجرى • وكان للقزوينى تأثير واضح في توجيه البلاغة العربية ويتجلى هـذا الاثر بوضوح في شروح التلخيص التى سيطرت على مجالس الدرس بعد القزوينى •

فما هذه الشروح ؟ وما قيمتها ؟ وما قيمة بلاغة القزويني ••؟



الباب الثالث

شروح التلخيص

الفَصل الأول

شروح التلخيص

١

النقد والبلاغة في عصر القزويني :

لقد شغل الناس بكتاب « مفتاح العلوم » للسكاكى ، فطفقوا يضعون عليه التلخيصات والشروح ، وكان المشرق اول من خطا هذه الخطوات ، لان المفتاح ولد فيه ، ومنه انتشر الى الاقاليم الاسلامية والعربية فدخل مصر والشام ، ووضع بدر الدين بن مالك كتاب « المصباح » وكتاب « روض الاذهان » تلخيصا للقسم الثالث منه ، وتوالى بعده الشرح والتلخيص حتى ايامنا .

وكان الخطيب القزويني من اعظم الذين هذّبوا المفتاح ، ورتبوه ، وصاغوه صياغة جديدة ، فيها من روح السكاكى التحديد والتقسيم والحصر المنطقى ، ومن روح مصر والشام تحكيم الذوق والسير في العرض والتحليل . ولا نريد هنا ان نتحدث عن معاصرى القزوينى ممن عاشوا في البيئة المشرقية ، لانه لم تكن له صلة بهم لبعد الدار

واختلاف الحياة . ففى شيراز ولد محمود بن مسعود بن مصلح ابو الثناء قطب الدين الشيرازى سنة ٦٣٤ هـ ، وشرح مفتاح العلوم بكتاب سماه « مفتاح المفتاح » . ولو رجعنا الى نسخته المحفوظة في مكتبة الاوقاف العامة ببغداد لوجدنا الرجل لم يبعد كثيرا عن منهج السكاكى ، وأنّى له ذلك وهو يشرح القسم الثالث من مفتاح العلوم؟ وليس في هذا الشرح مسحة ادبية فهو وليد البيئة المشرقية التى غلبت عليها العجمة وسيطرت عليها النزعة العقلية المحضة . وقد أوغل الشيرازى في التمحلات فهو يرى ان صاحب علم المعانى يحتاج الى معرفة انواع الدلالات كما يحتاجها صاحب علم البيان عند تقسيمه البيان الى فنونه المختلفة ، يقول : « وصاحب علم المعانى وان احتاج الى معرفة الدلالات لكن بالذات ، لانه ينظر في مدلولات الدلالات أي فيما يفيد منها التراكيب ليختص بعلم المعانى وهو ينظر في اقس الدلالات فلهذا قال ــ أي السكاكى ــ « فضل احتياج » ليعرف ان لصاحب علم المعانى احتياجا الى معرفة انواع الدلالات ولكن لا الى تلك الغاية »[1] . والشيرازي معاصر للقزويني لانه توفي في الرابع عشر من شهر رمضان سنة ٧١٠ هـ ، ولكننا لم نر في كتب القزوينى اشارة اليه او نقلا عنه ، وان التشابه بين الرجلين في المنهج او المادة مرجعه كتاب مفتاح العلوم الذى عكف الرجلان عليه فشرحه الاول ، ولخّصه ثمّ شرحه الثانى .

وعاصر محمد بن النحوية (٧١٨ هـ) الخطيب القزوينى ، فقد ولد بحماة سنة ٦٥٩ هـ ، وانتقل الى دمشق ، ولقي القزوينى فيها . وقد سبق ان ذكرنا ان القزوينى قابله في دمشق وسأله عن قول ابى النجم « كله لم اصنع » من جهة تقديم حرف السلب وتأخيره فما أجاب بشيء يعتد به . واختصر ابن النحوية « المصباح » لبدر الدين ابن مالك وسماه « ضوء المصباح » وشرحه بعد ذلك شرحا لطيفا .

---

(١) مفتاح المفتاح ص ٢٩١ .

وليس بين القزويني وهذا الرجل علاقة ، وكل ما بينهما من تشابه ان القزويني استفاد من بدر الدين فنقل من مصباحه بعض المسائل كما رأينا ، وقد لخص ابن النحوية المصباح وشرحه ، فكان لا بد أن يلتقي الرجلان في كثير من الامور .

ولن نذهب بعيدا في البحث عن معاصري القزويني وسنكتفي ببعض الامور لنرى ما كان في عصره وفي بيئته من نشاط في النقد الادبي والبلاغة .

لقد كانت هذه البيئة محط انظار العالم ، إذْ بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ اتجه الناس اليها ينهلون العلم من معاهدها ، ويأخذون عن علمائها المنتشرين في مصر والشام والاقاليم العربية الاخرى ، ونشطت الحركة النقدية في هذا العصر وانقسم النقد الى قسمين : نقد بلاغي ، ونقد ادبي ، وكان النقد وليد هذه البيئة التي غلبت عليها أساليب معينة ، ويكاد معظم الادباء في هذا العصر لا يخرجون عما رسمه القاضي الفاضل (٥٩٦ هـ) كبير ادباء العصر الايوبي ، وما خطه شاعر الاقليم المصري جمال الدين بن نباتة (٧٦٨ هـ) ، وكان لا بد للنقد أن يتابع الادب في هذا الاتجاه ، وأن يستخلص أحكامه منه كما اخذ احكامه من الادب في عصوره الاولى . ولما كان الادب في هذه الفترة يميل الى الزخرفة والاهتمام بالمحسنات ، وجدنا النقد والبلاغة تؤكد عليها ، وتجعلها الهدف الاسمى في نقد الادب واصدار الحكم عليه .

وانتعشت الحياة الادبية والنقدية لاهتمام السلاطين والامراء بالحركة العلمية ، وبعث الروح الادبية في كل مجال . ولم يكن هذا لان السلاطين والحكام كانوا يتذوقون الادب ، ويحسون بجماله ولكن ليكون لهم عونا في الملمات ، وليتخذوا منه دعاية في كل مكان ، ولاجل هذا قربوا العلماء ، وشجعوا الادباء ، واجزلوا لهم الهدايا والعطاء ،

وثارت بين الادباء المناقشات، وطال الجدل في الادب، وانقسم الناس مذاهب شتى، فمنهم من كان يفضل طريقة القاضي الفاضل في الكتابة واتجاه ابن نباتة في الشعر، ومنهم من حمل عليها واعتبرها مفسدة للادب. وكانت مجالس السلاطين والحكام والامراء وغيرهم من الادباء والعلماء ميدانا للحركة النقدية والادبية. وفي كتب التاريخ والادب نماذج كثيرة لهذه المجالس والاحكام، ويرى المقريزى ان الملك الاشرف خليلا عاد في سنة ٦٩٠ هـ من الشام بعد ان فتح عكا فلقيته القاهرة برجالها في حفل عظيم، وتقدم ابن العنبرى الشاعر فانشد قصيدة قال في مطلعها:

زر والديك وقف على قبريهما فكأنني بك قد نقلت اليهما

فتطير الاشرف من هذا البيت، ونهض قائما حانقا وهو يقول: « ما وجد هذا شيئا يقوله سوى هذا البيت »[1].

وذكر تاج الدين السبكى عن تاج الدين المراكشي انه دخل عليه مرة وهو ينشد قول ابن تقى:

حتى اذا مالت به سنة الكرى زَحْزَحْتُهُ شيئا، وكان معانقي
أبعدته عن أضلع تشتاقه كي لا ينامَ على وسادٍ خافقِ

وقول الحكم بن عقال:

ان كان لا بد من رقادِ فاضلعي هاك من وسادِ
ونم على خفقتها هدوءا كالطفل في هزة المهادْ

وهو ومن عنده يقولون: ان قول الحكم اجدر بالصواب، فانه لا يناسب المحب ان يبعد حبيبه، وينشدون قول صلاح الدين الصفدى في ذلك ردا على ابن تقى:

---

(١) خطط المقريزى ج٤ ص ٢٢٠، وينظر عصر سلاطين المماليك ج٦ ص ١١٩.

ابعدته من بعد ما زحزحتــه ما أنت عند ذوي الغرام بعاشقِ
ان شئت قل: أبعدتُ عنه اضالعي ليكون فعل المستهـام الوامقِ
أو قل فبات على اضطراب جوانحي كالطفل مضطجعا بمهد خـافقِ

فقال السبكي : ان ابن تقي وان ساء لفظا فقد قال « ابعـدته » وهو أحسن معنى لانه وصف أضلعـه بالخفقان والاضطراب الزائد الذي لا يستطيع الحبيب النوم معه عليها ، فقدّم مصلحته على مصلحته، وترك ما يريد لما يريد ، وابعـده عما يقلقه ، ولو قال « أبعدت عنـه أضلعا تشتاقه » لاحسن لفظا كما أحسن معنى . واما الحكم فانـه وصف خفقانه بالهدوء ، وهو خفقان يشبه اضطراب سرير الطفل، وهذا نقص . فوقع النزاع في ذلك وارسلوا الى القاضي شهاب الدين احمد ابن فضل الله صورة سـؤال من الرجلين ابن تقي والحكم ايهمـا المصيب ؟ فكتب : قول ابن تقي عليه مأخذ لكنه قول المحب الصادق :

يكفيه في صدق المحبـة قوله كي لا ينامَ على وساد خـافق
ما الحب الا ما يهد له الحشـا ويهد أيسره فؤاد العـاشق (١)

هذا مثل من أمثلة المجالس الادبية والنقدية في عصر القزويني ، وهو يمثل ما كانت عليه البلاد يومذاك من اتجاه الى النقد ، وان كان اتجاها تعوزه الاداة والذوق الذى احتضر ، وكاد يموت منذ عهد بعيد .

كتـب نقديـة :

وألّفت كتب نقدية ، في هذه الفترة ، ولكن مؤلفات النقد الادبى كانت تتجلى في الكلام على شعر ابن سناء الملك ، والنقد الموجه اليه من ابن جبارة وابي حيان النحوي الاندلسي ، وصفي الـدين الحلي ، وفي انتصار صلاح الدين الصفدى له والذب عنه ، وكانت هذه الحركـة

---

(١) طبقات الشافعية ج٥ ص ٢٣٣ ، وينظر عصر سلاطين المماليك ج٦ ص ١١٩ .

النقدية مناضلات ، أو مراجعات في آراء أدبية ، ومباريات في توجيهات لغوية يقصد منها ، ما هو أجل من النقد ، يقصد منها تثبيت الآراء وتعيين التوجيهات في تاريخ النقد الادبي ومصادره [1] .

ومن الكتب التي صورت حركة النقد في عصر القزويني :

كتاب «نظم الدر في نقد الشعر» للقاضي الرئيس الشيخ شرف الدين أبي الحسن علي بن اسماعيل بن ابراهيم بن جبارة الكندي التجيبي السخاوي المولود في القاهرة سنة ٥٥٤ هـ (١١٥٩ م) والمتوفى بها سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٥ م) .

وكتاب « نقد الشعر » للشيخ أبي حيان أثير الدين محمد بن يوسف الاندلسي النحوي المولود سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) والمتوفى بالقاهرة سنة ٧٤٥ هـ (١٣٤٤ م) .

وكتاب « العاطل الحاني والمرخص الغالي » للشيخ صفي الدين الحلي المتوفى ببغداد سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٨ م) .

وكتاب « الاقتصار على جواهر السلك في الانتصار » لابن سناء الملك .

وكتاب « الغيث الذي انسجم في شرح لامية العجم » و « نصرة الثائر على المثل السائر » للشيخ خليل بن ايبك الصفدي المتوفى بدمشق سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٣ م) .

وكتاب « خبز الشعير » لجمال الدين بن نباتة المصري المولود بالقاهرة سنة ٦٨٦ هـ (١٢٨٧ م) والمتوفى سنة ٧٦٨ هـ (١٣٦٦ م) . وغيرها من الكتب التي كانت تبحث في النقد [2] .

---

(١) ينظر تاريخ الادب العربي في العراق ج١ ص ٣٤٦ ، ومقالة النقد الادبي ومصادره للاستاذ عباس العزاوي المنشورة في مجلة المجمع العلمي العراقي (المجلد السابع).

(٢) تنظر هذه الكتب في تأريخ الادب العربي في العراق ج١ ص ٣٤٥ وما بعدها ، ومقالة النقد الادبي ومصادره .

الشهاب الحلبي :

ولسنا نبحث هنا حياة النقد ، وانما نريد ان نصور ما كانت عليه البلاغة في عصر القزويني ، ونلقي الضوء على بعض معاصريه قبل البحث في شراح التلخيص ، لنرى مدى تأثير مفتاح العلوم في البيئة العربية ومدى علاقة القزويني بعلماء عصره من رجال البلاغة • وأول ما يلاحظ ان منهج السكاكي لم يسيطر سيطرة تامة على البلاغة في هذا العصر ، فقد كانت هناك بقايا للمدرسة الادبية تتمثل في كتاب « حسن التوسل الى صناعة الترسل » ، لشهاب الدين الحلبي (٧٢٥ هـ) الذى « اراد فيه مؤلفه ان يبين للناشيء المتأدب أفضل الوسائل ، وأنجع الطرق التي بها يستطيع ان يكون كاتبا ومنشئا ، ويبرز له الادوات التي ينبغي ان يحتازها ، والمزايا التى عليه ان يتحلى بها ليسلك في عدد الأدباء المنشئين »[1] • وتتضح في الكتاب ثلاثة أقسام متمايزة ، فقد تكلم على ما ينبغي للمتأدب معرفته ، وفنون البلاغة المعروفة ، وذكر في خاتمته أمثلة تطبيقية ونماذج متعددة ورسائل شتى كلها من انشاء المؤلف في أغراض كتابية مختلفة ، بعضها مما كتبه في الديوان ،وبعضها مما كتبه تمرينا لقريحته وتمثيلا للناشئين • ولا تبدو فيه علاقة بكتابي الخطيب القزويني لأن الحلبي درس البلاغة كما درسها الاوائل ، ولم يفرق بين فنونها بل عقد لها فصولا متوالية ، ويمكن القول ان كتاب « حسن التوسل » من خيرة الكتب التى تمثل المدرسة الادبية في عصر القزويني •

العلوي :

ومن هذه الكتب « الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز » للسيد يحيى بن حمزة العلوي المولود بمدينة صنعاء في ٢٧ من صفر سنة ٦٦٩ هـ والمتقلد باليمن امارة المؤمنين سنة ٧٢٩ هـ ،

---

(١) عصر سلاطين المماليك ج٦ ص ١٢٥ •

والمتوفى سنة ٧٤٩ هـ [١] . والباعث على تأليف الكتاب أنّ جماعةمن أصدقائه واخوانه ، شرعوا عليه فيقراءة كتاب «الكشاف» للزمخشري، ولما كان هذا التفسير يعتمد على البلاغة كثيرا ، وان اسسه قائمة عليها فقد سأله بعضهم ان يملي في البلاغة كتابا يكون عونا لهم في دراسة تفسير الزمخشري .

وبحث العلوي يختلف عن غيره ، ففيه اتجاه نحو المدرسة الادبية مدرسة مصر والشام ، وفيه جنوح نحو مدرسة السكاكي حينما فصل بين فنون البلاغة ، يقول موضحا منهجه «ونشرع الآن في شرح مقاصده فنذكر ما يتعلق بذكر علوم البيان في مواقع المجاز في البلاغة ، ثم نردفه بما يتعلق بالمعاني الافرادية وهو المعبر عنه بعلم المعاني ، ثم نذكر على أثره ما هو منه وهو ما يتعلق بمراعاة أحوال التأليف وهو المعبر عنه بعلم المعانى ايضا ، ثم نذكر خاتمة الفن فيما يتعلق بمجموع الافراد والتركيب وهو المعبر عنه بعلم البديع فهذه أبواب اربعة » [٢] .

ويتضح من كلامه انه يسير على منهج السكاكي وانه يفرق بين مصطلحات المعاني والبيان والبديع ولكنه يتبع طريقة أخرى فيها ميل الى الناحية الادبية وفيها نقد وتحليل .

اما مصادر الكتاب فذكر العلوي في المقدمة انه لم يطالع من الكتب المؤلفة في البلاغة الا اربعة هي : « المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر » لضياء الدين بن الاثير (٦٣٧ هـ) ، «والتبيان في علم البيان المطلع على اعجاز القرآن » لعبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني (٦٥١ هـ) ، « ونهاية الايجاز في دراية الاعجاز » لفخر الدين الرازي (٦٠٦ هـ) ، « والمصباح في اختصار المفتاح » لبدر الدين بن مالك

---

(١) تنظر ترجمته فى البدر الطالع ج٢ ص ٣٣١ ، ومقدمة الطراز ، وتاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها ص ١٣٨ .

(٢) الطراز ج١ ص ١٩٦ .

(٦٨٦ هـ)[١] • ويبـدو أثر ضياءالدين واضحا ، فالعلوي ينقل من كتابه المثل السائر كثير ، وغالبا ما يرجح آراءه ولكنـه لا يسلم له في جميع القضايا والآراء فنراه ينقده ويزيف آراءه واقواله ، وبذلك يكون الطراز أمتداداً لمدرسة ابن الاثير او مدرسة مصر والشام العربيـة مع فرق واضح ، وهو ان العلوي بحثالبلاغة بحثاقريبا من منهجالسكاكي ومدرسته عندما قسم الفن الثاني من كتابه الى ما يتعلق بالمعاني ، والى ما يتعلق بالبيان ، والى ما يتعلق بالبديع • وهذا ما لم يفعله ابن الاثير في كتابة البلاغة وتقسيم بحوثها وتبويبها ، كما تأثر بعبدالقاهر وان لم يطلع على كتابيه « دلائل الاعجـاز » و « اسرار البلاغة » ـ كمـا يزعم ـ[٢] • ولكنه تأثر به بصورة غير مباشرة بما كتب ابن الزملكاني في كتاب التبيان ، وما سطره الرازي في نهاية الايجاز ، وأثنى على عبد القاهر ثناء عظيما ، وذكر انه أول من أسس من علم البلاغة قواعـده ، وأظهر فوائده ، ورتب أفانينه • وقد شك الدكتور طبانة فيما ادعـاه العلوى من عدم اطلاعه الا على اربعة كتب في البلاغة ، يقول : « وأنـا أشك في ان العلوى قصر اطلاعه على هذه الكتب الاربعة مهمـا تكن قيمتها ، ومهما تكن الموضوعات والمباحث التى عالجهـا كل منها ، فلا تكفي تلك لتكون وحدها المراجع لهذا البحث المستفيض والدراسـة الخصبة التى نجدها في الطراز ، وانا لنجد في ثنايا الكتاب نقولا كثيرة عن المطرزي وقدامة بن جعفر ، والحاتمي ، والغـانمي ، وأبى هلال العسكري ، وغيرهم من علمـاء البلاغة والبيـان »[٣] • وقـد ذكر الدكتور طبانة ان المثل السائر كان زبدة البلاغة العربيـة ، جمع فيـه مؤلفه آراء كثيرة ونقل عن الغانمي ، وقدامة ، والعسكري وغـيرهم ، وبذلك أغنى هذا الكتاب العلوي ، وامده بمادة غزيرة لا حصر لها ولا حد ، يضاف الى ذلك ان الرازي وابن الزملكاني وبـدر الدين ذكروا

---

(١) ينظر الطراز ج١ ص ٤ .
(٢) الطراز ج١ ص ٤ .
(٣) البيان العربى (ط ٣) ص ٢٦١ .

آراء كثيرة للمتقدمين ، ولم يكن كتابا الاولين الا تهذيبا لكتابي عبد القاهر ، وتنسيقا لهما ، ولم يكن كتاب الاخير الا تلخيص القسم الثالث من مفتاح العلوم ، وماذا بعد هذه الكتب الاربعة التى جمعت زبدة البلاغة العربية وخلاصة آراء البلاغيين المتقدمين ؟ أما تأثر العلوي بالسكاكي فيبدو واضحا في بعض المسائل ، ولعل أوضح ذلك استفادته منه في تقسيم البلاغة الى فنونها الثلاثة ، ولم يذكر العلوي « مفتاح العلوم » مصدرا من مصادر بحثه فمن اين جاءت معرفته به ، وكيف نقل عنه وذكر بعض آراء السكاكي ؟ لا نستطيع الجزم انه رأى مفتاح العلوم ، لانه لم يشر الى ذلك في المقدمة، وانه عندما ينقل رأيا للسكاكى أو جملة عنه يقول « حكى السكاكي » ، وغير ذلك من العبارات التى تدل على انه لم ينقل عن كتاب السكاكي مباشرة وانما نقل عنه بطريقة أخرى ، فمن اين ؟ لا بد أن العلوي عرف مفتاح العلوم عن طريق مصباح بدرالدين بن مالك الذي كان أحد مصادره الأربعة التي لم يطالع غيرها ولم يعتمد على سواها كما يقول ، ولذلك يجد الناظر في كتاب الطراز ، والتلخيص ، والايضاح ، تشابها في كثير من الموضوعات وفي المنهج وطريقة التأليف . والحق ان كلا من العلوي والقزويني لم يطلع أحدهما على كتاب الاخر ، لانهما وان كانا متعاصرين فانهما عاشا في بيئتين مختلفتين ، فالاول عاش في اليمن وتولى بها امارة المؤمنين ، والثاني عاش في الشام ومصر وتولى فيهما القضاء .

لقد اختلف الرجلان في كثير من الامور وان اتفقا في المنهج أحيانا ، لانهما ــ كما رأينا ــ سارا على هدى السكاكي في تقسيم البلاغة الى فنونها الثلاثة ، ورتب العلوي كتابه على ثلاثة فنون :

الاول : في مقدمات تفسير علم البيان ، وبيان ماهيته وموضوعه ، ومنزلته من العلوم الادبية ، والطريق الى الوصول اليه ، وبيان ثمرته وما يتعلق بذلك من ماهية البلاغة والفصاحة ، والفرق بينهما ، ومعاني الحقيقة والمجاز وبيان أقسامهما الى غير ذلك مما يكون تمهيدا وقاعدة

لما يريده من المقاصـــد .

والثاني : لذكر ما يتعلق بالمباحث المتعلقة بعلم المعاني وعلومها ، وأردفه بالمباحث المتعلقة بعلوم البيان واقسامها،وشرح فيه.ما يتعلق به من المباحث من علم البديع وخصائصه واحكامه اللائقة به .

والثالث : ذكر فيه ما يكون كالتتمة والتكلمة لهذه العلوم الثلاثة، وعرض فيه لفصاحة القرآن الكريم وانه قد وصل الغايـة التى لا غاية فوقها وان شيئا من الكلام وان عظم دخوله في البلاغة والفصاحة فانـه لا يدانيه ولا يماثله ، وذكر كونه معجزا للخلق لا يستطيع أحد ان يأتي بمثله ، وشرح وجه اعجازه ، وأظهر الوجه المختار فيه .

وأضاف الى الكتاب فوائد أُخَر ونكتا غزيرة استنبطها هو بذوقه وعقله أو تابع فيهـا غيره .

ولم يتبع القزويني هذا المنهج ، وقد رأينا سابقا انه تابع السكاكي في كل شيء وقسم كتابه الى ثلاثة فنون : المعانى والبيان والبـديع ، واضاف مقدمة في الفصاحـة ، وختمه ببحث في السرقـات ، وحسن الابتداء ، والتخلص ، والانتهاء ، وهـذه بحوث ذكرهـا العلوي في خضم كتابه الزاخر من غير ان يفصلها كما فعل القزويني .

وهناك فرق واضح بين الرجلين ، فبينما نجـد القزويني لا يخرج كثيرا عما رسمه السكاكي ، نجد العلوي يحلق بعيدا فيشرح ، ويحلل ، وينقد ، ويعلل ، ويعطي احكاما أملتها عليه تجربته ، وذوقـه ، وحسه الصافي ، وثقافته الواسعة ، واطلاعه الكبير . ومع انه يميل الى تحكيم العقل في مناقشاته وتقسيماته وعرض الآراء المختلفة والرد عليها ، نراه يجنح الى الذوق وعـدم تحكيم العقل المجرد في فنون الادب وتذوق النصـوص .

ولم يضع القزويني منهجـا خاصا في عرض الامثلة ، فهو يـأتي بالشاهد او المثال كيفما اتفق بينما سار العلوي على خطة واحدة اتبعها

في كتـابه كله تقريبا ، وهو أن يأتي بمجموعة من الامثلة بعـد كل فصل ويقسم الامثلة الى اضرب فالاول :الآيات القرآنية ، والثاني : الاخبار النبوية ، والثالث : كلام الامام علي بن أبي طالب (ع) . وهذه الاضرب الثلاثة هي القسم الاول من شواهـده . والقسم الثـاني : الشواهد المنظومة من كلام الشعراء الذين شهد لهم بالعبقرية والبلاغة، ولا نجد هذا الاهتمام بالامثلة وتقسيمها عند القزويني ، ولا نعثر على شواهد يختم بها كل فصل أو بحث من بحوث الكتاب ، وهذا فرق بين طبيعتي الرجلين . وليس في « التلخيص » أو « الايضاح » بحث عـن اعجاز القرآن ، ولكن الطراز اهتم به اهتماما كبيرا ، وعقد الفن الثالث فيه ، وذكر الآراء في ذلك ، ورَدَّ على المطاعن التي يزعمها الملحدون. ونستطيع ان نقول ان العلوي يقترب من السكاكي في هذه الناحية وان كان أوسع منه أفقا واكثر تفصيلا .

هذه أهم الفروق بين العلوي والقزويني ، ولكي نوضح ميل العلوي الى المدرسة الادبية واهتمامه بالتحليل، والابتعاد عن التقسيم والتحديد، ننقل نموذجا مما كتبه في الاستعارات القرآنيـة يقول : « اعلم ان من حق الاستعارة وحكمها الخاص ان يكون المستعار له مطوي المذكر ، وكلما ازداد خفاء ازدادت الاستعارة حسناء فان ادخلت على الاستعارة حرف التشبيه فقلت في قولك « رأيت اسدا » : « رأيت رجلا كالاسد» فقد وضعت تاجها، وسلبت ديباجها ، فمن ذلك قوله تعالى: «وضَرَبَ اللهُ مثلاً قرية كانت آمنةً مطمئنةً يأتيها رِزْقُها رَغَداً من كل مكـان ، فَكَفَرَتْ بأنعمِ اللهِ فاذاقها اللهُ لباسَ الجوعِ والخوفِ »[1] .فانظر الى ما اشتملت عليه هذه الآية من المجازات البليغـة ، والاستعارات الرشيقة ، فقد تضمنت استعارات اربعا : الاولى منها القريـة للاهل ، والثانية استعارة الذوق في اللباس ، والثالثة استعارة اللباس في الجوع، والرابعة استعارة اللباس في الخوف . فهذه الاستعارات كلها متلائمة ،

(١) سورة النحل ، الآية ١١٢ .

وفيها من التناسب ما لا خفاء به »[1] .

أين هذا في تفسير الآية وتحليل ما فيها من استعارات من كلام الزمخشري والسكاكي فيها ، فقد اختلف الرجلان ، وذهبا مذاهب شتى فرأى الزمخشري أن الاستعارة في « لباس الجوع والخوف » عقلية ، وذهب الآخر الى انها استعارة حسية[2] . وانشغلا بهذا الامر من غير أن يوضحا بلاغة الآية ، وقيمة الاستعارة وأثرها .

وليس معنى هذا ان العلوي كان أديبا بعيداً عن التقسيم والتحديد ، فقد بدا أثر المنطق والاستدلال في كتابه واضحا ، وظهرت نزعته العقلية جلية . وأول ما يلقانا هذا في مطلع كتابه فيقول في تفسير علم البيان وماهيته : « اعلم ان كثيرا من الجهابذة والنظار من علماء البيان وأهل التحقيق فيه ، ما عوّلوا على بيان تعريفه بالحدود الحاصرة والتعريفات اللائقة ولا أشاروا الى تصوير حقيقة يعرف بها بين سائر العلوم الادبية والعلوم الدينية كعلم الفقه ، وعلم النحو ، وعلم الاصول ، وغيرها من سائر العلوم ، فانهم اعتنوا فيها نهاية الاعتناء ، وأتوا فيها بماهيات تضبطها ، وتفصلها من سائر العلوم . وعلى الجملة فان ذلك غفلة لامرين : أما اولا فلأن الخوض في تقاسيمه ، وخواصه ، وبيان أحكامه فرع على تصور ماهيته لان من المحال معرفة حكم الشيء قبل فهم حقيقته . واما ثانيا : فلأن الخوض في أسراره ودقائقه ، انما هو خوض في المفردات ، ولا شك ان معرفة المفرد سابقة على معرفة المركب ، ولاجل ما ذكرناه لم يكن بد من بيان معقوله ، ومعرفة ماهيته »[3] .

وصفوة القول ان كتاب الطراز قد تميز عن غيره من كتب المدرسة الادبية والمدرسة الكلامية ، لانه مزج بين الطريقين ، واستفاد من المدرستين ، ولكن الغلبة كانت في النهاية لمدرسة الادباء او لطريقة

---

(١) الطراز ج١ ص ٢١١ — ٢١٢ .

(٢) ينظر الكشاف ج٢ ص ٤٩٨ ، ومفتاح العلوم ص ١٧٩ .

(٣) الطراز ج١ ص ٩ .

العرب البلغاء ، لاهتمام مؤلفه بالنقد والتحليل ، وكثرة الشواهد والنصوص الادبية المنتخبة من القرآن الكريم وكلام الرسول الاعظم محمد (ص) ، وعلي بن أبى طالب (رض) ، وفصحاء العرب وكبار شعرائها .

وكتاب الطراز فوق هذا كله من خيرة كتب البلاغة في القرن الثامن الهجري لما فيه من ضبط لمسائل البلاغة ، وما فيه من أمثلة رائعة مختارة ، وتحليل يدل على فهم كبير لاساليب العرب ، وهو يحق المثل الاعلى لكتب البلاغة في ذلك العصر لولا التقسيمات والتفريعات التي أولع العلوي بها كثيرا ، وبذلك يبدو البون واسعا بين كتابي القزويني وكتاب العلوي ، وإنْ جنح الرجلان الى مدرسة السكاكي ، واستفادا منه في التقسيم والتبويب .

ابن قيم الجوزية :

واذا سار العلوي على منهج السكاكي ومدرسته ، وقسّمَ البلاغة الى فنونها المعروفة فقد أبتعد ابن قيم الجوزية (٧٥١ هـ)[١] عنها ابتعادا كبيرا حينما وضع كتابه « الفوائد المشوق الى علوم القرآن وعلم البيان » الذى ألفه ليبين ما تضمنه الكتاب الكريم من أنواع البيان ، وأصناف البديع ، وفنون البلاغة ، وعيون الفصاحة ، واجناس التجنيس[٢] .وأوضح انه لا يمكن ان يعرف فضل القرآن الا من عرف كلام العرب وبلاغتهم وبيانهم وضروب فصاحتهم ، ولاجل هذا بحث في البلاغة لتكون عونا لمن يريد دراسة القرآن الكريم ، وقد ذكر في مقدمة الكتاب انه لم يجمع هذه الفوائد الا بعد ان اطلع على كتب المتقدمين والمتأخرين كالبديع لابن المعتز ، والحالي والعاطل ، والمحاضرة للحاتمي ، وكتاب الصناعتين للعسكري ، واللمع للعجمي ، والمثل السائر والجامع

(١) تنظر ترجمته في كتاب ابن قيم الجوزية ص ٥٦ – ٨٦ .

(٢) ينظر الفوائد ص ٤٦ .

الكبير لابن الاثير ، والبديع في نقد الشعر لابن منقذ ، والعمدة ،ونظم القرآن للزنجاني ، ونهـاية التأميل في كشف اســرار التنزيل لابن الزملكاني ، وبديع القرآن لابن أبى الاصبع ، واضـاف، الى ذلك كله فوائد مستعذبة ، وفرائد حسنة المساق مستغربة ، نقلها عن الائمـــة والاعلام والاكابر ، ومـا تفضل الله به ومنح ، من مهمل أبانه ، ومجمل فصّله ، وشارد قيده[1] .

وهذه دعوى عريضة أطلقها المؤلف ، لانه في الواقع لم يضف الى البلاغة شيئا الا بعض الجزئيات التي هي في الحقيقة أمثلةوليست مسائل مستقلة ، والا بعض التقسيمات والتفريعات ، ولكنه في كثيرمن الاحيان يرجح رأيا على رأى ، ويرى بعض ما يوحيــه له ذوقه ، ويمليه عليه وجدانه ، يقول بعد ان ذكر أقوالا في تعريف البلاغة : « ويجوز عندي ان يكون الكـلام البليغ الذى بلغ جودة الالفاظ ، وعذوبة المعانى الى غاية لا يبلغ الى مثلها إلاّ مثله »[2] .

وقسم كتابه الى اثنين وثلاثين ومائة قسم منها أربعة وعشرون في المجاز ، وأربعة وثمانون فيما يخص المعانى ، واربعـــة وعشرون فيما يتعلق باللفظ ، ويبدو في كتابه تقسيمان واضحان للبلاغة ، فقـد بحث في قسم الفصاحة الاستعارة ، والتشبيه ، والمجاز ، والتقديم والتأخير ، والايجاز والاختصار . وتكلم في الثانى على ما يختص بالمعانى ، وذكر فيه الكناية ، والتعريض ،والموضوعاتالتى اعتبرها السكاكي محسنات لفظية ومعنوية ، وقد اولع بالتفريعات والتقسيمات حتى لنراه يشعب المسألة الواحدة عدة مسائل .

وانفرد عن غيره من علماء البلاغة في عصره ، فهو يضع منهجـا لكل موضوع ثم يشرع بعد ذلك في الكلام على كل نقطة ذكرهـا في مطلع

---

(١) الفوائد ص ٨ .
(٢) الفوائد ص ٩ .

الفصل المعقود من أجله ، يقول في بحث الاستعارة : « واذا تقرر هـذا الكلام فالكلام في الاستعارة على وجوه :

الاول : هل هى نوع من انواع المجاز أم لا ؟
الثاني : في حدهـا .
الثالث : في أقسامهـا .
الرابع : في اشتقـاقهـا .
الخامس : فيما تتهيأ به الاستعارة وما لا تتهيأ .
السادس : في الاستعارة التخييلية .
السابع : في الاستعـارة المجردة .
الثامن : في الاستعارة المرشحـة .
التاسع : في الاستعارة الحسنـة .
العاشر : في الاستعارة القبيحة .
الحادي عشر : في بيان ما يظن انه استعارة وليس باستعارة .
الثاني عشر : في الاستعارة بالكناية .
الثالث عشر : فيما تتنزّل به الاستعارة منزلة الحقيقة »[1] .

ثم يقول بعد ذلك : « أما الاول .... واما الثانى .... »ويمضي في بحثه نقطة نقطـة ، وهو في ذلك يضع الهيكل العام ، والخطـة الواضحة ، ثم يأخذ في بناء ذلك الهيكل وتطبيق تلك الخطة . ويبـدو تأثر ابن قيم الجوزية بابن الاثير واضحا ، فهو كثيرا ما يعتمـد على كتابه « الجامع الكبير » بصورة خاصة ، وعلى المثل السائر في كثـير مـن الاحيـان .

ويلاحظ ان المؤلف قد توسع في بحث المجاز ، وأدخل فيهالتشبيه ، والمجاز بانواعه المعروفة ، والايجاز، والاختصار ، والحذف ، والتقديم والتأخير ، وهذا ما لا نجده عنـد غيره ، وفَصّل في بحث المجـاز

---

(١) الفوائد ص ٤٣ .

المرسل ، وفرّعه ونوّعه الى ضروب مختلفة ، وأشار الى عـــلاقاته الكثيرة ، وعقد بابا كبيرا تحدثفيه عن اربعة وثمـانين موضوعا أدخل القزويني بعضها في المحسنات المعنوية ، والبعض الاخر في علم البيان .

فمن النوع الاول الذي ذكره الخطيب في المحسـنات المعنوية : الاستطراد ، والتورية ، والاحتجــاج النظري (المذهب الكلامي) ، والهزل الذي يراد به الجد ، والتجريد .

ومن النوع الثاني الذي ادخلـه في المعانى : التكميل ، والتتميم ، والاعتراض ، والاطناب ، والتكرار ، والالتفات .

ومن النوع الثالث الذى ادخله جلال الدين في البيان : الكناية ، والتعريض ، وذكر ابن الجوزية في هذا الباب موضوعات اعتبرهـــا القزويني ملحقة بالبديع وهي : حسن المطـــالع والمبادى ، وبراعـة الاستهلال ، وحسن التخلص والاقتضاب والاقتباس . وفي هذا الباب موضوعات لم يتكلم عليهـا البلاغيون في كتبهم البلاغيـــة كالغزل والتشبيب .

وعقد الفن الثاني من فنون كتابه الفوائد لبحث ما يتعلق بالالفاظ من الفصاحة ،وقد قال عن الموضوعات التي ذكرها في هذا الفن :«وهذا الفن يسمى أيضا البديع،والبديع علم يبحث فيه عن احوال اللفظ المؤلف من حيث لا يمكن ان يؤتى به إلاّ بحسن النظام »[1] . وقد تكلم فيـه على موضوعات كثيرة أدخل القزويني بعضهـا في البديع كالاشتقاق ، والتسجيع ، والترصيع ، والتوشيح ، ولزوم مـا لا يلزم ، ورد العجز على الصدر ، وتكلم على موضوعات لم يدخلها القزويني في البـــديع كالكلام على التهذيب ، والانسجام ، والجزالـة ، والرذالة ، والسهل الممتنع ، والرشاقة ، والجهامة . وبذلك يكون هــذا الفن عند ابن قيم الجوزية أوسع افقا من البديع الذى وضع السكاكي خطوطه العامـة ،

(١) الفوائد ص ٢١٨ .

وأرسى القزويني قواعـده واصوله .

وختم الكتاب بفصل في ذكر ما اشتق منه القرآن والسورة والآية والكلمة والحرف وبيان معانيها ، وأردفه بفصول أخر في ذكر اعجاز القرآن العظيم ، وذكر أوجه ذلك ، وانتهى الى ان « الاقرب من هذه الاقاويل الى الصواب قول من قال إنّ اعجازه بحراسته من التبديل ، والتغيير والتصحيف ، والتحريف ، والزيادة والنقصان ، فانه ليس عليه ايراد ولا مطعن »[1] .

هذا منهج ابن الجوزية في «الفوائد» ، وهو يختلف كلّ الاختلاف عما وجدناه عند القزويني ، ولعل تأثره بابن الاثير ، وابن أبي الاصبع من كبار مدرسة مصر والشام البلاغية دعاه الى هذا الابتعاد عن منهج السكاكي والقزويني . ولكنه ـ مع ذلك ـ مولع بالتحديد ،والتقسيم، والتفريع الذى يكاد يبعث على السآمة والضجر ، وقد يجد الباحث شبها في بعض المسائل بين كتاب الفوائد وكتب السكاكي والقزويني ، ولكننا لا نستطيع ان نجزم انه تأثر بهما ، مع انه عاصر القزويني وعاش في بيئته ، ولعل سر ما نجد من تشابه هو استفادة ابن قيم الجوزية من كتاب « نهاية الايجاز » للرازي الذي كان من أهم مصادر السكاكي في « مفتاح العلوم » .

وخلاصة القول ان بين الرجلين اختلافا واضحا في المنهج والهدف ، لان القزويني وان اعتمد على الشاهد القرآني الا انه لم يوضح ان هدفه فهم اعجاز القرآن الكريم ، واظهار ما فيه من روعة وتأثير وجمال ، ولم يشر الى ما اشار اليه السكاكي من أوجه الاعجاز بينما كان هدف ابن الجوزية فهم الاعجاز ، وخدمة القرآن ، ومن هنا سمى كتابه « الفوائد المشوق الى علوم القرآن وعلم البيان » وان كنا نحمد للرجل فاننا نحمد اشارته الى موضوعات تحدث عنها النقاد وأشاروا اليها ،أما رجال البلاغة

---

(١) الفوائد ص ٢٥٥ .

الكلامية كالسكاكي ، والقزويني فلم يذكروها ، ولم يتحدثوا عنها لانها تخرج عن تقسيمهم الثلاثي الذي فرضوه على البلاغة فرضا . ومن هذه الموضوعات الطريفة كلامه على الجزالة ، والرذالة ، والسهل الممتنع ، والرشاقة ، والجهامة ، وحبذا لو فَصَّل القول فيها ، وعَرَضَ أمثلتها الرائعة في القرآن وكلام العرب ، ولكنه ألَمَّ بها الماما سريعا ، وعَرَضَهَا عرضا موجزا لا يغني الناقد والمتذوق ، وان كانت فيه فائدة لا تنكر .

ومن فصول الكتاب الطريفة بحث التكرار ، وقد أحسن المؤلف في بحثه ، وأجاد اجادة كبيرة ، وذكر الفائدة التي يؤتى به من اجلها ، وذكر ما يتهيأ فيه التكرار الحسن منه والقبيح[1] . وأحسن في بحث الكناية ، وأدخل فيها الارداف ، لانها عنده أربعة اقسام : التمثيل ، والارداف ، والمجاورة ، وغير هذه الانواع الثلاثة[2] . وهو يتابع في تقسيمها ابن الاثير في كتابه « الجامع الكبير » ، واعترف ابن الجوزية نفسه بهذا الاخذ ، ورأى ان ما ذكره ابن الاثير آثر ما ذكر عن الكناية . وبحث الاشارة على انفراد[3] . وفصلها عن الكناية مع ان الامثلة التي ذكرها جعلها القزويني وغيره من الكناية مثل « فلان طويل النجاد ، رفيع العماد ، كثير الرماد » ، وتكلم على الايماء ، وأدخل في الاشارة المعميات والالغاز والتورية ، وفَرَّقَ بين الاشارة والكناية ، وهي عنده في الحسن ، اما الكناية ففي القبيح[4] . وأفرد التعريض عن الكناية وعقد له فصلا خاصا[5] ، بينما تكلم القزويني عليه في فصل الكناية ، ولم يكن حديثه عنه كحديث ابن الجوزية ، لانه جاء مقتضبا .

---

(١) الفوائد ص ١١١ .
(٢) الفوائد ص ١٢٦ – ١٣٢ .
(٣) الفوائد ص ١٢٥ .
(٤) الفوائد ص ١٢٦ .
(٥) الفوائد ص ١٣٣ .

وخالف ما تعارف عليه المتأخرون من بحث تجـــاهل العارف في البديع ، فقد بحثــه في فصل الاستفهـــام ، وذكر أمثلته التي ذكرها المتأخرون [١] . وفي الوقت الذي جعل القزويني المقابلة قسما من المطابقة وأدخلها فيها ، نجد ابن قيم الجوزية يفرّق بينهما ويقول : « فالفرق بين المقابلة والطباق من وجهين :

الاول : ان الطبـــاق لا يكون الا ضدين غالبا مثل قوله تعالى : « وهو الذي أحياكم ثم يُميتكم ، ثم يُحييكم » [٢] ، واشباه ذلك . والمقابلة تكون غالبا بالجمع من اربعة اضداد ضدين في صدر الكلام ، وضدين في عجزه وتبلغ الى الجمع من عشرة أضداد ، خمسة في الصدر ، وخمســة في العجز .

الثاني : لا يكون الطباق الا بالاضداد ، والمقابلة تكون بالاضداد وغــيرهـــا [٣] .

وهذا ليس بالقليل من رجل عاش في فترة كسد فيها الادب ، وخبا نجم النقد وأفل ، ويكفيه فخرا انه كان حر الفكر والتعبير ، لم يتقيــد بموازين عصره ومناهج البحث فيه ، وانما اختط لنفسه طريقا آخر فيه تحليق في أجواء الادب ورحاب الفن ، ولعل ابن الجوزية لو اتاحت له الايام حياة مستقرة كالقزويني لاتى بكل عظيم عجيب في هــذا الفن ، ولكنه رجل كان يسعى وراء الحق فناله من ذلك أذى كأستاذه الشيخ ابن تيميه وسجن وطورد . وسيبقى ابن الجوزية خالــدا في دنيا الحق والعلم ، مشارا اليه في عالم البلاغة والنقد ، وانّ في كتابه الفوائـــد ما يجعل النقاد والمتأدبين يرجعون اليه ، ويضعونه في مكانه اللائق حينما يؤرخون للنقـــد والبلاغـــة .

* *

---

(١) الفوائـد ص ١٥٩ ــ ١٦٠ .

(٢) سورة الحج ، الآية ٦٦ .

(٣) الفوائد ص ١٤٨ .

هذه حالة البلاغة والنقد في عصر القزويني ، وهؤلاء أهم معاصريه في البيئة العربية • ويتضح لنا من هذا العرض ان القزويني لم يتأثر بمن حوله كثيرا ، وبقي يدور في فلك السكاكي مع ان عصر المماليك لم يكن عصر جمود كما تصوره لنا بعض المصادر وانما كان النشاط باديا للعيان في كثير من مجالات الحياة • ولا يعدم هذا العصر كاتبا ، أو ناقدا ، أو بلاغيا له صولات وجولات ، وله وجهة نظر ان لم تكن جديدة فانها تدل على احساس مرهف ، وذوق أدبي صافٍ • ولا ندري لِمَ أتجه القزويني هذا الاتجاه مع انه عاصر نقاداً وبلاغيين استفادوا من التراث الضخم القديم ، وبنوا عليه آراءهم وكتبهم ، فاخرجوا لنا مؤلفات تشهد لهم بالاطلاع الواسع ، والاستفادة من القدماء • فكانوا بحق امتدادا للعصور الذهبية الزاهرة ولمدرسة البلاغة الادبية او بلاغة العرب •

ولعل الامثلة الثلاثة السابقة تكفي للتدليل على ما نذهب اليه ، وتؤيد ما لمسناه من ان القزويني يكاد يكون غريبا في بيئة مصر والشام فيما كتب وألف في البلاغة • وقد كان من الممكن ان يستفيد من ابن الاثير ، وابن ابي الاصبع ، ولكنه رجل شغل نفسه بالمفتاح وألمّ بكتب عبد القاهر ، فأخرج لنا « الايضاح » الذي لا يمكن ان ينكر فضله في الدراسات البلاغية على مدى الاجيال •

واذا كان القزويني لم يتأثر بمعاصريه او يؤثر فيهم تأثيرا واضحا ، فانه اثر في تلامذته ومن عاصرهم أو جاء بعدهم الى هذا اليوم ، وكانت البلاغة العربية كلها تقريبا امتدادا لمدرسته التي بدأت بشرح التلخيص ، والتعليق عليه ، ونظمه ، وشرح شواهده ، أو شرح الايضاح وتلخيصه ، ولم يخرج البلاغيون عن منهجه وآرائه حتى عصرنا الحديث •

ولكي نبين أثره في البلاغة سنعرض شروح التلخيص ، لنرى مدى تأثيره ، وسيطرته على مناهج البحث البلاغى •

٢

وقد استطاع القزويني بذوقه وتضلعه في علم اللغة العربية ان يختصر القسم الثالث من « مفتاح العلوم » ويشرحه في « الايضاح » مضيفا اليهما معلومات كثيرة أغفلها السكاكي ، وثارت حركة تأليف واسعة بعد أن ظهر تلخيص القزويني ، وأخذ الناس يتدارسونه ، ويشرحونه ، ويعلقون عليه ، وكان المشرق الاسلامى من أكثر البيئات تعلقا به ، وانكبابا عليه وبذلك حظي باهتمام ، وعناية لم ينلها كتاب بلاغي آخر .

وكان المشرق سبّاقا الى شرحه والاهتمام به ، وان الشروح التي وصلت الينا أو وصلت أسماؤها تدل دلالة واضحة على ان الكتاب تداولته الايدى في بيئة خوارزم وأقصى الشرق العربي قبل أية بيئة اخرى . ولعل شرح محمد بن مظفر الخطيب الخلخالي (٧٤٥هـ) المسمى «مفتاح تلخيص المفتاح » أقدمها بعد ايضاح القزويني الذى كان أول شرح للكتاب . وهذه الشروح جميعا ليست ذات قيمة كبيرة ، لانها كانت نسخة واحدة او تكاد ، لا يخرج المتأخر عن المتقدم ولا يبتعد آخر عن أول في منهجه وعرضه موضوعات البلاغة .

وسارت قافلة الشروح الى البيئة العربية ، فدخلت العراق، والشام، ومصر ، غير انها لم تعجب اهل هذه البيئة ، لانهم كانوا يجنحون الى تربية الملكة الادبية ، ويميلون الى تحكيم الذوق ، وقد رسم بهاء الدين السبكى أحسن صورة واجلاها لهذه الشروح ، فقال وهو يتحدث عن

التلخيص وقيمته : « ولقد وصل الينا من تلك البـــلاد على التلخيص شروح ، رحم الله مصنفيها ، فانهم ماتوا وهم أخيار وبيض وجوههم في الآخرة كما سودهم بالمعالي في هذه الدار . لا تنشرح لبعضها الصدور الضيقـــة ، ولا تنفتـــح عنـــدها مغلقة ، ولا ينقـدح فيهـا زناد الفكر عن مسألة محققة . يتناولون المعنى الواحد بالطرق المختلفة ، ويتناوبون المشكل والواضح على اسلوب واحد ، كلهم قد ألفه لا يخالف المتأخر منهم المتقدم الا بتغيير العبارة ، ولا يجد له على حل ما أشكل على غيره أو استشكال ما اتضح جسارة ، ولا يطمع أن يذوق ما في الاستدراك من اللذة . ولا تطمح نفسه لان يقـال برز على من سبقه وبذّه ، بل يسري خلف من تقدمه حتى في الكلمة الفذة ، ويسير أثره حذو القذة بالقذة . قصارى أحدهم أنْ يعزو أبياتا من الشواهـــد لقائليها ، ويوسع الدائرة بمالا يقام له وزن من تكميل ناقصها ، أو انشاء ما قبلها وما يليها ، وينشر للراغب مفردات الالفاظ من واقع كلام العرب ، ويذكر ما لا حرج على مخالفه من اصطلاحات لبعض أهل الادب . ولا يزيد في شرح عبارة المصنف على الايضاح زينا وجد فيـه أم شينا ، فلو نطق التلخيص لتلا ما جئتم به هذه بضاعتنا ردت الينا . هذا والشرح يطول ، والوقت ينفق ولم يكتب لطالب البيان وصول »[1] .

ولا نجد وصفا أبدع من قول السبكي في وصف هذه الشروح وما فيها ، ويمضي في وصف مؤلفيها ، وما استفرغوا من قوى أفكارهم في تأليفها فيقول : « قد استفرغوا في ذلك قوى أفكـارهم ، واستوعبوا مدى أعمارهم ، فليت شعري وقد انقضى العمر متى يسبحون في اللجة ويجنحون الى بياض المحجة ؟ أبعد أن يشيب الغراب ، ويرجع الشباب الحائل ، أم يصيرون الى أن تعود الى الدنيا القرون الاوائل .

وحتى يؤوب القارظان كلاهما   وينشر في القتلى كليب ووائلُ

(١) عروس الافراح ج١ ص ٦ .

وفي أية مدة يصلون الى تلك اللطـــائف ، ويحصلون على تلك الحقائق التى طاف بأركانها وبيتها ممـــن له حجر سليم ومقام كريم كـــل طـــائف .

لولا العقول لكان أدنى ضيغم   أدنى الى شرفٍ من الانسانِ

فكم من معضلة في الكتاب يمرون عليها ، وهم عن حلاوة حلهـــا معرضون ؟ ومشكلة يصححون ألفاظها وهم للمعانى ممرضون ؟ وكم اوردوا اسئلة ، وصارخ من التوفيق يناديهم لو قيل :

« ما هكذا تورد يا سعد الابل » . وكم هتف بطائرهم هاتف مـــن العقل بصوت شجي : هيهات ما هذا بعشك فادرجي . وكم عاود النظر في شيء من هذه الشروح على سبيل التنزل مطالع ، ثم ثنى طرفه وهو يقول يا خيبة المطامع، ويحلف صادقا أنها لم تكن تكتـــب الا باطراف الاصابع ، هنالك يعلم الطالب انه أملى له فيما أملى عليه ، وانه فيمهمه مهمل لا يجاب داعيه ولا يلتفت اليه .

فلو أنشدت نعشاً هناك بناته   لمات ولم يسمع لها صوتُ منشدِ[1]

وأي وصف أصدق من هذا الوصف الذى دبجته براعة السبكي وليد البيئة المصرية العربية ؟ وأي نقد أكثر تجريحا من هذا النقد الذي سطره أحد شراح التلخيص ؟ وان الباحث في اثر القزويني في البلاغـــة العربية لتهوله كثرة شروح التلخيص واكداس التلخيصات والتقريرات ويحار فلا يدرى ماذا يقرأ وماذا يدع ، وهذه الكتب كلها لا تخرج عما خطه السبكي في مفتاح العلوم ، وقرره القزويني في تلخيصه وايضاحه ، إنّ المنهج واحد ، والهدف مشترك لا يحيد متأخر عن متقدم ، ولا يأتي أحدهم الا بما فيه اثقال كاهل البلاغة ، وقصم ظهر النقـــد ومقاييسه الاديـــة الفنيـــة .

(١) عروس الافراح جا ص ٦ ــ ٧ .

ولكي نظهر أثر القزويني لا بد ان نتعرض لهذه الشروح ، ونلقى عليها نظرة عابرة لنرى ما فيها ، وان العمر ليقصر عن تتبعهـــا كلها ، والاحاطة بما أثاره القزويني من حركة بلاغية على مر القرون. واذا كان ليس من الممكن الاحاطـة بكل شـــيء فليس من الصحيح ان نترك بعض ما يستطيع الانسان ان يلم به ويجعله ميدانا يعرض فيه افكاره ، ومجالا يثبت فيه ما ينبغي اثباته وتأكيده في الدراسات البلاغية .

لقد حاولنا جاهدين أن نحيط بكل ما خلفته القرون ولكنا شعرنا بعبء ما نحن مقدمون عليه ، وهالنا ما رأينا من كتب طبع بعضها ، وما يزال بعضها الآخر ينتظر النور . وقد أجلنا الفكر ، ودققنـا النظر في شروح التلخيص نخرجنا بنتيجة وهي انّ معظمها نسخ مكررة لـكتاب واحد الا ما نجده من عبارات تضاف ، وجمل تحذف ، ولهـذا لن نقف عندها جميعا بل سنكتفي بالبحث في بهاء الدين السبكى (٧٧٣ هـ) ، والتفتازاني (٧٩٢ هـ) ، والشريف الجرجانى (٨١٦ هـ) ، وابن يعقوب المغربي (١١١٠ هـ) ، والدسوقي (١٢٣٠ هـ) ،: والسيوطي(٩١١ هـ) وعصام الدين الاسفراييني (٩٥١ هـ) . وعلة ذلك ان كل واحد منهم يمثل بيئة معينة واتجاها محددا وزمانا معلوما ، فالسبكي يمثل البيئـة المصرية العربية في القرن الثامن ، والتفتازانى يمثل البيئة الفارسية في القرن نفسه ويتبعه الشريف الجرجاني والمغربي والدسوقي ممن وضعوا الحواشي والشروح على كتابيه المطول والمختصر ، ويمثل السيوطي بيئة مصر في القرن العاشر ، بينما يمثله العصام في البيئة الفارسية .

ولم يقف أثر القزويني في الشروح ، والتلخيصات ، والحواشي ، والتقريرات ، بل تعداه الى كتب اتجهت اتجاها آخر ليس فيه تحـديد القزوينى ، وتقسيماته ، ولا ضبطه وقواعده . إنّه اتجـاه الى البديع الذى نفقت سوقه في عصر جلال الدين ومابعده . وقد نظمت قصـائد في البديع وألفت شروح عليها ، وهـــذه الكتب كلها لم تتقيد بمنهج السكاكي والقزويني ، وانما اتجهت الى فنون البلاغـة اتجاه الاوائل

كأبن المعتز ، وقدامة ، وأبي هلال فلا معانى ولا بيان ولا بديع ، وانما الكل فن واحد هو البديع بمعناه الواسع • ولعل ابن حجة الحموي (٨٣٧ هـ) خير من يمثل هذا الاتجاه ، وهو ان سلم من تأثير منهج القزويني فانه لم يسلم من آرائه وتوجيهاته ، ولكننا لن نتحدث عنه في هذا الفصل لامرين :

الاول : اننا تكلمنا عليه سابقا في فصل علم البديع ، وقد وضحنا عمله في البلاغة وعلاقته بالقزويني •

والثاني : أن هذا الفصل يبحث في شروح التلخيص ، وليست « خزانة الادب » للحموي شرحا لاحد كتب القزويني ، ولذلك تركنا الكلام عليه بالتفصيل مكتفين بما ذكرناه سابقا ، وان كان الحموي يحتاج الى دراسة اوسع ، ونظرة اعمق •

ولنبدأ الآن بشراح تلخيص المفتاح وهم :

بهاء الدين السبكي

كان القزويني ايذانا باتجاه البلاغة في مصر والشام وجهة لم تكن لها يوم كانت في خوارزم بيئة السكاكي ومفتاحه . وكان تلخيص القزويني وايضاحه بادرةطيبة اثمرت فيما بعد كتبا لها طابع خاص ، وتوجيهات جديدة وان كانت لم تخرج عما رسمه السكاكي والقزويني في المنهج وموضوعات البلاغة . وقد مزجت هذه الكتب بين فلسفة البلاغة الكلامية وبلاغة العرب من الادباء البلغاء ، وكونت مدرسة جديدة هى مدرسة مصر البلاغية التى كانت تجنح الى مجافاة الفلسفة والتعصب للعرب وتحكيم الذوق في الادب ونقده .

ومن أشهر بلاغيي هذه المدرسة وأكبرهم بهاء الدين السبكي المولود بالقاهرة في ليلة العشرين من جمادي الاخرة سنة ٧١٩ هـ (١٣١٩ م) والمتوفى بمكة المكرمة في ليلة الخميس سابع عشر من شهر رجب عام ٧٧٣ هـ [1] . وكان السبكي معجبا بتلخيص القزويني ايما اعجاب ، ويعده من اهم كتب البلاغة وانفعها ، يقول :

« فان تلخيص المفتاح في علم البلاغة وتوابعها باجماع من وقف عليه ، واتفاق من صرف العناية اليه انفع كتاب في هذا العلم صنف

(١) تنظر ترجمته في الدرر الكامنة ج١ ص ٢١٠ ، والنجوم الزاهرة ج١١ ص ١٢١ والدارس في تاريخ المدارس ج١ ص ٣٨ ، وحسن المحاضرة ج١ ص ٢٠٤ ، وبغية الوعاة ص ١٤٨ والبدر الطالع ج١ ص ٨١ ، والمنهل الصافى ج١ ص ٣٨٥ ، وغيرها .

وأجمع مختصر على مقدار حجمه الف »[1] •

وقد شرح التلخيص عـــدة مرات في البيئة الفارسية ، ووصلت الشروح الى مصر والشام ، واطلع عليها السبكي فلم تعجبه ، ورأى أن اصحابها يتناولون المعنى الواحد بالطرق المختلفة ، ويتناوبون المشكل والواضح على اسلوب واحـد • كلهم قد ألفه لا يخالف المتـأخر منهم المتقدم الا بتغيير عبارة ، او تفسير كلمة ، أو توجيه رأي ما • وكـان عمل هؤلاءالشراح محفزا له ، يقول :

« فحداني ذلك على أن أشد جياد الحزم ، وأمد ركاب العزم الى شرح للتلخيص يُحيي من هـــذا العام الرفات ، ويدرك منه ما فات • ويمتطي من معاليه اقصاها ، ولا يغـــادر صغيرة ولا كبيرة من أعمال مصنفية الا احصاها • ويجمع من شتاته ما تفرق شغر بغر[2] ، ويفيم من شذوره الذهبية ما ذهب ايدي سبأ ، وتمزق شذر مذر[3] •

وقد اراد المؤلف انيجعل هذا الشرح واسطـة بين مفتاح المشرق للسكاكي ، ومصباح المغرب لبدر الدين بن مـالك ، خليا من العصبية حريا بالنسبة الى مصر « فانها بقعة من عند الله مباركة طيبة ، لا شرقية ولا غربية » ، فكتابه وليد بيئة مصر التي حباها الله الجمال ، وبعث في واديها الخصب والبركة ، وأكسب أهلها رقة وظرفا •

مصـادره

وضع السبكي كتابه « عروس الافراح » بعد أن اطلع على كتب كثيرة ، يقول : « واعلم انني لم اضع هـذا الشرح حتى استعنت عليه بنحو من ثلثمائة تصنيف ، فانه تضمن الخلاصة من مائة تصنيف فيهذا العلم منها ما وقفت على كلام من وقف عليه وقال انه جمع بين طرفيه •

---

(١) عروس الافراح ج١ ص ٤ •

(٢) شغر الناس : تفرقوا ، يقال : «تفرقوا شغر بغر » أي : ذهبوا في كل وجه .

(٣) عروس الافراح ج١ ص ٨ .يقال : «تفرقوا شذر مذر» اي : ذهبوا في كل وجه.

واني اختصرت فيه أكثر من خمسين مصنفا في علم البلاغة وقفت عليها لم اترك منها الا ما هو خارج عن هذا العلم أو قليل الجدوى فيه ، أو هو في غاية الوضوح ، أو شواهد لا حاجة لها لكثرتها ، أو ما زاغ البصر عنه ، أو ما إن تأملته علمت أنه فاسد لا ترتضيه »[١] .

وأهم مصادره التي اعتمد عليها دلائل الاعجاز لعبد القاهر ، والبديع لابن المعتز ، واعجاز القرآن للرماني ، والوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني ، والبديع في نقد الشعر لابن منقذ ، وسر الفصاحة لابن سنان ، والعمدة لابن رشيق ، والعدة في اختصار العمدة للصقلي ، وكنايات البلغاء لاحمد بن محمد الجرجاني ، وحلية المحاضرة للحاتمي ، ومنهاج البلغاء وسراج الادباء لحازم القرطاجني ، وكتاب الصناعتين للعسكري ، ونهاية الايجاز في دراية الاعجاز للرازي ، والمعيار للزنجاني ، وقوانين البلاغة لعبد اللطيف البغدادي ، ومفتاح العلوم للسكاكي وبعض شروحه ، وروض الاذهان والمصباح لبدر الدين بن مالك ، والاقصى القريب للتنوخي ، والمثل السائر والجامع الكبير لابن الاثير ، والفلك الدائر على المثل السائر لابن أبي الحديد ، وبديع القرآن وتحرير التحبير لابن أبي الاصبع ، وبعض شروح التلخيص والايضاح للقزويني ، والطريق الى الفصاحة للرئيس ابن النفيسي وغيرها . ويمكن تقسيم المصادر التي اعتمد عليها قسمين : قسم أدبي وآخر كلامي .

بين الادب والفلسفة :

وقد مزج السبكي في كتابه عروس الافراح بين البحوث الفلسفية، والادبية الذوقية ، والروح الفنية الصادقة ، وبين قواعد الاصول ، والمقاصد المنطقية والكلامية . وأضاف اليه ما استخرجه بذهنه ورآه ببصيرته ، يقول : « ولقد احتوى هذا الشرح بحمد الله تعالى من

---

(١) عروس الافراح ج١ ص ٢٩ .

المباحث التي هي من بنات فكري فلم اسبق اليها ، ومن هبات ذكرى فما عثر أحد فيما علمت من أهل هذا الفن عليها ، على جملة لا اعقد لها عددا حتى افرغ من عد النجوم ولا اعهد لها مددا سوى الهام الحي القيوم . وكأين فيه من شاهد يرد على هذا العلم ما يدعيه من حق ضائع ، ويثبت له عرفا يحفظ طيب الثناء بعرف ضائع . ويأمن من الاسقاط ، فاني استخرجته بالفكرة وعدلته بتزكيتي العقل والنقل عند قاضٍ من التأمل ليست عنده فترة ، واجلسته في مجالس العلماء فاثبتوا فخره واطلت البحث عنه ، ولم اجده في كتاب ، ولم اسمعه من ذي فطرة . واعلم أنّي مزجت قواعد هذا العلم بقواعد الاصول العربية ، وجعلت نفع هذا الشرح مقسوما بين طالبي العلوم الثلاثة وأكاد أقول بالسوية . واضفت اليه من اعراب الآيات الواقعةفيه ماهو محرر وان كان رقيق الحاشية . ومن ضبط الفاظ احاديثه النبوية ما كانت خباياه من الجامع الأزهر الصحيح في زاوية ، وضمنته شيئا من القواعد المنطقية ، والمقاصد الكلامية ، والحكمة الرياضية أو الطبيعية ، واتحفته من فوائد الوالد وتحقيقه، ومن فوائد علمه الطارف والتالد »[1] .

دعوة الى الذوق :

وتطالعنا في اول الكتاب دعوة السبكي الى الذوق والرجوع اليه في نقد الكلام يقول : «أما أهل بلادنا فهم مستغنون عن ذلك بماطبعهم الله تعالى عليه من الذوق السليم ، والفهم المستقيم ، والاذهان التي هي ارق من النسيم ، والطف من ماء الحياة في المحيا الوسيم . أكسبهم النيل تلك الحلاوة ، وأشار اليهم باصابعه فظهرت عليهم هذه الطلاوة. فهم يدركون بطباعهم ما افنت فيه العلماء ــ فضلا عن الاغمار ــ الاعمار ، ويرون في مرآة قلوبهم الصقيلة ما احتجب من الاسرار خلف

---

(١) عروس الافراح ج١ ص ٢٦ـ٢٨ .

الاستار »[1] . ولذلك صرفوا هممهم الى العلوم التي هي نتيجة او مادة لعلم البيان كاللغة ، والنحو ، والفقه ، والحديث ، وتفسير القرآن .

وكان من المنتظر ان يثور على الدراسات البلاغية في عصره ، ويصلح منهج دراستها ، وينقذها مما فيها من مسائل غريبة اقحمت فيها اقحاما . ولكنه لم يعمل شيئا ذا نفع عظيم ، بل نراه يفخر بأنه مزج قواعد البلاغة بقواعد الاصول ، وضمن كتابه شيئا من القواعد المنطقية والمقاصد الكلامية ، والحكمة الرياضية والطبيعية ، وحشر من كلام ابيه مسائل كثيرة تدعو الى السأم في كثير من الاحيان .

ان السبكي ــ وان دعا الى تحكيم الذوق في البلاغة والنقد ــ لم يطبق كلامه ، وأنّى له أن يخرج عن النطاق الذى ضربه « مفتاح العلوم » وتلخيصاته وشروحه على الدراسات البلاغية ؟ انه لم يستطع ان يخرج عن منهج السكاكي والقزويني وان اضاف الى كتبهما كثيرا مما تركاه ، او لم يطلعا عليه وينتبها اليه ، وما خطر بذهنه من تحقيقات .

ولن يستطيع الباحث في بلاغته أن يؤمن ايمانا قويا بدعوته الى الذوق بعد أن يقرأ الكتاب ويطوف فيه ، لان نزعته نزعة عقلية أو نزعة يغلب عليها الجانب العقلي بتعبير أدق . وقد أكثر من التقسيمات العقلية وملأ كتابه بها . ومن امثلة هذه التقسيمات ما ذكره في موضوع الفصل والوصل ، ولكي نستطيع أن نتبين نزعته في التقسيم ننقل بعض كلامه في هذا الموضوع يقول : « اما ان يكون بين الجملتين تناسب او لا ، فان لم يكن فاما ان يحصل الاتحاد في المسندين أو في احدهما او في طرف احدهما . واقسام ذلك مائتان واربعون قسما . اولا يحصل الاتحاد في شيء من ذلك فصارت الاقسام مائتين وواحد واربعين على كل منهما . فاما أن يكون العطف بالواو أو بغيرهما ، واما ان يكون للاولى محل اولا . هذه اربعة اقسام مضروبة فيما سبق تبلغ تسعمائة

---

(1) عروس الافراح ج1 ص 5 .

واربعة وستين على كل منهما . اما ان يكون بينهما كمال الانقطاع أو كمال الاتصال أو شبه كمال الانقطاع أو شبه كمال الاتصال اومتوسطة. هذه خمسة تضرب فيما سبق تبلغ اربعة آلاف وثمانمائة وعشرين وعلى كل منها اما ان يحصل بالقطع ايهام غير المراد أو لا . قسمان مضروبان فيما سبق تبلغ تسعة آلاف، وستمائة واربعين كلها يمتنع فيها الوصل الا ما كان في تركه ايهام المراد كل ذلك اذا لم يكن بينهما جامع ، واذا كان بينهما جامع جاء مثل هـذه الاقسام . ثم نقول على كل من أقسام الجامع ، اما أن يكون الجامع عقليا وهو الاتحاد او التضايف ، أو وهميا وهو شبه التماثل أو التضاد أو شبهه أو خاليا . فهذه سبعة نص المصنف عليها تضرب في اقسام الجامع السابق وهي تسعة آلاف وستمائة واربعون ، تبلغ سبعا وستين الفا واربعمائة وثمانين ، وتضاف اليها أقسام عدد الجامع السابقة وهي تسعة آلاف وستمائة واربعون تبلغ سبعا وسبعين الفا ومائة وعشرين . وعلى كل امـا أن يكون ما وقع الاتحاد فيه في الطرفين ضميرين أو ظاهرين ، أو الاول ضمير والثاني ظاهر أو عكسه أربعة أقسام تضرب فيما سبق تبلغ ثلثمائة الف وثمانية آلاف واربعمائة وثمانين على كل منهـا . أما أن تكون الجملتان متناسبتين بالاسمية أو الفعلية أو غير متناسبتين ، فهذا قسمان يضربان فيما سبق تبلغ ستمائة الف وستة عشر الفا وتسعمائة وستين قسمـا . ويمكن تضعيفها بحسب الاصناف الى ما لا يعلمه إلا الله »[1] .

وليس هذا المثل الوحيد في كتابه الضخم الكبير ، واننا لنجد مثيله في بحث اقسام المجاز العقلي ، ويقول بعد أن يذكر أنواعه :

« تنبيه : هذه الاقسام الثمانيـة هي دائرة بين الفعل وفاعله ، ولا شك أن الفعل يلابس فضلات باعتبار المفعول والحال وغيرهما . وذلك باعتبار الحقيقة أو المجاز ، فنقول : كل واحد منهما قد يكون في نفسه مجازا افراديا ، وقد يكون حقيقيا . فهذه اربعـة احوال تضرب في

(١) عروس الافراح ج٣ ص ٦ .

الثمانية أعني الاقسام الاربعة الحقيقية والاقسام الاربعة المجازية تبلغ اثنين وثلاثين قسما . وتأتي في المفعول الثاني اربعا وستين وفي الثالث مائة وثمانية وعشرين وتتضاعف بالتوابع والحال والمصدر والظرف ونحوه . فعليك باعتبار ذلك ، وافعل ما تقتضيه القواعد السابقة»[1].

ويقول في بحث اغراض الخبر : « اعلم ان اقسام هذا الفصل متعددة ، وقد حاول الكاتبي والخطيبي في شرح المفتاح تعدادها فذكراها على وجه قاصر . وها أنا اذكرها على التحرير أن شاء الله تعالى فاقول : المخاطب أما عالم بفائدة الخبر ولازمها معا ؛ أو خال منهما ، أو طالب لهما ، أو منكر لهما ، أو عالم بالفائدة خال من اللازم ، أو عالم بالفائدة طالب للازم ، أو عالم بالفائدة منكر للازم . أو عالم باللازم خال من الفائدة ، أو عالم به طالب للفائدة ، أو عالم به منكر للفائدة ، او خال من اللازم طالب للفائدة ، أو خال من اللازم منكر للفائدة ، أو خال من الفائدة طالب للازم ، أو خال منها منكر للازم، أو طالب للفائدة منكر للازم ، أو منكر للفائدة طالب للازم يبطل منها عالم باللازم خال من الفائدة أو خال من الفائدة منكر للازم أو خال من الفائدة طالب للازم . فالثلاثة مستحيلة ، ومنها ثلاثة ممكنة ان حملنا اللازم على الاعتقاد مطابقا كان أو لم يكن وهو عالم باللازم متردد في الفائدة ، أو عالم به منكر للفائدة ، أو منكر للفائدة طالب للازم . وان حملنا اللازم على الاعتقاد المطابق للخارج سقط الثلاثة أيضا . فعلى الاولى تبقى الاقسام الممكنة ثلاثة عشر كل منها اما أن تأخذه على كل واحد من الاوجه العشرة السابقة ، ولا تأخذه على كل شيء من الستة التى قلنا ان ثلاثة منها مستحيلة قطعا ، وثلاثة مستحيلة على أحد الاحتمالين ، لان الستة هنا مستحيلة على الاحتمالين معا ، فتضرب ثلاثة عشر في عشرة تبلغ مائة وثلاثين يسقط منها ثلاثة عشر وهو كل مخاطب من هؤلاء الثلاثة عشر فرضناه عالما بالفائدة ،

(١) عروس الافراح ج١ ص ٢٥٤ .

والللازم فانا لا نخاطبه »[1] .

وهذا ما يجعلنا نؤمن ايمانا قويا بأنّ الرجل خرج عن هدفه وعلى ما أدّعاه في كتابه من عزوف عن الفلسفة وعلومها ، وجنوح الى تحكيم الذوق في البلاغة والنقد .

منهجه في الشرح :

وطريقة السبكي في الشرح تختلف الى حد ما عن طريقة الاخرين ، فهو يأخذ جملة أو أول فقرة أو عبارة ، ثم يتكلم على ذلك الموضوع ذاكرا الاوجه المختلفة في المسألة ، محققا ما وسعه التحقيق.أما الآخرون كالتفتازاني والمغربي فطريقتهم أن يأخذوا الكلمات واحدة واحدة ، أو جملة جملة ، ويربطوها بكلمات أخر ، كأن يضيفوا مفعولا ، أو حرف جر ثم يعرضون الآراء ويناقشون ان كان ثمة نقاش ، ومن هنا كان شرح السبكي ذا اصالة وروح ادبية لا نجدها في الشروح الاخرى .

متى ألفه ؟

ولا نعلم متى بدأ السبكي شرح التلخيص ، ولكننا نعرف انه انتهى منه سنة ٧٥٨ هـ جاء في خاتمته : « قال المؤلف ــ رحمه الله ــ فرغت منه بين المغرب والعشاء من ليلة الاثنين عاشر جمادي الاولى سنة ثمان وخمسين وسبعمائة والحمد لله كما يحب ربنا ويرضى ، وصلى الله على نبيه المصطفى ، وعلى آله وصحبه ، وسلم تسليما كثيرا »[2] . وهذا ما يدعونا الى القول بانه اطلع على شرح التفتازاني ، ولا سيما الشرح المطول ، وأن كان لم يذكره مع شروح التلخيص الاخرى ، ودليلنا في ذلك أمران :

الاول : أن السعد انتهى من الشرح المطول ، ونقله الى البياض يوم

---

(١) عروس الافراح ج١ ص ٢١٦ ــ ٢١٧ .

(٢) عروس الافراح ج٤ ص ٥٤٧ .

الاربعاء الحادي عشر من صفر سنة ٧٤٨ هـ بهراة وكان الافتتاح يوم الاثنين من رمضان سنة ٧٤٢ هـ ، بجرجانيةخوارزم ، وانتهى من الشرح المختصـــر سنة ٧٥٦ هـ في غجدوان • وليس من المعقول ان المطول لم يصل الى مصر والشام قبل تأليف عروس الافراح •

والثاني : أن السبكي لمح باسم التفتازاني بقوله بعد كلام طويل في نقد شروح التلخيص : « وكم اوردوا اسئلة وصارخ في التوفيق يناديهم لو قيل : « ما هكذا تورد يا سعد الابل »[1] •

خصـــائصـــه :

وامتاز شرح السبكي بنواحٍ كثيرة[2] منها :

كراهية الفلسفة ، وقد ذكر أنه طَهَّرَ كتابه من اصول الفلاسفة • يقول في بحث اسمية الجملة والفرق بينها وبين الفعليــة : « وقد ذكر المصنف في الايضاح وجها آخر ، وذكر أنه أشبه باصول الفلاسفة وقد قصدت تطهير هذا الكتاب منه »[3] • ولكننا نجــده يعتز بأنه ضمن كتابه شيئا من القواعد المنطقية ، والمقاصـــــد الكلامية ، أو الحكمة الرياضية أو الطبيعية[4] وهذا قليل بالنسبة الى ما نجــده عند شــراح البيئة الفارسية أو الشراح المتأخرين ، ومن هنا نجده يثور على حكم اليونان ويدعو عليهــا بتمزيقها[5] ، وهو في ذلك متأثر بوالده الذي كان ينفر من الفلاسفة والمتكلمين • وقد اظهر السبكي ذلك عندما نقل عن ابيه كلامه في احكام « كل » يقول : « فهذا هو السر في الفرق بين « كل ذلك لم يكن » و « لم يكن كل ذلك » واستقام به كلام اللغويين

---

(١) عروس الافراح ج١ ص ٧ •

(٢) ينظر مناهج تجديد ص ٢٤٨ ــ ٢٥٢ •

(٣) عروس الافراح ج٢ ص ١٠٧ ــ ١٠٨ •

(٤) عروس الافراح ج١ ص ٢٨ •

(٥) عروس الافراح ج١ ص ٢ •

والنحويين ، وكلام المنطقيين وظهر أن العرب ادركت بعقولها السليمة وطباعها الصحيحة ما تعب فيه اليونان دهرهم ، بل زادوا عليه في تحرير دلائل « كل »[1] .

وفي شرح قوله تعالى : ليس كمثله شيء » يقول : « الخامس : لبعض المتكلمين أن نفى المثل له طريقان نفيه ونفى مثله لان من لازم المثل ان له مثلا ونفى اللازم يدل على نفى الملزوم فتحمل الآية على نفى المثل بهذا الطريق من غير زيادة ولا مجاز . وهذا معنى صحيح غير ان العربي الطبع يمجه من غير تأمل ، ويصان القرآن والكلام النصيح عنه »[2] .

وكان اتجاه السبكي بالبلاغة اتجاها عمليا ، فهو يجهر بمزجه قواعد علم البلاغة بقواعد الاصول . وقد سيطرت عليه النزعة الاصولية وذهب الى ان « علمي اصول الفقه والمعاني في غاية التداخل، فان الخبر والانشاء اللذين يتكلم فيهما المعاني هما موضوع غالب الاصول ، وأن كل ما يتكلم عليه الاصولي من كون الامر للوجوب ، والنهي للتحريم ، ومسائل الاخبار ، والعموم والخصوص ، والاطلاق والتقييد ، والاجمال والتفصيل ، والتراجيح ، كلها ترجع الى موضوع علم المعاني ، وليس في اصول الفقه ما ينفرد به كلام الشارع عن غيره الا الحكم الشرعي والقياس وأشياء يسيرة »[3] .

وكان يستعين بعلم الاصول في دعم آرائه وتأييدها ، ومن أمثلة ذلك مناقشته للسكاكي وغيره في علم البيان ، يقول : « قال السكاكي فلما كان علم البيان شعبة من علم المعاني لا ينفصل عنه الا بزيادة اعتبار ، كان كالمركب وعلم المعاني كالمفرد . ثم ان بعضهم قال ان علم البيان باب من ابواب علم المعاني وفصل من فصوله ، وانما افرد كما

---

(١) عروس الافراح ج١ ص ٤٣٦ .
(٢) عروس الافراح ج٤ ص ٢٣٥ — ٢٣٦ .
(٣) عروس الافراح ج١ ص ٥٣ .

يفرد علم الفرائض عن الفقه . وهذا الكلام فيه نظر ، لانه صرح بان علم البيان مركب وعلم المعاني مفرد ، والباب أو الفصل من العلم كالفرائض ليس مركبا بالنسبة الى العلم ، لان الفقه مثلا ان كان اسما لجميع ابوابه على سبيل الكل المجموعي فالفرائض جزء للفقه، فالفقه مركب لا باعتبار الاعم والاخص ، بل باعتبـــار الجمع والمفرد بخلاف علم المعاني فأنه عندهم مفرد كالجنس ، وعلم البيان مركب كالنوع وان كان الفقه مثلا كليا يصدق على كل باب منه وينفصل بعضها عن بعض بخاصــة ، فلا يصح أن يقال حد المعاني يخرج حد البيان كما فعلوه ، لان حد الجنس لا يجوز أن يكون مخرجا للنوع كما ان حد الحيوان لا يجوز ان يخرج الانسان . ولعل هذا القائل اغتر بقول السكاكي : « شعبة منه » والشعبة كالباب ، وغفل عن قوله انه منفصل عنه بزيادة اعتبار ، فانه اشار الى انه ليس كالباب بل كالنوع فان الانسان شعبة من الحيوان ينفصل عنـه بزيــادة النطــق » [1] .

ونقل السبكي عن الاصوليين بعض آرائهم ومصطلحاتهم ، وأهمما نقله عنهم قواعد اصولية فيما يفهمه الكلام وما يراد به ، وآراء الائمة الاصوليين كفخر الدين الرازي الذى ذهب الى ان مــــدلول الخبر بالنسبة لاثبوتها ، وعلل ذلك قائلا : « والا لم يكن الكذب خبرا » [2] .

ونقل عنهم استعمال المجـــاز ، وآراء من ينكر الحقيقة والمجاز العقليين يقول : « ان كثيرا من الاصوليين اطلق ان المجـــاز استعمال اللفظ في غير موضوعه » [3] . وقال وهو يتكلم على الاسناد الحقيقي والمجاز « هذا التقسيم مبني على ثبوت الحقيقة والمجاز العقليين ، وقد أنكره ابن الحاجب تصريحاً في أماليه ومختصره الكبير ، واستبعادا في مختصره الصغير في الاصول » [4] . وذكر رأيهم في المجاز العقلي واتخذ

---

(١) عروس الافراح ج٣ ص ٢٦١ — ٢٦٢ .

(٢) عروس الافراح ج١ ص ١٩٤ .

(٣) عروس الافراح ج١ ص ٢٢٥ .

(٤) عروس الافراح ج١ ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

عبارة « انبت الربيع البقل » محورا لعرض الآراء المختلفة فقال بعد ذلك ملخصا كلامه : « تلخص في نحو « انبت الربيع البقل » اذا لم يكن من كافر ولا كذبا، وفي نحو « حمل زيد الجبل العظيم » أقوال :

أحدها : ان المجاز في « انبت » ، وهو رأي ابن الحاجب •

الثاني : انه في الربيع ، وهو رأي السكاكي •

الثالث : انه في الاسناد ، وهو رأى عبد القاهر والمصنف •

الرابع : انه تمثيل فلا مجاز في الاسناد ولا في الافراد ، بل هو كلام أورد ليتصور معناه فينتقل الذهن منه الى انبات الله تعالى وهو اختيار الامام فخرالدين »[1] •

ونقل عنهم كلامهم في مدلول ادوات الشرط ، يقول : « أما الاصوليون فانهم جعلوا اسماء الشرط كلها عامة من غير فرق بين متى ومتى ما وغيرهما »[2] • وَفَرَّقَ بين استعمالها ومعانيها عندهم وعند الفقهاء والبلاغيين •

وربط بين استعمال الاصوليين ، والبلاغيين في القول بالموجب ، يقول : « ان القول بالموجب في البديع قريب من القول بالموجب في الاصول والجدل ، وهو تسليم الدليل مع بقاء النزاع »[3] •

ونقل عنهم رأيهم في عطف الخاص على العام ، وطرفي التشبيه ، والتفاوت بين ادوات التشبيه ، واشار الى ان للاصوليين خلافا في أن المجاز موضوع اولا •

ونقل بعض امثلتهم في المجاز المرسل ، ورأيهم في المجاز اذا كانت له علاقتان[4] •

---

(١) عروس الافراح ج٢ ص ٢٧١ — ٢٧٢ •

(٢) عروس الافراح ج٢ ص ٩٠ •

(٣) عروس الافراح ج٤ ص ٤٠٦ •

(٤) عروس الافراح ج٣ ص ٢١٧ ، ٢٩٨، ٣٩٣ وج٤ ص ١٣ ، ٣٧ ، ٤٥ ، ١٧٩ •

ونقل رأي الفقهاء في الكناية يقول بعد ان تكلم عليها : « ما ذكرناه من الكناية هو باصطلاح البيانيين ، أما الفقهاء فقد ذكروا الكنايات والظاهر انها عندهم مجاز . فاذا قال الزوج : « أنت خلية » مريدا الطلاق ، فهو مجاز . ويسميه الفقيه كناية ، فلو اراد حقيقة اللفظ لكونه لازما للطلاق »[1] . واخذ عليهم عدم تعرضهم للفرق بين الكناية والتعريض الا في باب اللعان ، فانهم ذكروا التصريح ، والكناية ، والتعريض اقساما .

ومن خصائص كتاب السبكي ربط البلاغة بقواعد اللغة والنحو ، وهذا لا نجده واضحا عند غيره ، ولعل سبب ذلك أنه كان على اطلاع واسع باللغة والنحو فأراد ان يستفيد منها في شرح التلخيص ويمزج بين علوم اللسان العربي . وقد نقل عن علماء اللغة كأبن سيده والجوهري والزمخشري معاني الكلمات والمفردات ، وشرحها ، وعلق عليها ، ونقل وجهات النظر المختلفة ، وربط بين النحوي والبلاغي ، يقول : « ولعلك تقول أي فائدة لعلم المعاني فان المفردات والمركبات علمت بالعلوم الثلاثة ، وعلم المعاني غالبا من النحو . كلا أن غاية النحوي أن ينزل المفردات على ما وضعت له ويركبها عليها ووراء ذلك مقاصد لا تتعلق بالوضع مما يتفاوت به اغراض المتكلم على اوجه لا تتناهى ، وتلك الاسرار لا تعلم الا بعلم المعاني . والنحوي وان ذكرها فهو على وجه اجمالي يتصرف فيه البياني تصرفا خاصا لا يصل اليه النحوي . وهذا كما ان معظم اصول الفقه من علم اللغة والنحو والحديث وان كان مستقلا بنفسه »[2] .

ومن امثلة ذلك كلامه على المرسن ، يقول : « والمرسن بفتح الميم مع فتح السين وكسرها حكاهما ابن سيدة وقال الجوهري انه بكسر

---

(١) عروس الافراح ج٤ ص ٣٧٤ .

(٤) عروس الافراح ج١ ص ٥١ — ٥٢ .

الميم وهو وهم »[1] • ويقول عن لفظة « افرنقعوا »:«وقال الزمخشري: افرنقعوا مأخوذ من حروف الفرقة مع زيادة العين • وفيه نظر، لان العين ليست من حروف الزيادة • وجعله الجوهري مشتقا من فرقعة الاصابع فوزنه على هذا « افعنللوا » وعلى الاول « افعنلعوا »[2] •

ومن مسائله اللغوية الاخرى بحثه في استعمال « لم آل » ومعنى « فصيح » في قول الشاعر :

وتحت الرغوةِ اللبنُ الفصيحُ

ومعاني « خلوص » عند تعليقه على تعريف الفصاحة ، وكلامه عن « الهعخع » والآراء الاربعة فيها •

وتكلم على المعاني التي يحدثها تغيير الكلمات والفرق بين«صفد» و«اصفد» ومعنى « نفذ » و « اللجين» و« الاصيل » و « التدبير في الامر » ومعنى كلمة « عقيم »[3] •

ومن بحوثه النحوية الجيدة كلامه على التأكيد ، وقد بين معناه ، وذكر أدواته والآراء المختلفة فيه ، والفرق بين الادوات في التأكيد[4] •

وله تحقيقات لا بأس بها في «لو» واستعمالاتها ، وقد دعاه الى تحقيق ذلك ما جاء من اختلاف الآراء فيها ، يقول : « أورد كثير من العلماء على قولهم أن «لو» حرف امتناع لامتناع مواضع يسيرة قد يظن أن جواب «لو» فيها غير ممتنع • وأشكلت هذه المواضع على الشلوبين من النحاة ، وعلى الخسروشاهي من الاصوليين ، حتى ادعيا ان «لو» لمجرد الربط ، وعلى ابن عصفور حين ادعى انها فيها بمعنى

---

(١) عروس الافراح ج١ ص ٨٧ •

(٢) عروس الافراح ج١ ص ٨٧ •

(٣) عروس الافراح ج١ ص ٥٩ ، ٧٠-٧٣ ، ٧٧-٧٩ ، ٩٢ ، ٤٨٠-٤٨١ وج٢ ص ٧٤ -٧٥ ، وج٣ ص ٤٦٦-٤٦٧ ، ج٤ ص ٣٨ ، ١٠١ - ١٠٢ •

(٤) عروس الافراح ج١ ص ٢١٩ وما بعدها •

« ان » وادعى جماعة ان الجواب الممتنع محذوف »[1] .

ومن مباحثه النحوية الاخرى كلامه على دخول «من» على افعل التفضيل ، واستعمال «لم » عند النحاة[2] ، واعراب « تسكب» في قول العباس بن الاحنف :

سأطلب بُعْدَ الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناي الدموعَ لتجمُدا

يقول : « تنبيه : يجوز في قوله «وتسكب» النصب عطفا على بعد من باب :

للبس عباءة وتقرَّ عيني أَحبُّ اليَّ من لبس الشفوفِ

ويؤيده أمور منها :

احدها : تصريح جماعة كالخطيبي في مغنى اللبيب بأنه اراد طلب سكب الدموع .

الثاني : أنه المطابق للنصف الاول .

الثالث : انه لا يحسن أن يقول : ستسكب عيناي الدموع والغرض انها ساكبة ، كما ان الدار بعيدة ، وانما تجدد طلبه لهما »[3] .

وبحث في الالف واللام ، والتعريف والتنكير والابدال ، وضمير الفصل ، واستعمال «كل» و «لا» العاطفة واتصال الضمير بعد «انما» والجمل التي لها محل من الاعراب والتي لا محل لها . وتحدث عن اختلاف النحاة في جواز عطف الجملة الاسمية على الفعلية وعكسه ، وعطف الاسم على الفعل وعكسه ، وبحث في الواو العاطفة والحالية[4] .

---

(١) عروس الافراح ج٢ ص ٧٢ .
(٢) عروس الافراح ج١ ص ٤٢ ، ٥٠ ـ ٥١ .
(٣) عروس الافراح ج١ ص ١١٢ .
(٤) عروس الافراح ج١ ص ٣٣١ ، ٣٥٥ ، ٣٧٥ ، ٣٨٥ ، ٤٤٤ وج٢ ص ١٨٧ ، ١٩٤ وج٢ ص ٥٨ ، ١١٠ ، ١١٨ .

وتكلم على أدوات التشبيه واحدة واحدة وبيّن الفروق بينها في قوة المعنى .

وقد غلبت على الجزء الاول من عروس الافراح النزعة الاصولية ، وعلى الثاني الاتجاه النحوي واللغوي ، وعلى الثالث والرابع النزعة البلاغية المحضة . ولعل سر ذلك ان الجزءين الاولين يتعلقان ببحث علم المعاني ، وهو مبني كله على النحو ، أو هو علم النحو بمفهومه الواسع .

وليس هذا كل ما في عروس الافراح فقد امتاز السبكي عن غيره من شراح التلخيص بنزعته الادبية والفنية ، وساق كثيرا من المسائل التي تدل على رهافة حسه وشعوره الفني . ولعل بحثه في الفصاحة ، والاستعارة ، والالتفات وغيرها يدل دلالة واضحة على هذه النزعة ، ومن هنا دعا الاستاذ الخولي الى أن « يكون هذا الكتاب كتاب الدرس الموسع للبلاغة العربية فيكون الممر الموصل للدراسة الادبية الناضجة »[1] . واننا نوافقه على هذه الدعوة ، لان الكتاب يمثل اتجاه مصر في البلاغة العربية ومشاركتها القوية في الاستفادة من مدرسة المشارقة ومدرسة العرب البلغاء ، على شرط ان لا تنحصر دراسة البلاغة في هذا الكتاب وحده ، وانما ينبغي أن ندرس الى جانبه كتبا بلاغية اخرى ذات طابع ادبي محض كالمثل السائر لابن الاثير .

هذا هو كتاب عروس الافراح للسبكي ويتضح مما تقدم أنه لم يخرج عن منهج السكاكي ، لانه لم يكن الا شارحا لكتاب تلخيص المفتاح ، وانّ منهجه هو منهج القزويني الذي اتبع السكاكي . فلقد قسم البلاغة الى معانٍ وبيان وبديع ، واعتمد على ركني الجملة في بحث المعاني ، وعلى الدلالات العقلية في تقسيم البيان . وقسّم البديع الى محسنات معنوية ولفظية ، وأولع بالتقسيمات الى حد الافراط كما أولع السكاكي والخطيب وفاقهما كثيرا ، ولكن هل كان السبكي مقلدا للقزويني في كل ما ذهب اليه ؟ .

---

(١) مناهج تجديد ص ٢٥٢

اراء السبكي :

لقد خاض السبكي بحث البلاغة وهو مسلح بثقافة واسعة ، فكان لا بد أن يظهر أثر هذه الثقافة في شرح تلخيص المفتاح ، وأن تبدو شخصيته واضحة جلية ، وكانت له آراء في البلاغة كما كانت له ردود على علماء البلاغة وغيرهم من اللغويين والنحاة والمتكلمين والفقهاء .

ومن آرائه التي بثها في كتابه الفخم تعميمه الفصل والوصل في الجمل والمفردات واجراء كل صور الجمل في المفردات ، يقول : « قد علم حكم الجملتين في الوصل والفصل ، أما المفردات فلم يتعرضوا لها في ذلك ، والظاهر انهم انما تركوا ذلك لانه في الغالب واضح ، أو لانه يعلم حكمه من الجملتين ولذلك تجد في امثلة المفتاح وغيره حين يمثل بوصل احدى الجملتين بالاخرى كثيرا من المفردات . والذي ينبغي التعرض لذلك فنقول : الاصل في المفردفصله مما قبله ، لان ما قبله أما عامل فيه مثل « زيد قائم » فلا يعطف المعمول على عامله أو معمول فلا يعطف العامل على معموله أو كلاهما معمول والفعل يطلبهما طلبا واحدا فلا يمكن عطفه لانه يلزم قطع العامل عن الثاني مثل « علمت زيدا قائما » ونحو ذلك »[1] . ويمضي يضع القواعد فيقول انه اذا اجتمع مفردات وامكن من جهة الصناعة عطف احدهما على الآخر فان كان بينهما جامع وصلت والا فصلت وهو اقسام ..... »[2] .

وأشار السبكي الى الفصل والوصل بين الجملة والمفرد يقول : « اذا علمت حكم الوصل والفصل بالنسبة الى الجملتين وبالنسبة الى المفردين فلا يخفى عليك حالهما بالنسبة الى جملة ومفرد . وقد جوّزَ أكثر النحاة عطف الفعل على الاسم ، وعطف الاسم على الفعل اذا كان

---

(١) عروس الافراح ج٣ ص ١١٣ ــ ١١٤ .

(٢) ينظر عروس الافراح ج٣ ص ١١٣ ــ ١١٥ .

كل منهما في تقدير الآخر • وقال السهيلي يحسن عطف، الفعل على الاسم اذا كان اسم فاعل ، ويقبح عطف الاسم على الفعل قال فمثل : « مررت برجل يقوم قاعد » ممتنع الا على قبح ، وجوزه الزجاج كعطف الفعل على الاسم ، والاكثرون على الجواز قال تعالى :« صافات وَيَقْبِضْنَ » [1] •

وكان عبد القاهر والقزويني قدذهبا الى ان الفصل والوصل لايكونان الا بين الجمل ، فجاء السبكي وأثبت خلاف ذلك ورأى انهما يعمان الجمل والمفردات •

ومن ارائه الطريفة اعتباره احكام الفصل والوصل فيما يخص الاحوال البلاغية اللغوية، واعتباره الايجاز والاطناب فيما يعم الحروف•

مع القزويني :

ولا يقف الامر عند هذا فقد ناقش السبكي الخطيبَ القزويني ، وَرَدَّ عليه ، وصَحَّح اخطاء انزلق اليها بعضهم • واذا ما اردنا ان نتكلم على السبكي والقزويني فليس لنا الا ان نعرض مناقشاته وردوده مع اتباع طريقته ومنهجه في التأليف ولنبدأ بعلم المعاني •

علم المعاني :

لقد تصدى السبكي للقزويني قبل أن يتكلم على علم المعاني ، وخطأه في تسمية كتابه بالتلخيص ، وقال : ان في هذا نظرا من وجوه منها : انه ليس تلخيصا للمفتاح بل للقسم الثالث منه ، وان التلخيص يؤذن بالاقتصار والموافقة وهو قد خالفه كثيرا وزاد عليه ، وأنه جعله مختصرا في المقدمة والاختصار والتلخيص متنافيان فالاختصار تقليل اللفظ وتكثير المعنى ، والتلخيص الشرح وهو عكس الاختصار ومادته

---

(١) سورة الملك ، الآية ١٩ ، وهي : « او لم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن الا الرحمن ، انه بكل شيء بصير » . عروس الافراح ج٣ ص ١١٥ .

ترجع الى البسط[1] .

وأفاض السبكي في بحث الفصاحة ، وذكر الآراء المختلفة ورَدَّ على الكثيرين ، وأرجع بعض اراء القزويني الى ابن سنان وابن الاثير . وللسبكي في هذا البحث تحقيقــــات حسنة جيدة ، ولعله من احسن الذين بحثوا الفصاحة وشروطها بعد الخطيب .

وتكلم على البراعة التي اهملها الجمهور والقزويني ، وهي ممــا يوصف به الكلام والكلمة . وقد ذكرها القاضي أبو بكر في الانتصار مع الفصاحة والبلاغة ، وحَدَّها بما يقرب من حد البلاغة[2] . ورد على القزويني في تعريف الفصاحة ، ورأى انه من الاحسن اجتنــــاب لفظ « الخلوص » في قول القزويني لغلبة استعماله في الانفكاك عن الشيء بعد الكون فيه ، وليس المراد هنا كذلك[3] . ومضى في بحث شروط الفصاحة ، وتحدث بالتفصيل عن التنافر ، وضعف التأليف ، والغرابة ، ومخالفة القياس ، والكراهة في السمع . ورَدَّ عليه في الغرابة ، لانه فسرها تفسيرا يتعلق بغرابة المعنى لا غرابة الكلمة[4] . ورد عليه في مخالفة القيــاس ، لان كثيرا من الكلمات خالفت القياس ، ولكنها مع ذلك فصيحة لورودها في القرآن الكريم[5] . ورَدَّ عليه في تعليقه على بيت أبي تمام :

كريمٌ متى أمدحه أمدحه والورى معي ، واذا ما لمته لمته وَحْدي

ذهب القزويني الى أن في « امدحه » ثقلا لما بين الحاء والهاء مــن التنافر ، ولكن السبكي يقول : « فيما قاله من ثقل « امدحه » نظر ، فان اجتماع الحاء والهاء فصيح لوروده في القرآن قال الله تعالى : «ومن

---

(1) عروس الافراح ج1 ص 62 ـ 65 .
(2) عروس الافراح ج1 ص 75 .
(3) عروس الافراح ج1 ص 77 .
(4) عروس الافراح ج1 ص 87 .
(5) عروس الافراح ج1 ص 88ـ89 .

الليلِ فَسَبِّحْهُ »[1] ، وانما جاء الثقل هنا من تكرار « امدحه »[2] .

ومع ان السبكي سار على منهج القزويني نراه ينقده في بعض المواضع فيقول : « فذكر المصنف الاسناد ، والمسند اليه والمسند ، ثم المتعلقات، ثم القصر الذى يعم الاسناد والتعلق ، ثم ذكر الانشاء ، وكان ينبغي تأخير القصر عنه ، لان القصر يدخل في الانشاء كما يدخل في الخبر»[3] .

ووافقه على حصر الكلام في الخبر والانشاء ، غير أنه ذكر أن منهم من يخص الانشاء بما لا طلب فيه ، وقسّمه الى خبر وطلب وانشاء ، ومنهم من جعله ثلاثة أقسام : خبر ، وانشاء وهو ما دل على الطلب دلالة اولية ، وتنبيه ويدخل في الاستفهام،والتمني ، والترجي، والقسم، والنداء ، وهو اصطلاح الامام فخر الدين الرازي . ومنهم من جعل الكلام خبرا وطلبا ، وهو رأي ابن مالك في الكافية . ومنهم من ربع الاقسام وقال : خبر ، واستخبار ، وطلب ، وانشاء[4] .

وَرَدَّ عليه في المجاز العقلي ، فقد ذكر القزويني ان مثال اسناده الى المصدر قولهم « شعر شاعر » فان «شاعر» اسند الى ضمير الشعر، يقول السبكي عنه : « وليس مثالا صحيحا ، لا « شعرا » في قولنا « شعر شاعر » المراد به المشعور وهو نفس المنظوم ، لا الشعر الذي هو المصدر ، والمثال الصحيح :

سيذكرني قومي اذا جَدَّ جدهُم   وفي الليلة الظلماء يُفْتَقَدُ البدرُ

وكذلك قوله تعالى : « فاذا نُفِخَ في الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ »[5] .

---

(1) سورة ق ، الآية ٤٠ ، وسورة الطور ، الآية ٤٩ .
(2) عروس الافراح ج١ ص ١٠١ .
(3) عروس الافراح ج١ ص ١٧٢ .
(4) عروس الافراح ج١ ص ١٧٣ .
(5) سورة الحاقة ، الآية ١٣ . عروس الافراح ج١ ص ٢٣٦ .

ويرى السبكي ان يسمى المجاز العقلي « مجاز الملابسة » ولا يقال مجاز اسناد ، لغلبة استعمال الاسناد بين الفعل وفاعله أو ما قام مقامه فقط[1].
وعقّب على رد القزويني على السكاكي في المجاز العقلي ، وناقشه ، ونقل آراء كثيرة في الموضوع ، يقول : « قال السكاكي : الذي عندي نظمه في سلك الاستعارة بالكناية في قولهم « أنبت الربيع البقل» وأورد عليه المصنف ما أورده وفيه نظر . أما قوله أنه يلزم أن يكون المراد بـ « عيشة » في قوله « عيشة راضية صاحبها » فليس كذلك بل لنا في تصحيح كلامه طريقان :

أحداهما : ان راضية في معنى الصفة الجارية على غير من هي له في المعنى لا من حيث الصناعة كأن قال : « راض صاحبها » لا على أحد التقادير السابقة ، فان ذلك تقدير لفظي وهذا معنوي ، فانا نجعل الاسناد الى ضمير العيشة وهي صفة جارية في اللفظ على العيشة ، وفي المعنى على صاحبها ، والمعنى «في عيشة رضى صاحبها » . فضمير راضية يعود على العيشة ، وهو استعارة بالكناية ، والمسند وهو اسم الفاعل استعارة تخييلية قارنت المكنية .

فان قلت : كان السكاكي مستغنيا عن هذا بان يجعل الاسناد الى صاحبها الحقيقي كما هو أحد التقادير السابقة ، ولا حاجة الى الاستعارة بالكناية ، قلت : تفوت المبالغة المقصودة .

الثانية : انه يلتزم ما ذكره المصنف ، وأن المراد بعيشة صاحبها ولا يلزم أن يكون الشيء في نفسه ويجعل العيشة وضميرها المستتر في راضية اريد بهما صاحب العيشة فتكون العيشة استعارة بالكناية والمسند في راضية استعارة تخييلية . ولابدع ان يكون صاحب العيشة الحقيقي في صاحبها المجازى على سبيل الاستعارة للمبالغة . فان قلت : المصنف لا يرى ان الاستعارة بالكناية اريد بها غير موضوع اللفظ فكيف يقول

---

(١) عروس الافراح جـ١ ص ٢٥٤ .

يلزم السكاكي أن يكون المراد بعيشة صاحبها . قلت : الزمه برأيه ، لان السكاكي يرى ان الاستعارة بالكناية مجاز باطلاق لفظ المشبه وارادة المشبه به مدعيا ان المشبه به فرد من افراد المشبه وقد خبط كثير من الناس في هذا المكان والتحقيق ما قلناه والله اعلم »(1) .

وأضاف السبكي الاستغراق في الاضافة ، وهو مما اهمله غيره ، يقول : « عجيب من اهل هذا الشأن كيف لم يذكروا ارادة الاستغراق من اسباب الاضافة وهي من ادوات العموم . كما أن اداة التعريف كذلك ، بل عموم الاضافة ابلغ ... ولم يتعرضوا لما اذا خلا ذلك من اعتبارات مناسبة »(2) .

ولم يَنْسَقْ في هواه ، فأنصف القزويني في بعض المسائل فقال في بحث التنكير « والسكاكي خلط التعميم بالتنكير والتحقير بالتقليل ، والذي فعله المصنف أصوب لانه لا تلازم بينهما »(3) . واعتذر له في اسباب التقديم قائلا : « وذكر السكاكي من اسباب التقديم أن يكون ضمير شأن أو قصة ، وتركه المصنف ، لانه يدخل في ارادة التشويق(4) .

وللسبكي التفاتات طيبة في بحث المسند اليه ، وقد أجاد في بحث حذف المسند اليه وذكره ، والتعريف بالموصولية واسم الاشارة(5) .

وله تحقيقات لا بأس بها في الالتفات ، فقد وجد أن معظم من بحثه لم يوضح العبارة عن حقيقته ، وربما توهم قوم أنه لفظي ، وربما اشكل التمييز بين حقيقته وحقيقة التجريد ، وحقيقة وضع الظاهر موضع المضمر وعكسه ، ثم في كونه حقيقة أو مجازا . وأثبت أن النقل في الالتفات معنوى لا لفظي فقط ، وفرّق بين الالتفات والتجريد وذكر

---

(1) عروس الافراح ج1 ص 264 — 267 .
(2) عروس الافراح ج1 ص 374 .
(3) عروس الافراح ج1 ص 355 .
(4) عروس الافراح ج1 ص 395 .
(5) عروس الافراح ج1 ص 273 ، 282 ، 302 ، 313 .

أن بينهما عموما وخصوصا من وجه فيوجد التجريد دون الالتفات كقولنا « رأيت منه اسدا » وقول امرىء القيس :

تطاول ليلك بالاثمدِ   ونام الخَليُّ ولم ترقدِ

ويوجد الالتفات دون التجريد في نحو :

تكلفني ليلى وقد شط وليها   وعادت عواد بيننا وخطوبُ

ونحو قوله تعالى : « والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه »[1] ، والتفات وتجريد في نحو « فَصَلِّ لربك »[2] ولا واحدا منهما كغالب القرآن . والالتفات عنده حقيقة « حيث كان معه تجريد وحيث لم يكن »[3] .

ولم يتطرق القزويني لهذه النواحي ، وقد كان بحث السبكي اكثر طراوة والصق باساليب العرب ، ولعل لثقافته الادبية الواسعة أثرا في ذلك .

وختم البحث باستدراكات على القزويني في بحث اتيان الكلام على خلاف مقتضى الظاهر يقول :

« أهمل المصنف أموراً كثيرة من اتيان الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، كل منها يصلح أن يكون من ابواب المعاني اذا اعتبرت فيه نكتة لطيفة »[4] .

والامور التي استدركها عليه هي : انتقال الكلام من خطاب الواحد أو الاثنين أو الجمع لخطاب الآخر وهو ستة أقسام :

---

(١) سورة فاطر ، الآية ٩ .
(٢) سورة الكوثر ، الآية ٢ .
(٣) عروس الافراح ج١ ص ٤٧٧ .
(٤) عروس الافراح ج١ ص ٤٩٢ .

الاول : الانتقال من خطاب الواحد لخطاب الاثنين كقوله تعالى : « قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض »[1] .

الثاني : الانتقال من خطاب الواحد الى الجمع كقوله تعالى : « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء »[2] .

الثالث: من الاثنين الى الواحد كقوله تعالى: « قال: فمن ربكما يا موسى »[3] .

الرابع :من الاثنين الى الجمع كقوله تعالى : « وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة »[4] .

الخامس : من الجمع الى الواحد كقوله تعالى : «وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين »[5] .

السادس : من الجمع الى التثنية كقوله تعالى:« يا معشر الجن والإنس إن استطعتم »[6] ، الى قوله تعالى : « فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

ومنها التعبير بواحد من المفرد والمثنى والمجموع والمراد الآخر . والفرق بين هذا والذي قبله ، ان الاول لم يعبر فيه عن جمع او تثنية ولا عكسه ، بل استعمل كل في معناه ثم انتقل عنه لغيره ، وما نحن فيه عبر فيه بأحد الاساليب الثلاثة واريد غيره وهو أقسام :

الاول : التعبير بالمفرد وارادة التثنية ، وجعل منه الحاتمي في

---

(١) سورة يونس ، الآية ٧٨ .
(٢) سورة الطلاق ، الآية ١ .
(٣) سورة طه ، الآية ٤٩ .
(٤) سورة يونس ، الآية ٨٧ .
(٥) سورة يونس ، الآية ٨٧ .
(٦) سورة الرحمن ، الآية ٣٣ .

حلية المحاضرة قـول الاعشى :

فرجي الخـير وانتظري ايابي اذا ما القـارظ العنزي آبـا

وانما هما قارظان من عنزة ، وانما قالواكذلك لانهماصاراكالشيئين اللذين لا يغني احدهما عن الآخر فانهما يعبر عنهما بصيغة المفرد، اما في المسند كقولهم « عيناه حسنة » أو في المسنـد اليه كقولهم « عينـه حسنتـان » ، ومنـه :

وميـة اجمل الثقلين جيـداً وسـالفة وأحسنه قـذالا

الثاني : التعبير بالمفرد وارادة الجمع ووجهـه ما سـبق انشـد الحاتمي :

وذبيان قد زَلَّتْ باقدامها النَّعْلُ

وجعل منه استعمال « مَنْ » الموصولة لجمع .

الثالث: التعبير بالمثنى عن المفرد ووجهه ارادة التأكيدبتقسيم الشيء الى شيئين وتسمية كل منهما باسمه والاشعار بارادة تكرار الفعل وان الفعلين امتزجا وصار حضور احدهما حضوراً للآخر وجعلوا منه :

أأطعمت العراقَ ورافديهِ فزارياً أحذَّ يـد القميص

وانشـد الحـاتمي :

عشية سال المربدان كلاهمـا عجاجة صوت بالسيوف الصوارمِ

الرابع : التعبير بالمثنى عن الجمع وجعل النحاة منه « حنـانيك » واخواته .

الخامس : التعبير بالجمع عن المفرد مثل قولهم «شابت مفارقه» وقول

امـــرىء القيس :

يَزِلُّ الغلامُ الخف عن صهواته ويلوى باثواب العنيف المُثَقَّلِ

السادس : التعبير بالجمع عن التثنية ، ووجهه ما سبق إلّا أنه يجوز أن تكون قصدت المبالغة بتقسيم كل من الشيئين الى اشيـــاء ، أو أن تكون قصدت المبالغة في أحدهمـــــا بتقسيمه دون الآخر ، لان الجمع يحصل بثلاثة ، ومنه : المناكب والمرافق والحواجب وانما هما منكبان.

ومنها تذكير المؤنث وعكسه ، فالاول لتفخيمه كقوله تعالى: « فمن جَاءه موعِظَة" مـــن ربّهِ »[1] ولـــــذلك يجوز تذكير كل مؤنث مجازي ومنه :

ولا ارض أبقل إبقالهـــا

لانه اراد تفخيم الارض فعبر عنها بما يعبر به عن المكان .

والثاني : لارادة تسمية كل جزء منه باسمه ومنه « جاءته كتـــابي فاحتقرها » اشارة الى أنه جاءه منه كتاب في معنى الكتب المتعـــددة ، والنحاة يقولون : انّه على ارادة الصحيفة .

ومنها نفي الاخص ، والمراد نفى الاعم وعكسه .

وبذلك خرج السبكي عن الدائرة التى رسمها القزويني ، واستفاد من ابن الاثير ، والتنوخي ، والحاتمي وغيرهم في بحث هذه الموضوعات الجديرة بالبحث والنظر العميق ، ولا ندري لماذا أهملها القزويني مع أنه كان مطلعاً على معظم هذه الكتب .

ونقده في بحث التغليب ، يقول وهو يتكلم على « إن » الشرطية ومعناها : « لما توهم المصنف أن ما سبق محتمل للتغليب استطرد لذكر باب التغليب ، وليته لم يذكره هنا لعدم ثبوت ان ماسبق من التغليب »[2] ،

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٧٥ .

(٢) عروس الافـراح ج٢ ص ٥١ .

ولكنه بحث التغليب في موضوع « ان متابعا » القزويني .

هذا ما يتعلق ببحث المسند اليه ، أما بحث المسند فقد عقب عليه وهو يتحدث عن التقديم في بيتي حسان وهو يمدح رسول الله (ص) :

له هِمم لا منتهى لكبـارها وهمته الصغرى أجَلّ من الدهرْ
له راحةٌ لو أنّ معشارَ جودها على البر كان البَرّ أندى من البحرِ

يقول : « ويمكن ان يقال التقديم هنا أما للاختصاص ، واما للتفاؤل ومسرة السامع مثل « عليه من الرحمن ما يستحقه » أو عكسه كما تقدم في المسند اليه وان كان المصنف أهمل هذا القسم هنا ولاوجه لاهماله »[1] .

ونقده في باب أحوال متعلقات الفعل يقول : « هذا الباب لاحوال متعلقات الفعل . ولم يستوعبها المصنف بل ذكر منها الفاعل والمفعول ، وذكر الفاعل فيه نظر ، لانه مسند اليه فكان ذكر أحواله بباب المسند اليه أليق . ثم الاحوال التي يريدها هي الذكر والترك والتقديم والتأخير فقط ، والترك لا يتأتى في الفاعل لانه لا يحذف »[2] .

وليس في هذا البحث ردود كثيرة ، ولكنه اختلف عنه في الشرح ، فبعد أن أوجز القزويني هذه الموضوعات نرى السبكي يبسط القول فيها ويذكر الامثلة الكثيرة .

وتابع القزويني في طرق القصر ، غير أنه اضاف الى ما ذكر أنواعا اخرى منها الفصل ، ومنها ذكر المسند اليه ، ومنها تعريف المتبدأ مثل « المنطلق زيد » على قول ، ومنها تعريف الخبر في نحو « زيد المنطلق» ومما يذكر من ادوات الحصر مثل « جاء زيد نفسه » ومنها « ان زيدا لقائم » ومنها قلب بعض حروف الكلمة فأنه يفيد الحصر على ما نقله

---

(١) عروس الافراح ج٢ ص ١١٦ .

(٢) عروس الافراح ج٢ ص ١١٩ ـ ١٢٠ .

الزمخشري في الكشاف عند الكلام على قوله تعالى : « والذين اجتنبوا الطاغوتَ أنْ يَعْبُدُوها » [1] فأن القلب للاختصاص بالنسبة الى لفظ الطاغوت ، لان وزنه على قول « فعلوت » من الطغيان كملكوت ورحموت ، قلب بتقديم اللام على العين فوزنه « فلعوت » . وفيه مبالغات كتسميته بالمصدر والتاء تاء مبالغة والقلب وهو للاختصاص اذ لا يطلق على غير الشيطان . ومنه نحو « قائم » في جواب « زيد اما قائم أو قاعد » ، وعد بعضهم من تراكيب القصر « زيد قام ولم يقم غيره » أو « لم يقم أحد غير زيد » ، ومنها تقديم المعمول في نحو «زيداً ضربت » ومنها « أنما » بالفتح ، ومنها حذف المسند لادعاء التعيين أو للتعيين مثل « يعطي بدرة ويفعل ما يشاء »[2] .

وانتقل السبكي الى بحث الانشاء ، ولم يعجب بتقسيمهم الانشاء الى طلب وغيره ، والاحسن ان يقال : « الى طلبي وغيره »[3] .

ورد على من أدخل مثل « نعم الرجل زيد »و«ربما نصحك عمرو» و « كم غلاما شريت » و « عسى أن يجيئك » في غير الطلبى ويرى أن هذه من اساليب الخبر ، ودلل على ذلك بما لا يجعل الشك في برهانه ، يقول : وقد عدوا في غير الطلبى ، « نعم الرجل زيد » و « وربما نصحك عمرو » و« كم غلاما شريت » و« عسى أن يجيء زيد » . وفيه نظر ، لان الاول قد يقال أنه خبر وقول كثير من النحاة أن نعم وبئس لانشاء المدح والذم لا ينافي ذلك لجواز أن يريدوا دلالتها على ذلك الناشئة بالاخبار . قال الطيبي في شرح التبيان قال الاسترابادى فيكون فعلي التعجب وفعلي المدح والذم وكم الخبرية انشاء نظر ، لاحتمالها الصدق والكذب باعتبار نفس الخبر وأن لم يحتملا باعتبار المدح والذم . ومن ثم لما بشر أعرابي ببنت فقيل « نعمت المولودة » ، قال :

---

(١) سورة الزمر ، الآية ١٧ .

(٢) عروس الافراح ج٢ ص ١٩٧ وما بعدها .

(٣) عروس الافراح ج٢ ص ٢٣٤ .

« والله ما هي بنعمت المولودة » . قال الجرجاني وهم ،لان هذه الافعال لا تحتملها باعتبار النسبة التي يحصل بها الكلام . ومما يدل على انهما خبران وقوع نعم خبر «إنّ» في قوله تعالى: «إنّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم به »[1] . ووقوعها جواب القسم في قوله تعالى : « ولَنِعْمَ دارُ المتقين »[2] وكذلك بئس قال تعالى : « ولبئسَ ما شَروا به أنفسَهم »[3] . وأما « ربما نصحك عمرو » فلا اشكال في كونه خبرا ، وكذلك كم الخبرية قال ابن الحاجب في أماليه : « كم رجال عندي » يحتمل الانشاء والاخبار ، أما الانشاء فمن جهة التكثير ، لان المتكلم عبر عما في باطنه من التكثير بقوله: «رجال» ،والتكثير معنى محقق ثابت في النفي لا وجود له في خارج حتى يقال باعتباره إنْ طابق فصدَق ، وإنْ لم يطابق فكَذَب ، ويحتمل الصدق والكذب فهو كلام محتمل للامرين باعتبار الاحتمالين المذكورين المختلفين »[4] .

وأما « عسى ان يجيء زيد » فهو عند السبكي ترجٍّ كالتمني، ومن الانشاء غير الطلبي صيغ العقود .

واضاف الى ما ذكره القزويني من خروج الامر عن معناه وجوها أخر ، وكان القزويني قد ذكر تسعة منها هي :

الاول : الاباحة نحو : « جالس الحسن أو ابن سيرين » .
الثاني : التهديد مثل : « اعْمَلوا ما شِئْتُم »[5] .
الثالث : التعجيز كقوله تعالى: « فأتوا بسورةٍ من مِثْلِه »[6] .
الرابع : التسخير نحو قوله تعالى :«كونوا قِرَدَةً خاسئينَ»[7] .

---

(١) سورة النساء ، الآية ٥٨ .
(٢) سورة النحل ، الآية ٣٠ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ١٠٢ .
(٤) عروس الافراح ج٢ ص ٢٣٤ وما بعدها .
(٥) سورة فصلت ، الآية ٤٠ .
(٦) سورة البقرة ، الآية ٢٣ .
(٧) سورة البقرة ، الآية ٦٥ .

الخامس : الاهانة كقوله تعالى : « كونوا حِجارةً اوحديدا! »[1] .

السادس : التسوية كقوله تعالى: «فاصْبِروا أو لاتَصْبِروا!»[2] .

السابع : التمني كقول امرىء القيس :

ألا أيّها الليلُ الطويلُ ألا انجلِ   بصبحٍ وما الا صباحُ منك بأمثلِ

الثامن : الدعاء وهو الطلب من الاعلى على سبيل التضرع مثل : « اللهم اغفر لي » .

التاسع : الالتماس وهو الطلب من المساوى كقولك بلا استعلاء لمن يساويك رتبة « اسقني ماء »[3] .

هذا ما ذكره القزويني ، وقد ذكر السبكي أن بعضهم قد زاد على اغراض الامر المجازية وجوها أخرى هي :

الندب : كقوله تعالى : « فكاتِبوهم »[4] .

والارشاد : كقوله تعالى:«واستشهدوا شَهيدين من رجالكم»[5] .

والانذار : نحو « قل تمتعوا »[6] .

والامتنان : نحو « فكلوا مما رزقكم الله »[7] .

والاكرام : كقوله تعالى : « ادخلوها بسلام »[8] .

والتكوين : كقوله تعالى : « كن فيكون »[9] .

---

(١) سورة الاسراء ، الآية ٥٠ .
(٢) سورة الطور ، الآية ١٦ .
(٣) الايضاح ص ١٤٣ ــ ١٤٥ ، وعروس الافراح ج٢ ص ٣١٢ وما بعدها .
(٤) سورة النور ، الآية ٣٣.
(٥) سورة البقرة ، الآية ٢٨٢ .
(٦) سورة ابراهيم ، الآية ٣٠ .
(٧) سورة النحل ، الآية ١١٤ .
(٨) سورة الحجر ، الآية ٤٦ .
(٩) سورة الانعام ، الآية ٧٣ .

والخبر : نحو : « اذا لم تستح فاصنع ما شئت » .
وبمعنى الانعام مثل : « كلوا من طيبات ما رزقناكم »[1] .

والتفويض : كقوله تعالى : « فاقْضِ ما أنت قاضٍ »[2] .
والتعجب : كقوله تعالى : « كونوا حجارة »[3] . وقوله : «انظر كيف ضربوا لك الامثال »[4] .
والامر : بمعنى التكذيب كقوله تعالى:«فاتوا بالتوراةفاتلوها»[5] وقوله تعالى : « قل هَلُمَّ شُهداءكم الذين يَشْهدون أنَّ اللهَ حَرَّمَ هذا »[6] .

وبمعنى المشورة : مثل « فانظر ماذا ترى »[7] .

والامر : بمعنى الاعتبار كقوله تعالى : « انظروا الى ثمره اذا اثمر »[8] .

والتحريم : كقوله تعالى : « قل تمتعوا فان مصيركم الى النار »[9] .
والتعجب : نحو : « أحسن يزيد » .

ومعظم هذه المعاني نقلها عن علماء البلاغة والاصوليين، وردّ على كثير منها ، وختم بحثه فيها بقوله : « وغالب هذه المعاني فيها نظر»[10] .

واهمل القزويني انواعا من الانشاء الطلبي كالترجي ، والقسم ، وقد اضافهما السبكي ورد عليه في العرض ، يقول : « واما العرض فهو

---

(1) سورة البقرة ، الآية ١٧٢ .
(2) سورة طه ، الآية ٧٢ .
(3) سورة الاسراء ، الاية ٥٠ .
(4) سورة الاسراء ، الآية ٤٨ .
(5) سورة آل عمران ، الآية ٩٣ .
(6) سورة الانعام ، الآية ١٥٠ .
(7) سورة الصافات ، الآية ١٠٢ .
(8) سورة الانعام ، الآية ٩٩ .
(9) سورة ابراهيم ، الآية ٣٠ .
(10) عروس الافراح ج٢ ص ٣٢٢ .

إنشاء ، وقد جعله مولدا عن الاستفهام • ويرد عليه أنه كان ينبغي أن يجعل العرض قسما من أقسام الاستفهام كما جعل التحضيض قسما من التمني أو يجعلهما قسمين برأسهما ، لان حرف الاستفهام في كل منهما لان في كل منهما اداة استفهام اتصل بها « لا » بل أولى لان « هلا » استعملت فيها « هل » التمنى ، ثم زيد عليها « لا » فاستمر فيها عنده معناها المجازى من التمنى • وأما « ألا تنزل عندنا » فان الهمزة لم تنتقل عن الاستفهام قبل العرض لغيره »[1] .

وحمل السبكي على القزويني وغيره في الفصل والوصل ، لانه نظر في كلامهم في هذا الباب فوجد اقساما متداخلة ، بين كثير منها عموم وخصوص من وجه ، وبعضها يدفع بعضا ، ووجدهم قرروا فيه قواعد لا تخلو من اشكال ، وذكروا أمورا غير الصواب من جعل ماليس له محل من الاعراب ذا محل وعكسه•وقددفعه هذا الخلط والاضطراب الى ابتداع قاعدة وتقسيم لهذا الباب يسهل به تعاطيه • وقد فعل ذلك ولكن غالب ما ذكره من هذه القواعد ليس فيه مخالفة للسكاكي اذا تأمله الباحث حق التأمل ، وانما وقع الخلل في كلام من بعده لانهم لم يتأملوا كلامه[2] •

وكان من المؤمل أن ييسر هذا الباب ، ويجعله سهل التناول ،ولكنه أضل نفسه ، وأضل القاريء بكثرة التقسيمات التى تقلنا طرفا منها• وبذلك لم يأت الا ببعض الاشارات القليلة التى لا تفيد كثيرا •

ونقد القزويني في بعض المواضع ، وهو نقد لا يصحح قاعدة ، ولا يضيف شيئا ذا قيمة •

ورد على القزويني في بحث الايجاز والاطناب والمساواة ، ونقده في التطويل والحشو وأمثلة المساواة ، وقد نظر السبكي الى هذه

---

(١) عروس الافراح ج٢ ص ٣٣٨ .
(٢) عروس الافراح ج٣ ص ٤ .

الموضوعات نظرة اكثر تحررا من نظرة القزويني ، وأكثر فنية واستجابة للاساليب . وله نظرات نقدية في هـذه البحوث لا بأس بها . واضاف انواعا من ايجاز القصر ، منها باب القصر بـ « الا » سواء أكان الاستثناء مفرغا نحو « ما قام الا زيد » أم تاما نحو « ما قام احد الا زيد » ،لان الاول موجز ، والثـاني موجز من وجـه مطنب من وجه . أو القصر بـ «انما» نحو « انما زيد قائم » ، أو بالتقديم نحو « أنا قمت » ، لان في كل منها نابت الجملة مناب جملتين حكم في أحداهما على المستثنى ، وفي الاخرى على المستثنى منه . وكذلك جميع انواع القصر وليس شيء من ذلك بايجاز حذف لان الكلام مستوفى الاجزاء لم ينقص منه شيء ، ومنها نحو « قام زيد وعمرو » فانه في معنى « وقـام عمرو » وحصل بالواو الايجاز والاغناء عن تقدير الفعل على مذهب البصريين . ومنها الاقتصار على المبتدأ وطرح الخبر لفظا . ومنه نحو « أقائم الزيدان ؟» لان « قائم » مبتدأ لا خبر له ، ومنها باب « علمـت انك قائم » فاذا جعلنا الجملة سادة مسد المفعولين ، فان الجملة تنحل لاسم واحد سد مسد اسمين مفعولين من غير حذف . ومنها باب النائب عن الفـاعل في « ضرب زيد » فـ « زيد » دل على الفاعل باعطائه حكمـه ، وعلى المفعول بوضعه ، ومنها بـاب التنـازع ، ومنها طرح المفعول ، بمعنى: استعمال المتعدى لازما ، ومنها جميع باب اسماء الاستفهام واسمـاء الشرط . ومنها الالفاظ الملازمة للعموم مثل احد وديار . ومنهـا لفظ الجمع فان الزيدين يغنى عن زيد وزيد وزيد[1] .

علم البيان :

ولا يختلف منهج السبكي في علـم البيان عن منهج السكاكـي والقزويني ، وأن عالجه معالجة أقرب الى روح البلاغة العربية ، يقول: « قال جماعة : ان هذا العلم أخص من علم المعـاني ، وأن علم المعاني

(١) عروس الافراح ج٣ ص ١٨٩ ـ ١٩٠ .

كالمفرد والبيان كالمركب . فان صح على ما فيه من البحث فهو متأخر عنه طبعا ، فلذلك أخر عنه وضعا »[1] .

وناقش من ذهب الى ان علم البيان أخص من المعاني ، وانه بمنزلة المركب والمعاني بمنزلة المفرد . ورَدّ على من ذهب الى انه باب من ابواب علم المعاني . وقال عن علم البيان : « لا شك ان الايراد الواحد للمعنى الواحد بالطرق المختلفة لا يمكن ، فلو قال المصنف « باحدى طرق » لشمل الايراد الواحد وكان احسن لان قوله « بطرق » لا يتأتى الا عند تعدد الايراد ، وليس القصد منحصرا في ذلك »[2] .

وتكلم على الدلالات التي حشرها البلاغيون في علم البيان حشراً ، ولم يفصل فيها ، ويشعب مسائلها كما فعل ابن يعقوب المغربي ، فقد اكتفى بعرضها ملخصة مهذبة . وذهب الى ان الكناية حقيقة بينما ذهب القزويني الى انها ليست حقيقة ولا مجازا وفرق بينها وبين المجاز ، لان غالب المصنفين في البلاغة خبط فيه ، ولم يحققه . ولكنه مع ذلك لم يخرج عن نطاق التمحلات الفلسفية ، ولم يستطع أن يعطينا الدليل الواضح الملموس في الفرق بينهما ، وبقي ينتقل في كلامهم من لازم وملزوم ، وملزوم ولازم كما فعل السكاكي من قبل[3] .

ورَدّ على القزويني في تقديم المجاز على الكناية ، وفي تحليل بعض أمثلة التشبيه . ولعل أهم ما حرره السبكي في التشبيه بحث ادواته التى اهمل القزويني تحريرها ، وبحث التفاوت بينها ، يقول السبكي : « ولم يحرر البيانيون معنى هذه الادوات فظاهر كلامهم ان معناها واحد »[4] . وليس الامر كذلك فان الكاف وكأن ومثل للتشبيه في أي شيء كان لا تختص بنوع دون آخر . وذكر السبكي ان

---

(١) عروس الافراح ج٣ ص ٢٥٨ .

(٢) عروس الافراح ج٣ ص ٢٦٢ .

(٣) عروس الافراح ج٣ ص ٢٨٣ وما بعدها .

(٤) عروس الافراح ج٣ ص ٣٩٣ .

بين صيغ التشبيه تفاوتا لم يتعرض القزويني ولا غـيره للفرق بينها بل يقتضي كلامهم أن معناها واحد وأن رتبتها متساوية والتحقيق في ذلك أن يقال ان كان شيء من هذه الصيغ يدل على المشابهة من كل وجه فهو أبلغ الصيغ • وهذا البحث من اجل بحوث السبكي ، وفيه مادة خصبة تدل على اطـلاع واسع •

ونبه على اهمال القزويني أحد انواع التشبيه المجمـل ، يقول : « واعلم ان المصنف سكت عن القسم الرابع وهو ما ذكر فيـه وصف المشبه يقتضي ان يكون وجه الشبه فيه اتم منه في المشبه به والحـال بالعكس ممنوع ، لانا نقول ذكره في المشبه لا يستدعي ان يكون فيه أتم فقد يكون طوى ذكره في المشبه به لانه فيه اشهر واتم »[1] • ورد عليه في التشبيه المؤكد فقد جعل القزويني منه قول الشاعر :

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهبُ الاصيل على لُجين الماءِ

ويرى السبكي أن هذا المثـال غير صحيح ، لانه استعارة لا تشبيه[2] •

ولم يَكْتَفِ السبكي في بحث مراتب التشبيه بالرتب الثمانيةالتي ذكرها القزويني ، بل ذكر أن الصيغ الممكنة في التعبير عـن ذلك ثماني عشرة ، يقول : « وقد علم أن للتشبيه اربعة اركان المشبـه والمشبه به والاداة ووجه الشبه ، فالصيغ الممكنة في التعبير عن ذلك ثماني عشرة :

احداها : ان تذكر الاربعة كقولك « زيد كالاسد في الشجاعة » •

الثانية : أن يحذف المشبه فقط كقولك « كالاسد في الشجاعة »أي زيد ، وليس لواحدة من هـاتين الصورتين شيء مـن القوة لعدم الموجـب لهـا •

---

(١) عروس الافراح ج٣ ص ٤٤٠ •

(٢) عروس الافراح ج٣ ص ٤٦٥ •

الثالثة : ان تحذف الاداة فقط كقولك « زيد أسد في الشجاعة » وفيه نوع قوة لجعل المشبه في ظاهر اللفظ هو المشبه به .

الرابعة : ان يحذف وجه الشبه فقط كقولك « زيد كالاسد» وفيها نوع قوة ليس في التي قبلها لان وجه الشبه عند حذفه عام في الظاهر.

الخامسة : ان يحذف المشبه به وهذا القسم لم يتعرضوا له توهما منهم أنه متعذر ، وليس كذلك بل مثاله كقولك « زيد مثل في الشجاعة» أي : مثل الاسد بقرينة تدل على ارادة الاسد والظاهر أنه لا قوة لهذا.

السادسة : ان يحذف اثنان وهما المشبه وكلمة التشبيه كقولك « اسد في الشجاعة » أي زيد ولها نوع قوة .

السابعة : ان يحذف المشبه والمشبه به كقولك : «مثل في الشجاعة» أي زيد .

الثامنة : انْ يحذف المشبه ووجه الشبه ، كقولك « كالاسد » وهي كقولك : « زيد كالاسد » .

التاسعة : ان تحذف الاداة والمشبه به كقولك « زيد في الشجاعة» أي زيد كالاسد في الشجاعة في جواب من سأل عن مثل الاسد ولا قوة لهذا .

العاشرة : أن تحذف الاداة والوجه كقولك « زيد أسد » وهو أقوى الجميع لاثبات المشبه به في الظاهر للمشبه وحذف الوجه فقد اجتمع فيه القوتان .

والحادية عشرة : ان يحذف المشبه به والوجه كقولك « زيد مثل» وذلك يكون في الجواب من الاستفهام عن مماثل الاسد او عن حكم زيد مع الاسد فتقول : مثل .

الثانية عشرة : ان يحذف ثلاثة وهي المشبه والاداة والمشبه به ، كقولك : « في الشجاعة » مريدا : « زيد كالاسد في الشجاعة »في جواب

من قال : في أي شيء يشبه زيد الاسد ؟

الثالثة عشرة : ان يحذف ثلاثة وهي: المشبه والاداة والوجه كقولك « الاسد » في جواب : ما الذي يشبهه زيد ؟

الرابعة عشرة : أن يحذف المشبه والمشبه به والوجه كقولك «مثل» في جواب من قال : ما حكم زيد مع الاسد ؟

الخامسة عشرة : أن تحذف الاداة والمشبه به والوجه كقولك « زيد » في جواب : من يشبه الاسد ؟

السادسة عشرة : أن يحذف المشبه والمشبه به والوجه ويقتصر على الاداة كقولك « مثل » في جواب ما شأن زيد مع عمرو ؟
ويلاحظ ان هذا مكرر مع الصورة الرابعة عشرة .

السابعة عشرة : أن يحذف الجميع كالتشبيه المعلق على شرط فانه يحذف اكتفاء بدليله في نحو قوله :

عزماته مثل النجوم ثواقباً ... لو لم يكن للثاقبات أفول

فان تقديره على مذهب البصريين : لو لم يكن للثاقبات أفول لكانت عزماته كالثاقبات . وكذلك قوله :

بلد لها شرف سواها مثلها ... لو كان مثلك في سواها يوجدُ

الثامنة عشرة : أن يذكر المشبه ولازم المشبه به ، كالاستعارة بالكناية والتخييل في قوله :

واذا المنيةُ انشبتْ اظفارَها ... الفيت كل تميمة لا تنفعُ

على رأي القزويني (١) .

وفي الوقت الذي نريد أن نقلل من التقسيمات ، نجد السبكي يفرع

(١) عروس الافراح ج٣ ص ٤٧٠ — ٤٧٣ .

تفاوت التشبيه الى هذه الاقسام الكثيرة ، وأن أغلبها مكرر كمافيالوجه الرابع عشر والسادس عشر او لا قيمة لها ، ولكنه يصر على أن ما ذكره الصواب يقول : « ثم اذا تقرر ذلك فاعلم أن المصنف وغيره لم يذكروا من رتب التشبيه الا ثمانية وحصروه فيها لعدم اعتبارهم حذف المشبه به والصواب ما ذكرناه »[1] .

وقوة التشبيه عند السبكي منحصرة في امرين :

احدهما : أن تكون اداة التشبيه محذوفة .

والثاني : أن يكون وجهه محذوفا .

فحيث حصل حذفها فهو أقوى الاقسام ، وحيث حصل حذف أحدهما حصل نوع قوة ، وحيث انتفيا فلا قوة .

ويرى أن تعريف القزويني للمجاز المرسل غير صحيح ، وأن الصواب ان يقال : هو ما بينه وبين موضوعه علاقة غير المبالغة في المشابهة[2] .

وَرَدَّ عليه في المجاز المرسل ، ولكن ردوده لا تتعلق بقيمة هذا الفن واهميته في التعبير ، وانما تتعلق بأمور جزئية . وذكر انواعااخرى من المرسل يقول : « قد ذكر المصنف تسع علاقات وذكر قبلها الراوية للمزادة وهي من مجاز المجاورة وكأنه استغنى بمثاله عن ذكره فحاصل ما ذكره عشرة الا أن الاخرى منها هي السابعة . وقد زاد غيره علاقات كثيرة تقارب ما ذكرناه أكثر من ثلاثين ، وبعضهم يعددها علاقات ، وبعضهم يعدد أقسام المجاز بحسبها »[3] . وهذا يدلنا على ان المجاز المرسل يمكن التوسع به ، وهو ما نراه عند ابن قيم الجوزية والمغربي.

ورد على القزويني في الاستعارة وتعليقه على قول الشاعر :

---

(١) عروس الافراح ج٣ ص ٤٧٣ .

(٢) عروس الافراح ج٤ ص ٣٢ .

(٣) عروس الافراح ج ٤ ص ٤٣ .

فان تعافوا العدل والايمانا فـــان في أيماننا نيرانا

وقـــــول الآخـــر :

وصاعقة من نصله تنكفي بها على أرؤسِ الاقران خَمْسُ سحائبِ

وفي الاستعارة المطلقة وغيرها ، وأشار الى اهمال القزويني لتفاوت الاستعارة ، يقول : «لم يتعرض المصنف للتفاوت بين انواع الاستعارة، والذي يظهر ان الاستعارة بالكناية ابلغ من التصريحية وبه صرح الطيبي. ولا اشكال فيه على رأي السكاكي فانها كالجامعة بين الاستعارة والكناية. وأما على رأي المصنف فان وافق ذلك كان هذا واردا عليه في قوله «ان المجاز ابلغ من الحقيقة» و« ان الاستعارة ابلغ من التشبيه» ،لان الاستعارة بالكناية عند المصنف تشبيه وحقيقة لا مجاز الا أن يقول الاستعـــارة بالكناية انما تكون ابلغ لاشتمالها على المجاز العقلي كمـــا اقتضاه كلام المصنف في هذا الباب لا كما اقتضاه كلامه في علم المعاني حين تكلم على المجاز العقلي . وأما الاستعارة بالتمثيل فالظـــاهر انها ابلغ منهمـــا كما يقتضيه كلام الزمخشري عند قوله تعالى : « وما قَدَرُوا اللهَ حَـــقَّ قَدْره ، والارض جميعا قبضته يومَ القيامةِ ، والسماوات ُمطويّات" بيمينه »[1] . ثم تتفاوت كل واحدة من هذه الاستعارات الثلاث الى درجات »[2] .

علم البديع :

ورد السبكي ما قاله السكاكي والقزويني عن البـــديع ويرى أنه لا يشترط فيه مطابقة الكلام لمقتضى الحال ولا وضوح الدلالة ، يقول : « والحق الذي لا ينازع فيه منصف ان البديع لا يشترط فيه التطبيق ولا وضوح الدلالة ، وأن كل واحد من تطبيق الكلام على مقتضى الحـــال ومن الايراد بطرق مختلفة من وجوه التحسين قد يوجد دون الآخرين

(١) سورة الزمر ، الآية ٦٧ .
(٢) عروس الافراح ج ٤ ص ٢٨١ ــ ٢٨٢ .

وأول برهان على ذلك انك لا تجدهم في شيء من امثلة البيان يتعرضون الى بيان اشتمال شيء منها على التطبيق ، ولا تجدهم في شيء من أمثلة البديع يتعرضون لاشتماله على التطبيق والايراد ، بل تجد كثيرا منها خاليا من التشبيه والاستعارة والكناية التي هي طرق علم البيان . هذا هو الانصاف وان كان مخالفا لكلام الاكثرين »[1] .

وقسّم وجوه تحسين الكلام الى معنوي ولفظي ، ورد على بدر الدين بن مالك وأن لم يصرح باسمه لانه قسمها الى ثلاثة أقسام ، يقول : « واورد ان الاقسام ثلاثة فان منها ما يرجع اليهما . وقد يجاب عنه بان ما يرجع اليهما يدخل في القسمين لانقسامه الى كل منهما »[2] وقسم بعضهم المعنوي الى نوعين :

احدهما : ما يزيد المعنى حسنا لزيادة تنبيه .

الثاني : ما يزيده تناسبا .

وكان القزويني قد اطلق المعنوي ليدخل فيه النوعان منه من غير تمييز بينها .

وقد امتاز السبكي عن القزويني في هذا البحث بدقة ملاحظته ، واستفادته من علماء البديع كأبن ابي الاصبع المصري الذي اتخذه اماماً في البديع . ويرى ان القزويني وقف بالبديع فذكر ثلاثين ضربا من المعنوي ، وسبعة انواع من اللفظي، وذكر بينهما أمورا ملحقة بها يصلح أن تعد انواعا أخر ، ونبه على التداخل في بعضه .

واضاف السبكي انواعا كثيرة هي : التوقيف ، والتسميط ، والتغاير ، والقسم ، والسلب ، والايجاب ، والاستدراك ، والتلفيق ، وجمع المختلفة والمؤتلفة ، والتوهم ، والاتساع ، وسلامة الاختراع من الابتداع ، والتوليد ، والنوارد ، والالجاء ، والتخير ، والتنظير ،

---

(١) عروس الافراح ج٤ ص ٢٨٤ .

(٢) عروس الافراح ج ٤ ص ٢٨٥ .

والاستقصاء ، والتشكيك ، والبراءة ، والتسليم ، والافتنان ، واثبات الشيء للشيء بنفيـــه عن غيره ، والترديـــد ، والتعطف ، والتوسع ، والتطريز ، والمؤاخاة ، والاستطراد ، والاشارة ، والاقحام ، والانفصال، والبسط ، والتتميم ، والتوشيح ، والتكرار ، والمراجعة ، والتذييل ، والاعتراض ، والمتابعة ، والتعريض ، والتهكم ، والائتلاف ، والخطاب العام ، والتغليب ، واللغز ، والابداع ، والكلام الجامع ، وارســـال المثل ، والترقي ، والاقتباس ، والمواربة ، والهجاء ، والتخيير ، وحصر الجزئي في الكلـــي [1] .

ويلاحظ أن بعض هذه الانواع كالتتميم ، والتكرار ، والتذييل ، والاعتراض ، والتغليب ، والخطاب العام ، قد ادخلها القزويني في علم المعاني ، وأن بعضها الآخر كارسال المثل تكلم عليه في مجاز التمثيل ، وتحدث عن الاقتباس في ملحق علم البديع .

ومهما يكن من شيء فان بحث السبكي في البلاغة احسن من بحث القزويني ، وانه استطاع أن يتمثل البلاغة الكلامية والادبيـــة ويمزج بينهما ويخرج لنا كتابا ــ ان لم يكن رائعا حقا ــ فهو اكثر فائدة من كتابي الخطيـــب القـــزويني .

---

(١) ينظر عروس الافراح ج ٤ ص ٤٦٧ ــ ٤٧٤ .

التفتـــازاني

لم تحتضن بيئة مصر العربية وحدها «مفتاح العلوم»و«تلخيصه»، وانما احتضنته بيئة السكاكي ، ومناطق بلاد فارس ، وما وراء النهر ، ومناطق تركستان . وكان فيها كثير من العلماء الذين شرحوا مفتـــاح العلوم وتلخيصه كالتفتازاني الذى يقول عنه ابن خلدون وهو يتحدث عـــن الحضارة في هذه المنطقة :

« وبقي بعض الحضارة في ما وراء النهر ، لمـــا هناك من الحضارة بالدولة التي فيها ، فلهم بذلك حصة من العلوم والصنـــائع لا تنكر . وقد دلنا على ذلك كلام بعض علمائهم من تآليف وصلت الينا الى هذه البلاد وهو سعد الدين التفتازاني .. وأما غيره من العجـــم فلم نر لهم من بعد الامام ابن الخطيب ونصير الدين الطوسي كـــــلاما يعول على نهـــايته في الاصـــابة » [1] .

وهذا العالم الجليل ، سعد الـــــدين مسعود بن عمرو المشهور بالتفتازاني(٧٩٢هـ)[2]. كان عالما بالنحو،والصرف، والمنطق، والبلاغة،

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٤٥ .

(٢) تنظر ترجمته في البدر الطالع ج٢ ص ٣٠٣ ، وبغية الوعاة ص ٣٩١ ، ومفتاح السعادة ج١ ص ١٦٥ ، ودائرة المعارف الاسلامية ج٥ ص ٣٣٩ ، والاعـلام ج٨ ص ١١٣ ؛ وتاريخ الادب العربي في العراق ج١ ص ١٨٩ وتاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالهاص١٥١، وهديه العارفين ج٢ ص ٤٣٠ .

والاصول ، والتفسير • وله في البلاغة شرح القسم الثالث من « مفتاح العلوم » وشرح التلخيص : المطول والمختصر •

كتاباه :

وكتاباه المطول والمختصر من خيرة الكتب التي تمثل الاتجاه الكلامي في البلاغة • فعندما كان في جرجانية خوارزم لمعت في ذهنه فكرة شرح تلخيص مفتاح العلوم ، لانه وجده مختصرا ، جامعا لغرر اصول هـذا الفن وقواعده ، حاويا لنكت مسائله وعوائده ، محتويا على حقائق هي لباب آراء المتقدمين ، منطويا على دقائق هي نتائج افكـار المتأخرين ، مائلا عن غاية الاطناب ونظرية الايجاز ، لايحـا عليه مخايل السحر ودلائـل الاعجـاز :

ففي كلِ لفظٍ منه روضٌ من المنى وفي كلِ سطرٍ منه عِقْدٌ من الدرِ [1]

وانكب على شرح التلخيص ساهرا الليـالي ، متجرعا غصص العيش حتى اناخ بهراة ، وفيهاتهيأ له الفراغ من نقل الشرح الى البياض في يوم الاربعاء الحادي عشر من صفر سنة ٧٤٨ هـ ، وكان الافتتاح يوم الاثنين الثاني من رمضان سنة ٧٤٢هـ بجرجانية خوارزم، وهذا هو الشرح المطول على التلخيص ، وعمله فيه كما شرحه بقوله :

« وبذلت الجهد في مراجعة الفضلاء المشار اليهم بالبنان ، وممارسة الكتب المصنفة في فن البيان ، لا سيما « دلائل الاعجاز » و « أسرار البلاغة » ، فلقد تناهيت في تصفحهما غاية الوسع والطاقة ، ثم جمعت لشرح هذا الكتاب ما يذلل صعاب عويصاته الادبيـة ، ويسهل طريق الوصول الى ذخائر كنوزه المخفيّة ، وأودعته فرائد نفيسة وشحت بها كتب القدماء ، وفوائد شريفة سمحت بها اذهان الاذكياء ، وغرائب نكت

---

(١) المطول ص ٣ •

اهتديت اليها بنور التوفيق ، ولطائف قد اتخذتها من حين التحقيق . وتمسكت في دفع اعتراضاته بذيل العدل والانصاف ، وتجنبت في رد ما اورد عليه مذهب البغي والاعتساف . وأشرت الى حل اكثر غوامض المفتاح والايضاح ، ونبهت على بعض ما وقع من التسامح للفاضل العلامة في شرح المفتاح.وأومأت الى مواضع زلّت فيها اقدام الآخذين في هذه الصناعة ، واغمضت عما وقع لبعض متعاطي هذا الكتاب من غير بضاعة ، ورفضت التأسي بجماعة حظروا تحقيق الواجبات ، وما فرضت على نفسي سننهم في تطويل الواضحات » [١] .

وألحّ عليه كثير من الفضلاء أنْ يختصره ، ويقتصر على بيان معانيه وكشف استاره ، فوضع كتابا آخر هو الشرح المختصر على التلخيص او الشرح الصغير ، وقد انتهى منه في غجدوان سنة ٧٥٦ هـ، وأهداه الى ابي المظفر السلطان محمود جاني بك خان » [٢] .

منهجه :

ولا يخرج الكتابان عما اختطه السكاكي ، ورسمه القزويني، وقد اتبع خطة الشراح السابقين ، وهي أنْ يأخذ العبارة او الكلمة ويشرحها وقد يخرج عن الشرح فيفند رأيا ، أو يقبل آخر ويدعمه ، وداقع عن السكاكي والقزويني، وفندبعض آرائهما في كثير من الاحيان.واسلوبه فيهما ركيك تشوبه العجمة ، وتفقد طراوته المصطلحات الفلسفية ، والنظرات العقلية ، والعبارات الكلامية التي تجعل الكلام صعبا ، وتجعل الاسلوب معقدا . ولم يستطع التفتازاني ان ينجومن سيطرة النزعة العقلية والفلسفية ، وقد افسح المجال لها لتفسد البلاغة وتجور عليها ، وإلا فاي معنى نقوله في التشبيه : « والحركة عند المتكلمين حصول الجسم في مكان بعد حصوله في مكان آخر ، اعني انها عبارة

---

(١) المطول ص ٤ .

(٢) المختصر ج١ ص ٣٠ .

عن مجموع الحصولين ، وهذا مختص بالحركة الاينية • وعند الحكماء هو الخروج من القوة الى الفعل على سبيل التدريج » [1] •

ومثل هذا كثير في شرحه ، ولا غرابة في ذلك ، فقد كان راسخ القدم في علم الكلام ، وأصول الفقه ، يقول ابن خلدون :

« ولقد وقفت بمصر على تآليف متعددة لرجل من عظماء هراة من بلاد خراسان يشهر بسعد الدين التفتازاني ، منها في علم الكلام ، وأصول الفقه ، والبيان ، تشهد بان له ملكة راسخة في هذه العلوم ، وفي اثنائها ما يدل على ان له اطلاعاً على العلوم الحكمية ، وقدماً عالية في سائر الفنون العقلية » [2] •

ولم يقتصر شرحه على مفتاح العلوم وتلخيصه ، وانما اعتمد على آراء المتقدمين من علماء العربية والبلاغة كالمبرد ، والمرزوقي ، وعبد القاهر ، والزمخشري ، والرازي ، وابن سينا ، وابن الاثير ، ورجح آراءهم احيانا ، غير أنه لم يخرج عن منهج السكاكي والقزويني ، وبحثهما البلاغي ، لانه لم يكن في الواقع إلا شارحا لتلخيص « مفتاح العلوم » • وقد اشتهر بهذين الشرحين ، وبقي الكتابان عمدة الدرس حتى العصر الحديث •

اعجابه بالقزويني :

والتفتازاني مُعْجَبٌ بالقزويني ، مُعَظِّمٌ له ، يقول عنه :

« الامام العلامة عمدة الاسلام ، قدوة الانام ، أفضل المتأخرين ، أكمل المتبحرين ، جلال الملة والدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الخطيب بجامع دمشق » [3] • ويرى أن كتاب التلخيص من أروع كتب البلاغة وأحسنها ، لذلك عكف على شرحه ، وايضاح مبهمه بعد

---

(١) المطول ص ٣١٦ •
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٨١ •
(٣) المطول ص ٣ •

أن رأى اكثرهم حرموا توفيق الاهتداء الى ما فيه من مطويات الرموز والاسرار • ولكنه قسا عليه ، ورجّح آراء عبد القاهر والسكاكي ، يقول في تفنيد أحد أقواله :

« فكأنه لم يتصفح دلائل الاعجاز حق التصفح ، ليطلع على ما هو مقصود الشيخ »[1] • وسنقف عند بعض آرائه لنرى مدى اتفاقهما واختلافهما •

مع القزويني :

نجد التفتازاني يتصدى للقزويني منذ اول الكتاب ، فيقول عنه :
« ولعمري لقد أفرط المصنف في وصف القسم الثالث بان فيه حشواً ، وتطويلاً ، وتعقيدا ، تصريحا أولا وتلويحا ثانيا على ما ذكرنا ، وتعريضاً ثالثا حيث وصف مؤلفه بانه مختصر ، منقح ، سهل المأخذ ، أي : لا تطويل فيه ، ولا حشو ، ولا تعقيد كما في القسم الثالث »[2] •

الفصاحة :

واختلف عنه في بعض الامور المتعلقة بالفصاحة تارة ، ووجّه كلامه تارة اخرى • فقد ذكر القزويني أن بعضهم يرى أن من فصاحة المفرد : خلوصه من الكراهية في السمع نحو :

مباركُ الاسم أغرّ اللقبْ   كريم الجرشّى شريف النسبْ

ولكنه يقول ان في هذا نظراً ، ولم يوضحه ، فيأتي التفتازاني ويوجه كلامه قائلا :

« وفيه نظر ، لانها داخلة تحت الغرابة المفسرة بالوحشية لظهور ان الجرشّى اما من قبل « تكأكأتم »و « افرنقعوا » و« الجحيش »و

(١) المطول ص ٢٨ •
(٢) المطول ص ١٢ •

« اطلخَمّ » . وقد ذُكِر ههنا وجوه :

الاول : انها ان ادت الى الثقل ، فقد دخلت تحت التنافر ، وإلا فلا تخل بالفصاحة .

الثاني : ان ما ذكره هذا القائل في بيان هذا الشرط ان اللفظ من قبيل الاصوات فاسد ، لان اللفظ ليس بصوت بل كيفية له ، وضعف هذين الوجهين ظاهر .

الثالث : ان الكراهية في السمع راجعة الى النغم ، فكم من لفظ فصيح يُستكره في السمع اذا أدي بنغم غير متناسبة ، وصوت منكر . وكم من لفظ غير فصيح يستلذ اذا أدي بنغم متناسبة وصوت طيب ، وليس بشيء المقطع باستكراه « الجرشى » دون النفس سواء أدي بلحن حسن أو غيره . وكذا « جفخت » و « ملع » ، دون « فخرت » و « علم » .

والرابع : ان مثل ذلك واقع في التنزيل كلفظ « ضيزى » [1] و « دُسُر » [2] ونحو ذلك [3] .

ووجه كلام القزويني في نقد بيت أبي تمام :

كريم متى أمْدحه امدحه والورى معى واذا ما لمْتُه لمته وحْدي

يقول : قال المصنف فان في « امدحه » ثقلا لما بين الحاء والهاء من القرب ، ولعله اراد ان فيه شيئا من الثقل والتنافر ، فاذا انضم اليه « امدحه » الثاني تضاعف ذلك الثقل ، وحصل التنافر المخل بالفصاحة، ولم يرد أن مجرد « امدحه » غير فصيح ، فان مثله واقع في التنزيل نحو « فسبحه » [4] . والقول باشتمال القرآن على كلام غير فصيح مما لا

---

(١) قال تعالى في صورة النجم الآية ٢٢ : « تلك اذن قسمة ضيزى » .
(٢) قال تعالى في سورة القمر ، الآية ١٣ : « وحملناها على ذات الواح دسر » .
(٣) المطول ص ١٩ .
(٤) قال تعالى في سورة ق ، الآية ٤٠ : « ومن الليل فسبحه وادبار السجود » .

يجترىء عليه المؤمن »[1] .

وَرَدَّ عليه في كثرة التكرار وتتــابع الاضافات ، لانه ورد عن الرسول الكريم (ص) وفي شعرالفحول ، وهذا ما أشار اليه عبدالقاهر، والقزويني نفســه .

ومما يحمــد للتفتازاني انه يرجع كثيرا من معرفة الفصاحة الى الذوق ، وان ما يعده الذوق نافرا أو غريبــا أو وحشيا ، فهو المخل بالفصاحة ، وبذلك يعود الى ما صرح به ابن سنان وابن الاثير .

علم المعاني :

ولم يوافق القزويني في تعريف المعاني ، وفي رده على السكاكي هذا التعريف ، ويرى ان تعريف السكاكي احسن وأكثر دلالة ، وهذاحق فقد أبان السكاكي في تعريفهخير ابانة عن هذا العلم،اما تعريف القزويني فلم يوضحعلم المعاني توضيحا كاملا ،ولذلك يقول التفتازاني:«والعجب من المصنف وغيره كيف خفي عليهم هذا المعنى مع وضوحه، وكيف ظنوا بالسكاكي انه أخذ في تعريف بلاغةالمتكلم تراكيب البلغاء فعرف الشيء بنفسه ، ومفاسد قلة التأمل مما يضيق عن الاحاطة بها نطاق البيان »[2] وبعد هذا يرى أن : « الاوضح في تعريف علم المعاني ، انه علم يعرف به كيفية تطبيق الكلام العربي لمقتضى الحال »[3] .

ولم يعجب بتقسيم القزويني لمباحث علم المعاني لذلك يقول :

«هذا كله ظاهر ، لكن لا طائل تحته ، لان جميع ما ذكر من القصر، والوصل والفصل ، والايجاز ومقابليه انما هي من احوال الجملة ، أو المسند اليه او المسند ، فالذي يهمه انيبين سببافراد هذه الاحوال عما سبق ، وجعل كل منها بابا برأسه ، والا فنقول :كل من المسند والمسند

---

(1) المطول ص ٢٠ .

(2) المطول ص ٣٦ .

(3) المطول ص ٣٦ .

اليه مقدم ، أو مؤخر ، معرف او منكر ، الى غير ذلك من الاحوال .
فلم لم يجعل كل من هذه الاحوال بابا على حدة ؟ ومن رام تقدير
هذا بالترديد بين النفي والاثبات ففساد كلامه أكثر واظهر . فالاقرب ان
يقال : اللفظ اما مفرد ، أو جملة ، فاحوال الجملة هي الباب الاول ،
والمفرد اما عمدة او فضلة ، والعمدة المسند اليه او المسند ، فجعل هذه
الاحوال الثلاثة أبوابا ثلاثة تمييزا بين الفضلة ، والعمدة المسند اليه او
المسند . ثم لما كان من هذه الاحوال حالة مزيد غموض ، وكثرة
أبحاث ، وتعدد طرق ، وهو القصر أفرد بابا خامسا .. وكذا أحوال
الجملة ما له مزيد شرف ولهم به زيادة اهتمام وهو الفصل والوصل ..
فجعل بابا سادسا والا فهو من أحوال الجملة ، ولذا لم يقل احوال القصر
واحوال الفصل والوصل . ولما كان من الاحوال ما لا يختص مفردا ولا
جملة بل يجري فيهما ، وكان له شيوع وتفاريع كثيرة ، جعل بابا سابعا.
وهذه كلها أحوال يشترك فيها الخبر والانشاء . ولما كان ههنا ابحاث
راجعة الى الانشاء خاصة جعل الانشاء بابا ثامنا ، فانحصر في ثمانية
أبواب »[1] .

ولا يرى ما يراه القزويني من ان المجاز العقلي من مباحث المعاني،
لان علم المعاني يبحث عن الاحوال المذكورة من حيث انها يطابق بها
اللفظ مقتضى الحال . وظاهر ان البحث في الحقيقة والمجاز العقليين
ليس من هذه الحيثية ، فلا يكون داخلا في علم المعاني ؛ والا فالحقيقة
والمجاز اللغويان أيضا من احوال المسند اليه أو المسند[2] . وان تعريفه
للمجاز العقلي غير تام لانه خرج من تعريفه للاسناد المجازي امران :

أحدهما : وصف الفاعل على المفعول بالمصدر نحو « رجل عدل »،
و « فانما هي اقبال وادبار » .

والثاني : وصف الشيء بوصف محدثه وصاحبه مثل « الكتاب

(١) المطول ص ٣٧ — ٣٨
(٢) المطول ص ٥٤ .

الحكيم » ، و « الاسلوب الحكيم » • فان المبني للفاعل قد اسند الى المفعول ، لكن لا الى المفعول الذي يلابسه ذلك المسند ، بل فعل آخر من افعاله مثل « نشأت الكتاب » •

ويوجه كلام القزويني قائلا :

« ويمكن الجواب عن الاول بانه ليس عنده بمجاز ، كما انه ليس بحقيقة ، وعن الثاني بان الملابسة اعم من ان يكون بواسطة حرف او بدونها • وهذه الصور من قبيل الاول اذ الاصل « هو حكيم في اسلوبه » و « كتابه » و « بعيد » و « أليم في ضلاله وعذابه » ، فيكون مما بني للفاعل ، واسند الى المفعول بواسطة ، فتأمل وقس عليه نظائره »[1] •

علم البيان :

وعندما جاء التفتازاني الى بحث علم البيان التفت التفاتة حسنة الى تعريفه وتقسيم مباحثه ، ورأى ان ادخال الدلالات في هذا البحث لا قيمة له ، يقول بعد ان تحدث عنها :

« هذا هو الكلام في شرح علم البيان على ما اخترعه السكاكي ، وانت خبير بما فيه من الاضطراب • والاقرب ان يقال ، علم البيان : علم يبحث فيه عن التشبيه ، والمجاز ، والكناية ، ثم يشتغل بتفصيل هذه المباحث من غير التفات الى الابحاث التي اوردها في صدر هذا الفن »[2] • وهذه التفاتة حسنة منه ، ولذلك نجده ينقد السكاكي ، ومن سار على منهجه في التبويب والتقسيم ، يقول وهو يتكلم على وجه الشبه وتقسيماته : « واعلم ان امثال هذه التقسيمات التي لا تتفرع على اقسام أحكام متفاوتة قليلة الجدوى ، وكأنّ هذا ابتهاج من السكاكي باطلاعه على اصطلاحات المتكلمين • فلله در الامام عبدالقاهر واحاطته باسرار كلام العرب وخواص تراكيب البلغاء ، فانه لم يزد في هذا المقام

---

(١) المطول ص ٥٨ .

(١) المطول ص ٣١٩ .

على التكثير من امثلة انواع التشبيهات وتحقيق اللطائف المودعة فيها»[1] .

ونقد القزويني في تحديده أنواع العلاقة في المجاز المرسل ، فقد ذكر منها تسعة غير ما في اطلاق اليد على النعمة ، والقدرة بعلاقة السببية الصورية ، واطلاق الراوية على المزادة بعلاقة المجاورة . ويرى ان العلاقة المعتبرة كثيرة ترتقي على ما ذكره علماء البلاغة الى خمسة وعشرين . ونبه الى سهو القزويني في أحد انواع المجاز المرسل ، فقد ذكر ان من امثلة تسميته السبب باسم المسبب قولهم « فلان أكل الدم» أي : الدية المسببة عن الدم ، وهو سهو بل هو من تسمية المسبب باسم السبب »[2] .

وردّ عليه في تعريف الاستعارة والاستعارة بالكناية ، يقول : « ولكن تفسير الاستعارة بالكناية بما ذكره المصنف لا مستنده في كلام السلف ، ولا هو مبني على مناسبة لغوية . ومعناها المأخوذ من كلام السلف هو أن لا يصرح بذكر المستعار ، بل بذكر رديفه ولازمه الدال عليه »[3] .

علم البديع :

وليس في بحثه للبديع جديد ، ولكنه اضاف ثلاثة اقسام الى « رد العجز على الصدر » ، وذلك ان التفتازاني قسمه الى ستة عشر نوعا حاصلة من ضرب اربعة في اربعة . وقد اورد القزويني ثلاثة عشر واهمل ثلاثة ، يقول التفتازاني : « واما الامثلة الثلاثة التي اهملها المصنف ، فمثال ما يقع احد الملحقين اللذين يجمعهما شبه الاشتقاق في آخر البيت والملحق آخر صدر المصراع الاول قول الحريري :

ولاحَ يلحى على جري العنان الى ملهى ، فسحقاً له من لائحٍ لاحِ

(١) المطول ص ٣١٩ .
(٢) المختصر ج٤ ص ٣٨ ـ ٣٩ .
(٣) المختصر ج ٤ ص ١٥٨ .

فالاول ماضي يلوح ، والآخر اسم فاعل من لحاه • ومثال ما وقع الملحق الآخر في آخر المصراع الاول قوله :

ومضطلع بتلخيصِ المعـــاني　　　ومُطَّلع الى تخليص عـــاني

فالاول من عنى يعني،والثاني من عنا يعنو • ومثال ما وقع الملحق الآخر في صدر المصراع الثاني قول الاخر :

لعمري لقـــد كان الثريا مكانـــه　　　ثراء فاضحى الآن مثواه في الثَّرى

ويذكر في البديع بعض ما تركه القزويني كالتحسين في الخط ، والموصل، والمقطع ، والخيفاء ، والرقطاء ، والحذف ، والترديد ، والتعـــديل أو سياق الاعداد ، والايضاح ، وحسن البيان •

السيد الشريف

وقد أثار التفتازاني حركة قوية في التأليف في البيئة الفارسية والبيئة العربية ، وكان من معاصري التفتازاني في البيئة الفارسية علي بن محمد بن علي السيد ابو الحسن الحسيني الجرجاني الاسترابادي الشهير بالسيد الشريف (٨١٦ هـ)[١] . كان محبا للتفتازاني ، وكتب حاشية على شرحه المطول ، وكان « في مبادىء التأليف يغوص في بحار تحقيقه وتحريره ، ويلتقط الدرر من تدقيقه وتسطيره ، ويعترف برفعة شأنه ، وجلالته ، وقدر فضله ، وعلو مقامه »[٢] . ولكنه خاصمه وناوأه ، وجرت بينهما مناقشة عنيفة في بلاط تيمور لنك سنة ٧٩١ هـ ، وكان مقدما عنده ولكن تيمور كان يرجح السيد ويقول : « لو فرضنا انهما سيان في الاصل والعرفان ، فللسيد شرف النسب »[٣] . وهذا مما شجع السيد على التفتازاني . وأول مناظرة جرت بينهما في مسألة كون ارادة الانتقام سببا للغضب أو الغضب سببا لارادة الانتقام ، فالتفتازاني يقول بالاول ، والشريف يقول بالثاني . واختلف الناس في عصرهما ، وفيما بعده من العصور مَن المُحِق منهما . وذهب الشيخ منصور الكازروني الى أن الحق في جانب الشريف[٤] . وجرى بينهما بحث في اجتماع الاستعارة

---

(١) تنظر ترجمته في بغية الوعاة ص ٣٥١ ، والبدر الطالع ج٣ ص ٤٨٨ ، ودائرة المعارف الاسلامية ج٦ ص ٣٣٣ والقواعد البهية ص ١٣٥ ، وروضات الجنات ص ٤٩٧ ، وهديه العارفين ج١ ص ٧٢٨ .

(٢) الفوائد البهية ص ١٣٦ .

(٣) الفوائد البهية ص ١٢٨ .

(٤) الفوائد البهية ص ١٢٩ — ١٣٠ .

التبعية والتمثيلية في كلام الزمخشري في قوله تعالى: «اولئكَ على هُدى من رَبِّهم »[1] . وكان الحكم بينهما نعمان الدين الخوارزمي المعتزلي فرجح السيد ، واشتهر عند الخواص والعوام غلبة السيد بالافحام فاغتمّ لذلك التفتازاني ، فلم يبق بعد هذه الواقعة الا قليلا ومات بسمرقند سنة ٧٩٢ هـ[2] .

وكتبت عن هذه المناظرة بحوث بقي لنا اثنان منها محفوظان بدار الكتب بالقاهرة هي « مسالك الخلاص في مهالك الخواص » لطاشكبري زادة ، ورسالة في تحقيق الاستعارة التمثيلية ، ونقل ما جرى فيها من البحث بين السعد والسيد الشريف .

وللسيد الشريف كتابان في البلاغة هما : « شرح القسم الثالث من مفتاح العلوم » و « حاشية على الشرح المطول على التلخيص » للتفتازاني ، انتقد فيهما مواضع كثيرة من كلام السعد ، ولكن انتقاداته في الواقع لم تكن ذات قيمة . وقد صدق محمد الكافيجي حينما قال : « ان السيد وقطب الدين الرازي التحتاني لم يذوقا علم العربية ، بل كانا حكيمين »[3] . وان مشاركته في التأليف في العربية لم تكن في الواقع مشاركة لها قيمتها واثرها .. ولا نذهب ــ بعد ان درسنا حاشيته ــ كما ذهب اليه طاشكبري زادة حينما قال معلقا على كلام محمد الكافيجي السابق : « هذا الكلام خروج عن الانصاف ولا يلزم من عدم انفرادهما بعلم العربية، ومشاركتهما لسائر العلوم عدم معرفتهما . فانظر بالانصاف تجد في تصانيفهما مباحث تتعلق بالعربية قد عجز عنها القدماء من ارباب العلوم العربية » .

وضع الجرجاني حاشيته على شرح السعد ، ليوضح مقاصده ، وينبه على مزالّه يقول : « وبعد فهذه حواشٍ على الشرح المشهور لتلخيص المفتاح ، كنت قد قيدتها عليه مجملة حالما قرأه عليّ بعض

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٥ .

(٢) مفتاح السعادة ج١ ص ١٦٧ .

(٣) مفتاح السعادة ج١ ص ١٦٧ .

أحبتي فسألوني بعد أمد ان أفصلها ، وانقدها ، ففعلت مستعينا بالله ، ومتوكلا عليه ، فجاءت بحمد الله تعالى مشتملة على فوائد منها ما هو توضيح لمقاصده ، وتنقيح لدلائله . ومنها ما هو تنبيه على مزاله، وتبيين لوجوه اختلاله . ومنها ما هو نكتة متعلقة بذلك المقام وان لم يكن مما يساق اليه الكلام . وعساك اذا تأملت فيها ، متمسكا بذيل الانصاف ، ومتجنبا عن ذلك مسلك الاعتساف ظفرت بما تستعين به على تحقيق اصول من البلاغة في مواضع شتى ، وتتسلق به الى فروعها كما تحب وترضى ، وانكشفت لك مطالب جليلة من عبارات القوم قد زلت عنها اذهان اقوام تاهوا فيها خصوصا في مباحث التعريفات ، وتحقيق أقسام الوضع ، ومعنى الحرف ، وأنواع الدلالات ، وفي الكشف عن زبدة التعريض ، وحقائق الاستعارات »[1] .

واذا حققنا في هذه المسائل التي اشار اليها ، رأينا انه وفى بوعده في تحديد التعريفات وضبطها ، وكيف لا يفعل هذا وهو مؤلف كتاب التعريفات الذي حدد فيه المعاني الاصطلاحية للالفاظ العربية على مصطلح العلوم في أيامه .

اما تحقيقاته فلا قيمة لها في نظرنا ، وهي لا تخرج عما ذكره السكاكي والقزويني والتفتازاني ، وان كان يخالفهم احيانا . ولعل احسن ما ذكره في الحاشية قوله عن البحث في اللذة والالم في باب التشبيه ، يقول : « تعريف اللذة والالم بما ذكره منقول عن الاشارات ، ولا يخفى عليك ان ايراد امثال هذه التحقيقات في امثال هذه المقامات مما لا يجدي للمتعلم نفعا ، بل ربما زاد حيرة في تفاصيل هذه المعاني ودقائق العبارات ، فالاولى بحال هذه العلوم ان يقتصر فيها على الامور العرفية وما يقرب منها . ولعل ذلك افتخار منه باطلاعه على العلوم العقلية وما ذكر فيها من التدقيقات »[2] .

---

(١) حاشية السيد الشريف ص ٣ ــ ٥ .

(٢) حاشية السيد الشريف ص ٣١٤ .

ابن يعقوب المغربي

وألف ابن يعقوب المغربي (١١١٠ هـ) من اهل مكناسة ببلاد الجزائر شرحا على مختصر سعدالدين التفتازاني سماه « مواهب الفتاح في شرح المفتاح » . ألفه بطلب واشارة من مولاه محمدبن اسماعيل[١] . وقد وضعه بعد أن رأى في الشرح المختصر للسعد غموضا وابهاما . يقول وهو يتكلم على التلخيص : « ثم ان الامام سعد الدين رحمه الله تعالى ممن صرف عنان العناية لشرح معانيه ، وتصدى لاستخراج لطائف مبانيه ، فوضع عليه مختصراً ومطولا ، وكان المختصر من الشرحين لمتعاطيه ملجأ ومعولا ، ولما وقفت بعون الله تعالى لقراءة ذلك الشرح مررت فيه على غوامض ربما تعتاص على بعض الافهام ، ومحال كثيرة تفتقر لا محالة الى مزيد من الكلام ، وأكثرها لا يكفي فيه ما في المطول بل يحتاج الى خارج عما في ذلك الشرح من بيان ، او زيادة بها يتكمل . فرأيت أن اضع عليه شرحا يكون لذلك المختصر مجاريا لقصد بيان عويصه مع زيادة فوائد وأبحاث تتعلق بالحل تكميلا لتحقيقه وتلخيصه ، فيكون للمتن شرحا ، وللشرح بسطا وفتحا »[٢] . وكان الفراغ من تأليفه بسكناسة يوم الجمعة منتصف النهار في الرابع والعشرين من المحرم سنة ١١٠٨ هـ .

---

(١) مواهب الفتاح ج١ ص ٤

(٢) مواهب الفتاح ج١ ص ٤ ـ ٥ .

والمغربي في هـــذا الشرح يقتفي خطوات السعد ، ولا يحيد عن منهج السكاكي . وله بعض الآراء والردود ولكنهـــا تنف متفرقة في كتابه الضخم ، ولعل أهم ما فيه مناقشته للتقسيم الذي سار عليـــه البلاغيون ، وخالفهم في الاعتبار الذي بنوا عليه ترتيب المعاني والبيان والبديع ، ويرى ان البيان جزء من المعاني لانه داخل في مطابقة مقتضى الحال ، وهذه التفاتة حسنة ولكنه لم يطبقها ، ولم يؤلف كتابا في البلاغة ينهج فيه نهجا جديدا ، واكتفى بخدمة تلخيص مفتاح العلوم .

ومن بحوثه الطريفة بحث الايجاز والاطناب ، وكان هــذا البحث عميقا ، وأضاف الى القزويني وغيره اضافات جديدة . وأهمها البحث في النسبة بين أنواع الاطناب ، وقد أجاد فيها ، وأحسن . ووقف كثيرا عند بعض الموضوعات وشرح وجهات النظر المختلفة ، وعلل بعضهـــا تعليلا فلسفيا محضا ، وهو لذلك يعتذر عن اطنابه قائلا : «وقد أطنبت هنا لما في المحل من الحاجة الى مزيد تدقيق وبسط ، فليتأمل » .

وناقش نقاشـــا طويلا في تعريف الحقيقـــة ، وبين أن كثيرا من التعريفات التي ذكرت في حدها فاسدة ، وذكر وجوه ذلك الفســـاد والتمحل[1] .

ومن التفاتاته الحسنة ذهابه الى ان الاستعارة يمكـــن ان تكون مجازا مرسلا[2] .

واطنب في بحث الاستعارة التبعية، وأجاد في تحقيق كون الاستعارة في الفعل تبعية[3]، واحسن في بحث الاستعارة بالكناية والتخييلية، واجاد في شرح رد القزويني على السكاكي . وقال بعد ان انتهى « هذا تمـــام ما اورده المصنف في المباحثة على السكاكي ، وقد بسطت فيهـــا القول

---

(١) مواهب الفتاح . ج٤ ص ٨ وما بعدها .

(٢) مواهب الفتاح . ج٤ ص ٤٦ .

(٣) مواهب الفتاح . ج٤ ص ١١٢ ــ ١١٣ .

لتتبين ، اذ فيها غرض محتاج لهذا البسط »[1] .

ويغلب على كتاب مواهب الفتاح الطابع اللغوي ، فالمغربي يشرح الكلمات ، ويبين اشتقاقها ، وما فيها من آراء .

مـع القزويني :

وقد اثنى على تلخيص القزويني في مطلع الكتاب يقول : « ثم أن من احكم كتبه المتداولات الكتاب المسمى بتلخيص المفتـاح ، فان فيه من اللطائف والمعاني ما لا تحيط بتحريره الحواشي والشراح »[2] .

ولكنه مع ذلك لم يتفق معه في كثير من المســائل ، فرد عليه في المجاز العقلي ، فقد ذهب عبد القاهر الى انه ليس من اللازم ان يكون للفعل فاعل ، ولكن الخطيب القزويني يرى انه قد خفي الامر على عبـد القاهر ، وقد تبع الرازي في هذه الناحية حيث قال : إن كل فعل لا بد له من فاعل لاستحالة صدوره بلا فاعل ، يقول المغربي :

« فاعتقد المصنف صحة هذا الكلام فقدر الفاعل في المثالين الله تعالى ، لانه الفاعل الحقيقي »[3] .

ورد اعتراضاته على السكاكي في المجاز العقلي يقول : «واذاتمهد هذا وعلم ان الاعتراضات لا تتم الا بكون المراد بالفاعل المجازى هو الفاعل الحقيقي حقيقة ، واما ان اريد الفاعل الحقيقي بالادعاء سـقطت الاعتراضات ، لان المراد بالمجازي نفسه ، إلا انه ادعى فيه انه غيره ، فاللازم على ذلك في نفس الامر كاللازم على عدم الادعاء اندفعت هذه الاعتراضات عن مذهب السكاكي اذا حقق ان مذهبه فيما ذكر الاطلاق على الفاعل الادعائي لا الحقيقي . وهذا المذهب صرح به ، فتندفع به عنه الاعتراضات »[4] .

---

(١) مواهب الفتاح . ج٤ ص ٢٢٠ .
(٢) مواهب الفتاح . ج١ ص ٤ .
(٣) مواهب الفتاح ج١ ص ٢٦١ .
(٤) مواهب الفتاح . ج١ ص ٢٧٠ .

ونرى المغربي يرجح كلام السكاكي على كلام القزويني في بحث قصر التعيين ، ويذكر ان في كلام القزويني خبطا ، والصواب ما عند السكاكي من اسقاط الشرطين اللذين ذكرهما القزويني . ورد على القزويني في الجامع العقلي والوهمي[1] .

وفي الوقت الذي يرى ان البيان جزء من المعاني نراه يسرف، في بحث الدلالات ويذكر أن تخصيص اسم الوضعية بالدلالة على تمام الموضوع له دون الدلالة على الجزء واللازم اصطلاح غير الناطقة ،وأما المناطقة فالوضعية اذا كانت لفظية عندهم فللوضع فيها مدخل ، فتدخل ذات الجزء واللازم وهي مقابلة عندهم للعقلية المحضة والطبيعية لا لذات الجزء واللازم[2] . واستمر في هذا الشرح والتفريق بين كلام المناطقة وغيرهم ، ورد على من يحصر الوضوح في الدلالات العقلية ، وهذا اسراف في اسراف ، وان علم البيان لبعيد عن هذا كله .

ورد على القزويني كما رد على غيره في «أكل فلان الدم » ، لانه اتخذه مثالا لتسمية السبب باسم المسبب في المجاز المرسل ، وهو بحسب الظاهر سهو اذ الدم اسم السبب واطلق على مسببه الذي هو الدية الحاصلة عن الدم[3] .

ورد عليه في الاستعارة التي في قوله تعالى : « فالتقطه آلُ فرعونَ ليكونَ لهم عَدوا وَحَزَنًا »[4] ، لانه يذهب الى انها تصريحية على اعتبار ان التبعية عنده من التصريحية ، وجعل متعلق معنى الحزن هو المجرور ، يقول : « وهو غير مستقيم على ما ذهب اليه المصنف من ان الاستعارة في ذلك تصريحية ، وذلك لان المذكور في التصريحية يجب أن يكون هو المشبه به سواء كانت تبعية أو اصلية »[5] .

---

(١) مواهب الفتاح ، ج٣ ص ٨٢ ، ١٠٧ — ١٠٨ ، ١٨٤ .
(٢) مواهب الفتاح ، ج٣ ص ٢٦٥ .
(٣) مواهب الفتاح ، ج٤ ص ٣٩ .
(٤) سورة القصص ، الآية ٨ .
(٥) مواهب الفتاح ، ج٤ ص ١٢١ .

وكرر المغربي ما قاله التفتازاني من ان ما فسر به القزويني الاستعارة بالكناية وهو اضمار التشبيه في النفس شيء لا مستند له في كلام السلف ، ولا هو منبى على المناسبة اللغوية ، يقول : « أما عدم بنائه على المناسبة اللغوية فلان اضمار التشبيه ليس فيه نقل لفظ الى غير معناه فيكون مناسبا لان يسمى بالاستعارة كما يناسب نقل اللفظ الذى هو المجاز اللغوي ، واما كونه لا مستند له في كلام السلف فلانه لم ينقل عن احد منهم مثل ما ذكر المصنف ، نعم الشيخ عبد القاهر ذكر فيما سماه المصنف تخييلا ما يناسب ما ذكره المصنف فقال : في« يد الشمال » ان اليد ثبتت للشمال مع انها ليست من لوازمه لا لمعنى اطلقت عليه ونقلت له بل لتدل على تشبيه الشمال بما له تصرف ويد ، ولكن لم يُسَمِ التشبيه الذي جعلت « اليد » دليلا عليه استعارة لا بالكناية ولا بغيرها ، وانما قال : « اليد استعارة » ولكن لا لشيء يشار اليه اشارة حسية او عقلية ، بل استعير ليدل على التشبيه »[1] .

وذكر ان مذهب السكاكي في قول الشاعر :

وإذا المنيةُ أنشبت اظفارها ألفيتَ كُلَّ تميمة لا تنفع

هو انه جعل المنية استعارة بالكناية لانها استعيرت للسبع ادعاء ، وجعل التخييلية هي الاظفار على انها نقلت لصورة وهمية .

وذكر مذهبا ثالثا في الاستعارة بالكناية وهو ان ايجاد الاستعارة بالكناية بأن يكون ثم لفظ قصد استعارته بعد المبالغة في التشبيه، ولكن لا يصرح بذلك اللفظ بل يذكر رديفه الدال عليه الملازم له ، لينتقل منه الى ذلك المستعار على قاعدة الكناية في ان ينتقل من اللازم المساوي الى الملزوم ، فقولنا « اظفار المنية نشبت بفلان » يقصد بالاظفار فيه ان تكون كناية عن السبع المقصود استعارته للمنية كاستعارة « أسد »

---

(١) مواهب الفتاح ج٤ ص ١٥٨ .

للرجل الشجاع ، فاذا استعمل هذا القصــــد فقد صح انا لم نصرح بالمستعار المقصود الذي هو السبع بل كنينا عنه ، ونبهنا عليه بمرادفه لينتقل منه الى المقصود استعارته ، فيتحقق بهذا الاعتبار هنا مستعار منه ، وهو حقيقة الاسد الذى هو الحيوان المفترس والمستعار له وهو المنية واللفظ المستعار وهو لفظ السبع الذي لم يصرح به ، ولكــــن كنَّينا عنه برديفه . فلفظ السبع يناسب ان يسمى استعارة على هذا ، لانه منقول حكما ، وكونه بالكناية ومكنياً عنه برديفه أمر واضح على هـــــذا .

ويرى المغربي ان هذا المذهب اقرب المذاهب ، وأنسبها بالتسميــة اللغوية . وهذا هو الرأي الذي صرح به الزمخشري في الكشاف كما فهمه عن الاقــدمين [1] .

ووافق السكاكي في اعتبار الاســتعارة التمثيلية من الاستعارة التحقيقية ، وعلق على ذلك قائلا : « واجيب عن هذا بان السكاكي انما عد التمثيل من مطلق الاستعارة الشاملة للافرادية والتركيبيــة ، لان مكلف الاستعارة التصريحية التحقيقية أعم من الاستعارة التي هي مجاز في المفرد . واذا كان العَدّ انما هو من مطلق الاستعارة الشاملة لمــا يوجد فيه التركيب فعد التمثيل منها صحيح اذ غايته ان مطلق الاستعارة تكون تمثيلا مستلزما التركيب وهو صحيح لصحة ملاقاتها حينئــــذ للتركيب ، وانما يرد البحث لو عَدّها من الافرادية » [2] .

ووافقه في مجاز الحذف ، لان السكـــاكي يرى ان الموصوف بالتجوز المذكور والمسمى بلفظ المجاز هو الاعراب نفسه . فالنصب في « القرية » في قوله تعالى : « واسأل القرية » يوصف بانه تجوز فيــه بنقله لغير محله ، لأن القرية بسبب التقدير في محل جر ، وقــد اوقع

---

(١) مواهب الفتاح ، ج٤ ص ١٥٨ ، والكشاف ج١ ص ٩٠ .

(٢) مواهب الفتاح . ج٤ ص ١٨٧ .

فيها النصب ، ويسمى ذلك الاعراب بنفســـه مجازا لما وقع التجوز فيـــه ، يقـــول :

« وما ذكره المصنف من ان المسمى بالمجاز الموصوف بالتجوز هو الكلمة المعربة لا اعرابها هو الاقرب لوجهين :

أحدهما : كون مدلول لفظ المجاز في الموضعين هو الكلمة بخلاف اطلاقه على الاعراب ، فانه يقتضي مخالفة في المـدلولين اذ يكون لفظ المجاز هنا كيفية الكلمة لا نفسها ، ومدلولها فيما تقدم نفس الكلمة .

وثانيهما : ان اطلاق لفظ المجاز على الاعراب كما هو ظاهر كلام السكاكي ، سببه كما تقدم ان الاعراب وقع في غير اصله ، وذلك ربمـا يدعى ظهوره في النقصان لان المقدر كالمذكور فالقرية في قوله تعالى : « واسأل القرية » حكمها الجر بتقدير المضاف . فقد وقع النصب في محل الجر الذى هو الاصل بسبب التقدير الذى هو كالذكر ، فَصَحَّ ان الاعراب في النقصان الذي يستدعي التقدير واقع في غير محله ، فيسمى مجازا » [1] .

ووافق القزويني في ادخال المقابلة في الطباق ، ورأى ان ما ذهب اليـه السكاكي وآخرون من جعلها قسما مستقلا من المحسنات المعنويـة لا وجه له كما يشهد به تفسير الطباق بالنظر الى تفسير المقابلة وأمثلتها ، وقد علل دخولها في الطباق قائلا :

« وانما دخل ما يسمى بالمقابلة في الطباق ، لان فيه الجمع بين معنيين متقابلين في الجملة اي من غير تفصيل وتعيين لكون التقابل على وجه مخصوص دون آخر ، لان ذلك لا يشترط في الطباق حتى يمكن اخراج المقابلة عن الطباق فصدق حده عليها » [2] .

وخلاصة القول : ان ابن يعقوب المغربي كان أحسن من التفتازاني

---

(١) مواهب الفتاح ، ج٤ ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥ .
(٢) مواهب الفتاح ، ج٤ ص ٢٩٧ .

واضرابه ممن عاشوا في البيئة الفارسية ، وقد استطاع بما أوتي من سعة الاطلاع ، وتذوق للبلاغة ان يكتب كتابه « مواهب المفتــاح » بروح جديدة ، فيها تحديد القزويني وتقسيماته ، وفيها النظرة الفنية التــي تنبه الى ما في كلام المتأخرين من خلط واضطراب • ومما يؤسف له أن المغربي لم يطبق ما دعا اليه في بعض المواضع مما ذكرناه سابقا ، ولــم يخرج على ما كتبه القزويني ، وشراح تلخيصه ، ولذلك جاء كتـــابه نسخة موسعة من الكتب السابقة ، فيها الفلسفة ، والمنطق ، والتمحل في التعليل ، والاغراق في التقسيم والتحديد ، وربط البلاغة بما لا يمت اليهـــا بصلــة •

الدسوقى

وجاء اخيرا محمد بن محمد عرفه الدسوقى (١٢٣٠ هـ) ووضع حاشية على مختصر السعد على تلخيص المفتـــاح ، وذكر فيها فوائد شريفة ، وتقييدات لطيفة أخذها من تقارير شيوخه المحققين كالعدوي ، والشهاب الملوي ، وعطية الاجهوري ، والحفني واللقاني وغيرهم ممن ذكرهم في حاشيته ، ومن زبد أرباب الحواشي والشارحين • ونقل عن ابن يعقوب المغربي ، وعصام الدين صاحب « الاطول » • وكان الانتهاء منها يوم الجمعة لثمانية وعشرين من شهر شوال سنة ١٢١٠ هـ •

وطريقته في الشرح هي أن يأخذ العبـــارة ، ويشرح مفرداتها ، ويذكر القياسي والسماعي منها وما فيها من شذوذ واختــلافات ، ثم يعرب الجملة وما فيها من ألفاظ ، وبعد ذلك يبيّن ما في العبارة مـن فنون بلاغية وهذه ميزة لا نجدها عند اصحـــاب الشروح والحواشي الاخرين ، ومن هنا كانت لحاشيته أهمية لغوية ونحوية وبلاغية •

وأبسط مثال لذلك شرحه « بسم الله الرحمن الرحيم » فقد كـان شرحا لا نجده عند التفتازاني، والسيد الشريف ، والسبكي واضرابهم، لقد طبق عليها فنون البلاغة الثلاثة ،وبيّن ما فيها من مجاز ،واستعارة، ومذهب كلامي ، والتفات ، وادماج ، واستخـــدام ، يقول في مطلع كتابه : « ينبغي التكلم على هذه الجملة بما يتعلق بها من الفنون الثلاثة التي صنف فيها هذا الكتاب كما هو اللائق بالشارع في كل فن لما قيل

ان ترك الكلام عليها اما تقصير او قصور »[1] .

ولا تقف أهمية الحاشية عند البحوث البلاغية واللغوية ، وانما تتعداها الى غيرها ففيها تعريف بالكتب ككتاب الحماسة[2] . وفيها مباحث تاريخية كحديثه عن سوق عكاظ ، واجتماع الشعراءوالفرسان والناس فيه[3] .. وفيها تراجم للشعراء الذين يذكر شعرهم فيقول عن ابن العجاج مثلا « هو رؤبة عبدالله البصري بنالعجاج التميميالسعدي، هو وأبوه راجزان مشهوران ، لكل واحد منهما ديوان رجز ليس فيه سوى الاراجيز ، سمع عن ابيه العجاج ، وأبوه سمع ابا هريرة رضيالله عنه »[4] . ونجد هذا الاتجاه في كلامه عن أسر المتنبي ، وترجمة الفرزدق ، والعباس بن الاحنف ، والجاحظ ، والصلتان العبدي ، والراوندى[5] ، وكان كثيرالاهتمامبتكملة أبيات الشعر وذكرعروضها ووزنها يقول عن ابيات المتنبي التي أولها :

فهمتُ الكتابَ أبَرَّ الكتبْ　　　فسمعاً لأمرِ أميرِ العَرَبْ

« وهي من المتقارب وعروضها وضربها محذوفان »[6] .

وفي الحاشية تحقيق للمدن والاماكن ، يقول عن منف مدينة فرعون : « والمراد بالمدينة مدينة فرعون كما في الجلالين ، وليس المراد بمنف البلدة المشهورة الان ، بل بلدة كانت بناحية الجيزة فخربت بدعوة موسى عليه السلام ، وهي بالقرب من البلدة المعروفة بمنية رهينة باقليم الجيزة »[7] .

---

(١) حاشية الدسوقي ج١ ص ٢ — ٣ .
(٢) حاشية الدسوقي ج٢ ص ٧٢ — ٧٣ .
(٣) حاشية الدسوقي ج٢ ص ٢٨ .
(٤) حاشية الدسوقي ج١ ص ٨٤ .
(٥) حاشية الدسوقي ج١ ص ٩٠ ، ١٠٤ ، ١٠٩ ، ١٩٢ ، ٢٤٢ ، ٤٥٢ .
(٦) حاشية الدسوقي ج١ ص ٩٠ .
(٧) حاشية الدسوقي ، ج١ ص ٣٤٨ .

وأهتم بذكر القصص والتاريخ ، وتحدث بالتفصيل عن قصة الزباء مع جذيمة ، وما حصل له منها[1] . وأهتم بذكر الحوادث التاريخية والادبية وذكر رثاء أبي ذؤيب الهذلي لابنائه الخمسة الذين هلكوا في عام واحد ، وكانوا فيمن هاجر الى مصر . وذكر استشهاد معاوية ، بهذه القصيدة في مرضه ، وتحدث عن ابي ذؤيب واخباره[2] .

ولا نجد هذا في شرح او حاشية اخرى ، ومن هنا كانت لحاشية الدسوقي اهمية لغوية ، وتاريخية ، وأدبية الى جانب اهميتها البلاغية.

أما البحوث البلاغية فلعل أهم ما في الحاشية بحث المعاني المجازية التي ذكرها البلاغيون في علمي المعاني والبيان ، او التي اهملوها ولم يتكلموا عليها . فقد اعتبر الخروج في النداء الى الاستعانة والى الاختصاص، وخروج النهي الى الدعاء والالتماس والتهديد ،والخروج في الامر الى الدعاء والالتماس والتمنى والتسوية والتحقير والاهانة والتسخير والتهديد والاباحة ، وخروج الاستفهام الى التهويل والتحقير والهزء والسخرية والانكار وغيرها من اغراض الانشاء والخبر . وقد اعتبر كل هذه مجازا مرسلا له علاقة ، وبذلك وسّع مفهوم المجاز المرسل ، وأدخل فيه ما كان مبعثرا في علم المعاني او البديع[3] . وكان التفتازاني قد اشار الى ذلك فقال متحدثا عن ادوات الاستفهام :

« كثيرا ما تستعمل في غير الاستفهام مما يناسب المقام بمعونة القرائن . وتحقيق كيفية هذا المجاز وبيان انه من أي نوع من أنواعه مما لم يحم أحد حوله »[4] . ولم يتعرض لعلاقة المجاز في هذه الانواع مع ان الاصوليين تعرضوا لها . واستفاد الدسوقي منهم ، ووسّع بحث الموضوع وأدخل معظم هذه المعاني في المجاز المرسل ، وذكر علاقاتها .

(١) حاشية الدسوقي ، ج٣ ص ١٧٤ .
(٢) حاشية الدسوقي ، ج٤ ص ١٥٣ ـ ١٥٤ .
(٣) حاشية الدسوقي ج٢ ص ٢٩٥ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٧ و٣١٨ و٣١٩ و٣٢٠ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ وما بعدها .
(٤) المطول ص ٢٣٥ .

ولذلك نراه يذهب الى ان مبـــاحث الامر والاستفهام ليست من فن المعاني ، وليس منه الا نكات العدول من الحقيقـة الى التجوز بالامر والاستفهام »[1] ، ويقول عن التهويل في الاستفهام « استعمـال اداة الاستفهام في التهويل مجاز مرسل علاقتـه المسببية ، لانه اطلق اسم المسبب واريد السبب ، لان الاستفهام عن الشيء مسبب عن الجهل به ، والجهل مسبب عن كونه هائلا ، لان الامر الهائل من شأنه عدم الادراك حقيقة أو ادعاء »[2] . وبذلك أبعد البلاغة عن النحو قليلا وجعـل لمباحثها قيمة أكثر مما هي في بحوث النحو .

ومن تحقيقاته البلاغية بحثه في بناء المجاز وذهابه الى ان الاختلاف في وضوح الدلالة وخفائها موجودة في التشبيه ، ولذلك فهو مـن علم البيان « قصدا وان توقف عليه بعض ابوابه ، لان توقف بعض الابواب على بعض لا يوجب كون المتوقف عليه مقدمة للفن »[3] .

وبحث النسبة بين انواع الاطنـاب .

والدسوقي في هذه البحوث الكثيرة يوافق القزويني مرة ويعارضه ، أو يرد عليه في كثير من الاحيان ، لقد ايده في اعتبار البديع علما مستقلا مع ان القدماء لم ينظروا اليه هذه النظرة كالزمخشري الـذي ذكر ان البديع ليس علما مستقلا واطلق على الاستعارة اسم البديع ، وكالسكاكي الذي اعتبره ذيلا لعلمي المعاني والبيان ، فلماذا اعتبره القزويني فنـا بذاته وجعله مع فني البلاغة الاخرين من اجل العلوم ، يقول الدسوقي: « واجيب بان الحق مع المصنف في عده له علما ، أذ البديع له موضوع يتميز به عن موضوع علم البلاغة بالحيثية المعتبرة في موضوعات العلوم ، وليس له غاية ايضا ، فجعله علما مستقلا من العلوم الادبية أوجه »[4] .

ورد على القزويني في تقسيم علم المعاني ، ولذلك يقول :

---

(١) حاشية الدسوقي ج٢ ص ٣١٢ — ٣١٣ .
(٢) حاشية الدسوقي ج٢ ص ٣٠٥ .
(٣) حاشية الدسوقي ج٣ ص ٢٩٠ .
(٤) حاشية الدسوقي ج١ ص ٤٩ .

« اعلم ان التقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، مثلا من احوال كل من المسند اليه والمسند ومتعلقات المسند ، فلذا ذكرت في كل من باب احوال المسند اليه واحوال المسند واحوال المتعلقات ، ومثل التقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، في انها احوال للثلاثة القصر ، فهو تارة يتعلق بالمسند اليه ، وتارة بالمسند ، وتارة بالمتعلقات ، فكان المناسب ان لا يخص بباب بل يذكر في باب المسند اليه ، والمسند ، والمتعلقات مثل التقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، والفصل والوصل ، من أحوال الجملة الخبرية . فالمناسب ان يذكرا في احوال الاسناد كالتأكيد ، والحقيقة العقلية ، والمجاز العقلي ، ولا يخصهما بباب ، وكل واحد من الايجاز والاطناب والمساواة تارة يتعلق بالجملة ، وتارة يتعلق بالمسند ، فالمناسب ذكر هذه الثلاثة في باب الاسناد ، وفي باب المسند اليه ، والمسند ولا يخصها بباب .

اذا علمت هذا فيقال : كان الاولى للمصنف ان لا يلتفت لبيان الحصر ، لانه معلوم بالاستقراء ، بل الاولى له ان يلتفت لتخصيص كل من هذه الامور الثلاثة بباب على حدته ، والى هذا اشار الشارح بقوله:

« وهذا اى دليل الحصر اعني قول المصنف ، لان الكلام اما خبر أو انشاء ، الى آخر ما ذكره في دليل الحصر » [1] .

واشار الى اهمال القزويني امورا كثيرة من خلاف مقتضى الظاهر منها : الانتقال من خطاب الواحد او الاثنين او الجمع لخطاب الاخر ، والتعبير بواحد من المفرد والمثنى والمجموع [2] . وهذه هي التي اشار اليها السبكي في « عروس الافراح » . وأشار الى مخالفة القزويني للنحاة في تقدير الشرط في الانشاء ، فقد ذكر ان الامور التي يقدر الشرط بعدها اربعة امور مع ان النحاة عدوها خمسة بزيادة العرض ، وتساءل الدسوقي قائلا : « فما وجه مخالفة المصنف لهم ؟ » ، وأجاب:

---

(١) حاشية الدسوقي ج١ ص ١٧٢ .

(٢) حاشية الدسوقي ج١ ص ٤٩١ .

« وحاصل الجواب ان العرض لما كان مولدا من الاستفهام وليس مستقلا كان داخلا فيه فذكر الاستفهام مُغْنٍ عنه ، والنحاة نظروا الى التفصيل فعدوها خمسة ، وان كانت ترجع لاربعةعلىجهةالاجمال»[1] .

وأشار الى اهمال بعض معاني الاستفهام المجازية كالامر في نحو « فهل انتمْ مسلمون »[2] أي اسكتوا ، والزجر نحو « أتفعل هذا ؟ » أي انزجر ، والعرض نحو « الا تنزل عندنا ؟ »[3] .

وكان القزويني قد أهمل أحد انواع المجاز المرسل ، وتكلم على استعمال اسم الكل في الجزء وسكت عن اسم الكلي اذا استعمل في الجزئي،ولعل سبب اهماله مافيه من اختلاف وهوهليكونمجازا أو لا؟ فقد ذهب الكمال بن الهمام ومن وافقه الى انه حقيقة مطلقا ، وعللهبان اللام في قولهم في تعريف الحقيقة « الكلمة المستعملة فيما وضعت له » لام التعليلولا شك ان اسمالكلى انماوضع لاجل استعماله فيالجزئي. وعلله غيره بان المجاز هو الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له اولا ، والجزئي ليس غير الكلى ، كما انه ليس عينه . وذهب بعضهم الى التفصيل ، وحاصله ان استعمال الكلي في الجزئي ان كان من حيث اشتماله على الكلى فهو حقيقة ، وان كان استعمالا فيه لا بالنظر لما ذكر بل من حيث ذاته كان مجازا[4] . وليس وراء هذا الخلاف جدوى ، وقد احسن القزويني صنعا حينما تركه .

* *

هذا هو التفتازاني ، وهذه هي الشروح والحواشي على كتابيه « المطول » و« المختصر » ، ويتضح لنا ان البيئة العربية حولتهما الى مادة صالحة لدراسة البلاغة بعد ان كان فيهما غموض والتواء وانصراف الى الفلسفة والمنطق ، وبذلك خدمت مصر البلاغة العربية وحفظت المدرسة الكلامية وغذّتها .

---

(1) حاشية الدسوقي ج٢ ص ٣٢٩ .
(2) سورة هود ، الآية ١٤ .
(3) حاشية الدسوقي ج٢ ص ٣٠٦ .
(4) حاشية الدسوقي ج٤ ص ٣٧ .

عصام الدين الاسفراييني

ولم يكن التفتازاني آخر من شرح التلخيص في البيئة الفارسية ، وأنما سار على منهجه آخرون كانت لهم جولات في هذا الميـــدان . وترك المشرق علما من هؤلاء الاعلام هو ابراهيم بن محمد بن عربشاه عصام الدين الاسفراييني (٩٥١ هـ) [١] صـاحب التلخيص المسمى بالاطول الذي نقد فيه كثيراً من بحوث التفتازاني في « المطول » وهو شرح ممزوج كشروح التلخيص الاخرى . وقد كتبه بعد أن اطلع على شرح التفتازاني ، وحـاشية السيد الشريف ، وكتب عبد القاهر ، والرضي ، والزمخشري ، وابن الاثير . وكان اهتمامه بآراء التفتازاني والسيد الجرجاني اكثر من اهتمامه بغيرهما ، واستفاد من آرائهما وأيد بعضها ، ونقدها في كثير من المواضع ، واكثر من الرد على التفتازاني مع أنه يقول عنه « العالم الرباني أستاذ الفضلاء العلامة التفتازاني »[٢]. وقد رجعنا الى ردوده في الكتاب فلم نجد فيها فائدة ، أو قيمة بلاغية، لان اكثرها ردود فلسفية بعيدة كل البعد عن مقاييس الفن الذوقية .

وقد رد عليه في الاصوات ، والمجاز العقلي ، وحذف المسند اليه، والاستغراق ، والقصر ، والاستفهام ، والفصل والوصل ، والتشبيه ،

---

(١) تنظر ترجمته في شذرات الذهب ج٨ ص ٢٩١ ومعجم المطبوعـات ج٢ ص ٢٣٠ وتاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها ص ١٧٩ وكشف الظنون ج١ ص ٤٧٧ .

(٢) الاطول ج١ ص ٣ .

والتمثيل وغيرها من مباحث الكتاب[1] .

وتتجلى في هذا الشرح العقلية المشرقية التي تعتمد على المنطق والفلسفة ، وتبتعد عن تحكيم الذوق والمقاييس الفنية في النقد والبلاغة . فبعد ان رأينا بهاء الدين السبكي يمزج الادب بالاصول والفلسفة ، نجد عصام الدين يبتعد ابتعادا تاما عن النزعة الأدبية ، ويسرف اسرافا عظيما في التمحلات والتأويلات وادخال كل غريب في البلاغة . ويبدأ كل فصل من فصول الكتاب بابتهال ودعاء يشمل موضوعات الفصل ، يقول ــ مثلا ــ قبل الشروع في بحث علم المعاني: « ولما فرغنا من شرح المقدمة وحان الشروع في شرح علم المعاني نقول متضرعا متذللا سائلا الالهام الرباني الهي نعوذ بك عن الملاهي ، ونلوذ بأوامرك في الاجتناب عن المناهي ، ونسألك التمتع بأسرار المثاني وفهم معانيه الاول والثواني ، واحراز ما وعدته بقراءة كل حرف من حروف المباني . ونبتهل اليك في التخصيص بفهم مزايا أودعتها فيها للخواص وبالعمل بما يعرف عنها الاجتهاد ، مقرونا بكمال الاخلاص ونطلب منك التوفيق لتحقيق اسناد جميع الكائنات اليك في كل حال ، ولضبط كل مسند الى خير مسند اليه نبي الرحمة من الافعال والاقوال ومفازا بمراتب علية هي متعلقات الافعال والاعمال . ونرجو منك قصر أنظارنا على انشاء ما يوجب الوصل الى موجبات معرفتك والفصل عما يوجب خفة موازيننا بل مساواتها والانقطاع عن مغفرتك . الهي اغننا بايجاز جوامع الكلم في المسألة عن الاطناب ، والهمنا رشدنا واهدنا الصراط المستقيم في جميع الابواب »[2] .

لقد ذكر عصام الدين في هذا الابتهال موضوعات علم المعاني ،وهو حصر لا نرى له موجبا وهو الى سخف الكلام أقرب .

---

(١) الاطول ج١ ص ٢١ و ٦٩ و ٧٥ و ٧٦ و ٨٣ و ١٠٣ و ١٩١ و٢١٧ وج٢ ص٨ و ٦ و٢١ و٩٥ و١٥٦ .

(٢) الاطول ج١ ص ٣٨ .

ويقول في اول علم البيان : « الهي هب لنا معرفة واحد تعدد فيه بطرق مختلفة واضحة الدلالة ، متباعدة عن التشبيه والتمويه ، ونجنا بظهور الحقيقة عن الاطمئنان بالمجاز ، ونجنا بايضاح كنايات البيان وتلخيصها عما يحول بيننا وبين المجاز . واجعل وجوداتنا المستعارة قرائن البقاء في الزلفي ، ووفقنا للتيمن بسم الله الرحمن الرحيم من الاسماء الحسنى »[1] .

ولا نجد هذا السخف في الشروح التي عرضناها سابقا ، ولا نجد عندهم الاعتماد على النصوص الفارسية لتوضيح قاعدة بلاغية ، فقد أدخل عصام الدين بعض العبارات لتأييد رأي أو ترجيح آخر ، وقد يقال أن هذا حسن منه ، ولكننا نرى أنه لم يأت بشيء ذي فائدة لانه اقتصر على أمثلة معينة ولم يعمم هذا في كتابه ليكون بحثا في البلاغة المقارنة .

ويتصف الشرح الاطول بعد هذا كله بانه ركيك العبارة، فيهاخطاء لغوية ونحوية كثيرة ، وفيه تعقيد ، وقد فاق التفتازاني واضرابه في هذا ، وليس هذا بالعجيب لانه كان في عصر مظلم وفي بيئة لا تعرف للعربية طعما .

وفي الاطول اشارات مفيدة ومن أهمها ما يتعلق بخروج الاستفهام والامر عن معانيهما الى المعاني المجازية ، ويرى أن الخروج لا يجوز الا « لمعرفة القرائن والعلاقات اذ لو فات شيء منهما خرج استعمالك من حيز اللطف والسداد الى مزلقة العنف والفساد »[2] .

ويقول في خروج الخبر عن معناه : « فالخبر في هذه الصور مجاز لاستعمالها في غير ما وضع له ويحتمل بعضها الكناية . هذا وفيه ان اللفظ لا يكون محتملا للمجاز والكناية ، لانه ان وجدت القرينة المانعة عن ارادة الحقيقة فمجاز بلا شبهة والا فكناية »[3] .

---

(١) الاطول ج٢ ص ٥٠ .

(٢) الاطول ج١ ص ٢٤٢ .

(٣) الاطول ج١ ص ٢٥٢ .

وله بعض التحقيقات والآراء التي نذكر منهـا على سبيل المثال ، رأيه في اشتقاق القصر ، يقول : « في القاموس القصر اختلاط الكلام ولا يبعد أن يكون النقل منه، لانه في القصر الاصطلاحي اختلاط الحكم الايجابي بالسلبي »[1] .

وله تحقيقات في القصر ، والفصل والوصل ، غير أنها تحقيقـات لا فائدة فيها .

وذكر أن البلاغيين فاتهم الاطناب في قسم لم يضبطوه وهو الاجمال بعد التفصيل ، ولم يسمه ابهاما بعـد الايضاح اذ لا يصير ما يعقب الايضاح مبهما[2] .

ولعل من أهمما يلفت النظر أنه يرى أن الاستعارة بالكناية استعارة مقلوبة مبنية على التشبيه المقلوب لكمال المبالغة في التشبيه فهو أبلغ من المصرحة ، فكما قولنا أن السبع كالمنية تشبيه مقلوب يعود الغرض منه الى المشبه به ، كذلك « أنشبت المنية أظفارها » استعارة مقلوبة استعير بعد تشبيه السبع بالمنية للسبع الادعائي وأريد بالمنية معناها بعد جعلها سبعا تنبيها على ان المنية بلغت في الاغتيال مرتبة ينبغي ان يستعير السبع عنها اسمها دون العكس[3] .

وكان عصام الدين معجبا بالقزويني لذلك وضع شرحه الاطول على تلخيص المفتاح ، ولم يسلم منه فقد نقده ، وفند بعض آرائه ، وكـان يفضل أحيـانا رأيا للزمخشري ، أو السكاكي ، أو التفتازاني ، او السيـد الشريف .

ودافع عن القزويني عنـدما رأى بعضهم انه اسرف في نقد مفتاح العلوم وأيده في تعريف علم المعاني وفي المجـاز العقلي وغيرها ، ورد

---

(١) الاطول ج٢ ص ٢١٣ .

(٢) الاطول ج٢ ص ٤٠ .

(٣) الاطول ج٢ ص ١٤٩ – ١٥٠ .

عليه في تسمية الخبر الابتدائي فقال : « انما سمي به لانه ابتـــداء كلام من غير سبق طلب أو انكار ، كذا نقل عن المصنف وتبعه السيد السند في شرح المفتاح ، والاظهر انه احداث صورة نسبة في المخاطب من غير سبق حضورها في نفسه »[1] .

ونقده في اقتضاء التقديم وجعل الفعل مسندا ، واوجــه التنكير والقصر والايجاز والاطناب والتتميم وغيرها .

(١) الاطول جا ص ٦٢ .

السيوطي

وينبغي ألا ننسى في هذا المقام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي (٩١١ هـ)[١] الذي يقول عن نفسه : « ورزقت التبحر في سبعة علوم : التفسير ، والحديث ، والفقه ، والنحو ، والمعاني ، والبيان ، والبديع ، على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفاسفة »[٢] . وله في البلاغة : « نكت على التلخيص » يسمى الافصاح و « عقود الجمان في علم المعاني والبيان » ، وشرحه ، « وشرح أبيات تلخيص المفتاح » ومختصره ، « ونكت على حاشية المطول » للفنري ، و « حاشية على المختصر » ، والبديعية المسماة « نظم البديع في مدح خير شفيع » وشرحها ، عارض بها بديعية ابن حجة وأولها :

من العقيق ومن تذكار ذي سَلَمِ   براعة العين في استهلالها بدمِ

وهو في هذه الكتب ينحو منحى القزويني من غير أن يضيف شيئا الى البلاغة وقد بحث في كتابه « المزهر » الفصاحة والحذف والاختصار والحقيقة والمجاز والاستعارة والعام والخاص »[٣] .

---

(١) تنظر ترجمته في حسن المحاضرة ج١ ص ١٩٠ والفوائد البهية ص ١٣ وروضات الجنات ص ٤٣٢ والخطط الجديدة ج ١٢ ص ١٠٥ .

(٢) حسن المحاضرة ج١ ص ١٩٠ .

(٣) المزهر ج١ ص ١٨٤ ـ ١٩٧ و ٣٣١ ـ ٣٤٥ و ٣٥٥ ـ ٣٦٨ .

وتكلم على علوم البلاغة بايجاز في كتاب « النقاية» وشرحها«اتمام الدراية لقراء النقاية » ، وهو في هذين الكتابين وغيرهما يتجه اتجاه القزويني في العرض والتقسيم والامثلة ، ولعل بحثه بعض المسائل البلاغية في « الاتقان في علوم القرآن » كان احسن من بحثه لها في كتبه المتقدمة ، لانه تحرر قليلا من سيطرة منهج القزويني ، وقد تكلم على الحقيقة ، والمجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والكناية ، والتعريض ، والخبر ، والانشاء . وعرض بعض الآراء ولم يتقيد بمنهج من تقدموه من شراح التلخيص . ولعل سبب تحرره من منهج القزويني أنه لم يبحث في البلاغة وانما كان يكتب في علوم القرآن الكريم ، ومن هنا حاول الابتعاد عما يضيق سبيله ، ويشغله عن القرآن الكريم ، وروعته ، ولكنه لم يكن مع ذلك صاحب فكرة طريفة ، ومنهج جديد واضح .

ولعل كتاب « شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان » أقرب كتب السيوطي الى بلاغة القزويني ، لان هذا الكتاب شرح لارجوزته المسماة « عقود الجمان » التي نظم السيوطي فيها تلخيص القزويني ، واولها :

وهذه أرجوزة مثل الجمان	ضمنتها علم المعاني والبيان
لخصت فيها ما حوى التلخيص مع	ضم زيادات كامثال اللمع
ما بين اصلاح لما ينتقد	وذكر أشياء لها يعتمد
وضم ما فرّقه للمشبه	والله ربي أسأل النفع به
وان يزكي عملي ويعرضا	عن سؤله وان ينيلنا الرضا

ورتب موضوعات البلاغة فيها كما ذكرها القزويني في التلخيص ، فقد كان السيوطي معجباً بالرجل ايما اعجاب ، وكان يحتفظ بنسخة من التلخيص بخط مؤلفه ، يقول : « والتلخيص تأليف قاضي القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني ، وعندي نسخة بخط

مؤلفه ، وترجمته بسطتها في طبقات النحاة »[1] .

ورأى السيوطي ان هذه الارجوزة بحاجة الى شرح وتعليق لينتفع بها ، فوضع كتابه « شرح عقود الجمان » ، وفيه اوضح ما غمض في الارجوزة ، واشار الى الآراء المختلفة ، وختم بحث البديع ببديعية ابن حجة الحموي ، ليكون كل بيت منها على تسمية النوع الذي فيه على سبيل التورية .

وليس في هذا الكتاب آراء جديدة ، والتفاتات نقدية لها قيمتها وأهميتها ، وهو ككتبه الاخرى جمع للاراء ، وعرض للموضوعات . وبذلك نجد السيوطي في هذا الكتاب قد خدم القزويني وكتبه ، أكثر من خدمته للبلاغة .

(١) شرح عقود الجمان ص ٣ .

٣

قيمة الشروح :

هذه أهم شروح التلخيص ، وقد رأينا أن كتـاب تلخيص مفتاح العلوم للقزويني كان ميدانا رحبا للمؤلفين يجربون في شرحه أقلامهم ، ويقدحون أذهانهم في فهم عباراته وربط جملة بجملـة ، أو تعلق حرف بكلمة • وأصبح دافعـا الى الشرح والتحشيـة ، فكانت البلاغة في القرون : السابع والثـامن والتاسع ، متنا هو التلخيص وشرحا عليه ، وكانت حواشي على الشروح في القرون : العاشر والحادي عشر والثاني عشر ، وكانت تقريرات على الحواشي في القرنين الثـاني عشر والثالث عشر ، وهي حلقات أقل ما يقال فيها انها مفرغـة لا تقع فيها • ولعل الذي وجه البلاغة هذه الوجهة أمران :

الاول : موت الملكات الادبية والمواهب الفنية بسبب ما أصاب الحياة من تدهور في جميع نواحيهـا •

والثاني : ان معظم هؤلاء الشراح كانوا معلمين يجلسون الى طلابهم يشرحون لهم علوم اللغة العربيـة ، ولم تكن طريقتهم في التدريس يومـذاك الا قراءة المتن والتعليق عليـه • ومن هنا جاءت الشروح والحواشي والتقريرات الكثيرة ، وأصبحت البلاغة طلاسم والغازا يحار في فهمهـا الـدارسون •

وجميع هذه الشروح ملأى بمسائل فلسفية استعارها الشراح من الفلسفة، ومفعمة بمسائل أصولية أخذوها من علم الاصول، وما تحدث فيه أصحابه من بحوث الخبر والانشاء ، والحقيقة والمجاز • أما النقد الصحيح والذوق المرهف والاحساس المدرك فلا نجده فيها الا قليلا كشرح السبكي الذي كان مزيجا لبقا من البحوث الادبية والفلسفية ، ومن هنا يرى بعض نقادنا : « أن من يطيل النظر في هذه الشروح والتفاسير تفسد ملكته ، ويفسد ذوقه الادبي ، ويفقد كل قدرة على المتعة بروائع الشعر والنثر وتبين ما فيها من حسن وجمال »[1] • وذلك لما فيها من غريب لا يمت الى البلاغة بصلة ، ولان اسلوبها ضعيف ركيك فيه مخالفة للقواعد الصرفية والنحوية واللغوية •

ولهذه الشروح والحواشي قيمة نحوية ، فكثيرا ما نجد الاراء المختلفة في المسألة الواحدة لنحاة متعددين ضاعت كتب بعضهم ، ونلاحظ هذه الناحية واضحة جلية في كتاب « عروس الافراح » للسبكي ، الذي فيه كثير من آراء الكوفيين كالكسائي ، والفراء ، وثعلب ، وآراء المبرد ، والاخفش ، وابن السراج ، والفارسي ، وأبي البقاء ، وآراء البصريين كسيبويه ، وآراء أهل الاندلس كأبن مالك ، وابن عصفور ، والشلوبين ، وأبي حيان النحوي الاندلسي ، وان النحوي ليستطيع ان يستخرج من هذا الشرح معلومات كثيرة ، مفيدة في النحو •

وللشروح بصورة عامة أهمية بالغة في دراسة النحو بمعناه الواسع، لان بحثها لعلم المعاني كان مفصلا ، ويمكن الاستفادة منها بهذا الصدد كالحذف والذكر ، والتقديم والتأخير ، والقصر ، والفصل والوصل ، وبذلك نعيد للنحو اعتباره ونجعله علما له اصالته ، أما النحو بمعناه المتأخر فليس نحوا ، وانما هو دراسة الاعراب والبناء •

وفيها الى جانب ذلك معلومات تأريخية وأدبية قد لا نجدها في

---

(١) النقد للدكتور شوقي ضيف ص ١٠٦ •

غيرها من الكتب . وقد نقل لنا السبكي عن ابيه كثيراً من آرائه واقواله مما لا نجده في غير « عروس الافراح » ، وبذلك قدّم لابيه خدمة جلى ، وحفظ آراءه وأقواله ، وقدّم للاجيال المتعاقبة بحوثا كادت تضيع وتعصف بها الايام .

ولعل أهمّ ما في الشروح بعد هذا كله ، انها تفتح الذهن على مسائل كثيرة قد يغفل عنها الباحث : لانها تذكر وجهات النظر المختلفة ، وقد يكون الدارس ساهيا أو لا يستطيع أن يستخرج الآراء المختلفة من كتب أصحابها ، ولكنه يستطيع بكل سهولة ويسر أن يقف عليها في الشروح ، ويستطيع بعد ذلك أن يعود الى مصادرها ليرى الآراء بالتفصيل .

واذا ما أردنا أن نستفيد من هذه الشروح ، فان عروس الافراح للسبكي ، ومواهب الفتاح للمغربي من خيرة هذه الكتب في البلاغة المتأخرة ، ففيها عرض للافكار والآراء المختلفة في المسألة الواحدة ، وفيها نقاش مهما يكن شكليا فله أهميته وقيمته في دراسةالبلاغة .ومن أجل هذا نرى أن على المجدد اذا ما أراد ان يعيد الى البلاغة رونقها وبهاءها أن يقتل هذين الشرحين درسا وبحثا ويقف على الآراء المختلفة فيأخذ منها ما فيه النفع وانارة السبيل ، ويدع ما لا قيمة له ، وما فيه ابتعاد عن البلاغة والنقد الادبي .

وهكذا كان لتلخيص القزويني وايضاحه أثر كبير في الحركة البلاغية ، وسيطر هذان الكتابان على مناهج الدرس والتأليف ، وقد صدق القلقشندي حينما قال : « واكثر اعتماد أهل الزمان فيه على تلخيص المفتاح للقاضي جلال الدين القزويني فأغنى ما وضع فيه عن ايراده هنا »[1] . وقال فيه في موضع آخر : « وأعظمها شهرة بالديار

---

(١) صبح الاعشى ج١ ص ١٨٥ .

المصرية تلخيص المفتاح لقاضي القضاة جلال الدين القزويني وعليه عـدة شروح »[1] .

واستمر التأليف على غرار تلخيص القزويني وايضاحه ، لا يخرج المؤلف عن عبارته ، أو عبـارة السكاكي ، وأصبحت الكتب المتأخرة خدما للتلخيص لا للبلاغة ، ولم يأتِ أحد بجديد ، وانصرفت الهمم الى حفظ ما أثر عن المتقدمين حتى بدأت طلائع النهضة الحديثة .

(١) صبح الاعشى ج١ ص ٤٦٩ .

الفصل الثاني

القزويني والبلاغة الحديثة

١

ظلت البلاغة العربية على الحالة التي اطننا الكلام عليها في الفصول السابقة ، وبقي التلخيص والايضاح محور الدراسات البلاغية والنقدية حتى أطل فجر النهضة الحديثة على أمة العرب ، فأحس الناس أنه لا بد أن تتغير طرائق التدريس ، ولا بد أن تتجدد مناهج البحث والتأليف فأخذ الدارسون يحيون تراثهم ويخرجون بحوثا فيها طرافة وتجديد . وكان للبعثات العلمية منذ عهد محمد علي أهمية كبيرة في اتصال العرب بالغرب والاطلاع على مناهج بحثه ،وطرق تأليفه .وقد أشاع المبعوثون مفاهيم جديدة في البلاغة بعد أن رأوها في الغرب قد تخلصت من رواسب الماضي ، واتجهت اتجاها جديدا فيه تقع في تقييم الادب . وادمجت في « علم أوسع شأنا وأعظم خطرا ، هو علم الاسلوب الحديث وفيه اتسعت النظرة وعني بالوجوه الجمالية التي ساعدت على صدق الكاتب واصالته ، وشملت ميادين فسيحة جديدة لم تكن لتخطر للبلاغيين من قبل على بال »[1] .

---

(١) المدخل الى النقد الحديث ص ٢٥٣ .

وبقيت بلاغتنا كما كانت في عصور الشروح والحواشي ، ليس فيها نفع وفائدة في نقد الادب وتقديره واستفاد المؤلفون العرب مما رأوه عند الاوربيين ، وأخذوا يخرجون كتبا فيها عمق الكتب العربية القديمة واصالتها ، وفيها طرافة البحوث الجديدة .

الازهر والبلاغة :

وكان الازهر الشريف أول من حمل لواء التجديد في البلاغة بعد الاصلاحات الكثيرة التي ادخلت في مناهجه وطرق تدريسها ، فقدكانت تدرس في الازهر علوم لغويةمختلفة قبل نظام الازهر لسنة١٣١٤ هـ ــ ١٨٩٦م ، وقد جاء بيانها في رسالة مقدمة من شيخ الازهر الى الخديوي في سنة ١٣١٠هـ ــ ١٨٩٢م ، وقد اشتملت هذه الرسالة علىالموضوعات الآتية : علم التوحيد ، والتصوف ، والتفسير ، والتجويد ، والقراءات، والحديث ، ومصطلح الحديث ، وفقه المذاهب الاربعة ، وأصول الفقه، واللغة ، والنحو ، والصرف . أما البلاغة فقد كانت تدرس في تلخيص القزويني بشرح التفتازاني،ومفتاح العلوم للسكاكي بشرح السعدوالسيد الجرجاني ، والجوهر المكنون للاخضري بشرح الدمنهوري ، وعقود الجمان وشرحه للسيوطي ، ومنظومة ابن شحنة ، والرسالة البيانية للصبان والسمرقندية[1] .

ولما وضع قانون سنة ١٣١٤ هـ ــ ١٨٩٦ م كان يدرس من علوم البلاغة في السنة الثامنة « الجوهر المكنون » ، وفي التاسعة والعاشرة « شرح السعد المطول » بحاشية الدسوقي[2] . وعندما وضع نظام سنة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) نالت البلاغة بعض التطور والتجديد في تدريسها وكتبها ، فكان يدرس من علم البيان في السنة الثالثة رسالة الدردير أو السمرقندية ، وفي الثامنة القسم الثاني من السعد على التلخيص ، ويدرس من علم المعاني في السنة السابعة القسم الاول من

(١) ينظر تاريخ الاصلاح في الازهر ص ٥٤ .
(٢) تاريخ الاصلاح في الازهر ص ٦٢ .

السعد على التلخيص . وكان القسم الثالث من السعد على التلخيص يدرس في السنة الثامنة . ووضعت دراسة جديدة تسمى البلاغة التطبيقية يدرس منها في السنة التاسعة « دلائل الاعجاز » ، وفي العاشرة « أسرار البلاغة » أو « كتاب الصناعتين » لابي هلال العسكري [1] .

وكان هذا التطور بفضل الشيخ الامام المرحوم محمد عبده الذي اخذ يحيي كتب السلف النافعة وعلومهم ، ويقوّم ما اعوجّ من مناهج التأليف وطرائق التدريس . وقد انصرف الاستاذ الامام الى تدريس كتابي « دلائل الاعجاز » و« أسرار البلاغة » لعبد القاهر ، ففتّح اذهان الطلبة ، وقوّى مداركهم ومواهبهم ، لأنهم وجدوا في تدريس الامام غير ما ألفوه ، وبذلك كان الجامع الازهر أول معهد من معاهد التعليم الاسلامي والعربي قريء فيه « دلائل الاعجاز » و« أسرار البلاغة » درسا لطلاب البلاغة ، ولأجله طبع الكتابان وانتشرا في معاهد التعليم . ولكن اساتذة الأزهر أحجموا بعد الامام عبده عن تدريسهما مع انهما مقرران للتدريس رسميا ، وبذلك احتضرت الدراسات البلاغية بعده ، وكادت تموت .

وتخرج في الازهر الشريف في مطلع العصر الحديث جيل فيه عزم على البحث ، وفي روحه اندفاع الى التجديد . وانشأ الخديوي اسماعيل دار العلوم سنه ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢ م) باشارة من علي مبارك ناظر ديوان المدارس ، وكان الغرض من انشائها أن يتعمق الطلبة في الدراسات الاسلامية والعربية . وقد صانت هذه الدار اللغة العربية حتى أن الامام محمد عبده اعجب بها فكتب عنها في تقريره عن امتحانها النهائي الذي رأسه سنة ١٩٠٤ م « واني انتهز هذه الفرصة للتصريح بمكانة هذه المدرسة في نفسي وما اعتقده من منزلتها في البلاد المصرية ومن اللغة العربية : ان الناس لا يزالون يذكرون اللغة العربية ، واهمال اهلها في تقويمها ، ويوجهون اللوم الى الحكومة لعدم عنايتها بأمرها .

---

(١) تاريخ الاصلاح في الازهر ص ٧٧ — ٧٨ .

ولم اسمعهم قط ينصفون هــــذه المدرسة ، ولا يذكرونها من حسنات الحكومة . فان باحثا مدققا لو اراد ان يعرف أين تموت اللغة ، واين تحيا لوجدها تموت في كل مكان ، ووجدها تحيا في هذا المكان »[1].

وكان بعض طلاب الازهر ممن تتلمذوا على الشيخ محمد عبــده اساتذة في هذه الدار فبعثوا في البلاغة روحا جديدا .

كتب جديدة :

ومن الكتب المؤلفة في فجر النهضة الحـــديثة وما قبلها بقليــل كتاب « حسن الصنيع في علم المعاني والبيان والبديع » لجامعه الشيخ محمد البسيوني البيباني (١٣١٠ هـ)[2] . وقد وضعه استجابة لرغبة خيري باشا ناظر المعارف يومذاك ، ويعتبر هذا الكتــاب حسنة مــن حسنات ذلك العصر الذي لم تكن للمؤلفين فيه وجهــة سوى تأليف الحواشي والتقريرات ، مع عنايتهم بالبحوث اللفظية لا تســهيل العلوم وضبط مسائلها . والكتاب صورة مصغرة من كتاب الايضاح للقزويني مع اختلاف قليل في المنهــج ، فقد غَيَّر قليلا في منهج مبــــاحث علم المعاني ، ولم يوزع موضوعات الحذف والذكر ، والتقديم والتأخير ، وغيرها على المسند اليه والمسند، وانما جمع كُلّ موضوع في فصل واحد، فبحث تقديم المسند اليه والمسند في مبحث ، وحذف المسند والمسند اليه في مبحث آخر ، وهكذا في جميع المباحث ، وهذا عمل يحمد عليه المؤلف . وبحث المجاز العقلي في علم البيان كما فعــل السكاكي ، وبذلك خالف القزويني من هذه الناحية . وكان البسيوني في علم البديع أوسع افقــا من القزويني حيث بحث موضوعات خاتمــــة التلخيص والايضاح في البديع ، فتكلم في المحسنات المعنوية على براعة الاستهلال ، والتلميح ، والتضمين ، والاقتباس ، والعقد ، والحل . ونستطيع أن نعتبر هــذا

---

(١) نشأة النقد الادبي الحديث في مصر ص ٥٢ ، ومستقبل الثقافة في مصــــر ص ٢٧٩ ، ٢٩٠ ، والتعليم في مصر ص ٦٥ ، ٨١ .

(٢) تنظر ترجمته في تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها ص ٢١١ .

الكتاب بادرة طيبة من البسيوني واضرابه لانه نبه الناس الى التأليف في البلاغة والنقد ، وعدم التمسك بالشروح والحواشي والتقريرات ، أو التمسك بمنهج السكاكي والقزويني . ويمكن القول ان البسيوني لو استطاع أن يفلت من منهج القزويني وبلاغته لاتى بكل طريف رائع .

وكتب حفني ناصف (١٣٣٧ هـ) [١] « قواعد اللغة العربية » وهو مجموعة في النحو ، والصرف ، والبلاغة . ويشبه القسم البلاغي منه كتاب البسيوني ، لان حفني ناصف وزملاءه خالفوا القزويني في مباحث علم المعاني في الامور التي خالفه فيها البسيوني . وبقي الكتاب ردحاً من الزمن العمدة في تعليم اللغة العربية مع ما فيه من اختصار .

وعاد الشيخ أحمد الحملاوي (١٣٥١هـ — ١٩٣٢ م) [٢] في كتابه « زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع » الى منهج القزويني ، وقسّم علم المعاني كما قسمه ، وذكر المجاز العقلي فيه ، وسار على خطاه في توزيع مباحث علم البيان إلا أنه خالفه بعض المخالفة في علم البديع ، ورتب فنونه كما رتبها أصحاب البديعيات . واطال في ذكر انواعها وامثلتها . وتبدو استفادته واضحة من كتاب « عروس الافراح » للسبكي و« خزانة الادب » للحموي . وأضاف الى بعض فصول الكتاب تمرينات لا تخلو من فائدة . والكتاب حلقة جديدة في التأليف بعد الجمود الذي اصاب الدراسات البلاغية والنقدية ، وما يزال يدرس في بعض المعاهد ويطبع كل حين .

وللاستاذ علي عبدالرازق « أمالي في علم البيان وتاريخه » . والجديد في هذا الكتاب قسمه الاول الخاص بتاريخ علم البيان ، فقد استعرض المؤلف هذا العلم منذ نشأته حتى الفترة المظلمة ، وخصص القسم الثاني لدراسة موضوعات البيان وهي : التشبيه ، والمجاز ، والاستعارة ، والكناية ، وعرض الآراء المختلفة في كل موضوع ، ولكنه

(١) تنظر ترجمته في تاريخ علوم البلاغة ص ٢١٣ .

(٢) تنظر ترجمته في تاريخ علوم البلاغة ص ٢١٧ .

لم يخرج عمـا رسـمه السكاكي والقزويني • ولو تجاوز المؤلف بلاغة القزويني لاستطاع أن يأتي بكل طريف ، لانه كان ذا عقلية ناضجـة واحساس مرهف ، وله بعض الالتفـاتات القيمة في منهج السكاكي وتمحلات البلاغيين في تحديد مباحث علم البيان ، واستعانتهم بالدلالات العقلية • وكان هذا الكتاب مدعاة للتفكير في اعادة النظر في مفـاهيم البلاغة القديمة ، فاستفاد منه الاستاذ احمد مصطفى المراغي في نقـد منهج السكاكي وأوحى الى الدكتور بدوي طبانة كتاب «البيان العربي» الذي كان نسخة موسعة منه مع تجديد في العرض ، واضافة ملاحظات لها قيمتها وأهميتها •

وللاستاذ أحمد الهاشمي كتاب « جواهر البلاغة » ، وقد نهج فيه نهجاً قريباً من منهج القزويني ، إلاّ أنه اختلف عنـه في بحث الانشـاء وحقيقته بعد أن تكلم على الخبر ، ثم ذكر أحوال المسند اليه ،والمسند، ومتعلقات الفعل ، والقصر ، والفصل والوصل ، والايجاز والاطنـاب والمساواة•اما البيان والبديع فقد سار فيه على خطاه، واضاف اليه بحث التصحيف ، والموازبـة ، وائتلاف اللفظ مع اللفظ ، والتسميط ، والانسجام ، والسهولة ، والاكتفاء، والتطريز • وختم الكتاب بالبحث في السرقات وما يتبعها • وأضاف اليه تمرينات ليستفيـد منها الطلبة ، ويتمرنوا على الاساليب • وكتاب جواهر البلاغة من الكتب المدرسية الجيدة ، ولا يزال يدرس في المعاهد والثانويات •

ووضع الاستاذ احمد مصطفى المراغي[1] « علوم البلاغة » على غرار تلخيص القزويني وايضاحه ، مع ترتيب آخر لمباحث علم المعاني ، فقد قسمها الى الخبر، والانشاء، والذكر والحذف ، والتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والتقييد، والخروج عن مقتضى الظاهر ، والقصر، والفصل والوصل ، والايجاز والاطناب والمساواة ، وبـذلك رتَّبَ موضوعاته ولَمَّ شتاتها تحت باب واحد وسار على خطا القزويني في

(١) تنظر ترجمته في تاريخ علوم البلاغة ص ٢١٩ .

تقسيم علمي البيان والبديع ، وجمع في كتابه بين طريقة عبد القاهر ومنهج السكاكي والقزويني ، واستفاد من امثلة الاول وتعليلاته ،وأخذ عن الآخرين منهجهما وتقسيماتهما مع تغيير قليل .

واهم كتب البلاغة الحديثة « البلاغة الواضحة » للاستاذين علي الجارم ، ومصطفى امين[1] . وقد كان هذا الكتاب حلقة الانتقال بالبلاغة من طابعها القديم المعتمد على تقرير القواعد ، وحفظ القوالب الى الاهتمام بالتحليل . وقد اتبع المؤلفان طريقة تربوية جديدة في التأليف ، فكانت الامثلة تأتي قبل الشرح والقواعد ، ثم تحلل ويشرح ما فيها من فنون بلاغية . وينتقل المؤلفان بعدها الى تقنين القواعد ، ثم عرض التمرينات . وقد سارا فيه من علم البيان، فالمعاني ، فالبديع .ولم يدرسا من الاخير الا الجناس ، والاقتباس ، والسجع ، والتورية ، والطباق ، والمقابلة ، وحسن التعليل ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، وعكسه ، وأسلوب الحكيم . ولعل أهم ما يمتاز به كتاب البلاغة الواضحة البحث في الاسلوب وهو « المعنى المصوغ في الفاظ مؤلفة على صورة تكون أقرب لنيل الغرض المقصود من الكلام وافعل في نفوس سامعيه »[2] . وقسماه الى : الاسلوب العلمي ، والاسلوب الادبي ، والاسلوب الخطابي . وبذلك كان هذا الكتاب من اوائل الكتب التي بحثت في الاسلوب في العصر الحاضر . وكانت هذه الكتب عماد دراسة البلاغة في مصر والاقاليم العربية الاخرى ، مع وجود مؤلفات عربية ككتاب « الخواطر الحسان في المعاني والبيان » للاستاذ جبر ضومط و«المبسط في علوم البلاغة» للاستاذ محمد طاهر اللاذقي.

هذه أهم كتب البلاغة التي أتجه فيها اصحابها الى القزويني ، يأخذون منه منهجه ، وطريقة عرضه وامثلته . وقد رأينا انها لم تقدم

---

(١) تنظر ترجمتهما في تقويم دار العلوم العدد الماسي ص١٦٢ ، ٢٠٥ والبيان العربي (الطبعة الثالثة) هامش ص ٢٦٣ .

(٢) البلاغة الواضحة ص ١٢ .

للبلاغة العربية الحديثة شيئا ذا نفع ، ولم تغير منهج البحث والتأليف .

ونبغ كثيرون من خريجي الازهر ودار العلوم ، وكانت لهم كتب فيها تجديد ، ونزعة ادبية وكان الاستاذ احمد مصطفى المراغي من خيرة اساتذة دار العلوم في بحث البلاغة حيث الف كتاب « علوم البلاغة » الذي أشرنا اليه . و« تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها » وهو بحث موجز في تاريخ البلاغة العربية ، وترجمة أهم رجالها الاعلام ، وفيه آراء قيمة ، ونظرات صائبة في منهج السكاكي . وللمراغي كتاب « بحوث وآراء في علوم البلاغة » وهو البحوث التي ذكرها فيما بعد مبوبة مهذبة في كتابه : « تاريخ علوم البلاغة » وان اختلفت طريقة العرض والتأليف .

الجامعة والبلاغة :

ولما انشئت الجامعة المصرية سنة ١٩٠٨ م ، قام اساتذتها يجددون في بحوثهم ، مستهدين بتراثهم القديم ، ومناهج الغربيين . وكان للبلاغة نصيب ليس بالقليل من هذا التجديد ، وتطبيق المناهج الجديدة ، والاستفادة مما وصل اليه الاوربيون في العصر الحاضر .

ولعل الاستاذ الدكتور طه حسين كان من اوائل الذين نادوا ببعث البلاغة العربية ، وببحثها بحثا يقوم على تفهم مرامي القدماء ومقاصدهم، وعلى الموازنة والمقارنة ببلاغة اليونان ، وذلك ببحثه القيم « البيان العربي من الجاحظ الى عبد القاهر » الذي القاه في مؤتمر المستشرقين باللغة الفرنسية في ليدن ١١ سبتمبر (أيلول) سنة ١٩٣١م ، ونشر مترجما بقلم الاستاذ عبد الحميد عبادي في مقدمة كتاب نقد النثر سنة ١٩٣٣م . وقد قرر الدكتور طه حسين أن البيان العربي في اول نشأته وفي عهد الجاحظ تتبين فيه ثلاثة عناصر مختلفة هي : العنصر العربي ، والعنصر الفارسي، والعنصر اليوناني . وقد بلغ ذروته على يدي الشيخ عبدالقاهر ولم يتقدم بعده، بل أخذ على العكس من ذلك في التأخر والانحطاط . والجديد في هذا البحث أنّ الدكتور طه نَبَّه الى أثر ارسطو في البلاغة

العربية ، وبذلك قرر أن البيان العربي كان في جميع اطواره وثيق الصلة بالفلسفة اليونانية أولا ، وبالبيان اليوناني أخيراً . ولـم يكن ارسطو المعلم الاول للمسلمين والعرب في الفلسفة وحدها ، ولكنه الى جانب ذلك معلمهم الاول في علم البيان .

وكان لهذا الرأي أثر كبير فأخذ البـاحثون يتلمسون ما اوجزه الدكتور طه ، ويقارنون بين بلاغة العرب وبلاغة اليونان ، فألف الدكتور ابراهيم سلامة بحثا قيما هو « بلاغة ارسطو بين العرب واليونان » أثبت فيه ما ذكره طه حسين ، وتتبع البلاغة العربية منذ الجاحظ ، متلمساً أثر ارسطو ، وموضحاً فهم العرب لكتابي « الخطابة » و« الشعر » وخرج بنتائج طيبة فكان كتابه أهم بحث في هذا الميدان ، لولا وقوفه عند عبد القاهر ، واهماله السكاكي ، والقزويني ، وابن حازم القرطاجني ، وشراح التلخيص ، وغيرهم ممن كان تأثير الفلسفة ، وعلم الكلام ، ومنطق ارسطو ، اوضح فيهم ، واكثر ظهورا .

واشتغل الاستاذ أمين الخولي في البلاغة وكان له أثر في توجيه طلابه نحو البحث الحر بما ألقى من محاضـرات ، وقدّم من بحوث كبحث « البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها » و « البلاغة وعلم النفس » و« مصر في تاريخ البلاغة » ومقالته عن البلاغة في دائرة المعارف الاسلامية وكتابه « فن القول » الذي رسم فيه مناهج بحث الفن الادبي والبلاغة واخيرا كتابه « مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والادب » الذي ضم مقالاته المنشورة قديمـا .

وكتب الاستاذ أحمد الشايب في البلاغة والنقد ، وأخرج كتـاب « الاسلوب » الذي يعد دراسة بلاغية تحليليـة لاصول الاساليب الادبية . ووضع كتاب « أصول النقد الادبي » الذي كان محاولـة موفقة للجمع بين التراثين ، العربي والغربي ، في النقد ، وتفهم مسائله .

وكانت نتيجة الجهود التي قدّمها شيوخ الازهر ، وأساتذة دار

العلوم ، والجامعة أنْ ظهرت دراسات جامعية في البلاغة لها اصالتها ، ولها اسلوبها الجديد ككتاب « البلاغة العربية في دور نشأتها» للدكتور سيد نوفل ، وكتابي «ابو هلال العسكري ومقاييسهالبلاغية والنقدية» و« قدامة بن جعفر والنقد الادبي » للدكتور بدوي طبانة ، وكتـــابي « أثر القرآن في تطور النقد العربي الى اواخر القرن الرابع الهجري » و« ضياء الدين بن الاثير وجهوده في النقد » للدكتور محمـــد زغلول سلام ، وكتاب « ابن ابي الاصبع المصري بين علماء البلاغة » للدكتور حفني محمد شرف ، و « البلاغة عند السكاكي » للمؤلف ، و « مشكلة السرقات في النقد العربي » للاستاذ محمد مصطفى هـــدارة • وألفت كتب أخرى منها « فن التشبيه» و « فن الجناس » و« البلاغة الفنية » للاستاذ علي الجندي ،و« البيـــان العربي »و « السرقات الادبية » للدكتور بدوي طبـــانـــة •

اتجاه نفسي :

وظهر اتجاه نفسي في دراسة الادب ونقده في السنوات الاخيرة ، ومن البحوث المهمة في هذه الناحية مقالة « البـــلاغة وعلم النفس » للاستاذ امين الخولي ، وكتاب « علم النفس الادبي » للاستاذحامد عبد القادر ، وكتاب « من الوجهة النفسية في دراسة الادب ونقده »للاستاذ محمد خلف الله احمد • وهذه الكتب والبحوث ــ وان لم تكن جديدة كل الجدةــ تعتبر خطوة هامة في هذا الاتجاه،لان العرب ــوان اشاروا الى الاثر النفسي في الانتـــاج الادبي ونقـــده ــ لم يســتطيعوا ان يظهروا لنا هذا الاثر كما اظهره المحدثون بعد ان اطلعوا على دراسات علم النفس الحديثة ، وما كتبفي هذا الميدانمن دراسات نقدية وادبية•

مناهج جديدة :

وقـــد حاول بعض المحدثين أن يضع مناهج بحث البلاغة الحديثة بعد أن وضعها القزويني وضعها الاخير • ومنهم الاستـــاذ المرحوم طه

ابراهيم الذي لم تطبع محاضراته في البلاغة ، والاستاذ امين الخولي الذي يرى أن التقسيم القديم للبلاغة الى المعاني والبيان والبديع لا اساس له ولا غناء فيه ؛ لانه ينبغي أن يشمل البحث البلاغي : الكلمة، والجملة ، والفقرة ، والقطعة ، لا البحث في الجملة والجملتين . وان ما حشدته طريقة العجم وأهل الفلسفة في البلاغة من مقدمات منطقية ، واستطرادات فلسفية مختلفة ، ينبغي أن تبعد ، وتضم الى البلاغة مكانها مقدمات جديدة لا بد منها لدراسة فنية تقوم على الاحساس بالجمال والتعبير عنه . وهذه المقدمات تتعلق بعلم النفس وأثره في التعبير الادبي والوجدان وعلاقته بمظاهر الشعور من ناحية العمل الفني ، وبالخيال ، والذاكرة ، والاحساس ، والذوق . ثم نبدأ بعدها بدراسة البلاغة دراسة جديدة تقوم على منهج صحيح بشرط أن لا نفرط بتراثنا وبلاغتنا القديمة ؛ لان التجديد ليس معناه هدم القديم ، وانما هو البناء بعد الاستعانة به، وبما وصلت اليه الحضارة في هذه الايام[1] .

وتجمعت جهود الخولي في كتابه « فن القول » الذي كان توجيها منهجيا شاملا لبحث البلاغة ، وخلق مدرسة بلاغية جديدة . فهو يرى أن بحوث فن القول ينبغي أن تقسم الى ثلاثة ابواب هي : المبادىء ، والمقدمات ، والبحوث . وندرس في الاول تعريف فن القول ، وغايته، وصلته بغيره من الدراسات . وندرس في الثاني مقتبسات من القضايا النفسية التي تعيننا كثيرا في فهم الادب وتذوقه ، والاحساس بما فيه من روعة وجمال . أما البحوث فتضم البحث في الكلمة الواحدة من حيث هي عنصر لغوي ، وما فيها من جمال وجرس موسيقى له اثر في التعبير . وتضم البحث في الجملة وما يحدث فيها من تقديم وتأخير ، وحذف وذكر ، وايجاز واطناب . وتضم البحث في الفقرة وما فيها من

---

(١) ينظر فن القول ص ٢١٥ ـ ٢٢٣ ومقالة البلاغة العربية واثر الفلسفة فيها ص ١٧ ، ومقالة البلاغة وعلم النفس ص ١٤٨ ، ومادة بلاغة في دائرة المعارف الاسلامية ج٤ ص ٧٢ ، وكتاب مناهج تجديد ص ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، وص ٣٢٣ وما بعدها .

فصل ووصل ، وما تؤدي من صور • وتضم البحث في صور التعبير كالتشبيه ، والاستعارة ، والكناية ، والرمز ، والايحاء ، والتورية • وتضم القطعة الادبية ، وقد تكلم فيها على عناصر العمل الادبي ، وما بين اللفظ والمعنى من علاقة • واخيرا ندرس الاساليب الفنية في الادب وانواعها كالاسلوب الرمزي ، والفكاهي ، والتهكمي • وبهذا المنهج الواسع الذي يشمل معظم مباحث البلاغة القديمة ، وكثيراً من الفنون الحديثة ، نستطيع أن ندرس البلاغة دراسة جديدة ، تقوم على تفهم الفن الادبي ومقاييسه البلاغية والنقدية •

وكان كتاب « الاسلوب » للاستاذ أحمد الشايب ثمرة خبرة عميقة في درس البلاغة وتدريسها ، وقد وضع على ضوء هذه الخبرة والتجارب منهجه الجديد • ويرى أن ينحصر موضوع علم البلاغة في بابين أو كتابين : الاسلوب ، والفنون الادبية • فندرس في الاسلوب القواعد التي اذا اتبعت كان التعبير بليغا أي واضحا مؤثرا ، فندرس الكلمة والصورة والجملة والعبارة ، والاسلوب من حيث انواعه وعناصره وصفاته ومقدماته وموسيقاه • وفي هذا القسم نضع البلاغة العربية فعلم المعاني يدخل في بحث الجملة ، وعلم البيان واغلب البديع يدخل في باب الصورة ، وتبقى المباحث الاخرى مهملة في هذه الكتب التي انتهت اليها الدراسة البلاغية • وفي الفنون الادبية ــ وقد تسمى قسم الابتكار ــ ندرس مادة الكلام من حيث اختيارها ، وتقسيمها ، وتنسيقها ، وما يلائم كل فن من الفنون الادبية ، وقواعد هذه الفنون كالقصة ، والمقالة ، والوصف ، والرسالة ، والمناظرة ، والتاريخ •

وبالموازنة بين بحوث البلاغة كما دونتها الكتب العربية الاخيرة ، وموضوعها كما يجب ان يكون ، انتهى الاستاذ الشايب الى أن نصف البلاغة النظرية مفقود في اللغة العربية • أكثره في قسم الفنون الادبية وباقية في باب الاسلوب • وان شطرا من الاسلوب قد درس تحت عنوان المعاني ، والبيان ، والبديع ، وهو شطر على خطورته يعوزه التنسيق ،

ولسنا بحاجة الآن الى هذه الاسماء التي تسمى علوما خاصة لاجل فصول بلاغية يسيرة ، وان البلاغة العربية في حاجة الى وضع علمي جديد ، يشمل هذه الابواب والفنون ، ويصل بينها وبين الطبيعة الانسانية وملابساتها الزمانية والمكانية حتى يخدم الادب ، وأن الادباء هم أولى الناس بدرس البلاغة حتى يخلصوها من اساليب الفلاسفة ومذاهبهم وألغازهم ، فذلك هو الذي افسد بلاغتنا وحوّلها بحوثا لفظية عقيمة أشبه بالرياضة والكيمياء [1] .

ويرى الاستاذ عبد الله العلايلي أن ننهج في دراسة البيان الجديد أحد وجهين :

الاول : الغاء كل مباحثه واصطلاحاته سوى التشبيه ، والكناية ، فان ما بقي يرجع اليهما من أقرب الطرق اذا انصفنا التطبيق ولم تتحرج عليه بتمحل محض . فهذه الاستعارة بالكناية يمكن أن ترد الى التشبيه الكنائي فيقال في مثل :

واذا المنيةُ أنشبت اظفارَها ألفيت كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

شبهنا المنية بشيء له اظفار ، وأرسلناه كناية عن الامساك في دقة وشدة تعلق . وما وراء هذا من التخييل تخييل . أو بلا ملحظ التشبيه اصلا وانما من اول الامر يقال : جعل للمنية اظفارا كنايةعن دقة التعلق وعسر الخلاص .

والثاني : الى حقيقة ومجاز ، وكل منهما كناية ، وتجريد ،والكناية الحقيقية تشمل الكناية البسيطة ، والتشبيه ، والمجاز المرسل ، والمجاز المركب . والكناية المجازية تشمل كل كناية انبنت على تشبيه ، والكناية المركبة .

اما علم المعاني فلما كان للغة بمثابة المنطق ، فيرى أن لا يدرس في

(١) الاسلوب ص ٢٨ — ٣١ .

كتب القواعد كعلم ، بل يدرس على نهجه في كتب الادب كما نجد عند عبد القاهر في « دلائل الاعجاز » ، وعنـد الزمخشري في التفسير ، مع تهذيب مباحثه لتكون أدخل في الذوق ، وأقرب مناطا بالنفس •

ويدرس علم البديع كما يدرس علم المعاني[١] •

وتكلم الاستاذ أدور مرقص في مقالته « نظرة في قواعد علوم اللغة العربية وآدابها » على أنواع البديع المقترحة يقول : « وقد فكرت في ذلك مليا ، وقلت إنّ هذا الفن اصبح معرضا لناموس رد الفعل ، فهو الآن محتاج الى شيء من الاندغام ، والاندماج ، عوض ما وقع فيه من التمدد المفرط المحسوب مضلة ومتاهة ، ومن ثم اجتهدت في رد انواعه الى اجناس قليلة يدخل تحت كل جنس منها عدة انواع »[٢] •

وامهات الاجناس البديعية التي تنبه اليها : الموافقة ، والمخالفـة ، والترتيب ، والمبالغة ،والاستدراج، والتلميح ،وحسن التعليل،والايهام، والتدقيق ، والتوليد ، والكلام الجامع •

أما الموافقة فتنطوي على أنواع الجناس ، والمراجعة ، والتوشيح ، وتشابه الاطراف ، والتفويف ، والتصدير ، ومراعاة النظير ، والتمثيل والتوجيه ، والترديد ، والتكرار ، والمناسبة ، والتشبيه ، والتفصيل ، والمشاكلة ، والجمع ، والتصريع ، وتشبيه شيئين بشيئين ، والاشتقاق ، والاتفاق ، والمماثلة ، والتسهيم ، والتطريز ، والترجيـع ، والتفريع ، والسجع ، والتسميط ، والالتزام ، وائتلاف اللفظ مع المعنى ومع الوزن، وائتلاف المعنى مع المعنى ، والحذف ، والتدبيج •

وآما المخالفة فينطوي تحتها : الطباق ، والمقابلة ، وايهام التضاد ، والمناقضة ، والعكس ، والتفريق ، والسلب والايجـاب ، والرجوع ، والاستـــدراك •

---

(١) مقدمة لدرس لغة العرب ص ٤٣ ــ ٤٥ •

(٢) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد ١٩ ص ٤٨١ •

وأما الترتيب فينطوي تحته الترتيب ، والطي ، والنشر ، وايهام التناسب ، والاطراد ، والتقسيم ، والتفسير ، والايضاح ، وحسن النسق ، والتشطير ، والتعديد ، وجمع المؤتلف والمختلف ، والمزاوجة ، والجمع مع التقسيم ، والجمع مع التفريق .

واما المبالغة فتشتمل على التبليغ ، والاغراق ، والغلو ، والقسم ، وتجاهل العارف ، والاستثناء ، وحصر الجزئي والحاقه بالكلي .

وأما الاستدراج فيشتمل على الافتنان ، والتذييل ، والاستتباع ، والادماج ، وحسن التخلص ، وعتاب المرء نفسه .

وأما التلميح فيدخل في دائرته : التلميح ، والاشارة ، والاكتفاء ، والتوجيه ، والاقتباس ، والتضمين ، والابداع ، والالغاز ، وبراعة المطلب .

وأما حسن التعليل ففيه حسن التعليل ، والالتفات ، والمذهب الكلامي ، والاتساع ، والمغايرة .

وأما الايهام ففروعه الابهام ، والمدح في معرض الذم ، والذم في معرض المدح ، والتورية ، والاشتراك ، والاستخدام .

وأما التدقيق فاقسامه التشريع ، والايغال ، والاعتراض ، والاحتراس ، والفرائد ، والتنكيت ، والتكميل .

وأما التوليد ففروعه التوليد ، وسلامة الاختراع ،وحسن الاتباع .

وأما الكلام الجامع ففيه الكلام الجامع ، وارسال المثل .

واضاف جنس الكناية وهو ــ عنده ــ الكناية ، والتعريض ، والارداف ، والايضاح ، والقول بالموجب .

ويلاحظ أن هذه الاجناس المنطوية على هذه الانواع لا تقتصرعلى الانواع المختصة بفن البديع كما عرفه البلاغيون ، بل تتناول معظم الاساليب البليغة التي تشير اليها فنون البلاغة الثلاثة . وقد وسع

الباحث مفهوم هذه الفنون ، ونظر اليها نظرة لغوية الى جانب كونها مصطلحات فنية ثابتة ، وبذلك استطاع ان يتصرف فيها هذا التصرف الحسن ، وينظر اليها هذه النظرة الواسعة .

ويرى الاستاذ أنيس المقدسي أنّ تبويب موضوعات البلاغة القديم لا يفيد فائدة كبيرة ، ولذلك وضع ترتيبا آخر يكون أقرب الى واقع اللغة ، يقول : « رأينا أن مقاييس البلاغة لم توضع اعتباطا ولا توقيفا ، بل ترجع الى اعتبارات نفسية عامة . وقد اهتم علماء العربية قديما بهذه المقاييس ، وتدارسوها في أقسامها الثلاثة المعاني والبيان والبديع ، وافتن الشعراء والمنشئون في التأنق بصورها . على أن العلماء مع توفرهم على درسها ، وشرحها ، لم يعنوا بتبويبها تبويبا منطقيا يسهل على الباحث فهم حقيقتها والرجوع الى اصولها » (١) .

وقد بوبها تبويبا جديدا وحصرها في ستة أبواب هي :

باب التعادل ، ويراد به تماثل الفقرات في الجمل وزنا وتركيبا وقد يسمى الازدواج ، ويدخل فيه التوازن ، والمماثلة ، والسجع ، والتسميط ، والترصيع ،والتزاوج .

وباب التواطؤ اللفظي ، وهو أن تكون الالفاظ على جرس واحد، أو من أحرف متشابهة سواء اختلفت في المعنى أم لم تختلف . وتقوم بلاغتها على تنبيه الذهن الى المعنى بمعارضة اللفظين المتجانسين ، وعلى ما فيها من حلاوة موسيقية ناشئة عن تجانس الحروف وتآلفها .ويدخل فيه الجناس ، والتورية ، والتصدير ، والعكس ، والجمع مع التفريق ، والمجاورة ، والطي ، والنشر .

وباب التواطؤ المعنوي ، ويتناول ما كان فيه مشابهة بين شيئين . ومنه التشبيه ، والتمثيل ، والاستعارة ، ومراعاة النظير ، وتجاهل العارف .

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد ٣٠ ص ٣٥ .

وباب المغايرة،وهو عكس المشابهة ، ويراد بها الجمع بين المتضادات أو اشباهها • ويدخل فيه المقابلة ، والمطابقة ، والطرد ، والعكس ، والتهكم ، والاستفهام البياني ، والتغاير ، والسلب ، والايجاب ، وقد يدخل تحت هذا الباب المناقضة ،والاستدراك ، والاستثناء ،والمجاورة، والترديد ، وغير ذلك من هذه المقابلات •

وباب الخروج عن المعتاد ، ويشمل المجاز المرسل ، والتجريد ، والالتفات ، وتقديم ما حقه التأخير ، وبالعكس ، وتأخير المتقدم ، والغلو ، والمبالغة •

وباب الايماء الى غرض ، ومما يدخل فيه الكناية ، والتوجيه ، والاكتفاء ، والاتفاق ، والاشارات اللغوية والعلمية ، والادماج ، والتذييل ، والتتميم •

واذا رجعنا الى هذه الاتجاهات في تجديد البلاغة رأينا آن منهج الخولي أقرب الى واقع البلاغة وواقع اللغة العربية ، لما امتاز به من جمع شتات البلاغة ، وتوزيعها توزيعا جديدا • ويلاحظ أنه استفادمن بلاغة السكاكي في رسم منهجها ، ووضع اصولها • ولم يخرج رأي الاستاذ الشايب عن رأي الخولي في قسمه الاول الخاص بالاسلوب ، أما القسم الآخر فلا نرى مبررا لادخاله في البلاغة ، وانما يكون موضعه دراسات خاصة تتعلق بالفنون الادبية المختلفة • أما رأي العلايلي فنرى فيه قضاءً على كثير من صور التعبير ، وابتعادا عن البلاغة العربية قد يحرمنا ما في تراثنا من فائدة في بناء البلاغة التي نريدها ، والمجدد هو من قتل التراث القديم درسا وتحقيقا ، واطلع على مناهج البحث الحديثة فاخرج لنا جديداً لهصلة عميقةبالتراث القديم ،وارتباط عظيم بالحاضر الذي نحياه •

ونحن لن نقبل أية دعوة جديدة غير مبنية على أساس قوي ، تدعمها الحجج القوية وواقع اللغة العربية • ولن نؤمن بأي مجدد يبني

اصوله على الحديث وحده بحجة ان المحدثين اكثر اطلاعا من القدماء ، وأوسع افقا منهم .وكثيرا ما نرى الجديدلا يحتفظ دائما بصفة الجودة كما يزعم دعاته ، بل ان اصحابه الاصليين كثيرا ما ينشككون فيــه . وهذا ستانلي هايمان من اكبر النقاد الغربيين يرى أن النقد الادبي الذي كتب بالانكليزية في مدى الربع الماضي من هذا القرن مختلف من حيث النوع عن أي نقد سبقه ، وسواء سمي هذا نقدا جديدا أم نقدا علميا أم نقدا عاملا أم نقدا حديثا ، فان صلته الوحيدة بالنقــــد العظيم في العصور الماضية لا تعدو الصلة بين الخالف والسالف . فليس القائمون به أشد ألمعية أو اكثر تنبهــــا للادب من اسلافهم بل انهم في الحــق لا يتطاولون في هاتين الناحيتين الى عمالقة مثل ارســـــطو طاليس وكولردج[1] .

ومثل هذا يقال فيما ذكره الاستاذان أدوار مرقص وأنيس المقدسي، ويبدو انهما اطلقا هذين الرأيين من غير ملازمة طويلة للبلاغة والنقــد وان وفقا بعض الشيء فيما ذكراه ، إلاّ انهمـــــا لم يصلا الى ما ذكره الخولي الذي خبر كتب البلاغة ، وغاص في أعماقها ، وسبر أغوارها ، وعرف منهج البلاغة عند الغربيين الذي يصفه بانه « واضح المعالــم ، متميز القسمات ، سليم الاساس ، لا يخشى ان تشوبه شوائب مغيرة ، أو تناله انحرافات مؤثرة » [2] .

هذه أهم اتجاهات البلاغة الحديثة وأهم آراء الباحثين في دراستها، وقد عرضنا لها لانها مبنية على ما تركه القزويني وشراح تلخيصه ونحن هنا نقف لنسأل ما قيمة بلاغة القزويني وشروح التلخيص في هـــــذا التجديد ؟ وما أهم الموضوعات التي يمكن الاستفــــادة منها ؟ ومـــا الموضوعات التي يجب أن تجرد البلاغة منها لتكون صالحة في تقييم الادب ونقده ، واظهار ما فيه من روعة وجمال ؟.

---

(١) ينظر النقد الادبي ومدارسه الحديثة ج١ ص ٩ .

(٢) فن القول ص ١٠٦ .

٢

المنهج

جاء القزويني في عصر استقرت فيه علوم اللغة العربيـة ، وصوّر للباحثين انها اخذت شكلها الاخير أو كادت ، ولم يبق أمـامهم الا ان يعكفوا على القديم يدرسونه ، ويختصرونه ، او يشرحونه ، ويفصلون القول فيه تفصيلا • أو ان ينكبوا على العلوم ليجمعوا الاشباه والنظائر ، وينسقوا الموضوعات • وكان عصر القزويني عصر الموسوعات ، ففيه وضع ابو الفضل محمد بن علي الافريقي المصري جمال الدين المعروف بابن منظور (٧١١ هـ) اضخم موسوعة لغوية هي « لسان العرب » ، ووضع احمـد بن عبدالوهاب المعروف بشـهاب الدين النويري (٧٣٣ هـ) كتاب « نهاية الارب » ، وكتب ابو العباس احمد بن يحيى ابن فضل الله العمري (٧٤٩ هـ) « مسالك الابصار في ممالك الامصار » ، وتابعهم في هذا الاتجاه احمـد بن علي القلقشندي (٨٢١ هـ) فوضع كتابه « صبح الاعشى في صناعة الانشا » وهـذه الـكتب ــ وإنْ أكّدَتْ على نواحٍ معينة ــ فانها ضمت معلومات شتى فيها الفائدة ، وفيهـا النفع العظيم •

وما كان للقزويني الذي نشأ في هذا العصر أن يأتي بكل جـديد طارف ، وما كان له ان يخرج على المألوف بعد ان رأى اتجاه قومه الى التراث القديم يخدمونه بتلخيصاتهم وشروحهم ، وقد نهز معهم بدلوه

فاتجه الى مفتاح العلوم ولخص قسمه الثالث ، بعد ان رأى فيه حشوا ، وتطويلا ، وتعقيدا ، فاراد أن يختصره ، ويهذبه ، ويرتبه ترتيبا أقرب تناولا من ترتيبه . ورأى أن هذا الكتاب كـــان مختصرا غير وافٍ بالغرض ، فوضع شرحا عليه هو : « الايضاح » الذي وقفت البلاغة عنده ، ولم يكتب لها بعده التطور والتجديد .

الفصـــاحة :

لقد قسم القزويني البلاغة الى مقدمـــة ومقاصـــد ، والمقـــدمة في الكشف عن معنى الفصاحة والبلاغة ، ومن المقاصد ما يعرف به وجـــه الاحتزاز عن الخطأ في تأديـــة المعنى المراد وهو « علم المعاني » ، وما يحترز به عن التعقيد المعنوي وهو « البيان » ، وما نعرف بـــه وجوه التحسين وهو « البديع » ، وبهـــذا التقسيم وَزّع القزويني بحوث البلاغة ، وهو تقسيم لا نراه مجديا في دراسة البلاغة العربية .

لقد أخرج بحث الفصاحة عن مقاصد البلاغة وجعلها مقدمة وَجرّ هذا الى نقاشٍ واختلاف في معنى المقدمة ، يقول السبكي « فان اراد انها مقدمة الكتاب فهي جزء منه ، وان اراد انها مقـــدمة العلوم فهي ذريعة اليها بدليل انه سيذكر هذه العلوم مستقلة . ويجوز ان تكون جزء لكل من الثلاثة ، فلذلك قَدّمها عليها ، فالراجح انهـــا جزء على التقديرين خلافا لقول الخطيبي انها ذريعـــة »[1] . وَجرتْ هـــذه المقدمة شراح التلخيص الى الخوض في معناها ، واشتقـــاقها ، وما الى ذلك من أمور لا تهم الدارس . وجاءوا بكلام أبعد ما يكون عن فن البلاغة ودرسها ، وهذا أمر لا نوافق القزويني عليه ، لان الكلمة المفردة هي العنصر الاساس في عمل فني اداته الكلمة ، وان البحث فيها ومعرفة خصائصها لمن اوائل ما يبدأ به الدارس في تفهم البلاغة ونقد الكلام .

ان البحث في فصاحة الكلمة المفردة والكلام المركب وفصاحة المتكلم ،

---

(١) عروس الافراح ج١ ص ٦٧ .

لامر ضروري في دراسة البلاغة ، ولا يمكن المضي في تحسس مواطن الجمال في الكلام ما لم نُولِ الكلمة الاهتمام اللازم •

وكان القدماء أحسن منهجا ، وأصح تفكيرا حينما درسوا الفصاحة دراسة عميقة واسعة واهتموا بالكلمة اهتماما كبيرا ، ولو مضينا نتصفح كتب البلاغة والنقد منذ القديم لوجدنا الكلمة وفصاحتها تشغل بال النقاد والمفكرين ، فالجاحظ وهو من أقدم الذين بحثوا في البلاغة أولاها اهتماما ظاهرا،وتكلم على تنافر الحروف والكلمات ،واستحسن ما حقه الاستحسان ، واستهجن ما بدت فيه الهجنة واضحة للعيان •

وعقد معظم البلاغيين فصولا فيها ، وادار ابن سنان الخفاجي كتابه « سر الفصاحة » على بحث اللفظة الواحدة ، والكلام في الالفاظ المؤلفة ، ووضع لها شروطا • وقَسَّمَ ابن الاثير المثل السائر الى مقالتين : في الصناعة اللفظية ، والصناعة المعنوية • وقد تكلم في الاولى على اللفظة المفردة ومتى تحسن ومتى تقبح،وعلى الالفاظ المركبة كالسجع، والتصريع ، والتجنيس ، والترصيع ، ولزوم ما لا يلزم ، والموازنة ، واختلاف صيغ الالفاظ واتفاقها ، والمعاظلة اللفظية، والمنافرة بين الالفاظ في السبك •

لقد بحث هذان الناقدان البلاغيان الفصاحة بحثا مفصلا ، وادارا عليها كتبهما البلاغية ، ولم ينظرا اليها هذه النظرة الضيقة ، ولم يجعلاها مقدمة لعلم البلاغة ، وانما هي جزء مهم ، بل هي نصف الدراسات البلاغية كما نجد عند ابن الاثير •

ولعل الذي دعا القزويني الى جعل الفصاحة مقدمة انه رأى السكاكي لم يهتم ببحثها ، وانما اشار الى انقسامها الى فصاحة لفظية ، وفصاحة معنوية بعد انتهائه من بحث البيان ، وبذلك قتل هذا الفن واحاله رميما ، وقد لا يكون السكاكي ملوما في هذا ، لانه عاش في بيئة اعجمية لا تفقه أمر الفصاحة ، ولا تعرف لها قيمة ، ولانه كان يتتبع خطا

عبد القاهر الذي لم يجعل للفظة المفردة أهمية ومكانة في الكلام ،وانما اهميتها عندما تلتئم مع الكلمات الاخرى مكونة جملة أو عبارة . وقد دفعه الى هذا اعجابه بالنظم وارجاع كل ميزة للكلام اليه ، وقد يكون السكاكي معذورا لهذه الاسباب ، أمّا القزويني الذي عاش في بيئة عربية ، وكان على اطلاع بما كتب بلاغيو هذه البيئة ونقادها ، فلن تلتمس له العذر ما دام قد حاول ان يغير في بلاغة السكاكي بعض التغيير كما اشار اليه في مقدمة « التلخيص » و « الايضاح » ، وكان السبكي أحد شراح تلخيصه اسلم منهجا ، وأصفى ذوقا عندما اهتم بهذه المقدمة ، وبحث الفصاحة بحثا يعتمد على كتب البلاغة المتقدمة كسر الفصاحة والمثل السائر والجامع الكبير وغيرها من الكتب التي اعطت الموضوع حقه .

إنّ دراسة حسن اللفظة ـ من حيث جرسها الصوتي ، ومن حيث اداؤها لمعناها ودلالتها اللغوية وغير ذلك مما يتعلق بدراسة الكلمة ـ لضرورية في دراسة البلاغة ، وقد أولاها الغربيون في العصر الحديث أهمية بالغة فدرسوها دراسة عميقة ، واستفاد المعاصرون مما كتب العرب فيها وما نمقه الغرب فأولوا هذا البحث أهمية ، وقرر الاستاذ الخولي أن أول ما ينبغي دراسته في بحوث البلاغة «الكلمة » ، ووضع منهج دراستها من حيث هي عنصر لغوي ومن حيث هي جزء من الجملة[1] .

واذا اردنا ان نبحث الكلمة على خطة الخولي فلن يكلفنا ذلك عناء كبيرا لان العرب تكلموا عليها ، وليس لنا الا ان نعود الى الكتب القديمة نستخلص منها ما يخص الكلمة باوضاعها المختلفة ، وننظر في الدراسات النقدية الحديثة لنضم القديم الى الجديد ، ونخرج منها دراسة نقدية تكون ذات قيمة في الدراسات الجديدة .

ولاهمية دراسة الفصاحة والكلمة لا نرى لعمل القزويني معنى في

(١) ينظر فن القول ص ٢١٧ .

جعلها مقدمة واخراجها من مقاصد البلاغة ، لان الكلمة المفردة عنصر اساسي في عمل فني أداته الكلمة ، ولانها من مقاصد الفن البياني لا من مقدماته • ولكننا مع ذلك نستطيع ان نستفيد مما كتبه عن الفصاحة وصفات الكلمة ، ونضمه الى ما كتب غيره من النقاد •

علم المعاني :

اما موضوعات البلاغة فقد قسمها الى ما يحترز به عن الخطأ وهو « علم المعاني »، وما يحترز به عن التعقيد المعنوي وهو « علم البيان» ، وما يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال وفصاحته وهو « علم البديع » •

وقد عرف المعاني بقوله : « هو علم يعرف به احوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال »[1] • وسار على منهج السكاكي في تقسيم بحوثه ، مع اختلاف يسير في بعض القضايا ، وحصره في ثمانية ابواب هي : احوال الاسناد الخبري ، واحوال المسند اليه ، وأحوال المسند ، واحوال متعلقات الفعل ، والقصر ، والانشاء ، والفصل والوصل ، والايجاز والاطناب والمساواة •

ووجه الحصر ان الكلام أما خبر او انشاء ، لانه اما ان يكون لنسبته خارج تطابقه او لا تطابقه ، او لا يكون لها خارج ، الاول الخبر ، والثاني الانشاء ، ثم الخبر لا بد له من اسناد ومسند اليه ومسند ، واحوال هذه الثلاثة هي الابواب الثلاثة الاولى • ثم المسند قد يكون له متعلقات اذا كان فعلا ، او متصلا به ، او في معناه كأسم الفاعل ونحوه ، وهذا هو الباب الرابع • ثم الاسناد والتعلق كل واحد منهما يكون اما بقصر او بغير قصر ، وهذا هو الباب الخامس ، والانشاء هو الباب السادس ، ثم الجملة اذا قرنت باخرى فتكون الثانية اما معطوفة على الاولى او غير معطوفة وهذا هو الباب السابع ،

---

(١) الايضاح ص ١٢ •

ولفظ الكلام البليغ اما زائد على اصل المراد لفائدة ، أو غير زائد عليه، وهذا هو الباب الثامن »[1] .

بهذا الاسلوب حصر القزويني بحوث علم المعاني ، وهو حصر لا نرى له ما يبرره ، لان الفن الادبي لا يحصر هذا الحصر ، ولا يحد بهذه الحدود العقلية . وان تقسيمه الكلام الى خبر وانشاء لا نرى له فائدة في البلاغة لانه بحث فلسفي أخذه البلاغيون عن أصحاب المنطق .وقد عرض ارسطو لاساليب الخبر والطلب في بحوثه المنطقية ، وذكر في كتاب المقولات ان الجملة الموجبة او السالبة ، هي المحتملة للصدق والكذب ، وأما الالفاظ غير المؤلفة فليس شيء منها صادقا ولا كاذبا كابيض ويحضر ويظفر . وذكر في كتاب « العبارة » انه ليس كل كلام بجازم « انما الجازم القول الذي وجد فيه الصدق والكذب وليس ذلك بموجود في الاقاويل كلها ، ومثال ذلك الادعاء فانه قول ما ، لكنه ليس بصادق ولا كاذب »[2] .

وأخذ البلاغيون هذه القضايا مسلما بها مع ان ارسطو نفسه لا يرى في دراسة الامر ، والرجاء ، والاستفهام فائدة أو قيمة في الشعر ، انما هي امور تتعلق بالممثل والخطيب ، ولاجل هذا يرى انه لا قيمة حقيقية للنقد الذي يوجه الى الشاعر بانه يعرف أو يجهل هذه الامور ، يقول « .. اذ كيف نسلم باللوم الذي وجهه فروتاغوراس الى هوميروس بانه ساق العبارة في صيغة الامر وهو يعتقد انه رجاء حين قال : « انشدي ايتها الربة في غضبة » اذ قال فروتاغوراس ان القول بفعل كذا او عدم فعله هو أمر ، ولهذا يجب علينا ان نطرح هذه المسألة جانبا ، لانها من شأن علم آخر وليست من شأن فن الشعر » [3] .

وأحس القدماء انفسهم بهذا فقالوا بعد هذا الحصر تعليقا على

(١) ينظر الايضاح ص ١٣ .

(٢) منطق ارسطو ج١ ص ٦ ، ٦٣ .

(٣) فن الشعر ص ٥٤ .

كلمة القزويني : إنّ الخبر لا بد له من مسند اليه ، ومسند ، واسناد ، والمسند قد يكون له متعلقات اذا كان فعلا او في معناه . وقالوا انه لا وجه لتخصيص هذا الكلام بالخبر ، لان الانشاء لا بد له مما ذكر أيضا[1] . وحاول الدسوقي ان يصحح تعبير القزويني فقال : « فكان على المصنف ان يقول : وكل من الخبر والانشاء لابد له من مسند»[2] .

ولا يفيد هذا التعليق في التخلص من اضطراب القزويني في هذا الحصر ، وتقسيم الكلام الى خبر وانشاء ، لان القدماء انفسهم لم يتفقوا عليه فيرى بعضهم ان الكلام انواع كثيرة يقول السبكي: «وذكر المصنف حصر الكلام في الخبر والانشاء وهو كذلك ، الا ان منهم من يخص الانشاء بما لا طلب فيه ويقسمه الى خبر ، وطلب ، وانشاء ومنهم من يجعله ثلاثة اقسام : خبر وانشاء ، وهو ما دل على الطلب دلالة أولية . وتنبيه ويدخل فيه الاستفهام ، والتمني ، والترجي ، والقسم ، والنداء . وهو اصطلاح الامام فخر الدين . قلت : ومنهم من يجعل الكلام خبرا وطلبا وهو ابن مالك في الكافية ، ومنهم من يربّع الاقسام فيقول خبر ، واستخبار ، وطلب ، وانشاء »[3] .

وتقسيم القزويني الكلامَ الى خبر وانشاء ، أقرب هذه الاقسام الى الدقة كما نرى ، ولكننا مع ذلك لا نريد للمجددين ان يقسموه هذا التقسيم ، لان هذا عمل فلسفي لا يجدي نفعا . وقد أخذه البلاغيون من اهل المنطق وعلى رأسهم ارسطو ، ونرى ان يلغى هذا التقسيم ، لان الانشاء فرع من الخبر والى ذلك اشار السبكي وهو يعلل تقديم الخبر عليه بقوله: « وانما قدم الخبر لانه اكثر بحثا ، ولان كثيرا من الانشاء فرع من الخبر كالجملة التي يدخل عليها ليت ، ولعل ، والاستفهام »[4] . وقد

---

(١) المختصر ج١ ص ١٧٠ ، وحاشية الدسوقي ج١ ص ١٧٠ .
(٢) حاشية الدسوقي ج١ ص ١٧٠ .
(٣) عروس الافراح ج١ ص ١٧٢ .
(٤) عروس الافراح ج١ ص ١٧٢ .

اشار عبد القاهر الى ان ما يحصل للانشاء يكون للخبر ، يقول: «واعلم ان معك دستورا لك فيه ان تأملت غنى عن كل ما سواه ، وهو انه لا يجوز ان يكون لنظم الكلام وترتيب اجزائه في الاستفهام معنى لا يكون له ذلك المعنى في الخبر . وذاك ان الاستفهام استخبار ، والاستخبار هو طلب من المخاطب ان يخبرك ، فاذا كان كذلك كان محالا ان يفترق الحال بين تقديم الاسم وتأخيره في الاستفهام فيكون المعنى اذا قلت : « أزيد قام » غيره اذا قلت : « أقام زيد » ثم لا يكون هذا الافتراق في الخبر ، ويكون قولك « زيد قام » و« قام زيد» سواء »[1] . ويقول في موضع آخر : « واذ قد عرفت الحكم في الابتداء بالنكرة في الاستفهام فابْنِ الخبر عليه »[2] .

وأحس القزويني تفسه بان هذا التقسيم غير مُجْدٍ في بحث البلاغة ، لذلك تكلم على الفصل والوصل ، والايجاز والاطناب والمساواة بعد ان تكلم على الخبر والانشاء، لانهالا تخص واحدا منهما وانما هي من صفاتهما معا ، ولكنه كان لا بد ان يتكلم على الخبر والانشاء اولا ، ثم يشرع في بحث ما يحدث لهما من تقديم وتأخير ، وذكر وحذف ، وتعريف وتنكير ، وقصر ، وفصل ووصل ، وايجاز واطناب ومساواة ، وغيرها من الموضوعات التي ادخلها في علم المعاني وبذلك يسلم منهجه من الاضطراب .

واختلف القدماء في انحصار الخبر في الصادق والكاذب ، فذهب معظمهم الى انه منحصر فيهما ، ثم اختلفوا فقال الاكثر منهم صدقه مطابقة حكمه للواقع ، وكذبه عدم مطابقة حكمه له ، ولعل النظام استاذ الجاحظ كان من اوائل الذين تحدثوا عن الخبر والطلب ، وحددوا معناهما ، وضبطوهما بمقياس الصدق والكذب يقول : ان صدق الخبر مطابقة حكمه لاعتقاد المخبر صوابا كان او خطأ ، وكذبه عدم مطابقة

(١) دلائل الاعجاز ص ١٠٨ .

(٢) دلائل الاعجاز ص ١٠٩ .

حكمه له ، فقول القائل « السماء تحتنا » معتقدا ذلك ، صدق ، وقوله « السماء فوقنا » غير معتقد ، كذب »[1] •

واحتج لهـذا الرأي بوجهين :

أحدهما : ان من اعتقد أمرا فاخبر به ثم ظهر خبره بخلاف الواقع يقال : ما كذب ولكنه اخطأ ، كما روي عن عائشة رضي الله عنها انها قالت: فيمن شأنه كذلك : « ما كذب ولكنه وهم » •

والثاني : قوله تعالى « واللهُ يَشهَدُ إنَّ المنافقينَ لكاذبونَ »[2] كذبهم في قولهم « إنَّكَ لرسولُ اللهِ »[3] وان كان مطابقـا للواقع لانهم لـم يعتقـدوه •

وأجاب القزويني عن هذا الكلام بوجوه :

احدها : ان المعنى نشهد شهادة واطأت فيها قلوبنا السنتنا ، كما يترجم عنه « إنَّ » و « اللام » ، وكون الجملة اسمية في قولهم « انك لرسول الله » فالتكذيب في قولهم « نشهد » وادعائهم فيه المواطأة لا في قولهم « انك لرسول الله » •

وثانيها : ان التكذيب في تسميتهم اخبارهم شهادة ، لان الاخبـار اذا خلا عن المواطأة لم يكن شهادة في الحقيقة •

وثالثها : ان المعنى لكاذبون في قولهم « انك لرسولُ الله » عند انفسهم لاعتقادهم انه خبر على خلاف ما عليه حال المخبر عنه[4] •

وأنكر الجاحظ انحصار الخبر في القسمين وزعم انه ثلاثة اقسام : صادق ، وكاذب ، وغير صادق ولا كاذب ، لان الحكم اما مطابق للواقع مع اعتقاد المخبر له أو عدمه ، واما غير مطابق مع الاعتقاد او عـدمه •

---

(١) المطول ص ٣٩ •
(٢) سورة المنافقون ، الآيـة ١ •
(٣) سورة المنافقون ، الآيـة ١ •
(٤) الايضـاح ص ١٤ •

فالاول أي المطابق مع الاعتقاد هو الصادق ، والثالث أي غير المطـابق مع الاعتقاد هو الكاذب . والثاني والرابع أي المطابق مع عدم الاعتقاد وغير المطابق مع عدم الاعتقاد كل منهما ليس بصادق ولا كاذب . فالصدق عنده مطابقة الحكم للواقع مع اعتقاده، والكذب عدم مطابقته مع اعتقاده، وغيرهما ضربان: مطابقته مع عدم اعتقاده، وعدم مطابقته مع عدم اعتقاده . واحتج بقوله تعالى « أفْتَرَى على الله كَذِباً أم به جِنَّةٌ »[1] فانهم حصروا دعوى النبي صلى الله عليه وسلم الرسالة في الافتراء والاخبار حال الجنون ، بمعنى امتناع الخلو ، وليس اخباره حال الجنون كذبا ، لجعلهم الافتراء في مقابلته ، ولا صدقا ، لانهم لم يعتقدوا صدقه، فثبت ان من الخبر ما ليس بصادق ولا كاذب[2] .

ولم يَجُرّ القزويني الى هذا الحديث إلاّ تقسيمه الكلام الى خبر وانشاء ، وانحصار الخبر في الصدق والكذب او في غيرهما . وبالغـاء هذا التقسيم نخلص من هذه الامور الغريبة في البلاغة ونخليها من كل ما يعيقها عن اداء مهمتها ، وهي نقد الكلام ، واظهار ما فيه من روعـة وجمال ، او اسفاف وابتذال . وليس من الصحيح ان نعتمـد في بحث المعاني على ركني الجملة ، لان هذا يؤدي الى توزيع موضوعـاته في أبواب متفرقة ، فالتقديم مثلا بحثه في المسند اليه مرة وفي المسند تارة اخرى ، وكان عليه ان يَلُمّ شتات الموضوع الواحد ، فيبحث التقديم والتأخير في فصل واحد ، والحذف والـذكر في فصل آخر ، والتعريف والتنكير في ثالث وهكذا . ولا تخص هذه الموضوعات الخبر وحـده ، وان بحثها في الاسناد الخبري غير صحيح مع انه اعترف بان ما في هذه الابواب ليس كله مختصا بالخبر ، بل كثير منه حكم الانشاء فيه حكم الخبر[3] . ويقول التفتازاني : « ان الاسناد الانشائي أيضا اما مؤكد

---

(١) سورة سبأ ، الآية ٨ .

(٢) الايضاح ص ١٤ ــ ١٥ .

(٣) الايضاح ص ١٤٧ .

أو مجرد عن التأكيد ، وكذا المسند اليه اما مذكور او محذوف ، مقدّم او مؤخر ، معرف او منكر ، الى غير ذلك . وكذا المسند اسم او فعل مطلق أو مقيد بمفعول أو بشرط او غيره . والمتعلقات اما متقدمة أو متأخرة ، مذكورة او محذوفة ، واسناده وتعلقه أيضا اما بقصر ، او بغير قصر . والاعتبارات المناسبة في ذلك مثل ما مر في الخبر ، ولا يخفى عليك اعتباره بعد الاحاطة بما سبق »[1] .

ولكنّ القزويني سحر بالسكاكي مع ما في منهجه من اضطراب ، وسار عليه من غير أنْ يحاول اصلاحه الا ما كان من ملاحظات لا تبعد البلاغة عن جوهر منهج السكاكي .

علم البيان :

اما علم البيان فقد حصره بقوله : « هو علم يعرف به ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه »[2] واستفاد من الدلالات العقلية في حصر مباحثه فقال بعد ان تكلم على دلالة اللفظ وانواعها : « ثم ايراد المعنى الواحد على الوجه المذكور لا يتأتى بالدلالة الوضعية، لان السامع ان كان عالما بوضع الالفاظ لم يكن بعضها أوضح دلالة من بعض ، والا لم يكن كل واحد منها دالا ، وانما يتأتى بالدلالات العقلية لجواز ان يكون للشيء لوازم بعضها أوضح لزوما من بعض »[3] .

وقسمه على هذا الاساس الى قسمين : المجاز والكناية وأدخل التشبيه فيه ، وقدّمه ، لان الاستعارة مبنية عليه ، وقدّم المجاز على الكناية لنزول معناه من معناها منزلة الجزء من الكل . وبذلك ضَيَّقَ القزويني مباحث البيان كما ضيقها السكاكي من قبل .

وكان من الممكن ادخال صور بيانية اخرى تكلم عليها المتأخرون

---

(١) المطول ص ٢٤٦ .

(٢) الايضاح ص ٢١٢ .

(٣) الايضاح ص ٢١٢ – ٢١٣ .

في البديع كالتجريد ، والقلب ، واسلوب الحكيم ، والمبالغة ، والتورية والاستخدام ، وغيرها من صور التعبير التي ذكرها الخولي في مباحث فن القول[1] • فتحديد فنون البيان على هذه الصورة لا يفيدنا في دراستنا الحديثة ، لان الفن اوسع من هذا التحديد ، وأبعد عن هذه التمحلات العقلية •

وقسّم كل فن من هذه الفنون الى أنواع كثيرة ، يتيه فيها الدارس ، ولا يخرج بنتيجة• وأغلب هذه التقسيمات عقلية لا علاقة لها بالفن البلاغي ، حتى ان عصام الدين صاحب الشرح الاطول يرى أنّ تقسيم التشبيه للتمثيل وغيره من تقسيم الشيء الى نفسه والى غيره ، لان التمثيل يرادف التشبيه كما يشهد لذلك كلام « الكشاف » حيث يستعمله استعمال التشبيه[2] •

وحاول الدسوقي ان يدافع عن القزويني فقال : « واجيب بان التمثيل مشترك بين مطلق التشبيه وبين ما هو اخص منه ، فما هومقسم المعنى الاعم ، والقسم هو المعنى الاخص ، وحينئذ فلا اشكال »[3] •

ومما يؤاخذ عليه القزويني الى جانب هذه التقسيمات اخراجهالمجاز العقلي من علم البيان ، وبحثه في المعاني ، على اعتبار ان الاسناد منه حقيقة عقلية ومنه مجاز عقلي • وهو رأي لا نوافقه عليه ، لان انواع المجاز الاخرى لا تخرج عن المسند والمسند اليه ، وكان لزاما عليه ان يبحثها في علم المعاني •

ونرى ان نضم المجاز العقلي الى بحث المجاز اللغوي ليكونا موضوعا واحداً له أهدافه في التعبير • ولن يجدي تعليل عصام الدين في عدوله عن ترتيب السكاكي حيث يقول : « وقد عدل المصنف عن

---

(١) ينظر فن القول ص ٩٩ .

(٢) الاطول ج٢ ص ٩٩ .

(٣) حاشية الدسوقى ج٣ ص ٤٣٢ .

ترتيب المفتاح حيث قدم المجاز العقلي ، لانـه المقصود بالبيان في فـن البلاغة المشار اليه بالبنان ، لان تقديم المجاز العقلي يوجب فضلا كثيرا بين الحقيقة والمجاز لكثرة ما يتعلق به »[1] • نقول : لن يجديه هـذا التعليل ، لان انواع المجاز الاخر اهم من المجاز العقلي الذي نظمـه السكاكي في سلك الاستعارة بالكناية ، ولكننا مع هذا كله نستطيع ان نستفيد من تقسيمات القزويني لمباحث علم البيان لانطباق كثير منها على الاساليب العربية ، وان كنا لا نؤمن بكثير من توجيهات القزويني لامثلة التشبيه والاستعـارة والكناية •

علم البديع :

أما البديع فقد قـال عنه انه « علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة »[2] وقسمه الى ضربين : ضرب يرجع الى المعنى ، وضرب يرجع الى اللفظ • وتكلم على سبعة واربعين فناً من هذين الضربين •

ومبلغ تجديد القزويني فيه انه جعله علما مستقلا عن المعاني والبيان، وسار البلاغيون على خطاه ولم ينظروا اليه نظرة صادقة ، لانه يأتي بعد مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وبعد ايراده بطرق مختلفة، وبذلك يكون البديع تابعا للمعاني والبيان • ومع ان السبكي سار على خطا القزويني في هذا التقسيم غير انه نقده قائلا « والحق الذي لا ينازع فيه منصف ان البديع لا يشترط فيه التطبيق ولا وضوح الدلالة ، وان كل واحـد من تطبيق الكلام على مقتضى الحال ومن الايراد بطرق مختلفة ، ومن وجوه التحسين قد يوجد دون الاخرين • وأول برهان على ذلك انك لا تجدهم في شيء من أمثلة البديع يتعرضون لاشتمـاله على التطبيق والايراد ، بل تجد كثيرا منها خاليا عن التشبيه ، والاستعارة ، والكناية التي هي طرق علم البيان •• هذا هو الانصاف وان كان مخالفا لكلام

---

(١) الاطـول جا ص ٧١ •

(٢) الايضاح ص ٣٣٤ •

الاكثرين »(1) ، وبذلك يكون البديع فنا له أثره في التعبير ، وليس تابعا للفنون الاخرى .

وتقسيمه البديع الى محسنات لفظية ومعنوية غير دقيق ، لان اكثر هذه المحسنات متداخل وقد تنبه القدماء الى ذلك فقال المغربي وهو يشرح كلام القزويني ان المحسن المعنوي منسوب الى المعنى بالذات ، بمعنى ان ذلك التحسين قصد ان يكون تحسينا للمعنى وذلك بالقصد بكونه تحسينا للفظ فيكون ثانيا وبالعرض ، وانما قلنا هكذا لان هذه الاوجه قد يكون بعضها محسنا للفظ ، لكن القصد الاصلي منها انما هو الى كونها محسنة للمعنى كما في المشاكلة ، اذ هي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبة ذلك الغير كقوله :

قالوا اقترح شيئا نجد لكَ طبْخَه   قلت اطبخوا لي جُبَّةً وقميصا

فقد عبر عن الخياطة بالطبخ لوقوعها في صحبته ، فاللفظ حسن لما فيه من ابهام المجانسة اللفظية ، لان المعنى مختلف واللفظ متفق ، لكن الغرض الاصلي جعل الخياطة كطبخ المطبوخ في اقتراحها لوقوعها في صحبته . فان تعلق الغرض بتحسينه اللفظي المشار اليه فهو بالعرض على وجه المرجوحية . وقيل ان الحسن فيه لفظي ، لان منشأه اللفظ ، وكما في العكس في قولهم « عادات السادات سادات العادات » . فان في اللفظ شبه الجناس اللفظي لاختلاف المعنى ففيه التحسين اللفظي . والغرض الاصلي الاخبار بعكس الاضافة مع وجود الصحة . واللفظي تحسين للفظ بالذات وان يتبع ذلك تحسين المعنى ، لانه كلما عبر عن معنى بلفظ حسن استحسن معناه تبعا ، وان شئت قلت في التحسين المعنوي ايضا ان كونه بالذات معناه ان ذلك هو المقصود ويتبعه تحسين اللفظ دائما ؟ لانه كلما أفيد باللفظ معنى حسن تبعه حسن اللفظ الدال عليه (2) .

---

(1) عروس الافراح ج4 ص 284 .

(2) ينظر مواهب الفتاح ج4 ص 285 .

فالمعنوي راجع الى تحسين المعنى اولا وبالذات ، ولكنه يفيد تحسين اللفظ كما في مثال المشاكلة المتقدم ، واللفظي راجع الى تحسين اللفظ اولا وبالذات ، ولكنه يفيد تحسين المعنى ايضا . وما دام الامر كذلك فاية فائدة في هذا التقسيم الثنائي للبديع او التقسيم الثلاثي الذي ذكره بدر الدين بن مالك في المصباح . ان اي نوع من فنون البديع لا تكون له قيمة الا اذا كان المعنى يتطلبه ويستدعيه ، يقول عبد القاهر : « انك لا تجد تجنيسا مقبولا ، ولا سجعا حسنا ، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه ، وساق نحوه ، وحتى تجده تجنيسا مقبولا لا تبتغي به بدلا ولا تجد عنه حولا . ومن هنا كان أحلى تجنيس تسمعه ، وأعلاه ، وأحقه بالحسن ، وأولاه ، ما وقع من غير قصد المتكلم الى اجتلابه وتأهبه لطلبه او ما هو لحسن ملاءمته وان كان مطلوبا بهذه المنزلة وفي هذه الصورة »[1] .

ويقول القزويني : « وأصل الحسن في جميع ذلك ــ اعني القسم اللفظي ــ كما قال الشيخ عبد القاهر هو ان تكون الالفاظ تابعة للمعاني ، فان المعاني اذا ارسلت على سجيتها ، وتركت وما تريد ،طلبت لانفسها الالفاظ ، ولم تكتس الا ما يليق بها . فان كان خلاف ذلك كان كما قال ابو الطيب :

إذا لم تُشاهِدْ غير حُسْنِ شياتِها
وأعضائِها فالحُسْنُ عنك مُغَيَّبُ

وقد يقع في كلام بعض المتأخرين ما حمل صاحبه فرط شغفه بامور ترجع الى ما له اسم في البديع على ان ينسى انه يتكلم ليفهم ، ويقول ليبين ، ويخيل اليه انه اذا جمع عدة من أقسام البديع في بيت فلا ضير ان يقع ما عناه في عمياء وان يوقع السامع من طلبه في خبط عشواء»[2] .

---

(١) اسرار البلاغة ص ١٥ .
(٢) الايضاح ص ٤٠٠ .

وهذه التفاتة طيبة منه ، ولكنه لم يطبق ما دعا اليه ، وظل يدور في فلك السكاكي ، وما رسمه للبلاغة . واننا لنرفض هذا التقسيم وندعو الى ان تبحث موضوعات البديع كما تبحث فنون البلاغة الاخرى على ان تهمل الانواع التي ليس لها تأثير في التعبير ، ولا تبعث في الكلام رونقا وطلاوة ، وتضفي عليه جمالا وبهاء ، ويرتّب ما يبقى منها ، ويهذّب ، بحيث تكون مناسبة للاساليب العربية وكلام البلغاء .

ولا نأتي بجديد اذا ما قررنا هذا ، فابن المعتز ــ مثلا بحث فنون البديع الى جانب الاستعارة ، والتشبيه . وابو هلال ، وابن رشيق ، وابن سنان ، وابن الاثير بحثوا البديع كما بحثوا الاستعارة والكناية ، والتقديم والتأخير ، ولم يفرقوا بين محسن معنوي وآخر لفظي ، فما كان له روعة أثبتوه وبحثوه ، وما كان مجردا عن ذلك كله تركوه .

ولذلك نرى ان يعاد النظر في فنون البديع التي ذكرها القزويني وغيره من المتأخرين فيؤخذ منها ما له قيمة في التعبير ، ويترك ما كان لعبا بالالفاظ ، أو تعمية وألغازاً . يقول الدكتور أحمد أحمد بدوي : « ينبغي ان يؤسس البديع اولا وقبل كل شيء على الدراسة النفسية التي تهدي الى بيان السر في تأثير لون بديعي دون الدراسة الصورية ، وتلمس الاقسام العقلية التي لا تزيد ثروة الاحساس والشعور وان نؤمن بأن المعنى هو الذي يقود العبارة الى صورتها ، وان كل محسن بديعي لا يكون له نصيب من الجمال الا اذا كان المعنى هو الذي يتطلبه ويؤدي اليه . أما التلاعب بالالفاظ ، وبذل الجهد للاغراب في الصناعة فمما لا يسعى اليه أديب فنان . ولهذا نضرب صفحاً عن كل مثال صنع مجتلبا ليصور لونا من الوان البديع دون ان ينبض بالحياة ، ويزخر بالعاطفة ، ومن غير ان تكون هذه الصناعة قد جاءت ، لان المعنى وحده هو الذي تطلّبها من ناحية انها تصور الاحساس النفسي »[1] .

---

(١) مقدمة كتاب ابن ابى الاصبع المصري بين علماء البلاغة ص : ز .

ولما كانت صور البديع مهمة في التعبير والاداء ، فليس من الصحيح تركه واهماله ، وان ما كتبه القزويني يمكن أن يعد نموذجا لدراسته مع التوسع في العرض ، والامثلة ، والتحليل ، اما الانواع الكثيرة التي ذكرها المتأخرون فنأخذ منها ما اتفق وذوق العربية ، ونترك ما كان عبثا ولغوا على شرط ان لا نقسمها كما قسمها السكاكي والقزويني ، او كما قسمها بدر الدين بن مالك ، وتبحث اما في موضوع اللفظ والمعنى فنثبت في صفات الالفاظ ما كان قريبا اليها او شديد الصلة بها ، ونضع في صفات المعاني ما يخص المعنى بالدرجة الاولى .

وان تقسيم القزويني ليسهل لنا هذه المهمة ، فما كان في المحسنات اللفظية ادخل في بحث الالفاظ وما كان من صفات المعاني ادخل في بحث المعاني .ولنا فيما كتبه قدامة بن جعفر اسوة حسنة في هذا الميدان ،وبذلك نخلص البديع من تمحلات القدماء ،ونقاشهم في الحسن العرضي والذاتي . او ان نوزعه كما وزعه الاستاذ الخولي فذكر الجناس ،والسجع ،والترصيع ، والتصريع ، ورد العجز على الصدر ، ولزوم ما لا يلزم في بحث تناسب الصوت والمعنى ، ووضع الطباق في بحث النظم أو تأليف الجمل وذلك حين تتقابل معاني اجزاء الجملة أو الجمل ، فيكون لذلك أثر في حسن الكلام . ووضع القسم الآخر في صور التعبير وهي عنده قسمان: صور الايضاح المعلن كالتشبيه ، والاستعارة ، والكناية ، والتجريد ،والقلب ، واسلوب الحكيم ، والمبالغة ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، والتدبيج ، والتهييج ، والالهاب ، والتهكم بجملة ، والفكاهة في جملة ،والتجاهل . وصور التعبير المظللة كالرمز ، والايماء ، والالغاز ، والتورية ، والاستخدام ، والاتساع [1] .

الخاتمة :

وختم القزويني كتابه بفصلين في السرقات وما يتصل بها ، والقول في الابتداء ، والتخلص ، والانتهاء . وقد حيّر شراح التلخيص بهذه

(١) فن القول ص ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ .

الخاتمة ، فذهب بعضهم الى انها خاتمة الكتاب كله فهي بذلك خارجة عن الفنون الثلاثة كالمقدمة ، وذهب آخرون الى انها خاتمة للفن الثالث معتمدين على قول القزويني في الايضاح: «هذا ما تيسر باذن الله تعالى جمعه وتحريره من اصول الفن الثالث ، وبقيت اشياء يذكرها فيه بعض المصنفين ، منها ، ما يتعين اهماله لعدم دخوله في فن البلاغة نحو ما يرجع في التحسين الى الخط دون اللفظ مع انه لا يخلو من التكلف ككون الكلمتين متماثلتين في الخط ، وكون الحروف منقوطة أو غير منقوطة ، ونحو ما لا أثر له في التحسين كما يسمى الترديد . أو لعدم جدواه نحو ما يوجد في كتب بعض المتأخرين مما هو داخل فيما ذكرناه كما سماه الايضاح فانه في الحقيقة راجع الى الاطناب ، او خلط فيه، كما سماه حسن البيان . ومنها ما لا بأس بذكره لاشتماله على فائدة وهو شيئان :

احدهما : القول في السرقات الشعرية ، وما يتصل بها .

والثاني : القول في الابتداء والتلخص والانتهاء .

فعقدنا فيهما فصلين ختمنا بهما الكتاب »[1] .

وعلل المغربي جعلها خاتمة لا بابا في البديع بقوله : « وانما جمع هذه الاشياء في الخاتمة ولم يجعلها بابا من البديع او يجعل كل واحد منها بابا على حدة لوجهين :

احدهما : ان كلا منها ليس امراً يعم كل كلام ويغلب مكان جريانه في كل موطن ، أما في السرقات فظاهر لخروج النثر ، وكذا فيما يتصل بها لاختصاصها بالاخذ عن الغير . واما في الابتداء والانتهاء والتخلص فلخروج ما ليس في تلك المحال وهذا الوجه بعينه يمكن ان يجعل هو السر في جمعها لاشتراكها فيه .

والوجه الثاني : ان الحسن فيها دون الحسن في غيرها مع سهولة

---

(١) الايضاح ص ٤٠١ .

التناول ، فلم تجعل بابا لقلة الاهتمام بشأنها ويسرها باعتبار غيرها وان كان الناس يهتمون بامورها • اما في السرقات فلما علم من ان الابتداع أرفع واصعب من الاتباع وان كان فيه تغيير ما ، وكذا فيما يتصل بها، واما في الابتداء وما والاه فلما علم من أن رعاية تمام الحسن في جميع اجزاء الكلام أعلى واصعب ، ويمكن جعل هـذا ايضا هو السر في جمعها »[1] •

ومهما يكن من شيء فاننا لا نوافق القزويني على جعل السرقات خاتمة لعلم البديع او للبلاغة كلها لانها فن واسع له أثره وقيمته في الدراسات النقدية • وقد اولاها علماء البلاغة والنقد اهتماما عظيما قبل القزويني، وافردوا لها كتبا خاصة ، وعقدوا فصولا طويلة في كتبهم • وانه لمن المفيد ان يفرد لهذا الموضوع باب واسع في الدراسات البلاغية والنقدية، وان يستعان بما ذكر القزويني ونقاد العرب ، ومثل هذا يقال في حسن الابتداء ، والتخلص ، والانتهاء ، فهي فنون قائمة بذاتها • وقد أجاد الاقدمون كابن الاثير في بحثها ، ونظروا اليها نظرتهم الى سائر الفنون البلاغية •

رأي :

واذا ما اتضح هذا جليا فاننا لن نستفيد كثيراً من منهج القزويني في البلاغة ، لاننا لا نؤمن بهذا التقسيم الثلاثي او الثنائي لاضطرابه ، وتداخل الموضوعات • ويتضح هذا الاضطراب والتداخل في عدم استقرار بعض الموضوعات ، فهي من المعاني عند بعضهم ومن البيان او البديع عند آخرين • فالمجاز العقلي بحثه السكاكي في علم البيان ــ وان انكره ــ وتكلم عليه القزويني في علم المعاني ، وذكر ان الاسناد منه حقيقة عقلية ، ومنه مجاز عقلي • ورَدّ على السكاكي ، لانه نظم المجاز العقلي في سلك الاستعارة بالكناية • واوضح سبب ذكره في المعاني

---

(١) مواهب الفتاح ج٤ ص ٤٧٥ •

بقوله : « اننا لم نورد الكلام في الحقيقة والمجاز العقليين في علم البيان كما فعل السكاكي ومن تبعه ، لـدخوله في تعريف علم المعاني دون تعريف علم البيان »[1] .

ومنهج القزويني أسلم من منهج السكاكي ، لانه حاول ان يجمع الاشباه وينسق الموضوعات فتحدث عن الايغال ، والتتميم، والتكميل، والاعتراض ، والالتفات في علم المعاني ، ولم يعدها في علم البديع كما فعل السكاكي حيث ذكر الالتفات في المعاني مرة ، وفي البديع تارة اخرى . ومع ذلك فقد جَزأ موضوعات التقديم والتأخير ، والحذف والذكر ، والتعريف والتنكير ، وبحثها في أكثر من باب . وكان من الدقة المنهجية ان يلم شتاتها ، ويجمعها في فصول متناسقة ، فيعقد لكل منها فصلا ، وانه لعظيم من القدماء ان ينتبهوا الى انه لا حد بين المعاني والبيان وقد جعل السكاكي الثاني شعبة من الاول ، يقول : « ولما كان علم البيان شعبة من علم المعاني لا تنفصل الا بزيادة اعتبار، جرى منه مجرى المركب من المفرد لاجرم آثرنا تأخيره »[2] .

فالسكاكي يقرر ان البيان شعبة من المعاني ، ولا ينفصل عنه الا بزيادة اعتبار ، ولكنه لم يوضح هذه الزيادة . وعلى كل حال فهذا اعتراف منه بان لا حاجة الى فصل المعاني عن البيان ، لانهما مرتبطان أشد الارتباط ، متداخلان أعظم التداخل . وقد اشار السبكي الى هذا التداخل فقال : « ان علم البيان باب من ابواب المعاني ، وفَصْلٌ من فصوله ، وانما افرد كما يفرد علم الفرائض عن الفقه »[3] . وقال متحدثا عن اتيان الكلام على خلاف مقتضى الظاهر : « لعلك تقول غالب ما سبق أو كله من انواع المجاز ، ومحله علم البيان كما سيأتي . فالجواب ان الامر كذلك ، ولكن جرت عادة أكثرهم بذكر هذه الانواع

---

(١) الايضاح ص ٣١ .
(٢) مفتاح العلوم ص ٧٧ .
(٣) عروس الافراح ج١ ص ٢٦١ .

في هذا العلم فتبعناهم ، وتداخل علم البيان وعلم المعاني كثير »[1] .

ولن يفيدهم قولهم « ان البيان جرى من المعـاني مجري المركب من المفرد » ، لانهم أقروا بانهما متداخلان ، وان علم البيان شعبة مـن علم المعاني . وقد صرح القزويني بهذا ، واعترف بأنّ كثيراً من الناس يسمي المعاني والبيان والبديع « علم البيان » ، وبعضهم يسمي الاول « علم المعـاني » والثاني والثالث « علم البيـان » والثلاثـة : « علم البديع »[2] . وهذه عودة الى منهج الاوائل الذين نظروا الى البلاغة نظرة واسعة ، واعتبروها فنا واحدا ، ولكـن القزويني أبى إلاّ أنْ يتابع السكاكي في التقسيم ، ويغرق معه في التمحل والتأويل .

هذا ما نراه في منهج القزويني ،اما مادة بلاغته فمنها ما ينبغي تركه، ومنها ما يمكن الاستفادة منه في بناء صرح البلاغة العربية الجديدة ،فما الذي ينبغي ان نطرحه وما الذي يجب ان نأخذه ونستفيد منه ؟

---

(١) عروس الافراح ج١ ص ٤٩٣ .

(٢) الايضاح ص ١٢ ، والتلخيص ص ٣٧ .

٣

الموضوعات

مسائل فلسفية :

لقد أثرت الفلسفة وعلم الكلام في كل جانب من جوانب الحياة الثقافية ولم يسلم منها علم من علوم العربية ، واستفاد المؤلفون منها في مناهج بحثهم ، وأخذوا مصطلحاتها وعباراتها ، وأدخلوها في كتبهم • وهذا امر طبيعي بعد ان استقر العرب وبنوا دولتهم العظمى واتصلوا بغيرهم من الاقوام والامم •

وكان نصيب البلاغة عظيما منها ، وبدأ الاتصال بين البلاغة والفلسفة منذ عهد مبكر • وازداد هذا الاتصال بمرور الايام حتى أصبح ارتباطا وثيقا لا انفصام له على يد رجال البلاغة المتأخرين كالسكاكي ، والقزويني ، وشراح التلخيص• وكان نتيجة هذا الاتصال والارتباط ان زخرت كتب البلاغة بمباحث الفلسفة ، والمنطق ، وعلم الكلام حتى ان الباحث ليستطيع ان يستخلص مادة فلسفية غزيرة من كتب البلاغة المتأخرة • ومع ان البلاغيين استفادوا من هذه العلوم في تجديد منهجهم ، ورسم مصطلحاتهم غير ان البلاغة لتأبى كل الاباء ان تكون خاضعة لعلوم غريبة عنها ، دخيلة عليها ، لانها فن من الفنون ، والفن حر يقبل التطور والتجديد ، وينطلق الى أبعد الغايات • وقد كان هذا شأن البلاغة والنقد قبل ان يسيطر منهج السكاكي وقد

زخرت الكتب بكل طريف عماده الذوق ، والتربية الفنية ، وذهب المؤلفون في بحوثهم مذاهب شتى ، وطوّفوا في آفاق نقدية بعيدة المدى ، ولكن المتأخرين أسرفوا في اقتباس العقليات ، واغربوا في استخدام مصطلحات المناطقة وأساليبهم ، فصارت البلاغة على يدي السكاكي والقزويني ومن لفّ لفهما ألغازاً ، ومعميات يتسابق الدارسون الى حل مشكلة من مشاكلها ، ويعدون تفهمها عملا عظيما يجيزون به العلماء ، ويقدرون الخريجين حين يستطيعون أخذ معنى من عبارة ، ويبينون مرجع ضمير ، ومشار اليه في اشارة ، او مضافا محذوفا •

وما كان لهذه الكتب ان تبلغ هذا المبلغ لولا استخدام الاساليب الغريبة عن البلاغة واقحام مباحث بعيدة كل البعد عنها كتلك التي حشروها في بحث الخبر والانشاء ، والوصل والفصل ،وتقسيم مباحث علم البيان • ولم يكن من السهل اليسير ان ينجو القزويني من هذه السيطرة وقد عاش في فترة جنحت فيها الحياة الفكرية الى الجمود ، وأصبح المؤلف لا يعيش الا على مناقشة الاخرين •

وقد كان مفتاح العلوم ومنهجه مسيطرا على التفكير البلاغي وقتئذ، فاتجه القزويني يتلمس البلاغة على ضوئه ، ويسلك في بحثها مسلكا لا يكاد يختلف عن مسلك السكاكي الا قليلا • ومع ان القزويني عاش في بيئة عربية هي بيئة مصر والشام التي يقول السبكي فيها وهو يتحدث عن شروح التلخيص : « أما أهل بلادنا فهم مستغنون عن ذلك بما طبعهم الله تعالى عليه من الذوق السليم ، والفهم المستقيم ،والاذهان التي هي أرق من النسيم ، وألطف من ماء الحياة في المحيا الوسيم • اكسبهم النيل تلك الحلاوة واشار اليهم باصبعه فظهرت عليهم هذه الطلاوة • فهم يدركون بطباعهم ما أفنت فيه العلماء فضلاعن الاغمار الاعمار • ويرون في مرآة قلوبهم الصقيلة ما احتجب من الاسرار خلف

الاستـــار »[1] .

نقول مع انه عاش في هذه البيئة ، غير انها لم تؤثر فيه ، ولم تكسبه هذه الطلاوة ، فعكف على ما كتبه السكاكي يهذّبه ، ويبوبه لعله يقدم للدارسين ما فيه النفع وانارة السبيل .

ويجد الباحث في كتابي القزويني الفلسفة وأساليب المناطقـــة ومصطلحاتهم ماثلة امامه مما يعيق سبيل الانتفاع من بلاغته في صقـل الاذواق وتربيتها . وقد أعترف القزويني نفسه ان بعض مسائل البلاغة اشبه باصول الفلاسفة[2] .

تخليـة :

واذا ما اردنا ان نستفيد مما كتب القزويني وشراح تلخيصه فليس لنا الا ان نخليها مما لا فائدة فيه . ومن ذلك حديثه عن الملكة وهي «قسم من مقولة الكيف التي هي هيئة قارة لا تقتضي قسمة ولا نسبة ، وهو مختص بذوات الانفس ، راسخ في موضوعه »[3] ولا تفسر الملكة هذا التفسير الغامض ، وأنّى لطالب الفن الادبي ان يفهم هـذا التعريف أو هذا الكلام ؟ وقد حاول شراح تلخيصه ان يفسروا هذا القول فاسرفوا في الاغراب ، وجاؤا بكل ما يأباه الذوق الادبي ، وتنفر عنه الاذواق ، والطباع السليمة ، والنفوس الصافية ، وشرعوا في تفسير الكيف فقال عصام الدين : « وأحسن ما رســم به الكيف عرض لا يتوقف تصوره على تصور غيره ، ولا يقتضي القسمة واللا قسمة في محله اقتضـــاء اوليا »[4] .

واسرف الدسوقي في شرح هذا الكلام اسرافا عظيما يقول : ان المتكلمين حصروا الموجودات الحادثة في الجوهر والعرض . وقسّم الحكمـاء

---

(١) عروس الافراح ج١ ص ٥ .

(٢) الايضاح ص ١٠٠ .

(٣) الايضاح ص ٩ .

(٤) الاطول ج١ ص ٢٨ ، وينظر المطلوب ص ٢٤ .

العرض الى أقسام تسعة وهي الكم ، والكيف ، والاضافة ، والمتى ، والاين ، والوضع ، والملك ، والفعل ، والانفعال • وسموا هذه التسعة مع الجوهر المقولات العشر أي المحمولات العشرة وقسموها الى نسبية، وغير نسبية • فغير النسبية الجوهر ، والكم ، والكيف • وما عدا هذه الثلاثة فهو نسبة يتوقف تعقلها أي تصورها على تعقل الغير وتصوره[1] • ويمضي في شرح هذه المصطلحات ناسيا انه يبحث في البلاغة او فن القول •

وأدخل من الفلسفة الادبية الكلام على الصدق والكذب يقول : « اختلف الناس في انحصار الخبر في الصادق والكاذب ، فذهب الجمهور الى انه منحصر فيهما ثم اختلفوا • فقال الاكثر منهم : صدقه مطابقة حكمه للواقع ، وكذبه عدم مطابقة حكمه له • هذا هو المشهور وعليه التعويل »[2] • وعرض رأي النظام والجاحظ وناقشهما ، وكان هذا ميدانا رحبا لشراحه فصالوا ، وجالوا فيه ، وأفاضوا في شرح قوله : « ووجه الحصر ان الكلام اما خبر او انشاء لانه إما ان يكون لنسبته خارج تطابقه او لا تطابقه ، او لا يكون لها خارج • الاول الخبر ، والثاني الانشاء » وحشروا مذهب الحكماء والفلاسفة فيه •

وخاض الدسوقي في بحث النسب وقسمها الى ثلاثة : كلامية ، وذهنية ، وخارجية • فالاولى تعلق احد الطرفين بالآخر المفهوم من الكلام ، وتصورها وحضورها في ذهن المتكلم هو النسبة الذهنية، وتعلق أحد الطرفين بالاخر من الخارج خارجية • ومضى يضرب الامثلة على ذلك ، ويشرحها شرحا بعيداً عن البلاغة ونقد الكلام[3] •

وتدخل الفلسفة الالهية في بحث المجاز العقلي ، ويمضي القزويني وشراح تلخيصه في الكلام على الفاعل الحقيقي بالنسبة للمؤمن والدهري ، فيجعل للمؤمن كلاما ، وللكافر كلاما ، وللمعتزلي كلاما ،

---

(١) حاشية الدسوقي ج١ ص ١١٨ •

(٢) الايضاح ص ١٣ •

(٣) حاشية الدسوقي ج١ ص ١٦٤ •

وللجاهل كلاما • ويتضح هذا الاتجاه في قوله حينما يقسم الحقيقةالى أربعة اضرب هي : ما يطابق الواقع واعتقاده كقول المؤمن « انبت الله البقل » و « شفى الله المريض » • وما يطابق الواقع دون اعتقاده كقول المعتزلي لمن لا يعرف حاله وهو يخفيها منه « خالق الافعال كلها هو الله تعالى » • وما يطابق اعتقاده دون الواقع كقول الجاهل «شفى الطبيبُ المريض » معتقداً شفاء المريض من الطبيب • وما لا يطابق شيئا منهما كالاقوال الكاذبة التي يكون القائل عالما بحالها دون المخاطب[1] •

يقول الدكتور بدوي طبانة معلقا على هذا الكلام : « وكأنه نفذ الى العقول ، ووصل الى مكامن القلوب والشعور• وكلهذه العبارات كما ترى يقولها المؤمن كما يقولها غير المؤمن مدفوعاً في قولها بهذه العلائق الظاهرة ، وتلك الملابسات التي لا تنفصم بين الاثر والمؤثر»[2] •

ويشتد النقاش حينما يعرضون لمثل قولهم « انبت الربيع البقل»، فان انبات البقل في الواقع لله تعالى وفي اعتقاد الجاهل للربيع • ويعرضون لآراء المعتزلة مما يطول نقله[3] • ولم يدفعهم الى هذا الا النظرة الدينية ، والا ايمانهم ان لكل معلول علة ، وان لكل مسبب سببا • ولذلك يصرح القزويني قائلا « ان الفعل المبني للفاعل في المجاز العقلي واجب ان يكون له فاعل في التقدير اذا اسند اليه صار الاسناد حقيقة »[4] • وقد يكون ظاهرا كما في قوله تعالى « فما ربحت تجارتهم »[5] أي : فما ربحوا في تجارتهم • وقد يكون خفيا لا يظهر الا بعد نظر وتأمل كما في « سرتني رؤيتك » أي سرني الله وقت رؤيتك، وقول الشاعر :

---

(١) الايضاح ص ٢١ — ٢٢ •

(٢) البيان العربي ص ٢٨٩ •

(٣) ينظر المطول ص ٥٤ وما بعدها ، والاطول ج١ ص ٦٩ ، وشروح التلخيص ج١ ص ٢٢٤ وما بعدها •

(٤) ينظر دلائل الاعجاز ص ٢٢٩ — ٢٣٠ •

(٥) سورة البقرة ، الآية ١٦ •

وَصَيَّرني هواكَ وبي　　　لحَيني يُضربُ المثَلُ

أي : وصيّرني الله لهواكَ وحالي هذه ، اي : اهلكني الله ابتلاء بسبب هواكَ .

وكمـا في قول الآخر :

يزيدكَ وجهه حُسْنـاً　　　اذا ما زِدته نَظَرا

أي : يزيدكَ الله حسنا في وجهه ، وهو في ذلك يتـابع فخرالدين الرازي ، والسكاكي . وكان عبد القاهر قد وَجَّه المجاز العقلي هـذه الوجهة الدينية وان لم يوجب ان يكون للفعل فاعل في التقدير اذا نقل الفعل اليه عاد الى الحقيقة [1] .

وتكلم القزويني في بحث الفصل والوصل على الجامع وأنواعـه ، وهو عقلي ، ووهمي ، وخيالي . وشرع في شرحها فقال : « واما العقلي فهو أنْ يكون بينهما اتحاد في التصور ، أو تماثلٌ ، فان العقل بتجريده المثلين عن التشخُّص في الخارج يرفع التعدد .

أو تضايف كما بين العلة والمعلول ، والسبب والمسبب ، والسفل والعلو ، والاقل والاكثر ، فان العقل يأبى ان لا يجتمعا في الذهن .

وأما الوهمي فهو ان يكون بين تصوُّريهما شبه تماثل كلون بياض ولون صفرة ، فان الوهم يبرزهما في معرض المثلين ولذلك حسن الجمع بين الثلاثة التي في قولـه :

ثلاثةٌ تُشْرِقُ الدنيـا ببهجتها
شَمْسُ الضحى ، وأبو اسحاق ، والقَمَرُ

أو تضاد كالسواد والبياض ، والهمس والجهارة ، والطيب والنتن ،

---

(١) ينظر دلائل الاعجاز ص ٢٢٩ ــ ٢٣٠ .

والحلاوة والحموضة ، والملاسة والخشونـة ، وكالتحرك والسكون ، والقيام والقعود ، والذهاب والمجيء ، والاقرار والانكار ، والايمـان والكفر • وكالمتصفات بذلك كالاسود والابيض ، والمؤمن والكافر •

أو شبه تضاد كالسماء والارض والسهل والجبل ، والاول والثاني، فان الوهم ينزل المتضادين والشبيهين بهما منزلة المتضايفين • فيجمـع بينهما في الذهن ، ولذلك تجد الضد أقرب خطورا بالبال مع الضد •

والخيالي ان يكون بين تصوريهما تقارن في الخيال سابق، وأسبابه مختلفة ، ولذلك اختلفت الصور الثابتة في الخيالات ترتبا ووضوحا • فكم صور تتعانق في خيال ، وهي في آخر لا تتراءى ، وكم صورة لا تكاد تلوح في خيال وهي في غيره نار على علم »[1] •

الا ان لصاحب علم المعاني فضل احتياج الى التنبيه لانواع الجامع لا سيما الخيالي • وينتهي القزويني ويمضي الشراح في هذا الاحتجاج مستخـدمين وسائلهم واساليبهم المعهودة ، فيقولون ان التماثل في اصطلاح الكلامي الاتحاد في النوع ، والتجانس الاتحاد في الجنس ، والتشابه الاتحاد في العرض[2] • وهذا كلام بعيد كل البعد عن مفهوم البلاغة ، وخارج عن كل فن ادبي •

ويذهب ابن يعقوب المغربي الى مدى أبعد فيقدم لهذا البحـث الفلسفي بمقدمة فلسفية في القوى الباطنية المدركة ، وهي عند الحكاء اربع : القوة العاقلة ، والقوة الوهمية ، وقوة الحس المشترك ، والقوة المفكرة ، ويمضي في شرح القوى الاربع قائلا : « فاما القوة العـاقلـة فزعموا انها قائمة بالنفس او بالقلب تدرك الكليات والجزئيات المجردة عن عوارض المادة المعروضة والابعاد كالطول والعرض والعمق ، لانها

---

(١) الايضـاح ص ١٦٢ ــ ١٦٣ •

(٢) المطول ص ٢٦٨ ، وشروح التلخيص ج٣ ص ٩٢ وما بعدها والاطول ج٢ ص ٢٠

مجردة ولا يقوم بها الا المجرد • وزعموا ان لها خزانة هي العقل الفياض المـدبر لفلك القمر •

واما الوهمية فهي القوة المدركة للمعاني الجزئيـة الموجودة في المحسوسات بشـرط ان تكون تلك المدركات الجزئيات لا تتأدى الى مدركها من طرق الحواس ، وذلك كادراك الصداقة والعداوة وكادراك الشاة معنى هو الايذاء في الذئب مثلا ، ولذلك يقال ان البهائم لهـا وَهْم" تدرك به كما ان لها حساً ، وتحكم تلك القوة احكام كـاذبة • ثم تلك القوة أعني الوهمية قائمة باول التجويف الاخر من الـدماغ ، وذلك ان للدماغ تجاويف أي بطونا ، واحدها في مقدم الدماغ وآخر في مؤخره ، وآخر في وسطه • فزعموا ان الوهم باول التجويف الاخر، وله خزانة تسمى الذاكرة ، والحافظة قائمة بمؤخرة تجويف الوهم •

واما الحس المشترك وهو الذي تتـأدى اليـه الصور المحسوسة الجزئية من الحواس الظاهرة فهو قوة قائمة باول التجويف الاول من الدماغ وتحكم بين تلك الصورة المتأدية اليها كالحكم بان هذا الاصفر هو نفس هـذا الحلو مثلا ، ويعنون بالصورة ما يمكن ادراكه ببعض الحواس الظاهرة ولو كان مسموعا ، ويعنون بالمعاني الجزئية المدركـة للوهم ما لا يمكن ادراكه بها ، وخزانته الخيال ، وهو قوة قائمة بأخر ذلك التجويف ، اعني تجويف الحس المشترك فتبقى فيه تلك الصـور بعد غيبتها الحس المشترك •

واما المفكرة فهي قوة تتصرف في الصور الخيالية وفي المعـاني الجزئية الوهمية ، وهي دائما لا تسكن يقظة ولا مناما •

واذا حكمت بين تلك الصور وتلك المعاني فان كان حكمها بواسطة العقل كان صوابا ، وان كان بواسطة الوهم والخيال كان غالبا كاذبـا كالحكم بان رأس الحمار ثابت على جثة الانسان والعكس ، ولا ينتظم تصرفها بل تتصرف بها النفس كيف اتفق • وهي انما تسمى مفكرة في

الحقيقة ان تصرفت بواسطة العقل وحده او مع الوهم ، وان تصرفت بواسطة الوهم وحده او بالخيال وحده أو بهما خصت باسم المتخيلة او المتوهمة . ولم يذكروا لها خزانة بل خزائنها خزائن القوى الأخر .

وقد تقرر بهذا ان هناك في الباطن سبعة أمور : القوة العاقلة وخزانتها ، والوهمية وخزانتها ، والحس المشترك وخزانته ، والمفكرة ، وبها أعني هذه السبعة ينتظم أمر الادراك .

وقد صرح بعض الحذاق من المحققين بان النفس هي المدركة بواسطة هذه القوى ، وان نسبة الادراك اليها كنسبة القطع الى السكين في يد صاحبه ، وهذا كله عند الحكماء » [1] .

لقد نقلنا هذا كله لنظهر خروجهم عن البلاغة ، والا فما علاقة هذا الكلام بها ؟ وكيف يستفيد منه الاديب او المتذوق في نقد الادب واظهار جماله .

وأدخلوا في علم البيان الدلالات وتكلموا عليها كلاما طويلا ، وقسموها الى ثلاثة أنواع : دلالة المطابقة وهي دلالة اللفظ على تمام ما وضع له ، وقد سميت بذلك لتطابق اللفظ والمعنى أي توافقهما او لتطابق الفهم والوضع بمعنى ان ما فهم هو ما وضع له اللفظ . ودلالة التضمن ، وهي دلالة اللفظ على جزء ما وضع له أو جزء مسماه مع دخوله فيه ، وقد سميت بذلك لان الجزء المفهوم من اللفظ هو في ضمن المعنى الكلي فيفهم عند فهمه .

ودلالة الالتزام وهي دلالة اللفظ على معنى خارجي عن مسماه لازم له ، وقد سميت بذلك ، لان المدلول فيها لازم للمعنى الموضوع له . وتسمى دلالة المطابقة عند علماء البيان دلالة وضعية ، لان السبب في حصولها عند سماع اللفظ أو تذكره هو معرفة الوضع دون حاجة الى

---

(١) مواهب الفتاح ج٣ ص ٨١ .

شيء آخر . أما دلالتا التضمن والالتزام فتسميان دلالتين عقليتين ، لان حصولهما بانتقال العقل من الكل الى الجزء في الاولى ، ومن الملزوم الى اللازم في الثانية بمعنى ان الواضع وضع اللفظ ليفيد جميع المعنى ، غير ان العقل اقتضى اذ الشيء لا يوجد بلا جزئه ولازمه[1] .

وقد بنى البلاغيون المتأخرون تقسيم البيان على هذه الدلالات ، فاخرجوا التشبيه ، لان دلالته وضعية ، والدلالة الوضعية لا يمكن بها ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة . يقول القزويني « ثم ايراد المعنى الواحد على الوجه المذكور لا يتأتى بالدلالة الوضعية ، لان السامع إنْ كان عالما بوضع الالفاظ لم يكن بعضها أوضح دلالة من بعض ، وإلاّ لم يكن كل واحد منها دالا . وانما يتأتى بالدلالات العقلية لجواز ان يكون للشيء لوازم بعضها أصح لزوما من بعض » [2] . فانحصر علم البيان في المجاز والكناية ، ولما كانت الاستعارة تبنى على التشبيه جعله قسما ثالثا للبيان ، يقول : « ثم المجاز منه الاستعارة ، وهي ما تبنى على التشبيه ، فيتعين التعرض له ، فانحصر المقصود في التشبيه ، والمجاز والكناية . وقدم التشبيه على المجاز لما ذكرنا من ابتناء الاستعارة التي هي مجاز على التشبيه . وقدم المجاز على الكناية لنزول معناه من معناها منزلة الجزء من الكل » [3] . وأسرف شراح التلخيص في بحث الدلالات ، مع أن القزويني اشار اليها اشارة عابرة ، وكانت هذه البحوث ويلا وثبورا على البلاغة العربية ، لانها اخرجتها عن هدفها الفني .

وكان بحث التشبيه مجالا لتسابق القزويني والشراح في ادخال البحوث الفلسفية . وقد تكلموا في الالوان ، والطعوم ، والروائح ،

---

(١) ينظر مفتاح العلوم ص ١٥٦ ، والطراز ج١ ص ٣٤ – ٣٩ ، والايضاح ص ٢١٢ والمطول ص ٣٠٠ وشروح التلخيص ج٣ ص ٢٥٦ وما بعدها ، والاطول ج٢ ص ٥٠ وما بعدها وفن التشبيه ج١ ص ١٨ – ١٩ .

(٢) الايضاح ص ٢١٢ .

(٣) الايضاح ص ٢١٣ .

والحركات ، والمحسوسات ، والكيفيات النفسية ، والبحث في اللـذة والالم ، والخيال ، والمفكرة ، والوجدان، والماهية ، والكلام على حرارة الحروف ، وبرودتها ، ورطوبتها ، ويبوستها . وأسرف المغربي في الكلام على اللذة والالم والبصر واقوال حكماء التشريح ،والكلام على الاشكال والحركة واختلاف المتكلمين والحكماء فيها ، وتفسير السمع ،والذوق، والطعوم ، والصلابة ، واللين ، والخفة والثقل . وأسرف في الحديث عن الكيفيات النفسية من الذكاء، والعلم ، والغضب، والحلم، والغرائز[1] . والمغربي في هذا كله يقارن بين اقوال المتكلمين واراء الحكماء .

ونجد التفتازاني عندما يتكلم على وجه الشبه يقول : « مما يدرك بالبصر وهو قوة مرتبة في العصبتين المجوفتين اللتين تتلاقيان وتفترقان الى العينـين ..

وبالحركات،وهي الخروج من القوة الى الفعل على سبيل التدريج وفي جعل المقادير والحركات من الكيفيـات ..

او بالسمع ، والسمع قوة رتبت في العصب المفروش على سـطح باطن الصماخين يدرك بها الاصوات من الاصوات القوية والضعيفـة ، والتي بين بين . والصوت يحصل من التموج المعلول للفرع الـذي هو احساس عنيف ، والقلع الذي هو تفريق عنيف بشرط مقاومة المقروع للقارع والمقلوع للقالع . ويختلف الصوت قوة وضعفاً بحسب قـوة المقاومـة وضعفهـا .

أو بالذوق ، وهو قوة منبثه في العصب المفروش على جرم اللسان من الطعوم كالحراقة ، والمرارة ، والملوحة ، والحموضة ، وغير ذلك .

أو بالشم ، وهي قوة رتبت في زائدتي مقـدم الدماغ المشبهتين بحلمتي الثدي من الروائح .

---

(1) مواهب الفتاح ج٣ ص ٢٢٠ وما بعدها .

أو باللمس ، وهي قوة سارية في البدن يدرك بها الملموسات»[1] .

ونجد الخلاف على أشده بين المذاهب في المسائل المقحمة ، فهذا المغربي يقول في بحث وصف المسند اليه متكلما على الجسم الطويل : « ثم ان تفسيره بما ذكر انما هو على المذهب الاعتزالي . واما عند الحكماء فالجسم هو المركب من الهيولي أي الجواهر المفردة ومن الصورة . وعند أهل السنة هو ما تركب من جوهرين فاكثر . والفرق بين المذهب السني ومذهب الحكماء ان الصورة عند الحكماء لها دخل في التركيب ، وهي جزء الجسم ، وعند أهل السنة ان التركيب للجواهر والصورة عرض اعتباري أو حقيقي ، ولا مدخل لها في جزئية الجسم »[2] .

وقد كان القدماء أنفسهم يشعرون بثقل هذه المادة على البلاغة وغرابتها ، ولكنهم جاروا المتقدمين ،وانغمسوا فيها . يقول المغربي بعد ان تحدث عن اللذة والالم ، والاشكال ، والسمع ، والذوق : « وقد اطنبت قليلا فيما يتعلق بهذه الكيفيات على حسب ما فسرها الشارح مما هو من تدقيقات الحكماء بعد تفسير بعضها بما هو أقرب الى الفهم قصد الايضاح وزيادة في الفائدة وان كان تفسيره كما قيل لا يناسب هذا الفن ولا يسهل على المتكلم بل يزيده حيرة . ولكن حيث ارتكب ذلك وجب مجاراته مع زيادة ما يوضح الغرض من بيان اصطلاحهم ازالة للحيرة عن المتعلم »[3] .

ونجد عصام الدين يقول بعد ان تكلم على الحواس ، والكيفيات، والحركات : « واعلم انه لم يَفِ المصنف بما وعد في ديباجة الكتاب من حذف الحشو ، والتطويل ، والتعقيد ، ونسي عنه في هذا المقام ،لان

---

(١) المختصر ج٣ ص ٣٣٢ وما بعدها .
(٢) مواهب الفتاح ج١ ص ٣٦١ .
(٣) مواهب الفتاح ج٣ ص ٣٤٣ .

هذه التقسيمات ما لا نفع له في هذا الفن ، بل يوجب تحير الافهام وايقاع المبدئين في الظلام حتى ان الشارح قال كأنه ابتهاج من السكاكي باطلاعه على اصطلاحات المتكلمين . فهو من التطويلات المشكلة على المبتدىء فيجب حذفه لمن الزم تنقيح الكلام عن التطويل والتعقيد ، وكأنه منع المصنف حذفه لاتقائه من الاتهام بانه لم يعرف على اصطلاحات المتكلمين ، فحذفه لعدم فهمه مقاصد المفتاح في هذا المقام لكونه عاريا عن معرفة مصطلحات الكلام »[١] . وبذلك نرى أن القدماء أنفسهم احسوا بما في هذه البحوث من ثقل على الدراسات البلاغية ، ولكنهم يذكرونها خوفاً من ان يتهموا بعدم الاطلاع عليها . وقد دفعهم هذا الاحساس والشعور الى البحث فيها ، واقحامها في البلاغة ، واتخاذها دليلا على ثقافتهم الواسعة ، واطلاعهم على اساليب الفلاسفة والمتكلمين .

وكان لمصطلحات المنطق أثر في كتابي القزويني ، ففيهما التأسيس، والموجبة ، والمهملة ، والمعدولة ، والسالبة المهملة ، والسالبة الكلية ، والسالبة الجزئية ، والمسورة ، والتصور ، والتصديق ، وغيرها [٢] . ونجد في شروح التلخيص المصدوق والماصدق ، ومصطلحات الحكماء والاصوليين .

ولم يقف الامر عند هذا بل استفاد القزويني من أساليب الفلاسفة والمتكلمين في البحث ، والشرح ، والتعليل . يقول في تعريف فصاحة المتكلم : « واما فصاحة المتكلم : فهي ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ صحيح... وقيل «ملكة» ولم يقل «صفة» ليشعر بان الفصاحة من الهيئات الراسخة حتى لا يكون المعبر عن مقصوده بلفظ فصيح فصيحا الا اذا كانت الصفة التي اقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح راسخة فيه . وقيل « يقتدر بها » ولم يقل « يعبر بها » ليشمل حالتي النطق

(١) الاطول ج٢ ص ٧٧ .

(٢) الايضاح ص ٦٤ ــ ٦٥ والتلخيص ص ٨٤ .

وعدمه ، وقيل : « بلفظ فصيح » ليعم المفرد والمركب »[1] . وقال بعد ان عرف علم المعاني: « وقيل : « يعرف » دون « يعلم » رعاية لما اعتبره بعض الفضلاء من تخصيص العلم بالكليات ، والمعرفة بالجزئيات ، كما قال صاحب القانون في تعريف الطب : « الطب علم يعرف، به أحوال بدن الانسان » . وكما قال الشيخ ابو عمر رحمه الله : « التصريف علم باصول يعرف بها أحوال ابنية الكلم »[2] .

وهذا الاسلوب وان كان معروفا عند المتقدمين ، إلاّ انهم لم يسرفوا فيه هذا الاسراف ، ولم يستعملوه في ميدان البحث البلاغي . وقد غالى شراح تلخيص المفتاح في هذا الاتجاه ، فقال عصام الدين شارحا معنى « علم » في تعريف البيان : « وهو علم أي مسائل معلومة عن الادلة ، أو تصديقات بها حاصلة عن الادلة، او ملكة هذه التصديقات أعني كيفية راسخة يتمكن بها من التصديق بمسألة مسألة تفصيلا من غير حاجة الى تجشم كسب جديد . وانما قيدنا معاني العلم بالحصول عن الدليل وان اطلقها الناظرون في هذا المقام لما حققت من أنّ من جمع مسائل العلم بالتقليد لا يسمى عالما ، وتصديقاتها لها لا يسمى علما . واستعمال لفظ العلم في التعريف مخل »[3] .

ويستعمل القزويني في اظهار الحسن البلاغي الاساليب الفقهية ، والفلسفية في التعليل ، فيقول بعد ان انتهى من بحث موضوعات البيان: « اطبق البلغاء على ان المجاز ابلغ من الحقيقة ، وان الاستعارة ابلغ من التصريح بالتشبيه ، وان التمثيل على سبيل الاستعارة أبلغ من التمثيل لا على سبيل الاستعارة ، وان الكناية ابلغ من الافصاح بالذكر »[4] .

ولكن لماذا ؟ لم يذكر القزويني وغيره من المتأخرين سبب ذلك

---

(١) الايضاح ص ٩ .
(٢) الايضاح ص ١٢ .
(٣) الاطول ج٢ ص ٥٠ .
(٤) الايضاح ص ٣٢٨ — ٣٢٩ .

ووجهة النظر البلاغي ، وانما « السبب في ذلك ان الانتقال في الجميع من الملزوم الى اللازم فيكون اثبات المعنى به كدعوى الشيء ببينة ، ولا شك ان دعوى الشيء ببينة أبلغ في اثباته دعواه بلا بينة »[1] .

ولا يخرج تعليله في تأكيد المدح بما يشبه الذم عن هـذا التعليل ، يقول : فالتأكيد فيه من وجهين :

أحدهما : انه كدعوى الشيء ببينة .

والثاني : ان الاصل في الاستثنـــاء ان يكون متصلا ، فاذا نطق المتكلم بـ « الا » أو نحوها توهم السامع قبل ان ينطق بما بعـدها ان ما يأتي بعدها مخرج مما قبلها فيكون شيء من صفة الذم ثابتا، وهـذا ذم ، فاذا أتت بعدها صفة مدح تأكد المدح ، لكونه مدحا على مدح ، وان كان فيه نوع من الخلابة »[2] .

لقد احس القزويني ان في هذا نوعا من الخلابة ولكن ما هي ؟ لم يستطع ان يشرح لنا هذه الخلابة ، ويبين أهمية استعمال هذا الاسلوب وقيمته في التعبير الا ما كان من دعوى الشيء ببينة . فالتعليلان الفقهي والنحوي لا يجديان في اظهار جمال هذا الاسلوب ، وقد صرح المغربي ان في هذا التعليل تمحلا وان قال عن الثـــاني انه ابلغ . وانه توجيه يستملح ويثلج به الصدر في افادة التأكيد حقيقة ، والاول انما أفـــاد التأكيد بامر تخييلي[3] .

ويرى الاستاذ الخولي ان السر النفسي لجمال هذا الاسلوب ما فيه من معنى المباغتة والمفاجأة التي تكسبه طرافة ، وتثير حولـــه تنبيهاً ، سواء أكانت هذه الطرافة تقوم على اتصال الاستثناء أم يتحول معهـــا منقطعا ، فان المباغتة هي الاصل ، لا ملاحظة الاستثناء وحالته[4] .

---

(١) الايضـــاح ص ٣٢٩ .
(٢) الايضـــاح ص ٣٧٣ .
(٣) مواهب الفتاح ج٤ ص ٣٨٩ .
(٤) مناهج تجديد ص ١٩٧ .

ونحن لا نستطيع ان نأخذ هـذه التعليلات دليلا على روعة الاساليب الادبية لانها لا تفيدنا كثيرا ، ولا تفتح الطريق أمامنا لتلمس مواطن الجمال وتجسس ما تثيره في النفوس •

وننتهي من هذا كله الى ان النزعة الفلسفية والجدلية تسيطر على بلاغة القزويني • وقد رأينا هذا في المنهج ، والتبويب ، وبيان المعاني البلاغية ، واستخدام المصطلحات ، والاساليب الكلامية والفلسفية والاصولية • ومن هنا لا نرى فائدة في العكوف على بلاغةالقزويني ، وانه لمن المفيد ان نجرد بلاغتنا الجديدة مما علق بها من غريب •

وليس هذا وحده ما ينبغي تخليته من البلاغة فهناك موضوعات اقحمت فيها اقحاما كالدراسات النحوية التي تظهر باجلى صورها في فصول علم المعاني الذي احاله السكاكي والقزويني ومن جاء بعدهما الى ميدان للجدل في تقدير الفاعل او المفعول • او البحث في استعمال ادوات الشرط ، وأحوال التعريف ، وتقسيم القصر باعتبار المقصور الى قصر موصوف على صفة ، وقصر صفة على موصوف ، وباعتبار حال المخاطب به الى قصر افراد ، أو قصر قلب ، أو قصر تعيين • أو البحث في أدوات الاستفهام ، والتمني ، والنداء ، والامر ، والنهي ، والبحث في واو الحال وغيرها مما أشرنا اليه في كلامنا على السبكي الذي كان شرحه ميدانا لعرض الاراء النحوية ، ووجهات النظر المختلفة •

ونرى أن نعيد هذه المباحث الى النحو ونضمها الى فصوله ، لتعود اليه الحياة بعد ان سلبوه كل شيء ، وجعلوه يتعلق بأواخر الكلمات من رفع ونصب او بناء ، واعراب • وقد اشار القدماء الى ان كثيرا من هذه الموضوعات ليست من علم المعاني • يقول عصام الدين عن الامر : « ولا يخفى عليك انَّ مباحث الامر كالاستفهام ليس من فن المعاني ، وليس منه الا نكات العدول من الحقيقةالى التجوز بالامر»[1] •

---

(١) الاطول جا ص ٢٤٨ •

وانا اذ ندعو الى اخراج هذه الموضوعات من البلاغة نهدف الى أمـريـن :

الاول : تخليص البلاغة من كل غريب لا علاقـة له بالفن الادبي ، وانما اقحم عليها اقحاما افقدها قيمتها والغرض الذي من اجله درسـها القدماء .

والثاني : تخليصها من هذا الاضطراب المنهجي والانتقال مـن اسلوب الى اسلوب ، فهم يتخذون تارة اساليب الفلاسفة وأهل المنطق عندما يناقشون ، ويتخذون أسلوب الفقهاء حينما يعللون ، ويظهرون روعة الاساليب تارة اخرى ، ويتخذون اسلوب النحاة حينما يعرضون لموضوعات النحو ويفصلون القول فيهـا . وما أحوج البلاغـة الى تجريدها من هذا كله لتبقى خالصة للفن ، وليبقى أسلوبها منسقا ليس فيه هذا الانتقال الذي تحتمه طبيعة كل نوع من هذه الموضوعـات المختلفة في الهدف والاسلوب .

ونحن حينما ندعو الى اخراج الغريب من البلاغة كالنحو ،والمباحث اللغوية ، لا نعني بذلك انها عديمة الفائدة ، بل بالعكس نرى أنّ لها قيمة في فهم الادب ، وتذوقه ، ومعرفة ما فيه . ومن هنا نجد الاقدمين وعلى رأسهم البلاغي الناقد ابن الاثير يعتبرهامن مكملات ثقافةالاديب والباحث في البلاغة ، وذكر في أول « المثل السائر » و« الجامع الكبير» أن الانسان ليحتاج اليها ، وانها المفتاح الذي يفتح أبواب البلاغة ،ولكن على شرط ان لا تمتزج بحوثها بفصول البلاغة ، بل تدرس على اساس انها علوم مستقلة تفيد الاديب في تنمية ثقافتـه اللغويـة والنحوية ، وتقوّي مداركه ، وتعينه في نقد الكلام ، وتمييز حسنه من رديئه .

٤

ما ينبغي أخـذه :

هذا ما ينبغي اخراجه من بلاغة القزويني ، أما ما يمكن الاستفادة منه في البلاغة الحديثة فهو غير ما ذكرناه • واننا لواجدون عند القزويني كثيراً من البحوث الصالحة للبقاء ، من ذلك مصطلحات البلاغـة التي نشأت في اول عهدها نشأة لغوية ، ثم اخذت تتطور على مدى الايـام حتى استقرت ، وتحـددت معانيها ومفـاهيمها على يد السكاكي والقزوينـي •

المصـطلحات :

واننا اذ ندعو الى الاخذ بمصطلحات القزويني البلاغية انما نريـد التخلص من الفوضى التي دخلتها ، والاضطراب الذي اصابها • ولو رجعنا الى أي مصطلح منها ، وتابعناه منذ أول نشـأته حتى القزويني لوجدنا الاختلاف واضحا والتحديد غير متفق عليه • وقد بدا هذا جليا في موضوعات البديع التي تسابق البلاغيون في تفريعها ، وأوصلوهـا الى اكثر من مائة ، وانه لمن اليسير أن يضم كثير منها الى انواع معينة ، ولكن غرامهم بالبديع وتفاخرهم بالسبق دعاهم الى هذا مع ان السكاكي الذي عاش في عصر متأخر لم يذكر منه الا أنواعا قليلة ، ولكن أصحاب البديعيات ، كالحلي ، والموصلي ، والحموي أوصلوها الى ما وصلت الينا • وقد بدأ الولوع بهذا مبكرا حتى أن ابن الاثير يقول : « اعلم

أنه قد اختلف أرباب هذه الصناعة في تسمية أنواع علم البيان حتى ان أحدهم يضع لنوع واحد اسمين اعتقادا منه أن ذلك النوع نوعان مختلفان ، وليس الامر كما وقع له ، بل هما نوع واحد ، فممن فعل ذلك الغانمي فانه ذكر في كتابه بابا من ابواب علم البيان وسماه التبليغ، وهو أن يأتي الشاعر بالمعنى في البيت تاما من غير أن يكون للقافية فيها ذكر صنع ، ثم يأتي بها لحاجة الشعر اليها حتى يتم وزنه فيبلغ بذلك الغاية القصوى في الجودة ... ثم أنه ذكر بعد هذا الباب بابا آخر وسماه الاشباع فقال : هو أن يأتي الشاعر بالبيت معلقا بالقافية على آخر اجزائه ، ولا يكاد يفعل ذلك الا حذّاق الشعراء وذلك ان الشاعر اذا كان بارعا جلب بقدرته وذكائه وفطنته الى البيت وقد تمّت معانيه، واستغني عن الزيادة فيه قافية متممة لاعاريضه ووزنه فجعلها نعتا للمذكور. هذا كلام الغانمي بعينه والبابان المذكوران سواء لا فرق بينهما بحال من الاحوال » [1] .

وقد جمع العسكري هذين النوعين في فن واحد أطلق عليه اسم الايغال وذكر امثلتهما وبذلك قلل المصطلحات [2] . وأيده ابن الاثير فقال : « وهذا أقرب أمراً من الغانمي ، لانه ذكره في باب واحد وسماه باسم واحد ولم يذكره في باب آخر كما فعل الغانمي ـ رحمه الله ـ وليس الاخذ على الغانمي في ذلك مناقشة على الاسماء ، وانما المناقشة له على أن ينتصب لايراد علم البيان ، وتفصيل أبوابه ويكون أحد الابواب التي ذكرها داخلا في الآخر فيذهب عليه ذلك ، ويخفى عنه ، وهو أشهر من فلق الصبح » [3] .

وادّعى بن ابي الاصبع المصري انه اخترع ثلاثين نوعا بديعيا، والمتتبع لهذه الانواع يرى أنها لم تسلم له كلها ، وانما كان بعضها مسبوقا اليه

---

(١) الجامع الكبير ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ .
(٢) كتاب الصناعتين ص ٣٨ وما بعدها .
(٣) الجامع الكبير ص ٢٤٣ . والمثل السائر ج٢ ص ٣٥٠ ـ ٣٥١ .

كالتخيير ، والتدبيج ، والاستقصاء والبسط ، والتشكيك ، والتهكم ، والتندير ، والفرائد ، والالغاز ، والتعمية ، والنزاهة ، والمراجعة ، والسلب والايجاب ، والابهام ، والمقارنة ، والمناقضة ، وحسن الخاتمة، ولم يسلم له الا التمزيج والهجاء في معرض المدح، والعنوان ،والايضاح، والحيدة ، والانتقال ، والشماتة ، والاسجال بعد المغالطة ، والتصرف، والتسليم ، والافتنان ، والقول بالموجب ، وحصر الجزئي والحاقه بالكلي ، والابداع ، والانفصال[1] .

ولم يدفعه الى هذا الا تفريعاته واطلاق المصطلحات الخاصة على فنون قد تكون نوعا واحدا ، فالبسط عنده ليس الا الاطناب الذي عرفه البلاغيون منذ اول عهدهم بالتأليف وهكذا الامر في الفنون الاخر.

ولكي نظهر اختلاف البلاغيين في المصطلحات واطلاقهم الاسماء المختلفة على فن بلاغي واحد نذكر أمثلة منها : تسميتهم التجنيس بالجناس والمجانس ، وان بعض البغداديين يسمي تساوي اللفظتين في الصفة مع اختلاف المعنى التماثل[2] وتسميتهم التورية بالايهام والتوجيه والتخيير[3] ويرى ابن حجة أن التورية أولى في التسمية لقربها من مطابقة المسمى ولانها مصدر وريت الخبر تورية اذا سترته وأظهرت غيره[4] وتسمية التشبيه المقلوب بغلبة الفروع على الاصول او الطرد والعكس[5] وتسمية المنصف بالاستدراج، لاستدراجه الخصم الى الاذعان والتسليم[6] والتوجيه بمحتمل الضدين[7] وتسمية

---

(١) تنظر هذه الفنون في بديع القرآن وينظر الفصل الرابع في كتاب ابن أبي الاصبع المصري بين علماء البلاغة .

(٢) سر الفصاحة ص ٢٢٦ ، ٢٢٨ .

(٣) التلخيص ص ٣٦٠ والايضاح ص ٣٥٣ والمطول ص ٤٢٥ وشروح التلخيص ج٤ ص ٣٢٢ .

(٤) خزانة الادب ص ٢٣٩ .

(٥) المثل السائر ج١ ص ٤٢١ والجامع الكبير ص ٩٧ والفوائد ص ٥٧ و ٥٩ والخصائص ج١ ص ٣٠٠ .

(٦) المطول ص ١٦٥ .

(٧) المطول ص ٢٤٣ وشروح التلخيص ج٤ ص ٤٠٠ .

الارصاد بالتسهيم والتوشيح. وقد نقد ابن الاثير أبا هلال فقال: «ورأيت أبا هلال العسكري قد سمي هذا النوع التوشيح وليس كذلك بل تسميته بالارصاد أولى وذلك حيث ناسب الاسم مسماه ولاق به وأما التوشيح فانه نوع آخر من علم البيان»[1] . وتسمية لزوم ما لا يلزم بالالزام والتضمين والتشديد والاعنات والتضييق [2] والتشريع بالتوشيح وذي القافيتين[3] وتسمية التكميل بالاحتراس ، وعللوا هذه التسميه فقالوا : ويسمى هذا النوع من الاطناب الاحتراس أيضا أي زيادة على تسميته بالتكميل . أما تسميته بالتكميل فلتكميله المعنى بدفع خلاف المقصود عنه . وأما تسميته بالاحتراس فهو من حرس الشيء ضغطه وهذا فيه حفظ المعنى ووقايته من توهم خلاف المقصود لان ما أتى به فيه يتحرز به عن خلاف المقصود[4] ورد العجز على الصدر بالتصدير ، وكان القاضي قد ذكر بابا باسم « رد الاعجاز على الصدور» خارجا عن باب التجنيس وهو ضرب منه وقسم من جمله[5] وتسمية المطابقة بالطباق والتضاد والتطبيق والتكافؤ [6] والتشريع بالتوأم والتوشيح[7] وتجاهل العارف بسوق المعلوم مساق غيره وقد سماه السكاكي بالاسم الاخير يقول : « ولا أحب تسميته بالتجاهل »[8] وتسمية مراعاة النظير بالتناسب والتوفيق [9] والمذهب الكلامي بالاحتجاج النظري وقد اكثر ابو حيان النحوي الاندلسي من استعمال

---

(١) المثل السائر ج٢ ص ٣٥٠ وينظر التلخيص ص ٣٥٦ والايضاح ص ٣٤٧ والمطول ص ٤٢٢ وشروح التلخيص ج٤ ص ٣٠٥ .

(٢) شروح التلخيص ج٤ ص ٤٦٣ والمطول ص ٤٥٨ والفوائد ص ٢٣٤ .

(٣) المطول ص ٤٥٨ والمختصر ج٤ ص ٤٦١ .

(٤) مواهب الفتاح ج٣ ص ٢٣١ .

(٥) الجامع الكبير ص ٢٥٨ والمثل السائر ج١ ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ .

(٦) التلخيص ص ٣٤٨ والايضاح ص ٣٣٤ والمطول ص ٤١٧ وشروح التلخيص ج٤ ص ٢٨٦ والفوائد ص ١٤٥ والمثل السائر ج٢ ص ٢٧٩ .

(٧) التلخيص ص ٤٠٥ والبلاغة الفنية ص ١٦٢ .

(٨) مفتاح العلوم ص ٢٠٢ والايضاح ٣٧٨ والتلخيص ص ٣٨٥ .

(٩) شروح التلخيص ج٤ ص ٣٠١ والتلخيص ص ٣٥٤ والايضاح ص ٢٤٣ والمطول ص ٤٢٠ .

المصطلح الثاني في تفسيره للقرآن الكريم ولكن البلاغيين أطلقوا عليه الاول[1] .

هذه أمثلة لاختلافهم في المصطلحات ، وهي تدلنا دلاله واضحةعلى ان فنون البلاغة ومصطلحاتها بقيت تتطور على مدى العصور ومن هنا جاء هذا الاختلاف ، ولكنها بقيت ثابتة بعد ان وضع القزويني كتابيه التلخيص والايضاح ، ولو أردنا ان نستقصي تطور المصطلحات لطال بنا الكلام ولعل في العودة الى المثل السائر وبديع القرآن وخزانة الحموي ما يغني عن الكلام ، لان هذهالكتب قد جمعت الاراء المختلفة في كل موضوع وذكرت مصطلحات الفن الواحد .

ونحن في بلاغتنا الجديدة لا يمكن ان نبقى مضطربين في هذه المصطلحات ، وانما ينبغي ان ننسقها ، ونوحدها ، ونضم بعضها الى البعض ، ونستعمل منها ما هو اكثر دلالة على الفن البلاغي الذي نبحث فيه . ونرى ان نستفيد مما ذكره القزويني ، لانه جمع زبدتها في كتابيه . وقد كان موفقا الى حد كبير في بحث البديع فادخل بعض فنونه في بعض وبذلك قلل المصطلحات ، وقلل انواع البديع الذي أسرف المتأخرون في تنويعها . ولكن لن نقف عند القزويني في هذه الناحية وانما ينبغي ان نستفيد من غيره فنأخذ ما هو أجدى من مصطلحاته ، واكثرها دلالة ، وأقربها الى الفهم والذوق السليم .

الفصاحة :

ومن الموضوعات التي ينبغي أن نستفيد منها ، مقدمته في الفصاحة وهي ليست مقدمة لدراسة البلاغة ــ كما يزعم ــ وانما هي من صميم الدراسات البلاغية ، وان كان عبد القاهر لم يرَ لها مزية ، لانه شغل بالنظم وبرهن على ان القرآن معجز به ، لا بالالفاظ التي يتساوى

---

(١) ينظر البحر المحيط ج٣ ص٨٩ و ٣٠٥ وج٤ ص ٣٩٣ وج٥ ص٣٥٠ والتلخيص ص ٣٧٤ والايضاح ص ٣٦٦ والفوائد ص ١٣٦ وشروح التلخيص ج٤ ص ٣٦٩ .

فيهـــا القرآن وغيره من كـلام العرب ، ولم تكتسـب شـــيئا جديدا لم يكن لها قبل ان توضع في آيات الكتاب المبين • وقـد اهتم بها القدماء كأبن سنان وابن الاثير وغيرهما ، ورأوا أن الاديب يحتاج في تأليفه الى ثلاثة أشياء : اختيار الالفاظ المفردة ، وحكـم ذلك حكم اللآلي المبددة فانها تتخير وتنتقي قبل النظم • ونظم كل كلمـة مع اختها المشاكلة لها لئلا يجيء الكلام قلقا نافرا عن موضعه ، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منه باختها المشاكلـة لها • والغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعـــه ، وحكم ذلك حكم الموضع الذي يوضع فيه العقد المنظوم فتارة يجعل اكليلا على الرأس ، وتارة يجعل قلادة في العنق ، وتارة يجعل شنفا في الاذن• ولكل موضع من هذه المواضع هيئة من الحسن تخصه •

وينتهي ابن الاثير الى أن هـــذه الامور الثلاثة لا بـد للخطيب والشاعر من العناية بها ، وهي الاصل المعتمد عليه في تأليف الكلام من النظم والنثر • فالاول والثـاني من هــذه الثلاثة المذكورة همـا المراد بالبلاغة • وذهب الى أن للالفاظ في الاذن نغمة لـذيذة كنغمة أوتار ، وصوتا منكرا كصوت حمار ، وأن لها في الفم حلاوة كحلاوة العسل ، ومرارة كمرارة الحنظل ، وهي على ذلـــك تجري مجرى النغمـات والطعـــوم [1] •

وأهتم المعاصرون بالبحـــث في اللفظ الموحي ، واللفظ القوي ، واللفظ المؤنس والعذب في تآلفه مع الجملة ، وكيف يعبر عن الانفعال أو الفكرة ، وكيف يحدث صورة • وأن اختيار الكلمة الواجبة المؤثرة هي أول خطوة للبناء الفني ، وذهب بعض النقاد المحدثين الى ان اللفظ « عنصر على جانب كبير من الاهمية ، وقد يقوم به القصيد دون حاجة الى صورة خيالية ، او موسيقى جياشة ، فان الالفاظ وصوتها ودلالتها ،

---

(١) ينظر المثل السائر ج١ ص ١٤٢ - ١٥٠ .

وجوها ، وتآلفها كافية لابداع القصيد البديع »[1] .

الايجاز والاطناب :

ومنها بحث الايجاز والاطناب والمساواة ، فقد جمع فيه القزويني جودة التقسيم مع روعة العرض والتحليل.ولم يضطرب فيه كمااضطرب المتأخرون فجعلوا بعض أقسامه من البديع كالتكميل ، والتتميم ، والايغال . ويمكن ان نضم الى هذا البحث ما كتبه رجال المدرسة الادبية كابن رشيق ، وابن الاثير وبذلك تكون لنا مقاييس جيدة في نقد الكلام ونمييز الاساليب المختلفة ، ونرى أن هذا الفصل يكون بعد هذا كله من خيرة بحوث الاسلوب التي يهتم بها المعاصرون .

بحوث أخرى :

ولن نهمل من بلاغة القزويني بحوثه في التشبيه ، والاستعارة ، والكناية ، والبديع ، فهي من البحوث الجيدة التي تشهد له بسعة الاطلاع والتذوق . ولكننا لن نأخذ تقسيماته الكثيرة ، وانما نقبل منها ما يفيدنا مع الاهتمام بتقليل الاقسام ، والابتعاد عن تعليلاته ، واعجابه بالتشبيهات الغريبة التي أكثرمنها ابن المعتز وامثاله من الشعراء المترفين.

السرقات :

اما خاتمة كتابه المتعلقة بالسرقات الشعرية ، وحسن الابتداء ، والتخلص والانتهاء ، فهي ضرورية في دراسة البلاغة ، ونخص بالذكر منها السرقات التي تلعب دورا كبيرا في الاحكام النقدية الحديثة . وهي ليست خاتمة للبلاغة أو تابعة لاحد فنونها ، وانما هي فن له اهميته في الدراسات البلاغية ، ولهذا اعتنى العرب بها قديما ، وأفردوا لها كتبا ، وعني بها المحدثون وأولوها اهتماما كبيرا لانها تنير السبيل للناقد في

---

(١) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث ص ٥٧ وينظر النقد الادبي من خلال تجاربي ص ٨١ وما بعدها .

دراسة ابداع الاديب ، واسفافه ، ومعرفة جديده ، ومقدار أخذه عن الآخرين .

التفاتات :

وللقزويني التفاتات طيبة منها ايمانه بالتجديد ، فهو ينقل عن الجاحظ قوله : « قال الجاحظ وكلام كثير جرى على ألسنة الناس ،وله مضرة شديدة ، وثمرة مرة . فمن أضرّ ذلك قولهم : « لم يدع الاول للآخر شيئا » . فلو ان علماء كل عصر مذ جرت هذه الكلمة في اسماعهم تركوا الاستنباط لما لم ينته اليهم عمن قبلهم لرأيت العلم مختلا »[1] .

وله التفاتات نقدية مثبتة في بحوثه البلاغية الصرفة ، وتتجلى مظاهر النقد عنده فيما ورد في تضاعيف « الايضاح » من الدراسات والآراء التي عقب بها على النصوص الشعرية فأظهر محاسنها أوعيوبها، أو في معرض الدفاع عن اصحابها بالرد على من عابوها ، او في سبيل تقرير مبدأ يزول به الوهم عن أذهان المعترضين . ويتجه نقده في بعض الاحيان الى أسلوب الموازنة بين شعر وشعر ، أو بين رأي وآخر ،وقد تجلى هذا في بحث السرقات بصورة خاصة ، لان بحثها يقوم على الموازنة .

الشكلية :

وتطغى الشكلية في كثير من الاحيان على نقده ، وتحليله ، ومقارناته ، وأوضح مثال لذلك مقارنته بين قوله تعالى : « ولكم في القصاص حياة »[2] . وبين قول العرب : « القتل انفى للقتل » يقول وهو يتكلم على ايجاز القصر : « ايجاز القصر وهو ما ليس بحذف كقوله تعالى : « ولكم في القصاص حياة » فانه لا حذف فيه مع أن معناه كثير يزيد على لفظه لان المراد به أن الانسان اذا علم انه متى

---

(١) الايضاح ص ١٦ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٧٩ .

فتل قتل كان ذلك داعيا له قويا الى ان لا يقدم على القتل فارتفع بالقتل ـ الذي هو قصاص ـ كثير من قتل الناس بعضهم لبعض،فكان في ارتفاع القتل حياة لهم»[1] وهذا تعليق حسن منه،فيه توضيح لمعنى الآية الكريمة ولكنه يغرق في الشكلية عند المقارنة فيضع النقاط الواحدة بعد الأخرى فيقول : « وفضله على ما كان عندهم أوجز كلام في هـذا المعنى وهو قولهم « القتل أنفى للقتل » من وجوه :

أحدها : أن عدة حروف ما يناظره منه وهو « في القصاص حياة » عشرة في التلفظ وعدة حروفه أربعة عشر .

وثانيها : ما فيه من التصريح بالمطلوب الذي هو الحياة بالنص عليها ، فيكون أزجر عن القتل بغير حق لكونه ادعى الى الاقتصاص .

وثالثها : ما يفيده تنكير « حياة » من التعظيم او النوعية .

ورابعها : اطراده ، بخلاف قولهم ، فان القتل الذي ينفي القتل هو ما كان على وجه القصاص لا غيره .

وخامسها : سلامته من التكرار الذي هو من عيوب الكلام بخلاف قولهـم .

وسادسها : استغناؤه عن تقدير محذوف بخلاف قولهم فان تقديره: القتل أنفى للقتل من تركـه .

وسابعها : أن القصاص ضد الحياة ، فالجمع بينهما طباق .

وثامنها : جعل القصاص كالمنبع والمعدن للحياة بادخال « في » عليه[2] .

ويمكن تطبيق ما تقدم على شروح التلخيص ، فنرفض منها مـا رفضناه من بلاغة القزويني ، ونقبل ما أخذناه من التلخيص والايضاح ، وبذلك نبني بلاغتنا على أسس قديمة أبدع القدماء في ارسائها ، وعلى أسس حديثة تتطلبها حياتنا الجديدة .

---

(١) الايضـاح ص ١٨٢ .
(٢) الايضاح ص ١٨٢ ـ ١٨٣ .

تحليـــة :

ولن تكون البلاغة العربية صالحة في النقد الا اذا استفدنا من كتب البلاغة القديمة كلها ومن الـــدراسات الحديثة • ومن أهمهـا الدراسات النفسية التي اهتم بها المحدثون اهتماما بالغا ، واستخدموها في النقد ودراسة الفنون الادبية • وكان العرب منذ أول عهدهم بالتأليف قد لمحوا الصلة بين النفس والادب ، وفي كتبنا نماذج تدل على هــذه اللمحة كما في كتـــاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة الذي ذكر أن للشعر دواعي تحث البطيء ، وتبعث مــن المتكلف ، منها : الشراب ، والطرب ، والطمع ، والغضب ، والشوق ووصف الاماكن ، والاوقات التي يسرع فيها أتيّ الشعر •

وفي كتاب « الوساطة بين المتنبي وخصومه » للقاضي الجرجـاني اشارات كثيرة الى ذلك • ومما فطن له الجرجاني رجوع القاريء الى نفسه عند انشاد الشعر الرقيق ، وتفقد ما يتداخلهـــا من الارتياح ، ويستخفها من الطرب ، ويتصور تلقاء ناظرها من ســابق ذكرياتها اذا سمعت هذا الشعر[١] •

واهتم عبد القاهر بهذه الناحية حينما بحث صور الخيال من تشبيه، واستعارة ، ومجاز ، وكناية ، ولكن اهتمامه بالتقسيم والجدل المنطقي غطى عليها ، وطمس من ملامحها •

ويمكن ان تتلمس الاثر النفسي في بلاغة القزويني فهو عندما يتكلم على بلاغة الكلام يقول . « وأما بلاغة الكلام فهي مطـــابقته لمقتضى الحال مع فصاحته »[٢] • ومقتضى الحال مختلف ، فخطـــاب الذكي يبـــاين خطـاب الغبي ،

---

(١) ينظر من الوجهة النفسية ص ١٩ وما بعدها .
(٢) الايضـــاح ص ٩ .

ونلمح هذا الاثر في تعريفه لبلاغة المتكلم حيث يقول . « وأمابلاغة المتكلم فهي ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ»[1] وهـــذا تعريف نفسي محض .

ونلمح الاثر النفسي في كلامه على أضرب الخبر ، فان كان المخاطب خالي الذهن من الحكم بأحد طرفي الخبر على الآخروالتردد فيه استغنى عن مؤكدات الحكم ، وان كان متصور الطرفين مترددا في اسناد أحدهما الى الآخر طالبا له حسن تقويته بمؤكد ، وان كان حاكما بخلافه وجب توكيده بحسب الافكار . وقد أطلقوا على النوع الاول مـــن الخبر ابتدائيا والثاني طلبيا والثالث انكاريا .

وتحدث عن الامزجة الانسانية في الفضائل البشرية المختلفة وأثرها في صوغ العبارات . وَفَرَّق بين المولدين والعرب ، ورأى ان بنـــاء الكلام للمزاج الاعرابي يخالف بناءه للمزاج الدخيل المستعرب . ومن امثلة ذلك ما ذكره من قصة بشار المشهورة ، فقد روي عن الاصمعي انه قال : « كان ابو عمرو بن العلاء وخلف الاحمر يأتيان بشار فيسلمـــان عليه بغاية الاعظام ثم يقولان : يا ابا معـــاذ ما احـــدثت ؟ فيخبرهمـــا وينشدهما ويكتبـــان عنه متواضعين له حتى يأتي وقـــت الزوال ثم ينصرفان فأتياه يوما فقالا : ما هـــــذه القصيدة التي احدثتها في ابن قتيبـــة ؟ قال : هي التي بلغتكما . قالا : بلغنـــا انك اكثرت فيهـــا من الغريب . قال : نعم ، ان ابن قتيبة يتباصر بالغريب فأحببـــت ان أورد عليه ما لا يعرف . قالا : فانشدناها يا أبا معاذ فأنشدهما :

بكرا صاحِبَيَّ قبل الهجيرِ إنَّ ذاك النجاحَ في التبكيرِ

حتى فرغ منها فقال له خلف : لو قلت يا أبا معاذ مكان « ان ذاك النجاح » بكرا فالنجاح كان أحسن ، فقال بشار : انما بنيتهـــا اعرابية

---

(١) الايضـــاح ص ١١

وحشية فقلت : « ان ذاك النجاح » كما يقول الاعراب البدويون ، ولو قلت : « بكرا فالنجاح » كان هذا من كلام المولـدين ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل في معنى القصيدة . قال : فقام خلف فقبل عينيه . وختم القزويني هذه القصة بقوله : « فهل كان ما جرى بين خلف وبشار بمحضر من أبي عمرو بن العلاء وهم من فحولة هذا الفن الا للطف المعنى في ذلك وخفائه »[1] .

واعترف القزويني بان للاحساس مـــن التحريك للنفس وتمكين المعنى ما ليس لغيره ، يقول وهو يتكلم على اسباب جمال التشبيـــه والتمثيل : « ومن الـــدليل على أن للاحساس مـــن التحريك للنفس وتمكين المعنى ما ليس لغيره انك اذا كنت أنت وصاحب لك يسعى في أمر على طرف نهر وأنت تريد ان تقرر له انه لا يحصل من سعيـــه على طائل فأدخلت يدك في الماء ثم قلت له : « انظر هل حصل كفي من الماء شيء ؟ فكذلك أنت في أمرك » كان لذلك ضرب من التأثير في النفس وتمكين المعنى في القلب زائد على القول المجرد[2] . لقد احس القزويني أن النفس تتأثر ، وتحركها الهواجس أو الحواس ، ولكنـــه لم يوضح هذا التأثير في النفس ، وتمكينه في القلب لانشغاله بالبحث في التقسيم، والتحديد ، والقضايا الفلسفية والمنطقية . وسار على هذه السبيل شراح تلخيصه فملأوا كتبهم بالتصديقات ، والمقولات ، والدلالات العقلية ، والوضعية ، وكان الاولى بهم ان ينصرفوا عنها الى درس علاقة النفس بالانتاج الادبي وتقديره ونقده .

ولما أطل فجر النهضة الحديثة اتجه النقاد الى الاستفادة مـــن علم النفس في النقد والدراسات البلاغية ، وقد بدأ النقد الحديث المعتمـــد على التحليل النفسي في الادب حين نشر فرويد كتاب تفسير الاحلام سنة

(١) الايضاح ص ٢٠ ، وينظر الاغاني ج٣ ص ١٩٠ ودلائل الاعجاز ص ٢١٠ ومفتاح العلوم ص ٨٢ ، والبلاغة وعلم النفس ص ١٣٩ .

(٢) الايضاح ص ٢١٧ .

١٩٠٠ م وكتب ثلاث دراسات طويلة هي : ليوناردو دافنشي وهي دراسة نفسية مبيّنة لذكريات طفولية ، ومقالة عن دوستويفسكي وجريمة قتل الاب ،ودراسته لقصة المانية مغمورة عنوانهاغراديفاومؤلفها فلهلم ينسن ، وبهذه الدراسات الثلاث أقام فرويد منهجين من التحليل:

الاول : الباثوغرافيا أو دراسة المريض عصبيا أو الشخص المريض نفسيا مع اتخاذ آثاره الفنية دليلا هاديا في هذه الدراسة •

والثاني : نقد أدبي متصل حقا بالتحليل النفسي ، أو دراسة الاثر الادبي مع استعمال الآليات التي تستعمل في التحليل النفسي مفاتيح لهذه الدراسة •

وسرت هذه النغمة الى العالم العربي فكتب الاستاذ الخولي بحثا طريفا عن « البلاغة وعلم النفس » • ورأى أن تقدم بين يدي الدرس البلاغي مقدمة نفسية هي أمس به ، والزم له مما اقتبس من بحوث اصولية او منطقيةأو فلسفة طبيعية مما اقحم فيه وحفلت به كتبه • ويرى أن تدرس في هذه المقدمة القوى الانسانية بعامة وما له منها أثر فني بخاصة ، فنعرف غير قليل من الوجدان وعلاقته بمظاهر الشعور الاخرى من ناحية عمله الفني ونعرف مثل ذلك عن الخيال والذاكرة والاحساس وعن الذوق • ويجب أن نعرف الكثير عن أمهات الخوالج الانسانية من حب ، وبغض ، وحزن ، وفرح ، وغيرة ، وانتقام ، ومالى ذلك مما هو مادة المعاني الادبية الكبرى في الآداب الانسانية كلها ، وعلى الخبرة بحركات النفس فيه واتجاهاتها يقوم النقد الفني ذو الاساس ، بل ان البصر بذلك هو مادة النبوغ الفذ ، وسبيل خلود الآثار الادبية للمنشئين والناقدين[1] •

وكان هذا مدعاة الى صدور كتب في هذا الاتجاه منها كتاب :«من الوجهة النفسية في دراسة الادب ونقده» للاستاذ محمد خلف الله احمد،

---

(١) البلاغة وعلم النفس ص ١٤٧ ومناهج تجديد ص ١٩٣ •

وقد أوضح فيه انتفاع الناقد الحديث بنتائج الدراسات النفسية بعد ان انتفع القدماء منها ، ومنها « الميزان الجديد » للدكتور محمد منـدور الذي كان ميدانا رحبا لتطبيق وجهة نظره في تحليل النصوص ،مستعينا بالدراسات النفسية والذوق الادبي السليم .

واستفاد النقاد الآخرون من علم النفس في فهم كثير من القضايا الادبية كالدكتور طه حسين في كتابه « مع المتنبي » ، والدكتور شوقي ضيف في دراسته لعمر بن ابي ربيعة[1]،والعقاد فيدراسته لابي نواس. وكتب الدكتور مصطفى سويف كتابا في « الاسس النفسـية للابداع الفني في الشعر خاصة » ، وهو دراسة موفقة الى حد كبير .

وما تزال هذه الخطوة في اولها مع اهتمام النقاد بالدراسات الفنية حديثـا ، وحثهم على الالمام بعلم النفس والتحليل النفسـي ليمـدا الناقد بتفسير لماهيـة الشاعر او الاديب ويساعداه على تذوق عملهما الادبي . والذي نخشاه ان يستبد علم النفس بالبلاغة والنقد فيحيلهما الى ميدان رحب لتطبيق أفكاره وآرائه ، وادخال مصطلحاته ، وبذلك يضيع النقد ، وتذهب البلاغة كما ذهبت يوم غزتهـا بحوث المنطق والفلسفة وعلم الكلام فأخرجتها عن هدفها الذي درست لاجله . واننا حين ندعو الى الاستعانة بعلم النفس في الدراسات النقدية ، انما نريد ان يكون تناولنا له تناولا رقيقا ، نأخـذ منـه ما يعيننـا على تحليـل النصوص الادبية وتذوقها ، ونترك مصطلحاته وأفكـاره التي يتيـه فيها علماء النفس فضلا عن الناقد الاديب .

ونضيف الى هذا كله الذوق الادبي السليم ، وبغـيره لا يمكن دراسة الادب ونقده . وقد أولى القدماء الذوق اهتماما ، وارجعوا اليه تلك الروعة التي يحسونها في الآثار الادبية. وكان النقد العربي في اول نشأته يعتمد على الذوق ، يسمع الرجل بيتا او قصيدة فيهتز طربا وتأخذه

---

(١) ينظر التطور والتجديد في الشعر الاموى ص ١٨٦ وما بعدها .

نشوة عظيمة ، واذا ما سئل عن سر اعجابه لم يستطع ان يجد له تعليلا ، وانما هي النفس يستخفها الطرب فتنفعل ، وتظهر اعجابها وسرورها .

وبقي النقاد يؤكدون عليه حتى في عهد سيطرة القواعد البلاغية ، والاهتمام بالتحديد والتقسيم ، وقد عقد عبد القاهر فصلا في الذوق ختم به كتابه « دلائل الاعجاز » ، وذهب الى ان العمدة في ادراك البلاغة الذوق والاحساس الروحاني مع ذكاء لماع يدرك الفروق الدقيقة بين العبارات والمعاني . وهذا يتفق مع أحدث اتجاهات النقد الادبي فقد سأل احدهم الشاعر ت.س.اليوت عن المنهج النقدي الذي يسير عليه الناقد فأجاب بان المنهج الوحيد هو ان تكون ذكيا جدا[1] . وذهب السكاكي الى أبعد من هذا ، فرأى ان شأن اعجاز القرآن عجيب يدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن تدرك ، ولا يمكن وصفها ، وكالملاحة يقول : « ومدرك الاعجاز عندي هو الذوق ليس الا ، وطريق اكتساب الذوق خدمة هذين العلمين »[2] . اي المعاني والبيان . وتابع القزويني عبد القاهر والسكاكي في انه لا بد من الطبع والذوق في البلاغةوالنقد، وردد ما قاله السكاكي من أنه ليس من الواجب في صناعة ان يكون الدخيل فيها كالناشيء عليها في استفادة الذوق منها ، فلا على الدخيل فيصناعة علمالمعاني ان يقلدصاحبه في بعض فتاواهانفاتهالذوق هناكالى ان يتكامل له على مهل موجبات ذلك الذوق . ولخص كلام عبد القاهر في ان دارس البلاغة لا يمكن ان يفهمها ، ويستفيد منها حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة ، وحتى يكون ممن تحدثه نفسه بأن لما تومىء اليه من الحسن اصلا فيختلف الحال عليه عند تأمل الكلام ، فيجد الاريحية تارة ويعرى منها أخرى ، واذا عجبته تعجب ، واذا نبهته لموضع المزية انتبه . فأما من كانت الحالان عنده على سواء وكان لا يتفقد من أمر النظم الا الصحة المطلقة ، والا اعرابا ظاهرا فليكن عندك بمنزلة من

---

(١) ينظر النقد الادبي من خلال تجاربي ص ١٥٣ .

(٢) مفتاح العلوم ص ١٩٦ .

عدم الطبع الذي يدرك به وزن الشعر ويميز به مزاحفه من سالمه[1] .

وبذلك لا يغفل القزويني أثر الذوق الذي عليه العمدة في بلاغتنا الجديدة التي ينبغي ان تتخذفي دراستها المنهج الادبي الفني الذي ليس فيه اضطراب القدماء ، وفلسفتهم ، وبعدهم عن روح البلاغة ومقاييس النقد الصحيح . وأن تكون أحكامها فنية خالصة ، لانها كما يقول الاستاذ الخولي « فن من الفنون ، وأنها شقيقة الموسيقى وقسم من الفنون الصوتية . فالحكم الذي يصدر في مثل هذه الدراسة هو الحكم الفني الذي يثبت الحسن والجمال ، او يثبت القبح والدمامة »[2] .

* *

هذا هو القزويني ، وهذه جهوده وأثره في البلاغة العربية .ولعلنا القينا ضوء عليه ، ومهدنا السبيل لدراسة البلاغة من جديد ، واقامتها على اسس صحيحة تعتمد اول ما تعتمد على تحكيم الذوق والمقاييس الفنية .

ومن الله العون والتوفيق .

---

(١) ينظر الايضاح ص ١٥ ـ ١٦ .

(٢) فن القول ص ٨١ .

خاتمة

من هذا كله نرى ان البلاغة العربية نشأت مسائل متفرقة في كتب التفسير والادب الاولى ، واخذت تنمو على مر الايام حتى استوت علما له اصوله وقواعده ، وانقسمت البلاغة الى اتجاهين واضحين :

الاول : المدرسة الادبية ، او مدرسة العرب البلغاء ، وهي التي كانت تنحو منحى ادبيا بعيدا عن تمحلات الفلسفة ومصطلحات علم الكلام .

والثاني : المدرسة الكلامية ، او مدرسة الفلاسفة والعجم ، وهي التي اتجهت الى العلوم العقلية ، تقتبس من مناهجها ومصطلحاتها حتى اصبحت قواعد جامدة ، وتقسيمات تورث الحيرة ، وتبعد الاديب عن مقاييس البلاغة والنقد الصحيحة .

وظهرت في القرن السادس وما بعده ثلاثة اتجاهات واضحة :

الاول : اتجاه المشارقة الذين جنحوا الى تحكيم العقل في البلاغة قبل تحكيم الذوق الادبي الصافي السليم ، ويمثل هذا الاتجاه : الزمخشري ، والرازي ، والسكاكي .

والثاني : اتجاه المغاربة الذين جنحوا الى بلاغة ارسطو ومنطقه ، يقتبسون منه آراءه في نقد الادب وتقييمه ، ويمثل هذا الاتجاه حازم القرطاجني صاحب « منهاج البلغاء » .

والثالث : اتجاه مصر والشام ، وهو التيار العربي الذي كان ينحو منحى ادبيا خالصا ، وقد بدأ هذا الاتجاه واضحا منذ عهد ابن سنان . ومضى الزمن به حتى بلغ ذروته على يدي ضياء الدين بن الاثير صاحب « المثل السائر » ولم يَبْقَ اتجاه مصر واشام خالصا للفن والادب ، فقد غزا « مفتاح العلوم » هذه البيئة في النصف الثاني من القرن السابع ، وقد بحثنا طويلا لنعرف تاريخ دخوله في مصر والشام ، ولم نوفق الى ذلك ، وكل ما استطعنا ان نؤكد عليه ان هذا الكتاب عرف على يدي بدرالدين بن مالك حينما اختصر القسم الثالث بكتابيه « روض الاذهان » و « المصباح » . وبذلك أخذت مدرسة السكاكي الكلامية تغزو مجالس الدرس ، ومعاهد العلم ، واخذت الكتب تؤلف على غراره . وكان أعظم من اهتم بهذا الاتجاه جلال الدين الخطيب القزويني الذي اختصر القسم الثالث من مفتاح العلوم بكتاب سماه « التلخيص » . ولم يكن هذا الكتاب تلخيصا للمفتاح وحده ، وانما كان خطوة جديدة لمدرسة السكاكي ، فقد غيّر القزويني قليلا في منهج السكاكي ، وهذّبه واضاف فصلين لم يذكرا في المفتاح هما : السرقات الشعرية ، وحسن الابتداء والتخلص والانتهاء ، وكان هذا امرا طبيعيا بعد ان اتصل القزويني بكتب البيئة العربية في مصر والشام .

وقد حاولنا ان نوضح سيرة مؤلف التلخيص ووفقنا الى حد كبير في ذلك ، بعد ان بحثنا طويلا في كتب التاريخ والطبقات ، ونستطيع بعد هذا كله ان نقرر ان الصورة التي رسمناها للقزويني تكاد تكون قريبة الى الواقع ، وان كانت لا تزال تحتاج الى دراسة اعمق تكشف جوانب اخرى من سيرته لم تسعفنا بها المصادر التي بأيدينا ، ولعل الايام تظهر مصادر اخرى تمدنا بمعلومات جديدة .

ومضينا في البحث نعرض بلاغة القزويني ، ومنهجه،وأثره في البلاغة العربية ، وانتهينا الى ان بعض بحوثه غير صالح لبناء بلاغتنا الجديدة . وقد وضحنا هذا في الفصل الاخير من الرسالة وفيه رسمنا الخطوط العامة لما ينبغي اخذه ، وما يجب رده من بلاغة القزويني .

ويمكن تلخيص عملنا بما يأتي :

١ ــ أظهرنا بوضوح اتجاهات البلاغة العربية بعد القرن السادس، واستخلصنا الصفات العامة لهذه الاتجاهات ، فكان اهل المشرق يجنحون الى تحكيم العقل دائما في الدراسات البلاغية ، ويولعون بالتقسيم ، والحصر المنطقي الدقيق الذي يبتعد عن الفن الادبي ومقاييسه البلاغية . واتجه المغاربة الى الاستفادة من بلاغة ارسطو في كتابيه الشعر والخطابة . اما اهل مصر والشام فقد امتازت بلاغتهم بخصائص اهمها : عدم تقسيم البلاغة الى علومها الثلاثة ، والابتعاد عن الفلسفة وعلم المنطق في تحديد بحوثها ، واللجوء الى الذوق في تحليل النصوص الادبية واعطاء الحكم فيها ، وكان نتيجة ذلك ان تكونت مدرسة بلاغية مصرية كان لها حظ الاستفادة من السكاكي ومنهجه ومن اعلام المدرسة الكلامية ، وقد شاركت مصر والشام مشاركة فعالة في بناء صرح هذا الاتجاه .

٢ ــ صورنا سيرة القزويني تصويرا قد يكون قريبا الى الواقع ، وكُنَّا أوَّلَ من عرض لهذا الموضوع الذي كان عبارات مبعثرة في المصادر الكثيرة ، واستطعنا ان نصور أسرته ، وحياته الاولى ،وثقافته، واساتيذه ، وعلاقته بالحياة والناس .

٣ ــ جمعنا المعلومات الكثيرة عن كتابيه « التلخيص » ، و « الايضاح » ، وعرضنا منهجه عرضا مفصلا ، وتحدثنا عما أثار من حركة فكرية كانت ثمرتها مئات الشروح والتقريرات ، وقد استطعنا ان ننقر عن شروح التلخيص وان نضم بعضها الى بعض .

٤ ــ ارجعنا آراء القزويني البلاغية الى منابعها الاولى ، ووضحنا

علاقته بعلماء البلاغة قبله ، وانتهينا الى انه استفاد كثيرا من عبد القاهر، والزمخشري ، والسكاكي ، وكانت بلاغته زبدة آرائهم .

٥ ــ قمنا بموازنة بين بلاغة القزويني وغيره من علماء البلاغة الاعلام ، وانتهينا الى انه لعب دورا كبيرا في تنسيق بحوث البلاغة ، واعطائها شكلها الاخير وصورتها النهائية التي وقفت عندها . وقد حاولنا ان نشير في اثناء الفصول الى ما في آرائه من فائدة ، وكنا كثيرا ما نوجه آراءه ، ونعرضها عرضا واضحا .

٦ ــ مخضنا شروح التلخيص ، واخرجنا زبدتها ، واشرنا الى قيمتها التاريخية واللغوية والنحوية والادبية والبلاغية ، وانتهينا الى ان هذه الكتب لا تنفع كثيرا في دراسة البلاغة المعتمدة على الذوق ، لانها حشرت مصطلحات الفلاسفة والمناطقة ، واصطنعت اساليب المتكلمين والاصوليين فخرجت عن هدفها . ورأينا اننا اذا ما اردنا ان نبني بلاغتنا الجديدة فينبغي ان نستخلص منها ما فيه النفع ، أما الزبد فيذهب جفاء.

٧ ــ واستطعنا بعد هذا كله ان نحصر الغريب في بلاغة القزويني وشروح تلخيصه وان نشير الى ما فيه الفائدة . وكانت نتيجة ذلك ان طالبنا بتخلية البلاغة من :

١ ــ تقسيم البلاغة الى علومها الثلاثة ، والاعتماد على الدراسات الحديثة في بحثها ، وتنسيق موضوعاتها .

٢ ــ مصطلحات الفلاسفة واهل المنطق ، واساليب المتكلمين في العرض ، والتوجيه ، والتعليل .

٣ ــ تخليصها من الدلالات العقلية والوضعية في تقسيم بحوث علم البيان .

وطالبنا بأخذ ما يأتي من بلاغة القزويني :

١ ــ مصطلحاته البلاغية ، لانها أكثر استقرارا واوضح دلالة من غيرها .

٢ ـ مقدمته في الفصاحة ، والاستفادة من الدراسات الحديثة المتعلقة بالالفاظ في توجيه تقسيماته والتفاتاته النقدية .

٣ ـ بحوثه في الايجاز ، والاطناب ، والمساواة .

٤ ـ بحوثه في صور البيان الخيالية .

٥ ـ فنون البديع التي تضفي على الكلام جمالا ، وقوة ، وسحرا .

اما من حيث منهج البلاغة الجديد ، وطريقة بحثها فلا نزال على رأينا الذي قلناه في كتابنا « البلاغة عند السكاكي » ، وهي ان يلغى التقسيم الثنائي او الثلاثي للبلاغة ، وان نعتبرها كلها فنا واحدا ، وان نتجاوز البحث في الجملة والجملتين ، ونضم البحث في الكلمة وما فيها من جمال وجرس موسيقي له أثره في التعبير ، ونضم البحث في الجملة وما يحدث بين اجزائها من فصل ووصل ، وحذف وذكر وتقديم وتأخير ، وغيرها من البحوث التي ذكرها السكاكي والقزويني في علم المعاني . ونضم البحث في صور التعبير المختلفة كالتشبيه والاستعارة والكناية والتورية وغيرها من فنون البيان والبديع التي لها قيمتها في التعبير واداء المعاني . ونضم البحث في الفقرة والقطعة الادبية على ان نستفيد مما ذكره القدماء كعبد القاهر ، وابن الاثير ، والسكاكي ، والقزويني ، وشرّاح التلخيص .

أما مصطلحات البلاغة فينبغي تقليلها ، والاكتفاء بأهمها وأكثرها دلالة على الاساليب العربية . فالمجاز ـ مثلا ـ لا حاجة الى تقسيمه الى انواع كثيرة ، وانما نكتفي بتقسيمه الى لغوي وعقلي كما فعل عبد القاهر والقزويني ، او ان نعتبره لغويا كله كما فعل السكاكي . ونكتفي في الاستعارة بمصطلحات قليلة ، ولتكن الاستعارة التصريحية والمكنية ، ونرد جميع أنواعها الى هذين الاصلين .

ونهتم في بحث البلاغة بالناحية الادبية ، واختيار الامثلة والقطع الرائعة من القرآن الكريم ، وكلام العرب البليغ ، ونهتم بتحليل الامثلة تحليلا ادبيا يعتمد على الادراك والاحساس الفني .

ولن تكون البلاغة مفيدة على هذا الوجه ما لم نبعـــد ما ادخله القدماء فيها من فلسفة ، واصول ، ومنطق ، ونستعين ببعض الدراسات النفسية ، وما لها من أثر في الفن الادبي • ولكن لا الى الحـــد الذي تتجاوز فيه البحث البلاغي وتطغى عليه كما طغى علم المنطق وعلم الكلام على بلاغة القدماء فأخرجها عن غايتها التي من اجلها درست • وبذلك نبعث في البلاغة العربية الروح من جديد لتكون صالحة في نقد الأدب ، وانشائه ، وتكون ملائمة للفن الادبي المتطور •

احمـد مطلوب

مَصَادِرُ البَحْثِ وَمَرَاجِعُهُ

(١) ابن ابي الاصبع المصري بين علماء البلاغة ــ الدكتور حفني محمد شرف ــ الطبعة الاولى ١٩٦٢ ــ القاهرة .

(٢) ابن تيمية ــ الدكتور محمد يوسف موسى ــ ١٣٨١ ــ ١٩٦٢ــ القاهرة .

(٣) ابن تيمية ــ حياته وعصره ، آراؤه وفقهه ــ محمد ابو زهرة ــ ١٩٦٢ ــ القاهرة .

(٤) ابن دقيق العيد ــ علي صافي حسين ــ ١٩٦٠ ــ دار المعارف القاهرة .

(٥) ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر ــ الدكتور عبدالعزيز الاهواني ــ ١٩٦٢ ــ القاهرة .

(٦) ابن قيم الجوزية ــ عصره ومنهجه وآراؤه في الفقه والعقائد والتصوف ــ عبدالعظيم عبدالسلام شرف‌الدين ــ الطبعة الاولى ١٣٧٦ هـ ــ ١٩٥٦ .

(٧) ابن نباتة المصري أمير شعراء المشرق ــ عمر موسى باشا ــ دار المعارف .

(٨) ابو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية ـ الدكتور بدوي طبانة ـ الطبعة الثانية ١٩٦٠ ـ القاهرة .
(٩) اتجاهات البلاغة العربية ـ الدكتور احمد مطلوب ـ بحث نشر في مجلة كلية الآداب (جامعة بغداد) العدد الخامس ١٩٦٢ .
(١٠) الاتقـان في علوم القرآن ـ جلال الدين السيوطي ـ ١٣٦٨ ـ مطبعة حجازي ـ القاهرة .
(١١) اتمام الدراية لقراء النقاية ـ جلال الدين السيوطي ـ مطبوع على حاشية مفتاح العلوم للسكاكي ـ الطبعة الاولى ١٣١٧ هـ ـ القاهرة .
(١٢) آثار البلاد واخبار العباد ـ زكريا بن محمد بن محمود القزويني ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦٠ م ـ دار صادر ـ بيروت
(١٣) أثر الفلسفة في البلاغة العربية ـ الدكتور احمد مطلوب ـ بحث نشر في مجلة المعلم الجديد العدد الثاني ١٩٦١ م ، المجلد ٢٤ .
(١٤) أثر القرآن في تطور النقد العربي الى اواخر القرن الرابع الهجري ـ دكتور محمد زغلول سلام ـ الطبعة الاولى ـ دار المعـارف بالقاهرة .
(١٥) أثر القرآن في نشأة البلاغة ـ الدكتور احمد مطلوب ـ بحث نشر في مجلة المعلم الجديد ـ العدد الثالث المجلد ٢١ سنة ١٩٥٨ .
(١٦) أثر المعلمين في البلاغة ـ الدكتور احمد مطلوب ـ بحث نشر في مجلة المعلم الجديد العدد الثالث المجلد ٢٤ سنة ١٩٦١ .
(١٧) احياء النحو ـ ابراهيم مصطفى ـ ١٩٥١ ـ القاهرة .
(١٨) ادب الحروب الصليبية ـ الدكتور عبداللطيف حمزة ـ الطبعـة الاولى ١٩٤٩ ـ القاهرة .
(١٩) ادب الكاتب ـ ابن قتيبة ـ تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد الطبعة الثالثة ـ ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٨ ـ القاهرة .

(٢٠) الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدهان المسماة بالمآخذ الكندية من المعاني الطائية ـ ضياءالدين بن الاثير ـ تحقيق حفني محمد شرف ـ ١٩٥٨ ـ القاهرة ٠

(٢١) اسرار البلاغة ـ **عبدالقاهر الجرجاني ـ تحقيق احمد مصطفى** المراغي ـ الطبعة الاولى ١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٨ ـ القاهرة ٠

(٢٢) اسرار التمثيل بين الطريقة الادبية والتقريرية ـ عبدالمتعال الصعيدي ـ **الطبعة الاولى ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥ م ـ القاهرة ٠**

(٢٣) الاسس الجمالية في النقد العربي ـ عرض وتفسير ومقارنة ـ الدكتور عزالدين اسماعيل ـ الطبعة الاولى ١٩٥٥ ـ القاهرة ٠

(٢٤) اسس النقد الادبي عند العرب ـ الدكتور احمد احمد بدوي ـ **١٩٥٨ ـ القاهرة ٠**

(٢٥) الاسلوب ـ احمد الشايب ـ الطبعة الثالثة ١٩٥٢ ـ القاهرة ٠

(٢٦) اصول النقد الادبي ـ احمد الشايب ـ الطبعة الرابعة ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٣ ـ القاهرة ٠

(٢٧) الاشباه والنظائر في النحو ـ جلال‌الدين السيوطي ـ الطبعة الثانية ـ حيدر اباد ـ ١٣٥٩ هـ ٠

(٢٨) الاطول (الشرح الاطول على التلخيص) ـ ابراهيم بن محمد بن عربشاه الاسفراييني ـ **المطبعة السلطانية ١٢٨٤ هـ ـ تركيا ٠**

(٢٩) اعجاز القرآن ـ ابو بكر محمد بن الطيب الباقلاني ـ تحقيق السيد احمد صقر ـ دار المعارف ـ القاهرة ٠

(٣٠) الاعلام ـ خيرالدين الزركلي ـ الطبعة الثانية ٠

(٣١) اعلام الكلام ـ شرف‌الدين القيرواني ـ الطبعة الاولى ١٣٤٤هـ ـ ١٩٢٦ م ـ القاهرة ٠

(٣٢) الاغاني ـ ابو الفرج الاصفهاني ـ دار الكتب ـ القاهرة ٠

(٣٣) الاقصى القريب في علم البيـان ــ الامام زين الدين التنوخي ــ الطبعة الاولى ١٣٢٧ هـ ــ القاهرة .

(٣٤) الى طه حسين في عيد ميلاده السبعين ــ جمع الدكتورعبدالرحمن بدوي ــ دار المعارف ١٩٦٢ ــ القاهرة .

(٣٥) أمالي علي عبدالرازق في علم البيان وتاريخه ــ مطبعة مقـداد ١٣٣٠ هـ ــ القاهرة .

(٣٦) انباه الرواة في أنباه النحاة. القفطي ــ طبعة دار الكتب في القاهرة.

(٣٧) الايضاح في علم المعاني والبيان ــ جلال الدين القزويني

١ــ طبعة محمد محيي الدين عبدالحميد مطبعة السنة المحمدية ــ القاهرة وهي التي اعتمدنا اليها في البحث، اما النسخ الاخرى فقد اشرنا اليها في الهامش مع ذكر الطبعة) .

٢ــ مخطوطة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية رقم ١٣ .

٣ ــ طبعة محمد علي صبيح الثانية ــ القاهرة .

٤ ــ طبعة محمد عبدالمنعم خفـاجي الاولى ١٣٦٨ هـ ١٩٤٩ ــ القاهرة .

(٣٨) ايضاح الايضاح ــ جمال الدين محمد بن محمد الاقصـرائي ــ مخطوطة دار الكتب بالقاهرة رقم ٢ بلاغة .

(٣٩) الايضاح في شرح مقامات الحريري ــ المطرزي ــ طبعة حجرية ــ ايران .

(٤٠) ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون ــ اسماعيل باشا بن محمد امين البغدادي ــ طبع وكالة المعارف بتركيا ١٣٦٤ هـ ــ ١٩٤٥ .

(٤١) البحر المحيط ــ ابو حيان النحوي الاندلسي ــ الطبعـة الاولى ١٣٢٨ هـ ــ القاهرة .

(٤٢) بحوث وآراء في علم البلاغة ــ احمد مصطفى المراغي ١٣٥٩ هـ ١٩٤٠ م ــ القاهرة .

(٤٣) البداية والنهاية ــ ابن كثير القرشي الدمشقي ــ مطبعة السعادة ــ القاهرة .

(٤٤) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ــ محمد بن علي الشوكاني ــ الطبعة الاولى ــ مطبعة السعادة ١٣٤٨هـ ــ القاهرة.

(٤٥) البديع ــ ابن المعتز ــ طبعة المستشرق كراتشكوفسكي لندن ١٩٣٥.

(٤٦) بديع القرآن ــ ابن ابي الاصبع المصري ــ تحقيق حفني محمد شرف ــ الطبعة الاولى ١٣٧٧ هـ ١٩٥٧ ــ القاهرة .

(٤٧) البديع في نقد الشعر ــ اسامة بن منقذ ــ تحقيق الدكتورين احمد احمد بدوي وحامد عبدالمجيد ــ ١٣٨٠ ــ ١٩٦٠م القاهرة.

(٤٨) بغية الايضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ــ تحقيق عبدالمتعال الصعيدي ــ القاهرة .

(٤٩) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ــ جلال الدين السيوطي الطبعة الاولى بمطبعة السعادة ــ ١٣٢٦ هـ ــ القاهرة .

(٥٠) بلاغة ارسطو بين العرب واليونان ــ الدكتور ابراهيم سلامة ــ الطبعة الثانية ١٣٧١ هـ ــ ١٩٥٢ ــ القاهرة .

(٥١) البلاغة بين اللفظ والمعنى من عصر الجاحظ الى عصر ابن خلدون ــ نعيم الحمصي ــ بحث نشر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٤٩ وما بعدها .

(٥٢) البلاغة تطور وتأريخ ــ الدكتور شوقي ضيف ــ القاهرة ــ دار المعارف ١٩٦٥ .

(٥٣) البلاغة العربية في دور نشأتها ــ الدكتور سيد نوفل ــ ١٩٤٨ ــ القاهرة .

(٥٤) البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها ــ امين الخولي ــ بحث نشر في صحيفة الجامعة المصرية العدد الخامس مايو ١٩٣١ .

(٥٥) البلاغة عند ابن الاثير ــ الدكتور احمد مطلوب ــ بحث نشر في

مجلة المعلم الجديد العدد الخامس سنة ١٩٥٩ المجلد ٢٢ .

(٥٦) البلاغة عند السكاكي ــ الدكتور احمد مطلوب ــ الطبعةالاولى بغداد ١٣٨٤ هـ ــ ١٩٦٤ م .

(٥٧) البلاغة الغنية ــ علي الجندي ــ ١٣٧٥ هـ ــ ١٩٥٦ ــ القاهرة .

(٥٨) البلاغة الواضحة ــ علي الجارم ومصطفى امين ــ الطبعة العاشرة ١٣٧٠ هـ ــ ١٩٥١ م ــ القاهرة .

(٥٩) البلاغة وعلم النفس ــ امين الخولي ــ بحث نشر في مجلة كلية الآداب (جامعة القاهرة) مجلد ٤ ج٢ سنة ١٩٣٦ .

(٦٠) بيان اعجاز القرآن ــ ابو سليمان حمد بن محمد بن ابراهيم الخطابي ــ طبع ضمن كتاب ثلاث رسائل في اعجاز القرآن تحقيق الاستاذ محمد خلف الله احمد والدكتور محمد زغلول سلام ــ دار المعارف ــ القاهرة .

(٦١) البيان العربي ــ الدكتور بدوي طبانة ــ الطبعة الثانية ١٣٧٣ هـ ــ ١٩٥٨ ، والطبعة الثالثة ١٣٨١ هـ ١٩٦٢ ــ القاهرة .

(٦٢) البيان العربي من الجاحظ الى عبدالقاهر ــ الدكتور طه حسين ــ بحث نشر في مقدمة كتاب نقد النثر المنسوب الى قدامة بن جعفر .

(٦٣) البيان والتبيين ــ الجاحظ ــ طبعة محمد عبدالسلام هارون ــ القاهرة .

(٦٤) تاريخ ابن خلدون ــ دار الكتاب اللبناني ــ بيروت .

(٦٥) تاريخ آداب اللغة العربية ــ جرجي زيدان ــ تحقيق الدكتور شوقي ضيف ــ دار الهلال ــ القاهرة .

(٦٦) تاريخ الادب العربي في العراق ــ عباس العزاوي ــ طبعة المجمع العلمي العراقي ١٣٨١ هـ ــ ١٩٦١ م ــ بغداد .

(٦٧) تاريخ الاصلاح في الازهر وصفحات من الجهاد في الاصلاح ـ عبدالمتعال الصعيدي ـ الطبعة الاولى ١٣٦٢هـ ـ ١٩٤٣ ـ القاهرة .

(٦٨) تاريخ الامم والملوك ـ محمد بن جرير الطبري ـ ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٩ م ـ القاهرة .

(٦٩) تأريخ بغداد ـ الخطيب البغدادي ـ طبعة القاهرة .

(٧٠) تاريخ التربية الاسلامية ـ الدكتور احمد شلبي ـ الطبعة الثانية ١٩٦٠ القاهرة .

(٧١) تأريخ الحكماء ـ القفطي ـ طبعة القاهرة .

(٧٢) تاريخ الخلفاء ـ جلال الدين السيوطي ـ تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد ـ الطبعة الثانية ١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٩م ـ القاهرة .

(٧٣) تاريخ الدول الاسلامية ـ ابن طباطبا ـ ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦٠ دار صادر ـ بيروت .

(٧٤) تاريخ زين الدين عمر بن الوردي ـ المطبعة الوهبية ١٢٨٥ هـ ـ القاهرة .

(٧٥) تاريخ الشعوب الاسلامية ـ كارل بروكلمان ـ ترجمة امين فارس ومنير البعلبكي ـ الطبعة الثالثة ١٩٦١ ـ بيروت .

(٧٦) تاريخ العراق بين احتلالين ـ عباس العزاوي ـ الطبعة الاولى ـ بغداد ج١ سنة ١٣٥٣ هـ ١٩٣٥ م ، ج٢ سنة ١٣٥٤ هـ ـ ١٩٣٦ .

(٧٧) تاريخ علوم اللغة العربية ـ طه الراوي ـ الطبعة الاولى ١٣٦٩هـ ـ ١٩٤٩ ـ بغداد .

(٧٨) تأريخ علماء المستنصرية ـ ناجي معروف ـ الطبعة الاولى ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٥٩ ـ بغداد .

(٧٩) تأريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها ـ احمد مصطفى المراغي ـ

الطبعة الاولى ١٣٦٩ هـ ــ ١٩٥٠ ــ القاهرة .

(٨٠) تاريخ مختصر الدول ــ ابن العبري ١٣٠٨هـ ــ ١٨٩٠ ــ بيروت .

(٨١) تاريخ مصر (بدائع الزهور في وقائع الدهور) محمد بن احمد ابن اياس الحنفي ــ الطبعة الاولى ــ ببولاق ١٣١١هـ ــ القاهرة .

(٨٢) تاريخ الموصل ــ سليمان صائغ الموصلي ــ ج١ المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٢ هـ ــ ١٩٢٣م ج٢ المطبعة الكاثوليكية ببيروت سنة ١٩٢٨ م .

(٨٣) تأويل مشكل القرآن ــ ابن قتيبة ــ تحقيق السيد احمد صقر ــ القاهرة .

(٨٤) التبيان في علم البيان المطلع على اعجاز القرآن ــ ابن الزملكاني ــ تحقيق الدكتور احمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي ــ بغداد . ١٣٨٤ هـ ــ ١٩٦٤ م .

(٨٥) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان اعجاز القرآن ــ ابن ابي الاصبع المصري ــ تحقيق الدكتور حفني محمد شرف ــ القاهرة ١٣٨٣ هـ ــ ١٩٦٣ م .

(٨٦) تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار (رحلة ابن بطوطة) ١٣٥٨ هـ ــ ١٩٣٨ ــ القاهرة .

(٨٧) ترجمان البلاغة (باللغة الفارسية) محمد بن عمر الرادوياني ــ تحقيق احمد اتشي ١٩٤٩ م ــ استانبول .

(٨٨) التطور والتجديد في الشعر الاموي ــ الدكتور شوقي ضيف ــ ١٩٥٢ ــ القاهرة

(٨٩) التعليم في مصر في سنتي ١٩١٤ ، ١٩١٥ ــ امين سامي ــ القاهرة ١٩١٧ .

(٩٠) تقي الدين بن حجة الحموي ــ محمود رزق سليم ــ ١٩٦٢ ــ دار المعارف ــ القاهرة .

(٩١) تلخيص البيان في مجازات القرآن ــ الشريف الرضي ١٣٧٥ هـ ــ ١٩٥٥ بغداد .

(٩٢) التلخيص في علوم البلاغة ــ جلال الدين القزويني ــ تحقيق عبدالرحمن البرقوقي ــ الطبعة الثانية ١٣٥٠ هـ ــ ١٩٣٢ م القاهرة .

(٩٣) تهذيب الايضاح ــ هذبه ورتبه عزالدين التنوخي . مطبعة جامعة دمشق ــ ١٣٦٧ هـ ــ ١٩٤٨ م .

(٩٤) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ــ ضياء الدين ابن الاثير ــ تحقيق الدكتورين مصطفى جواد وجميل سعيد ــ مطبعة المجمع العلمي العراقي ــ ١٣٧٥ هـ ــ ١٩٥٦ م ــ بغداد .

(٩٥) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ــ احمد الهاشمي ــ الطبعة العاشرة ١٣٧٨ هـ ــ ١٩٦٠ ــ القاهرة .

(٩٦) جولة في دور الكتب الامريكية ــ كوركيس عواد ــ ١٩٥١ ــ بغداد

(٩٧) حازم القرطاجني ونظريات ارسطو في الشعر والبلاغة ــ الدكتور عبدالرحمن بدوي ــ ١٩٦١ ــ القاهرة .

(٩٨) حاشية الدسوقي على شرح السعد ــ طبع على حاشية كتاب شروح التلخيص ١٩٣٧ ــ القاهرة .

(٩٩) حاشية السيد الشريف على المطول ــ طبع على حاشية الشرح المطول على التلخيص ١٣٣٠ هـ ــ تركيا

(١٠٠) حدائق السحر في دقائق الشعر ــ رشيد الدين الوطواط ــ ترجمة الدكتور ابراهيم الشواربي ١٣٦٤ هـ ــ ١٩٤٥ م ــ القاهرة .

(١٠١) الحركة الفكرية في العصرين الايوبي والمملوكي الاول ــ الدكتور عبداللطيف حمزة ــ الطبعة الاولى ١٩٤٧ ــ القاهرة .

(١٠٢) حسن الصنيع في علم المعاني والبيان والبديع ــ محمد البسيوني البيباني ــ الطبعة الاولى ــ القاهرة .

(١٠٣) حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة ـ جلال الدين السيوطي ١٢٩٩ هـ ـ القاهرة .

(١٠٤) حسن التوسل الى صناعة الترسل ـ شهاب الدين محمود الحلبي ـ طبعة القاهرة .

(١٠٥) حل الاعتراضات التي اوردها صاحب الايضاح على المفتاح ـ يحيى بن احمد الكاشاني ـ مخطوطة دار الكتب بالقاهرة رقم ١٩٦ .

(١٠٦) الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ـ الدكتور احمد احمد بدوي ـ ١٩٥٤ ـ القاهرة .

(١٠٧) الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ـ الدكتور احمد احمد بدوي ـ مطبعة نهضة مصر ١٩٥٢ ـ القاهرة .

(١٠٨) حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها ـ الدكتور عبدالرحمن ياغي ـ الطبعة الاولى ١٩٦١ ـ دار الثقافة بيروت .

(١٠٩) الحيوان ـ الجاحظ ـ تحقيق محمد عبدالسلام هارون ـ القاهرة .

(١١٠) الحوادث الجامعة في المائة السابعة ـ المنسوب الى كمال الدين ابن الفوطي البغدادي ـ تحقيق الدكتور مصطفى جواد ١٣٥١ هـ ـ ١٩٣٢ ـ بغداد .

(١١١) خريدة القصر وجريدة العصر ـ العماد الاصفهاني الكاتب ـ تحقيق الدكتور شكري فيصل ـ ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٥ م ـ دمشق .

(١١٢) خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر) العماد الاصفهاني الكاتب ـ تحقيق الدكاترة احمد امين وشوقي ضيف واحسان عباس ـ القاهرة .

(١١٣) خزانة الادب وغاية الارب ـ تقي الدين ابو بكر المعروف بابن حجة الحموي ـ الطبعة الاولى ١٣٠٤ هـ ـ القاهرة .

(١١٤) الخصائص ـ ابو الفتح عثمان بن جني ـ تحقيق محمد علي النجار ـ دار الكتب بالقاهرة ١٣٧١ هـ ـ ١٩٥٢ م .

(١١٥) الخطابة ــ ارسطو ــ ترجمة الدكتور ابراهيم سلامة •

(١١٦) الخطط الجديدة التوفيقية لمصر القاهرة ــ علي باشا مبــارك ــ الطبعة الاولى ببولاق ١٣٠٦ هـ ــ القاهرة •

(١١٧) خطط الشام ــ محمد كرد علي ــ مطبعة الترقي ــ دمشق •

(١١٨) الخطط والآثار في مصر والقاهرة ــ تقي الدين المقريزي •

(١١٩) خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر ــ محمد المحبى ــ ١٢٨٤ هـ ــ القاهرة •

(١٢٠) خلاصة اليومية ــ عباس محمود العقاد ــ الطبعة الاولى ١٩١٢م القاهرة •

(١٢١) الخواطر الحسان في المعاني والبيان ــ جبر ضومط ــ ١٩٣٠ــ بيروت •

(١٢٢) دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة العربية والانكليزية) •

١ ــ مادة بديع مع تعليق عبدالوهاب حمودة عليها •
٢ ــ مادة التفتازاني ــ ستوري
٣ ــ مادة الجرجاني ــ بروكلمان •
٤ ــ مادة بلاغة ــ شاده وامين الخولي •
٥ ــ مادة السبكي ــ ايوار •
٦ ــ مادة السكاكي ــ كرنكوف •
٧ ــ مادة شام ــ لامانس •

(١٢٣) الدارس في تاريخ المدارس ــ عبدالقادر بن محمــــد النعيمي الدمشقي ــ تحقيق جعفر الحسني مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٣٦٧ هـ ــ ١٩٤٨ م •

(١٢٤) دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبدالقاهر في التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير ــ عبدالهادي العدل ١٣٦٩هـ ــ ١٩٥٠ ــ القاهرة

(١٢٥) دراسات في تاريخ المماليك البحرية في عصر الناصر محمد بوجه

خاص ــ الدكتور علي ابراهيم حسن ــ الطبعة الثانية ١٩٤٨ م ــ القاهرة .

(١٢٦) دراسات في الادب الاسلامي ــ الاستاذ محمد خلف الله احمد ــ ١٣٦٦ هـ ــ ١٩٤٧ ــ القاهرة .

(١٢٧) دراسات في نقد الادب العربي من الجاهلية الى نهاية القرن الثالث ــ الدكتور بدوي طبانة ــ الطبعة الثانية ١٣٧٣ هـ ــ ١٩٥٢ ــ القاهرة .

(١٢٨) الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة ــ ابن حجر العسقلاني ــ الطبعة الاولى ــ حيدر آباد ــ الدكن ١٣٥٠ هـ .

(١٢٩) دفاع عن البلاغة ــ احمد حسن الزيات ــ ١٩٤٥ ــ القاهرة

(١٣٠) دلائل الاعجاز ــ عبد القاهر الجرجاني ــ الطبعة الخامسة ١٣٧٢ هـ ــ القاهرة .

(١٣١) دلالة الالفاظ ــ الدكتور ابراهيم انيس ــ الطبعة الاولى ــ ١٩٥٨ ــ القاهرة .

(١٣٢) ديوان ابن نباتة المصري ــ الطبعة الاولى مطبعة التمدن في القاهرة . ١٣٢٣ هـ ــ ١٩٠٥ .

(١٣٣) ديوان البحتري ــ طبعة صادر ــ بيروت .

(١٣٤) ديوان جرير ــ تحقيق محمد الصاوي ــ القاهرة .

(١٣٥) دولة بني قلاوون في مصر ــ الدكتور محمد جمال الدين سرور ــ ١٣٦٦ هـ ــ ١٩٤٧ ــ القاهرة .

(١٣٦) رأي في البلاغة العربية ــ الدكتور احمد مطلوب ــ بحث نشر في مجلة الكتاب التي تصدرها جمعية المؤلفين والكتاب العراقيين العدد الاول سنة ١٩٦٢ .

(١٣٧) رحلة ابن جبير ــ تحقيق الدكتور حسين نصار ١٣٧٤ هـ ــ

١٩٥٥ ـــ القاهرة .

(١٣٨) الرسالة الحاتمية فيما وافق المتنبي في شعره كلام ارسطو في الحكمة ـــ ابو علي بن الحسن بن المظفر البغدادي . تحقيق فؤاد افرام البستاني ١٩٣١ م ـــ بيروت .

(١٣٩) رفع الاصر عن قضاة مصر ـــ احمد بن علي بن حجر العسقلاني ـــ تحقيق الدكتور حامد عبدالمجيد ومحمد المهدي ومحمد اسماعيل الصاوي ـــ ١٩٥٧ م ـــ القاهرة .

(١٤٠) روض الاذهان في علم المعاني والبيان ـــ بدرالدين بن مالك ـــ مخطوطة ليدن .

(١٤١) روضات الجنات في احوال العلماء والسادات ـــ الخوانساري ـــ طبعة ايران الحجرية .

(١٤٢) زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع ـــ احمد الحملاوي ـــ ١٣٧٩ هـ ـــ ١٩٥٩ م ـــ القاهرة .

(١٤٣) سجع المطوق ـــ ابن نباتة المصري ـــ مخطوطة دار الكتب بالقاهرة رقم ١٧٠ ادب .ومخطوطة الاوقاف ببغداد رقم ١٢٣٣١.

(١٤٤) سر الفصاحة ـــ ابن سنان الخفاجي ـــ تحقيق عبد المتعال الصعيدي ـــ ١٣٧٢ هـ ١٩٥٣ م ـــ القاهرة .

(١٤٥) سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر ـــ محمد خليل المرادي ـــ مطبعة بولاق ١٣٠١ هـ ـــ القاهرة .

(١٤٦) شذرات الذهب في اخبار من ذهب ـــ ابن العمادالحنبلي ١٣٥١هـ القاهرة .

(١٤٧) شرح ابن عقيل على ألفية بن مالك ـــ بهاءالدين عبدالله بن عقيل . تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد الطبعة السادسة ١٣٧٠ هـ ـــ ١٩٥١ ـــ القاهرة .

(١٤٨) شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان ــ جلال الدين السيوطي
القاهرة ــ ١٣٥٨ هـ ــ ١٩٣٩ م ٠

(١٤٩) شرح المفتاح ــ قطب الدين الشيرازي ــ مخطوطة مكتبة الاوقاف
العامة ببغداد رقمها ١٦٤٤ ٠

(١٥٠) شرح نهج البلاغة ــ ابن ابي الحديد ــ طبعة القاهرة ٠
(١٥١) شروح التلخيص ــ مطبعة عيسى البابي الحلبي ــ ١٩٣٧ ــ القاهرة ٠
(١٥٢) الشعر والشعراء ــ ابن قتيبة ــ طبعة ليدن ٠
(١٥٣) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث ــ مصطفى عبد اللطيف
السحرتي ١٩٤٨ ــ القاهرة ٠

(١٥٤) الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ــ احمد بن فارس
١٣٢٨ هـ ــ ١٩١٠ م ــ القاهرة ٠

(١٥٥) صبح الاعشى في صناعة الانشا ــ ابو العباس احمد القلقشندي ــ
دار الكتب بالقاهرة ١٣٤٠ هـ ــ ١٩٢٢ ٠

(١٥٦) الصورة الادبيـــة ــ الدكتور مصطفى ناصف ــ ١٣٧٨ هـ
١٩٥٨ م ــ القاهرة ٠

(١٥٧) ضياء الدين بن الاثير وجهوده في النقد ــ الدكتور محمد زغلول
سلام ــ القاهرة ٠

(١٥٨) الضوء اللامع ــ شمس الدين السخاوي ٠

(١٥٩) طبقات الشافعية الكبرى ــ تاج الدين ابو نصر عبد الوهاب بن
تقي السبكي ــ الطبعة الاولى ــ القاهرة ٠

(١٦٠) طراز الحلة وشفاء الغلة ٠ ابو جعفر احمد بن يوسف بن مالك
الرعيني الغرناطي ــ مخطوطة الاوقاف في بغداد (رقم ١٣١٤٢)
ومخطوطات دار الكتب في القاهرة (رقم ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٨٢
بلاغة) ٠

(١٦١) الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز ــ يحيى بن حمزة العلوي ــ مطبعة المقتطف ١٩١٤ــ القاهرة .

(١٦٢) عبدالقاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربيــة ــ الدكتور احمد احمد بدوي ــ ١٩٦٢ ــ القاهرة .

(١٦٣) عبدالقاهر والبلاغة العربية ــ محمد عبدالمنعم خفاجي ــ الطبعة الاولى ١٣٧١ هـ ــ ١٩٥٢ م ــ القاهرة .

(١٦٤) عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح ــ بهاءالدين السبكي ــ طبع مع شروح التلخيص ــ ١٩٣٧ ــ القاهرة .

(١٦٥) عصر سلاطين المماليك ونتــاجه العلمي والادبي ــ محمود رزق سليم ــ القاهرة .

(١٦٦) العقد الفريد ــ ابن عبد ربه ١٣٥٣ هـ ــ ١٩٣٥ ــ القاهرة .

(١٦٧) علم النفس الادبي ــ امين الخولي ــ بحث نشــر في مجلة علم النفس يونيو ١٩٤٢ ــ القاهرة .

(١٦٨) علوم البلاغة ــ احمد مصطفى المراغي ــ الطبعة الثالثة ــ القاهرة .

(١٦٩) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ــ ابن رشيق القيرواني ــ تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ــ الطبعة الثانية ١٣٧٤ هـ ــ ١٩٥٥ ــ القاهرة .

(١٧٠) عيار الشعر ــ محمد بن احمد بن طباطبــا العلوي ــ تحقيق الدكتورين طه الحاجري ومحمد زغلول سلام ــ ١٩٥٦ القاهرة .

(١٧١) فصول في النقد ــ محمد عبدالمنعم خفاجي ــ الطبعــة الاولى ١٩٥٣ ــ القاهرة .

(١٧٢) الفلك الدائر على المثل السائر ــ ابن ابي الحديد ــ طبعة بيروت .

(١٧٣) فن الاسجاع ــ علي الجندي ــ دار الفكر العربي ــ القاهرة .

(١٧٤) فن التشبيه ــ علي الجندي ــ الطبعة الاولى ١٩٥٢ ــ القاهرة .

(١٧٥) فن الجناس ــ علي الجندي ــ ١٩٥٤ ــ القاهرة •
(١٧٦) فن الشعر ــ ارسطو ــ ترجمة الدكتور عبــدالرحمن بدوي ــ ١٩٦٣ ــ القاهرة •
(١٧٧) فن القول ــ امين الخولي ١٣٦٦ هـ ــ ١٩٤٧ ــ القاهرة •
(١٧٨) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ــ الدكتور شــــوقي ضيف ــ الطبعة الثالثة ١٩٥٦ ــ بيروت •
(١٧٩) الفن ومذاهبه في النثر العربي ــ الدكتور شوقي ضيف ــ الطبعة الثانية ١٩٥٦ ــ بيروت •
(١٨٠) فهارس دار الكتب بالقاهرة •
(١٨١) فهرست ابن النديم ــ مطبعة الاستقامة ــ القاهرة •
(١٨٢) فهرس الخزانة التيمورية بالقاهرة •
(١٨٣) فهرست كتب كتابخانة مباركة استان قدسي رضوي •
(١٨٤) فهرس المخطوطات المصورة في جامعة الدول العربية بالقاهرة •
(١٨٥) فهرس مكتبة البلدية بالاسكندرية •
(١٨٦) فوات الوفيات ــ محمد بن شاكر بن احمد الكتبي ــ تحقيــق محمد محيى الدين عبدالحميد ــ ١٩٥١ ــ القاهرة •
(١٨٧) الفوائد البهية في تراجم الحنفية ــ محمد بن عبدالحي اللكنوي الهندي ــ الطبعة الاولى ١٣٢٤ هـ ــ القاهرة •
(١٨٨) في تاريخ النقد والمذاهب الادبية ــ الدكتور طــه الحاجري ــ ١٣٧٢ هـ ــ ١٩٥٣ م ــ الاسكندرية •
(١٨٩) في الميزان الجديد ــ الدكتور محمد مندور ــ الطبعة الثانية ــ القاهرة •
(١٩٠) في النقد الادبي ــ الدكتور شوقي ضيف ١٩٦٢ ــ القاهرة
(١٩١) قدامة بن جعفر والنقد الادبي ــ الدكتور بدوي طبانة ــ الطبعة الثانية ــ ١٣٧٨ هـ ــ ١٩٥٨ ــ القاهرة •

(١٩٢) قراضة الذهب في نقداشعار العرب ــ ابن رشــيق القيرواني ــ الطبعة الاولى ١٣٤٤ هـ ١٩٢٦ م ــ القاهرة •

(١٩٣) قضايا الشعر المعاصر ــ نازك الملائكة ــ ١٩٦٢ ــ بيروت •

(١٩٤) قواعد الشعر ــ ثعلب ــ تحقيق محمــد عبــدالمنعم خفاجي ــ ١٣٦٧ هـ ــ ١٩٤٨ ــ القاهرة •

(١٩٥) قواعد اللغة العربية ــ حفني ناصف وجماعته ــ الطبعة العاشرة المطبعة الاميرية ١٣٤٤ هـ ــ ١٩٢٥ م ــ القاهرة •

(١٩٦) قواعد النقد الادبي ــ آسل ابر كرومبي ــ ترجمــة الدكتور محمد عوض محمد ١٩٥٤ ــ القاهرة •

(١٩٧) الكامل في التاريخ ــ ابن الاثير ــ طبعة القاهرة •

(١٩٨) الكامل في اللغة والادب ــ المبرد ــ طبعة الدكتور زكي مبارك ــ القاهرة •

(١٩٩) كتاب الايمان ــ تقي الدين ابو العباس احمد بن تيمية ــ الطبعة الاولى ١٣٢٥ هـ ــ القاهرة •

(٢٠٠) كتاب التشبيهات ــ ابن ابي عون ــ تحقيق محمد عبد المعين خان ، كمبردج ١٣٦٩ هـ ــ ١٩٥٠م •

(٢٠١) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ــ تقي الدين احمد بن علي المقريزي ــ نشره الدكتور محمد مصطفى زيادة ١٩٤٢ ــ القاهرة •

(٢٠٢) كتاب سيبويه ــ مطبعة بولاق ــ القاهرة •

(٢٠٣) كتاب الصناعتين ــ ابو هلال العسكري ــ تحقيق محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل ابراهيم ــ الطبعة الاولى ١٣٧١هـ ــ ١٩٥٢ ــ القاهرة •

(٢٠٤) كتاب الفوائد المشوق الى علوم القرآن وعلم البيــان ــ ابن قيم الجوزية الحنبلي ــ الطبعة الاولى ١٣٢٧ هـ ــ القاهرة •

(٢٠٥) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل ـ محمود بن عمر الزمخشري ـ الطبعة الثانية ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٣ ـ القاهرة •

(٢٠٦) الكشاف عن مخطوطات خزائن الاوقاف ـ الدكتور محمداسعد طلس ـ ١٣٧٢ هـ ـ ١٩٥٣ ـ بغداد

(٢٠٧) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ـ مصطفى بن عبدالله الشهير بحاجي خليفة ـ ١٣٦٠ هـ ـ ١٩٤١ ـ تركيا •

(٢٠٨) كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام ـ ابن حجة الحموي المطبعة الانسية ١٣١٣ هـ ـ بيروت •

(٢٠٩) الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ـ نجم‌الدين الغزي ـ تحقيق جبرائيل سليمان جبور ـ ١٩٤٥ ـ بيروت •

(٢١٠) لسان العرب ـ ابن منظور •

(٢١١) المبسط في علوم البلاغة ـ محمد طاهر اللاذقي • الطبعة الاولى ١٩٦٢ ـ بيروت •

(٢١٢) المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر ـ ضياءالدين بن الاثير • تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد ـ ١٣٥٨ هـ ١٩٣٩ القاهرة •

(٢١٣) مجاز القرآن ـ ابو عبيدة معمر بن المثنى ـ تحقيق الدكتور محمد فؤاد سزكين ـ الطبعة الاولى ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥ القاهرة •

(٢١٤) المجازات النبوية ـ الشريف الرضي ـ تحقيق محمود مصطفى ـ ١٣٥٦ هـ ١٩٣٧ ـ القاهرة •

(٢١٥) مجلة المشرق السنة ١٦ العدد ٧ تموز ١٩١٣ •

(٢١٦) محاضرات في النقد الادبي ـ الدكتورة سهير القلماوي ـ الطبعة الاولى ١٩٥٥ ـ القاهرة •

(٢١٧) المختصر على شرح التلخيص ـ سعدالدين التفتازاني ـ مطبوع

مع شروح التلخيص ١٩٣٧ ــ القاهرة .

(٢١٨) المختصر في اخبار البشر ــ عماد الدين اسماعيل ابو الفدا ــ ١٣٢٥ هـ ــ القاهرة ــ وعليه تذييل تاريخ ابن الوردي .

(٢١٩) مخطوطات الموصل ــ الدكتور داود الجلبي الموصلي ــ ١٣٤٦هـ ١٩٢٧ ــ القاهرة .

(٢٢٠) المدخل الى النقد الادبي الحديث ــ الدكتور محمد غنيمي هلال ١٩٥٨ ــ القاهرة .

(٢٢١) المذاهب النقدية ــ الدكتور ماهر حسن فهمي ــ ١٩٦٢ ــ القاهرة .

(٢٢٢) مرآة الجنان وعبرة اليقظان ــ عفيف الدين اليافعي اليمني ــ الطبعة الاولى بحيدر آباد الدكن ١٣٣٩ هـ .

(٢٢٣) المزهر في علوم اللغة وانواعها ــ جلال الدين السيوطي ــ الطبعة الثالثة ــ القاهرة .

(٢٢٤) مسالك الخلاص في مهالك الخواص ــ الطاشكبري ــ مخطوطة دار الكتب بالقاهرة رقم ٣٠٨ .

(٢٢٥) المستدرك على الكشاف عن مخطوطات خزائن كتب الاوقاف ــ عبدالله الجبوري ــ الطبعة الاولى ١٣٨٥ هـ ــ ١٩٦٥م ــ بغداد .

(٢٢٦) المسوغات العقلية للبلاغة ــ انيس المقدسي ــ بحث نشر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد ٣٠ سنة ١٩٥٥ م .

(٢٢٧) مشكلة السرقات في النقد العربي ــ محمد مصطفى هدارة ــ الطبعة الاولى ١٩٥٨ ــ القاهرة .

(٢٢٨) المصباح في علم المعاني والبيان والبديع ــ بدرالدين بن مالك ــ الطبعة الاولى ١٣٤١ هـ ــ القاهرة .

(٢٢٩) مصر في تاريخ البلاغة ــ امين الخولي ــ بحث نشر في مجلة كلية

الآداب بجامعة القاهرة المجلد الثاني ج١ مايو ١٩٣٢ .

(٢٣٠) مصر في العصور الوسطى ــ الدكتور علي ابراهيم حسن . الطبعة الرابعة ١٩٥٤ ــ القاهرة .

(٢٣١) المطول على التلخيص ــ سعدالدين التفتازاني ــ ١٣٧٠هـ ــ تركيا .

(٢٣٢) معالم الكتابة ومغانم الاصابة ــ عبدالرحيم بن علي بن شيث القرشي . تحقيق الخوري قسطنطين الباشا المخلصي ١٩١٣ ــ بيروت .

(٢٣٣) معاني القرآن ــ الفراء ــ تحقيق محمد علي النجار واحمديوسف نجاتي ــ طبعة دار الكتب بالقاهرة ــ ١٣٧٤ هـ ــ ١٩٥٥ م

(٢٣٤) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص . عبدالرحيم بن احمد العباسي ــ تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ١٣٦٧هـ ــ ١٩٤٧ م القاهرة .

(٢٣٥) معجم البلدان ــ ياقوت الحموي ــ الطبعة الاولى ١٣٢٤ هـ ــ ١٩٠٦ م ــ القاهرة .

(٢٣٦) معجم المطبوعات العربية والمعربة ــ يوسف اليان سركيس ــ ١٣٤٦ هـ ــ ١٩٢٨ ــ القاهرة .

(٢٣٧) معجم المؤلفين ــ عمر رضا كحالة ــ ١٣٨٠هـ ــ ١٩٦٠ ــ دمشق .

(٢٣٨) المعيار في نقد الاشعار ــ محمد بن احمد الاندلسي ــ مخطوطة دار الكتب بالقاهرة رقم ٦١١٤ .

(٢٣٩) المغني في أبواب التوحيد والعدل ــ القاضي أبوالحسن عبدالجبار الاسد آبادي . تحقيق امين الخولي . القاهرة ١٣٨٠ هـ ــ ١٩٦٠م .

(٢٤٠) مفتاح السعادة ومصباح السيادة ــ احمد مصطفى المعروف بطاش كبرى زاده ــ الطبعة الاولى بحيدر اباد .

(٢٤١) مفتاح العلوم ــ السكاكي ــ الطبعة الاولى ١٣٥٦ ــ ١٩٣٧ ــ القاهرة .

(٢٤٢) مفتاح العلوم ـــ السكاكي ـــ الطبعة الاولى ـــ القاهرة ١٣١٧هـ •

(٢٤٣) المقابسات ابو حيان التوحيدي ـــ تحقيق حسن السندوبي ـــ الطبعة الاولى ـــ ١٣٤٧ هـ ـــ ١٩٢٩ ـــ القاهرة •

(٢٤٤) مقدمة ابن خلدون ـــ دار الكشاف بيروت •

(٢٤٥) مقدمة في تاريخ البلاغة العربية ـــ محمد بن تاويت • وهي مقدمة كتاب دلائل الاعجاز لعبدالقاهر الجرجاني طبعة المغرب •

(٢٤٦) مقدمة لدرس لغة العرب ـــ عبدالله العلايلي • المطبعة العصرية ـــ القاهرة •

(٢٤٧) من بلاغة القرآن ـــ الدكتور احمد احمد بدوي ـــ الطبعة الثانية ـــ القاهرة •

(٢٤٨) من الوجهة النفسية في دراسة الادب ونقده ـــ الاستاذ محمد خلف الله ١٣٦٩ هـ ١٩٤٧ ـــ القاهرة •

(٢٤٩) مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والادب ـــ امين الخولي ١٩٦١ ـــ القاهرة •

(٢٥٠) مستقبل الثقافة في مصر • الدكتور طه حسين • دار المعارف في القاهرة ١٩٤٤ •

(٢٥١) منطق ارسطو ـــ تحقيق الدكتور عبدالرحمن بدوي ـــ دار الكتب بالقاهرة ١٩٤٨ •

(٢٥٢) منهاج البلغاء وسراج الادباء ، حازم القرطاجني ـــ مخطوطة دار الكتب ـــ القاهرة • وقد طبع في تونس عام ١٩٦٦ بتحقيق الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة •

(٢٥٣) منهج السكاكي في البلاغة ـــ الدكتور احمد مطلوب ـــ بحث نشر في مجلة المجمع العلمي العراقي ١٩٦٣ •

(٢٥٤) المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ـ جمال الدين ابو المحاسن يوسف بن تغري بردى الاتابكي .
١ـ مخطوطة دار الكتب ـ القاهرة .
٢ـ طبعة احمد يوسف نجاتي ـ ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦ ـ القاهرة .

(٢٥٥) الموازنة بين الطائيين ـ ابو القاسم الحسن بن بشر الآمدي ـ تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد ـ الطبعة الثانية ـ ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤ ـ القاهرة .

(٢٥٦) مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح ـ ابن يعقوب المغربي ـ مطبوع في شروح التلخيص ١٩٣٧ ـ القاهرة .

(٢٥٧) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ جمال الدين يوسف بن تغري بردى الاتابكي ـ ١٣٦١ هـ ـ ١٩٤٢ م ـ القاهرة .

(٢٥٨) نحو التيسير ـ الدكتور احمد عبدالستار الجواري ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٢ ـ بغداد .

(٢٥٩) نزهة الالباء في طبقات الادباء ـ ابن الانباري ـ تحقيق الدكتور ابراهيم السامرائي ـ ١٩٥٩ م ـ بغداد .

(٢٦٠) نظرية عبدالقاهر في النظم ـ الدكتور درويش الجندي ـ ١٩٦٠ ـ القاهرة .

(٢٦١) نظرة في قواعد علوم العربية وآدابها ـ ادور مرقص .
بحث نشر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد التاسع سنة ١٩٢٩ .

(٢٦٢) نشأة النقد الادبي الحديث في مصر ـ عزالدين الامين ـ ١٣٨١هـ ١٩٦٢ م ـ القاهرة .

(٢٦٣) النظم في دلائل الاعجاز ـ الدكتور مصطفى ناصف ـ بحث نشر في مجلة كلية الآداب بجامعة عين شمس المجلد الثالث يناير ١٩٥٥ .

(٢٦٤) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب ــ احمد بن محمد المقري ــ تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ١٣٣٩ هـ ــ ١٩٤٩ ــ القاهرة •

(٢٦٥) النقاية (متن اتمام الدراية) ــ جلال الدين السيوطي ــ مطبوع على حاشية مفتاح العلوم للسكاكي الطبعة الاولى ١٣١٧ هـ ــ القاهرة •

(٢٦٦) النقد ــ الدكتور شوقي ضيف ــ دار المعارف ١٩٥٤ ــ القاهرة

(٢٦٧) النقد الادبي ــ احمد امين ــ الطبعة الثانية ١٣٧٦ هـ ١٩٥٧ ــ القاهرة •

(٢٦٨) النقد الادبي من خلال تجاربي ــ مصطفى عبداللطيف السحرتي ١٩٦٢ ــ القاهرة •

(٢٦٩) النقد الادبي ومدارسه الحديثة ــ ستانلي هايمان ــ ترجمة الدكتورين احسان عباس ومحمد يوسف نجم ــ ١٩٥٨ ــ بيروت •

(٢٧٠) النقد الادبي ومصادره ــ عباس العزاوي ــ بحث نشر في مجلة المجمع العلمي العراقي بالمجلد السابع ١٣٧٩ هـ ــ ١٩٦٠ م

(٢٧١) نقد الشعر ــ قدامة بن جعفر ــ تحقيق س• أ ــ بونيباكر ١٩٥٦ ــ بويل ليدن •

(٢٧٢) نقد النثر المنسوب الى قدامة بن جعفر ــ تحقيق الدكتور طه حسين وعبدالحميد العبادي ١٩٣٨ ــ القاهرة •

(٢٧٣) النقد المنهجي عند العرب ــ الدكتور محمد مندور ــ الطبعة الثانية ــ القاهرة •

(٢٧٤) النكت في اعجاز القرآن ــ ابو الحسن علي بن عيسى الرماني • طبعت ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ــ تحقيق الاستاذ محمد خلف الله احمد ــ ومحمد زغلول سلام ــ دار المعارف ــ القاهرة •

(٢٧٥) نكت الهميان في نكت العميان • الصفدي ـ القاهرة •

(٢٧٦) نهاية الارب في فنون الادب ـ شهاب الدين النويري ـ دار الكتب ـ القاهرة •

(٢٧٧) نهاية الايجاز في دراية الاعجاز ـ فخر الدين الرازي ـ ١٣١٧هـ القـاهرة •

(٢٧٨) هدية العارفين ـ اسماعيل البغدادي ـ ١٩٥٥ ـ استانبول •

(٢٧٩) الوافي بالوفيات ـ صلاح الدين خليل بن ايبـك الصفدي ـ ١٩٥٣ ـ دمشق •

(٢٨٠) الوساطة بين المتنبي وخصومه ـ القاضي علي بن عبـدالعزيز الجرجاني ـ الطبعة الثالثة ـ القاهرة •

(٢٨١) الوسيلة الادبية الى العلوم العربية ـ حسين المرصفي ج١ الطبعة الثانية ١٣٤٢هـ ـ ١٩٢٤م ـ **القاهرة•ج٢ الطبعةالاولى١٣٤٤ هـ** ١٩٢٦ م ـ القاهرة •

(٢٨٢) وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ـ ابن خلكان ـ تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد ـ الطبعة الاولى بالقـاهرة ١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٨ م •

الفهارس

الموضوعات

تمهيـد

٢٧ ـ ٩٣

الباب الاول

القزويني وآثاره

٩٥ ـ ٢٤٦

الباب الثاني

بلاغة القزويني

٢٤٧ ـ ٤٩٩

الباب الثالث

شروح التلخيص

٥٠١ ـ ٦٨٢

القوافي

الهمــزة

الراء

الاعـــلام

الهمزة

الباء

التاء

الثاء

الجيم

الحاء

الخاء

الدال

الذال

الراء

الـزاي

السين

الشين

الصاد

الطاء

العين

الغين

الفاء

القاف

الكاف

اللام

الميم

الـــكتب

الهمزة

البـــاء

التاء

الجيم

الحاء

الخاء

الدال

الراء

الزاي

السين

الشين

الصاد

الضاد

الطاء

العين

الغين

الفاء

القاف

الكاف

اللام

الميم

الامـاكن

السين

الشين

الصاد

الطاء

الظاء

العين

الغين

الفاء

القاف

الكاف

اللام

الميم

النون

الهـــاء

الواو

اليـــاء

المؤلف

١ ــ ولد يوم الأحد ٢٥ تشرين الاول ١٩٣٦م الموافق١٠شعبان ١٣٥٥هـ بتكريت ، واكمل دراسته الابتدائيــة فيها سنة ١٩٤٧ ، ودرس الثانوية في كربلاء وبغداد وتخرج في ثانوية الكرخ ســنة ١٩٥٢ والتحق بكلية الآداب (قسم اللغة العربية) وتخرج فيها بدرجــة امتياز خاصة سنة ١٩٥٦ . وحصل على الماجستير بدرجة جيد جدا سنة ١٩٦١ وعلى الدكتوراه بمرتبة الشرف الاولى في ١٤ تموز ١٩٦٣ من كلية الآداب بجامعة القاهرة .

٢ ــ اعتقل في معتقل السعدية ابان العدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦ ، ثم عين مدرسا في ثانوية كركوك فاعدادية التجارة ببغداد ، واعيد معيدا في كلية الآداب بعد ثورة تموز ١٩٥٨ . ثم رقي الى مدرس في اول حزيران ١٩٦١ ، والى استاذ مساعد في اول حزيران ١٩٦٥ . وعين رئيسا لقسم الصحافة في كلية الآداب سنة ١٩٦٦ .

٣ ــ عين في سنة ١٩٦٤ مديرا عاما للصحافة والارشاد في وزارة الثقافة والارشاد ، فمديرا عاما للثقافة . واصبح عضوا في اللجنةالتنفيذية العليــا للاتحاد الاشــتراكي العربي ، فعضوا في مجلس ادارة المؤسسة الثقافية العمالية .

٤ ــ مثل العراق في مؤتمر التضامن الاسيوي الافريقي في غانا (أكرا) سنة ١٩٦٥ . وشارك في اللجنة التحضيرية لمؤتمر الادباء العرب الخامس الذي انعقد في بغداد سنة ١٩٦٥ ، وكان احــد اعضاء الوفد العراقي فيه .

٥ ــ عضو في جمعية المؤلفين والكتاب العراقيين،وفي لجان ثقافية كثيرة.

٦ ــ وضع أكثر من عشرين كتابا بين دراسة وتحقيق وكتب مدرسية .

٧ ــ استوزر للثقافة والارشاد في ١٠ مايس ١٩٦٧ لاول مرة في الوزارة التي شكلها الفريق عبدالرحمن محمد عارف برياسته .

للمؤلف

أولا ــ دراسات :

١ ــ البلاغة عند السكاكي • **بغداد ١٩٦٤** •
٢ ــ القزويني وشروح التلخيص • **بغداد ١٩٦٧** •
٣ ــ عبدالقاهر الناقد •
٤ ــ فن التشبيه في القرآن الكريم •
٥ ــ ابن الاثير ومقاييسه البلاغية والنقدية •

ثانيا ــ تحقيق :

٦ ــ ديوان القطامي (بالاشتراك) • **بيروت ١٩٦٠** •
٧ ــ شعر عروة بن حزام (بالاشتراك) • **بغداد ١٩٦١** •
٨ ــ ديوان قيس بن الخطيم (بالاشتراك) • **بغداد ١٩٦٢**
٩ ــ التمام في تفسير أشعار هذيل مما أغفله ابو سعيد السكري لابن جني (بالاشتراك) **بغداد ١٩٦٢** •
١٠ ــ فوح الشذا بمسألة كذا لابن هشام • **بغداد ١٩٦٣** •
١١ ــ التبيان في علم البيـــان المطلع على اعجاز القرآن لابن الزملكاني (بالاشتراك) **بغداد ١٩٦٤** •
١٢ ــ البخلاء للخطيب البغدادي (بالاشتراك) **بغداد ١٩٦٤** •
١٣ ــ ديوان ديك الجن (بالاشتراك) **بيروت ١٩٦٦** •

١٤ ـ من شعر أبي حيان الاندلسي (بالاشتراك) بغداد ١٩٦٦ .

١٥ ـ البرهان في وجوه البيان لابن وهب (بالاشتراك) بغداد ١٩٦٧ .

١٦ ـ الجمان في تشبيهات القرآن لابن ناقيا البغدادي (بالاشتراك) ـ تحت الطبع ـ .

١٧ ـ ديوان أبي حيان الاندلسي (بالاشتراك) ـ تحت الطبع ـ .

ثالثا ـ كتب مدرسية :

١٨ ـ النصوص الادبية للصفوف الرابعة التجارية (بالاشتراك) . بغداد ١٩٥٧ .

١٩ ـ قواعد اللغة العربية للصفوف الرابعة التجارية (بالاشتراك) بغداد ١٩٥٧ .

٢٠ ـ قواعد اللغة العربية للصفوف الخامسة التجارية (بالاشتراك) بغداد ١٩٥٨ .

٢١ ـ لغتي للصفوف الخامسة الابتدائية (بالاشتراك) بغداد ١٩٥٩ (طبع عدة مرات) .

٢٢ ـ لغتي للصفوف السادسة الابتدائية (بالاشتراك) بغداد ١٩٥٩ (طبع عدة مرات) .

الخطأ والصواب

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
طرق	طوق	١١	١٣
التعريف	التفريق	٤٢	٤
وكأن المنتظم للخيالات	وكان المنتظم الخيالات	٤٨	١٢
انه	إن	٤٩	٣
لا يرون	يرون	٧٣	٢
ايجـاز	الايجاز	٧٦	١٥
الموارِدة	الموارِبة	٨٠	٩
على انه	بانه	١١٠	١٠
ابن الاردي	ابن الوردي	١٣٤	هامش(٤)
السحر	السمر	١٥١	١٠
أما الثاني	أما الثالث	١٦٠	١٨
مطلوب بها	المطلوب بها	١٦٧	٣
ملابَس	ملابِس	١٦٨	١٢
منهوري	الدمنهوري	١٨١	٣
كتابه	كتابيه	١٩١	٩
البقرة	المنافقون	٢٠٣	هامش(٢)
صرف	حرف	٢١٥	١

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
فقط	قط	٢٢٠	١٢
لطول القامة	لطويل القامة	٢٢٦	٦
عن	في	٢٣٠	٤
على قوله	على ان قوله	٢٣٠	١٧
باحداهما	بأحدهما	٢٣١	٢
واستعمالهله بهذا المعنى في الشر استعارة اذ اصله يستعمل في الخبر	واستعماله بهذا المعنى في الشر استعارة اذ اصله ان يستعمل	٢٣٣	١٦ ، ١٧
الرحمة	الرحمان	٢٣٣	٢١
التفاوت	التفات	٢٣٦	٥
والتعبير	والتعيير	٢٣٧	١٩
فاصلة	فأصله	٢٤٠	٩
وتعلق	وتعلقه	٢٤١	٢
الى	في	٢٤٢	٢١
لسنة	ألسنة	٢٥٤	٤
انصارهَ	انصارَهُ	٢٥٦	١٧
ضوءه	ضوؤه	٢٦٥	٥
انها	ان	٢٦٦	٧
تسرد	ترد	٢٩٠	١
قرينه	قرينة	٣٠٠	٦
كبيير	كبير	٣٠٤	٢
ألتَّم	ألتَمَّ	٣٠٤	٣
يتنففا	يتفقا	٣١١	٥
ولتكرار	والتكرار	٣١٧	١٣
بالقبض	بالقابض	٣٤٣	٢١

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
باسجعِ	باسجح	٣٥٩	٩
راضية	راضيةٍ	٣٦٩	١٨
وتسميته	وتسمية	٣٧٣	٧
شمس	نفس	٣٨٣	٣
أنصارهَ	أنصارهُ	٣٨٧	١٩
دَوَي	ذَوَي	٤٠٤	١
اختلفنا	اختلفا	٤٣٨	١٥
بالتجنس	بالتجنيس	٤٤٣	١٥
اسلم	سلم	٤٦١	١
يكمن	يمكن	٤٦٥	٣
نسبيا	نسيبا	٤٦٦	٦
خلوتِ	خلوتُ	٤٧٩	٥
إنْ	أنْ	٤٨٠	٦
السبكي	السكاكي	٥٢٦	٢٠
جمادي	جمادى	٥٢٩	١١
بغيرهما	بغيرها	٥٣٣	٢٣
منها	منهما	٥٤١	١٠
مفردات	مفردان	٥٤٥	١٧
لا	لان	٥٤٨	١٥
« ان متابعا »	« ان » متابعا	٥٥٥	١
الطللب	الطلب	٥٥٨	٧
يزيد	بزيدكم	٥٥٩	١٣
وأشار	أشار	٥٦٧	٤
موجودة	موجود	٥٩٥	١٠
وباقية	وباقيه	٦٢١	٢٥

الخطـأ	الصواب	الصفحة	السطر
تلتمس	نلتمس	٦٣١	٦
تشرقَ	تشرقُ	٦٥٤	١٩
الهيولي	الهيولى	٦٦٠	٥
بن	ابن	٦٦٧	٢٢
والمنتبع	والمتتبع	٦٦٧	٢٢
سمي	سمى	٦٦٩	٢
دلاله	دلالة	٦٧٠	٣
المبـدد	المبددة	٦٧١	٥
وتنتقي	وتنتقى	٦٧١	٥
ولشام	والشام	٦٨٤	٧

